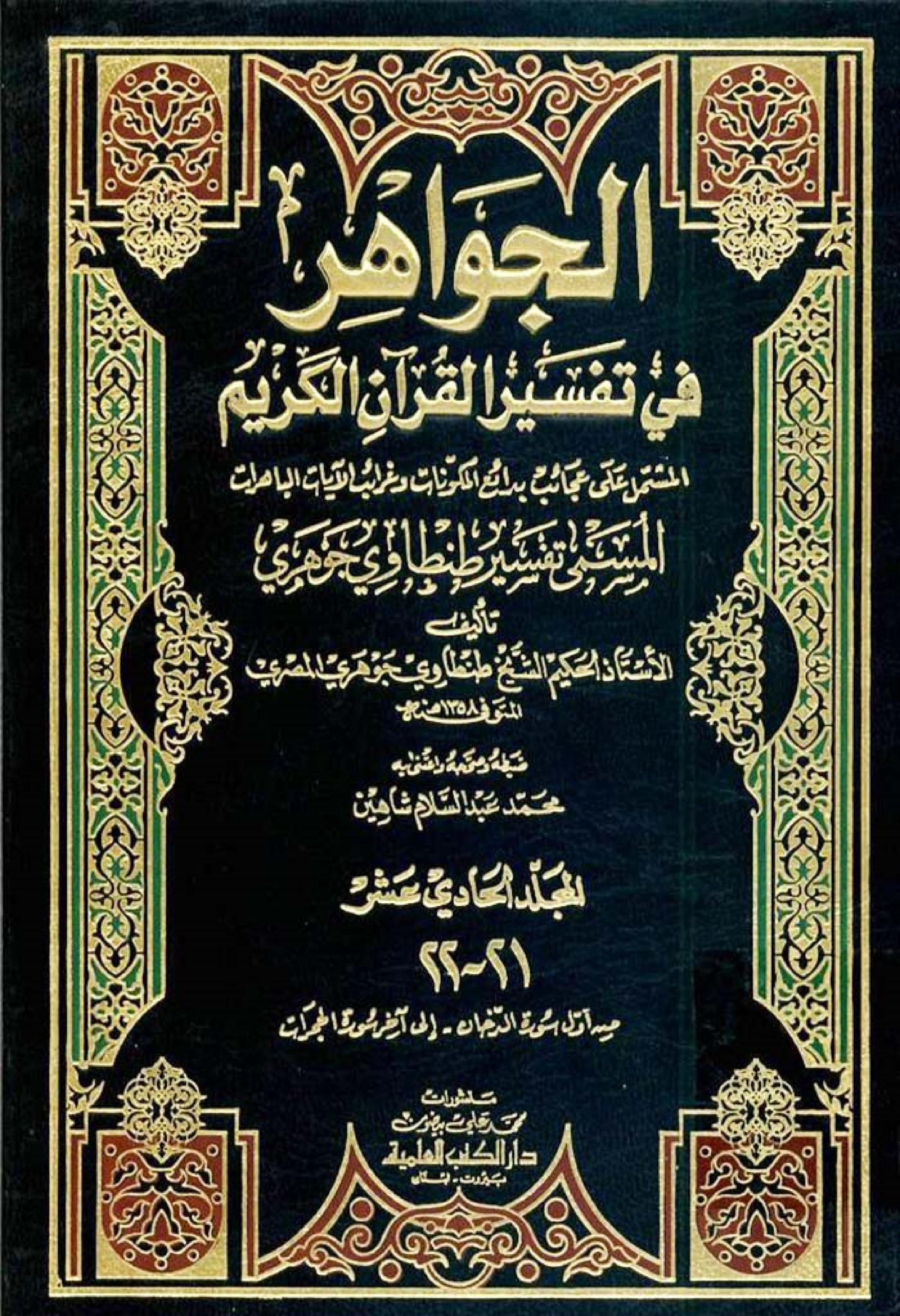

الجواهر
في تفسير القرآن الكريم
المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات
المسمى تفسير طنطاوي جوهري
تأليف
الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري
المتوفى ١٣٥٨ هـ
ضبطه وصححه واعتنى به
محمد عبد السلام شاهين
المجلد الحادي عشر
٢١-٢٢
من أول سورة الدخان - إلى آخر سورة الحجرات
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الجواهر

في

تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري

المتوفى ١٣٥٨ هـ

ضبطه وصححه واعتنى به

محمد عبد السلام شاهين

٢١-٢٢

المحتوى:

من أول سورة الدخان - إلى آخر سورة الحجرات

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾
[ق: ٣٧]

تفسير سورة الدخان
هي مكية، آياتها ٥٩
نزلت بعد الزخرف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ (١) وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ (٢) إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٦) رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٧) لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ (٨) بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (٩) فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ (١٠) يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١) رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ (١٤) إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ (١٦) ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ (٢٠) وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِي فَٱعْتَزِلُونِ (٢١) فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ (٢٢) فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٢٣) وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ (٢٧) كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ (٢٩) وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ (٣٠) مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ (٣١) وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (٣٢) وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ (٣٣)

إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (٣٥) فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣٦) أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ (٣٧) وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩) إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤١) إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٤٢) إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ (٤٤) كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ (٥٠) إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ (٥٣) كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ (٥٥) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٥٧) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ (٥٩) ﴾

هذه السورة قسمان:

القسم الأول: في تفسير البسملة.

القسم الثاني: في تفسير السورة كلها.

القسم الأول: في تفسير البسملة

حضر اليوم الثلاثاء (٩) من شهر ديسمبر سنة ١٩٣٠ صديقي العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير فقال: لم يبق في البسملة معنى إلا ظهر في السور السابقة. فقلت: إن المعاني التي خطرت في هذه البسملة أجلّ قدراً، وأوسع مدى، وأعظم ذخراً، وإني قبل أن أذاكرك فيها أسألك في مقدمتها وهو ما تقدم من آراء الحكماء شرقاً وغرباً في آية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[فصلت: ٣٠]، فإن كنت ذاكراً لما تقدم هناك فلخصه الآن. فقال: نعم.

إن «بارتملي سانتهلير» ـ الذي ترجم علم الأخلاق لـ«نيقوماخوس» تأليف «أرسطاطاليس» من اليونانية إلى الفرنسية، وصدّره بمقدمة هامة في علم الأخلاق ونقل أخيراً إلى اللغة العربية ـ قد رتب علماء الأخلاق، فجعل أرسطاطاليس الثالث وأفلاطون الأول والأستاذ كانت الألماني الثاني، وإنما دعاه إلى ذلك ما رآه كل من هؤلاء في تأسيس علم الأخلاق وبنيان قواعده، وهل قواعده التامة وأساسه إلا أدلة إثبات صانع العالم، أفلاطون أثبت أن لهذه العوالم ذاتاً قدسية، منها صدرت العوالم

المعنوية والمثل التي سماها الناس أفلاطونية ، وهذه المثل هي الينابيع والأصول التي على نهجها وبواسطتها صدر هذا العالم المشاهد ، كما أن الحوادث على الأرض والمواليد حدثت بآثار الشمس ، فهنا عالم محسوس من آثار الشمس بفعل الله تعالى ، وهي القائمة بهداية الحيوان منه إلى السبل في الأرض ، وهناك عالم عقلي ثابت بثبات تلك الذات المقدّسة ، ونسبة عيوننا إلى ضوء الشمس إذ ترى آثارها كنسبة عقولنا إلى الهداية الواصلة من تلك الذات القدسية ، لندرك آثارها الدائمة والحقائق الثابتة ، كالجمال والعدل والصدق والشرف وكل ما هو بهيّ عجيب منزه عن المادة .

هذا ملخص آراء أفلاطون ، ولقد تعقبه أرسطاطاليس بأن المعاني الكلية التي سميت مُثُلاً لا وجود لها إلا في أذهاننا ، والذي في أذهاننا ناجم مما رأيناه في المادة والصورة ، وما في المادة والصورة من المعاني تجعله عقولنا كليات كالإنسان والحيوان والجماد والحجر والشجر وهكذا ، فهذه أمور تصورتها عقولنا لا أمور لها وجود في أنفسها وأطال في ذلك . فأما الأستاذ كانت الألماني فإنه أثبت الذات المقدسة بقانون الأخلاق ، إذ رأى أن الإنسان عليه أن يكون نوراً للناس نافعاً لهم ، ولكن الجزاء على محاسن الأخلاق وفضائل الأعمال قلما يتم في هذه الحياة ، إذن لا بد من بقاء الروح ودوامها ، ولا بد من ذات قدسية تكافئ الروح على أفعالها الجميلة .

هذه هي الآراء الثلاثة ، وهناك الرواقيون الذين حدثوا قبل الميلاد وبعد موت أرسطاطاليس ، فهؤلاء لهم طريقة في علم الأخلاق تشبه طريقة الصوفية في أمم الإسلام ، وحدثت فرقة تسمى الأفلاطونية الحديثة بعد الميلاد بقرنين ، وهذه سارت شوطاً بعيداً في العلم والحكمة وتطبيق المذاهب القديمة اليونانية ، ولقد أقر « بارتلمي » في غير ما موضع أن علماء اليونان أثبت قدماً في علم الأخلاق وفي هذه الأدلة المتقدمة ، ولم يظهر في أوروبا إلا الأستاذ « كانت » وحده ، وأن علماء اليونان لهم القدح المعلى إلى الآن والسبق والفضل بالنسبة لهذا الموضوع ، ولقد لخص فلسفة اليونان الرسام المشهور المسمى « روفائيل » ، فرسم في الصورة التي جعلها تمثل مدرسة أثينا صورة سقراط رافعاً يده إلى السماء ، وأرسطاطاليس مشيراً بيده إلى الأرض .

هذا هو الذي تقدم ، ولكنك أنت لما اطلعت على آراء الأمم في (٢٥) قرناً فكرت فيها وقلت : إذا كان برهان أفلاطون هو آخر ما يصل له العلم في هذه الأمم ؛ فإني أعلن للملأ برهاناً يكون أقرب إلى أذهان الأمم ، وبسطت ذلك وشرحته من نفس جسم الإنسان ، وأن الحواس منظمة من أسفل إلى أعلى بحيث نرى حاسة اللمس أدناها ، وحاسة البصر أعلاها ، والعقل هو المدرك ، وهذا العقل في الذروة العليا ، وإذا كانت كل حاسة قد اتصلت بعالم يلائمها ، وكانت العين أشرف الحواس وأعلاها قد اتصلت بعالم النور الذي لا نعرف له حداً ، وهو أوسع من عالم الهواء المعروف حده تقريباً ، فإن المدرك الذي فوق مرتبتها وهو العقل متصل بعالم ألطف وأوسع من النور وهو عالم كله علم وجمال وعلى ذلك أصبح الإنسان يشهد تلك العوالم العقلية كما يشهد الخشن والناعم والثقيل والخفيف بيده ، وغاية الأمر أن الذين سموهم فلاسفة ما هم إلا أناس وضعوا في درجاتهم في الحياة ، فمن وقف عند المحسوسات بالحواس فهو رجل لم ترتق نفسه وقد غفل عن عقله ، والعالم الإنساني حائر تائه

مقلد، وكل امرئ يقلد من تصبو إليه نفسه، فالعقول الصغيرة وأرباب الشهوات إذا سمعوا من يقول: إن العقل إفراز المخ كما تفرز الكبد الصفراء؛ يفرحون بهذا ويقولون: وصلنا إلى نهاية الحكمة، ويسفهون آراء من هم أعلم منهم، وقد غفلوا غفلة تامة عن الفرق بين الكبد والمخ، فالمخ يدرك الكليات وهو يشرف على الحواس، والحواس لها مخازن خارج الجسم تلائمها، والعقل مخزنه أوسع وألطف كما تقدم، وهذا المخزن هو عالم المعقولات الذي يستمد منه العقل معقولاته كما تستمد العين صور المرئيات، وهذا برهان أول، ولك برهان ثان وهو أنك قلت إن الأرض عجزت عن أن تأتي لحيوانها ونباتها بحرارة تثير الهواء فيصير رياحاً، وتثير البخار فيصير سحاباً، وهذان يتجهان إلى الأرض فيكون الزرع والضرع والحيوان، وعن أن تأتي للنبات وللحيوان بضوء يساعد في إصلاح غذاء الأول وفي هداية الثاني إلى ما يحتاجه، ولا جرم أن إثارة البخار والرياح وإصلاح تغذية الحيوان وهدايته إلى السعي في الأرض أسهل مما فوق ذلك من هداية الحشرات وسائر الحيوان ومن علوم الإنسان ومعارفه والرحمة التي تغرس في الأم لترضع ولدها ومن إثارة الهمم وإبراز الجمال في العوالم ونقشه ورقشه، فهذه المادة بعجزها عن أضعف القسمين وهو الحرارة والضوء برهنت على أنها أكثر عجزاً وأشد ضعفاً عن إبراز العقول الشريفة، والعواطف الجميلة، والنقوش البديعة، وإذن يكون جسم هذا الإنسان فيه برهان يأتي من طريق قوانا العقلية، وبرهان يأتي من طريق عواطفنا الشريفة وأخلاقنا، فلكل منهما أصل استمد منه، فعلومنا مستمدة من علم أعلى، وعواطفنا مستمدة من آثار إحسان ورحمة عامة، إذ لا سبيل لإسناد هذه العلوم وهذه العواطف والأخلاق إلى هذه المادة العاجزة عن إحداث أخس الأمرين، فإذن هي عن أشرفهما أعجز.

ثم قال صديقي العالم: هذا ما خطر لي في تلخيص ذلك المقال في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾[الآية: ٣٠] في سورة «فصلت»، فلعلي وفقت إلى تلخيصه تذكرة لمن قرأه وتبصرة لمن لم يقرأه، فأرجو أن أسمع ما تريد من تفسير البسملة في سورة «الدخان» الذي جعلته مرتباً على ما لخصته الآن. فقلت: لقد أحسنت صنعاً وأجدت تلخيصاً، والآن أقول: إنني في ليلة الجمعة الماضية ٥ ديسمبرسنة ١٩٣١م فكرت في معنى البسملة في هذه السورة، وهناك فرحت النفس فرحاً كثيراً وابتهجت ابتهاجاً تاماً، لأنها انتقلت من عالم المادة إلى عالم الجمال، وأخذت ترتقي إلى عوالم عرفها العقل ببرهانه، وأخذت تسعى حثيثاً إلى العلا، وتحقر العوالم المادية التي قام البرهان على أنها أشبه بالخيال، وأيقنت بأن صور العلوم والمعارف المخزونة في عقولنا لها عوالم وراءها جميلة، وكل نقش وبهجة وعلم ورحمة وكمال وجمال في عوالمنا إن هو إلا آثار من ذلك الجمال، وأخذ عقلي يفكر في تلك العوالم الجميلة التي يستمد منها ويقول: يا عجباً! إذن كانت محبتي للعلم وغرامي بالحكمة وشوقي إلى تحصيلها أيام شبابي لها اتصال بحب أعلى، إذن هذا الحب وراءه حبّ عام، وحب العلم الذي حدث في نفسي وأبهج قلبي من أيام الشباب إلى الآن مستمد من حب أعم وأعلى، وهذه المعارف التي أعرفها مستمدة من علوم بديعة، وعواطفي من الشفقة والرحمة التي أحس بها في نفسي مستندة إلى رحمة أعم، والجمال الذي أبهج قلبي حين أنظر في النقوش

والعجائب في هذه الدنيا إن هو إلا أثر لجمال أرقى، وإذا لم يكن كذلك فمن أين أتى حبي للعلم، ولرقي الإنسانية؟ ومن أين أتت عواطفي القليلة، ورحمتي للضعفاء، ولمن أعولهم، أمن المادة التي أعلنت عجزها عن حرارة وضوء يقربان منها، ولم تنلهما إلا من الأثير الذي تؤثر فيه الشمس بإشراقها، فتكون حرارة ويكون نور في نفس الأثير، فإذا كانت المادة استعارت هذين من الأثير الذي هو ألطف منها فماذا تفعل هذه المسكينة فيما هو أعلى من الحرارة ومن الضوء، ثم قلت: إن هذا البرهان الذي ظهر لي والكشف الذي كشف لي هذه الأيام هو يقيني، والإنسانية من قبلنا لم تتضح لها كما اتضح لها الآن، فعليّ إذن أن أتأمل في عقلي وفي عواطفي، ولأن أعجب من هذه النفس الجميلة الشريفة ذات العقل وذات العواطف وذات الحب، ذلك الحب الذي هو أشرف ما نالت نفسي، ذلك الحب المفرح السار البهيج، ذلك الحب الذي لا يذر جمالاً إلا علق به في السماء وفي الأرض، ولا عالماً إلا أحبه على مقدار ما وصل إلي من علمه، ولا محسناً رحيماً إلا أحبه على مقدار إحسانه، ولا شجاعاً نافعاً إلا أغرم بسماع أخباره، هذا الحب الذي استمد من حب عام فوقه، وإذا كنت أنا مع ضعفي وحدوثي أجد حبي يشمل الصور الجميلة والعقول الشريفة، والأخلاق الفاضلة عموماً بهيئة عامة إجمالاً، ويشمل اليسير من ذلك العموم بهيئة خاصة تفصيلاً، فكيف بمن يعلم كل معلوم؟ إن حبه الذي من آثاره كان حبي يشمل كل عالم شمسي وقمري وكوكبي وجميع المجرات والسدم.

هنالك صعد عقلي فوق المجرات والسدم والسماوات والنجوم، وأخذ يلقي نظره على هذه العوالم ويقول: لأكن هنا لأكن سعيداً لأفرح بهذا الكشف، لأكن في جو من النور وبحر من الرحمات وجمال وبهجة أمد الحياة، لا موت وإنما هو انتقال فلأفرح به، ما أجهل الإنسانية، إنها ضعيفة، الناس لاهون لا يعلمون لماذا خلقوا، هذا هو البرهان، فمن ذا ينقضه، هاهي ذه الأجيال الإنسانية قبلنا قد غاب عن أكثرها هذا الجمال ومن عرفه منهم كتمه، فلأجدّ ولأجعل حياتي كلها جمالاً، وأجدّ في منفعة الناس ما دمت حياً اقتداء بتلك الذات المقدسة التي قام البرهان اليقيني الذي لا يدخله الشك على حبها العام ورحمتها وجمالها وقد أحست نفسي بذلك البرهان إحساساً لا تفتر عنه، فأنا إذن سعيد، وأي سعادة أكبر من اليقين، بئست الحياة حياة الجهل، ونعمت الحياة حياة العلم، هذه هي الخواطر التي خطرت لي ليلة الجمعة المذكورة، هذه هي السراء وأعقبها:

امتحان هذه النفس بالضراء

في يوم الجمعة، وفي ليلة السبت بعدها حدثت لي حادثتان: إحداهما منزلية، والأخرى خارجية فالخارجية كانت يوم الجمعة، والمنزلية كانت ليلة السبت، ففي يوم الجمعة توجهت خارج القاهرة لأقابل الحادث الخارجي، وفي ليلة السبت قابلني حادث داخلي في المنزل فاعتراني غم شديد، وهاهنا أخذت أفكر في هذه النفس وأبحث عن ذلك السرور والبهجة والجمال فأجد غماً وهماً، فقلت: أيتها النفس، ماذا حدث؟ أرأيت البرهان المتقدم ناقصاً؟ قالت: كلا. قلت: أليس علمك وحبك ورحمتك كل ذلك آثار لرحمة وحب لذات مقدسة بينك وبينها صلة ما وحب ما. قالت: بلى. قلت: لماذا أرى البهجة قلّت والسرور هنا؟ فنوديت في سري: إن ذلك نعمة لا نقمة، لو دام ذلك السرور لقتلك، وهذه

هي النظريات التي أنت تقولها في التفسير كثيراً، إن ذلك الجمال البديع أرقى من أرواح أهل الأرض، ومتى فتح على روح فتح ودام أمداً طويلاً أهلكها، فلا بد من الغم حتى تعتدل الروح، وأخذت أسأل نفسي أراضية بهذا؟ فوجدتها متمتعة بنعمة الرضا تمتعاً حقيقياً، وقلت في نفسي: إن هذا يراد به خير لي لا شر، وهذا الرضا أنا به موقن، فأنا راض أن يكون هناك حجاب يحجبني عن التفكر لأني موقن بعد هذه المباحث العلمية أن ذلك كله لخيري أنا، فهو شر ظاهراً خير باطناً، وهذا هو سر قوله: صلى الله عليه وسلم: «وأن تؤمن بالقدر خيره وشره من الله»، وسر آية: ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾[الفجر: ٢٧-٣٠].

ولقد زارني ليلة السبت أثناء الحادث المنزلي صديق جاء يسعى ليزورني، فأحس بذلك الحادث المنزلي، فأخذ يأسف على أن يضيع وقتي في أحوال تعكر صفوي، فأسررت إليه أني فرح بهذا الحادث لأن هذا هو الاعتدال والنظام، فلا بد من مقوّم يقوّم هذه النفوس الأرضية ويعدّلها، وإذا دامت مسراتي العلمية أهلكتني، فأنا الآن عندي مسرّة معنوية ترجع إلى الرضا الحقيقي اليقيني، لأن رضا الإنسان بالقضاء إما أن يكون عن تقليد إيماني فحسب، وهذا هو التسليم بلا برهان. وإما أن يكون عن يقين وبرهان، وهذا هو الرضا الحقيقي. فأنا الآن عندي الرضا الحقيقي، ولكن لا أدري هل هذه النفس في حوادث أخرى يكون عندها هذا الرضا الحقيقي، أم تكون واجمة؟ أنا لا علم لي بالمستقبل فأكل أمرها إلى الله.

وما جاء يوم السبت حتى خرجت من القاهرة ضحى لأتوجه إلى بلدة شبين القناطر لمعالجة الحادث الخارجي في نزاع أثاره جار سوء في الحقل، فما جلست في العربة الجارية في الطريق التي تسير بالكهرباء وهي مزدحمة ازدحاماً تاماً بالراكبين وتخترق المزارع؛ حتى أحسست بهذه النفس قد بارحت هذا الجو وعرجت إلى عالم السماوات، أنا جالس مع الناس وأحس بمن حولي وأحفظ قواي وموازنتي مع الراكبين، ولكن سرعان ما رأيت في خيالي أن هناك سلماً منصوباً بين السماء والأرض، فأخذت روحي تعلوه درجة فدرجة حتى وصلت إلى عالم السماوات. كل هذا تخيلته وأنا في اليقظة والناس حولي. ولما وصلت إلى عوالم فوق هذه الطبقات الكوكبية، خيل إلي أن هناك عالماً من النور بهيجاً بديعاً، عجيب الألوان، سريع التقلب، جماله يسبي العقول ويحير الألباب، فما قوس قزح، وما الصور الجميلة في أرضنا، وما البدائع الأرضية، وما الشموس والأقمار، وما الكواكب، هو فوقها جمالاً وبهاء وحسناً، ثم غادرت عالم الأنوار، فألفيت نهراً متلاطم الأمواج، صافي الماء، سريع الجريان، وعلى حافتيه قصور جميلات، فيهنّ فتيات ما رأت عيني أجمل منهنّ، قد لبسن الحلي والحلل، وازدنّ بأنواع الحجارة الكريمة، والدرّ والمرجان والياقوت، وبالجملة ففي عالم الأنوار، وفي ذلك النهر، وفي تلك القصور على حافتيه ما يحير الألباب ويسبي العقول.

هنالك حار لبي وأخذت أقول: يا ليت شعري، ما هذا الخيال؟ أنا في العربة والركاب حولي، فأين الثريا وأين الثرى، هنالك خيل إلي أن روحاً لطيفة تمثلت لي بهيئة إنسان مصنوع من النور جميل المحيا بهيج المنظر، فسلم علي وحياني وهو باسم الثغر منشرح الصدر فقال: لعلك في حيرة مما رأيت.

فقلت : إي وربي إنه لحق . لقد جرت العادة أثناء هذا التفسير أن لا يمر بخاطري إلا ما يناسب السورة التي يكون فيها التفسير ، فما هذه المناظر ، وأين هذه من تفسير البسملة في سورة « الدخان » ، فتبسم ضاحكاً وقال : هي نفس التفسير . وهاأنا ذا أشرح ذلك المقام فهيا بنا :

لقد ضاق صدرك جزعاً في هذين اليومين . فقلت : نعم . فقال : وقد استحممت بالماء الحار وأتبعته بالماء البارد أمس واليوم فكان ذلك ملطفاً لأحوال النفس لأن للجسم عليها تأثيراً . فقلت : نعم . قال : وهاأنت ذا اليوم خيل لك سلم صعدت عليه حتى وصلت إلى هذه المناظر البديعة . فقلت : نعم . قال : أتدري ما هذا السلم . قلت : لا . قال : إن الجنين في بطن أمه يخلق أولاً بهيئة بويضة بسيطة ، ثم يصير ثانياً دودة وثالثاً حلزونة ورابعاً سمكة وخامساً ذبابة وسادساً قرداً وسابعاً إنساناً ، ولا يتوارى ذنبه إلا في الصورة الإنسانية ، هذه درجات يتقلب فيها الجنين في بطن أمه ، وهناك درجات أخرى وهي المدركات الست أعني الحواس الخمس والعقل . إذن الإنسان يقطع درجات في ارتقاء جسمه ، ودرجات أخرى في ارتقاء عقله ، وهذه الدرجات بقسميها قد مثلت لك الآن بهيئة سلالم عرجت عليها ، فأما الأنوار فهو العلم الذي منه استمددت علمك ، وأما هذا النهر الصافي فهو يمثل لك الرحمة العامة ، وأما هذه الحور المقصورات البديعات وما عليهن من الحلي والحلل ، وما فيهن من رقة وشعور وحب وطهارة فهن أولاً مثال آخر للرحمة تجلت في أخلاقهن ، وثانياً مثال لإبداع الصنع وإتقانه ، وثالثاً هن يمثلن الحب بأجلى مظاهره . أنت قد اعتراك غم مضاعف ، وهذا الغم أشبه بقنطرة عرجت عليها روحك ، ألم تر أن هذه المثل لم تظهر لخيالك إلا بعد أن وقعت في هذا الغم ، وما مثل ما تجلى لك الآن في خيالك من الجمال إلا كمثل النوع الإنساني عند الموت ويوم القيامة ، فإن ذوي العقول الكبيرة ، والنفوس العظيمة إذا دهمهم الموت ، أو أصابهم الفزع الأكبر يوم القيامة ؛ لا يمر عليهم هذان الحادثان إلا كما مر عليك الحادثان المنزلي والخارجي أمس والبارحة ، فيتجلى لهم بعد الموت وفي يوم القيامة حقائق الأشياء ، ويكون الموت وتكون القيامة قنطرتين يمرون عليهما سراعاً إلى معرفة الحقائق لا أقل ولا أكثر ، كما أن هذين الحادثين أعقبهما هذا الخيال الذي أبرز لك المعاني المجردة التي عرفها عقلك بصور تمثيلية ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾[مريم : ١٧] . وإذا كنت الساعة أخاطبك خطاباً خيالياً فإن الحكيم عند موته وعند قيام الساعة تتلقاه الملائكة ويخاطب خطاباً حقيقياً كما خاطبتك أنت خطاباً خيالياً ، وهذا قوله تعالى : ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[الأنبياء : ١٠٣] .

وما هذان الحادثان لك بأول ما صادفك ، فإنك ما ألفت كتاباً ، ولا أبرزت حكمة إلا بعد حادث أزعجك في هذه الحياة ، فهذه قاعدة مطردة . فقلت : حقاً هو ذلك . فقال : انظر في الأمور الأربعة التي هي المقصود الحقيقي وهي : العلم والرحمة والجمال والحب .

هذه هي الأصول والينابيع التي يستمد منها كل ما في الأرض وما في السماء . ولقد درست أنت آثار هذه الأربعة في الأرض . إن قلبك يحب كل جمال ، وكل علم ، وكل حاذق في علم أو صنعة ، ويحب كل محسن في الأرض ، وما هذه إلا نزر يسير جداً من هذا العالم النوري المعبر عن العلم والنهر

والحور المعبرات عن الرحمة والجمال وإحكام الصنع والحب. فهذه الرحمات، وهذه العلوم، وهذه المحبات، وهذا الجمال، لا حد لها ولا نهاية. فإذا اتجه حبك لأهل الأرض كان محدوداً. وإذا اتجه لهذه المنابع كان الحب لا حد له والسعادة لا نهاية لها، وأين السعادة إلا في الحب، حب لعلم، وحب لرحمة وإحسان، وحب لجمال، وحب لإتقان، وحب لنفس الحب العام الذي منه نبع كل حب في الأرض، كحب الأم وأنثى الطائر والأنعام للطفل والفرخ الصغير وفصيل الناقة. إن نفسك التي أدركت أن المادة وقد عجزت عجزاً تاماً عن أن تكفل لما عليها حرارة ونوراً ظاهرين حرية أن تعجز عن إعطاء الأم وأنثى الطيور والناقة الغرام والهيام بالابن وبالفرخ وبالفصيل. إذن هذا الحب له منبع أعلى كما أن الحرارة لها منبع وهي الشمس.

وإذا كنتم يا أهل الأرض تعجبون بعلمائكم ومخترعيكم وقوادكم والمحافظين على أوطانكم وتفرحون بهم ويدهشكم جمال الصور الفاتن لعقولكم، فكيف بكم إذا غادرتم هذا الجسم، واطلعتم على هذه المنابع ورأيتم الحب العام بعيون تخلق لكم، إنكم إذ ذاك تحسون بلذة نسبتها إلى لذاتكم الآن كنسبة رحمة الناقة لفصيلها إلى الرحمة التي عمت كل طير، وكل حوت، وكل دابة، وكل كوكب، وكل مجرة.

فإذا لم تكن حياتكم في الأرض لها هذا الأثر فإنها تكون لهواً ولعباً، وهذا قوله تعالى في هذه السورة: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الدخان: ٣٨-٣٩]. وإلا فلماذا هذه الأجرام العظيمة المتحركة، ولماذا ترون الشمس والقمر يجريان حولكما، وهل هذه النفوس لا تعيش إلا أياماً في نغص ثم تعدم، وأي لهو ولعب أعظم من هذا، وإذا كان أحدكم لا يعمل عملاً إلا لغاية، فما الغاية لإحداث نفوس لا عمل لها إلا أن تعدم، وحياتها ما هي إلا لهو ولعب. إذن لا بد من حال أخرى تتجلى فيها العلوم والرحمات والجمال والحب. يقول الله في سورة «الرعد الآية ٢٠»: ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾. أكل هذا اللهو واللعب وأنتم تعملون لغايات، وعملكم مبني على علمكم، وعلمكم نابع من عالم الأنوار التي رأيتها الآن، فهل تجدّون في أعمالكم الصغيرة والله يلعب في أعماله الهائلة بشموسه وأقماره ومجراته وسدمه وكواكبه وسياراته وأراضيه، ولذلك قال تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾[الرعد: ٢]، فهذا كله لأجل الإيقان.

أما الإيمان فليس في حاجة إلى كثير عناء. فما هو إلا أن يظهر للناس صادق ذو معجزة فيصدقونه وانتهى الأمر. وهذا الذي قلته لك الآن يجمع أطراف سورة «الدخان»، فإنه ذكر السماوات والأرض وما بينهما في أول السورة وأنه رباهما. وأعاد الكرة عليهما في القسم الثاني منها. وأخبر أنه ليس لاعباً في خلقهما. وذكر العذاب الذي يغشى الناس يوم تأتي السماء بدخان مبين، كالذي حصل في الحرب الكبرى ويوم القيامة. وذكر البطشة الكبرى. وهذان يدخل فيهما كل حادث عظيم للناس أو للفرد. والذي اتفق لك هذين اليومين مثل صغير لهذه الأحوال كلها في الدنيا والآخرة، وذكر قوم فرعون وإغراقهم وأن السماء والأرض لم تبكيا عليهم، لأن عقولهم لم تتفطن لماذا خلقت هذه العوالم.

ولكن الحكيم يفطن لماذا خلقت هذه العوالم؟ ولماذا خلق هو؟ فهذا لفطنته وعلمه بهذه العوالم في حكم من تبكيه السماوات والأرض إذا فارقهما فهو يحب النظر فيهما، وكأنهما محبوبان، وكأن أحباءه يبكون عليه عند الفراق، وما هذا كله إلا كناية عن أنه عرف وأيقن. وذكر النار والجنة، والأولى لمن عقولهم ونفسهم لا تزال جامدة خامدة، والثانية لتلك النفوس التي أدركت الحقائق واشرأبت إلى العلا. فهذا معنى قولي لك: إن ما خطر لك هو نفس تفسير البسملة في سورة « الدخان »، وقد أحاط بآياتها. أكفاك هذا؟ فقلت: كفاني. وما كدت أنطق بهذه الجملة حتى غاب عني الخيال. فأبصرت القوم حولي جالسين في السيارة تجوب الأرض جوباً. ورأيت أنني وصلت إلى بلدة شبين القناطر، وكأنني كنت في عالم غير عالمنا.

وهنالك أخذت أعالج المشاكل الخارجية، فرأيت هناك معنى قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ ﴾[فصلت: ٣١]. وكما كنت في السيارة مع الراكبين قد تجلى لي العلم والحكمة، هكذا لما وصلت إلى مكان الحاجة رأيت تسهيلاً جميلاً وقبولاً وقضاء حاجة، فقلت: هذا معنى قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ ﴾[فصلت: ٣١]، فكما أسعفت في الطريق بإتمام العلم في تفسير البسملة؛ أسعفت بقضاء حاجتي ليكون العلم والجهل تفسيراً للرحمة العامة أولاً وللرحمة الخاصة المذكورة في آية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[فصلت: ٣٠]. فقال صاحبي: ما أجمل هذا المنظر. وما أحسن هذا الجمال. سلالم صاعدات إلى العلا وفوقها مقام رفيع تتجلى فيه المعارف والجمال والحب، فلو أنك رسمت له شكلاً يدل عليه لكان ذلك أجمل بهجة وأحسن منظراً. فقلت: انظر الرسم الآتي.

الحب

العلم .... الرحمة .... الجمال

الحب

بصر ....

سمع ....

شم ....

ذوق ....

لمس ....

إنسان ....

حيوان راق « كالقرد » ....

سمكة ....

حلزونة ....

دودة ....

بويضة ....

صعود .... نزول

فلما اطلع صاحبي على هذا الشكل وإيضاحه قال: أريد أن تضرب لي مثلاً لهذا الموضوع كله بحيث يكون مشاهداً. فقلت: انظر حشرة أبي دقيق الطاووسي (شكل ١).



(شكل ١ ـ حشرة أبي دقيق الطاووسي)

أليس الجمال في المنظر ودقة الصنع في إحسانه وإتقانه ناجمة من العلم، أوَليست الحشرة في هيئة سعيدة بالرحمة وهي ذات رحمة لنظام بيضها وهي تحافظ على ذرية لن تراها، فهاتان رحمتان: رحمة لها هي، ورحمة منها لذريتها المستقبلة المخبوءة في بيضها علمت أم لم تعلم، فقد ظهر الجمال في النقش والعلم في النبات الظاهر والباطن والرحمة واصلة لها ولذريتها، وهل يكون هذا إلا بحب من العالم الأعلى، وهذا كله يورث قلوبنا حباً لمسدي هذه النعم، وأن حشرة أبي دقيق هنا رمز للعالم كله، ففيه الجمال والإتقان والرحمة، وهو يهيجنا للحب، وحبنا هو نهاية السعادة، أنا لا أفهم للسعادة معنى إلا بالحب، والحب هو السعادة، والسعادة هي الحب.

هاهنا قال لي صديقي العالم: هاأنا ذا عرفت الجمال بهذا الشكل، فأرجو إيضاح هذه الدرجات في أصل الموضوع في السلالم. فقلت: أما السلم الذي على يمينك فإنه يرينا ارتقاء الجنين أولاً فارتقاء العقول ثانياً، فإذا وصل الإنسان إلى المستوى الذي يتصل فيه بالعلم والرحمة والجمال مثل كثير من قراء هذا التفسير، فإنه إذ ذاك تكون روحه نوراً مشرقاً يفيض على النوع الإنساني مآثر وعلوماً وإحساناً وحباً كما ترى في السلم الذي على اليسار. فكما ارتقى من أدنى إلى أعلى كما في السلم الذي على اليمين هكذا هو يلقي أشعة أنواره ورحماته وعلومه على إخوانه من النوع الإنساني مبتدئاً بأعلاه لأنهم إليه أقرب، وكل طبقة تعطي ما تحتها.

هذا هو الإنسان الذي جعله الله خليفة في الأرض يسوس عباده ويخلف صانع العالم في إسعاد خلقه وتعليمهم وتربيتهم ونشوئهم وارتقائهم.

فقال صديقي: وهل هذا الذي وصفته يخاطب الملائكة ويتصل بالملأ الأعلى عياناً؟ أم ذلك يكون بمجرد العقل والفكر؟ فقلت: إن الذي وصفته الآن إنما هو الإنسان المفكر الذي يرقى بما يلهمه الله من الفكر والعلم، أما أولئك الذين يكلمون الملائكة ويحادثونهم فليس كلامي فيهم لأننا الآن نجدّ في أن نتعلم لا أن نتكل على غيرنا، وهذا التفسير جاء لتربية الإنسانية المحمدية، أما ذلك الذي وصفته

فأمر آخر، ألا ترى أن في العالم الإنساني أناساً يخلقون على صفات كاملة بفطرتهم، ولهم اتصال بتلك العوالم الشريفة، وآخرين دونهم في المنزلة وهم متصلون أيضاً، ونحن لا نشرئب إلى تلك المنزلة، فإن المفتوح عليهم من طريق الولاية وقد اتصلوا بالعوالم العلوية على خطر عظيم، كما يقول الشيخ الدباغ والشيخ الخواص، إذ يجزمون بأن ما نحن عليه من الحجاب مع البحث العقلي أهدى سبيلاً وأقوم قيلاً أما الذين كشف عنهم الحجاب فهم دائماً في خطر عظيم، لأن نفوس الناس في هذه الأرض جاءت لتتربى فيها، لا أنها تتمتع بتلك اللذات العالية في زمان هي أحوج إلى العروج فيه بالتربية والعبادة والخدمة والمجاهدة. فقال: أرجو أن تصف لي أولئك الذين فطروا على الكمال، والذين هم دونهم ليتم القول في هذا المقام. اسمع ما جاء في كتاب «الإبريز» في صحيفة ١٤١ وما بعدها. وهذا نصه:

إن النبوة والولاية وإن اشتركتا في أن كلاً منهما نور وسر من أسرار الله عز وجل، فنور النبوة مباين لنور الولاية، وما به المباينة لا يدرك على الحقيقة إلا بالكشف. غير أن نور النبوة أصلي ذاتي حقيقي مخلوق مع الذات في أصل نشأتها، ولذا كان النبي معصوماً في كل أحواله، ونور الولاية بخلاف ذلك، فإن المفتوح عليه إذا نظر إلى ذات من سيصير ولياً يرى ذاتاً كسائر الذوات، وإذا نظر إلى ذات من سيصير نبياً رأى نور النبوة في ذاته سابقاً، ورأى تلك الذوات مطبوعة على أجزاء النبوة السابقة التي سبقت في حديث: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف»، فيكون صاحبها مطبوعاً على قول الحق ولو كان مراً، وعلى الصبر الذي لا يحس معه بألم ولا تكون معه كلفة، وعلى الرحمة الكاملة، وعلى معرفة الله عز وجل على الوجه الذي ينبغي أن تكون المعرفة عليه، وعلى الخوف التام منه عز وجل خوفاً يمتزج فيه الخوف الباطني بالخوف الظاهري، حتى يدوم له الخوف في سائر أحواله، وعلى بغض الباطل بغضاً دائماً، وعلى العفو الكامل حتى يصل من قطعه ويدفع من ضره. فهذه هي خصال النبوة وأجزاؤها السبعة التي تطبع عليها ذات النبي قبل الفتح وبعده، وأما ذات الولي فإنها قبل الفتح من جملة الذوات ليس فيها شيء زائد، فإذا فتح عليها جاءتها الأنوار، فأنوارها عارضة، ولذا كان الولي غير معصوم قبل الفتح وبعده، وأما ما ذكروه في الفرق بين النبي والولي من نزول الملك وعدمه فليس بصحيح، لأن المفتوح عليه سواء كان نبياً أو ولياً لا بد أن يشاهد الملائكة بذواتهم على ما هم عليه، ويخاطبهم ويخاطبونه، وكل من قال: إن الولي لا يشاهد الملك ولا يكلمه؛ فذلك دليل على أنه غير مفتوح عليه.

قلت: وكذا قال الحاتمي رحمه الله في الفتوحات المكية في الباب الرابع والستين وثلاثمائة، غلط جماعة من أصحابنا منهم الإمام أبو حامد محمد الغزالي في قولهم في الفرق بين النبي والولي: إن النبي ينزل عليه الملك، والولي يلهم ولا ينزل عليه ملك. قال: والصواب أن الفرق فيما ينزل به الملك فالولي إذا نزل عليه الملك فقد يأمره بالاتباع، وقد يخبره بصحة حديث ضعفه العلماء، وقد ينزل عليه بالبشرى من الله وأنه من أهل السعادة والأمان، كما قال تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤]. قال: وسبب غلط هؤلاء ظنهم أنهم عموا طرق الله بسلوكهم بحيث لما لم ينزل عليهم ملك ظنوا أنه لم ينزل على غيرهم، ولا ينزل أصلاً على ولي، ولو سمعوا من ثقة نزوله

على ولي لرجعوا عن قولهم، لأنهم يصدقون بكرامات الأولياء، وقد رجع لقولي جماعة كانوا يعتقدون خلافه. انتهى ملخصاً من كتاب «الإبريز».

هاأنا ذا أيها الذكي أوفيت لك المقام بقدر طاقتي، ووصلت معك إلى مقام الرحمة والعلم والجمال والحب التي يغترف منها أهل العقول والذين يوحى إليهم. فقال: الله أكبر. جلّ الله. إذن نحن الآن نتمتع بمعرفة الطرق الفكرية، ووصف طرق الوحي والإلهام. إذن هذا التفسير أشبه بسوق الصور الذي تعرض فيه الصور يوم القيامة وكل يلبس ما يشاء منها. فقلت له: أنا أحمد الله عز وجل على نعمة العلم والهداية إلى طرق الكمال. وإلى هنا تم الكلام على تفسير البسملة، والحمد لله رب العالمين. كتب يوم الخميس ١١ ديسمبر سنة ١٩٣١م.

مقاصد هذه السورة

(١) إنزال القرآن، والدلالة على التوحيد.

(٢) الإنذار بالعذاب في الدنيا والآخرة للمكذبين.

(٣) ذكر قوم فرعون وهلاكهم.

(٤) ذكر اختيار الله لبني إسرائيل. رجوع إلى العرب الذين في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وموازنتهم بقوم تبّع ـ بتشديد الباء ـ وأن أولئك مع عظم بطشهم هلكوا، فكيف بهؤلاء مع قلة شأنهم بالنسبة لأولئك.

(٥) الاستدلال على البعث بدليل عقلي، فيقال: إذا لم يكن هناك بعث فهذا العالم لغو لا فائدة منه.

(٦) وصف عذاب جهنم يوم القيامة.

(٧) وصف النعيم في الجنة.

(٨) انتظار العاقبة لمن تكون، أللرسول، أم للمكذبين.

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴾ تقدم الكلام عليها في السور السابقة. ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ أي المبين ما يحتاج إليه الناس من حلال وحرام وغير ذلك، وهذا قسم جوابه قوله: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ أي أنزلنا القرآن في ليلة القدر بأن بدأنا إنزاله فيها، ثم أنزل بعد ذلك نجوماً في عشرين سنة، وإنما كانت مباركة لبركة ما نزل فيها من القرآن ولأنها يستجاب فيها الدعاء، وتنزل فيها الملائكة والرحمة، وهي ليلة مجهولة، وأكثر الأقوال إنها في شهر رمضان. ثم استأنف بذكر جملتين تبينان المقتضى للإنزال، فقال: ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ يقول: إنما أنزلنا القرآن لأن من عادتنا الإنذار بالعقاب حتى يخاف الناس بطشنا، وإنما خصصنا بهذه الليلة لأن إنزال القرآن من الأمور ذات الحكمة وهذه الليلة فيها يفصل كل أمر حكيم، ففيها تكتب أرزاق العباد وآجالهم وأعمالهم فتعرف إلى ليلة القدر التالية، ولما كان القرآن أهم الأمور المحكمة أنزلناه فيها. ثم قال: أعني بهذا الأمر ﴿ أَمْرًا ﴾ حاصلاً ﴿ مِّنْ عِندِنَآ ﴾ كما اقتضاه علمنا وتدبيرنا، يريد بذلك أن هذه الأمور التي تكتب في صحائف

الملائكة ليلة القدر هي التي اقتضاها علمه القديم، وحكمته الواسعة، وعنايته الشاملة، إذن هذه الأمور التي تفرق في تلك الليلة شأنها عظيم. ثم قال: وإنما يفرق فيها كل أمر حكيم من عندنا لأننا من شأننا إرسال رحمتنا، ولا جرم أن فصل الأمور ونظمها وتحديدها رحمة من الله تعالى، وهذا قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ وفي ذكر الرب تبيان مناط الرحمة، فهي رحمة من المربي، والمربي لا يعطي إلا بقدر كما يفعل بلبن الأم، وكما يعطي المعلم تلميذه على مقدار استعداده، فتبيان الأرزاق والأحوال وإنزال القرآن في أوقات خاصة؛ كل هذا رحمة مصحوبة بالتربية، والرحمة متى قيدت بالتربية كانت تامة بخلاف الرحمة المهملة بلا انتظام فإنها ضائعة، هذا معنى ذكر الرب، وإنما أضاف الرب إليه إشارة إلى أنه يربيك، وعلى ذلك تكون أعماله صلى الله عليه وسلم ستكون بنظام وحكمة ورحمته مصحوبة بتربية الأمة ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال العباد ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ بدل من «ربك»، ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي: إن كنتم من أهل الإيقان فاعلموا ذلك ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا خالق سواه ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ هو ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وقرئ بالجر على البدل أيضاً ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ أي إنهم ليسوا موقنين لما ارتطموا فيه من الشك واللعب ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ فانتظر ﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ (١) يوم شدة ومجاعة فتقل الأمطار ولقلتها يظلم الهواء ويكثر الغبار. (٢) أو يأتي شر غالب يعبر عنه العرب بلفظ دخان. (٣) أو أن الجائع يخيل له أن بينه وبين السماء دخاناً، ولقد قحط العرب حتى أكلوا جيف الكلاب وعظامها. (٤) أو هو دخان يجيء قبل قيام الساعة ولم يأت سابقاً، وقد جاء في الحرب الكبرى التي بدأت سنة ١٩١٤ ميلادية فإن الدخان كان فيها من أعظم الآلات الحربية، وقد اخترعه الألمان وصار سنة وعادة ثابتة حربية، فيكون الدخان عند العرب الأولين قحطاً، وعند المسلمين الحاليين حرباً وهلاكاً، كما سيأتي إيضاحه، فارتقب الدخان العرب ثم البطشة الكبرى يوم بدر، وينتظر المسلمون اليوم حوادث كبرى، فإن لم يرجعوا عن جهلهم ونزعاتهم الجاهلية هلكوا، وقوله: ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي: يحيط بهم، وهو صفة لـ«دخان»، وهو منطبق على دخان الحرب الماضية، فإن الدخان يدخل الخنادق، ويحيط بالمحاربين من كل جانب، ويكون قطعاً عظيمة مظلمة كالسحب العظيمة تحيط بالناس حال كونهم قائلين: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ أي: سنؤمن إن تكشف عنا العذاب، وهذه عادة الناس أنهم إذا وقعوا في شدة أياً كانت يعدون بالتوبة والرجوع عما هم فيه، ولكن الأخلاق الثابتة والملكات المتمكنة تمنع أصحابها من فعل الخير، ولذلك قال: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ أي: كيف يذكرون ويتعظون ويفون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب، وقد جاءهم ما هو كاف في رجوعهم إلى الصواب فلم يرجعوا، إذ أرسلنا إليهم رسولاً أتى بالمعجزات فلم يؤمنوا، يقول: التوبة إما أن تكون بما ينال الناس من النوائب، وإما أن تكون بما يتضح لهم من الحقائق، وهؤلاء قد اتضحت لهم الحقائق فلم يفقهوا فأخذنا نعاقبهم وكيف يرجعون بالعقاب وقد ذكرناهم بالآيات وظهور الحقائق التي هي في مجموعها أنجع أثراً من العقاب، فأعرضوا عنها، وقال بعضهم: إنما يعلمه غلام أعجمي لبعض ثقيف، وقال آخرون: إنه

مجنون تلقي إليه الجن هذه الكلمات حال ما يعرض له الغشي ، هذه أحوال هؤلاء الكافرين ، ومع ذلك نكشف عنهم العذاب قليلاً ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ ﴾ كشفاً ﴿ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾ إلى الكفر الذي كنتم فيه لما غلب على طباعكم ، ولما كان العذاب القليل لم يؤثر ، والإصلاح بالعلم والإيمان لم يفد ؛ أمهلناكم إلى يوم البطشة الكبرى حيث لا توبة بعدها فننتقم ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ يوم القيامة أو يوم بدر ﴿ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ أي : ننتقم منهم في ذلك اليوم .

الاعتبار بأمر فرعون

وقياس أمر هؤلاء على أمره ، وقد تم ذلك كله

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾ امتحناهم بإرسال موسى ، وتوسعة الرزق عليهم ، وإمهالهم كما امتحنا هؤلاء بإرسال النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ على الله وفي نفسه ﴿ أَنْ ﴾ بمعنى « أي » المفسرة ﴿ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ﴾ أي : سلموا إلي عباد الله ــ وهم بنو إسرائيل ـ ولا تبقوهم في الذل والمهانة ، كقوله : ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ [طه : ٤٧] ﴿ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ على رسالتي غير متهم ﴿ وَأَن ﴾ هي كالأولى ﴿ لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أي : لا تستكبروا على الله بالاستهانة برسوله ووحيه ﴿ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ بحجة واضحة تدل على أني نبي ﴿ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴾ أي : التجأت إليه وتوكلت عليه أن تشتمون وتقولوا هذا ساحر أو ترجموني بالحجارة ، والمعنى أنه عائذ بربه متكل على أنه يعصمه منهم ومن كيدهم ، فهو غير مبال بما كانوا يتوعدونه من الرجم والقتل والأذى ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴾ فكونوا بمعزل مني لا علي ولا لي ، واعتزلوا أذاي باليد واللسان ، ومع هذا كله لم يؤمنوا ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾ كما جاء في آخر السورة السابقة : ﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الزخرف : ٨٨] فجاءت هذه السورة لبيان نتيجة القيل هناك ، فإذا قال هنا : ﴿ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾ فهو تعريض بالدعاء عليهم بذكر ما يوجبه وهو الإجرام ، فهكذا في السورة السابقة عدم الإيمان سبب للدعاء ، ثم قال : ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف : ٨٩] ، ولما ذكر هنا أمر قوم فرعون ودعاء نبيهم عليهم سيعقبه بذكر النتيجة ليكون تبياناً لعاقبة أولئك ، فهذه من المناسبة بين السورتين ، فقال الله : إن كان الأمر كذلك ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ سيتبعكم فرعون وجنوده ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ ﴾ إذا قطعته أنت وأصحابك ﴿ رَهْوًا ﴾ ساكناً فاتركه على حاله حتى يدخله فرعون وقومه ، يقال : إن موسى لما قطع البحر رجع ليضربه بعصاه ليلتئم ، وخاف أن يتبعه فرعون بجنوده ، فقال لموسى : اترك البحر كما هو حتى يدخلوه ﴿ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ فأخبر موسى بغرقهم ليطمئن قلبه في ترك البحر كما هو ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ ﴾ بعد الغرق ﴿ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ مجلس شريف حسن ﴿ وَنَعْمَةٍ ﴾ وعيش لين رغد ﴿ كَانُوا۟ فِيهَا ﴾ في تلك النعمة ﴿ فَٰكِهِينَ ﴾ أي : ناعمين ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أفعل بمن عصاني من عبادي ﴿ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ عطف على « تركوا » ، المراد أن قوماً غير بني إسرائيل دخلوا مصر ، وذلك أنه بعد هذا التاريخ تغلب على مصر الآشوريون والبابليون تارة ، والحبش مرة أخرى ، والفرس مدة ، واليونان آونة ، والرومان أخيراً ، ثم أمة العرب ، ثم الطولونيون ، والأخشيديون

والفاطميون، والمماليك البرية والبحرية، والترك، والفرنسيون، والإنجليز. وهانحن أولاء الآن في مصر نجاهد في خروجهم منها، أما بنو إسرائيل فلم يتغلبوا عليها ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ مجاز عن عدم الاكتراث، وهذا التعبير يكثر ذكره في كلام العرب فيقولون: بكت عليهم السماء، وكسف لمهلكهم الشمس. كما قال الشاعر يرثي عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى:

الشمس طالعة ليست بكاسفة تبكي عليك نجوم الليل والقمرا

ويروى في الأخبار أن المؤمن يبكي عليه مصلاه، ومحل عبادته، ومصعد عمله، ومهبط رزقه، فأما هؤلاء فلا بكاء عليهم، والمعنى ما علمت وهو الاكتراث وعدمه، ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ ممهلين وقتاً ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن﴾ استعباد ﴿فِرْعَوْنَ﴾ وقتله أبناءهم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا﴾ جباراً متكبراً ﴿مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ في العتو ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾ بني إسرائيل ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ علمه الله تعالى فيهم ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عالمي زمانهم ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ نعمة بينة كفلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى الخ، أو الرخاء والشدة.

رجوع إلى مشركي مكة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: لا موتة إلا هذه التي نموتها في الدنيا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ بمبعوثين بعد موتنا ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ خطاب لمن وعدهم بالنشور وهم النبي والمؤمنون ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنا نبعث أحياء بعد الموت، فقد طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يحيي لهم قصي بن كلاب.

تخويف مشركي مكة بأن قوم تبّع أقوى منهم فهلكوا لما كفروا

قال تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كعاد وثمود، كأنه قيل: ما حالهم؟ فقال: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾. واعلم أن ملوك حِمير ـ بكسر الحاء وسكون الميم ـ طبقتان: الطبقة الأولى: ملوك سبأ وريدان من سنة ١١٥ قبل الميلاد إلى سنة ٢٧٥ بعد الميلاد. والطبقة الثانية: ملوك سبأ وريدان وحضرموت والشحر وغيرهما من سنة ٢٧٥ بعد الميلاد إلى سنة ٥٢٥ بعد الميلاد، أولهم شمريرعش وآخرهم ذو نواس ثم ذو جدن، وهذا لم يحكم، ومنهم ذو القرنين أو أفريقش وهو الثاني من ملوكهم ويسمى الصعب، وبعده عمرو زوج بلقيس وتسمى الفارعة، ثم الهدهاد أخوها، ثم ملكيكرب، ثم أبو كرب أسعد ابنه، ثم حسان بن سعد، ثم شرحبيل، ثم شرحبيل ينوف، ثم معدي كرب ينعم وابنه، ثم مرثد، ثم ذو نواس.

هؤلاء هم الذين ثبتوا في العصر الحاضر في الآثار والنقوش القديمة، وهؤلاء هم التابعة جمع تبع، وهذا اللقب أشبه بفرعون عند المصريين، ويشترط لتبع أن يملك الشحر وحضرموت. وأما الطبقة الأولى فتسمى دولة سبأ، وقبلها دولة معين، وهذه الأخيرة لم تكن معروفة في كتب أسلافنا، واعلم أن الذين اشتهروا من هؤلاء الملوك في كتب أجدادنا ثلاثة وهم: شمريرعش، وذو القرنين أفريقش «الصعب»، وأسعد أبو كرب، فذكروا في الأول أنه دخل العراق وفارس وخراسان والصفد وراء جيحون، فقالت العجم: شمركند» أي: شمرخرب، وبنى مدينة هناك سميت باسمه، وعرّبها العرب

فصارت « سمرقند »، وملك بلاد الروم، وهذه الروايات مبالغ فيها، ولا مانع من صحتها، ولكن يعوزها تقوية الآثار لها وكتب الأمم المعاصرة لهم، وذكروا في الثاني أنه فاتح بلاد المغرب « إفريقية » وهو الذي نقل قبائل العرب إليها، وهذه أيضاً مبالغ فيها وربما صح بعضها، وذكروا في الثالث أنه غزا أذربيجان ولقي الترك وهزمهم وقتل وسبى، ثم رجع إلى اليمن، وهادته ملوك الهند، ثم رجع لغزو الترك، وبعث ابنه حساناً إلى الصفد، وابنه يعفر إلى الروم، وابن أخيه شمر الملقب بذي الجناح إلى الفرس، وأن شمراً لقي ملك الفرس فهزمه، وهكذا ملك سمرقند، وجاز إلى الصين فوجد أخاه حساناً قد سبقه إليها، فانتصرا ورجعا بالغنائم، وبعث ابنه يعفر إلى القسطنطينية، فخضعوا له، ثم سار إلى روما وحاصرها، ووقع الطاعون في عسكره، فهجم عليهم الروم ولم يفلت منهم أحد، ثم رجع إلى اليمن، وزعموا أنه ترك في بلاد الصين قوماً من حمير وأنهم بها لهذا العهد. اهـ.

وأنت خبير أن هذه أقاصيص خيالية، وإنما ذكرتها لتقف على ما كتبت، وإنما الآية في قوم تبع ولم تخص واحداً من هؤلاء، يقول الله: أهؤلاء أهل مكة الذين لا ملك لهم ولا سلطان ولا دولة؛ خير؛ أم قوم تبع الذين هم أقوى ملوك اليمن، وهم أقرب إلى زمانكم، وأخبارهم أقرب إلى سمعكم لا سيما مع المبالغات التي تروى عندكم وقد عرفتها، فهؤلاء أهلكناهم، فكيف بكم أنتم أيها الضعفاء بالنسبة لهم، هذا هو مغزى القرآن الذي يفتح لنا باب التاريخ في غضون المواعظ ليكون المسلم ملماً بالأحوال، عارفاً بالأخبار، يقظاً في جميع الأعصار، فلتقرأ أيها الذكي العلم والحكمة، ولتحمد الله معي على جمال العلم وبهاء الحكمة الصادقة، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

ذكر البرهان العقلي على البعث بعد الإخافة بالمواعظ التاريخية

يقول الله: أيها الناس، أنا خلقت السماوات والأرض، وأدرت الشمس والقمر، وأنزلت السبل ونظمت أحوال المعاش، ورتبت كل شيء، وجعلت الجمال بادياً في جليل الأمور وحقيرها، ولم أذر ذرة إلا نظمتها، ولا حبة إلا رتبتها، ولا عملاً إلا أحكمته، انظروا إلى آثار الحكمة في الأنوار، وفي الشموس، وفي النبات، وفي أجسامكم الإنسانية، والأجسام الحيوانية، انظروا في ذلك كله، هل نظمته عبثاً؟ أو خلقته باطلاً؟ أأخلق ما لا مستقبل له؟ إذن فلماذا هذا الإحكام والإنعام؟ ولماذا هذه النظم القويمة والعجائب العظيمة، والرحمة العميمة، أأذر هذا كله كالهباء في الهواء، والعصف في الصحراء، والضلال في البيداء، وعمل أرباب الرياء، وكسر الطفل للإناء، وتلهيه بالببغاء، وجريه في العراء، أأنهى عن الضلال وأبتغيه؟ أم آمر بالبر وأنا من مانعيه؟ أم أمنع الشر وأقع فيه؟ كلا. أيها الناس: فلتكونوا مفكرين، وفي أعمالكم مستبصرين، وهذا قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ لاهين، إنا خلقناهما وجعلنا فيهما الحياة والرزق والعلم والصدق ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ بالجد لا باللعب، ومن اللعب أن أخلقكم في الأرض غافلين، ثم أعدم أرواحكم هالكين، كمن يوقد المصباح في النهار ويطفئه، ويفتل الحبل وينقضه، ويبني البناء وفي الحال يهدمه، لا لسبب إلا هواه، ولا لدليل إلا ما جناه، فعل البلهاء، والأذلة الجبناء، الذين لا يعقلون ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لقلة نظرهم ولو أنهم فكروا بعقولهم لأدركوا وعرفوا أن من يخلق الجسم الإنساني وقد حافظ على حياته وبقائه

أمداً طويلاً في الدنيا بما دبر في صنعه من عين تبصر النافع والضار، وأنف يشم ما يصلح للغذاء وما لا يصلح، وذوق يميز الخبيث من الطيب، وأذن تسمع صوت العدو المهاجم، والصديق الملائم، وعقل يحكم في سائر القضايا، ويد تدفع المهاجم، وتجلب النافع، ورجل يكون بها الطلب والهرب، وأحشاء تهضم الطعام وتدفع ما فضل، وأمور أخرى لا يسع تفصيلها. إن من هذا فعله وهذه رحمته لا يذر هذه الأرواح تخطو إلى العدم بهذه النعم، فلو علموا ما نظمناه، لأيقنوا بما تكون عقباه، ولذلك أعقبه بقوله: ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ ﴾ فصل الحق من الباطل، والمحق من المبطل بالجزاء ﴿ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وقت موعدهم ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا ﴾ يوم لا يدفع ولا ينفع أي قريب عن أي قريب آخر شيئاً، فلا يشفع له ولا يدافع عنه أي شيء من عذاب الله ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أي: ولا الأولياء يمنعون من عذاب الله ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ﴾ من المؤمنين فإنه يشفع بعضهم في بعض، فالعالم يشفع لمن تعلم منه، والشهيد يشفع، والأنبياء يشفعون، وتلك الشفاعات في الآخرة تابعة للاقتداء في الدنيا، فهي أثر من آثار العلم والتعليم كما أوضحناه في سورة «البقرة» أيما إيضاح ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ لا ينصر من أراد تعذيبه ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ لمن أراد أن يرحمه.

وصف العذاب لأهل النار

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴾ شجرة على صورة الشجر في الدنيا، والزقوم ثمارها وتقدم الكلام عليها في سورة «الصافات» ﴿ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴾ الفاجر الكثير الآثام. وروي أن أبا الدرداء كان يقرئ رجلاً فكان يقول: طعام اليتيم، فقال: قل طعام الفاجر يا هذا، وبهذا استدلوا على إبدال كلمة بكلمة جائز إذا كانت مؤدية معناها، ولذلك أجاز أبو حنيفة رضي الله عنه القراءة بالفارسية بشرط أن يؤدي القارئ المعاني كلها على كمالها من غير أن يخرم منها شيئاً. قالوا: وهذه الشريطة تشهد أنها إجازة كلا إجازة، لأن كلام العرب فيه من الدقائق والنظم ما لا تحل محله لغة أخرى فيه لا فارسية ولا غيرها، ويروى رجوعه إلى قول صاحبيه وعليه الاعتماد، وقوله: ﴿ كَٱلْمُهْلِ ﴾ أي مثل درديّ الزيت الأسود، ويقال كالفضة المذابة، ﴿ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴾ في بطون الكفار ﴿ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴾ أي: كالماء الحار إذا اشتد غليانه، ثم يقول الله للزبانية ﴿ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ ﴾ فجرّوه وادفعوه وسوقوه بالعنف، والضمير لـ «الأثيم»، ﴿ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ أي: إلى وسط النار ﴿ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴾. قيل إن خازن النار يضرب على رأسه فينقب رأسه من دماغه، ثم يصب فيه ماء حميماً قد انتهى حره، ثم يقال له: ﴿ ذُقْ ﴾ هذا العذاب ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ أي: عند قومك بزعمك. يقال: إن أبا جهل كان يقول: أنا أعز أهل الوادي وأكرمهم، فيقول له ولأمثاله خزنة النار هذا على طريق الاستخفاف والتوبيخ ﴿ إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴾ تشكون فيه ولا تؤمنون به.

وصف أهل الجنة

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ أي: في مجلس أمنوا فيه من غيرهم ﴿ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ السندس: ما رقّ من الديباج، والإستبرق: ما غلظ منه، وهو معرّب استبر، حال كونهم ﴿ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴾ في مجالسهم وهو أتم للأنس ﴿ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم ﴾ وقرناهم

﴿ بِحُورٍ عِينٍ ﴾ والحوراء : البيضاء ، والعيناء : عظيمة العين ، وهل هنّ نساء الدنيا أو غيرهم؟ لا يعلم ذلك إلا الله ، وليس هذا تزويجاً كتزويج الدنيا ، بل هو تمتع دائم من غير كلفة ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا ﴾ يطلبون ويأمرون ﴿ بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ﴾ بإحضار ما يشتهون من الفواكه لا يتقيدون بزمان ولا بمكان ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ من الضر ، ومن نفاد الفواكه ، ومن الموت والنصب والشيطان والمرض والكبر والضعف ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ بل يحيون فيها ، أي : لا يذوقون في الجنة الموت ، لكن الموتة الأولى ذاقوها . ويقال بوجه آخر : إن الحياة الدنيا عند الأصفياء متصلة بالحياة الأخرى ، فكأنهم عند الموت دخلوا الجنة ، فهم حين يموتون يكونون في نفس الجنة ، فقوله ﴿ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ استثناء متصل على هذا الوجه ، وكأن الموتة المعلومة وجدت في نفس الجنة ، لأن الروح وقت خروجها فرحة متمتعة بروحها وريحانها ، وهذا المعنى الذي قاله المفسرون هو الذي نطقت به الأرواح . فقالوا : إن النفوس الشريفة التي كرهت العلائق الدنيوية واطمأنت ولبست لباس الحكمة إذا حل بها الموت تكون متيقظة مستبشرة ، لا يهمها أنها نقلت من حال إلى حال ، بل ترى أنها دخلت في حظيرة السعادة ، وساحة السلامة ، أما الأرواح التي لم تتجرد من علائق الدنيا فإنها إذا ماتت نظرت فرأت لها جسماً كالجسم الذي كان لها في الأرض ، ويحصل لها دهش كدهش النائم بين اليقظة والنوم ، ويصبح العقل الإنساني كالمغشيّ عليه ، فهذه الروح تبقى أياماً أو أشهراً أو سنين وهي في بهت ودهش ، ثم تنجلي عنها الغياهب شيئاً فشيئاً ، وتتأمل في حاضرها وماضيها ومستقبلها ، وتعرف ما الذي قطعته في هذه المرحلة الأرضية وماذا صنعت لرقيها وإسعادها وسفرها الطويل ، وهنا يكون الفرح العظيم ، أو الشقاء الطويل والندم والعويل ، والألم الوبيل ، إن ذكر الموت يشعر بألم ، لكن الأرواح الشريفة عند الموت لا تحس بذلك الألم ، لأنه ثبت أن الألم إنّما يكون بالإحساس ، والموت هو أخذ الروح في الانفصال عن الجسم ، والانفصال عن الألم ليس ألماً ، وإذا كان التنويم المغناطيسي لا يحس معه المنوّم عند التنويم بألم من حيث هو تنويم ، فما بالك بالموت وهو النوم الأتم ، بل هو عند الناس أخو العدم ، وإنما ألم الناس عند الموت للفراق لأنهم ظنوا أنه لا وجود إلا في هذه الأجسام فصعب عليهم فراقها ، وحزنوا على مغادرتها ، لظنهم أن لا حياة بعدها ، ولا جرم أن النفوس الشريفة لا تهلع للموت ، ولا تحزن للفراق ، لأنها ترى أنها خرجت من سجنها ، ودخلت في نعيمها ، فهي لا تألم بالموت ، بل تفرح به ، لذلك أعقب ذكر الموت المشعر بالألم بقوله : ﴿ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ فلا يحسون بألم الفراق ، ولا بوخز الضمير الذي يشعر به من تعلق قلبه بالدنيا وهو مذنب ، ولا يخاف من عذاب النار الجسمية كما لا يخاف من النيران القلبية ، أعطوا ذلك ﴿ فَضْلًا ﴾ عطاء وتفضلاً ﴿ مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ ﴾ المذكور ﴿ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ لأنه خلاص من المكاره وفوز بالمطالب .

ولما أتم المقاصد التي أراد ذكرها في هذه السورة لخصها فقال : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ ﴾ سهلاً حيث أنزلناه بلغتك ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ لعلهم يتعظون ويفهمون ﴿ فَٱرْتَقِبْ ﴾ فانتظر ما يحلّ بهم كما حلّ بقوم تبّع ـ بتشديد الباء ـ وقوم فرعون ﴿ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾ ما يحلّ بك . انتهى التفسير اللفظي .

لطائف هذه السورة:

(١) في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾[الدخان: ٣].

(٢) في قوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾ الخ [الدخان: ١٠].

(٣) في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾[الدخان: ٣٨].

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى:

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾

اعلم أن الأيام والليالي وجميع الأزمنة وكذا الأمكنة لا فضل لواحد منها على الآخر من حيث هو زمان أو مكان، وإنما فضل كل باعتبار ما حلّ به من عبادة أو عمل صالح أو علم أو ظهور حكمة، وعلى ذلك ما جاء في هذه الآيات وتخصيصها بما جاء من قسم الأرزاق، أو استجابة الدعاء أمر إلهي أراده الله، كما خص الوجه بالعينين، والصدر بالقلب، والرحم بالجنين، واليد بالبطش، والرجل بالمشي فهو الذي يخصص الأزمنة والأمكنة كبعض الأماكن المقدسة عند الناس، ولقد أخفى تلك الليلة حتى يكون الإنسان في كل وقت مشمراً للطاعة، منقاداً للأوامر، كما أخفى يوم الموت، ولذلك أراني كلما وصلت إلى تفسير سورة، أحمد الله إذ أبقاني حتى وصلت إليها.

ومن أعجب الأمور ما سأقصه عليك من نبأ هذه السورة وهي «الدخان»، فإني منذ نحو عشرين سنة قبل الحرب الكبرى بنحو عشرين سنة كتبت رسالة طلبها مني الأستاذ ذاكر أفندي القادري لأرسلها إلى بلاد القازان، فألفتها وسميتها «الرسالة القازانية»، وفيها نبأ عن الدخان المذكور في هذه السورة، وعن تقصير أمة الإسلام اليوم، وعن معجزة القرآن بذلك، وما كنت أعلم أني أعيش حتى أرى الحرب الكبرى، وقد ظهر فيها الدخان بأجلى مناظره معجزة للقرآن كما ستراه، وما كنت بالأولى أظن أني أعيش بعد ذلك حتى أفسر القرآن أو أصل إلى هذه السورة، وأقص هذا القصص، وأكتب الرسالة التي نشرت في مصر وبلاد الشام مشيرة إلى هذه السورة، كل ذلك كان مجهولاً عندي.

فلما وصلت إلى هذه السورة في التفسير حمدت الله عز وجل إذ تجلى لي نور الحكمة في هذه السورة، وأشرقت الأرض بنور ربها، والحمد لله رب العالمين.

ثم اعلم أن الإنسان ما عمل عملاً إلاّ كان للمكان وللزمان استحضار ذهني في ذلك العمل، حتى إن الإنسان إذا ذكر عملاً من الأعمال، أو أثراً من الآثار، أو حادثاً من الحوادث كان الزمان والمكان لهما معه، فلذلك نزل القرآن على وفاق ما اعتاده الإنسان من ذكر الزمان أو المكان، وهذا من حكمة القرآن. وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الأولى.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى:

﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾

ليكن الكلام في هذا المقام على قسمين: القسم الأول: في العذاب الذي يستحقه المذنبون.

القسم الثاني: في الدخان ونزوله على المذنبين.

بيان القسم الأول وهو:
استحقاق العذاب لأجل الذنوب

اعلم أن الذنوب على ثلاثة أقسام: سلبية، وقلبية، وجسمية. فالسلبية هي الآثام التي يتحملها الإنسان بإهماله ما يقدر عليه من عظائم الأمور، وتركه ما في استعداده من المنافع العامة، فكل من أعطي مالاً أو ذكاء خارقاً للعادة، أو منصباً، أو ذكراً حسناً، أو قوة نافعة، ثم سكت عن العمل بها أو صرفها فيما هو أقل من طاقتها؛ عذب في الدنيا والآخرة عذاباً شديداً. بيانه: أن أمة الإسلام اليوم أكثرهم من أهل الشرق، وأهل الشرق هم أهل الديانات، وأهل الفلسفة، وأهل الحكمة، ولقد سكتوا عن الحكمة حيناً من الدهر وناموا مئات السنين، فانظر ماذا فعل الله فيهم، قال الله لهم قولاً بلسان الحال: أي عبادي، ألم أعطكم بلاد الشرق، ألم أضئ شمسكم، ألم أجعلكم في أرض خصبة؟ ستقولون: بلى يا ربنا. فيقول: ألم أجعلكم أذكى الأمم، فإن كنتم في شك من ذلك ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ [النحل: ٤٣-٤٤]، إن الأنبياء منكم، والعلماء منكم، خرج الأنبياء من الشام، ومن جزيرة العرب، وخرج الحكماء من الهند والصين، فيا عبادي أنتم من نسلهم، فالعقول راجحة، و الأرض خصبة، والسماء صافية، والنعم متوافرة، وأنتم يا عبادي عطلتم نعمي، عطلتم مواهبي، عطلتم ما وهبت لعبادي من المنافع، فأنمتم العقول، وعكستم آية العمل والحكمة، فبحق أقول: إني لم أخلق العالم سدى، بل خلقت الخلق لغاية، وأنتم وقفتم في طريقها، فأنا الحكيم العَليم، سلطت عليكم من يسوسونكم ويسومونكم سوء العذاب، ويستخرجون منافع أرضي، ويفهمون سماواتي، ويفرحون بنعمي، ويشكرون مواهبي.

هذا هو العقاب الذي يراه الشرقي والمسلم متجلياً أمام عينيه، ولا يعلم أنه معذب ومهان، فالناس معذبون ولا يعلمون أنهم معذبون، هذا هو المسمى عذاب الخزي في الحياة الدنيا، ولعذاب الآخرة أخزى، والله هو الحكم العدل.

هذه هي الذنوب السلبية وهي أسوأ الذنوب وإن كان أكثر الناس لا يعلمون، وتسمى في ديننا فرض كفاية، ولكن المسلمون اليوم قلما يفكرون في هذا، واليوم سيفكرون.

الذنوب القلبية

اعلم رعاك الله أن تلك الذنوب ترجع إلى الحسد والحقد والطمع والشره، ويلحق بها الغيبة والنميمة وأمثال ذلك، وهي ترجع إلى قسمين: الغضب، والشهوة، فكل ما نجم عن حب الشهوات، وعن القوة الغضبية من ذلك، فهو صادّ للإنسان عن المعالي، وهذا القسم أوضحه الإمام الغزلي في الإحياء في الجزء الثالث، وهذه الذنوب أقسى وأشد من الذنوب الظاهرية لأنها ملامسة للقلب محيطة به.

الذنوب الجسمية

وهي ضربان: ذنوب أقامت لها الشرائع الحدود والأحكام لأنها معلومة كالزنا والقتل والسرقة أو شرب الخمر وما أشبه ذلك، وضرب ليس بمضبوط ولم يكن له في الشرع حدود ولا أحكام، وهذا القسم عسر كثير الفروع، وذلك كالأكل فوق الشبع، وكتعاطي الأغذية التي لا توافق الجسم، وكالنوم

كثيراً، وكالتعرض للبرد وللحر الشديد. وبالجملة كل ما يؤذي الإنسان في جسمه أو عقله. فهذه أحوال لا ضابط لها. ولم يرد لها في الشرائع رادع ولا زاجر إلا أوامر عامة ونصائح كلية، كقوله تعالى: ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾[الأعراف: ٣١]، ومن هذا القسم الإسراف في تعاطي تجارة الأمم القوية العظيمة، فإنهم يضحكون على أذقان الأمة الجاهلة، ويستنفدون ما لديهم من المال مما يبيعون لهم من الملابس البهجة والزينة البديعة ويغشون على عقولهم، فهذا من التجارة المباحة، ولكنها تنتهي بخراب البلاد، وهكذا من يكثر التمتع باللذات المباحة من مأكل وملبس ومشرب ونساء، فهؤلاء يضيعون أيام حياتهم، ونفوسهم تعيش في نقص وتموت على ما عاشت عليه.

فهذه الأقسام الثلاثة من الذنوب عقابها حاضر عند الأمم والأفراد، فمن القسم الأول ذهاب أنواع العلوم والصناعات، ونتيجة ذلك تقهقر المسلمين والشرقيين، ومن القسم الثاني العداوة والحسد والبغضاء بين الأحزاب والجماعات في الشرق، وتعدد الفرق الجاهلة الغبية، وذلك يمكن العدو منهم ويصدهم عن العلوم، فإن الذي يضيع وقته في مدافعة أقرانه وأعدائه لا يجد وقتاً يتفرغ فيه لتكميل نفسه، فالانهماك في الذنوب القلبية يتبع نقص العلوم، أي: القسم الثاني من الذنوب يتبع القسم الأول منها. وأما الذنوب الجسمية كالسرقة والزنا وما أشبههما فعذابها في الدنيا ظاهر، وهو الأحكام التي يقيمها القضاة بين الناس والحبس والتغريم، ثم احتقار الناس للمجرم وإهانته، وهذا عذاب ظاهر في الدنيا. وأما الذنوب التي لا ضابط لها فهي أدهى وأمر، وقد شرحت لك بعضها وبها تكون الأمراض والعلل، وبالأمراض والعلل يختل أمر الجسم ويتبعه ضعف العقل، وهناك نسب واتصال بين جميع الذنوب، فإنه يتبع بعضها بعضاً وتصبح دائرة أولها آخرها.

إذا ثبت لك هذا علمت معنى قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ [الدخان: ١٦]، وقوله أيضاً: ﴿ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[الدخان: ١١]. وما روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما من خدش عود، ولا عثرة قدم، ولا اختلاج عرق إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر». وما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله تعالى حدثني بها رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾[الشورى: ٣٠] وسأفسرها لكم يا علي: ما أصابكم من مصيبة أي مرض وعقوبة، أو بلاء في الدنيا، فبما كسبت أيديكم الخ». وقال عكرمة: «ما من نكبة أصابت عبداً فما فوقها إلا بذنب لم يكن الله ليغفره له إلا بها».

فهذه الأحاديث وأمثالها لا يمكن معرفة حقائقها إلا بمعرفة ما تقدم. انظر كيف ذكر عثرة القدم وعثرة القدم تكون لسوء العادة في المشي، أو لخلل في الطريق مثلاً، فسوء العادة في المشي يرجع لعدم الكمال والنظام في المشي، وهذا من الذنوب التي ليست مضبوطة من أحد قسمي الذنوب الجسمية، وأما الخلل في الطريق فذلك لكساد العلوم وتأخر النظام المدني، وهذا بسبب ترك نظام الطرق فيعثر الإنسان لذلك، وهذا ذنب عام، فإن إصلاح الطرق ونظام المدن من فروض الكفاية يعاقب عليها عموم الأمة، فهذا من عقاب الله في الحياة الدنيا، ويستمر العذاب يوم القيامة، وذلك لأن عثرة الرجل

أو ضعف الصحة وكل ما من شأنه أن يعكر صفو الذهن يؤخر الإنسان عن تأدية بعض واجباته، وذلك يعوقه عن رقي نفسه، فإذا مات لم يرتفع إلى درجات العاملين، وإذا اختلج عرق كما ذكر في الحديث فإنما يكون ذلك الاختلاج بسبب اختلال في الصحة، إما لسوء الغذاء نوعاً أو زماناً أو مكاناً أو مقداراً أو غير ذلك، وكل هذا لجهل الإنسان، أو لشرهه، أو لقلة ضبط نفسه، والجاهل ليس بمعذور، فنبينا صلى الله عليه وسلم يشير بذلك إلى أن الناس ينبغي لهم أن يدركوا حقائق الأشياء، وإلا فالعقاب واقع دنيا وآخرى، وذلك لإخراج المسلمين من تواكلهم واتكالهم على أنهم دخلوا الإسلام ومتى دخلوه لا يعاقبون، فأفهم النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه أن المسلم يعاقب كما هو مشاهد بالمرض أو غيره، وذلك بذنبه، وأما البلاء في الدنيا فهو أمر عام يشمل أنواعاً كثيرة عامة وخاصة.

القسم الثاني
الدخان وإرساله على المذنبين

قد عرفت فيما تقدم أن الدخان يشمل الدخان الحقيقي والدخان الوهمي كما تقدم، والغبار الناجم من قلة الأمطار، وهكذا يشمل ما كانت تقوله العرب من أن الشر الغالب دخان، والدخان يشمل ما ذكر، والدخان المعدود من أشراط الساعة. قال عليه الصلاة والسلام: «أول الآيات الدخان ونزول عيسى، ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس إلى المحشر. قيل: وما الدخان؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية، وقال: يملأ ما بين المشرق والمغرب، يمكث أربعين يوماً وليلة، أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكام، وأما الكافر فهو كالسكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره». اهـ.

ويجوز أن يكون الدخان يوم القيامة. وفي حديث البخاري أن الدخان قد مضى أمره، فإنه أصابهم من الجوع كالظلمة في أبصارهم، أي فهو إذن دخان وهمي. وقال غيره: هو دخان قبل قيام الساعة، فيدخل أسماع الكفار والمنافقين حتى يكون الرجل رأسه كرأس الحنيذ يعني المشوي، ويعتري المؤمن كهيئة الزكام، وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه، وهذا القول لابن عباس وابن عمر والحسن.

فثبت لك من هذا أن العلماء في الصدر الأول جعلوها تشمل دخان الجوع ودخان الغبار، والدخان الذي قبل قيام الساعة، والدخان الذي سيكون يوم القيامة كما تقدم، وأيضاً تشمل كل شر غالب، فكل هذا يطلق عليه دخان، وأظهر المعاني الدخان المحسوس الذي قبل قيام الساعة، وأعم المعاني الذي يدخل فيه هذا وغيره الشر الغالب، سواء أكان فيه دخان أم لا. هذا تحقيق المقام وجمع الأقوال.

كيف كان الدخان عذاباً

جعل الله الدخان عذاباً وقد أنزل على قريش. وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى من الناس إدباراً قال: اللهم سبعاً كسبع يوسف. وفي رواية لما دعا قريشاً فكذبوه واستعصوا عليه، قال: اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف. فأخذتهم سنة حصدت كل شيء حتى أكلوا الجلود والميتة من الجوع. وينظر أحدهم إلى السماء فيرى كهيئة الدخان. فأتاه أبو سفيان فقال: يا محمد، إنك جئت تأمرنا بطاعة الله وبصلة الرحم، وأن قومك قد هلكوا فادع الله لهم. قال الله عز

وجل: ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴾[الدخان: ١٠] إلى قوله: ﴿ عَآئِدُونَ ﴾[الدخان: ١٥]، فهذا دخان مضى وانتهى أمره. فأما الدخان الآخر فقد ظهر في الحرب الكبرى.

وهنا أرجع بك إلى أول هذا المقال والبحث في الذنوب وأقسامها. وكيف يكون العذاب بسبب الذنوب، وأذكر قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾[الشورى: ٣٠]، فإذا فهمنا أن الدخان الذي سلط على أهل مكة بكفرهم فليكن الدخان الذي سلط على المسلمين في الحرب الماضية بجهلهم. نعم لم يعم المسلمين بل كان مرسلاً على عموم العساكر المحاربين شرقيين وغربيين، والله قبل أن يخلق هذه الأجيال أنزل القرآن، وأخبر أن هناك دخاناً. وأخبر صلى الله عليه وسلم أن المسلم يصيبه الدخان كهيئة الزكام، فأما الكافر فهو كالسكران، وأيضاً تكون الأرض كلها كموقد.

ذلك كله إيقاظ للمسلمين وتحذير، إن الأمم اليوم دخلت في دور من الحرب عظيم، وشاع أن الألمان وعدوا أن يرسلوا دخاناً عاماً فيهلك أمماً كثيرة، ويقال أيضاً: إنهم قالوا: يمكنهم إرسال دخان في الهواء فيهلك أهل الأرض جميعاً وهم معهم، قيل: إنهم قالوا: لانفعل هذا إلا إذا يئسنا من الأمم وإنصافها.

فانظر كيف يقول: ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴾[الدخان: ١٠]، وكيف يقول العلماء: إن الدخان يكون من أشراط الساعة، وكيف يقال: إن الألمان سيفعلون ذلك، وكيف يقول صلى الله عليه وسلم: إن المؤمن يصيبه كهيئة الزكام وإن الكافر يكون كالسكران.

إن المسلمين اليوم في أول زمن الانتباه، وعذابهم بالدخان إنّما يحل بهم إذا كانوا جاهلين ما بثه الله من العلوم، ألا ترى إلى ما قدمناه من أن هذا من الذنوب السلبية، فراجع ما تقدم، وهي الذنوب التي تشترك فيها الأمم كلها كترك العلوم النافعة، فهاهو ذا الدخان ظهر، وهاهم أولاء المسلمون تنبهوا، فليستمروا في العلم، وليقرؤوا كل ما عرفته الأمم الحالية، حتى إذا أرسل الدخان كانوا منه محترسين وأصابهم الزكام كما في الحديث، ولا يكونون من الأمم الغافلة التي ينزل بها البلاء وهي ساهية لاهية، والانتباه إنّما يكون بدراسة العلوم كلها كما قررناه مراراً في هذا التفسير. فمصيبة الدخان المنتشرة في العلوم الحربية اليوم لن تذهب من أذهان رجال الحرب، وسيكون لها شأن، ولا يقلل مصائبها عن أمة الإسلام إلا العلوم، فيا أيها المسلمون، بذنوبكم يقتلكم الدخان، والذنوب هنا هي الذنوب السلبية المشروحة فيما مضى، أنتم لا تقرؤون العلوم، وهذا عقاب ربكم، وصدق نبينا صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾[الشورى: ٣٠]، فإذا غلبتنا الأمم فبجهلنا، وإذا سلطوا علينا الدخان ونحن غير محترسين فبجهلنا، فالعلم هو الباب للخروج من المآزق، والله هو الولي الحميد.

فإذا سمعت قوله صلى الله عليه وسلم: «وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه»، وسمعت قوله: «حتى يكون الرجل كالحنيذ» أي: المشوي الخ، عرفت أن ذلك الدخان هو الذي ظهر في حرب الألمان، وهو من أشراط الساعة، ولعلك تقول: أشراط الساعة تقوم القيامة بعدها؟ أقول لك: هذا خطأ فإن الله يقول: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ ﴾[الزخرف: ٦١]، فجعل عيسى علامة على الساعة، وقد

مضى له ألفا سنة إلا قليلاً، فآلاف السنين، بل مئات الآلاف لا تؤثر في قرب هذه الأمور العظيمة. ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾[المعارج: ٦-٧].

ولقد كتبت ثلاث مقالات نشرت في بلاد الروسيا مترجمة باللغة القازانية، كما قدمت لك في أول هذا المقال، أنذر المسلمين فيه الدخان، وقد تم ما ذكر هناك، فها أنا ذا أكتب تلك الرسالة المسماة بالقازانية في التفسير معيداً تذكير المسلمين قائلاً: إن ما أنذرتم به قد تم، وظهر الدخان في الحرب، والمسلمون كانوا مطمع الفاتحين ومرمى مدافع الأوروبيين، ومظهر المذلة والهون، إلا قليلاً منهم كأهل الأفغان وبعدهم الفرس والترك، فقد خرجوا من ذلة الاستعباد، وقد كشف الله العذاب قليلاً، فليحذر المسلمون النوم، فالوقت جدّ، وقد أخبر صلى الله عليه وسلم أن المسلم يعتريه زكام وأن الكافر يكون كالسكران، فلتكونوا أنتم ذلك، المؤمن الذي قرأ العلوم فاحترس فأصابه شر قليل من الحرب المستطير.

إن الأرض قادمة على حروب وأهوال، فاحذروا أن تكونوا طحين الرحى، فإن كان ذلك الشر قليلاً فلتكونوا من أعلى الأمم لتنجوا من شره، وإن كان بعيداً بعد مئات السنين فقد كفيتم أنتم شرّه، وليكن العلم رائدكم حتى تأخذوا مكانتكم بين الأمم، وإليك ملخصاً من الرسالة القازانية، وقد كنت كتبتها في جريدة اللواء، ونشرت أيضاً في كتابي «نهضة الأمة وحياتها» المطبوع سنة ١٩٠٨ م، وهاك نصها:

الرسالة القازانية

وهي عبارة عن إجابة سؤال وجهه إلى المؤلف أحد شبان القازان يقول: أبلغ علماء الإسلام المتقدمين النهاية، فلا نفكر نحن بعدهم؟ أم بقي لنا مجال للتفكير في أمر الدين؟ فإجابة على هذا السؤال أقول:

أيها الذكي، سألتني عن مبلغ ما وصل إليه علماؤنا السابقون، وهل شادوا صروح المدنية ومهدوا سبلها وأوفوا بما عهد إليهم من القيام بما يكفل للأمة ثباتها ودوامها، ويكلأ غدوها ورواحها، سألت من أحسنت به ظناً، ومن لي بأن أكون ذلك الحبر الخبير العالم بأسرارهم، المحيط بعلومهم، المطلع على جلياتهم وخفياتهم، وما كان لي أن أقف حكماً في موقف عظيم مهيب، طأطأت لعظمته رؤوس الرؤوس، وخضعت لجلالته أكابر حكماء الشرق، وأساطين الحكمة في الغرب، قوم يقول فيهم الأستاذ «سديو الفرنسي» في كتابه: إن هؤلاء الأطباء الفخام، والفلاسفة الكبار، والمهندسين الأجلاء والعلماء الأعلام، في قارة أوروبا، إنّما هم تلاميذ علماء الأندلس المسلمين، ويرهن على ذلك بآيات بينات، وحجج واضحات جليات، قسم كتابه أبواباً. وأبان فيه أن كثيراً من مخترعات الأوروبيين واكتشاف المكتشفين، كانت قبسات من أنوارهم ونفحات من أسرارهم، عثر عليها الباحثون في كتبهم فنقبوا عن أسرارها، واكتنهوا كنهها، ثم ترجموها فأحرقوها، وأسندوا الاكتشافات إلى أنفسهم. ولقد فصل ذلك تفصيلاً في الفلك والطبيعة والكيمياء، وذكر أسماء أناس غربيين في نحو القرن الرابع عشر ادّعوا اكتشاف عجائب من الفلك، فدحض حججهم بأنه إذ ذاك لم تكن صروح للرصد قائمات، ولا بروج لبلوغ أسباب السماء مبنيات، في عواصم الشرق أناس كانوا نور الله للناس، فازدانت بهم الدنيا وأشرقت بهم الأرض، فأفاضوه على غيرهم من الأمم الغربية.

لعلك تريد بالسؤال علماء الدين كالأئمة رضوان الله عليهم فمن بعدهم، أولئك كانوا مصابيح الدجى، وأنوار البصائر، وشموس الحق، في آفاق الشرق.

أيها الذكي، تنحصر أعمال أولئك الأئمة العظام في أمرين: خاص وعام، فأما الخاص فذلك تفصيل فروع الفقه إذا لم يقم غيرهم مقامهم، وهي أمور ضرورية كفصل الخصومات والدعاوي والميراث والعبادات، وأما العام فإنهم قالوا: إن عامة العلوم والصناعات التي يحتاجها الناس في حياتهم الدنيا فروض كفايات، يقوم بها أناس ساعدتهم أمزجتهم، وأسعدهم استعدادهم لحملها، ولم يفرقوا بين علم الفقه وغيره، ففكت العقول من عقلها، ونهضت الأمة من مرقدها، وانتشرت الحرارة الحيوية، وأشرقت شموس العلم على ربوع البلاد، فظهر فيهم أمثال المنصور والرشيد والمأمون، وترجموا الكتب اليونانية إلى العربية، وقامت الحركة الفكرية، وساروا شوطاً بعيداً في ميدان الحياة والسعادة.

طويت تلك القرون كطيّ السجل للكتاب. وحصر علماء الدين همهم في فروع الفقه وحدها، وقصروا هممهم على القضايا الفقهية، وجالوا فيها جولات، وحمي بينهم وطيس الجدال في ميدان الخلاف، وتسابقوا لأصولها وفروعها، ولم يعيروا غيرها التفاتة، بل زادوا الطين بلة، ووضعوا ضغثاً على إبالة، إذ ذموا علماء الطبيعة والفلك والفلسفة. وقد علمت أنهم نظراؤهم في قيامهم بركن من أركان الحياة، وسعيهم معهم إلى رقي الأمة وسعادتها. ولقد حملهم على ذلك أمران:

الأول: أنهم رأوا الأئمة العظام رضوان الله عليهم هم الذين دونوا هذه الأحكام باجتهادهم، ولم يفطنوا أنهم أوجبوا العلوم على السواء، ولم يفرقوا في الوجوب بين فروع الطب والزراعة وفروع الفقه وقيامهم به وحدهم لأنه أهم، فتقديمه محتم، وتركوا النظر في العلوم الأخرى لسواهم.

الثاني: أنهم إذ رأوا تلك العلوم ليس فيها استطالة على الأقران ولا تولي الإدارات القضائية والأحكام السلطانية، نبذوها بل ذموا القائمين بها، فانقسم الناس إذ ذاك فريقين: فريق للعلوم وفريق للدين. ثم قامت طائفة من العلماء كالشيخ الغزالي، ورأوا أن السلف الصالح خلف من بعدهم خلف أضاعوا العلوم، وانكبوا على فروع الفقه، وصرفوا كثيراً من الناس عن علوم الحياة والعمران والطبيعة والرياضة والفلك والفلسفة، وتعلموا أن الدين يطلبها كالفقه سواء، فأخذوا يحملون الناس على قراءتها، وعدّوها علوماً دينية. ألف الإمام الغزالي كتاباً سماه «إحياء علوم الدين»، ومزج الفقه كالحلال والحرام بعجائب الحكمة الإلهية، كالسحاب والهواء والماء والأرض والأنهار والسماء والنجوم والشمس والقمر وعجائبها، ونواميس الطبيعة وفلسفة الضوء وشرح علم النفس، ولقد شرح في كتاب الشكر من الإحياء أنواع السعادات، وجعلها (١٦) قسماً، وأدخل فيها العلوم أجمع، وترى الإمام الغزالي أتى بعجب عجاب في حكمه، فتارة تراه يذم الفلاسفة ويكفرهم، وأخرى يذم الفقهاء ويرميهم بالقصور والجهل، ثم أشار في كثير من كتبه إلى أنهم من العامة هم ورجال علم التوحيد. ولقد فكرت في ذلك كثيراً ففهمت أن الرجل رأى المسلمين قد أشربوا كراهة العلوم بما أوحى إليهم أولئك العلماء القاصرون، فأنحى على الفلاسفة في تعاليمهم وكفرهم موافقة للعامة، ولكن في

نحو ثلاث مسائل لا غير . ثم رجع إلى أولئك العلماء القاصرين ، فأوسعهم ذماً وتقريعاً ليطلق الناس من أسرهم ويفك قيود تقليدهم . ولما أعلن ذلك عمد إلى مسائل الفلسفة فوضعها في قوالب إسلامية فتراه ذكر في باب الشكر نواميس كثيرة ، وفي باب الفكر عجائب الصفة الإلهية ، وتراه اقتبس أقيسة المنطق الأربعة في كتاب القسطاس من القرآن ، استئناساً لقلوب عامة المسلمين ، لحوز هذه العلوم ، وإخراجها لهم من حظيرة الجمود على أقوال العلماء الرسميين الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فحرموا المسلمين العلوم العقلية والحكمة ، وأتبعه ابن رشد وناقشه في بعض القول ، وأوضح في كتابه في التوحيد ما يجب على علماء الإسلام من معرفة العلوم الكونية ، وأنحى على الجامدين الجاهلين ، وأناخ بكلكله على طريقة تعليم التوحيد ، وأشار إلى من بعده أن يمزجوا علوم الكون بالدين ، ويجدّوا في اكتسابها واكتناه كنهها والتشمير في طلابها ، ثم خلف من بعده خلف رأوا وعورة الطريق وبعد الشقة ، فاستصعبوا الأمر وأوجسوا خيفة أن يصغروا في أعين أتباعهم فحكموا بكفر أولئك المرشدين ، وصارت تلك سنة في الغابرين ، كلما جاءهم عالم بما لا تهوى أنفسهم من الجمود والجهل استكبروا عليه ، ستراً لجهلهم ، وحفظاً لمراكزهم ، وصوناً لمقاماتهم أن تسام بسوء ، ففريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون ، ولئن سألتهم : لم نبذتم هذه العلوم؟ قالوا : قلوبنا غلف ، وفي آذاننا وقر .

ولعمرك إذا كفر الرازي وابن رشد والغزالي وأضرابهم وهم الذين طأطأت لهم رؤوس الماضين والغابرين من العلماء ، فليس على وجه البسيطة مؤمن . ومن العجيب أن العلماء يعظمونهم عند ذكرهم ، وإذا قلت لهم هؤلاء دوّنوا العلوم التي يقرؤها صغار التلاميذ في المدارس ، وأهل أوروبا يدرسون علومهم في مدارسهم ؛ ينغضون إليك رؤوسهم ، ويقولون : ما لنا ولهذا؟ إننا نقرأ الوجيز والبسيط للغزالي ، وما عداه فليس من الدين في شيء . وبينما نرى هؤلاء يبغضون العلماء من وجه ؛ نرى زعانف الصوفية لا أكابرهم يمرحون في الأرض بغير الحق ، ويقولون : العلم حجاب بينك وبين الله فاجعل صورة شيخك في خيالك ، والله من ورائها ، وإياك والعلوم . يقولون ذلك لئلا يستضيء الناس بأنوار المعارف فيفتضح أمر هؤلاء الدجالين وينبذونهم نبذ النواة . فأرسل الله طائفة أخرى ظالمة غشتهم بغاشية من عذاب الظلم والعسف ، فأرهقت الأمة واستعبدتها ، وأخذت تقرّب زعانف الصوفية وتصطنعهم آلات كهربائية تحرك بهم صوراً من الرجال وأشباحاً من الجهال في مراسح الحياة ، وتمثل بهم فصولاً في الحياة والسياسة . فلما استحكمت تلك الحلقات الثلاث ونامت الأمم الإسلامية أجنة في الدهر خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث سلط عليهم سيولاً جارفة وصواعق محرقة من أمم الفرنجة ، فأذلوهم واستعبدوهم ومزّقوهم كل ممزق ، وتفرّقوا أيدي سبا .

المقالة الثانية

أيها الذكي ، إذا اختصرنا نقول : أضاع الإسلام ملك ظالم ، وصوفي طامع ، وفقيه جاهل ، اتحدوا على جهالة الأمة لينالوا حظ الرئاسة ، أما وربك لو أنهم رجعوا إلى القرآن لرأوه سوّى بين العلوم على تباين مشاربها ، ليس الفقه تلك الفروع المدونة ، ألا إنّما الفقه هو الفهم ، فليس مختصاً بنحو فروع الحيض التي قد تبلغ أربعة آلاف .

أليس القائل في الحيض: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[البقرة: ٢٢٢] هو بذاته الذي أنزل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[الأنعام: ٩٥] نعم. هو الذي لم ينزل آية حيض النساء إلا بعد أن سئل النبي صلى الله عليه وسلم، وأنزل ناموس النبات وعجائبه بدون سؤال، أليس ذلك برهاناً قوياً، وحجة لامعة على أن هذه العلوم الطبيعية أولى بالوجوب على الأمة من تلك الفروع الفقهية التي يشيب الدهر ولا يسأل عنها سائل، لا بل أصبحت كأنها عبادة يتعبد بها الناس وهم لا يعلمون ما بها يصنعون، لم يجب عن الخمر والقمار إلا بعد السؤال. فقال: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾[البقرة: ٢١٩]، ولكنه أنزل عجائب الليل وبدائع الصبح وإشراق الآفاق، وبين بديعة من العجائب بلا سؤال، فقال: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾[الأنعام: ٩٦].

أيها الذكي، إني أخالك تسألني عن أحكام الدين من الطلاق والخلع والنفقة والعدة وما شاكل ذلك، مما قد يتخذه بعض العلماء حرفة يحترفون بها، إني أنبئك عن ذلك:

إن المستقبل للشبيبة فلا تتكلوا إلا على أنفسكم، قل تعالوا أتل عليكم ما حرم عليكم ربكم ألا تذروا الإصلاح اتباعاً لفقيه متعصب، ولا تكونوا للطب تاركين، وللهندسة ناسين، وعن العلوم الكونية معرضين، ولا تكونوا عالة على الأمم الغربية، بل اسعوا سعيهم، واقرؤوا علومهم، وسيروا معهم بسلام ووفاق، وتذكروا قوله تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[المائدة: ٨٢].

أيها الذكي، لئن جاءكم فاسق بنبأ الخذلان والجهل فتبينوا خبره، ولا يصدنكم عن سبيل الله فقيه متعصب، فإنما التعصب لقوته لا للإسلام، ولا يجرمنكم شنآن بغض الصوفية للعلوم وبغضهم للمعارف، ولا يرهقنكم الأمراء بالجهل، ابتغوا الوسيلة للمعالي بالعلوم، ولئن اتبعتم أكثر من في الأرض يضلوكم عن سبيل العلا والشرف: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾[الأنعام: ١١٦].

ابغضوا كل رئيس لا يعين على العلوم، وأحبوا كل أمير وعالم وصوفي يحثكم على مجاراة الغربيين.

أيها الذكي، إنا لنرجو منكم فوق ما سطرناه، نرجو أن تكونوا قدوة الأمم أجمعين، فما بالنا أصبحنا أذناباً عاجزين، وفي أخريات الأمم قاصرين، وفي فيافي الجهالات تائهين، وعن سبيل الإصلاح معرضين. انتهى الكلام على المقالة الثانية.

المقالة الثالثة

أيها الذكي، ليكن كل قدوم ومنشار وإبرة وبخار وحرارة وكهرباء مما عملت أيدينا، ومتى أعوزتنا الأيام إلى إبرة أو مدفع مما عمل سوانا فذلك إثم كبير على المسلمين، نعذب به مرتين: مرة في الحياة وأخرى في الممات.

أليس الذي قال في الكتاب: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾[الحج: ٢٧] هو الذي يقول: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُۚ ﴾[الروم: ٤٢]، فأوجب على فريق أن ينظر أحوال الأمم وعمرانها وخرابها وسياساتها كما أوجب الحج في ميقاته على المستطيع. أتدري لماذا ترك الناس الأول وأدّوا الثاني؟ لأن الحج سهل معروف، أما السير في الأرض فما أحوجه إلى اللغات وفهمها، والأموال وصرفها، والعلوم وجمعها، وذلك أصعب الأمور وأشق على الجمهور، فاستحب الناس العمى على الهدى، والراحة مع الذلة، وذل الاستعباد مع التخلف، وطبع على القلوب فهم لا يفقهون. طمس على قلوب كثير فاتبعوا أهواءهم، وصدوا الناس عن سبيل الإصلاح، صرّح بهذا الكتاب المجيد فقال: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾[الحج: ٤٦]. وفي هذه الآية من التقريع والذم والتوبيخ على الكسل والتخلف عن السير في الأرض ما يدلك على ما ذكرناه، وتراه لم يكتف بذلك التوبيخ بالعمى، بل صرّح بأن إيمانهم معدوم فقال: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾[يونس: ١٠١] ثم هدّد بالعذاب في الدنيا فقال: ﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾[يونس: ١٠٢]، وقد أكد ذلك الإنذار والتهديد بقوله: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍۗ ﴾[الأنعام: ٦٥]. نعم، ذاق المسلمون أنهم تفرقوا شيعاً وتمزقوا طرائق وتفرقوا خرائق، واقتتلوا أجيالاً طوالاً، وهو قوله: ﴿ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍۗ ﴾ [الأنعام: ٦٥]، وسلط عليهم أخسّ المماليك، وأحقر الصعاليك، فأذلوا ملوك العباسيين، والدول الإسلامية كالمماليك البرية والبحرية، وهل ينظر المسلمون اليوم إلا إنذار العذاب من السماء الذي نص عليه بقوله: ﴿ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾[الأنعام: ٦٥]، وتراه أشد وضوحاً وذكر مشروحاً في قوله عز وجل: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ ﴾[سبأ: ٩]، وفي قوله: ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾[الطور: ٤٤]، أتدري ما ذلك الكسف المركوم والعذاب الموعود؟ تلك البالونات الهوائية، والأساطين الجوية، والمدافع المكسيمية، وتلك الآلات الجهنمية تعدّها الآن الأمم الغربية، فإذا وقعت الواقعة، وانشقت المرائر، وأمطرت السماء مطراً من سجين، وتنزلت الصواعق على الغافلين، فعند ذلك لا ينفع نفس إيمانها من المسلمين، إلا الذين آمنوا ونظروا وعلموا وجاروا الغربيين، أولئك هم الناجون من ذلك العذاب الواقع ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾[الطور: ٧-٨] على أولئك المسلمين الذين لا ينظرون ولا يفكرون، ولا يعتبرون بالأندلس وهلاكهم، وخراب ديارهم، وأهل أمريكا وعذابهم وفنائهم، فإلى متى أيها الناس أنتم ساهون؟ أنذركم صيحة فاجعة، وحروباً واقعة، فإذا جاءت الطامة الكبرى وشاهدتم سحاباً مركوماً بالمدافع والجنود، وأرسلت الصواعق من البارود، وزمجرت الرعود، وأمطرت السماء حجارة وحديداً

ودمداً ورصاصاً، فأول واقع في العذاب هم الجاهلون، ولن ينجو من هولها إلا العالِمون الذين يصلحون في الأرض وهم يعقلون، واتخذوا لهم حصوناً في الهواء، ولن يكون ذلك إلا إذا أتقنت الصناعات، وقرئت الرياضيات، وفهمت الطبيعيات، وعلمت النواميس، ودرست السياسات، وصرتم أمة كالأمم.

هذه نصيحة لكم فافقهوها وإياكم أن تضيعوها، فوالله إني لأعلم ذلك يقيناً وكأني بالميدان يجري في السماء كالسحاب والدول تصطدم في الهواء أساطيلها، وتقتتل على بلاد الإسلام جيوشها، والمسلمون ينظرون ولا يتكلمون، إلا من يعقلون منهم ويعملون، فانظروا لأنفسكم قبل أن يأتي ذلك اليوم المشؤوم، لعلكم تتخذون لكم مع القوم سبيلاً، وأنذرهم يوم تصطف المراكب الهوائية وهي تقترب من السحاب، هناك تنزل الصواعق وتهطل الحجارة، شآبيب شآبيب تدرك الصروح، وتهشم البيوت، وتدهور القصور، يوم تمور السماء موراً بالجيوش الحربية، يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس في الشرق والغرب هذا عذاب أليم، ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾[الدخان: ١٢].

أيها الذكي، أنذر المسلمين الصيحة العظمى، والبطشة الكبرى، ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾[الملك: ١٧].

هاهو ذا اقترب زمان الدخان يغشى الناس من فوقهم من تلك الأساطيل الهوائية التي تعدها الدول لمحاربة الأمم الجاهلة، ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[يس: ٧]، ولا يعلمون تلك النواميس العجيبة المدهشة، تلك الصواعق تنزلت على الناس لتنتشلهم من مرابض جهلهم إلى إعلاء عرش العلم والحكمة. أنذر الله الناس وحذرهم ثم هو يعدّ لهم الأساطيل الهوائية ترميهم بحجارة من سجيل حتى يكونوا كعصف مأكول ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ﴾[القمر: ٣٦].

ولعل فريقاً يقولون: إنما وعدنا هذا يوم القيامة، وهانحن أولاء الآن في الدنيا نقول: على رسلكم، فما من صورة في الآخرة والقيامة الكبرى إلا ولها أخت نظيرتها في الدنيا، ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾[الإسراء: ٧٢]، ولئن سألتهم لم تدهور المسلمون، وارتطموا في وهدتهم، وزلوا من حالق؟ ليقولن الفقهاء: إنهم عاصون مجرمون، ليسوا على الصراط السويّ. ولئن سألتهم: عدّوا المعاصي، لأجابوك: هي الزنا والخمر والميسر والأنصاب والأزلام وكلها رجس من عمل الشيطان، والغيبة والنميمة وهلم جرا. يجيبونك بهذا الجواب الأبتر الناقص ويذرون الذنوب الكبرى والمعاصي والموبقات العظمى، وهي سحائب الجهل المركومة تغشى عقولهم وتحجب نورهم، وترسل عليهم غاشية من نار ودخان، بجهل تلك التي يسمونها فروض كفايات.

العلوم كلها فروض كفايات كما قدمنا، رأوا بعد الشقة وطول السفر، ووعورة الطريق ومشقته فأعرضوا عنها وتولوا، ولم يذكروا للناس من المعاصي إلا أسهلها وهي التروك، ومن ترك شيئاً فقد عاش بغيره، وما أسهل ترك الخمر والميسر والأصنام، الترك أمر سهل، فأعرض عن الشيء يعرض عنك. فأما العلوم فلن تنال إلا بمشقة وسهر وتعب أمد العمر، فكانت الكلفة فيها أشق، والعمل أصعب، والفكر فيها أدق، والحيلة لجلبها أغمض، والقيام عليها أدوم وأعظم، لذلك هربوا منها ولم

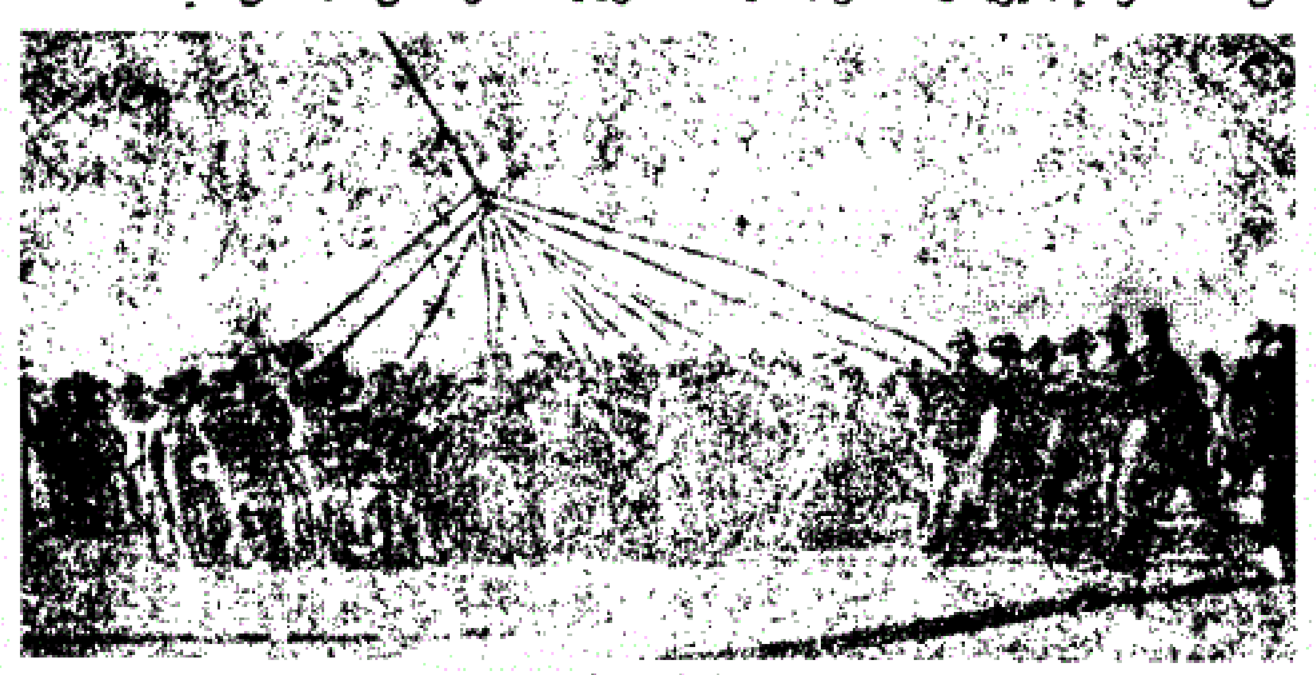
يحوموا حولها، وقالوا للناس: ما أهلك المسلمين إلا تلك المعاصي المعلومة ونسوا حظاً مما ذكروا به من فروض الكفايات، ولم يذكروهم بقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[سبأ: ٩] الآية، ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت: ٥٣]، ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾[يونس: ٣٩]، ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ﴾[الأنعام: ١٤٨]، هكذا كان حتى قرعت القارعة، وانشقت المرائر، وأحيط بنا، وأصبحنا مضغة الأفواه.

أيها الشبان، إليكم أوجه خطابي، وأدعوكم للعلم والعمل، فقد بزغت شمس الإصلاح، وبشرت بوادر الأمور بالإقبال، فالآمال بهذا الجيل معقودة، فأبشروا بالنجاح، وتذكروا قوله تعالى: ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[محمد: ٧]. انتهى ما أردته من كتابي «نهضة الأمة وحياتها»، والحمد لله رب العالمين.

الطيارات في الجو والضباب القاتل

إن ما تقدم هو الذي نشرته سابقاً في جريدة اللواء بذلك التاريخ، وحذرت المسلمين منه قبل الحرب الكبرى، وصار ضمن كتاب سميته «نهضة الأمة وحياتها» كما ذكرت سابقاً، فأنا الآن أكرر القول بأني أحمد الله عز وجل أنني بقيت في الحياة حتى شاهدت ما وقر في صدري قبل تلك الحرب، وأن نهاية الاصطدام بين الأمم كان باستيلاء الطامعين منهم على أمم الإسلام وظلمهم وإرهاقهم، فلأكتب اليوم مصداق ما كنت كتبته إذ ذاك محذراً ومبشراً، وأنا واثق جدّ الثقة ببشائر السعادة لأمم الإسلام.

في يوم من أيام شهر أبريل سنة ١٩٣١ بينما أنا في جهة العباسية شمالي القاهرة إذ رأيت الناس يهرعون وينظرون إلى السماء ويقولون: زبلن زبلن، بحركات غير عادية، وسمعت تصفيقاً وأصواتاً واستحساناً، فنظرت إذا بمنطاد «زبلن» يطير فوق المنازل كأنه حوت يعوم في البحر، واستمر يطوف فوق الأحياء أمداً طويلاً، وتوجه إلى المطار المعدّ له في ألماظة التي تقرب من مصر الجديدة «هليوبوليس» وتقبلته شرذمة من العساكر الإنجليزية وأمسكوا به، وهاك صورتيه (انظر شكل٢ وشكل٣ في الصفحة التالية).



(شكل٢)
الجنود يشدون الحبال لإنزال المنطاد في مطار ألماظة



(شكل ٣)

صورة المنطاد بعد نزوله في المطار

فالصورة الأولى تمثل المنطاد والجنود يشدون الحبال لإنزال المنطاد في مطار ألمانظة ، والثانية تصور المنطاد بعد نزوله ، وذلك النزول كان في صباح يوم السبت ١١ إبريل سنة ١٩٣١ ، وهذا المنطاد طوله يقرب من ٢٣٥متراً ، وقطر محيطه يبلغ نحو٣٧متراً ، وهو جسم مهول يطير في الجو لم تحلم به العصور .

ففي يوم ٩ أبريل سنة ١٩٣١م أخرج المنطاد من حظيرته بكل سهولة عند الساعة السادسة من الصباح ، وكان هناك جمهور من الذين تمكنوا من دخول المنطقة فحيوا المنطاد . قال أحد الركاب : قد ساعدت برودة الجو على أن يحلق المنطاد صعوداً في الجو قبل إدارة المحركات ، ولما بلغ إلى علو١٠٠متر أدبرت المحركات فأصبحنا في جو مدينة « فريدريكسهافن » في دقيقة واحدة ، ثم اجتزنا بحيرة « بودن » وعند الساعة السادسة والدقيقة ٢٣ كنا قد وصلنا إلى بحيرة كونستانس ، وواصلنا السير فوق الرين حتى دخلنا سويسرا ، فمررنا بمدينة « بريستن » الساعة السادسة والدقيقة ٤٣ ، ثم اجتزنا الساعة ٧ والدقيقة ٢٠ شافوز ، حيث شاهدنا شلالات نهر الرين المشهورة بروعتها ، وبلغنا مدينة بال الساعة ٨ والربع فدخلنا حدود فرنسا وحلقنا فوق مدينة « بيزانسون » على علو يتراوح بين ٤٠٠ و٦٠٠ متر ، وكانت سرعة المنطاد في بداية الرحلة ٩٥ كيلو متراً في الساعة إلى أن بلغت بالتدريج ١٢٠ كيلو متراً ، وقد كان الجو صحواً ، والشمس مشرقة ، غير أن السماء لم تخل من قطع الضباب وخصوصاً في جو سويسرا .

ولما أصبحنا في الجهة الشمالية الشرقية لمدينة ليون حوّل المنطاد سيره إلى الجهة الجنوبية . وذلك لأن السلطات الفرنسية أبلغت قائد المنطاد في الساعة الأخيرة أنه لا يجوز له أن يمر في جو مدينتي ليون ومرسيليا ، وهذا بعكس ما كان قد وقع في رحلات المنطاد السابقة ، ولاحت لنا مدينة ليون عن بعد عند الساعة العاشرة ، ولكن المنطاد انحرف في سيره ليبتعد عنها ، وقد حلقت طيارة فرنسية وسايرت المنطاد في مدينة ليون حتى اتجه إلى الجهة الجنوبية الغربية ماراً بمدينة فينيسيو فمدينة جيفور ، ثم تابعنا وادي نهر الرون حتى بلغنا فالانس عند الساعة ١٠ والدقيقة ٥٥ ، وهي النقطة التي وقفت فيها أربعة محركات من محركات المنطاد في الرحلة التي قام بها في مايو سنة ١٩٢٩ ، فاضطر المنطاد إلى النزول في

مطار كويرس بيبرفو الذي تمكن من الوصول إليه بقوة محرك واحد، وظلت مناظر المدن تتابع كشريط السينما، فمررنا بمدن مونتليمار وأورانج وأفينيون وطراسكون وأرل إلى أن بلغنا جنوبي سهل «كرو» وساعدت الأحوال الجوية سير المنطاد أثناء الليل فمر على مقربة من مالطة في منتصف الليل، وفي الساعة السادسة صباحاً وصلنا إلى الشاطئ الأفريقي شرقي بنغازي، وفي الساعة السادسة والدقيقة ٤٣ وصلنا إلى دارنا. وقال أيضاً:

من ألمانيا إلى أفريقيا في ٢٤ ساعة

ليتصور القارئ كيف تناولنا في بكور أمس فطورنا بفندق كورجاتن في فريدريكسهافن، وفطورنا الثاني فوق بازانكون بفرنسا، وغداءنا مقابل كتيازور، والشاي فوق جنوب كرسيكا، والعشاء فوق غرب صقليا، وتناولنا الفطور اليوم فوق المياه المصرية، وهكذا جاء جراف زبلن بنا من ألمانيا إلى الشاطئ الأفريقي في ٢٤ ساعة بالضبط، فقد غادرنا حظيرتنا في الساعة السادسة من صباح أمس، وشرع في رحلته في الساعة السادسة والدقيقة الثامنة، ثم وصل إلى أفريقيا في الساعة السادسة من صباح اليوم. انتهى ما أردت إثباته في هذا المقام، والحمد لله رب العالمين.

الدخان والضباب وآثارهما في زماننا، وكيف وافق نص القرآن

الكلام على أن الدخان سلاح الحرب المقبلة

وأن ضباباً أحدث قتلاً في أوروبا، وهذا من عجائب القرن العشرين

مصداقاً لآيات القرآن

جاء في جريدة مصر يوم ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٣٠ مقالاً تحت العنوان التالي ما نصه:

الحرب القادمة وسلاحها الحديث

أصبحت العلوم الكيميائية من أهم العوامل في حياة الأمم الحديثة وحروبها، لأنها أساس الذخيرة الحربية والمؤن المختلفة اللازمة للمقاتلين والأهلين، وقد كان لها الأثر الأكبر في إطالة مدة القتال في الحروب العظمى، فلو أن ألمانيا مثلاً لم تتمكن من استخراج الحمض النتريك من آزوت الهواء للاستعاضة به عن النترات التي كانت تستوردها وعجزت عن عمل البارود والمفرقعات لاضطرت إلى التسليم في أول سنيّ الحرب.

وما قيل بشأن الآزوت يقال أيضاً بشأن المعادن والمنسوجات والمطاط والمواد الدهنية وسائر المواد الغذائية، وكان هناك ارتباط وثيق بين الكيمياء الغذائية والكيمياء الحربية، فلو أن الألمان مثلاً حرموا الزراعة من الأسمدة الآزوتية للاحتفاظ بالآزوت للمفرقعات، أو استخدموا البطاطس وهي أساس غذاء الأهالي لعمل الكحول اللازم؛ لحلت المجاعة لا محالة بالبلاد، على أن الكيمياء الألمانية تمكنت من حل المشكلتين في آن واحد، مراعية لوازم الذخيرة والمؤنة للغذاء، ولولا استعداد معاملها الكيميائية وتجهيزها منذ زمن بعيد للقيام بكل ما يطلب منها لما استطاعت قط أن تقف الموقف الذي وقفته من أعدائها طول مدة الحرب، فإنها كانت بين أمرين لا ثالث لهما: إما إنتاج ما يلزمها، وإما التسليم. فتمكنت مدة طويلة من الإنتاج بفضل كيميائييها العديدين الذين كانوا مدربين على العمل.

ولم يكن للحلفاء بد من مقابلة ألمانيا بالمثل، فتمكنوا من مقابلة الاختراع بمثله، فازدادت بذلك الاختراعات المبيدة والنافعة بوقت واحد، حتى إذا خيم السلام على العالم انتفع الناس بتلك الاختراعات سواء في المسائل الصناعية أو الزراعية أو التجارية أو الفنية، حتى صرنا كلما قلبنا مجلة علمية من المجلات الأوروبية الجامعة نجد بها كثير من الآلات التي اخترعت أثناء الحرب وبعدها، وسهلت الأعمال الحيوية المختلفة أمام المنتجين في كل قطر من أقطار الأرض، ويكفي أن نشير فقط إلى أن الغازات السامة والخانقة التي ابتدعها الألمان أصبحت تستخدم اليوم في إبادة الجرذان والجراد وغيرها من الحيوانات والهوام التي تغشى المزارع والحقول، وأهم آلات حفر الخنادق أصبحت تستعمل الآن في حفر الجدران ودك الأحجار وإقامة الأرصفة، كما أن الدبابات تستخدم في تسوية الأراضي الحجرية ونسف التلال وغيرها مما يعوق نظام الأراضي.

هذه فوائد اختراعات الحرب، غير أن المراسل الحربي لمجلة نيويورك العلمية الجامعة يقول: إن العلوم الكيميائية سيكون لها الفضل في الحرب القادمة التي أخذ شبحها المخيف يجول الآن فوق سماء أوروبا، لأن كيميائيي الألمان باختراعهم الغازات الخانقة والسامة وغيرها مهدوا لغيرهم أن يخترعوا غازات أشد فتكاً منها، كغاو اللويسيت الخانق الذي اخترعه أحد كبار ضباط الأمريكان، وله قوة على القتل أشد من سائر الغازات التي كانت مستعملة قبل الحرب.

وهذا الغاز عبارة عن سيال زيتي تشتم منه رائحة الجرايفوم وقت انفجاره ويلتهب بملامسة الهواء، أما إذا أطلق في الهواء فإنه يتحول إلى غاز يقتل لساعته بمجرد استنشاق شيء يسير منه، لأنه يسمم الدم ويفتك بالقلب والرئتين، وإن سقطت منه قطرة واحدة على الكف سببت الموت بعد ساعات قليلة يقضيها صاحبها محتضراً في عذاب أليم.

وقد وضع الأمريكان هذا الغاز في شكل قنابل طول الواحدة عشرون سنتيمتراً تطلق بآلات موضوعة على عجلات سيارة تقطع ٢٤ كيلومتراً في الساعة، وقد اختبرت فنجحت للغاية، ودلت على أن هذه العجلات تستطيع أن تطلق قنابلها الغازية على مسافة ثمانين كيلومتراً.

وتأثير اللويسيت عند انتشار غازه يبقى شديداً إلى مسافة بعيدة، حتى إن فتكه يكون ذريعاً على مسيرة أميال كفتكه عند مصدره، وإذا ألقي من طيارة انتشر في بقعة عظيمة وقتل الألوف من الناس بلا رحمة، وإذا ألقيت ست قنابل منه على عاصمة من العواصم الكبرى أهلكت سكانها وأبادتهم في الحال.

وهذا الاختراع وضع في يد الأمريكان أقوى سلاح عرف منذ خلق العالم، ومن يعلم غداً ما تفتقه عقول المخترعين من الاختراعات الرهيبة في الحرب المقبلة التي ستكون أشد الحروب ويلاً وأعظمها فظاعة. انتهى.

الكلام على الضباب

جاء في تلغراف خاص من لندن من مراسل جريدة «الضياء» بتاريخ يوم الخميس ١١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ تحت العنوان التالي وهذا نصه:

تكاثف الضباب في إنكلترا

تكاثف الضباب ثانياً وعرقل سير المواصلات في شواطئ إنكلترا الجنوبية وفي لندن وضواحيها، لكنه انقطع في اليومين الأخيرين في خليج المانش، أما في ساوثمبتون فكان كثيراً، وكذلك في دوفر عند مصب نهر التيمس، وكان ينوي جلالة الملك الخروج للصيد لأول مرة بعد إبلاله من مرضه في سنة ١٩٢٨، إلا أن حالة الضباب جعلته يضطر إلى العدول عن الصيد، وفي تويكنهام قد انقشع الضباب عنها قليلاً عند الظهر.

ضحايا الضباب في البلجيك

يقول الخبيرون: إنه لابد أن الضباب الذي غشى جو البلجيك كان مصحوباً بمواد غازية خانقة والتي كانت سبباً في هلاك ٦٠ شخصاً، ولكن لم يثبت بعد أن اللهب الكبريتي الصاعد من المصانع كان له أي أثر في ذلك، وفيه أيضاً ما يأتي:

هل أصبحت مسألة الضباب سراً غامضاً؟

برلين ١٠ ديسمبر لمراسل الضياء الخاص: يكتنف مسألة الهول الناجم عن تكاثف الضباب وضحاياه سر غامض، نظراً لهلاك كثيرين بسببه في الوادي القريب من لييج، ولكن يظهر أن هذا السر المقنع أمكن الآن إزاحته بالتحقق من أن الأسباب المباشرة لضحاياه هو الاعتراف بوجود أبخرة خانقة من الدخان المؤذي المتصاعد من مداخن المعامل ثم يرسب ويتجمد، وقد كان عدد ضحايا الضباب ١٣٠ شخصاً بخلاف الذين نقلوا إلى المستشفيات والذين تحت خطر الهلاك اختناقاً، ولكن اتضح من تشريح الجثث طبياً أنه لا أثر فيها للغازات السامة كما دلت تقارير الخبراء الأخصائيين، وقد فتحت هذه الحادثة المروعة والغريبة في بابها باباً للعلماء لاكتشاف مفتاح السر الغامض، ويدؤوا يزاولون بحثهم بغير توان ولا كلل، بينما تترى أمامهم مواكب الجنازات التي يشيعون فيها المنكوبين إلى مرقدهم الأخير، وقد أرسلت فرق من البوليس لحفظ النظام في الأقاليم المنكوبة. اهـ.

وجاء في تلغراف آخر من برلين من مراسل جريدة الأهرام الخاص بتاريخ ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٣٠ ميلادية ما نصه:

عودة الضباب الوبائي إلى بلجيكا

جاء من بروكسل أن الهول الزاحف الذي أودى بحياة الكثيرين في وادي الموز في أوائل هذا الشهر عاد في عيد الميلاد، إذ خيم ذلك الضباب الوبائي القتال على مدينتين في المنطقة الجنوبية، فقضى على حياة ثلاثة أنفس، وهنالك عدد كبير من المصابين بهذا الوباء في حالة خطيرة، وأنذرت الحكومات الناس بملازمة المنازل، وقصد أعضاء اللجنة التي انتدبت لفحص الضباب الأول إلى تلك المنطقة لمواصلة المباحث العلمية لمعرفة العلة. اهـ.

هاهو ذا سلاح الطيران في الحرب الكبرى السابقة وفي الحرب المقبلة وهو الدخان، وهاهو ذا الضباب الذي أخذ يظهر في أوروبا قليلاً قليلا ويقتل الناس. أيها الناس، أليس هذا عجباً! ينزل الله سورة باسم الدخان، ثم يقوم الناس باستخراج ذلك الدخان من المواد الأرضية وينشرونه بينهم فيقتل الناس بسهولة.

ثم نرى الله عز وجل يخرج من لدنه ضباباً وينشره بينهم في بلجيكا وغيرها فيموت به أناس، أليس هذا الثاني هو نفس الدخان الذي جاء وصفه في الحديث الشريف المتقدم، وأن هذه الإنسانية الجاهلة الغبية لما أن سارعت إلى استخدام الدخان الصناعي في المحاربة؛ أشار الله لهم وللمعجزة القرآنية بالضباب في أوروبا من صنعه هو لا من صنع الإنسان، وكأنه سبحانه يقول لهم: أنا قادر أن أبعث عليكم عذاباً بنفس الدخان وأنشره بينكم فتهلكون في يوم أو بعض يوم، لقد شرحتم الجثث التي أماتها دخاني، فهل وجدتم فيها أثراً غير دخاني أنا، ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء: ٨٥].

إن الضباب الذي أهلك النفوس إنذار للأمم كلها بالهلاك عاجلاً أو آجلاً إذا لم تقلع عن الشر ومصداق للنبوة، واستعجال بالآيات التي ستظهر قبيل قيام الساعة، فكأن العناية الإلهية أظهرت هذا لتدل المسلمين على أن ما في كتابكم من الدخان هذا نموذجه وعنوانه، فكتابكم صدق وحق، ولكن ليس معنى هذا أنكم تكونون جهلاء، فلا بد من التعليم والجد ومجاراة الأمم حتى تفوزوا في الدنيا والآخرة. وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الثانية، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثالثة في قوله تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

هذه اللطيفة فيها جوهرتان

الجوهرة الأولى: محاورة سقراط مع أرسطوديموس

علم سقراط من أرسطوديموس أنه لا يقرب القرابين، ويحقر الأمور الدينية، ويسخر ممن يعتني بالعبادة، فقال له: أي الناس من يعجبك براعته في الصنعة؟ فقال: نعم. يسمي الشعراء والمصورين من كان منهم أبرع من غيره، فقال سقراط: أيما عندك أرفع شأناً؟ أمن يصنع التماثيل العارية عن الحركة والعقل؟ أم من يصور الأشباح الحية المتحركة؟ فقال: من يصنع الصور الحية المتحركة، اللهم إلا إذا كانت تلك الصور من عمل المصادفة والاتفاق لا من عمل العقل. قال سقراط: إذا فرضنا أشياء لا يظهر المقصود منها وأشياء أخرى بينت القصد والمنفعة، فما قولك في تلك الأشياء، ماهي عندك من فعل العقل. وما هي من فعل الإتقان؟ قال: لا شك أن ما ظهر قصده ومنفعته من فعل العقل. قال سقراط: أوليس ترى أن صانع الإنسان في أول نشأته جعل له الآلات والحس لما في تلك الآلات من المنفعة الظاهرة، فأعطاه البصر والأذنين ليبصر ويسمع ما يكون لعيشه نافعاً، وما فائدة الروائح لو لم يكن لنا الخياشيم، وكيف ندرك المطاعم، ونفرق بين الحلو والمر والمز لو لم يكن لنا لسان نذوق به، إن بصرنا معرض للآفات، أوليس ترى كيف اعتنت القدرة الإلهية بذلك فجعلت الأجفان له كالأبواب لتمنع ما يصيب البصر، وجعلت الأشفار كالمناخل لتقيها من أضرار الرياح، فما قولك في آلة السمع وهي تقبل جميع الأصوات ولا تمتلئ أبداً؟ أما رأيت الحيوان كيف رتبت أسنانها المقدمة وأعدّت لقطع الأشياء فتلقيها إلى الأضراس فتدقها دقاً، فإذا تأملت في ترتيب ذلك أيمكن لك أن تشك هل هي من فعل الاتفاق أو العقل؟ قال أرسطوديموس: نعم. إذا تفكرنا في ذلك لا نشك في أنها من فعل صانع حكيم كثير العناية بمصنوعاته. قال سقراط: اعتبر ما جبل عليه الذكور من حب التناسل وفي الإناث

من الحنين إلى بنيها، وهو مغروس في كل حيوان من الشوق إلى الحياة، والنفور من الموت، أليس ذلك من عناية صانع قد أراد بقاء مصنوعاته، فإذا تحققت من وجود العقل فيك فكيف تظن أن لا وجود للعقل فيما هو خارج عنك، مع أنك إذا تفكرت في الأرض واتساعها وقست ذلك بجسدك فقد تحققت أنه ليس لك من الأرض إلا أخس جزء وأقله، وكذلك الرطوبة التي منها تركب جسدك، فإنها ليس من مجموع الرطوبة إلا أحقر جزء، وكذلك بقية ما في جسدك، فكيف تظن أنك منفرد تستبد بالعقل دون بقية العالم على سعته ورحبه، وأن هذه المصنوعات التي لا تدخل تحت الحصر، وهذا النظام الغريب الحاصل فيها إنّما نشأ عن عدم العقل. قال: لا والله، وإنّما لا أرى أصحاب هذه العجائب كما أشاهد أصحاب التماثيل والصور المصنوعة في عالمنا هذا. قال سقراط: إنك لا ترى نفسك المدبرة لبدنك، فعلى هذا كان ينبغي لك أن تقول إن أفعالك صادرة عن اتفاق ومصادفة لا عن عقل. قال: إني لا أستصغر اللاهوت، وإنما أراها تجلّ عن أن تكون محتاجة لعبادتي. قال سقراط: فإذا كانت لا تجلّ عن العناية بك كان من الواجب أن تحترمها. ثم قال: اعلم أيها الحبيب أن نفسك تدبر جسدك ما دامت مقارنة إياه، فعليك أن تعتقد أن الحكمة الموجودة في العالم تدبر كل شيء كما شاءت. أتظن أن بصرك يقدر على إدراك ما بعد عنك على مسافة بعيدة، وأن بصر الإله لا يقدر على أن يحيط بجميع ما في العوالم. انتهى ملخصاً.

وإنما نقلت هذه المحاورة لأنها من أحسن ما قاله الناس في نظام هذه الدنيا، وعناية الله بها، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ فالمحاورة تبين بالعقل وجود الله تعالى وعنايته بالمخلوقات. ثم إن سقراط استدل على بقاء النفس بأدلة في المحاورة التي بينه وبين فيدون في بقاء النفس بعد الموت، وهاك ملخصاً منها:

قال سيبس: ما هي العلة فيما يقوله الناس؟ إنه لا يسوغ قتل المرء نفسه؟ هذا ما كان يقوله فيلالوس وغيره، ولكن لم أظفر من أحد بعلة شافية في ذلك، قال سقراط: طب نفساً، لعلك ترشد اليوم إلى ما تطلبه، بل ولعلك تقضي العجب بما أقوله، وهو أنه يجب على كل امرئ أن يعيش وإن كان ممن الموت خير له من الحياة، ألا تستغرب أنه لا يجوز لمن يؤثر الموت على الحياة أن يتخلص منها بنفسه، وأنه من الواجب عليه أن ينتظر من يخلصه منها. فقال سيبس: الله أعلم على عادة بلاده. قال سقراط: هذا الرأي مخالف للعقل في ظاهره، ومع ذلك فله علة معقولة، نعم. إن ما يقال عند تعليمنا أسرار العبادة: إن الإنسان كالجندي المنصوب لحراسة لا يسوغ له أن يتركه بدون إذن؛ فهو صعب الفهم ويتجاوز قدرتنا. فالأحسن أن يقال: إن الملائكة لهم عناية بالنفس، وإن البشر متاع للملائكة وملكة. ألا ترى هذا حقاً يا قابس؟ فقال قابس: نعم. قال سقراط: لو أن بعض رقيقك قتل نفسه من غير إذنك لغضبت عليه ولعاقبته لو كان من الممكن، ولهذا السبب فقد يسوغ القول بأنه لا يجوز للإنسان أن يقتل نفسه، وينبغي له أن ينتظر الإذن بالخروج من الحياة مثل ما أتاني اليوم. قال قابس: وهذا لا يبعد عندي أيضاً، لكن إذا ثبت عناية الملائكة بالبشر وأن البشر من ربهم ومتاعه، كيف تقول: إن الفيلسوف يميل إلى الموت بإرادته؟ وكيف يعقل أن يحب الفيلسوف الخروج من ولاية

الملائكة وترك هذه الحياة، إذا تقرر عنده أن أفضل الولاة يصرفون عنايتهم إليه ما دام حياً، أيظن أنه يدبر نفسه أحسن مما يدبرون، نعم. إن السفيه يحاول أن يهرب من ربه بكل وسيلة، ولا يفهم أنه لو لازم ما هو أفضل منه لكان خيراً له، لكن العاقل يريد أن يبقى دائماً في ولاية من هو أفضل منه، ولذلك فإني أقول يا سقراط نقيض ما تقوله أنت، فأقرر أن العاقل يشق عليه الموت، فلا يسر بالموت إلا المجنون. فقال سقراط: ما هو رأيك في الموت؟ أليس هو فراق الروح من البدن بحيث يصير الروح وحده إلى جهة والبدن وحده إلى جهة أخرى، أليس هذا ما يدعى الموت. قال سيمياس: وهو كذلك. قال سقراط: فهل ترى أنه يناسب الفيلسوف أن يحرص على ما يقال له الملاذ مثل المطاعم والمشارب وغيره من اللذات التابعة للبدن، فيكون حرصه مثلاً على الملابس الفاخرة، والنعال المزخرفة وباقي ما يزين به البدن، هل ترى أنه يعظم أمرها أو أنه يحتقرها إلا إذا أحوجته الضرورة إلى استعمالها. قال سيمياس: أرى أن الفيلسوف الحقيقي لا يسعه إلا احتقار ذلك. قال سقراط: فإنك ترى إذن أن اجتهاد الفيلسوف إنّما قصده ليس البدن، وأن يفرغ جهده بالتباعد عنه قدر إمكانه ليتفرغ لمصالح نفسه دون غيرها، وعلى ذلك فإن الفيلسوف يختص دون غيره من البشر باجتهاده في الفصل بين نفسه وبدنه والفرق بينهما، قال سيمياس: وذلك ظاهر. إلا أن أغلب الناس يرون أن من لم يلتذ بمثل ما ذكرته ولا يستعمله فهو ممن لا يحسن التصرف في حياته، وأنه أقرب إلى الموتى منه للأحياء. قال سقراط: وهذا حق. فماذا تقول في اكتساب العلم؟ هل ترى أن البدن مما يعوقه، أو أنه يعين عليه، هل ترى أن البصر والسمع مثلاً مما يدرك به الحق اليقين، أم الحال كما قال الشعراء أنا لانسمع ولا نبصر شيئاً كما هو في الحقيقة، فإذا لم يثبت شيء مما ندركه بهاتين الحاستين لم يثبت شيء مما ندركه بالحواس الأخرى، لأنها تنقص عنها قوة وإدراكاً، وعلى هذا إذا سألنا عن الوقت الذي تدرك فيه الروح الحق؛ لا يقال إنها تجد الحق ما دامت مشاركة للبدن، لأنا نرى عياناً أن البدن يزيغها عن الطريق الحق ويملؤها أوهاماً، فنبغي أن يقال: إن الروح لا يدرك الحق إلا بالفكر. ونرى أن الفكر أقوى ما يكون إذا لم يشوشه البصر ولا السمع ولا الألم ولا اللذة، فانحاز في نفسه وفارق البدن مفارقة تامة، وتعلق بما هو موجود ليعلمه. قال سيمياس: نعم ما قلت. قال سقراط: أوَليس تحتقر الروح البدن في قتل تلك الأوقات وتنفر منه، وتحاول أن تنفرد بنفسها. قال سيمياس: إني أرى ذلك أيضاً. قال سقراط: فماذا تقول في بعض الأشياء كالعدل مثلاً والخير والجمال، هل تقول إنها موجودة أم لا؟ قال سيمياس: لا شك في وجودها.

قال سقراط: هل رأيتها ببصرك؟ هل أدركت بحاسة من حاساتك الأخرى الصحة والعظم والقوة وغير ذلك مما هو جوهر الأشياء، أي ماهيتها، هل تعلم حقيقة ذلك بواسطة البدن، أوَليس من الثابت أن ذلك إنّما يدرك أتم إدراك إذا تهيأ الإنسان لأن يدركه بالعقل وحده، وأنه يبلغ في ذلك غاية البيان، إذا جعل كل شيء نصب بصيرته من غير أن يستعين بالبصر وغيره من الحواس البدنية واستعمل فكره صافياً من غير شائبة شيء دونه، فحاول بأن يدرك جوهر الأشياء الصافي الحقيقي دون مشاركة العينين والأذنين منفكاً عن بدنه انفكاكاً تاماً، إذ لا يحصل له من مشاركته بالبدن إلا التشويش

وعدم وجدان الحق، فأقول: إنه إذا قدر أحد على إدراك جواهر الأشياء فلا يقدر عليه إلا مثل من ذكرته الآن.

فثبت أنه إذا أردنا أن نعلم شيئاً حق المعرفة فلا بد من الانفصال عن البدن حتى تنفرد النفس بالنظر فيما قصدنا معرفته، فلا ننال المعرفة التي صرحنا بحبها إلا عند ذلك، أي بعد موتنا ومفارقة الحياة، وهذا مما يؤيده العقل أيضاً، فإنه لما بين أنه من المستحيل أن نعلم شيئاً صافياً ما دمنا في محبة البدن؛ لا يخلو الأمر من حالين: إما أنا لا نعلم الحق أبداً، وأما أنا نعلمه بعد الموت، لأن الروح إذ ذاك يكون مالكاً لنفسه حراً مما يعوقه الآن، فما دمنا في قيد الحياة لا نتقرب من الحق إلا بقدر ما نتباعد عن البدن، وننفك عن الخلطة معه إلا بقدر ما تدعو إليه الحاجة، ولا نجيز له أن يعدونا بما فيه من الدنس طباعاً، وتبقى به أنفسنا صافية من قاذوراته إلى أن يخلصنا الله، فإذا تخلصنا من سفاهة البدن يشبه أن يكون كلامنا إذن مع من تخلص مثلنا، فنعلم بنفسنا جوهر الأشياء الصافي وهو أصله ما يدعى الحق، هذا ما يقوله الفلاسفة فيما بينهم على ما أراه. فإذا كان الأمر كما ذكر فإن كل من هو بصدد السفر حيث أنا متوجه كان له أن يرجو إدراك الحق الذي أجهدنا طلبه في هذه الحياة، وعلى ذلك فإن هذا السفر الذي أمرني به الإله قد ملأني رجاء، وعلى مثل هذا يكون كل من اعتقد من نفسه أنها مستعدة لمعرفة الحق، أي أنها بلغت من الصفاء والنقاوة القدر اللازم، وهذا الصفاء لا يكون إلا بانفصال النفس عن البدن وتعوّدها على الانفراد بنفسها دون مشاركة قيدها البدني، وإذا كان الموت ليس إلا هذا الفراق بين النفس والبدن، أليس من الصواب أن يقال: إن الفيلسوف لا شغل له إلا هذا الفراق، فإذا سعى عمره كله لنيل هذا الغرض ثم تأسف وغضب عند اقتراب الموت أليس ذلك من المضحك؟ قال سيمياس: نعم ما قلت.

انتهى كلام أفلاطون وهو الدليل الأول على أن الموت لا يخاف منه من تفرغ للفلسفة، إلا أن لمعترض أن يقول: ما الدليل على بقاء النفس بعد الموت، فإذا لم يكن لنا ثبوت ببقائها فأنى لفيلسوف ما كان يرجوه من إدراك الحق عند مفارقة بدنه، فأخذ سقراط في الرد على هذا الاعتراض وبيان بقاء النفس بعد موتها، فأتى بأدلة:

أولها: إنا شاهدنا في العالم الضد إنّما يتولد عن ضده، فالجميل مثلاً ينشأ عن القبيح، والعدل عن الجور، واليقظة من النوم، والنوم من اليقظة، والقوة من الضعف، وبالعكس، فالأشياء تستحيل بعضها إلى بعض، ثم ترجع على صفة الدائرة إلى ما كانت عليه، والحياة والموت والوجود والعدم نقيضان، فالحياة تنشأ عن العدم، والموت ينشأ عن الحياة، وعلى ذلك فيلزم أن تنشأ الحياة من الموت، إذ لا بد أن يكون للموت ما يناقضه، وإلا فقد تخالف الطبيعة قاعدتها المطردة في جميع الأشياء.

ثانيها: ما يستدل به من طبيعة العلم، وذلك أن العلم إنّما هو تذكر النفس ما كانت قد علمته في حياة سابقة، ومصداقه أن أجهل الناس إذا سئل سؤالاً منتظماً عن مبادئ الهندسة مثلاً، وانتقل به السؤال من أصل إلى أصل شيئاً فشيئاً على الترتيب؛ فقد يجد من نفسه مبادئ الهندسة ومبادئ كل علم، وهذا لا يمكن إلا إذا كانت تلك الأصول منطبعة في فطرته، موجودة عنده قبل ولادته، وهناك

دليل آخر من هذا النوع، وهو أنا لولا فرضنا علماً سابقاً موجوداً في ذهننا لما تمكنا من فهم شيء من الموجودات، فإنا إذا قابلنا مثلاً شيئاً بشيء آخر ما أمكن لنا أن نقول إنه مساو أو غير مساو لو لم يكن في ذهننا قبل كل مقابلة معنى المساواة المطلقة التي لم نستفدها من الأشياء المحسوسة، إذ لا شيء منها يتحقق فيه المساواة إلا بنوع تقريب ومسامحة، فوجب أن تكون معنى المساواة مرتسمة في ذهننا حتى نحكم على الأشياء أنها متساوية بعضها ببعض أو غير متساوية، ومثل هذا يقال في باقي ما يحكم به فكرنا كالجمال والعدل والوجود وغيره، فإن كل ذلك يستدعي معرفة تلك المعاني قبل الحكم بها، فيلزم منه أن العقل البشري إنّما اكتسب هذه المعرفة بمشاهدة تلك المعاني صافية غير مشوبة قبل ورودها إلى هذا العالم.

إلا أن لقائل أن يقول: هذا الدليل قد يكفي لبيان وجود النفس قبل هذه الحياة الدنيا، فما الدليل على بقائها بعد الموت؟ فأجاب عدة أجوبة:

أولها: إن النفس جوهر غير مرئي، فيلزم منه أنه على غير طبيعة الأجسام، لأن من طبيعة الجسم أن يكون مدركاً بإحدى الحواس، وإذا كانت على غير طبيعة الجسم فهي إذن غير مدركة، لأن التركيب من طبيعة الأجسام، وإذا كانت بسيطة فإنها غير قابلة للانحلال، لأن الانحلال يعتري المركب إلى المواد التي منها تركبت، فإذا كانت النفس بسيطة فلا يتصور انحلالها.

الثاني: إن النفس هي الآمرة والبدن هو المأمور، فمن طبيعة الأمور الإلهية أن تكون آمرة ومتصرفة، ومن طبيعة الأمور السفلية أن تكون مأمورة، فالنفس إذن من الأمور الإلهية وهو غير قابل للزوال، فهي إذا بقيت على صفائها وفطرتها من غير أن تشارك البدن في أدناسه فإنها تلتحق بعد الموت بموجود مثلها، فتبقى معه سعيدة مبتهجة محررة من أوهامها وأخوافها وأهوائها وكل ما كان يسخرها ويشوشها إذ كانت في قيد الحياة، وإذا تركت البدن ملوثة مدنسة غير معتقدة من الوجود إلا ما يؤكل ويشرب ويدرك بالحس فلا يسعها إلا أن ترجع إلى الحياة فتتعلق بأبدان مشاكلة لطبيعتها، فمن جعل بطنه إلهه يلتحق بأجسام حمير أو خنازير، ومن كان دأبه التعدي والظلم والعدوان يتعلق بأجسام الذئاب والبوازي وغيرها من الحيوانات الضارية، ومن اعتاد الخير والصلاح، لكن بقوة الطبيعة والملكة دون أن يشاركها الفلسفة والفكر فقد يصير من النحل والنمل وغيره من الحيوانات النافعة، أو يتعلق بأبدان الصالحين من الرجال، وأما الالتحاق بالملائكة فلا يجوز إلا لمن ترك الحياة وهو على غاية من النقاوة والصفاء، وهذا مختص بالفيلسوف الحقيقي دون غيره.

قال أفلاطون: وقد سكت سقراط بعد هذا الكلام برهة، وسكت أصحابه مفكرين، ثم رجع سقراط لسؤالهم: هل ما سمعوه منه يكفي في إثبات بقاء النفس بعد الموت، أو في الأقل في ترجيح هذا الرأي على غيره، إذ هي الغاية القصوى التي يمكن إدراكها في هذه الحياة في مثل هذا الموضوع، فاعترض عليه بعض التلامذة باعتراضين: الأول: لقائل أن يقول: إن النفس للبدن كالألحان لآلات الموسيقى، فإذا تكسرت الآلة وفسدت لم يبق للألحان وجود، وهكذا يمكن أن يقال: إن النفس ما هي إلا نتيجة تكافؤ العناصر واعتدالها في المزاج الإنساني، فإذا فسد الاعتدال وتلاشى المزاج تفسد النفس

لا محالة . والاعتراض الثاني : أن يقال : قد سلمنا بوجود النفس قبل هذه الحياة وأنها أفضل من البدن وأقوى منه ، وأنها تبقى بعد موته ، غير أنه لا يترتب على ذلك بقاؤها على الدوام ، إذ قد يتأتى أنها تبقى بعد موت بدنها ، ثم بعد موت بدن ثان ، فتنتقل هكذا من بدن إلى بدن مدة ، ثم تفنى بفناء أحد أبدانها كما يموت الإنسان وهو قد أخلق الثوب بعد الثوب ، ثم يموت عن آخر ثوب قد أخلقه .

فأجاب سقراط عن الاعتراض الأول بقوله : إذا سلمنا أن العلم والتعلم إنّما هو تذكر النفس ما كانت قد علمته في حياة سابقة ، فلا يسوغ أن يقال : إن النفس نتيجة اعتدال المزاج ، إذ لو كان كذلك لما سبق وجودها وجود المزاج ، فكيف تتذكر معلوماتها في حياة سابقة ، فإذا وجب الاعتراف بأن العلم لا يتصور إلا بوجود هذه المعلومات السابقة في النفس ؛ لزم منه أن لا تكون النفس نتيجة المزاج . وهناك جواب آخر وهو أنه لو كانت النفس نتيجة المزاج لكانت تابعة للمزاج ولا تخالفه في شيء ، بل تكون مسخرة له ، ونجد الأمر على خلاف ذلك في الواقع ، إذ قد ترى النفس تنهى البدن عن أشياء ، وتأمره بأشياء ، وتتصرف فيه بوجوه مختلفة ، وهذا يدل على أنها مغايرة للبدن مستقلة عنه ، وأن جوهرها أعلى وأفضل من طبيعة البدن ، إذ لو كانت تابعة للمزاج لما كانت تفارقه في شيء ، ولما كانت النفس تختلف عن النفس إذ لا فرق بين الألحان والألحان إلا في القوة والضعف لا من حيث إنها ألحان ، ونحن نشاهد بين النفس وأخرى التفاوت العظيم .

أما الاعتراض الثاني فجوابه أن الأشياء المحسوسة الفانية لا يتصور قيامها إلا بوضع معان غير محسوسة أزلية كاملة الوجود ، وأن هذه المعاني ما دامت هي هي لا تقبل شيئاً مما يناقضها ، ولمثل ذلك فإن معنى العدل لا يقبل شيئاً من الجور ، والمساواة لا يداخلها شيء من التفاوت ، والفرد ما دام على جوهر الفرد لا يقبل من الزوجية شيئاً ، والعكس بالعكس ، والقول في النفس على مثل القول في المعاني سواء بسواء ، إذ قد تقرر أن النفس جوهر بسيط قائم بنفسه مجانس للمعاني ، فيكون حكمه مثل حكم المعاني من عدم قبول الضد والنقيض ، ولا شك أن النفس أصل للحياة في كل حي ، فهي إذن حية من ذاتها ، فهي إذن لا تقبل نقيضها أي الموت ما دامت على جوهرها وهو عين الحياة ، فكما أن الفرد مثلاً لا يكون زوجاً ، ولا العدل جوراً ، ما بقيا على حالهما ، كذلك النفس لا تقبل الموت ولا يدخلها الفناء فهي إذن أزلية ، ثم إذا كان الموت نهاية كل شيء ، كان فيها فائدة عظيمة للشرير والظالم ، فإنه يستريح بالموت من نفسه ، ومن بدنه ، ومن شره ، ومن عواقب شره دفعة واحدة ، وهذا مما لا يرتضيه العقل ولا الإنصاف ، فتعين أن نعتقد في النفس أنها إذا فارقت البدن فقد تحمل معها ما كانت عليه من الأوصاف وأن عاقبتها تكون في الحياة القابلة على نسبة تلك الأوصاف ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، فمن ترك وهو في قيد الحياة ملاذ البدن ومتاع الدنيا واجتنبها كما يجتنب مالا يعني أو يضر ؛ ولم يطلب من اللذة إلا ما يحصل عن العلم ، وزين ضميره بما يواتيه من الزينة كالعفة والعدل والمروءة والحرية والصدق ؛ فله أن يترقب وقت السفر من غير اضطراب . انتهى الكلام على الجوهرة الأولى .

يقول المؤلف : الأدلة جميلة ، ولكننا نخالف سقراط في مسألة التناسخ وانتقال أرواح الناس إلى حيوانات ، فهذه مردودة رداً بشدة ، وأيضاً الناس ليسوا ملكاً للملائكة بل ملكاً لله وحده . اهـ .

الجوهرة الثانية: حكاية

قد جاء في الجرائد الفرنجية منذ سنين أن التلاميذ في إحدى الكليات في إنكلترا ليلة سمعوا ضجة عظيمة في المدرسة، ذلك أنهم أزعجتهم طلقة نارية، فهرولوا إلى مكان الحادثة، فرأوا تلميذاً يهودياً مضرجاً بدمه، وبجانبه الآلة التي ضرب بها نفسه وهي «الريفرفر»، ووجدوا ورقة مكتوبة بجانبه وفيها: أنا الذي قتلت نفسي، لأنّا في هذا اليوم قرأ علينا الأستاذ قول أرسطاطاليس: إن الإنسان لا سعادة له إلا بعد الموت، فهأنا ذا قتلت نفسي لأصل إلى السعادة.

وقال أصحاب هذا التلميذ: إنه قال عند المساء: إني سأقتل نفسي الليلة، فضحك منه أصحابه وقالوا: لماذا؟ قال: لأصل إلى السعادة، فإن أرسطاطاليس يقول: إن الإنسان ما دام في البدن فإن البدن يعوقه عن سعادته، فزاد ضحكهم، وظنوا أنه يلهو ويلعب، وقد تم ما قصده. اهـ. يقول المؤلف: وهذا هو الذي في هذه المقالة.

خاتمة المقال في معجزات القرآن في سورة الدخان

تبين لك في هذه السورة أن الدخان رآه أهل مكة، وأنذروا البطشة الكبرى، وقد تم ذلك يوم بدر، والمسلمون اليوم رأوا الدخان في الحرب الكبرى، وأنذروا البطشة الكبرى، والبطشة الكبرى آتية لا ريب فيها في الدنيا أو في الآخرة، والأقرب أن تكون في الدارين، فكما كانت البطشة الكبرى يوم بدر ولم تمنع من بطشة القيامة؛ فهكذا ستكون البطشة الكبرى في الدنيا، ولا تمنع من بطشة يوم القيامة، والبطشة الكبرى يوم بدر كانت على الكافرين، والبطشة الكبرى المستقبلة ستكون على من يجهلون نظام الله تعالى.

وبعبارة أخرى: إنها ستكون على المعاصي السلبية المتقدم ذكرها، فمن تركوا العلوم والمعارف والصناعات والمواهب التي أعدها الله في الأرض فإنهم لا محالة تصيبهم البطشة الكبرى، فليكن المسلمون على حذر، إن الله ما ذكر البطشة الكبرى إلا بعد ما قال في سور سابقة: ﴿ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾[الأنبياء: ٣٧]، وقال: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾[النمل: ٩٣]

فالله اليوم قد أبان الحقائق للشعوب، والأمم الإسلامية تنظر ولا تعمل، فالبطشة الكبرى موجهة لهم ولأمثالهم ممن يتعامون عن الحكمة والعلم، ولم يأخذوا الحيطة والحذر، إن في تسمية السورة باسم الدخان أمراً عجيباً، وكيف تسمى السورة باسمه، وينذر الله المسلمين به، وينذرهم بطشته الكبرى.

إن هذا من أكبر المعجزات في هذا الزمان، فقد أرى الله المسلمين الآيات، وأظهر لهم المعجزات، وأبان لهم المخبآت، ولم يذر حجة إلا أقامها، ولا آية إلا أبرزها، فإن نام المسلمون بعد الآن جاءتهم البطشة الكبرى فكانوا لها خاضعين، ومن فكر وتدبر منهم لم يصبهم من الدخان المزمع حصوله إلا كهيئة الزكام، فليستعد المسلمون للعلم وليحذروا النوم والكسل، وقد أنذرت وحذرت، والله هو الولي الحميد. تمت سورة «الدخان» يوم الجمعة ١ مايو سنة ١٩٢٥.

تذييل لسورة الدخان

لقد أصبحت مسألة الدخان من المسائل المعتادة في العالم الإنساني، ولما ختمت تفسير السورة يوم الجمعة في التاريخ المتقدم؛ اطلعت يوم السبت الموافق ٢ مايو سنة ١٩٢٥م على مقال تحت عنوان: «آراء في وادي النيل وسكانه»، جاء في التلغرافات العمومية فآثرت نقله، ليعلم قارئ هذا التفسير أن ذكر الدخان في القرآن وتسمية السورة باسمه من أكبر معجزات القرآن، في هذا الزمان، وهذا نصه:

نشرت جريدة منشستر جارديان اليوم مقالاً للمستر رانسوم وصف فيه سياحته من القاهرة إلى الشلال، فقال ما يأتي: إن مصر ليست بلاداً بل نهراً، فشقة الأرض الضيقة على ضفتي النهر هي الصالحة للسكنى، وهي تتوقف بكل ما فيها من عوامل الحياة على مجرى ماء واحد، ففي وسع من يسافر في النهر أن يرى الصحراء وراء المعمور على الجانبين، وإذا وضع مدفع على أحد الجانبين فإنه يسيطر على البلاد كلها. إلى أن قال: وتهب الرياح الشمالية على طول ذلك الوادي الضيق مدة شهور عديدة، فاستعمال الغازات السامة على الطريقة الحديثة يكفي وحده بدون صعوبة لإهلاك جميع الأهالي، وتقع النتيجة نفسها إذا أمكن حجز النهر أو تحويل مجراه. انتهى المقصود منه.

فانظر كيف أصبح الكلام على الغازات السامة أمراً عادياً، وأصبح الدخان بمثابة السيف والمدفع، فكما يقال: سيف ومدفع، يقال: غازات خانقة أو سامة، وهو الذي أعلنه القرآن منذ ألف وثلاثمائة سنة، والعالم الإنساني اليوم قادر على أمور هائلة، فإما فناء عظيم لقوم وإذلال لآخرين، وإما أن يكون الناس قادمين على زمن انقلاب إلى حال أجمل مما نحن فيه، لأن الشيء متى جاوز حده انقلب ضده. وبهذا تم تفسير سورة «الدخان»، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الجاثية

هي مكية إلا قوله تعالى:

﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾ فمدنية

آياتها ٣٧، نزلت بعد «الدخان»

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩) هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢) أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (٢٧) وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٣١) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٣) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٣٤) ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧) ﴾

هذه السورة قسمان:

القسم الأول: في تفسير البسملة.

القسم الثاني: في تفسير السورة بكاملها.

القسم الأول: في تفسير البسملة

في يومي الثلاثاء والأربعاء ١٧و١٨ من شهر مارس سنة ١٩٣١م تجلى لي يوم الثلاثاء هذا الجسم الإنساني بهيئة عجيبة، وأخذت أدهش وأعجب من نظامه البديع، أراني أقف على قدمي، أما اليدان فإنهما مطلقتان، ولمفاصل الأصابع، وإبداع الأنامل والبنان أثر عظيم في الصناعة والزراعة والسياسة والتجارة، لو لم تكن أيدينا معاشر بني آدم على هذا المنوال وبهذه الهيئة لم نحسن عملاً من أعمالنا التي برعنا فيها، يداي حرّتان ورجلاي لاصقتان بالأرض عند الوقوف، دواب الأرض وبهائمها وأنعامها وزواحفها لم تعط هذه المزية، وإذا كانت يداي مطلقتين، فلا جرم انطلق معهما عقلي فأدرك بعض الحقائق والمعارف التي تصوغها اليدان، فلم يك للحصان ولا للثعلب اللذين شغلت أيديهما بحمل جثمانهما ليجريا فوق الأرض من الفكر ما به يصنعان ما يصنع الإنسان، لا عقل ولا فكر إلا حيث يمكن العمل، ولو أعطيا عقلاً يقدران به على صنع الملابس والقصور في مدننا العظيمة وهما باقيان بحالهما لم تتغير أيديهما لكان ذلك خطلاً في النظام، إذن العقل لا يعطى إلا على قدر الحاجة، وكل ما لم يعط من الأيدي ما أعطي الإنسان لا ينال من الفكر والذكاء المناسب لصنع اليدين ما أعطيه الإنسان.

ثم نظرت إذا الطير في جو السماء تطير بأجنحتها، ورأيت نهر النيل أمامي يجري فيه السمك، ورجعت إلى الإنسان فوجدته لم يتجاوز بصنع يديه من الأعمال ما به ارتفع عن الطير في الجو، أو انحط عن السمك في الماء، الإنسان محكوم عليه بالحبس في هذه الأرض، وهو مع هذه الحرية مسجون سجناً مؤقتاً، وهذا السجن نهايته الموت، الأرض سجن سجن فيه الحيوان والنبات والإنسان، النبات لاصق بالأرض والحيوان منجذب إليها، والإنسان هو الذي ارتقى بعقله وصنع يديه، فهاهو ذا اكتسى جلابيب من صنع يديه بدل الأشعار والأوبار، وارتقى في الجو كالطيور بالطيارات، وجرى في البحر والنهر كالسمك وذلك بالغواصات، الإنسان لم يرتق إلى الأفلاك، ولم يصل إلى القمر والمريخ أو المشتري فضلاً عن السماك، ولم يخرق الأرض فيغوص في قاعها ويصل إلى مركزها مخترقاً قشرتها، إذن صناعاته لم ترتفع به فوق الطيور، ولم تنزل به تحت السمك.

الإنسان رقيه الذي وصل إليه في الأرض لم يزل محدوداً معدوداً، الإنسان حر وهو عبد، مختار وهو مجبور، لا يتسنى له أن يصعد إلى الجوزاء فيعرف أخبارها، ولا أن يصل إلى باطن الأرض فيدرس علومها، وأي سجن أشد من هذا! وليس سجنه قاصراً على هذا، بل هو مسجون في طباعه وأخلاقه وآرائه وأحواله ونظام عشيرته، وعوائد أمته، وتقليده لآبائه وأساتذته، وليس له خروج من ربقة التقليد إلا بقوة تتغلب على مادته تضارع قوة الطير في الجو، إذ تعالى عن الجاذبية التي تلصقه بالأرض، فأخذ يضرب هواء الجو بجناحيه، فهرب الهواء إلى الوراء ثم يكر الهواء راجعاً إلى الأمام ويضرب الجناح وبهذا يكون الطيران، فهذه العملية التي قام بها الطير جعلته بعيداً عن الأرض غير لاصق بها، وهذه جعلت درساً للإنسان، وعلى هذه الشريطة صنع الطيارات فطار بها، وإلى هنا وقفت أعمال الإنسان من حيث الارتفاع في وقتنا الحاضر.

نعم. الإنسان محبوس محدود الارتفاع، محدود السياحة في باطن الأرض، ولكنه من جهة أخرى له سياحة عقلية، هو يدرك الأفلاك بعقله، ويدرسها بفكره، وبالعقل وحده طار في عوالم الأفلاك، وغاص في باطن الأرض، وعرف أبعادها وأطوارها ومساحاتها، ودرس ما أعجز كل حيوان على هذه الأرض، فإذا كان الإنسان في سجن من حيث جسمه، فهو في حرية من حيث عقله.

الإنسان مجبور مختار محبوس مطلق

لم يحبس الإنسان في الأرض لظلمه ولا لإهانته. كلا. ولكنه حبس ليدرس، وبقي ليتعلم، ولو أنه أطلق سراحه وقيل له طر كما يطير الطاووس، وحلق في جو السماء، وتنقل في الكواكب، وابتهج بجمالها كما تبتهج النحلات الطائرات في الحدائق بجمال الأزهار.

أقول: لو أنه قيل له ذلك لخرج من الحياة بغير طائل، لأنه لم يدرك كوكباً واحداً فضلاً عن كواكب، بل يعيش ويموت وهو لا علم له ولا حكمة، وليس له كتاب منير، ويكون مثل الإنسان إذ ذاك كمثل الذين يغدون ويروحون في دور السينما «الصور المتحركة» يقضون أوقاتهم فيها لهواً ولعباً ثم يرجعون ولا هم يعقلون.

لو أن الإنسان كان هذا شأنه لم يكن إنساناً، بل لم يكن إلا حشرات طائرات بين الكواكب كالحشرات الطائرات بين الأزهار.

تلك هي الحكمة في تباعد الكواكب واختلاف أضوائها، وبعد الشقة بينها حتى يستقر كل جماعة في كوكبهم ويدرسوا نظامه، ومتى كملت نفوسهم بحصول الملكات العلمية، هنالك يصلحون لدراسة نظام باقي الكواكب، فإذا تنحت الأرواح عن أجسامها وغادرت هذه الأرض بالموت طارت إلى تلك الكواكب وهي عالمة قادرة على التعقل والفهم، وهنالك تكون السعادة والسلام.

حبس الإنسان في الأرض إذن رحمة

إذن ما ظهر لنا أنه شر هو في حقيقته خير، فهاهنا أمران: جسم ظاهره شر وباطنه نعمة، لأنه كان سبباً في دراستنا هذه الأرض مدة حبسنا فيها مدة الحياة بما نعمل لتغذيته وتنميته ومداواته ولباسه والمدافعة عنه بنضال الأعداء والحساد.

وروح لها الإشراف على العوالم كلها، فالروح خير والجسم يعين على خير الروح لأنه جعل لترقيتها، فجميع الأغلال التي تحيط بنا في هذه الحياة، وأنواع الهوان والذل، كل ذلك لرقي أرواحنا، فإذا رأينا هذه الأجسام منجذبة نحو الأرض، وهذه الشهوات الحيوانية تعذبنا كالمال والولد، وأنواع الزينة والمتاع، فمآل ذلك لترقية الروح.

إذن الضدان وهما الخير والشر أو الروح والجسم مآلهما الرحمة وهذا معنى ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجاثية: ١-٢]، فاعجب لهذه الرحمة المذكورة في هذه السورة، ثم اعجب لما خطر لي. فالذي خطر لي أن للإنسان جسماً وللإنسان روحاً. فبالجسم أصبح الإنسان والحيوان أشبه بالمحبوسين في جهنم الذين قيل فيهم: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٤٩-٥٠].

أنا لست أقول إن الحيوان والإنسان اليوم في جهنم. كلا. ولكني أقول إن هذه الأجسام الحيوانية لها شبه ضئيل من حيث طباعها بطباع أهل جهنم، كما أن قول القائل: فلان وجهه كالبدر، ليس معناه أنه مثله من كل وجه. و الإنسان خاصة نراه يلبس ملابس مصبوغة بمواد القطران المستخرجات من الفحم الحجري كما هو معروف، وتقدم في هذا التفسير موضحاً، والحرارة والبرودة تزيدان وتنقصان وهما تغشيان وجوه الإنسان والحيوان. ونرى أن الأمم العظيمة في وقتنا الحاضر أشبه بزبانية جهنم لأنهم قوم مجرمون، يضحكون على ذقون الأمم الضعيفة الشرقية ويبيعون لهم المصنوعات الجميلة، ويغمسونهم في النعيم ويذيقونهم العذاب ألواناً ويحتلون بلادهم. وقد تنبه الشرقيون اليوم لهذه المخازي. وأول من استيقظ لذلك أهل الهند، واتبعهم العرب ومنهم أهل بلادي عند كتابة هذه المقالة. فهاهم أولاء أخذوا يقاطعون البضائع الأجنبية لأنها نذير الهون والشر والذل.

وبالجملة إن الأجسام الإنسانية يحيط بها الشقاء، ومن الشقاء أن الدول الظالمة معذبات بظلمها لأن الشر يصبح فيها عادة وذلك يضعفها بعد حين. فالمظلومة معذبة وقت ظلمها، والظالمة ستلقى جزاءها في نفس الحياة بعد حين باستفحال الشر فيها. وهذه الشرور اللاحقات بالظالمين والمظلومين نتائجها البصائر والحكمة والعلم والعبرة. فهذه دروس تعتبر بها الأمم ويتخرج بها رجال يذيعون العلم في أكناف هذه الأرض في كل حين، وبالروح أدرك الإنسان الحقائق حتى أشبه الملائكة الكرام، وهذا ملخص ما تقدم. أليس هذا هو معنى الرحمة في البسملة؟ يا عجباً! شر وخير معاً يصبحان رحمة، إذن الشر رحمة والخير رحمة، الضدان رحمة، أليس هذا به نعرف معنى ما ورد في الصحيح: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره من الله»، وإذا كان القدر خيره وشره من الله فلم نقول: بسم الله الرحمن الرحيم، هلا قلنا: بسم الله الرحمن المنتقم، ولم نقول: الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم، ولم نقول: فلك الحمد على ما قضيت؟ ولقد قلنا: إن القضاء فيه الخير والشر، ولا جرم أن الحمد لا يكون إلا على نعمة، والشر في ظاهره ليس نعمة.

هذه بعض أسرار بسم الله الرحمن الرحيم، فهو بإحداث الخير رحيم، وبإحداث الشر والآلام يحافظ بهما على الخير، كما حافظ على عقولنا ورباها بما حبس أجسامنا في الأرض وأحاطها بالتكاليف. كل ذلك يقوي الروح فتقوى على السير في العوالم الأخرى.

هذه هي الأسرار التي ألهمتها في هذا اليوم، وهذه الأسرار ظهرت في قوله تعالى في أول السورة: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[الجاثية: ٢] فعزته ظهرت في قهرنا ببقائنا في الأجسام الأرضية وشرورها وحروبها ورذائلها، وحكمته ظهرت في ارتقاء أرواحنا بذلك السجن. ومن عجب أن السورة بدأت بالعزة والحكمة وختمت بهما، ففي أولها: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[الجاثية: ٢] وفي آخرها: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[الجاثية: ٣٦-٣٧]، وهل افتتاحها واختتامها بالعزة والحكمة معاً إلا لإيقاظنا لدراسة هذه الدنيا، لأننا إذا لم ندرسها نعيش أشبه بالمنافقين لأننا نقول: بسم الله الرحمن الرحيم، مع أن النوع الإنساني يعيش وهو في شقاء أمد الحياة، فأين هذه الرحمة؟ فيقول الله: أيها

الإنسان، أنا عزيز وحكيم، فقهري لك مصحوب بالحكمة في تربيتك، وأنت لن تعقل هذا إلا بالدراسة فادرس الأرضين وما عليها، فبذلك تكون من الموقنين.

واعلم أيها الذكي أن أسماء الله عز وجل ليس يعرف معناها هذا الإنسان إلا بدراسة هذه الدنيا وكيف نعرف تكرار التربية ثلاث مرات في آخر هذه السورة إذ يقول: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الجاثية: ٣٦] مع ذكر الكبرياء والعزة والحكمة إلا بالدراسة الصحيحة، فهو مربّ وذو كبرياء وعزة مع الحكمة، ثم كيف نفهم قوله: ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٣-٤]. ومعلوم أن الإيمان أقل من الإيقان، فلم جعل الأول مع إجمال خلق السماوات والأرض؛ وجعل الثاني وهو اليقين الذي إليه تشد الرحال وهو الذي طلبه الخليل وناله كما تقدم في سورة «الأنعام» مع تفصيل خلق الإنسان والحيوان. كل ذلك إنّما يعرف بالدراسة والجد. إن ما ذكرته الآن من أن حبس الإنسان في الأرض وإن كان ظاهره شراً فهو في حقيقته خير من حيث إنه يدرس هذه الدنيا ويتقن دراستها على قدر طاقته يمتّ بصلة إلى آية ﴿ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٤]، لأن البحث العام لا يورث اليقين، فأما البحث الخاص والوقوف على الحقائق فهو الذي يورث اليقين، ودراسة الإنسان والحيوان تفصيلاً أسهل من دراسة العوالم كلها.

ومن عجب أن الأقوال في الصلاة تتجه نحو هذه المعاني، فانظر أليس المصلي عند قيامه يحمد الله الذي يربي العالمين ويرحمهم ويحاسبهم ويهديهم إلى الصراط المستقيم، وعند الرفع والاعتدال يحمده ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما يشاء من شيء بعد. فأقوال المصلي في قيامه وفي رفعه من الركوع كلها إجمال لا تفصيل فيه، وهذا بالإيمان أنسب وهو أشبه بالآية هنا: ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الجاثية: ٣].

ثم إن قوله في ركوعه وسجوده ـ إذ يذكر العوالم العامة ويتجه إلى الأحوال الخاصة الأرضية فيقول: «خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي وما استقلت به قدمي لله رب العالمين» في حال الركوع، ويقول: «سجد وجهي للذي خلقه وصوّره وشقّ سمعه وبصره الخ» في حال السجود ـ يرجع إلى الدراسة المفصلة، لأن تفصيل تشريح الإنسان ويتبعه ما حوله من الحيوان هو الذي يورث اليقين.

الله أكبر، إن هذا من أعظم أسرار آية: ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [التين: ١]، والحديث: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»، ألا ترى أن في السجود ذكر تشريح الإنسان، وبإتقان دراسته هو وما يتصل به من علم الحيوان يكون اليقين، وباليقين يكون الحب، والحب هو أقصى سعادة الإنسان. انظر ما تقدم في سور كثيرة من إجماع العلماء أن اليقين والحب لا يكونان إلا بالدراسة التفصيلية. والآية هنا جعلت اليقين في دراسة خلقنا وخلق حيواننا.

اللهم إن هذا عجب وأي عجب، فعزته عز وجل بحبسه لنا في الأرض جعلتنا موقنين بالدراسة الخاصة، ولو لم يحبسنا لعشنا جهالاً، فالحمد لله على العلم والفهم والحكمة.

خواطري يوم الأربعاء ١٨ مارس سنة ١٩٣١
في تفسير البسملة في سورة الجاثية

إن هذه الخواطر متممات لما تقدمها في يوم الثلاثاء، ذلك أني قد أصابني مرض خفيف، وقد جرت عادتي أثناء هذا التفسير أن أعمل بما أكتبه فيه من علم الصحة، ولقد تقدم فيه أن أطباء العصر الحاضر قد رأوا أن الإنسانية كثيرة الإسراف في ملابسها ومآكلها ومشاربها وشهواتها، ونصحوا الناس أن يلتمسوا الشفاء في ترك كثير مما تلبسوا به، ومن ذلك أن يجعلوا أجسامهم معرضة للشمس بشروط خاصة تقدمت في سورة «يونس» في أولها.

وأنا قد عملت بهذه الشروط، وصرت أجلس في الشمس عارياً بعد التدرج في ذلك ـ وذلك في الخلوات ـ للتداوي، ففي يوم الأربعاء فعلت ذلك، وفي أثناء هذه الجلسة أخذت أفكر في أمر هذا الإنسان في الأرض، وكيف كانت رحمة الشمس عامة، وقد تعرض لها النبات والحيوان فكانت الصحة والقوة.

أما الإنسان فإن أمره عجب! أسرف في ملابسه وجعلها زينة له، كما افتخر بالمآكل والمشارب، وهو في كل ذلك يحفر قبره بيديه ويتعجل المرض والموت والفقر والذل، ولقد عجبت لأمراء هذا الإنسان وملوكه وأغنيائه كيف شملت الغفلة أكثرهم، وعمت أغلبهم، ذلك أنهم لا يكادون ينالون تلك النعم حتى يفعلوا ما يفعله الصبيان والنساء، فيتظاهرون بالزينة والزخارف والقصور ويتناولون ألوان الطعام وقد نسوا علم الصحة، وجهلوا حقيقة السعادة في هذه الدنيا، أوليس من العجب أن هذا الإنسان المسكين تسوسه الحكمة الإلهية سياسة الإنسان للدواب، ألم تر أن الإنسان ربما يمسك حشائش بيديه وقد تكون من مستنقع يضر بالدواب ضرراً بليغاً فيقدمها للجاموسة الشاردة فترجع إليه، أليس الملوك والأمراء لما قصرت أنظارهم وقلت علومهم في أكثر هذا النوع الإنساني قيل لهم احفظوا الأمم واحكموا الدول وهاكم الملابس والمآكل فخذوا منها ما تشاؤون، إذن جزاء قيام بعضهم بحفظ أممهم قد يجلب المرض والضعف والموت الزؤام لهم.

يا سبحان الله! ضوء الشمس رحمة أرسلها الله لعباده فحرموا منها أجسامهم بما أكثروا من ملابسهم، ولم ينالوا من ذلك الضوء ما نالته الآساد والنمور في القفار، وحرمت الأجسام من تدخل الضوء في المسام الجلدية الإنسانية كما يتدخل في المسام الجلدية الحيوانية والفتحات الشعرية في أوراق الشجر والنبات.

ما أعظم الجهل في أرضنا، أرى الأغنياء في بلادنا المصرية الذين يملكون أرضاً شاسعة قد يمرون وهم مكبلون بملابسهم على الزراع الذين في مزارعهم وهم عراة الأجسام ما عدا عوراتهم فيرونهم أقوياء الأبدان، أما هم فإنهم مرضى الأجسام فلا يفكرون في ذلك.

يا سبحان الله! معصية آدم تلبس بها بنوه، فحرم أكثرهم السعادة ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣]، يولد الطفل ويحرم جسمه من ضوء الشمس من يوم الولادة إلى يوم الوفاة، وهذه من أكبر الضربات على هذه الإنسانية.

في يوم الأربعاء استحممت بالماء الحار وأتبعته بالماء البارد، وهذه الطريقة كما تقدم مفيدة، ثم جلست في الشمس، فنال جسمي مزيتين: مزية الماء والشمس، فهما نعمتان نلتهما معاً في هذا اليوم، وإن كنت لم أعلم بهذه النعمة إلا في أيام كبر سني، وما لا يدرك كله لا يترك كله، ضوء الشمس نعمة وكلما خفت الملابس كان الجسم إلى الضوء أقرب وبالصحة أولى.

حرم كثير من الناس هذه النعمة جهلاً بنعمة الشمس، واتباعاً للعادة الراسخة في نوع الإنسان، ضوء الشمس نعمة والناس جهلوها، ومن جهل النعمة حرمها، إن الحرمان من تلك النعمة يتبعه الذل، فإذا انتاب المرض أكثر الناس وقصرت أعمارهم بحرمان جلودهم من ضوء الشمس؛ فإن بعض الأمم الشرقية أغنياءهم وفقراءهم بسبب الغرام بالتقليد الأعمى كتقليد القرود لم يكتفوا بما ينتجه صناع بلادهم من الملابس، وإن لم تكن من أجود الأصناف، بل أخذوا يتفننون فيها ويشترونها من الملابس التي نسجها الفرنجة في بلادهم، وذلك من أكبر الجهالات الفاشية في أمم الشرق الأدنى كبلاد شمال أفريقيا وبعض بلاد العرب، تلك الأمم التي نامت نوماً عميقاً، فلبست ملابس الفرنجة وصارت تلك الملابس أصفاداً قيدوا بها، وأغلالاً في أعناقهم وهم يسحبون في حميم الاستعباد، وأنا أحمد الله إذ كتبت هذا وأنا أعلم أن الأمم العربية على بكرة أبيها قد استيقظت لهذا الخطر، وأخذت تعدّ له عدّته، وبالإجمال إن نعمة ضوء الشمس عامة، ولما توارى عنها الإنسان وأسرف في تواريه بالملابس أورثه ذلك الإسراف إما ضرراً في الصحة كالأمراء والملوك، وإما أن يضاف إليه شيء آخر، وهو الذل والاستعباد بالاستدانة وبالترف والنعيم.

هذا ملخص هذا المقال وهو الذي خطر لي وأنا معرض جسمي لضوء الشمس، ثم إني بعد الظهر أخذت أمشي على شاطئ النيل في المنيل، وقد تجلت لي هذه الدنيا بهيئة جميلة، وأخذت أفكر في هذا الهيكل الإنساني، ذلك أن لي حاسة بها ألمس الحار والبارد، والرطب واليابس، وأعرف الثقيل والخفيف، والناعم والخشن، فهذه الحاسة كأنها ربة هذه المحسوسات، ولي حاسة أخرى تفرق بين الطيب والخبيث من الروائح، وهناك حاسة أعلى منها بها أعرف الأصوات وأنواعها، وأخرى بها أعرف القريب والبعيد والألوان والسطوح والأجسام والحركات والسكنات، وهذه هي حاسة النظر، وعمدتها الشمس التي أراها أمامي في المنيل.

يا عجباً! هذه الشمس أمامي قد ملأت الأفق تبراً نثرته في القفر والحقل والحديقة والبر والبحر هاهو ذا الضوء منشور في كل مكان، وهذا التبر به أعرف الطرقات وأفرح بالجمال، والعين أعظم الحواس الظاهرة، كما أن الشمس أبهى الموجودات المحسوسات، فلأنفذ إلى ما وراء ذلك، فما هو يا ترى؟ إن ما وراء ذلك هو عقلي، ووراء الشمس عقل عام.

يا عجباً! هذا اللمس يميز بالملاصقة لكل ما حولي، وحاسة الذوق تعرف الحلو والمر، والحريف والملح، والحامض والعفص الخ، وحاسة الشم تميز الروائح، وحاسة السمع تعرف الأصوات، وحاسة البصر تميز المبصرات، فهل وراءها إلا العقل، ذلك العقل الذي به ندرك حقائق ما حولنا ثم نجد له نظيراً في الأرض والسماء.

أنا أشرب الماء والماء يحيط بالأرض لا ينفد، أنا أشم الروائح وهي أيضاً في كل مكان لا نفاد لها، أنا آخذ الهواء بالشهيق فيدخل في رئتي، والهواء يحيط بالأرض لا ينفد، أنا أرى النور والنور يحيط بالأرض، وذلك ببصري، فلم يبق إلا أن أقول: أنا لي عقل يدرك الحقائق، وهذا العقل أرى آثار نظيره في الشمس وفي القمر والكواكب والنبات والحيوان والسحاب وكل مركب وبسيط. فهاهنا عقل عام لي أنا شعبة منه كما كان لي شعبة من الهواء وأخرى من الماء، العقل العام يحيط بالكائنات إحاطة الأثير بها، وإذا كان ماء جسمي وهواؤه ومواده الأرضية لها ارتباط بالماء وبالهواء وبالمواد الأرضية، فمما لا ريب فيه أن هنا عقلاً عاماً يحيط بهذه كلها ولا نفاد له وهو متصل بعقلي وروحي، وهذا العقل الكلي بالنسبة لله عز وجل أشبه بضوء الشمس بالنسبة للشمس، وهذا لمجرد التمثيل للتقريب وإلا فالأمر فوق عقولنا، إذن هنا رحمتان عامتان: أولاهما: رحمة الشمس وضوؤها التي جهلها الناس فانقلبت عذاباً في الدنيا بالأمراض إذ حجبوها عن أجسامهم، وبذهاب مجدهم واستقلالهم بالإسراف فيما يسترون به أبدانهم. ثانيهما: رحمة العقل العام الذي اشتقت منه عقولنا واتصلت به، وهذا العقل مستمد من نور الله الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وهذه الرحمة الروحية العقلية يحملها كل إنسان في هذه الأرض ولكنها رحمة مخبوءة. الله رحم الناس بضوء الشمس فجهلوها، فمنعوا الضوء عن أجسامهم، فاعترتهم الأمراض، وضاعت بلادهم بالإسراف فيما يلبسون، ورحمهم بإشراق نفوسهم وعقولهم، ولكنهم بغفلتهم نسوا الله فأنساهم أنفسهم، ذلك لأن أنفسهم مستمدة من العقل العام، والعقل العام نور أودعه الله في العوالم كلها وعقول بني آدم فروع منه، ولو أنهم استيقظوا لذلك النور بالدراسة والصلاح وتقليل الشهوات لكانوا دائماً في حضرة مفيض ذلك النور وصانعه واقتربوا منه ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وإلى هنا تم الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة. والحمد لله رب العالمين.

القسم الثاني في تقسيم السورة

هذه السورة ثلاث مقاصد:

المقصد الأول: دلائل التوحيد بخلق السماوات والأرض والدواب، واختلاف الليل والنهار، وإنزال المطر، وتصريف الرياح، وتسخير الفلك، وما يتبع ذلك من المكاسب في التجارة، وصيد السمك وحوز اللؤلؤ والمرجان بالغوص عليهما، وتخلل ذلك جهالات الكفار، ووجوب صفح المسلمين عنهم، ومغفرتهم لهم، من أول السورة إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [الجاثية: ١٥].

المقصد الثاني: فيه ذكر أن بني إسرائيل كان فيهم كتاب التوراة والشرائع العظيمة والنبوة ومعجزاتها وعندهم الرزق الحسن، وفوق ذلك كانوا مفضلين على عالمي زمانهم، وكانت لهم أدلة في أمور دينهم، ومع هذا كله قد اختلفوا فيما بينهم لغلبة الشهوات والحسد والعداوات، فإذن أهل الأرض متشابهون، أشبه الآخرون الأولين، فقومك على هذه الطريقة في هذه الحال ارتطموا، ولقد بلوناكم كما بلوناهم فهل تصبرون؟ فاصبر يا محمد وليصبر أصحابك والمصلحون من أمتك، فإن

عالمكم هكذا شأنه، فدم على شريعتك ولا تعبأ بمن خالفك، وهذا القسم إلى قوله: ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[الجاثية: ٢٠].

المقصد الثالث: من قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾[الجاثية: ٢١] إلى آخر السورة وهذا في محاجة الكافرين وتقريعهم.

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴾ إشارة إلى الحمد على النعم التي لا تتناهى المذكورة مجملة في هذه السورة. وأيضاً سيأتي في آخرها: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ ﴾[الجاثية: ٣٦]، إن الحمد في أمة الإسلام هو كل دينها، لأن الحمد راجع إلى مجامع العلوم والأعمال، الحمد يستوجب كل علم وكل عمل، فكأن «آل حم» تفسير لسورة الحمد وهي «الفاتحة»، أو هي مثال العلوم النافعة للأمة كلها، وللإشارة أيضاً إلى الحكمة المذكورة في قوله: ﴿ ٱلْحَكِيمِ ﴾، ففيها «الحاء» و«الميم»، وذلك فوق ما عرفت من مزايا الحروف كلها مجتمعة في سور كثيرة، أولها سورة «البقرة»، والحمد والحكمة مجامع العجائب، لأن الحمد لا يكون إلا على ما علم من النعم والحكمة ونظام هذه الدنيا. والحق أن هذه السورة سيتضح لك فيها من غرائب العلم وبدائع الحكمة ما يذهل له الغافلون من المسلمين الذين ظنوا الجدل وعلم الفقه يكفيان أمة الإسلام المظلومة المهضومة الحقوق التي طاردتها أمم أوروبا بعد أن طاردها علماؤها ومنعوها من الاستضاءة بالأنوار الإلهية، فاللهم قيض لأمتنا من يهديها إلى الهدى، ويردّها عن الردى ويهديها إلى الصراط المستقيم. ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ كائن ﴿ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ﴾ الغالب ﴿ ٱلْحَكِيمِ ﴾ في تدبيره، ولا جرم أن ذكر الحكمة بعد العزة يعرّفنا أنه مع قهره للعوالم المادية والروحية لا يتصرف فيها إلا بحكمة، فهو غالب قاهر، وقهره مصحوب بالحكمة، كما يشاهد في النبات والحيوان، والأجسام الإنسانية، ودوران الكواكب وانتظامها في سيرها وصقلها حتى أضاءت، كل ذلك من القهر والغلبة لها مع الحكمة في صنعها، ولذلك أعقبه بنتائج العزة والحكمة فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي لعلامات وعبراً للمصدقين ﴿ وَفِى خَلْقِكُمْ ﴾ أي وفي تحويل أحوالكم حالاً بعد حال آية وعبرة لكم ﴿ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ﴾ وما يفرّق في الأرض من جميع الحيوانات ﴿ ءَايَٰتٌ ﴾ دلالات تدل على حكمة خالقها وجمال صنعه وإبداعه ﴿ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ ورفع «آيات» على محل «إن» واسمها، لأن محلهما رفع، وقرئت بالنصب، كما تقول: إن زيداً في الدار وخالداً، أو وخالد في السوق، فالنصب بالعطف على اسم «إن»، والرفع بالعطف على محل «إن» واسمها وهو الرفع.

﴿ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ ﴾ من مطر هو سبب الرزق ﴿ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ يبسها ﴿ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ﴾ باختلاف جهاتها ﴿ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ليس في إعراب هذه الآية صعوبة عند الأخفش، فأما سيبويه فإنه يقدر لفظ «في» أي: وفي اختلاف الخ، ولو لم تقدر «في» لزم العطف على معمولين لعاملين مختلفين عند سيبويه فلا نطيل بالكلام فيه، يقول الله تعالى: إنكم إذا تأملتم الحكمة المنبثة في السماوات والأرض آمنتم، فإذا ازددتم علماً وفهماً

وبحثاً، ازدادت عقائدكم فصرتم موقنين، لأن الإيقان بتوافر الأدلة وتكاثرها، ومتى أيقن الإنسان بنظام هذه الدنيا أصبح ذا عقل، لأن العقول لا تربى إلا بالمزاولة، فأول المراتب إيمان بالله، فإذا زاد الإنسان حكمةً وعلماً وبحث في دقائق المخلوقات وعجائبها أصبح موقناً بربه، وكلما زاد بحثاً ازداد عقله دراية، فأصبح في الأرض نوراً يستضاء به، وهذا يدلنا أن الله تعالى لم يرد بنظرنا في العوالم مجرد الإيمان أو الإيقان، بل يراد فوق ذلك تربية عقولنا، وتربية العقول في العالم الإنساني اليوم في مدارس أوروبا لا تتم إلا بقراءة علم الفلك والعلوم الرياضية والطبيعية والحيوان والنبات والإنسان والمعدن، تلك هي التي تربي العقول، هذا هو مقصود الآية، فالله يقول لنا: أنا أمرتكم بالنظر في العالم أولاً لتؤمنوا فإذا زدتم علماً أيقنتم بي، وذلك كله يربي عقولكم، فنتيجة هذا الوجود تربية العقول، فليفكر المسلمون في هذه الآيات، وليعجبوا من أمة هذا دينها يطلب منهم الإيمان ثم الإيقان، ويقال لهم: نحن نربي عقولكم، فيقول الغر الجاهل من المسلمين الذي غرّه صغار العلماء: كلا. والله لقد عرفت الله وآمنت به، ومتى آمنت بالله فلا سبب لنظري في العوالم فهو فضول، فعل المسلمون ذلك وجاءت أوروبا فنظرت في الكون فازدادت عقول أبنائها، فجاؤوا إلى الشرق فحكموا بلادنا، كل هذا لتدهور العقول والتعاليم في بلاد الإسلام. يا قوم، هلا قام فيكم عالم فنصحكم. يا قوم، هلا نهاكم النهاة عن هذا التقصير والتقاعس. يقول الله لكم: فكروا في العوالم لتؤمنوا، ثم يكون الإيقان، ثم يأتي بالمقصود وهو تربية العقل بمزاولة العلوم الكيميائية والطبيعية والحيوانية والإنسانية.

يا الله أشكو إليك قادة ناموا، وأسألك أن تحيي هذه الأمة التي أماتها الجهل، اللهم أنر البصائر وعمم العلم في بلاد الإسلام. يربي الله عقولنا بتلك العلوم، ويشير إلى ذلك بهذه الآيات، وتقوم أوروبا فتوجب هذه العلوم في المدارس الثانوية ليكون قادة الأمة والطبقة الوسطى من الشعب قد استنارت بصائرها بدراسة ما حولها من الكائنات، فتتربى فيهم الملكات، فيحفظون بلادهم، ويرقون شعبهم، والمسلم قد أغمض عينيه عما حوله، فلا يرى ولا يعقل ويكتفي بالإيمان، فيكون العالم والعامي على حد سواء، وهذه هي الطامة الكبرى، وسأزيد المقام إيضاحاً إن شاء الله تعالى. ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ أي آيات دلائله حال كونها ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ ﴾ ملتبسين ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾.

ولما كان هذا المقام عظيم الشرف، جليل القدر، عليه ارتقاء العقول، ورقي الأمم، وإن لم يصرح به، أعقبه بقوله: ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي: بعد آيات الله، وذلك كما تقول: أعجبني زيد وكرمه، أي: كرم زيد، فذكر زيد للمبالغة والتعظيم، ولم يقل: فبأي حديث بعد الله وآياته يوقنون؛ اكتفاء بالأول لأنه للعموم، أما الإيقان فهو للخصوص وتربية العقل كذلك، والأمة الإسلامية تركت مباحث كبار العلماء في الكتب، ولم ترد أن تعمل بها، وسأنقل لك خلاصة ما ذكره العلامة الرازي قريباً لتعرف كيف كان حكماء الأمة يفهمون ويكتبون، وكيف كان بقية العلماء لا يفكرون، وعن رقي الأمة معرضون، فإنا لله وإنا إليه راجعون، تشير الآية هنا إلى أن الإيقان وتربية العقل إنّما تكون بما ذكر من العالم العلوي والسفلي، والمسلمون ينامون ويعرضون، ويكتفون بإيمان العجائز وعقول العامة إلا قليلاً منهم، ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣]، ولذلك أعقبه

سبحانه بذم المعرضين الذين لا يؤمنون فقال: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ ﴾ كذاب ﴿ أَثِيمٍ ﴾ كثير الآثام ﴿ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ ﴾ يقيم على كفره ﴿ مُسْتَكْبِرًا ﴾ عن الإيمان بالآيات، وإنما ذكر «ثم» لبيان استبعاد الإصرار على الكفر بعد ما يسمع الآيات تتلى عليه ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ أي: كأنه لم يسمعها، فهو يصرّ مثل غير السامع ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ على إصراره ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ﴾ إذا بلغه شيء من آيات القرآن ﴿ ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي: من خلفهم، لأنها بعد آجالهم ﴿ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْـًٔا ﴾ ولا يدفع عنهم ما كسبوا من الأموال شيئاً من عذاب الله ﴿ وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ﴾ كالأصنام ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ لا يتحملونه ﴿ هَٰذَا ﴾ القرآن ﴿ هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ الرجز أشد العذاب. ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ ﴾ فجعله لطيفاً يحمل الفلك فتطفو ولا ترسب فيه بنواميس جلاها، وحكم أبداها، بحيث خلق المواد الخشبية والحديدية، وجعلها قابلة لعمل السفن، وأن يتحيل الناس في ذلك حتى لا ترسب لثقلها بل تسير فوق الماء، وأجرى الرياح فوقها لتساعد على جريها، وخلق الفحم وأمثاله لتوقد النار فتتحرك الآلات البخارية فتسير السفن، فبالهواء تجري، وبالنار تجري، وبالكهرباء والبترول، وهما يسببان النار تجري.

حكم نسجت بيد حكمت ثم انتسجت بالمنتسج

وهذا معنى قوله: ﴿ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ ﴾ ومما يدخل في هذا المقام البوصلة البحرية التي تدل الربان على الجهات الشرقية والغربية والشمالية والجنوبية، وكذلك علوم الفلك وعلوم الطرق البحرية فيعرف بها النجوم ومواقعها في السماء والطرق والجهات، فإن النجوم في السماء جعلت علامات تعرف بها الطرق، ولها جداول بها يدرك الربان ما يريد، وبالطرق البحرية يجتنب الربان المضار، والفلك في البحر لا بد فيها من علوم الصناعات لعمل السفن، ولصنع القلوع، ولإدارة الآلات البخارية، ومن معرفة النجوم بالدقة، ومعرفة الطرق البحرية، ومعرفة البوصلة، هذا معنى تسخير البحر لنا لتجري الفلك فيه بأمره، ثم عطف عليه بعض النتائج من تسخير السفن فقال: ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ ﴾ بالتجارة والغوص على المرجان والدر. ثم إن في قرار البحر عجائب الحيوان البديع الذي لم يصله ضوء فعوّض نوراً يستضيء به من جسمه هو، وذلك لاستنارة عقولكم، فهذا وغيره من فضل الله تعالى، ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ هذه النعم، ولما كان العالم كله كأنه جسم واحد يحتاج كل جزء منه إلى الأجزاء الباقية، فلا يستقيم مطر بلا حرارة شمس، ولا منفعة لحرارة الشمس بدون نظام في السير، ولا رياح إلا بحرارة، ولا سفن إلا بهواء وكوكب مرصودة وفحم، أو كهرباء وحديد وخشب وما شابه ذلك، بحيث يرى الإنسان أن هذا العالم كله كساعة منظمة؛ أردفه بما يفيد ذلك فقال: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ بأن خلقها نافعة لكم حال كون ما في السماوات وما في الأرض جميعاً كائنة ﴿ مِّنْهُ ﴾ وحاصلة من عنده. قال ابن عباس: كل ذلك رحمة منه، وقال غيره: تفضل وإحسان. ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ وهذا هو الكمال العلمي، ثم أتبعه بالكمال العملي فقال: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ اغفروا ﴿ يَغْفِرُوا ﴾ ويعفوا ويصفحوا

﴿ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾ لا يتوقعون وقائعه بأعدائه، كما تقول لوقائع العرب: أيام العرب، وإنّما أمروا بالمغفرة ليجزيهم على صبرهم يوم القيامة بالجنة، وهذا قوله تعالى: ﴿ لِيَجْزِيَ قَوْمًا ﴾ بصبرهم على أذى أعدائهم ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ من العمل الصالح والصبر على الأذى، ويجوز أن يراد بالقوم الفريقان، وبالكسب ما يعم الخير والشر، ويناسب المعنى الثاني قوله: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ﴾ إذ لها ثواب العمل وعليها عقابه ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ فيجازيكم على أعمالكم.

الاعتبار والتأسي بقصص بني إسرائيل

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ التوراة ﴿ وَٱلْحُكْمَ ﴾ الحكمة النظرية والعلمية وفصل الخصومات ﴿ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾، فقد كان فيهم أنبياء في أكثر الأزمان، وهذه هي النعم الروحية والأخروية ﴿ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ مما أحل الله من الرزق الواسع ﴿ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ حيث أعطيناهم ما لم نعط غيرهم، ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ ﴾ أي: أمر الدين كبيان الحلال والحرام، ﴿ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ ﴾ في ذلك الأمر ﴿ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾ بحقيقة الحال ﴿ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ ﴾ عداوة وحسداً ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ بالمؤاخذة والمجازاة ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ ﴾ طريقة ﴿ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ﴾ أمر الدين ﴿ فَٱتَّبِعْهَا ﴾ فاتبع شريعتك الثابتة بالحجج ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي: مراد الكافرين، فلقد كانوا يقولون له: ارجع إلى دين آبائك فإنهم كانوا أفضل منك، ﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ ﴾ لن يدفعوا عنك ﴿ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ ﴾ أي: من عذاب الله شيئاً إن اتبعت أهواءهم، ﴿ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أي: هو ناصرهم في الدنيا والآخرة. ﴿ هَٰذَا ﴾ القرآن ﴿ بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ ﴾ أي معالم للناس في الحدود والأحكام يبصرونها به ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ يطلبون اليقين. ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ﴾ أي: بل أحسب الذين ﴿ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ اكتسبوا المعاصي والكفر، يقال: فلان جارحة أهله، أي: كاسبهم ﴿ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي: مثلهم، إذ قال قوم من مشركي مكة للمؤمنين: لئن كان ما تقولون حقاً لنفضلن عليكم في الآخرة كما فضلنا عليكم في الدنيا، ﴿ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ ﴾ أي: أحسبوا أن حياة الكافرين ومماتهم كحياة المؤمنين ومماتهم سواء. كلا. فالمؤمن مؤمن في الحياتين، والكافر كافر في الحياتين. وقوله ﴿ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ ﴾ الخ أي: حال كونهم مستوياً محياهم الخ، وإن قرئ «سواء» بالرفع، فالجملة بدل من الكاف، ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي: بئس ما يقضون إذا حسبوا أنهم كالمؤمنين. ثم أتى بالدليل على ذلك من علم المخلوقات المشاهدة قائلاً: ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ بالنظام التام والعدل والقسط، ولولا العدل ما انتظمت أحوال هذه الدنيا فلولا سير الشمس في أوقات معينة ونظام تام، ولولا دخول العناصر في النبات بحساب معين، ولولا وضع الأعضاء بعدد مخصوص في الحيوان ومقادير معينة، لم يستقم لهذا العالم وجود وللحقه العدم وهذا كالآية السابقة في سورة «الشورى»: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ ﴾ [الآية: ١٧]، إذ أفاد أن ما لا يقوم فيه العدل في الدنيا من طريق القضاء الذي نزل به الكتاب يكون العدل فيه في الآخرة

تبعاً للميزان العام، وهنا يقول: إن الله خلق السماوات والأرض بالعدل والقسط، ولا يعقل هذا حتماً إلا الذين درسوا هذه العوالم وأتقنوا دراستها، ولم تكن دراستهم لمجرد الوظائف، أو لمجرد الصناعات بل يكون الغرض منها الوقوف على نظام هذه الدنيا حتى تطمئن النفس لما يجري به القدر عليها وعلى غيرها، ومتى عرفت النفس ذلك أشرقت بالنور، ووقفت على السر المكنون، وأيقنت بالعدل في الموت والحياة، والخفض والرفع، والإيمان والكفر، وإذن تعلم أن الله خلق العالم بنظام وحساب ليعدل في تسويته في ذراته ومركباته، ﴿ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ بنقص ثواب وتضعيف عقاب.

واعلم أنه لا يعقل العدل في هذا العالم، ولا في الثواب ولا في العقاب إلا من درس هذا الوجود وأتقن فهمه، وإذن يصير ممن تربت عقولهم الذين ذكروا في أول السورة، إذ أبان أن المفكر يكون أولاً مؤمناً ثم موقناً ثم عاقلاً، وقد قدمنا أن المراد بالعقل هنا هو الذي تربى تربية إلهية، والتربية الإلهية بقراءة الكتاب الذي خطه الله بيمينه ووضعه، وهو هذا الوجود الذي لا يقرؤه إلا المفكرون، ولا يعقله إلا العالِمون، فلفظ العقل إذا أطلق في مثل هذا المقام إنّما يراد به العقل الذي تربى على المبادئ الإلهية بالتفكر في نظام الوجود، وكما أن طبيعة الحيوان تكون حاصلة من تفاعل المواد التي دخلت في عداد جسمه، وصار لها مزاج خاص ناشئ من تفاعل العناصر الداخلة في جسمه وانتظامها والتئامها حتى يرى على شكل خاص ناجم عن تلك المواد وائتلافها، هكذا عقول الحكماء والمفكرين تتربى تربية خاصة بالنظر في العوالم، فإنها تتغذى تغذية روحية، وكل نظرة من نظراتها. وكل خطرة من خطراتها تزيدها نمواً وتكاملاً إلى أن يتم مزاجها ويكمل وجودها. وحينئذ تصبح تلك النفس خليفة الله في الأرض، لأنها قرأت ما خطه بيمينه، وصنعه بيده، وهندسه بحكمته، وزوّقه بعلمه ونماه، وأحكمه وسوّاه، فتنطبع تلك النظم في عقله، فتصبح تلك النفس إلهية حكيمة مشرقة عالمة، فإذا ورد عليها أمثال هذه الآية: ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ فهمتها، لأنها ترى في العلوم المدونة الأرضية ذلك مسطوراً في لوح الوجود.

وإذا سمعت: ﴿ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أيقنت بذلك لأنها تشاهد النظام تاماً، وتقول: حقاً إني أشاهد أن الذين يهملون أنفسهم بلا تعليم ولا تأديب يصبحون في الدنيا مقدّرة قيمتهم بمقدار حالهم، ويراهم الناس على مقدار ما وصلوا إليه، ومن عرف سر صناعة نراه يكافأ بإبراز مصنوعه بحكمة، ومن جهل ذلك ينبذ، وهكذا أصبح الناس في نظر الحكيم وأعمالهم كالأشجار وأحوالها، فعلى مقتضى نظام الشجر وأصله يكون ثمره، لا خلل فيه، هكذا على مقدار ما كسب الإنسان تكون نتائج أعماله، فثواب الأعمال ليس إلا نتائج لها، كما أن ثمر الأشجار نتائج لها، وإذا كانت الحرارة نتيجتها نمو النبات والبرودة نتيجتها ضعفه وخلوه من قوة الحياة، فهكذا الأعمال الطيبة والأعمال الخبيثة نتائجها لازمة لها لزوماً عادياً ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ومن شرب المسهل أنتج ما أعد له من الإسهال، ومن تعاطى الدواء المسكن أو المهيج أو الحار أو البارد أو تعاطى السم، فكل أولئك يجنون على مقدار ما تعاطوا تسكيناً وتهييجاً وحرارة وبرودة وموتاً، وهكذا نرى

المتكبرين والمستذلين بجبن، وسريعي الغضب، والبخلاء، وذوي الحرص، كل أولئك ينالون في الحياة مقت الناس، أو إذلالهم، أو بغضهم، أو ذمهم، وهكذا نرى العلماء والكرماء والشجعان، وذوي القلوب النقية والعافين عن الناس، ينالون احترام الناس وحبهم وقضاء حاجاتهم، وذكرهم بالجميل. كل ذلك نتائج كثمرات الأشجار. ومن نال ما لا يستحقه في الدنيا، أو نال أقل من حقه؛ فبعد الموت ترجع الأمور إلى نصابها، وتكون هناك الثمرات مقدرات بميزان. هذا معنى هذه الآية.

فإذا كانت آية الميزان جاءت في سورة « الشورى » ونفس السورة مسماة باسم يشعر بالميزان والعدل بين الناس إذا التأموا وتشاوروا، فهكذا جاءت هذه الآية هنا دالة على العدل المشاهد في نفس الطبيعة لمن عقل، ولا يعقلها إلا الدارسون لنظام السماوات والأرض، أما أولئك الذين لا يدرسون ولا يعقلون، وصار الهوى معبودهم، فإن الله ينزلهم المنزلة التي هم بها جديرون، لأن الأرواح الإنسانية طوائف، فمنها المظلمة، ومنها النيرة، ومنها المتوسطة، فهذه الأرواح الفجة الغليظة التي لم تصل لدرجة النضج والكمال بعد، فإن الله حكم ببقائها في الضلال، لأنه عالم بجوهرها، وأنها لا قبل لها بالحكمة والعلم، وهؤلاء يقولون: ما الحياة إلا حياتنا الدنيا، وموتنا إنّما يكون بمرور الزمان، فلا نظام ولا ناظم، ولا حساب ولا حاسب، ولا عدل ولا عادل، وإنما صدر ذلك منهم لقلة علمهم، وإنما ينطقون بالقول تقليداً لآبائهم وأساتذتهم ومعلميهم وقرنائهم، وهذا قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ أي: هو مطواع لهوى النفس، يتبع ما يدعوه إليه، فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إلهه، ﴿ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ أي: وخذله عالماً بضلاله وفساد جوهر روحه استعداداً معلوماً في الأزل ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ ﴾ فلا يبالي بما يسمع من وعظ ﴿ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ﴾ فلا ينظر بعين الاستبصار ﴿ فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ﴾ من بعد إضلاله ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ ﴾ ما الحال أو ما الحياة ﴿ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا ﴾ التي نحن فيها ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ أي: يصيبنا الموت والحياة فيها، وليس وراء ذلك الموت حياة ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ إلا مرور الزمان ﴿ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾، وإنّما ذلك بناء على التقليد والإنكار. فأما العالمون فهم أولئك الذين فكروا فآمنوا ثم أيقنوا، وهناك تربت عقولهم كما جاء في أول السورة، فأما هؤلاء فلم تترب عقولهم لحرمانها من الغذاء النفسي، وهو دراسة ما صنعه الله تعالى، فهو غذاء العقول، كما أن المادة غذاء الأجسام، فكما نرى المزارع والأشجار والحبوب بها حياة الأجسام، هكذا نظامها وحكمها وإتقانها بدراستها حياة العقول، فهذه المخلوقات أقامت أجسامنا وبالتفكر فيها تنمو عقولنا، والمحروم من ذلك ضالّ. ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ ﴾ واضحات الدلالة على خلاف ما يعتقدون ﴿ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ ﴾ ما كان ما يزعمون أنه حجة ﴿ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ ﴾ أي: أحيوهم ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ في دعوى البعث ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ﴾ في الدنيا ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ فيها عند انتهاء آجالكم ﴿ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أي: يبعثكم يوم القيامة جميعاً، فالإتيان بآبائكم أيسر من ذلك ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي: في الجمع ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك لأنهم لا يفكرون في نظام هذا العالم، ولو أنهم فكروا لعرفوا بعقولهم سعة القدرة وبدائع الحكمة في هذا العالم الواسع، وعبر عن سعته بقوله:

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ وهو مسرح الأنظار، وقبلة النظار، ونور الاستبصار، وضياء للأبصار فلو فهموه لعرفوا بعقولهم ما يتضمنه قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ «يومئذ» بدل من «يوم» المتعلق بـ«يخسر»، أي: يومئذ يظهر خسران أصحاب الأباطيل وهم الكافرون. ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ أي: باركة على الركب، وهي جلسة المخاصم بين يدي الحاكم ينتظر القضاء، ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ﴾ الذي فيه أعمالها، ويقال لهم: ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وتقولون في الدنيا، ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا ﴾ ديوان الحفظة ﴿ يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ﴾ يشهد عليكم ببيان شاف كأنه ينطق ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ ﴾ نستكتب الملائكة ﴿ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أعمالكم، أي: نأمر الملائكة بنسخ أعمالكم وكتابتها وإثباتها عليكم ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ﴾ جنته ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾ الظفر الظاهر ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ فيقال لهم ﴿ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ أي: آيات القرآن ﴿ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ عن الإيمان بها ﴿ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ كافرين منكرين، ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي: البعث كائن ﴿ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ لا شك في أنها كائنة ﴿ قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ ﴾ أي: أنكرتموها، وقلتم: ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا ﴾ أي: ما نعلم ذلك إلا توهماً ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ أنها كائنة، ﴿ وَبَدَا لَهُمْ ﴾ وظهر لهم ﴿ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ ﴾ على ما كانت عليه بأن ظهرت لهم صور أنفسهم الحقيقية بعد الموت ويوم القيامة فرأوا قبحها وتشويه صورها، ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي: نزل بهم جزاؤه ﴿ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ ﴾ نترككم في العذاب ترك المنسي ﴿ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ أي: كما تركتم الإيمان والعمل للقاء هذا اليوم ﴿ وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ يخلصونكم منها ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ﴾ استهزأتم بها فلم تتفكروا فيها ﴿ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ فحسبتم أن لا حياة سواها ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا ﴾ من النار ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أي: ولا يطلب منهم أن يرضوا ربهم لفوات أوانه، ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فإن كل ذلك مثار للحمد وسبب له، فعجائب السماوات وبدائع الأرض، وتربية المخلوقات المحدثات، ينفتح بدراستها للنفس أبواب العلوم، وبالمعرفة تكون المحامد، ﴿ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ لظهور آثاره فيهما ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الذي لا يغلب ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فيما أتقنه وقدره. انتهى التفسير اللفظي.

ابتداء السورة كانتهائها

انظر كيف ابتدأ السورة بالعزة والحكمة، وقد بينا لك أن القهر والحكمة مصطحبان معاً في غضون هذه العوالم، مشاهدات في صغيرات الأمور وكبيراتها، ولذلك ذكر العوالم من مطر ونبات وحيوان الخ.

لأن العزة والحكمة شملتاها، هكذا ختم السورة بذينك الوصفين، ليبين أن هاتين الصفتين واضحة آثارهما في السماوات والأرض وما بينهما، والحمد لله رب العالمين.

لطائف هذه السورة:

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الجاثية: ٣].

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ﴾[الجاثية: ٤] إلى قوله: ﴿ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ﴾[الجاثية: ٥] الخ.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ ﴾[الجاثية: ١٢] الخ وهي المعبر عنها ببهجة العرفان الخ.

اللطيفة الرابعة: في قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾[الجاثية: ٢١] الخ.

اللطيفة الخامسة: في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[الجاثية: ٢٩].

اللطيفة السادسة: في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[الجاثية: ٣٧].

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى:

﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾

وفيها غرضان: الغرض الأول: في ذكر عشرة أسئلة وأجوبتها.

الغرض الثاني: كيف قصر المسلمون في هذه العلوم، وكيف خالفوا علماءهم.

الغرض الأول: في ذكر عشر مسائل وأجوبتها

نقلاً من كتابي جواهر العلوم

ثم سألها قائلاً:

(١) ما مقدار محيط الكرة الأرضية عند خط الاستواء بالأمتار؟.

(٢) وما مقدار نصف قطر الأرض بالأمتار أيضاً؟.

(٣) وما مقدار سرعة الكرة الأرضية في مصر في الثانية الواحدة؟ وما مقدارها في خط الاستواء؟ وما مقدارها في باريس عاصمة فرنسا؟.

(٤) وقال العلماء: إن دوران الأرض كلما زادت سرعته نقص ثقل الأجسام عليها على حسب السرعة، فكم سرعة مثل الحالية تحتاج لها الأرض حتى يعدم الوزن في خط الاستواء وتبطل مقادير الموازين.

(٥) وهل يمكن وزن الهواء الجوي؟.

(٦) وما مقدار ارتفاعه بالأمتار؟.

(٧) وهل بين ثقل الهواء والزئبق نسبة معلومة؟.

(٨) في أي درجة من درجات العرض يصير أطول نهار ٢٤ ساعة، وأقصر ليل معدوم بالمرة فيكون الشروق مع الغروب. فقالت الفتاة عندئذ: عجباً للقدرة الباهرة والصنع العجيب.

(٩) ما مقدار حجم الشمس؟ وما مقدار نصف قطرها؟.

(١٠) وما مسافة بعدها عنا؟ وما مقدار سرعة الضوء في الثانية الواحدة؟.

فهذه عشر أسئلة، فشرعت الفتاة تجيبه فقالت:

(١) أما مقدار محيط الكرة الأرضية عند خط الاستواء هو ٠٧٦,٦٣٠ ,٤٠ متراً.

(٢) ومقدار نصف قطر الأرض ٦٣٦٦١٩٨ متراً.

(٣) ومقدار سرعة الحركة الأرضية في خط الاستواء ٤٦٥ متراً في الثانية، وفي مصر ٤١٩، وفي باريس ٣٠٥ متراً.

(٤) إذا صارت سرعة الأرض قدر أصلها ١٧ مرة ينعدم الوزن في خط الاستواء تماماً، فما أقدره سبحانه على هذا الحساب العجيب الذي به دبر الأرض فدارت على هذا الوضع الذي حفظت به الموازين وغيرها، ولو أسرعت عن هذا لما بقي عليها سكان البتة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[فاطر: ٤١]، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾[فاطر: ٤٥].

(٥) ثقل الهواء على الأرض يعادل ثقل ١٠ أمتار و٣٣٤ ملليمتراً من الماء، وهذا عام في جميع سطح الكرة الأرضية، فكأننا في بحر من الماء يبلغ ماؤه فوقنا ما ذكر، فالإنسان كسمك في قاع بحر يرتفع الماء فوقه بهذا المقدار، أعني زيادة عشرة أمتار، ولو كان بدل هذا الهواء زئبق لكن ٧٦ سنتيمتراً أعني نحو $\frac{٣}{٤}$ المتر، فكانت الناس تخوض فيه خوضاً ولا يغطيهم، فسبحان الحكيم في صنعه الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً، وقد حسب هذا الثقل فوجد أنه ٠٠٠, ٠٠٠, ٠٠٠, ٠٠٠, ٢٦٣, ٥ تقريباً، وهذا بالطونلاتة، والطونلاتة عبارة عن ألف كيلو غرام وهي ٢٢ قنطاراً و٢٢ رطلاً و٣٢ درهماً، أعني ٥ كتريليون و٢٦٣ ترليوناً تقريباً، ولو كان نحاساً لكان عبارة عن ٥٨٥ ألفاً كلها مكعبات من النحاس، ضلع المكعب الواحد ألف متر، فما أجمل العلم الذي به عرفنا مقدار الهواء نحاساً وماءً وزئبقاً، ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾[الرعد: ٩].

(٦) ارتفاع الهواء بالأمتار ٠٠٠, ٤٨ متراً على حساب العلامة «بيوت»، وهذا المقدار تقريباً واحد على $\frac{١}{١٣٠}$ من نصف قطر الأرض، أعني أن الأرض لو أدخل فيها محور من حديد وزج به حتى خرج من الجهة الأخرى، فإن ارتفاع الهواء فوقها يكون قدر جزء من ٦٥ من هذا المحور.

(٧) الزئبق أثقل من الهواء بمقدار ١٠٤٦٠ مرة، أعني أننا إذا ملأنا زجاجة من الزئبق فثقله يعادل ثقل الهواء الذي في عشرة آلاف وأربعمائة وستين زجاجة قدر تلك الزجاجة. ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾[القصص: ٦٨].

(٨) يكون أطول نهار ٢٤ ساعة في الدائرة القطبية التي في درجة ٦٦ و٣٣ دقيقة من درجات العرض في الشمال والجنوب، وحينئذ ينعدم الليل بالكلية.

(٩) حجم الشمس قدر حجم الأرض ٠٠٠, ٢٨٠, ١، ونصف قطرها ٠٠٠, ٦٩٢ كيلومتراً.

(١٠) أما بعدها عنا فهو ٣٧ مليوناً من الفراسخ، والضوء يقطع في الثانية الواحدة ٧٥ ألف فرسخ، ثم إن ضوء الشمس حين يشرق منها لا يصل لنا إلا بعد ٨ دقائق و١٨ ثانية، فلله الحكمة البالغة. انتهى ما أردته من كتابي «جواهر العلوم». وبهذا تم الكلام على الغرض الأول.

الغرض الثاني
كيف قصر المسلمون في هذه العلوم وعصوا علماءهم

انظر أيها الذكي إلى الأمة الإسلامية كيف نامت دهوراً ودهوراً، وغطت في نومها غطيطاً، وعلماؤها يوقظونها وهي غافلة، ويعلمونها وهي راقدة، لا تبدي حراكاً، ولا تريد فكاكاً، غابت عنها شمس العلم فأظلم جوها، وسكنت ريحها، وذهب عزها، وطاح مجدها، فلا تعلم كيف تبدي وتعيد.

انظر إلى ما جاء في هذه الآيات كيف طلب الله من المسلم أن يفكر في السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وإنزال المطر، وبثّ الحيوان، وخلق النبات، بمجرد عقله ونظره لا بالتقليد والسماع. وانظر كيف ذكر أن هذا النظر به إيمان وبه إيقان وبه عقل، وانظر كيف كان علماؤنا يقولون ذلك والشعب غافل عما يقولون.

يقول العلامة الرازي في هذه الآيات ما نصه: واعلم أن كثيراً من الفقهاء يقولون أنه ليس في القرآن العلوم التي يبحث عنها المتكلمون، بل ليس فيه إلا ما يتعلق بالأحكام والفقه، وذلك غفلة عظيمة، لأنه ليس في القرآن سورة طويلة منفردة بذكر الأحكام، وفيه سور كثيرة خصوصاً المكيات ليس فيها إلا ذكر دلائل التوحيد والنبوة والبعث والقيامة. وكل ذلك من علم الأصوليين ـ يريد علماء التوحيد ـ قال: ومن تأمل علم أنه ليس في يد علماء الأصول إلا تفصيل ما اشتمل القرآن عليه على سبيل الإجمال، ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾[الجاثية: ٦]، والمراد من قوله: «الحق» هو أن صحتها معلومة بالدلائل العقلية، وذلك لأن العلم بأنها منه صحيحة إما أن يكون مستفاداً من النقل أو العقل. والأول باطل لأن صحة الدلائل النقلية موقوفة على سبق العلم بإثبات الإله العالم القادر الحكيم، وبإثبات النبوة، وكيفية دلالة المعجزات على صحتها، فلو أثبتنا هذه الأصول بالدلائل النقلية لزم الدور وهو باطل، ولما بطل هذا ثبت أن العلم بحقيقة هذه الدلائل لا يمكن تحصيله إلا بمحض العقل. وإذا كان كذلك كان قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾[الجاثية: ٦] من أعظم الدلائل على الترغيب في علم الأصول ـ يريد علم التوحيد ـ وتقرير المباحث العقلية، ثم قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾[الجاثية: ٦]، يعني أنه من لم ينتفع بهذه الآيات فلا شيء بعده يجوز أن ينتفع به، وأبطل بهذا قول من يزعم أن التقليد كاف، وبين أنه يجب على المكلف التأمل في دلائل دين الله. انتهى ما أردته من مقال العلامة الرازي في تفسيره «مفاتيح الغيب».

انظر كيف أثبت علماؤنا في القرون الأولى أمثال هذا القول، وكيف أبانوا أن العلوم الطبيعية والفلكية المذكورة في السور المكية الكثيرة واجبة على كل مكلف، وأن المسلم لا حق له أن ينأى عن هذه العلوم مكتفياً بالتقليد.

إن هذه العلوم لا يخرج المسلمون من ذلهم إلا بدراستها وفهمها، ويكون المتعلمون فيها قسمين: قسم يختص بتلك العلوم كاختصاص طائفة بعلم الفقه ويعلم النحو كما هو جار اليوم في بلاد الإسلام، والقسم الثاني وهو أكثر الأمة يستنيرون بأضواء هؤلاء العلماء، فكما أننا نرى في الإسلام اليوم فقهاء متنورين والعامة يسألونهم عن أمور دينهم، هكذا يجب أن يكون في الأمة قوم

مختصون بهذه العلوم حتى يرجع إليهم الشعب في فهمها، ويؤلفون الرسائل المشوقة لتلك العلوم، كما تراهم يؤلفون رسائل في علم الفقه ونحوه، وعلى المسلمين في أقطار الأرض أن لا يكثروا من الفلسفة في القدرة والإرادة وسائر الصفات، بل يجدّون في معرفة الآثار طبقاً لمقتضى القرآن، فالقرآن وجه العناية إلى الآثار وعجائبها، ذلك هو النور المبين.

فيا عجباً لأمة يقول علماؤها: إن الدين لا يقوم الاستدلال بآياته إلا بعد ثبوت القدرة والعلم والحكمة والوجود والنبوة ثبوتاً عقلياً، ومعنى هذا أن الإيمان به صلى الله عليه وسلم وبالله وبعلمه وقدرته وحكمته إنّما يكون بالعقل، ثم بعد ذلك نكون قد قررنا أن الدين حق، فلا دين إلا إذا بني على العقل أولاً ثم النقل ثانياً. هذا ملخص ما كضى من كلام العلامة الرازي، والله هو الولي الحميد.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى:

﴿ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ﴾

في هذه اللطيفة غرضان:

الغرض الأول: اختلاف الليل والنهار

وقد مر الكلام عليه في سورة «البقرة» و«يس» وغيرهما، ولكن لا بد من ذكر ما يناسب المقام مختصراً، فهاك جدولاً تعرف منه النقص والزيادة في الليل والنهار في كل يوم من أيام السنة، واليوم الذي يدخل فيه البرج من الشهور الشمسية القبطية وموازنتها بالشهور السريانية وشهور الروم، والمنازل وطلوع المنازل بالفجر.

وإنما أوردت لك هذا الجدول ليكون لك نموذجاً تعرف به نظام الشمس في سيرها، وإذا فكرت فيه وعقلته في ذهنك قام مقام النتيجة السنوية قياماً إجمالياً بحيث تعرف في أي يوم من أيام السنة مقدار اليوم ومقدار الليل، أي مقدار مدة ظهور الشمس ومدة اختفائها واحتجابها تقريباً، وإنما قلنا تقريباً لأن الحساب إجمالي. انظر الجدول في صحيفة ٦٦ الآتية، وتأمل في دخول البروج في الشهور القبطية، فإني لما أردت موازنته بما في النتائج المعتادة وجدت الفرق يكون يوماً أو يومين، مثلاً ترى الشمس قد حلت في السنبلة سنة ١٣٤٣ هـ التي هي سنة تأليف هذا الكتاب يوم ٢٢ محرم وهو يوم ١٧ مسرى، وفي الجدول يوم ١٩، وحلت في الميزان يوم ١٢ مسرى، وفي الجدول يوم ١٤، وحلت في العقرب يوم ١٣ من بابه، وفي الجدول يوم ١٥ منها، وحلت في القوس يوم ١٣ هاتور، وفي الجدول يوم ١٤ منه، وحلت في الجدي يوم ١٢ كيهك، وفي الجدول يوم ١٤ منه، وحلت في الدلو يوم ١١ من طوبه، وفي الجدول يوم ١٣ منها، وحلت في الحوت يوم ١١ من أمشير، وفي الجدول يوم ١٣ منه، وحلت في الحمل يوم ١٢ من برمهات، وفي الجدول يوم ١٣ منه، وحلت في الثور يوم ١٢ من برموده، وفي الجدول يوم ١٤ منه، وحلت في الجوزاء يوم ١٢ من بشنس، وفي الجدول يوم ١٤ منه، وحلت في السرطان يوم ١٤ بؤنة، وفي الجدول يوم ١٦ منها، وحلت في الأسد يوم ١٤ أبيب، وفي الجدول يوم ١٧ منه.

فأنت ترى من هذا أن هذا الجدول الذي جاء في الكتب القديمة يخالف الحساب اليوم في يومين غالباً، وقد يكون يوماً، ويندر أن يكون ثلاثة أيام، والقصد من ذكر الجدول نظام الله تعالى الذي لا يتغير ولا يتبدل على مدى السنين، فأما تلك الفروق القليلة فإن الذي أوجبها تداول السنين وتغير أوضاع الكواكب الثابتة، و ذلك يعرف من مسألة مبادرة الاعتدالين، ولا نطيل في ذلك، ولنذكر لك قبل ذكر الجدول مقدمة تعلم منها عجائب الحساب عند الأمم، فنقول:

الكلام على السنة الاصطلاحية

وهي الشمسية وشهورها اثنا عشر شهراً كما في السنة الطبيعية، إلا أن كل طائفة راعت دوران سنيها جعلت في أشهرها زيادة في الأيام إما جملة واحدة وإما متفرقة، وسمتها نسيئاً بحسب ما اصطلحوا عليه، وعدد أيامها عند جميع الطوائف من القبط والفرس والسريان والروم وغيرهم ثلاثمائة يوم وخمسة وستون يوماً وربع يوم، فتكون زيادتها عن العربية عشرة أيام وثمانية أعشار يوم وخمس سدس يوم. وقد قال بعض حذاق المفسرين في قوله تعالى: ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴾[الكهف: ٢٥] إنه إن حمل على السنين القمرية، فهو على ظاهره من العدد، وإن حمل على السنين الشمسية فالتسعة الزائدة هي تفاوت زيادة الشمسية على القمرية، لأن في كل ثلاثمائة سنة تسع سنين لا تخلّ بالحساب أصلاً.

قال صاحب مناهج الفكر: وكذلك كانوا في صدر الإسلام يسقطون عند رأس كل ثلاث وثلاثين سنة عربية سنة، ويسمونها سنة الازدلاف، لأن كل ثلاث وثلاثين سنة عربية اثنتان وثلاثون سنة شمسية تقريباً. قال: وإنما حملهم على ذلك الفرار من اسم النسيء الذي أخبر الله تعالى أنه زيادة في الكفر. ثم المعتبرون السنة الشمسية اختلفت مصطلحاتهم فيها بحسب اختلاف مقاصدهم.

المصطلح الأول: مصطلح القبط، وقد اصطلحوا على أن جعلوا شهرهم ثلاثين يوماً كما تقدم، فإذا انقضت الاثنا عشر شهراً أضافوا إليه خمسة أيام يسمونها أيام النسيء، يفعلون ذلك ثلاث سنين متوالية، فإذا كانت السنة الرابعة أضافوا إلى خمسة النسيء المذكورة ما اجتمع من الربع الزائد على الخمسة أيام في السنة الشمسية فتصير ستة أيام، ويجعلونها كبيسة في تلك السنة، وبعض ظرفائهم تسمي الخمسة المزيدة السنة الصغيرة. قال أصحاب الزيجات: وأول ابتدائهم ذلك في زمن أغسطس، وكانوا من قبل يتركون الربع إلى أن تجمع أيام سنة كاملة، وذلك في ألف سنة وأربعمائة وإحدى وستين سنة، ويسقطونها من سنيهم، وعلى ذلك المصطلح استقر عملهم بالديار المصرية في الإقطاعات والزرع والخراج وما شاكل ذلك.

المصطلح الثاني: مصطلح الفرس، وشهورهم كشهور القبط في عدد الأيام على ما تقدم، وقد أطال فيه القلقشندي.

المصطلح الثالث: مصطلح السوريان، وشهورهم على ما تقدم منها سبعة أشهر يزيد كل شهر منها يوماً على الثلاثين كما سيأتي في الجدول الآتي في الصحيفة التالية، فتكون الزيادة سبعة أيام يكمل منها شباط وهو ثمانية وعشرون يوماً بيومين يبقى خمسة أيام وهي نظير النسيء في سنة القبط والفرس.

المصطلح الرابع: مصطلح اليهود، ولا حاجة للإطالة فيه، والذي يهمنا أن نبين لك في الجدول الآتي السنين الرومية والقبطية والسريانية والفصول والبروج وعدد أيام الشهور والمنازل وطلوعها بالفجر.

جدول في الفصول

وبيان الزيادة والنقص في الليل والنهار من الدرجات كل يوم مع بيان البروج وتدخلها في الشهور القبطية وتدخل القبطية في الشهور السريانية المتصلة الموافقة للشهور الرومية، وذكر المنازل وطلوعها بالفجر محسوبة بالشهور القبطية، واعلم أن هذا الجدول يفهم القارئ على وجه التقريب عدد ساعات النهار والليل ودقائقهما في كل فصول السنة، فهو نتيجة إجمالية دهرية، واعلم أن كل مقدار نقصه النهار زاده ليله بالعكس.

الفصول الأربعة الخريف الشتاء الربيع الصيف

النقص والزيادة في الليل والنهار	البروج	اليوم الذي يدخل فيه البرج من الشهر	الشهور القبطية المنسوبة لدقلطيانوس	شهور السريان المنسوبة للإسكندر	عدد الأيام	شهور الروم المنسوبة لأغسطس	عدد الأيام	المنازل	طلوعها بالفجر
ينقص النهار									
نصف درجة	الميزان	١٤ من	توت يدخل في	٢٩ آب	٣١	أغست	٣١	السرطان	٢٣ برموده
ثلث درجة	العقرب	١٥ من	بابه يدخل في	٢٨ أيلول	٣٠	سبتمبر	٣٠	البطين	٦ بشنس
سدس درجة	القوس	١٤ من	هاتور يدخل في	٢٨ تشرين الأول	٣١	أكتوبر	٣١	الثريا	١٩ بشنس
يزيد النهار									
سدس درجة	الجدي	١٤ من	كيهك يدخل في	٢٧ تشرين الثاني	٣٠	نوفمبر	٣٠	الدبران	٢ بؤنه
ثلث درجة	الدلو	١٣ من	طوبه يدخل في	٢٧ كانون الأول	٣١	ديسمبر	٣١	الهقعه	١٥ بؤنه
نصف درجة	الحوت	١٣ من	أمشير يدخل في	٢٦ كانون الثاني	٣١	يناير	٣١	الهنعه	٢٨ بؤنه
يزيد النهار									
نصف درجة	الحمل	١٣ من	برمهات يدخل في	٢٥ شباط	٢٨	فبراير	٢٨	الذراع	١١ أبيب
ثلث درجة	الثور	١٤ من	برموده يدخل في	٢٧ آذار	٣١	مارس	٣١	النثرة	٢٤ أبيب
سدس درجة	الجوزاء	١٤ من	بشنس يدخل في	٢٦ نيسان	٣٠	أبريل	٣٠	الطرفه	٧ مسرى
ينقص النهار									
سدس درجة	السرطان	١٦ من	بؤنه يدخل في	٢٦ أيار	٣١	مايو	٣١	الجبهة	٣٠ مسرى
ثلث درجة	الأسد	١٧ من	أبيب يدخل في	٢٥ حزيران	٣٠	يونيو	٣٠	الخرتان	٤ نسيء
نصف درجة	السنبلة	١٩ من	مسرى يدخل في	٢٥ تموز	٣١	يوليو	٣١	الصرفه	١٢ توت
								العوّاء	٢٥ توت
								السماك	٨ بابه
								الغفر	٢١ بابه
								الزباناان	٤ هاتور
								الإكليل	١٧ هاتور
								القلب	٣٠ هاتور
								الشوله	١٣ كيهك
								النعايم	٢٦ كيهك
								البلدة	٩ طوبه
								سعد الذابح	٢٣ طوبه
								سعد بلع	١٠ أمشير
								سعد السعود	١٨ أمشير
								سعد الأخبية	أول برمهات
								الفرغ المقدم	١٤ برمهات
								الفرغ المؤخر	٢٧ برمهات
								بطن الحوت	١٠ برموده

الغرض الثاني: في الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ ﴾

قد مر الكلام على الرياح في تفسير سورة «الحجر»، وهو مفصل أيضاً في سورة «الأعراف». فترى هناك كيف كانت الرياح تمر بين أستراليا والهند والصين، ولا بد من إيضاح هذا المقام هنا ليعجب المسلمون من عجائب تدبير الله تعالى.

انظر أيها الذكي إلى الشمس في سيرها كما تراه في الجدول، وكيف انتقلت في البروج، وانظر آثارها، آثارها هي الحرارة بالقرب، والبرودة بالبعد، فيا سبحان الله! حرارة بقربها وبرودة ببعدها يكون بهما نظام أرضنا، وكيف يتم النظام إلا إذا كان ذلك بحساب. هاأنت ذا رأيت الحساب، فانظر الآن إلى الأرض عند خط الاستواء، ألم تر أن الشمس هناك شديدة الحرارة، إنها تلح دائماً على تلك المنطقة، فماذا يحصل؟ يحصل أن الهواء يسخن، يسخن جداً، ومتى سخن علا في الجو، وهذا العلو لا بد أن يصل إلى غاية منتهاه لشدة الحرارة هناك، بحيث لا يكون للهواء في الأرض علو فوق علوه، ومتى وصل إلى نهاية العلو قابل الطبقة الباردة، لأنك تعلم أن انعكاس زوايا الضوء تكون منفرجة كلما ارتفعنا إلى الأعلى، وتزيد انفراجاً كلما زاد البعد امتداداً، وهناك تزيد البرودة وتقل الحرارة تدريجاً بعكس طبقات الأرض، فإنك كلما أوغلت فيها نقصت البرودة وازدادت الحرارة، فإذا وصل الهواء المرتفع إلى الطبقة الباردة اجتمع فصار سحاباً فأمطر، فالمطر هناك دائم لدوام التبخر، وهذا الهواء الذي ارتفع إلى أعلى إذا وصل إلى منتهاه أخذ يسير جهة الشمال وجهة الجنوب، لأن هواء غيره يحل محله من أسفله لشدة الحرارة على الأرض، والهواء الذي يحل محله آت من الشمال والجنوب، وهذا الهواء الجديد يتأثر سريعاً بالحرارة فيرتفع أيضاً ويحل مكانه غيره، وهكذا، ولذلك تهب دائماً نحو خط الاستواء رياح من الشمال الشرقي ومن الجنوب الشرقي تسمى الرياح المنتظمة أو الرياح التجارية، وهذا الهواء المرتفع المتجه إلى الجنوب والشمال لا يزال يسير حتى يصل إلى درجة (٢٥) شمال وجنوب خط الاستواء، فإذن يثقل ويهبط إلى الأرض، ومتى وصل سطحها لسعته الحرارة فارتفع ثانياً، فكأن الحرارة عصا من عصي الله يضرب بها الهواء فيرتفع وينقسم قسمين: أحدهما يرجع إلى خط الاستواء، والثاني يذهب إلى جهة القطب، فما يتجه جهة خط الاستواء يسمى بالاسم المتقدم وهي الرياح المنتظمة أو التجارية، والتي تتجه إلى الجهة القطبية تسمى الرياح المتغيرة، أو التجارية الضدية، فإذا وصلت الرياح التجارية الضدية إلى الدائرة القطبية الشمالية والدائرة القطبية الجنوبية، فهناك يرتفع الهواء كما ارتفع عند خط الاستواء، لأنه يقابل الهواء البارد الآتي من جهة القطبين، فهذا الهواء البارد يحل محل ذلك الحار فيرتفع الحار ويحل محله الرياح القطبية الشمالية والرياح القطبية الجنوبية كل منهما في مكانه. ثم إنك ترى جنوب آسيا الغربي وجنوبها الشرقي تهب عليها رياح غير ما تقدم تسمى الرياح الموسمية، ذلك أن داخل القارة في فصل الصيف أشدّ حرارة من البحار المحيطة بها، ذلك لأن اليابس يتأثر بالحرارة أسرع من الماء وأشد منه، فإذن يصعد الهواء عن سطح الأرض ويحل محله هواء آخر يهب من الجنوب الغربي والجنوب الشرقي فيحدث كثيراً من الأمطار على الشواطئ.

أما في فصل الشتاء فيكون العكس، فيكون داخل القارة أبرد من البحار المحيطة بها، ولذا تخرج الرياح منه إلى الجنوب الغربي والجنوب الشرقي، وتكون جافة وشديدة البرودة. وهناك نسيمان أحدهما يسمى نسيم البر، والآخر نسيم البحر، فترى الجهات القريبة من البحار يهب فيها الهواء نهاراً من البحر إلى البر، ويسمى نسم البحر، وفي الليل يهب من البر إلى البحر، لأن الأرض تتأثر بالحرارة أسرع من البحر، فتكون في النهار أكثر حرارة من البحر فيرتفع هواؤها ويحل محله نسيم البحر الذي هو أقل حرارة، أما في الليل فإن البر يكون أبرد من البحر لسرعة تبرده، لأن ما يسخن بسرعة يبرد بسرعة، ومتى برد البر ليلاً ثقل هواؤه، فأما هواء البحر فإنه لا يزال خفيفاً، لأن البرودة لا تسرع فيه كسرعتها في البر، فيجري نسيم البر الثقيل ويطرد نسيم البحر الخفيف إلى أعلى، ففي النهار يكون الهواء على البر أكثر حرارة وأقل كثافة من هواء البحر فيرتفع الأول ويحل محله الثاني، وفي الليل بالعكس.

ألا تعجب مما ترى! هواء جهة خط الاستواء ارتفع بالحرارة فوصل إلى الطبقة الباردة فحل محله من أسفله هواءان من الجنوب والشمال، فسار هو إلى الجهتين حتى وصل إلى قرب مدار السرطان والجدي، فثقل فهوى إلى الأرض، لأنه وجد الجو أبرد فقابلته الحرارة فارتفع واتجه إلى خط الاستواء بعضه، وإلى الدائرتين القطبيتين البعض الآخر، ولما وصل إلى الدائرتين القطبيتين عمل معه مثل ما حصل له في خط الاستواء، ارتفع إلى أعلى وحل محله البارد الآتي من القطبين، وهكذا تجد قارة آسيا إذا كان الحر في الصيف أتاها النسيم من البحر على شواطئها الجنوبية فكثرت الأمطار. وإذا كان الشتاء برد جوها فحل محله النسيم البحري الذي هو أقل كثافة، فهب النسيم من نفس القارة إلى البحار، وهكذا نسيم البر والبحر في كل مكان بالليل والنهار على هذه القاعدة يذهب نسيم البحر إلى البر نهاراً ونسيم البر إلى البحر ليلاً، وكل هذه الرياح على قاعدة واحدة حرارة وبرودة.

أسباب كثرة الأمطار

(١) أسباب كثرة الأمطار أن يرتفع البخار فيصل للطبقة الباردة كما في خط الاستواء، فإن شدة الحرارة ترفعه إلى أعلى جداً فيصيب الطبقة الباردة فيمطر، ولما كان ذلك أمراً دائماً كثرت الأمطار هناك.

(٢) وكذلك في الجهات التي تكون الجبال فيها، فإن الهواء البارد إذا قابل الجبل اضطر أن يرتفع فيصل إلى الطبقة الباردة، ولذلك يكثر المطر على سفوح الجبال، فالهواء في خط الاستواء إنّما ترفعه الحرارة، وعلى سفوح الجبال ترفعه الجبال.

(٣) وهكذا الرياح الضدية المتقدمة تتجه من الجهات الحارة إلى الباردة وإن لم تكن مرتفعة، لذلك يسقط مطر غزير على القسم الغربي من أوروبا.

(٤) وترى الرياح الموسمية المتقدمة من هذا القبيل، فإنها تهب على جنوب آسيا الشرقي في فصل الصيف، لأنها كما علمت تنتقل من خط الاستواء إلى الجهات الشمالية التي تزيد برودة عليها، فيسقط مطر غزير على بلاد الهند والصين واليابان. وتحقيق هذه وإيضاحها في سورة «الأعراف» عند الآية التي ذكر فيها الرياح، وكذلك في سورة «الحجر عند الآية ٢٢»: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾.

هذا معنى قوله تعالى هنا: ﴿ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ﴾[الجاثية: ٥]. هاأنا ذا أدعوك لتنظر تصريف الرياح، أدعوك لتتأمل كيف كان أصل هذا كله؟ أصله الشمس، فلو وقفت ولم تتحرك لكان للعالم شأن غير هذا، ولكنها تحركت بالحساب الذي في الجدول السابق، وبحركتها أزجت الشعاع والحرارة على الأرض، ولما أزجاها عليها رفعت الهواء جهة خط الاستواء، وحركت ريحين شمالية وجنوبية، وهذان اتجها إلى الجهتين ونزلا عند مداري السرطان والجدي وارتفعا وسافرا إلى المدارين، وهكذا خفض ورفع في أماكن معينة، وفي كل ذلك تنزل أمطار في مواضع وتمتنع في أخرى، وانظر كيف نصب الجبال في بعض المواضع، ونصب البرودة في أخرى، فالجبال ترفع الهواء فيصل إلى الطبقة الباردة فيمطر، وهكذا البرودة التي عند الدائرتين القطبيتين تقابل الرياح الحارة فتكون لها قائمة مقام الطبقة الباردة: ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ﴾[يوسف: ١٠٠].

يا رباه، جعلت الحرارة سبباً للوصول للطبقة الباردة، وكذلك الجبال، وهكذا أنزلت البرودة فقابلت الحرارة لإنزال المطر، فالبرودة إما أن يرتفع الهواء إليها بالحرارة عند خط الاستواء، وإما أن يرتفع بالجبال، وإما أن تنزل نفس البرودة فتقابل الحرارة فينزل المطر، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[يوسف: ١٠٠]، وبهذا يفهم لِمَ ابتدأ السورة وختمها بهذين الاسمين: ﴿ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾[الجاثية: ٢].

بمثل هذا فلتفهم أيها الذكي معنى العزة والحكمة، وبمثل هذا تفسر أسماء الله الحسنى، انظر تر السورة ابتدئت بالعزة والحكمة وختمت بهما، فهو عزيز، عزّ فغلب، وقهر الهواء والماء، وتصرف فيهما بالحرارة والبرودة، وجعل الشمس مسيطرة عليهما، تقرب وتبعد بنظام، وتؤثر فيهما بنظام، انظر كيف كانت الرياح ترتفع بالحرارة وبالجبال، أو تقابل البرودة، كل ذلك لنتائج معلومة، وذلك كله بحساب متقن ظاهر في حركات الشمس، ألا ترى إلى نسيم البر والبحر وإلى الرياح الموسمية صيفاً وشتاء، أليس ذلك كله تابعاً لحركات الشمس ليلاً ونهاراً في الأول وصيفاً وشتاء في الثاني، فالأول تابع لحركتها حول نفسها، والثاني تابع لحركتها حول الشمس، هذا هو معنى الحكمة، وهذا هو معنى: ﴿ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ وكررها في الأول والآخر ليفهمنا هذه المعاني، وليقول لنا: هكذا فلتعرفوا كتابي، كتابي أنزلته لتعرفوا صنعتي، فإذا قلت: إني عزيز وحكيم، فلتقرؤوهما في صنعتي لا في خيالكم.

بهذا وأمثاله فليدرس القرآن، وبه وبأمثاله فليرتق المسلمون، وقد جاء أوانه، وحل زمانه، والله أذن به، والله هو العزيز الحكيم. وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الثانية، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثالثة: بهجة العرفان، في جزائر المرجان

في آية:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾

ما كدت أكتب هذا العنوان حتى حضر صاحبي العلامة المفضال الذي اعتاد أن يناقشني في هذا التفسير. فقال: إن هذا العنوان يدل أنك تريد ذكر أهم عجائب البحر وهو المرجان، والمرجان قد تقدم الكلام عليه، ورسمته في سور كثيرة كسورة «النحل» وكسور غيرها. فقلت: هاهنا أمر عجب، وعلم

أبدع لم يسبق له نظير، هاهنا الجمال والحكمة وسعادة الدنيا والآخرة، ألم تتذكر أيها الذكي يوم أن كنت تناقشني في عجائب الحساب الذي وضعت بعضه في سورة «الرحمن» فيما سيأتي عند آية: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾[الآية: ٥]، وبعضه الآخر في سورة «الذاريات» عند آية: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[الآيتان: ٢٠-٢١] قال: أذكر ذلك ولا أنساه. قلت: ألم تتذكر أنني وقعت في يدي مجلة إنكليزية وعنوانها هكذا «منظر في مملكة الحيوان يسحر الألباب، ويحرك الوجدان»، وفيها صور المرجان البديع التي أخذت بلبي، أتتذكر ما قلته لك إذ ذاك؟ قال: قلت لي إن هذه الصور المرجانية حديثة العهد لم يطلع الناس عليها إلا اليوم، ولقد أخذت بلبي كما أخذ الحساب الذي نحن بصدده بمجامع قلبي، قال: نعم. نعم أتذكر ذلك. قلت: فاذكر ملخصه لتظهر المناسبة بين بدائع الحساب التي في نفوسنا، وبدائع المرجان التي خلقت في بحارنا.

فقال: إن ذكر الشمس والقمر وإنهما بحساب في سورة «الرحمن»، وكذلك ذكر أن في أنفسنا آيات، وأننا مطلوب منا إبصارها ودراستها، استبان منه أن كل كوكب وكل شجر ونبات لا وجود لها إلا بحساب في حركات الكوكب ذي الأجزاء اللاتي تركب منها النبات الخ، وهناك ذكرت أنواع الحساب من الجذر والتربيع وحساب مثلثات القوائم الزوايا التي ترجع في حسابها إلى ١ - ٢ - ٣ - ٤ وهكذا، وأن الجذر التربيعي في هذه الأعداد البسيطة ينتج مثلثات قوائم الزوايا لا حصر لها، وهناك بدائع وعجائب مثل النظام لارتفاعات الأوتار والقواعد، وهكذا مما لا حصر له، وذكرت هناك كيف كان الكسر الدائر يشبه سير الكواكب في حسابها، فهي منظمات لا حصر لأدوارها، ومن أهم ما تقدم في الموضوعين صور الأوفاق التي نقلتها من كتاب خواص الأعداد للمرحوم علي مبارك باشا الذي ترجمه من اللغة الفرنسية، وأثبت فيه كيف كان جمال الأوفاق وحسابها، وكيف كانت هذه الأوفاق من عجائب الحساب الكامن في نفوسنا المستمدة من نور الله عز وجل، وأن اتساعها لتلك العلوم المدهشة المنظمة فتح باب للقاء الله، وأن الأمم الإسلامية اللاحقة تبعاً للأمم الوثنية السابقة لما انحطت مداركهم أخذوا يستعملون تلك الأعداد في الأدعية وجلب الرزق، بالعزائم والدعوات، ومزجها بآيات القرآن، والصابئون كانوا يتقدمون بها إلى الكواكب، هؤلاء وهؤلاء ضلوا السبيل في أواخر قرونهم مع أن هذه العلوم مرقية للأمم والعقول، مرغبة في لقاء الله، مصغرة لأمر الحياة الفانية الجاهلة.

هذا ما أتذكره، ولكن إذا تفضلت بذكر وفق واحد من تلك الأوفاق ليكون جمالها واضحاً بحيث لا يتكرر مع الأوفاق الآتية هناك ويفيد فائدة أتم، فإنه به يستبين ما مناسبة جزائر المرجان للحساب.

فقلت له: المذكور هناك أن الأوفاق إما فردية وإما زوجية، وكلاهما تكون فيه المتوالية العددية والمتوالية الهندسية.

وأنا لا أذكر هنا إلا وفقاً فردياً فيه المتوالية الهندسية، وهذه المتوالية وإن كانت موضوعة هناك في وفقها لم يبين هناك كيف يوضع كل جدول فردي، فمتى عرف الأذكياء وضع هذا الجدول الفردي

ومثله بالمتوالية الهندسية قاسوا عليه كيف يضعون المتوالية العددية في المثلث، وكيف يضعون المتوالية الهندسية والعددية في كل وفق فردي مخمس ومسدس ومسبع إلى ما لا حصر له، وهذا هو:

فهذه متوالية هندسية وضعت ثلاثة أعداد في الصف الأول الأيمن وتركنا صفاً يليه وأنزلنا ٣ تليها في الصف الثالث وتركنا صفاً يليه وأنزلنا الأعداد الثلاثة الباقية من ٦٤ إلى ٢٥٦ في الصف الأخير، ولا جرم أن المثلث الأصلي هو الذي أحيط بخطين في داخله ٤ مربعات لا رقم بها، فهذه المربعات يملأ كل منها مما فوقه في صفه من الأرقام، بشرط أن يكون الرقم الأبعد لا الرقم الأقرب، فرقم ١ يوضع أسفل ورقم ٢٥٦ يوضع أعلى، ورقم ٦٤ يوضع على اليمين، ورقم ٤ يوضع على اليسار، فإذا تم هذا فإنك ترى ناتج ضرب أعداد كل صف أفقي أو رأسي أو قطري يساوي مكعب الرقم الذي في قلب الوفق وهو ١٦ وهو ٤٠٩٦، وهناك يظهر جمال الحكمة وجمال نفوسنا، فإن هذا النظام البديع فيه تجلي للنفس، وفي النفس أن كل عدد مرتبط ارتباطاً وثيقاً بما يليه، وكل صف مساو للصف الآخر وجميع الصفوف مساويات لمكعب الرقم الذي في القلب.

		١		
	٨		٢	
٦٤		١٦		٤
	١٢٨		٣٢	
		٢٥٦		

ومن عجب أن يكون ذلك العدد هو العدد الخامس من أعداد ٩، فكما كان في وسط الوفق هو وسط في الأعداد، وهذا من أسرار نفوسنا المملوءة عجائب وغرائب.

فلما اطلعت على المجلة المذكورة الإنجليزية ابتهجت بنفسي بمنظر المرجان، وسحره الحلال، والإبداع العجيب، وخيل لي أن نفوسنا أشبه ببحر متلاطم الأمواج، وأن عجائب الحساب المنظمة فيها تشبه عجائب المرجان في البحار، كيف لا وأنا أسر وأفرح بعجائب هذا الحساب كسروري وفرحي بعجائب المرجان المنظورة المصورة من أقاصي البلدان، أفلا ترى رعاك الله أيها الذكي أن المرجان نوع واحد؟ وتراه منوعاً تنوعاً مدهشاً في البحار، كما أن الأعداد أصلها الواحد، وبانضمام ١ آخر كان اثنان والاثنان كان منهما كل زوج في جميع الأعداد، ولا شك أنك إن ضربت ٢ في أي عدد فردي أو زوجي كان الناتج عدداً زوجياً، فلا عدد زوجي إلا وهو ناتج من ضرب عدد ٢، وجميع الأعداد الكاملة والمتحابة الآتي بيانها في ذينك الموضعين تنتج من عدد ٢، والأعداد المتحابة والكاملة من الأعداد النادرة البديعة، ومع ذلك يمكن استخراج ما لا نهاية له منها بقاعدة واحدة ستتضح هناك.

فقال صاحبي: هذا القول حسن جداً وجميل، وتبيان المرجان وصوره البهجة جمال، ولكنني سمعت كثيراً من أهل العلم بمصر وغيرها يقولون: ما فائدة مثل هذه العلوم سواء أكانت في تفسير القرآن أم في غيره، إن هي إلا أشياء تسرّ بها النفوس، ولكن لا فائدة منها في الحياة. فقلت: إن هذه كلمة أسمعها في كل مكان يتسلى بها الجهلاء الغافلون الذين هم لا عرفوا علم الشرقيين ولا الغربيين.

إن رقي الحياة وسعادة الممات بحب العلم، ولو كان ما يقولون حقاً ما أغرم الناس في أرضنا بالكواكب البعيدة، ولا تنافست فيها دول الأرض، مع أن الكواكب لا أكل فيها ولا شرب ولا درهم

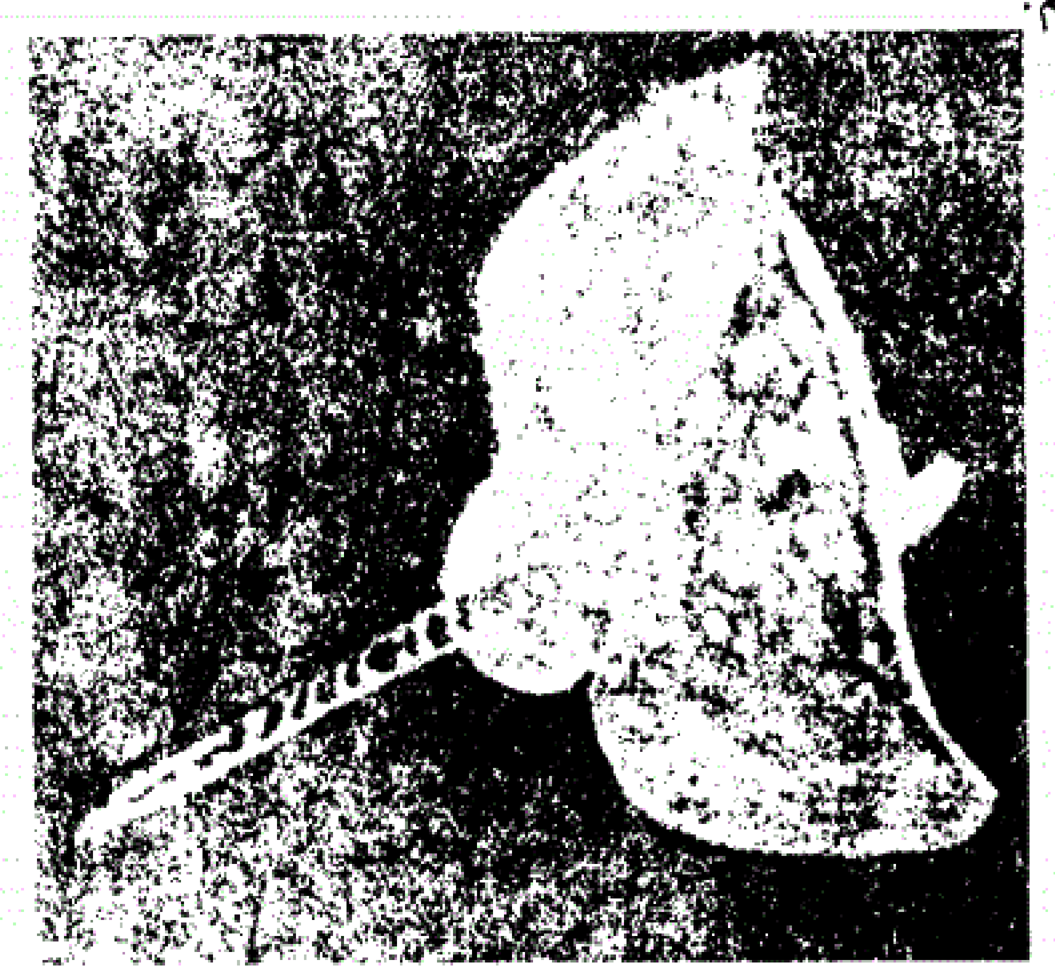
ولا دينار، وهاهو ذا علم الأعداد وخواصه لما تركه الشرقيون قديماً انتقل إلى أوروبا، وترجم بعضه أستاذنا المرحوم علي باشا مبارك، مع أني كنت لما قرأت مقدمة ابن خلدون ورأيت فيها عند الكلام على الأرثماطيقي ما يفيد أن هناك في هذا العلم جداول منظمات بينها مناسبات مدهشات وعجائب، ولم يذكر شيئاً منها، اشتاقت نفسي لهذه العجائب. وتحسرت على جهلي بها، فلذلك وضعتها في التفسير لما حان حينها. فقال: إن هذا الجواب به دحضت حجة هؤلاء الكاسلين، ولقد آن أوان شرح الصور المرجانية المرسومة في تلك المجلة الإنجليزية. فقلت: إن في المجلة لعجائب:

العجيبة الأولى

صور السمك العائش حول سلاسل الصخور المرجانية في البحار

وهناك صور الأسماك بألوانها. وهذا شرح المجلة لها، وهاك تفصيله: إن كثيراً من السمك الذي يكثر حول سلاسل الصخور المرجانية فوق وصف الواصفين من حيث بدائع ألوانها البراقة المؤثرة بهيئة خطوط ملونة مجتمعة وأحزمة مختلف ألوانها ظهراً وبطناً، إن هذه الألوان وإن كانت بهجة لماعة في أنفسها ليست ظاهرة كما ينتظر، ذلك أنها متناسبات تناسباً تاماً مع السلاسل المرجانية المجاورة لها من حيث ألوانها، وبهذه المناسبة اللونية الموسيقية البديعة قد ينجو السمك ممن يصطاده بدون الاحتياج إلى الإسراع في جريه، لأنه لا يكاد يميز الرائي بين لونه ولون الصخور البديعة النقش، وفي أكثر الأوقات ينجو السمك بأن يجري في مجاري داخل تلك الصخور ليغيب عن الأبصار. اهـ.

أقول: وهذه السلاسل لونها الحمرة البديعة والبنفسجية، ولون الشفق والزرقة والصفرة، وهكذا ألوان السمك، فترى في السمكة خطوطاً صفراء، وأخرى زرقاء، وأخرى حمراء، وكل هذا واضح في الرسم.



(شكل ٤ ـ سمك يسمى النعل المنقوش)

العجيبة الثانية: سمك يسمى النعل المنقوش

إن هذا وإن لم يكن مرجاناً فهو سمك فيه عجائب وحكم، كما ترى أن كل سمك يستعين بذيله على العوم، ولكن هذا السمك ذيله مفقود، فلا قدرة له على التحرك به، فهذا إنّما يتحرك بهذه الزعنفة التي تراها أشبه بالمثلث الذي تراه أمامك مرسوماً بالصورة الشمسية «الفوتوغرافية».

العجيبة الثالثة: بيض سمك النعل المنقوش

اعلم أن هذا السمك إنّما سمي بالنعل لأنه يشبه النعال التي يستعملونها في المشي على الثلج، فأما نقشه فهو ظاهر واضح أمامنا، وأما البيض فهذه صورته: (انظر شكل ٥).



(شكل ٥ ـ غلاف بيض سمك النعل المنقوش)

إن غلاف بيض سمك النعل المنقوش خلقت جوانبه الأربعة من المادة التي صنعت منها أصابعنا وبعبارة أخرى: هو قرن وهو يخلق في مبيض الأنثى محيطاً بالبيضة بعد ما يتم تكوينها، وفي داخل هذا الغلاف الأسود القرني الصدفي تكون المادة البيضاء من المادة «الغرقيّ»، وفي وسطه الكرة التي يخلق منها الجنين في داخل ذلك البياض «المح». (انظر شكل ٦).



(شكل ٦ ـ غلاف بيض سمك النعل المفرغ منه)

غلاف سمك النعل ينزل إلى قاع البحر وتنمو البيضة في داخله قليلاً قليلاً، وبعد أشهر كثيرة يرى سمك النعل الصغير التام الخلقة جاثماً فوق قمة «مح البيضة» التي قد امتصت قليلاً قليلاً، ثم يحصل هناك تغير كيميائي في بياض البيضة، فيذوب القرن عند طرف من أطرافه، وهناك تخرج السمكة الصغيرة.

العجيبة الرابعة:



(شكل ٧ ـ قطعة من الجزيرة المسماة «جزيرة الملك»)

إن الجزائر المرجانية ـ سواء أكان وضعها فوق أكناف بركان لم يصل في ارتقائه إلى سطح الماء، أم كانت حول جزيرة ارتفعت في البحر بوسيلة أخرى ـ إنّما تبنى فتصير مستعمرة من سلاسل صخرية في البحار ومن قطع مضمومة لبعضها مهشمة من بقايا تلك السلاسل المذكورات وحوالي تلك السلاسل الصخرية البحرية يكون رمل جميل ذو امتداد، وهذا هو الذي تراه في هذا الرسم المصور بالتصوير الشمسي أمامك الآن، وقد اتخذته السلاحف الخضر الألوان ـ التي تؤكل ـ مكاناً مناسباً لأن تضع فيه بيضها وهي في هناء وحبور. ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].



(شكل ٨ ـ مرجان ورقي يشبه ورق الأشجار)

المرجان الورقي يكون في جهات في بحار خط الاستواء، وينمو بحجم كبير، والمستعمرة الصغيرة منه تشبه الكبيرة: الحديقة الغناء، والمروج البهجات. وحيوان المرجان المتراكم في تلك المستعمرة تضرب ألوانه للزرقة الخفيفة.



(شكل ٩ ـ سلاسل الصخور المرجانية)

هذه إحدى المستعمرات الكثيرة المكونات من السلاسل الصخرية المرجانية المشتملة على ما لا حصر له من حيوان المرجان الدقيق، وهو يتضاعف بأحد الأمرين: إما بالانقسام، وإما بحدوث براعم في الحيوان.



(شكل ١٠ ـ المرجان الذي يشبه في هيئته بعض النباتات الفطرية الصالحة للأكل خبز الغراب)

وهو يظهر فوق سطح الماء وتحته، وهذه الصورة المشبهة الفنجال في شكلها هيكل حيوان مرجاني واحد يشبه من وجوه كثيرة شجرة كبيرة من الشقائق البحرية.

العجيبة الخامسة:

هذه مستعمرة حيوان يعيش على الأعشاب، وهذه المستعمرة تخالف مستعمرة المرجان من عدة وجوه، ولكنها تشبهها في أن كلاً من أفراد الطائفتين المجتمعة تحيط به مادة كلية لحفظه. ﴿ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٦٤].

(شكل ١١ ـ مرجان مشدود بخيوط)



(شكل ١٢ ـ مرجان مدريبور)

هذه مستعمرات مرجانية لنوع المرجان الحقيقي المسمى «مدريبور»، وهو ينمو بهيئة الورق المجدول، وترى نوعاً منه في المتحف البريطاني، محيطه يبلغ ١٦ قدماً.



(شكل ١٣ ـ مرجان يشبه الشبكة)

هذه مستعمرة أخرى للحيوان الجميل الذي يعيش على الأعشاب، وهو أقرب إلى الدود منه إلى حيوان المرجان، وما هذه النقط السود إلا فتحات هذه المستعمرة الشبكية.

العجيبة السادسة





(شكل ١٤ ـ مرجان الكوب)

هذا المرجان البسيط البريطاني في حجمه الطبيعي حيوان مفرد يشبه نبات الشقائق البحرية، وأسفل هيكله مشدود بصخر، أو حجر، أو صدف.

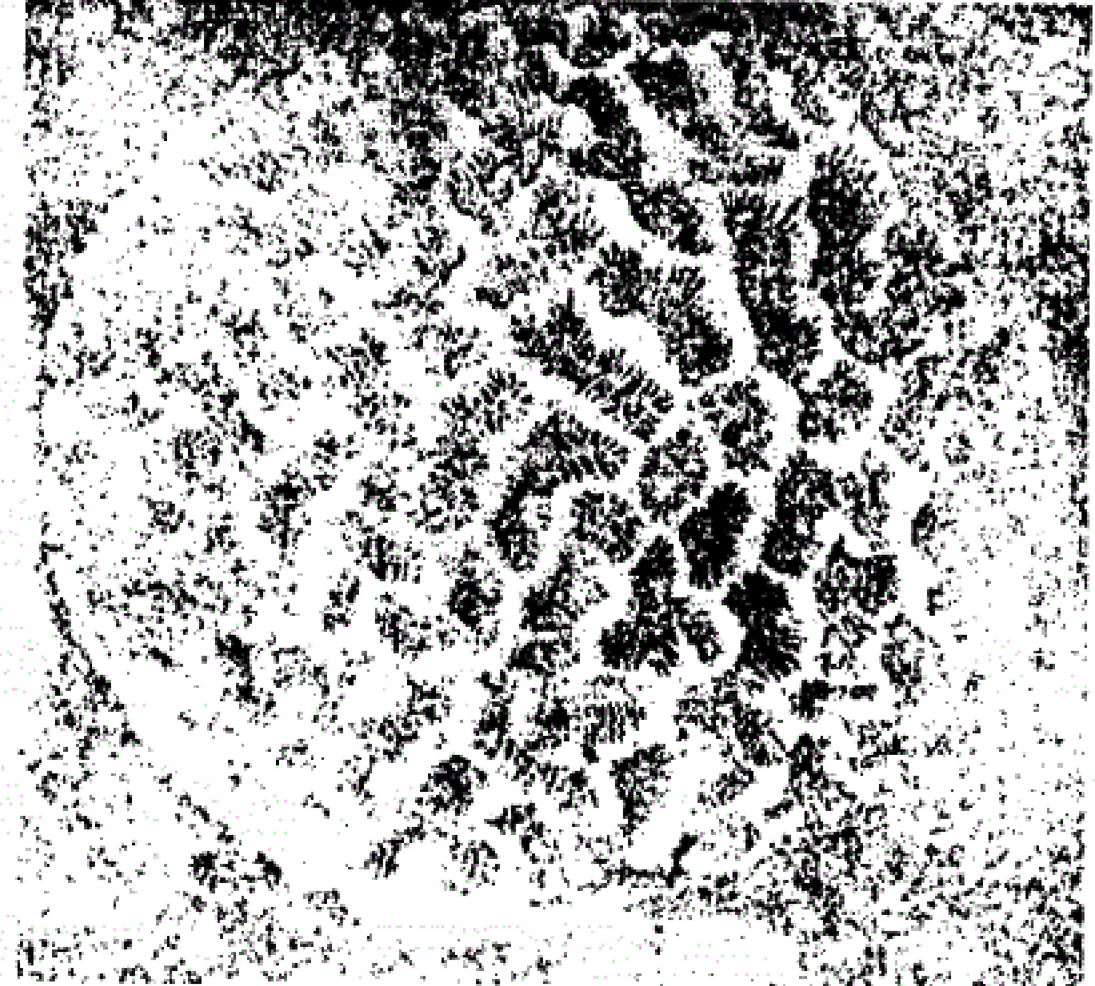


هذه مستعمرة بهجة المنظر بما فيها من كؤوس الزهر البديع المحيط بالأغصان المشبهات أصابع اليدين، وكل كأس من كؤوس الزهرات عبارة عن محارة أو صدفة تشبه كوباً فيه حيوان المرجان المشبه نبات الشقائق البحرية، وهذه المستعمرة تنمو بطريق البراعم حتى يكون فيها آلاف من حيوانات المرجان المجتمعة بأدق انتظام.

(شكل ١٥ ـ مرجان المحيط الهندي)

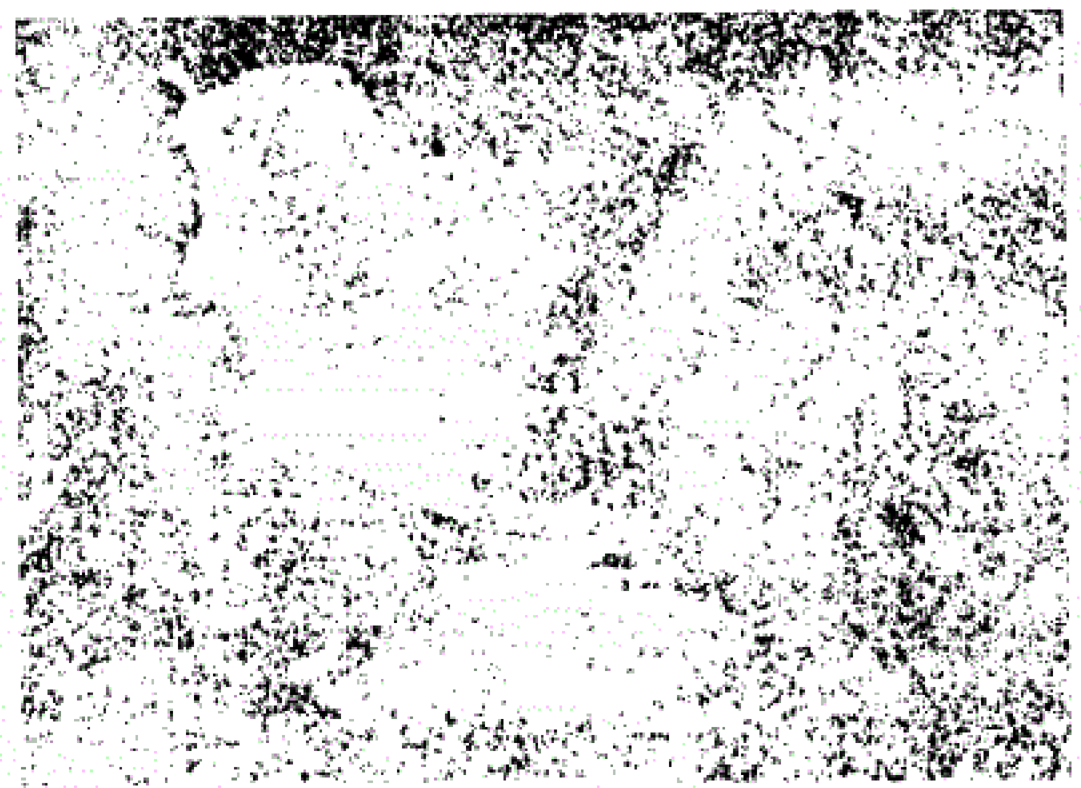
العجيبة السابعة: مرجان كوب البحر

نجم المرجان، ومرجان كوب البحر



هذا هيكل جميل المنظر، بديع الشكل، لمرجان نجمي فيه انتظمت حيوانات المرجان التي بها أنشئت المستعمرة، إن هذه المستعمرة المرجانية تتكاثر بما يظهر فيها من البراعم التي دائماً تتجدد.

(شكل ١٦ ـ نجم المرجان)



(شكل ١٧ ـ هذا كأس بحري من المرجان)

هذا الرسم وإن كان يشبه الكأس في شكله ليس قريباً من الكأس المرجانية المتقدمة الذكر « كروفيليا البريطاني »، كلا فإن هذا مستعمرة لحيوانات مرجانية كثيرة جداً، وكؤوس أزهارها البديعات بهجات ترى في داخل هذه الكأس المكسورة كسراً جزئياً.

العجيبة الثامنة: حصير البحر، أنابيب بحرية مصنوعة من المرجان



(شكل ١٨ ـ حصير البحر)

إن حصير البحر مستعمرة سمراء تشبه بعض الوجوه الأعشاب البحرية، وما هي إلا حيوانات دقيقة تنسب إلى فصيلة من فصائل المرجان، إن كثيراً من جماعة هذه الفصيلة مكون من الكلس ولذلك يسمى بالمرجان، ولكن حصير البحر الذي كلامنا فيه له هيكل قرني لين مرن لطيف، إن أول موضوع كتبه « تشارلس داروين » في العلوم الطبيعية كان على حصير البحر.



(شكل ١٩ ـ أنابيب بحرية مكونات من المرجان)

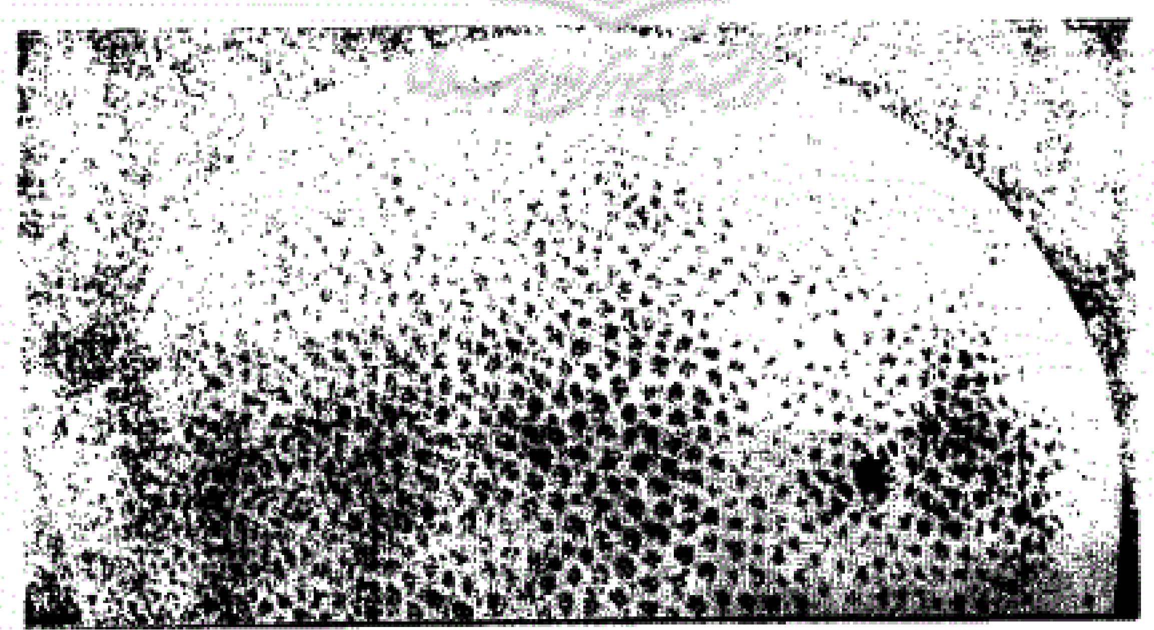
هذه صورة بحجمها الطبيعي للأنابيب المكونات من المرجان، إن كل حيوان مرجاني في هذه المستعمرة يعيش في أنبوبة حمراء مكونة من مواد الجير الذائبة، وهذه الأنابيب منضم بعضها إلى بعض مكونات ما يشبه قلائد الأطفال، إن هذه الأنابيب الكثيرة العدد مرتبطات ببعضها ارتباطاً وثيقاً محكماً بواسطة قناطر، وفي كل أنبوبة حيوان مرجاني يخرج من أعلى جسمه ٨ قرون ريشية خضراء، إن هذه الفصيلة المرجانية المسماة «تابيبورا» تظهر عادة في الماء القليل الرقراق في أطراف السلاسل المرجانية الصخرية في الدنيا القديمة والجديدة.

العجيبة التاسعة:



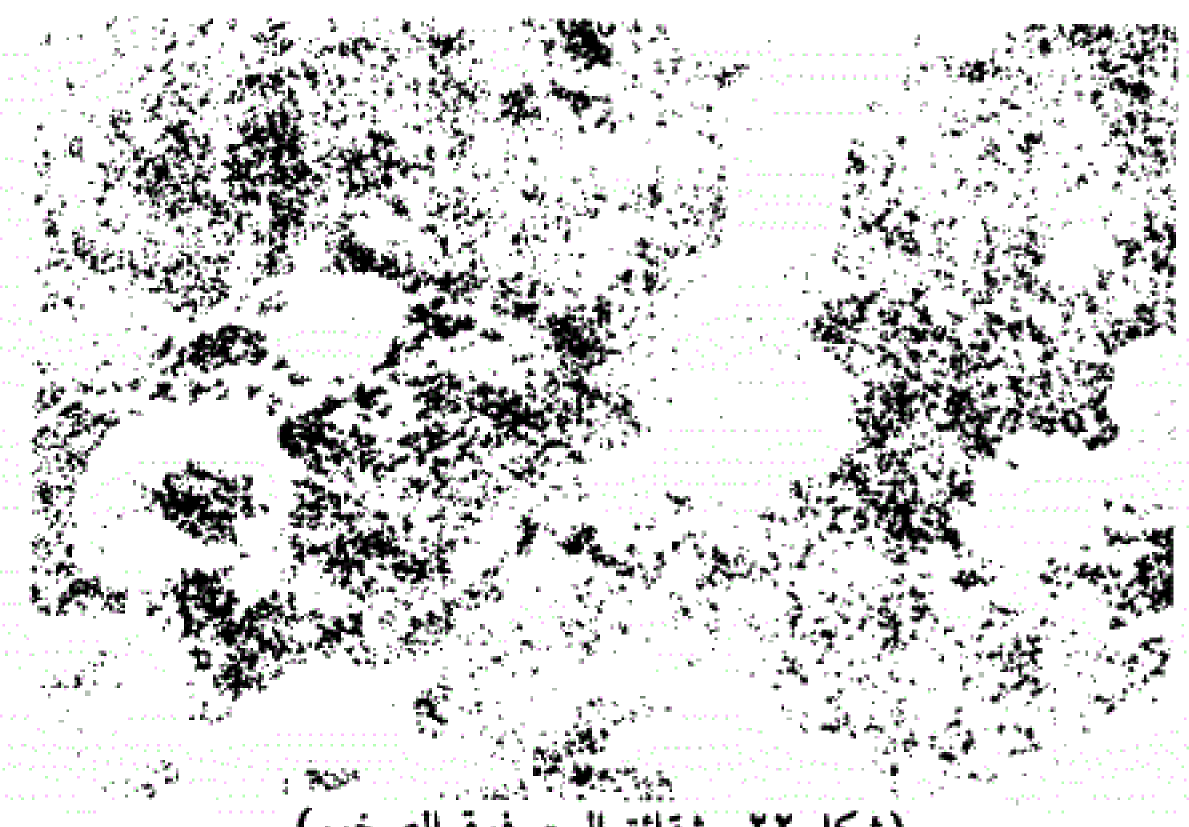
(شكل ٢٠ ـ مرجان الكونريان الحي)

هذه مستعمرة جميلة ذات أغصان تشبه الأعشاب وهي من مرجان الكونريان، وهذا النوع يشمل أصناف المراوح البحرية والأقلام البحرية وما يسمى أصابع الرجال الميتين، وهاهنا ترى مئات من حيوان المرجان اتحدت مع بعضها في الحياة بواسطة قناة، وكل حيوان منها له ما يشبه قرون الحيوانات الريشية، وله سلاح اتخذه من المواد الجيرية، ثم إن هذه الحيوانات يجمعهن محور يحفظ الجميع في نظام واحد ويشبهن المستعمرة.



(شكل ٢١ ـ مستعمرة المرجان في البحر الهندي)

إن لفظ «مرجان» يدخل تحته مئات من الحيوانات المختلفة الأشكال كما تقدم، ولكنه يجب أن يعلم أن التاريخ الطبيعي ليس فيه فصيلة اسمها فصيلة المرجان، وإنّما المرجان منسوب إلى فصيلة «الزوفييت» تشبه أشجار «الشربين البحري»، فهناك صنف يقال له: مرجان المديور، وهذا ينتسب إلى ما يسمى «المرجان الشقيقي» المنسوب إلى نبات الشقائق البحري المتقدم ذكره مراراً، وهناك مرجان أسود اللون له ما يشبه الساق الثقيل الشديد، ومرجان آخر يشبه المروحة البحرية، وآخر يسمى «هروزون» ينسب إلى «حصير البحر» المتقدم، وهناك غير ذلك.



(شكل ٢٢ ـ شقائق البحر فوق الصخور)

هذه أشبهت باقة الأزهار في شقائق البحر من وجهين: فأولاً شعاعها اللامع منتظم مع جوانبها وثانياً اللون الجميل، إن جسمها الأسطواني مثبت في قاعدته، والفم عند قطبها الأعلى محوط بأوراق منتظمات بهيئة دائرة حول الساق، مسلحة بما يشبه قرون الحشرات اللاسعات الموفرة الحياة، إن الشقائق البارزة في هذه الصور الشمسية نوع منها يسمى «بيلاموز» ذو قرص موشح بأهداب ذات أشواك كثيرة صغيرة تشبه قرون الحشرات اللاسعات.



(شكل ٢٣ ـ سلاسل الصخور المرجانية في جزيرة «داكو»)

هذه السلاسل الصخرية المرجانية تغطي مساحات شاسعة الأكناف، ممتدة الأطراف، في شواطئ جزيرة الملك، فأقتبس ما كتبه العالمان «كانت» و«هارلي»: إن هذا اللون المنتظم البراق يخدع الناظر، فيخيل إليه أن أمامه على الشاطئ حديقة ممتدة على مدى الجوانب، كثيرة الأزهار، إذا هو برق خلب، سحر العين بمرآه، إن من المرجان ما نراه وردي اللون، أو قرنفليه، أو ضعيفاً يتكسر بأدنى لمس، ويخرّ واقعاً على الأرض، ومنه ما هو قوي متين شديد صلب، لا تؤثر فيه المطرقة ولا تكسره الفؤوس.



(شكل ٢٤ ـ الجزيرة البركانية)

إن الجزائر على قسمين: جزائر قارية منسوبة للقارات، أي أنها كانت قطعة من القارة فانفصلت منها. وجزائر بحرية، وهي التي تبرز في البحر بسبب اهتياج بركاني في البحر، إن هذه الصورة الشمسية ترينا الجزيرة البحرية. انتهى ما أردته من المجلة الإنكليزية المذكورة.

فلما أتممت هذه المقالات الشارحات للصور قال صديقي: لئن صدق ظني ليكونن في الأمم الإسلامية بعد اليوم حكماء لم يسمح بأمثالهم الزمان من قبل ذلك، إن مباهج الصور ومحاسن الأشكال مفاتيح العلوم وكيف يعقل أن إنساناً يهتاج للعلم، ويشتاق للبحث، إلا بمشوّقات، وصور بهجات، تبارك الله أحسن الخالقين، وكيف يعشق شبان المسلمين العلم، ويحبون الأمة، ويغرمون بصانع العالم، إلا بمشوّقات تراها أبصارهم، ومعشقات تحرك وجدانهم، وإذا سمعنا ابن سينا يقول في كتابه: إن الصوت اللطيف، والعشق العفيف والعبادة مع الفكر توصل العبد لربه. فإن هذه الصور فيها أرقى العبادات، وهي أعظم من المغاني، إنها لموسيقى بصرية أبعد أثراً من الموسيقى السمعية، على أن الموسيقى السمعية قد كدّرتها القصائد المملوءة بالشهوات الفاسدات، والأهواء والضلالات، أما هذه المناظر فإنها قدسية إلهية، صنعتها يد القدرة وزخرفتها بالحكمة فأصبحت هي ونجوم السماء، وعجائب الزرقاء والغبراء، جنة عرضها السماوات والأرض لخاصة المفكرين، ما أكثر هذا النوع الإنساني فإنهم عن هذا الجمال غافلون. فقلت: لقد نطقت بعلم وأفدت بحكمة. فقال: هذا هو الذي جال بخاطري أثناء هذه المناظر، وأنا أقرأ في نفسي: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا﴾ [آل عمران: ١٩١]، فالذكر في الآية أشبه بمقدمة، والفكر في السماوات والأرض كنتيجة له، فالناظر في هذه العجائب على هذا النمط قد وصل إلى النتائج، ولم تكن الصلاة والصيام إلا معدّات للتفكر، فصلاة الغافل كلا صلاة، والعبادة لا

تقرب إلى الله إلا مع الفكر، فهذا هو الفكر، وهاهنا في هذه الآية التي نحن بصددها يذكر ـ بعد ذكر البحار وتسخيرها وتسخير السماوات والأرض لنا ـ الشكر والفكر، أي: إن نتيجة هذه العوالم هو الشكر والفكر، وهل للناس شكر إلا بعد فكر؟ فرجع الأمر كله إلى الفكر، وأجلّ ما يحصر الفكر بشوق إنّما هي الصور الجميلة التي لا تهيجنا للشهوات، وإنّما تهيجنا للعلم بما في الأرض والسماوات.

ثم قال: هذا ما جال بخاطري، فهل تسمح لي أن أعرف ما أثر في نفسك، واهتاج به لبك، عند دراسة هذه المناظر. فقلت: نعم. أنا عند رسم صورة بيض السمك المسمى «النعل المنقوش» وهي الصورة الثانية، خطر لي وأنا أكتب في شرح تلك الصورة أن أقول: إن البيضة تنزل إلى أسفل البحر شهوراً كثيرة، فإذا تم خلق الجنين حصل هناك تغير كيميائي في بياض البيضة فيؤثر ذلك في القرن وهو «القيض» أي قشر البيضة، فتخرج السمكة الصغيرة. إن الصانع الذي يبدع هذا الإبداع في صنعه، وينظر السمكة صغيرة محبوسة داخل حصن قوي متين شديد نظر رحمة، فيحدث في الغذاء المحيط بها عملاً وهو التغير الكيميائي في البياض، فيؤثر في الحصن، فيسهل على السمكة الصغيرة أن تخرج من محبسها وتسعى في الماء وتفرح بنعمة ربها.

أقول: إن الصانع الذي يفعل هذا ويريه لنا بأعيننا هو نفسه الذي أسمعنا بآذاننا آية: ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[الرعد: ٧] فلا أمة في هذه الأرض إلا لها هداة يخلقون فيها، وهؤلاء الهداة يتولون هدايتها بما يناسب أخلاقها، فهاهي ذه جزيرة العرب جاءهم رسول منهم أميّ مثلهم فعقلوا كلامه، وهاهم الأنبياء كل يأتي على شاكلة من أرسل إليهم، وهاهم أولاء علماء الإسلام في كل قرن كانوا يتلاحقون وهم مصلحون بحسب أزمانهم، ولولاهم لذهب هذا الدين في الأرض. وخطر لي أن بعض أمم الإسلام اليوم أشبه بهذا الجنين في هذا القرن سواء بسواء، فقد أحاطت بعقولهم الخرافات، فمنعتهم عن الحرية في دولهم، وعن الترقي بين أمم الأرض ولهم علماء، ونحن انغمسنا في الجهالات، فهذه الجهالات المتراكمات أشبه بذلك الحصن بالبيضة المتقدمة، ثم هؤلاء الهداة في الإسلام الذين ظهروا في الأصقاع الإسلامية أشبه بما حدث في البيضة من التغير الكيميائي، ذلك أن العلم الصادر من هذه العقول الممتازة في بلاد الإسلام يحلل الجهالات المتراكمة، فتصفو النفوس، وبهذا التحليل العلمي تتخلص الأمم من الاستعباد الجسمي باحتلال الفرنجة وظلم الحكام الإسلاميين، ومن الاستعباد العقلي بنفور النفوس وبعدها عن العلم بما ذرأ الله في الأرض والسماوات، ولا يزال المسلم يجاهد في مباحثه العلمية وهو يشهد الله في كل حجر وشجر، وبحر وجزيرة وأرض، حتى ينقذ أمته من الخطر ويرفعها إلى سماء المجد بأبحاثه، وهناك ينطلق عند الموت من سجن الأرض إلى فسيح عالم الأرواح والسماوات، كما انطلقت السمكة الصغيرة من سجنها إلى ماء البحر الفسيح، ولكنها لم تنطلق إلا بمقدمة كيميائية هيأتها العناية الإلهية، هكذا نفس هذه العناية هي التي تهيئ اليوم نفوساً ونفوساً في الأمم الإسلامية تحلل ما تراكم من الخرافات، وبسببها تنطلق عقول أفراد من سجن الضلالات، وأجسام ونفوس الأمم من الذل والجهالات، ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[يوسف: ١٠٠].

إن هذه المناظر والمباحث تعشق الناس في ربهم وفي العلوم وفي أممهم، فيدرسون حباً في ربهم وحباً في العلم، ويعملون طبعاً لرقي أممهم، لأن من أحب الله وأحب العوالم والعلوم لا جرم يحب الأمم، وهذه نهايات السعادات في الحياة والممات.

وأنا أحمد الله الذي خلقنا في زمان النهضة الإسلامية التي ستنسخ الجهالات المتراكمة التي أحاطت بهذه الأمة منذ عدة قرون. فقال: وأنا بالتجربة أثناء نشر هذا التفسير وجدت هذه الآراء بحذافيرها والأخلاق بأنفسها قد انتشرت بين قراء هذا التفسير. فقلت: أنا لا شك عندي أنهم من دعاة هذه النهضة الحديثة، والله هو الهادي إلى الصراط المستقيم. انتهى صباح يوم الأحد ١٩ أبريل سنة ١٩٣١م.

المعاني المجسمة في الحقل

بضواحي القاهرة يوم ٢٠ أبريل سنة ١٩٣١م

بسم الله الرحمن الرحيم

لما أتممت كتابة هذا الموضوع المتقدم رأيت أني يجب علي أن أخرج من القاهرة إلى ضواحيها لأستنشق النسمات، وأروح النفس، وأي سبيل لذلك أفضل من أن أذهب إلى حقلنا الذي أزوره وقتاً فوقتاً. بت ليلة الثلاثاء ٢١ أبريل سنة ١٩٣١ بتلك القرية وكان معي بعض ورق مطبوع من سورة «الزخرف» لأضع له الفهرست، فلما كان يوم الثلاثاء بدرت لي ثلاث معان: في الأكل، وفي النساء، وفي السماء، ذلك أني وأنا أتعاطى الطعام وقاربت الشبع أخذت نفسي تحدثني قائلة: ما هذا الجوع؟ وما هذا الشبع؟ إن هاهنا قائدين وسائقاً، والقائدان إحداهما باللين، وثانيهما بالشدة، وأولهما أدوم من ثانيهما، فالسائق للطعام هو الجوع، والسائق دائماً قاهر للمسوق، والقائد المؤدب باللين هي لذة الطعام، والقائد المؤدب بالشدة هو المرض وتعاطي الدواء. فعل الله مع الإنسان ما يفعله مع دابة نافرة، فهذه لا بد لها من سائق، ولشدة نفورها لا بد لها من رجل آخر يكون معه برسيم لتأكله، والجوع سائق ولذات المآكل قائدات، وقد يجرع الدواء تجريعاً. ثم قفلت راجعاً إلى بلدة المرج لأركب القطار، فلمحت امرأة تحمل جرة على صدرها حلي لامع، فما كادت تظهر من بعد حتى حجبت هذه الزينة تأدباً، وما كاد بصري يقع عليها حتى أخذ الفكر يجول في هذا المعنى وهو: إن جمال الإنسان والحيوان محدود من جهات ثلاث: من جهة الزمان، إذ لا يكون إلا في زمان معلوم ثم ينطفئ. ومن جهة المكان وهو بعض الأعضاء. ومن جهة المقدار، فمقداره محدود له نهاية.

فأما جمال النجوم والشموس والأقمار، وجمال البحار، والدر والمرجان الذي تم كلامنا فيه، فإن ذلك ليس محدوداً زماناً، لأننا لا نعرف متى ابتدأت هذه العوالم، ومكاناً لأننا لا ندري نهايتها، ولا مقداراً لأننا لا نعرف عدد النجوم، ولا عدد حيوان المرجان ولا غيرها.

وإذا علمنا أن جمال المرأة أو نحوها من نوع الإنسان محصور بثلاث اعتبارات، وجمال العوالم غير محصور، أدركنا لا محالة النتائج والثمرات واللذات الناجمات عن كل جمال، فنتائج جمال المرأة هو الولد، ولولاه لم تجمل، لأن الجمال إذ ذاك عبث، ولذلك تحرم هي والرجل من

الجمال في حال الصغر والكبر إذ لا قدرة لهما على الذرية. أما جمال النجوم والشموس والأقمار، والأزهار والمرجان في البحار، فإنّما ذلك لاستخراج القوى الكامنة في هذا الإنسان ليرقى إلى العلا، فكما أن هذا الجمال لا حد له؛ هكذا لا حد لنتائجه العلمية. إذن العلم لا حد له، ويتبع ذلك اللذة، فهاهنا علم لا حد له، ولذة لا حد لها، فأما في الإنسان والحيوان فذلك كله محدود كما شرحناه.

ولما كان هذا الخاطر مناسباً لموضوع المرجان المتقدم أثبته هنا، إذ هذه المنحة موافقة لهذا المقام. ومن عجب أن الإنسان لا يشعر له بحدّ في حوز المال ولا في الشهوات واللذات، ولكن الحد يأتي له قهراً فيضعف جسمه في طعامه وشرابه، وتنحل قواه فلا يقدر على الوقاع، وتحيط به الكوارث فيقل ماله.

سبحانك اللهم وبحمدك، أنت بالمرصاد لمن حاد عن ذلك الصراط، فالذين يتعدون حدودهم في طعامهم وشرابهم ووقاعهم، ولا يدركون أنك قدّرت اللذات فيها بقدر؛ يعتريهم المرض والضعف والهزال، وتقصر أعمارهم ويحل بساحتهم الشقاء، والفقر والبلاء، ويعوزهم الطبيب، والدواء الكريه، كل ذلك لأنهم لم يزنوا هذه الحياة وزناً حقيقياً واعتبروا المقدمات نتائج، وذلك لسوء التفكير والجهل بالمصير.

كتب ليلة الخميس ٢٣ أبريل سنة ١٩٣١، وبهذا تم الكلام على اللطيفة الثالثة، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الرابعة: في قوله تعالى:

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[الجاثية: ٢١-٢٢]

لقد تبين لك في التفسير اللفظي أن قوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [الجاثية: ٢٢] جعل برهاناً على الجزاء يوم القيامة، وأن هذا العالم بنظام، والنظام ملازم له، فمحال أن يكون عاماً في كل شيء، ويختلف ذلك في الإنسان، ولكن الآن أذكر لك شيئاً عجباً. أنقل لك آراء علماء العصر الحاضر، أنقل لك آراء «اللورد اسبنسر» كيف يقول: إن الطبيعة نفسها فيها العقوبة، العقوبة فيها مقدرة على مقدار الذنب، بل جعل تلك العقوبات من الطبيعة نعمة، فكأنه نطق بقوله: ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[الجاثية: ٢٢]، وإنّما جعلها نعمة لأنها منذرات ومحذرات، فإذن كل ألم نعمة لأنه منذر ومحذر، وأتى بمثل ما ذكرناه من عقوبات الطبيعة، ولا فرق بين قولنا وقوله إلا أنه رجل غربي، فترى تضافر الشرق والغرب على رأي واحد، والرأيان يفسران القرآن، فكأن هذا القرآن أنزل لهذا الزمان، وإلا فكيف يتبين الآن في هذا الوجود أن لا عقوبة، وأن ما يسمى عقوبات بحسب ظاهره هو نعم بحسب باطنه، وهو الذي طالما قلناه في التفسير، ويتضح إذن معنى قوله تعالى: ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾[مريم: ٤٥]، فعذابه إذن تحذير لا غير.

وقدمنا في هذا التفسير أن مسألة الكفار وعقابهم الدائم لا أتعرض لها، بل أنت سيفتح عليك وتعرف الحقيقة، لا سيما إذا قرأت كتاب الإمام الغزالي وهو «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة»،

فلأنقل لك الآن كلام العلامة «اسبنسر» الموافق لما فهمناه من كتاب الله، لتعلم أن دين الإسلام سيظهر في مستقبل الزمان ظهوراً أوسع بعلم أشمل.

قال: انظر إلى نوع العقاب الذي يبدو في الطبيعة، فإنك إذا تأملته وجدته أجدر أن يسمى ثواباً لا عقاباً، وفرق عظيم بين عقاب الإنسان المتكلف وبين عقاب الطبيعة المنظم الحسن الجميل، إن عقاب الطبيعة زجر عما أغفلناه، وتعليم لما جهلناه، فهو مقدر بقدر الذنوب، فلا زيادة ولا نقصان، وجزاء سيئة سيئة مثلها، لا أقلّ ولا أكثر، فليس في الطبيعة حقد ولا حسد ولا عفو، فإذا عثر الطفل لطيش فاصطدم بشيء أمامه لم ينل من الطبيعة ألماً إلا على مقدار عجلته وسرعته، فإن قلّت قلّ الألم، وإن عظمت عظم الألم، ذلك هو الإنصاف والعدل، تعاقب الطبيعة بذلك وهي ساكتة صامتة لا تبدي حراكاً، ولا نسمع شتماً، فهي بالمرصاد مصممة مؤكدة ماضية في عزيمتها لا تني، يشاك الطفل بشوكة فيألم، وكلما عاد الشك عاد الألم، وإذا لم يشك لم يألم. وهذا هو الصدق. فإذا رأى الطفل من الطبيعة ذلك التصميم تأدب أدباً حقاً فنجا، إن هذه العقوبات ليست خاصة بالأطفال، فكما أنها لا ترحم صغيراً لا توفر كبيراً، فإذا كبر الإنسان وليس له والد يزجره قعدت له الطبيعة بالمرصاد وأدبته كما تؤدب الأولاد، فإذا كان مأجوراً ولم يراعي حق العمل وفرط فيه ينزع منه العمل ويترك ليتجرع الضر والفاقة، ويشرب الكأس التي ملأتها يده.

وترى الرجل الذي يخلف وعده يناله من سوء فعله ما يفقده ثقة الأصحاب بوعده، فتفوت عليه الفرص ويحل به الندم، وترى التاجر الذي يغلي على المبتاعين بضائعه ينفضون من حوله وهو كئيب حسير، وترى البائع الذي يحسن الظن بالمشترين منه فيبيعهم نسيئة، وكذلك المساهم المخاطر، فهذان ينالهما من ضياع المال ما يؤدبهما ويزجرهما جزاء وفاقاً، إنهما كانا لا يرجوان على جهلهما حساباً.

وترى الجائر المضلل يناله الهوان، والخائن يلحق به الذل والصغار، فيرجع إلى رشده بعد تأديبه، فمتى تخلص من ورطته ثبت على الهدى، وتخلص من أسباب الردى، ولم يخدعه خادع بعدها. ثم طلب بعد ذلك أن يكون عقاب الآباء كعقاب الطبيعة الخ. اهـ.

هذا ما يقوله العلامة «اسبنسر»، أفلست ترى أن هذا المعنى بعض قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾[الجاثية: ٢٢]. أفلست ترى هنا بعض الحق أي العدل، والعدل في العقاب. ثم انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[الجاثية: ٢٢]، كأنه يقول: أيها الناس، ما ظلمتكم، إنّما أنتم الأطفال، وليس في طبيعة العالم الذي تسكنون فيه أن ترتقوا إلا بما فعلناه، تشوككم الشوكة فتألمون وألمكم لمنفعتكم، فالألم نوع من الإحساس به تكون العلوم، فكما تحلون المسائل الهندسية والحسابية والجبرية والفلكية بصفاء عقولكم، هكذا تفهمون مضار الطبيعة بحاسة اللمس المخلوقة فيكم، فالعلم علمان: علم تدركه العقول، وعلم تدركه الحواس، وكلاهما له أثر في نفوسكم، والنتيجة أن تكونوا عالمين.

فإذا كان الألم علماً فليس ظلماً. إنّما الظلم ألم لا فائدة منه، وفي هذا الألم أكثر فوائد الإنسان. انتهى الكلام على اللطيفة الرابعة.

اللطيفة الخامسة: في قوله تعالى:

﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

اعلم أن قول الله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الجاثية: ٢٩] قد عبر عنه علماء الأرواح الذين سألوها، فأجابت بحقيقة أحب أن أذكرها لك سواء أصحت عندنا أم لم تصح، فلأذكرها وليفكر فيها عقلاء المسلمين، وليحضروا الأرواح، وليسألوها كما يسألها أهل أوروبا، فإذا كان المسلمون لم يتعلموا هذا العلم فليس ذلك بمانع أن نذكر منه ما وافق المقام، بل إنه معجزة للقرآن، بل هو نفس قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[فصلت: ٥٣]، سأنقل لك ما ذكره علماء الأرواح لفائدتين:

الأولى أن ما ستسمعه هو عين قوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[الإسراء: ١٤].

الثانية أنك متى وقفت على ما أقوله الآن يعتريك خشية وخوف شديد أكثر مما في الكتب السماوية، لأنك ترى أن كل كلمة، وكل فكرة، وكل خطرة تخطر لنا، ترسم في أجسامنا الروحية، وهذا أمر عظيم، فإن الإنسان يصبح بهذا خائفاً وجلاً إذا أدرك أن كل ما يجول بخاطره يرسم على جسمه الروحي، فإذا مات ظهرت جميع الآثار، ذلك أمر عظيم، فلأكتف بالمقدمات، ولأشرع فيما قالوه. قالوا ما ملخصه: إن الحيوان في هذه الأرض إما أن يكون في الماء، أو في الهواء. فالذي في الماء لا يستطيع الحياة في الهواء، و الذي في الهواء لا يستطيع الحياة في الماء. هكذا هناك عوالم فوق الإنسان والحيوان تعيش في عالم يسمى «الأثير»، وهو عالم لطيف ألطف من النور يحيط بأرضنا وبالأراضي والعوالم الأخرى، ويقولون: إن أرضنا عالم متأخر خلقت فيه أرواح متأخرة هي أرواحنا، أخلاقها وحشية، قريبة من أخلاق البهائم، لذلك عشنا معها في دار واحدة، ويحيط بأرضنا مادة أثيرية ألطف ألف مرة من الهواء، ولكنها بالنسبة للمادة الأثيرية المحيطة بغيرها من العوالم أخشن وأخشن بما لا حد له، وكلما كان الإنسان ألطف أخلاقاً متجرداً من الأنانية استحق النقل إلى عالم يناسبه، وكلما كان أحسن أخلاقاً، وأغزر حباً وأنفع لبني جنسه ازداد نقاء، فيرتفع من عالم إلى عالم، وليس هناك مانع من الموانع تصد الإنسان عن الرقي إلى العوالم العالية إلا ذاته، فإنها إن لم تستعد لتلك العوالم تبقى في مكانها الخاص بها كالأرض التي نحن عليها، فهي إذن أشبه بالسمك لا يصده عن الأرض إلا ضعفه عن استنشاق الهواء، وكالإنسان لا يصده عن الحياة في البحر إلا أن الماء أغلظ من الهواء فيقتله، فإذن كل عالم من عالم الأرواح المفارقة أجسادها وهي في البرزخ محكوم عليه أن يعيش في عالم خاص، فلو أنه تجاوز عالمه الخاص لم يتحمل ما هو فوقه بل يكاد يكون فيه معدوماً فيرجع أسرع من البرق إلى عالمه، هذا ما يقولونه في الأرواح بعد مفارقة الأبدان.

أعمال الأرواح

ثم إن الإنسان في الحياة الدنيا وهو في هذا الجسم المادي يقولون: إنه يحيط به مادة أثيرية، وفكره مسلط عليها، مؤثر فيها، فكل فكر أو عمل لا بد أن يرتسم في جسمه الروحي المنطبق على

الجسم المادي الذي سيبقى بعد الموت معه، ثم ينتقل الفكر من جسمه الروحي إلى السائل المحيط به فيحدث فيه صلاحاً أو فساداً كما تنتقل الروائح العطرية والمكروهة إلى الأجسام حولنا بالهواء، فالمادة الأثيرية موضوع أعمال الأرواح في الحياة وبعد الموت كما أن الهواء محل أثر الأصوات، فترى للنفس علائق بالأرواح المحيطة بها، والسائل الأثيري ينقل آثارها إليهم وآثارهم إليها، فترى أننا إذا كنا في جمع ملتئم نحسّ بشرور منشؤه ذلك السائل وإذا تحادثنا مع من يبغضنا ونبغضه نحسّ بتنافر في قلوبنا فإذا تخلصت الروح من الجسم وأصبحت حرة كانت أفعالها في ذلك الأثير بنفس الإرادة فتفعل في السائل الأثيري ما كنا نفعله ونحن أحياء في المادة بأدواتنا، وتؤثر الروح في الأثير آثاراً طوعاً لأخلاقها وأحوالها، وكمالها ونقصها.

وإذا كان الفكر الروحي في حال الحياة وبعد الموت يؤثر في السائل الأثيري صوراً على مقدار تصوره فإنه بالأولى يرسم في جسمه الروحي تلك الصور، وهنا بيت القصيد، فإذا كنا نرى أن الخجل يظهر أثره على وجوهنا والخوف، فبالأولى يرتسم في جسمنا الروحي تلك الصور المتعاقبة ولا يمحو أحدها الآخر وتتراكم إذ ذاك الصفات المتعاقبة، فيكون الجسم الروحي مجمع الأخلاق والأعمال، فتظهر عواطف البغض والحسد والحقد والإشفاق والحلم والكبرياء والأنانية والغضب والرياء والجود والوداعة والحب.

وتلك العواطف لها آثارها كآثار العقاقير الطبية فتكون مهيجة أو مسكنة أو قابضة أو ملينة أو نافذة أو مقوية أو مخدرة أو منومة أو سامة أو شافية. وبالجملة تكون السوائل على عدد العواطف والفضائل والرذائل البشرية، ويكون اختلافها كاختلاف خضرة النبات، أو كاختلاف روائحه أو صوره وما شاكل ذلك. اهـ.

ذلك ملخص ما تقوله الأرواح وعلماء الأرواح، أفليس هذا يشرح قوله تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ ﴾[الإسراء: ١٤] الخ، وقوله: ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾[الجاثية: ٢٩].

فانظر الفرق بين نسخنا ونسخ الله، نحن ننسخ الحروف، ولكن الله ينسخ ما هو أجلّ من الحروف، ينسخ نفس الأعمال، يرسم صورها، يجعلها ظاهرة فينا واضحة، فبدل (ح س د) في معنى الحسد، وبدل (ح ب) في حب يرسم صورة الحب وضاءة مشرقة بهجة، وصورة الحسد معتمة قابضة، يراها الناس فيفرحون بالحب ويشمئزون من الحسد والبغض، هذا هو نفس قوله تعالى: ﴿ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴾[الإسراء: ١٤].

فنسخة الإنسان إذن نفسه فيها صور أعماله واضحة لا حروف مكتوبة، بل أعمال مرسومة واضحة ظاهرة، وهذا هو كتاب الله الذي يكتبه في أرواحنا، وهذا عينه من قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ ﴾[النمل: ٩٣].

وهذا بعينه هو قوله تعالى: ﴿ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾[التوبة: ٣٣]، وإنّما يظهره لأن الكشف الحديث فسر القرآن، تلك من أجلّ معجزات القرآن، والحمد لله رب العالمين. انتهى الكلام على اللطيفة الخامسة. كتب يوم ٤ مايو سنة ١٩٢٥م.

اللطيفة السادسة: في قوله تعالى:

﴿ فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[الجاثية: ٣٦-٣٧]

نفحة في صلاة العصر

يوم الأربعاء ٣٠ رمضان سنة ١٣٤٩ هجرية

في هذه الآية أربعة أمور:

(١) إن الله يربي عوالم السماوات والأرض، ويربي العوالم التي فيهما.

(٢) وله الكبرياء فيهما.

(٣) وهو غالب لهما ولما فيهما.

(٤) وهو مع هذه التربية له الكبرياء والقهر، وهو حكيم في أعماله.

إن التربية لا مندوحة لها عن العلم بما تستدعيه حال من وجهت التربية لهم، وقصد المربي تكميلهم، ولا بد من الحكمة في الإعطاء والمنع ليتم مقصود التربية، وهذه المعاني في الاسم «رب» والاسم الحكيم. ثم إن الله مع علمه وحكمته وتربيته لما خلق ليس شرعة لكل وارد، ولا يرد عليه إلا الواحد بعد الواحد، فهو منيع الجناب، رفيع الدرجات، مترفع عن كل المخلوقات، تناهت عظمته، وعظمت منته، وهذا معنى: ﴿ وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ ﴾[الجاثية: ٣٧] الخ، وهذا الكبرياء وهذه العظمة بحق، لأنه عزيز مرهوب الجانب غالب.

واعلم أن هذه المعاني وأمثالها تتضمنها الصلاة، سبحانك اللهم وبحمدك، أنت الحكيم العليم خلقت الإنسان وجعلته في الأرض، وأحطته بالنجوم والشموس والأقمار، وأظهرت حكمتك وبدائع صنعك في خلقه وتربية جثمانه وعقله، وأعميته وغشيت على عقله، فلا يراها وهو يراها ولا يعلمها وهو يحس بها، وشغلته بحاجات نفسه، ومكاوحة بني جنسه، ولكنك مع ذلك فتحت له باب في الصلاة.

الإنسان يرى العظمة في الكواكب والشموس، ويرى الجمال في الأنوار والصور الحسان التي لا يمكن أن يعرفها إلا بإشراق هذا النور عليها، فه هنا عظمة وهاهنا جمال والإنسان يحار بينهما، تارة يلحظ العظمة كما يرى في عظمة السماوات، وتارة يلحظ الجمال كما يرى في الأضواء والزروع والأنهار والأزهار، وتارة يلحظ العناية والحكمة معاً كما في إبداع خلق الأعضاء والأعين والآذان والأعصاب وقوى الدماغ، فإذا رفع رأسه وقال: ربنا لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد، فهاهنا يلحظ المصلي العظمة والكبرياء في السماوات والأرض، وإذا ركع فسبح لربه العظيم وقال: اللهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي وما استقلت به قدمي لله رب العالمين، وهكذا إذا سجد لربه الأعلى وأخذ يقول: سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره، وختم القول بهذه الجملة: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾[المؤمنون: ١٤]؛ فهو في هذين المقامين يلحظ الحكمة وأحكام الصنعة ودقتها والعناية، ففي الرفع والاعتدال تظهر للمصلي العظمة، وفي الركوع والسجود يلحظ

أحكام الصنعة وجمال الوضع المؤدي للحب والغرام والهيام، فهاهنا تربية تصحبها رحمة تؤيدها حكمة، تحيط بها عناية، فهذه موجبات الحب، والحب أعلى درجات السعادة، وهذه المعاني هي مبادئ سر قوله صلى الله عليه وسلم: «وجعلت قرة عيني في الصلاة»، ففي الصلاة ملاحظة الكبرياء العامة والعظمة والتربية والرحمة والحكمة. كل ذلك في خلق الأعضاء التي يذكرها المصلي في ركوعه وسجوده، وهل قرة أعين العقول الكبيرة في هذا الإنسان إلا أن تحب وتعشق، والعشق والحب إنّما يكون لمن كملت أوصافه من جمال وعلم وعظمة وحكمة وإبداع ورحمة لهذا المحب ولغيره من كل من يتصف بالحياة. كل ذلك يقوله المصلون في صلواتهم، والنبي صلى الله عليه وسلم يلحظ معانيها ويتقد فؤاده بنار الحب، وأكثر الناس لا يلحظون هذه المعاني.

(١) لا ظهور لبهجة الحدائق والبساتين والزروع والأنهار، ولا للوجوه الجميلة إلا بالأنوار الكوكبية، أو ما صنعه الإنسان من الأنوار مشاكلة لها عند فقدها كالشمع والبترول، إذا لم يكن نور فلا علم لنا بالجمال، إذن الشمس سبب في وجود كل جميل، وسبب في ظهوره، فالحرارة والضوء معاً تعاونا على ظهور هذه المخلوقات، والضوء وحده سبب لظهور الجمال.

(٢) فإذا كانت هذه حال الشمس مع كل مخلوق فلنقل هكذا في نفس الكواكب والشموس، إن هي إلا آثار الذات المقدسة الغائبة عنا، فكما كانت الشمس سبباً لخلق الذوات الجميلة وغيرها وسبباً في ظهورها، هكذا الذات العلية المقدسة سبب في خلق نفس الشموس، وسبب في ظهورها لنا ولغيرنا على سبيل قياس التمثيل.

(٣) وإذا رأينا أن الذات الجميلة من نوع الإنسان مصدرها وجوداً وظهوراً الشمس، فهكذا نقول: الشمس مصدرها وجوداً وظهوراً الذات القدسية.

(٤) وإذا ثبت أن كل جميل في أرضنا مشتق من الشمس وجوداً وظهوراً والشمس عن الذات القدسية وجوداً وظهوراً، فليكن هذا الجمال الذي يدهشنا في أرضنا أو نعقله في الكواكب وأضوائها أثراً من آثار ذلك الجمال المقدس، إذن قرة عينه صلى الله عليه وسلم في الاستغراق في ذلك الجمال، فإذا تفكر في الرفع والاعتدال في السماوات والأرض وفي الركوع والسجود في خلق الأعضاء؛ فهاهنا ترجع نفسه من الأثر العظيم والأثر الجميل إلى مصدرهما، وتكون العظمة ويكون الجمال هناك.

وأضرب لك مثلاً أيها الذكي: نرى الصانع المتقن لصنعته وقد أبدع وملأ البلاد والعباد بضاعة ونقشها ورقشها، وأعجبت الخاص والعام، فممّ جاءت هذه الصناعة؟ إنها لو لم تستقر في أعماق نفسه لم تظهر في الخشب والحديد والذهب، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، ولذلك نجد الناس يتوقون لرؤية هذا الصانع، ومتى وجدوه أخذوا يلتفون حوله، ويعجبون به، ويسرهم منظره وكلامه، وينسون تلك الصنعة، وهذا شأن الناس جميعاً مع العلماء والحكماء، فهم بهم مغرمون، فالصانع أفضل من صناعته، إن الحكمة والابتداع والعلم المغروسة في قلب الصانع وعقله هي هو، لأن العلم هو نفس العالم، والمصنوعات المتقنات له تسوق الناس لحبه وتشوقهم لمناظره، وإنّما أحبوه وأغرموا به لأنهم لما رأوا الصنعة أدركوا أن روحه نفسها فيها الكمال والجمال والحكمة التي تجلت وظهرت في المادة التي

أمامهم من باب أو شباك أو كرسي، وإنّما يتركون الصنعة ويسعون لمشاهدة الصانع وحبه لأنهم يعلمون أن روحه أكمل وأعظم من صنعته، وهذه الروح الكاملة تقدر أن تصنع آلافاً وآلافاً من هذا، مع أن الإنسان باعتبار صورته الشخصية ليس فيه شيء من ذلك، ولكن ذلك كله راجع لروحه.

إن العالم كله عند المصلي من عظمة السماوات والأرض في حال الذكر عند الرفع والاعتدال ومن أحكام صنع الأعضاء والرحمة في حال الركوع والسجود، ما هو إلا مرآة صقيلة يلحظها المصلي ويرى فيها الذات القدسية رؤية قلبية، فهنالك تقر عينه بذلك الجمال وينشرح صدره، وهذه المبادئ هي التي يتجلى آلاف أضعافها للأنبياء عليهم الصلاة والسلام عند المناجاة، لا سيما نبينا صلى الله عليه وسلم.

هذا بعض معنى: «وجعلت قرة عيني في الصلاة»، وهناك يلحظ أن كل حب ورحمة في إنسان أو حيوان في العوالم كلها ما هي إلا آثار من ذلك الحب والرحمة، ولا جرم أن ذلك يستغرق قلب من أفيضت عليه هذه المعاني مرة واحدة، بل لن يتحمل توارد هذه المعاني على قلبه إلا نادر في نوع الإنسان. ومن رحمة الله على أكثر نوع الإنسان أنهم لا ينالون هذه النعمة لأنها تمزق أفئدتهم بهجومها مرة واحدة، ولا يقوى عليها إلا مثل من يقول: «وجعلت قرة عيني في الصلاة». انتهى الساعة الواحدة بعد نصف ليلة الثلاثاء ٢٤ فبراير سنة ١٩٣١م.

نور النبوة وبهجة العلم

في الحديث المتقدم: «وجعلت قرة عيني» الخ

حيا الله العلم والحكمة، اللهم إنا نحمدك ونشكرك على ما أنعمت وتجليت بالعلم والحكمة، سبحانك اللهم وبحمدك، إنك خلقت جميع ما أحاط به العلم، ومما أحاط به علمك هذه الأرض وما عليها، وقد اتضح في الكشف الحديث وتقدم في هذا التفسير كثيراً أن الأرض إذا صغرت فرضاً فأصبحت جوهراً فرداً وصغرت العوالم المعروفة كلها على نمطها أصبحت كل العوالم المعروفة ألف مليون أرض كأرضنا المعروفة لنا الآن، إذن أرضنا أشبه بالعدم، فماذا يكون شأننا نحن بني آدم عليها، وإذا كنا نسكن ما يشبه العدم المحض، فهل في خطة الإنصاف والعدل أن نوازن أنفسنا بمن يسكنون العوالم التي هي أكبر من أرضنا، وهل من العقل أن يقول هذا الإنسان المسكين الذي يعيش فوق ذرة منبوذة في العراء لا هي في العير ولا في النفير وإذا قيست بالعوالم لم تكن إلا هباء ودون الهباء:

إني في العلم كمن يسكنون نفس الشمس ـ إذا كانت مسكونة بعض أجزائها ـ وهي أكبر من أرضنا مليوناً ونحو ثلث مليون، أو كمن يسكنون بعض كواكب الجوزاء، وهناك كوكب منها أكبر من شمسنا ٢٥ مليون مرة، وضوء شمسنا بالنسبة لضوئه كضوء الحباحب لضوء الشمس. إذن لا يوضح حال هذا الإنسان إلا قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

أما بعد فإن الله الذي هذه نموذج مخلوقاته لفرط جماله وعلمه ورحمته أراد أن يظهر آثار علمه وجماله ورحمته لكل عالم من العوالم على حسب استعداده، ومن الرحمة أن لا يعطي الأدنى علم الأعلى، كما لا يعطي الجنين غذاء الشاب والكهل وإلا لمات، فلو أن بني آدم على الأرض أعطوا

العلم التام لذابت مهجهم ولتقطعت أفئدتهم وهلكوا في أقرب من لمح البصر، بهذه البراهين يتحقق العقلاء بعض أسرار هذه الدنيا. وبيانه أن تاريخ هذا الإنسان مشحون بالأصنام وعبادتها والأوثان والتقرب إليها، وعبادة الحيوان والأشجار والنار والأنهار والأحجار والصالحين وقبورهم. هذا من ناحية الإنسان العقلية، إذ أخذ يتلمس السبيل لمعرفة خالقه وهو لا يزال غارقاً في بحور الأحوال الحيوانية، فلم يجد سبيلاً لمخرجه منها إلا بتلمس تلك السبيل بما يواتي عقله ويوافق ضعفه، كما تدر البقرة اللبن إذا رأت صورة ولدها أمامها، فكما أن البقرة والجاموسة لا تدران اللبن إلا إذا رأتا صورة ولدهما التي لا روح فيها؛ هكذا هذا الإنسان في أول تلمسه الخروج من حال الحيوانية إلى حال الإنسانية لا تظهر فيه مبادئ الأحوال الشريفة من أخلاق وعبادات إلا إذا رأى ما يمثل خالقه تمثيلاً لا نسبة بينه وبين الحقيقة إلا كنسبة جلد ولد البقرة الميت إلى حقيقته الغائبة عنها.

هذه حال الإنسان من حيث مباحثه العقلية، فأما حاله من حيث نظره لظواهر الجمال فإن الله عز وجل علم ضعفه وأنه لن يرى ربه إلا في حال أخرى، إذ لا نسبة بين المخلوقات والخالق، ففعل معه في الجمال ما فعله في العلم والعبادة، فحجبه عن شهود ذاته، وخلق له الصور الجميلة في الأرض، وشغل الذكور بالإناث وبالعكس، وجعل ذلك سلماً لتكاثر النسل، وجعل العيون والأبصار سلالم لنظر السماوات والعجائب، ومن هناك ترتقي العقول إلى جمال خالقها بالبصائر لا بالأبصار.

عظم الله في علمه ورحمته، وتنزل الناس أيام وحشيتهم إلى عبادة الأصنام، وأيام تقهقر عقولهم في دياناتهم إلى التقرب بالنذور للصالحين، وعظم وكمل في جماله فأشرق نوره على الشموس والأقمار والكواكب، ثم على الوجوه الحسان، فكان ذلك خيراً به انتظم أمر المعاش بالمودة والذرية في حال الحيوانية، إذن نسبة حال الجلد المنفوخ لابن البقرة والجاموسة إلى حال نفس ابن البقرة الحي كنسبة حال الأصنام بالنسبة لصانع العالم، وكنسبة جمال الوجوه الحسان من نوع الإنسان إلى مبدع العالم وجماله.

قصة الخليل عليه السلام وقصة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

إذا علمت هذا فاعجب من قصة الخليل وقصة النبي صلى الله عليه وسلم، الخليل كسر الأصنام كما في آية «الأنعام»، ثم أخذ يدرس النجم والقمر والشمس وانتهى إلى الله.

الله أكبر، أفلا تعجب معي إذ ترى هذه القصة هي قصة الإنسانية، عبادة أصنام وأحجار ثم ارتقاء إلى النظر في العالم العلوي، ثم الوصول لله، وهل هذا العالم كله إلا أرض وعوالم علوية؟ ثم خالقها، ثم انظر إلى أمر الحواس الخمس كالسمع والبصر والشم، فهذه بها نفرق بين الجميل وغير الجميل من الأصوات والألوان والطيب والخبيث من الروائح، ثم ترتقي نظرات العيون إلى العوالم العلوية من شمس وقمر الخ، فتعرف الحكمة وتقف على النظام الكامل ثم تصل إلى الله، إذن هنا نهاية واحدة وهي الذات القدسية، وهنا مبدآن: مبدأ من جهة التعبد، ومبدأ من جهة الشهوات الظاهرة، وهذان المبدآن بعدهما العلوم ثم الوصول. فإذا كان أكثر نوع الإنسان عاكفاً على عبادة الأصنام وما نحا نحوهما، فإن قصة الخليل أبانت الدرجتين الأخريين للإنسان: درجة العلوم، ودرجة الوصول، وإذا

كان أكثر هؤلاء الناس غارقين في الشهوات لا يجدون منها مخرجاً، ظانين أن هذه اللذات المحسوسة وراءها لذات أخرى، فهاهو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أيها الناس، هاأنا ذا أحب الطيب وأحب النساء، وكما كسر الخليل الأصنام ودرس الكواكب ووصل إلى الله؛ فهاأنا ذا كسرت الأصنام بمكة وعبدت الله وحده، وهكذا انتقلت من لذة النساء المحسوسة إلى لذة القرب المعقولة، وجعلت قرة عيني في الصلاة، لأنني فيها وصلت إلى الدرجة الثالثة، إن العلوم أفيضت علي بالوحي فلست في حاجة إلى دراسة فلسفية، فأما أنتم فعليكم أن تنظروا ما حولكم من العوالم، وبالعلم تصلون إلى الله تعالى كما فعل الخليل في نظام سيره ليبين لكم، وبالجملة فعكوف الناس على عبادة المحسوسات وحوز المشتهيات أمر عام، والخليل مثل خروجهم من الحال الأولى، والنبي صلى الله عليه وسلم مثل لهم الحال الثانية، وكل ذلك بسر: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الجاثية: ٣٧]، فلولا تكبره لعلم عظمته جميع الجهال فلم يعبدوا الأصنام ولا القبور، ولهام بجماله كل امرئ في الأرض، ولم يعشق أحد الصنفين الآخر، ولكنه مع هذا الكبرياء والعزة حكيم، فاتخذ من هذا الضعف الإنساني حكمة، ذلك أنه جعل غرام أحد الصنفين في الآخر سبباً للحياة والتناسل وإن كانا محجوبين عنه تعالى، كما جعل فضلات الحيوانات سماداً لظهور نبات آخر نافع للحيوان. هذا ما عنّ لي هذه الليلة أثبته هنا، والحمد لله رب العالمين. كتب الساعة الثانية بعد نصف الليل صباح يوم الأربعاء ٢٥ فبراير سنة ١٩٣١م.

جوهرة النفحة المتقدمة في آية:

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[الجاثية: ٣٦-٣٧]

(١) الله مربي العوالم. (٢) متكبر عزيز. (٣) وهو حكيم، فهاهنا تربية، وكبرياء مع عزة وحكمة، فلننظر هذه الصفات:

أولاً: في نظام الأغذية في الأرض.

ثانياً: في نظام الآثار العلوية من خلق الجبال والتلال والبراكين، وإحداث الزلازل والخسوف، وهناك نفهم الكبرياء والعزة المصحوبتين بالحكمة في التربية.

ثالثاً: في تعليم الأنبياء والإيحاء إليهم أو تكليمهم الخ.

رابعاً: في تربية النشء، وكيف كانت تعاليم الأمم للنشء كلما كانت أرقى كانت أقرب إلى النظام الأتم، وكلما كانت أدنى وأخسّ كانت أبعد منه.

خامساً: في أمر الأمم من حيث سياستها. وإنه عز وجل يفعل معها في السياسة المدنية ما يفعله مع الناس في عوالمه الطبيعية سواء بسواء. فإذا كان من الأغذية ما يضرهم فهم المسؤولون عن ذلك الضرر الحاصل لهم، لأن لهم عقولاً توجب عليهم الاستنتاج والبحث. فإذا أناموها فهم المسؤولون. هكذا في السياسة، فإذا حكمهم ملوك عادلون ثم قام أبناء أبنائهم الذين هم غالباً يكونون فاسقين جهلاء غير مجربين. فالأمم هي المسؤولة عن إهمال أمورهم وتسليمهم الزمام لغيرهم. فأين الشورى وأين العقول إذن؟ ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾[الصافات: ٢٤-٢٥].

سادساً: في نظام «داتون» في التربية والتعليم.

فلنشرح هذه الفصول الستة تذكرة للمسلمين، وهاك بيانها:

الفصل الأول: في الكلام على نظام الأغذية

اللهم إني أحمدك وأشكرك، وأعترف بعجزي وقصوري كما أعترف بنعمتك علي وعلى إخواني قراء هذا التفسير وعلى سائر المسلمين، فلولا فضلك وإنعامك وإلهامك وتوفيقك ما كتبت حرفاً واحداً.

اللهم إنك برحمتك وحكمتك شرحت صدري لما أكتبه الآن. فأقول أولاً لأقدم مقدمة فأقول:

لقد احتجبت أنوارك وعلمك وجمالك وحكمتك وبهاؤك عن عقول خلقك، فأنت ذو الكبرياء وذو العزة والحكمة والجمال، ولكنك برحمتك أريتهم آثار تلك الصفات من وراء حجاب، فهذه العقول الإنسانية الشريفة، ومزاياها العلية المنيفة، وغرائز الحيوان اللطيفة، وعطف الأمهات على ذريتها، وحب الأساتذة لتلاميذهم، وغرام أحد الصنفين بالآخر، كل ذلك آثار تلك الصفات العالية، ظهرت من وراء حجب السماوات والأرضين وما بينهما، وأقرب مثل مضروب لذلك الماء المحيط بالكرة الأرضية، فهو الجزء المهم في جسم كل إنسان وحيوان ونبات، ولا يخلو حي من هذه الأحياء من قطرات من الماء، فإن كانت في الحيوان سميت عرقاً تبرز منه، وإن كانت في النبات سميت ندى ـ وهذا تقدم شرحه في هذا التفسير ـ أي: إن الندى لم ينزل من السماء. كلا. بل هو قطرات بارزات من نفس النبات كالعرق بالنسبة للحيوان، وتكون صفات ذلك الندى من حيث الرائحة والطعم تابعة لصفات ذلك النبات، كما أن العرق تكون رائحته ومزاجه وطعمه على مقتضى مزاج الإنسان والحيوان الذي ظهر منه ذلك العرق، وما نسبة عرق الحيوان وندى النبات إلى الماء المحيط بالأرض وما فوقه من البخار والسحب والثلوج المتراكمة فوق الجبال إلا نسبة ضئيلة، فكما أن هذا العرق وذلك الندى أمر ضئيل بالنسبة للبحر المحيط بالأرض، هكذا علومنا وحكمتنا والرحمات التي في قلوبنا، والجمال الذي نراه في وجوه الفتيان والفتيات، والصور البديعة في كل نبات وحيوان وأحجار كريمة، والحب والغرام اللذين بهما عاش الناس، وانتظمت الأسرات، كلها ضئيلة بالنسبة لعلم الله ورحمته وجماله وحكمته كلها، وما عندنا منها إلا آثار ضئيلة كضآلة الندى والعرق بالنسبة للماء المحيط بالكرة الأرضية، وقد تنوعت آثار تلك الصفات فينا كما تنوع الندى فكان متصفاً بصفات النبات الذي برز منه من رائحة وطعم طيب ورديء، وكما تنوع العرق بحسب الأخلاط في الجسم الذي قام به العرق، الماء واحد اختلفت آثاره باختلاف ما دخل فيه وتخلله من كل نبات وحيوان، ولقد أدهشني والله ما عرفته من نفسي أنا، ذلك أني لم أترك اللحم إلا منذ عشر سنين، ولكن هذا الترك كان جزئياً لا كلياً، ذلك أني كنت آكل الخضراوات المطبوخة بمرقة اللحم، فهذه فيها شوائب اللحم، فأما منذ سنتين اثنتين، فإني اقتصرت من الطعام غالباً على الخضر نيئة في الأكثر، أو مطبوخة في النادر، ونبذت ما طبخ باللحم، واقتصرت من الأدم على الزيت الطيب، ومن الخبز على ما كان غير منخول، وأكثرت من الفاكهة، إلى آخر ما أوضحته في مقام آخر.

أفليس من عجب أني قبل هاتين السنتين كان يكثر عرقي وهو مصحوب برائحة غير مقبولة، وذلك يقل ويكثر حسب الأخلاط، وكان الاستحمام يزيل تلك الروائح، فأما الآن فإن العرق أصبح قليلاً جداً، وربما أسير في الحر ساعات ولا أحس بعرق ما إلا قليلاً، وإذا ظهر منه قليل لم تصحبه تلك الرائحة ولا جزء منها، أفليست هذه الحادثة الجزئية تكون نبراساً لهذا الموضوع كله، فهاهنا عرق اتصف بوصفين متضادين تبعاً لأحوال الأخلاط في جسمي أنا، وهذا العرق في جسمي قطرات قليلة بالنسبة للماء المحيط بالكرة الأرضية، فإذا رجعنا إلى ما سقنا الكلام لأجله، وهي رحمة الله وحكمته وعلمه اللاتي من آثارها كانت لنا صفات سميناها باسمها فقلنا: فلان رحيم أو حكيم الخ، كما اختلف الندى والعرق من حيث طيب الروائح وخبثها بحسب المزاج طيباً وخبثاً، وهذه الصفات أيضاً ضئيلة بالنسبة لصفات الله كضآلة قطرات الندى والعرق بالنسبة للماء المحيط بالأرض، ومن هنا لا تعجب من وسوسة الشياطين لبني آدم، وكيف نعجب ونحن نشاهد أن أمزجة النبات والحيوان لها آثار في اتصاف الندى والعرق بصفات تلك الأمزجة النباتية والحيوانية، فتكون طعومه وروائحه على مقتضى ما اتصف به ذلك النبات والحيوان، فإذا ألفينا الماء المحيط بالكرة الأرضية ينقلب في الحنظل مراً مثله، فليس بعجب إذا ألفينا النور الشريف البهيج في عقولنا وعواطفنا والشجاعة ينقلبان في النفوس الخسيسة مكراً وخبثاً وحقداً وحسداً وعداوةً وانقياداً للشيطان الرجيم.

وخلاصة هذه المقدمة أن علومنا وصفاتنا الشريفة آثار صفات الله تعالى، وهي بالنسبة لها كقطرات بالنسبة للبحر، وهي تتلون فينا بحسب استعدادنا.

انظر فيما تقدم في سورة «الكهف» في قصة الخضر وموسى عليهما السلام، وما ورد في الصحيح ما معناه: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا الطائر بما أخذه بمنقاره من البحر. فلله الكبرياء في السماوات والأرض، وله العزة، ولكنه من جهة أخرى مربٍّ وحكيم، التربية يعوزها الحكمة، والكبرياء والعزة سياج لها. ما من عاقل يشعر بأن له رباً إلا وهو يحبّ أن يراه، ولكن الله يقول: كلا. أنت ضعيف، وإذا رأيتني صعقت، هاهو ذا موسى خرّ صعقاً، والجبل صار دكاً لما تجليت له، وكفاكم أني أريتكم ما تحمله عقولكم من آثار صفاتي، فترون جمالاً في الوجوه، ورحمة في القلوب، وعلماً وحكمة، ولكنها قليلة جداً: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء: ٨٥].

كبرياء الله جميلة محبوبة لأنها رحمة لعباده، إنه لم يحجبنا عن رؤية ذاته وصفاته وكبريائه إلا لرحمتنا، لأننا ضعفاء، ومن هنا نفهم معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[الجاثية: ٣٧]، فعجزنا عن مشاهدة ذاته وصفاته حاصل بمقتضى صفتي الكبرياء والعزة، واجتزاؤنا برؤية هذه الآثار الضئيلة حاصل بمقتضى الحكمة والتربية. وبهذا تم الكلام على المقدمة التي بها عرفنا ضرب مثل لكبرياء الله في السماوات والأرض، إذن فلنبدأ بالكلام على ما أردناه في الفصل الأول من الكلام على الأغذية.

بث الله في الأرض النبات، وبث الحيوان والإنسان، وأعطى الحيوان غريزة، وغرس في الإنسان كما غرس في الحيوان شهوات وأحوالاً، فأما الحيوان فعاش بغريزته، وأما الإنسان فإنه تقلب في صفتي الغريزة والاختيار، فظهرت أمامه الأغذية فعرفها بحواسه، ولكنها مملوءة بالأسرار المحجبات عنه،

وإنّما حجبها عنه لأمرين: كبريائه وحكمته، ولولا هذه الكبرياء لم يمكن تربية الإنسان بالحكمة والعلم إذ الحكمة لا تكون إلا بعد الطلب، ولا طلب إلا بعد الشوق، ولا شوق إلا عند الحاجة، ولا حاجة إلا لجلب منفعة أو دفع مضرة، ولو أن كل نبات، وكل حيوان، ظهرت فوائدها للناس بلا طلب ولا نصب لم يجشموا أنفسهم النصب في معرفة تلك الفوائد، بل ظل الناس خامدين جاهلين أمد الحياة، وكانوا أشبه بالدواب في مرعاها. فإذا رأينا هذه الأغذية الموزعة على الأرض، والمنافع التي خبئت فيها والمضار حجبت عن نوع الإنسان؛ فذلك من كبرياء الله وعزته أولاً، ومن حكمته في تربيته للناس ثانياً، ولو أن الأشجار وأنواع النبات فعلت مع الناس ما فعلته مع سليمان عليه السلام ـ كما جاء في الأساطير القديمة ـ إذ تخبره الأشجار والنباتات بما فيها من الفوائد والمزايا والمنافع؛ لكان هذا الإنسان حيواناً جديداً أدرج في قوائم الحيوان البالغات نحو (٥٠٠) ألف نوع أو أكثر، إذن صمت هذه الأشجار، وهذه النباتات، وهذه الأحجار، وعدم نطقها لنا بما استكن فيها، وعدم ظهور منافعها لنا؛ من أجلّ الحكم في تربيتنا، وتلك الكبرياء محمودة.

اللهم لك الحمد إذ أفهمتنا معنى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٦-٣٧]. وبهذا تم الفصل الأول.

الفصل الثاني: في نظام الآثار العلوية

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين، أما بعد: فقد عرفت أيها الذكي ما كان من كبرياء الله في أمر النبات، وكيف كانت الكبرياء والعزة مصحوبتين بالتربية القائمة على الحكمة. أفلا تعجب معي أن يكون ما فعله معنا في الأغذية هو نفسه الذي فعله في أمر الآثار العلوية، وإظهار الجبال والبراكين والحمم والتلال والزلازل، ذلك أن هذه الأرض لم تكن إلا كرة نارية كما هو الرأي السائد الآن، وهذه الكرة أخذت تبرد من ظاهرها شيئاً فشيئاً، كما ترى الفحمة المتقدة فإنها تبرد شيئاً فشيئاً، ولكن باطنها لا يزال متقداً، وهذا الرأي وإن كان ظنياً قد أيده عمال المناجم.

إن نصف قطر الأرض نحو أربعة آلاف ميل، وعمق المنجم قد يصل إلى ميل واحد، والحرارة ترتفع كلما ازداد العمق، وقد يشتد الحر على عمال المناجم فلا يطيقونه، ولا جرم أن زيادة الحرارة بزيادة العمق توصلنا إلى أن في باطن الأرض طبقات درجة حرارتها تذيب الصخور والمعادن، ومما يدل على ذلك الينابيع الحارة التي درجة حرارة بعضها ١٩٠ درجة وظهورها على سطح الأرض. إذا علمت هذا فانظر في أمر الجبال والبراكين والزلازل، إن الذي ينزل من قاع المحيطات وغيرها إلى الطبقات الحارة من باطن الأرض يتحول حالاً إلى بخار، وهذا البخار أخف من الهواء، فهو يحاول الخروج إلى مقره في الجو، فماذا يصنع إذن هو وما معه من الغازات المكونة من المواد المصهورة؟ فتارة تندفع فلا تجد لها منفذاً، فيهتز سطح الأرض اهتزازاً على مقدار ذلك الضغط، وهذا هو الزلزال الذي يهدّ المدن وتخر بسببه الجبال هدًّا، وإذا اشتد هذا الاهتزاز وكانت هناك مواد مصهورة في باطن الأرض كثيرة وحاولت الخروج وطاوعتها قشرة الأرض، فهناك يكون البركان، وإذا ثار البركان سمعنا طقطقة في الجو وفي باطن الأرض وأصواتاً كالرعد، وهناك تتطاير كتل الصخور العظيمة، وألسنة اللهب، وتهلع النفوس.

وقد يعقب الزلزلة خسف، فإنه فإذا اشتد الضغط في باطن الأرض يميناً وشمالاً ولم ينفذ السائل والغازات إلى الجو فقد تنهار في الفجوات الواسعة في باطن الأرض طبقة من سطحها فتهوي سريعاً ويبتلعها جوف الأرض، وهذه الفجوة تارة يغمرها الماء، وتارة لا، وهذا هو الخسف، وبهذا عرفنا البراكين والزلازل والخسف.

ومن تأمل ما حصل في بركان «ديبلي» سنة ١٩٠٢ الذي ارتفع إلى (٤٤٠٠) قدم، واتقد رأسه ثم تكوّن له رأس آخر ارتفاعه (٥٠٧٠) قدماً، وكان إلى آخر يونيو سنة ١٩٠٣ لا يزال آخذاً في الارتفاع، ويقال: إنه ارتفع ٢١ قدماً في أربعة أيام، وهذا الرأس الجديد كان قمماً مصهورة ذائبة ثم تماسكت فصارت جسماً صلباً.

أقول: من تأمل ما حصل في هذا البركان أدرك كيف تكونت أكثر جبال الأرض، فأكثر ما تكون منها على هذا الأسلوب.

إن الله عز وجل هو الذي خلق الجبال والخسف والزلازل والبراكين، والخسف والزلزلة والبركان كلها مهلكات مدمرات. فانظر كيف: (١) زلزلت أسبانيا سنة ١٨٨٤، فتخرّب من غرناطة سبعة آلاف منزل، ومات فيها أكثر من ٢٠٠٠ نفس. (٢) وكيف زلزلت اليابان سنة ١٨٩١، فتخرّب فيها أكثر من ٤٠٠٠ منزل، ومات أكثر من ٨٠٠٠ نفس. (٣) وفي سنة ١٨٩٥ طغى الماء بسبب الزلزلة على بعض البلاد باليابان فأغرق آلافاً من أهلها. (٤) وفي سنة ١٩٠٢ زلزلت كشغر من تركستان فمات نحو ثلاثة آلاف نفس. (٥) وفي سنة ١٩٠٨ زلزل مضيق «مسينا» بإيطاليا فأتلفه، وخرب مدينتي مسينا بصقلية ورجيو بإيطاليا، ومات بسببها آلاف من الناس كما بقي منهم آلاف بلا مأوى. (٦) وانفجر بركان في جزيرة «كركتوا» بالقرب من جاوة بينها وبين سومطرة، فقطعها إرباً، ولم يبق منها إلا قسم صغير. (٧) وثار بركان «ويزوف» بإيطاليا سنة ٧٩ ق.م، فغطى مدينتي «بمبي» و«هركولانيوم»».

هذه بعض أفعال الزلازل والبراكين، وقد تقدم أكثر من هذا في سورة «آل عمران» وفي مواضع أخرى من هذا التفسير، ولكن سقنا هذه الحوادث هنا لنبين كبرياء الله وعزته المصحوبتين بحكمته وتربيته، هذا فعل البراكين وهذا تخريبها وتدميرها وإهلاكها للناس وللحيوان وللمدن. كل ذلك لكبرياء الله عز وجل، هو يفعل ذلك مع الأحياء ولا يبين لهم سر ما فعل ويقول: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾[الأنبياء: ٢٣]، ويقول: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء: ٨٥]، ويقول أنبياؤه: إن علم الناس أشبه بما أخذه منقار الطائر من ماء البحر. يفعل الله ذلك كما فعل في الأغذية في الفصل السابق، حجب أسرارها وأعطى الناس عقولاً، وقال: ادرسوا، ولم يزد في الوحي السماوي عن القول الإجمالي، وكما درس الناس منافع النبات والحيوان بعقولهم فانتفعوا بقدر ما عرفوا؛ هكذا درسوا فوائد تلك البراكين وغيرها بعقولهم فرأوا عجباً! رأوا:

أولاً: إن جماعة الأمريكيين اشتروا بركاناً في بلاد المكسيك بمليون من الجنيهات ليستخرجوا الكبريت الراسب حول قنته.

ثانياً: رأوا أن جزيرة في أرخبيل آسوره ارتفعت بسبب ثورة البركان سنة ١٨١١، ولم يكن لها قبل ذلك أثر ولا عين.

ثالثاً: رأوا أن جزيرة أخرى ارتفعت في بوغاز «بيرنغ» بين آسيا وأمريكا بسبب البركان والزلزلة أيضاً.

رابعاً: رأوا جزيرة ارتفعت في خليج بنفالة طولها ٩٢١ قدماً وعرضها ٦٥١ قدماً، وارتفاعها وقت مد البحر ١٩ قدماً. وهي والسابقة بركانيتان.

خامساً: رأوا أنه ارتفع تل بالقرب من نابل سنة ١٥٣٨ يسمى «منت نوفو».

رأى الناس ذلك، فماذا يشعر عقلاؤهم، إن عقلاء الناس وحكماءهم يقولون: إن البراكين في الأرض كمخاض المرأة، فالناس لما اعتادوا أن يروا مخاض النساء، وأن المرأة تقاسي الأهوال في الوضع، وربما ماتت بسبب ذلك الوضع؛ لم يكن ذلك عندهم غريباً، بل نفس المرأة تفرح إذا وجدت لها طفلاً بجانبها بعد هذا العذاب، وتحمد ربها وتشكره، ولا تبالي بهذه الأهوال، هكذا حكماء أهل الأرض يرون هذه البراكين والزلازل نعمة، لأنها يعقبها ظهور جبال نافعات في حفظ الثلج فوق رؤوسها ليمد الأنهار والعيون طول السنة، وفي حفظ المعادن في باطنها لمنفعة الإنسان، وفي أنها تجتذب السحب المسخرة بين السماء والأرض، فتسقط أمطارها لمنفعة الحيوان والإنسان، وفي وقاية ما خلفها من هبوب الرياح الباردة تارة كما في جبال الألب وأقاليم أوروبا الجنوبية، ومن هبوب الرياح الحارة كما في جبال أطلس، وأقاليم مراكش، وريف البحر من بلاد البربر، وفي أن سفوحها تغطى بأشجار نافعة، ومنها ذوات الثمر اللذيذ النافع، وفي أن اعتدال هوائها يلائم صحة الإنسان ويعيد له صحته، فأكثر الناس على الأرض يسمعون بالبراكين والزلازل والخسف فيكونون أحد اثنين: إما أنهم لا يفكرون وهم الأكثرون، وإما أنهم يكونون ملحدين، وهؤلاء هم المتعلمون تعليماً ناقصاً فقد عرفوا المضار، ولم يوالوا التعليم والدرس حتى يعقلوا أن الآلاف المؤلفة من المنازل، والناس الذين هلكوا بالبركان أو الزلزلة؛ ما هم إلا عدد يسير جداً بالنسبة لمن سيعيشون بذلك الجبل الذي نشأ بسبب البركان أو بتلك الجزيرة، أو بتلك التربة الخصبة التي أظهرها البركان والزلزلة كما تقدم في أول سورة «سبأ» عند آية: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[سبأ: ٢] الخ، فإني ذكرت لك هناك أن الأرض البركانية أرقى أراضي الزراعة، فهذه الجبال، وهذه التلال، وهذه الجزائر، وهذه الأرض البركانية، يعيش بها آلاف من الأمم في مئات آلاف السنين، فأما الذين هلكوا بتلك البراكين فهم آلاف معدودة، أو مدن محدودة، يموت أكثر منها كل سنة بالوباء، أو الطاعون، أو الحمى، أو التيفوس، فهذه أمور يسيرة في جانب سعادات لا حد لها.

فهاهنا انقسم الناس ثلاثة أقسام: حكماء كمن يفهمون هذا التفسير. وملحدون: وهم الذين يقفون في الوسط بين بين، لا هم حكماء ولا هم عامة، وهم أغلب المتعلمين في الشرق والغرب الآن. وعامة وهم أكثر من على الأرض. والحكماء والعامة قلوبهم في راحة، والطبقة الوسطى يعيشون في ألم مبرح مبين، وبكبرياء الله وعزته حجب الناس ما عدا الحكماء عن معرفة هذه الأسرار والإيقان

بها، ويحكمته ربى الحكماء فعرفوها بعد النصب والتعب، إن ذلك خير أساليب التربية وأنفعها لنوع الإنسان. وبهذا تم الكلام على الفصل الثاني في الآثار العلوية، والحمد لله رب العالمين.

الفصل الثالث

في تعليم الأنبياء والإيحاء إليهم وتكليمهم الخ

وذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ﴾[الشورى: ٥١]، وذلك كما كان يوحى إليه صلى الله عليه وسلم في أول البعثة، وذلك في المنام ستة أشهر، ﴿ أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ [الشورى: ٥١]، وذلك لموسى عليه السلام، ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾[الشورى: ٥١] وذلك كما يوحى إليه صلى الله عليه وسلم بعد الأشهر الستة إلى آخر حياته. وقد تقدم ذلك بأكثر من هذا في سورة «الشورى»، إنّما المدهش في هذا المقام أن الله عز وجل على صراط مستقيم، فهو في هذه الأحوال الثلاثة حكيم، وفي آيتنا التي نحن بصددها الكبرياء والعزة في مقابلة العلو في آية «الشورى» والتربية والحكمة في مقابلة الحكمة هناك.

يا الله عجبنا لنظامك في خلقك ودهشنا دهشاً أشد من نظامك في كلامك، فأنت هنا تقول: إن الحمد مختص بالله لأنه ربى السماوات وربي العالمين، وأردفت ذلك بأن هذه التربية مصحوبة بالكبرياء والعزة والحكمة، فبحثنا ذلك فألفيناك وهبتنا عقولاً وغرست فينا شهوات، وخلقت لنا أغذية. وأخذت تقلب الأرض أمامنا، فتجعل فيها نيراناً خارجة من باطنها، وتصنع لنا جبالاً، وتخسفها تارة، وتزلزلها أخرى، فمن درس منا فقد انتفع في الدنيا، واستقرت نفسه، وعمرت بالحكمة. ومن لم يدرس فحياته حياة حيوان، فأشرت للدراسة بالتربية والحكمة، والغفلة بكبريائك وعزتك، لأنك تعرض عن الناقص الغافل، وهكذا نراك لا تكلم الأنبياء كما يكلم أحدنا الآخر، بل كلمتهم تارة بالرؤيا المنامية، وتارة بملك يلقي الوحي إليهم، وتارة من وراء حجاب. فالكلام بأحد الطرق الثلاث اتصفت بالحكمة، وبحصر خطابك لهم كنت علياً، إذن كما أن لك الكبرياء والعزة في السماوات والأرض كان لك العلو على الأنبياء، ولكن التعبير بالكبرياء والعلو في السماوات والأرض غير التعبير بالعلو في مقام الأنبياء، لأن الحجاب هنا رقيق جداً بخلاف العوالم، فلشدة حجابها ذكر في جانبها الكبرياء والعزة، وهذا المقام في غاية الدقة، ومن الأسرار البديعة والعلوم المخزونة التي أراد الله إظهارها اليوم للمسلمين.

اللهم إن لك الأسماء الحسنى، وقد جاء في كتابك: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وجاء في سورة «طه»: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾[طه: ٨]، فيا ليت شعري، أكان الحسن في الألفاظ وحدها. كلا. فالله يقول: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[ص: ٢٩]، إذن هذا الكتاب لنتذكر به، لا أننا نقف عند لفظه، إذ التذكر لا يكون إلا في المعنى، إذن حسن أسماء الله من حيث معانيها، فإذا سمعنا أنه جبار متكبر قهار قابض خافض مذلّ عليّ كبير مميت منتقم ضار، فإننا ندرسه في هذه العوالم، فنجد البراكين وجبال النار والصحاري والقفار؛ كل هذه مزعجة مخيفة مهلكة، ونراه تعالى يميت الأحياء وهم يبكون على ميتهم، ويبتلي الناس بأنواع الهموم والمصائب، وهذه تنطبق عليها تلك الأسماء الإحدى عشرة، فهو

بهذه الأعمال جبار متكبر قابض منتقم الخ. فظاهر هذه الأسماء منطبق على ظواهر البراكين والزلازل وما أشبهها، ولكن إذا بحثنا أسرارها بالحكمة والبراهين والعلم ألفينا هذه الظواهر لها بواطن سارة، فظاهرها من قبله العذاب وباطنها فيه الرحمة، فالبراكين تقدم الكلام في أنها رحمة مشروحاً شرحاً كافياً، وهكذا الموت ظاهره هلاك وباطنه حياة.

قد شاهدت أمس جنازة متوجهة إلى مقبرة سيدي زين العابدين، وأمامها موسيقى محزنة، تضرب ضرباً يحدث في النفس انقباضاً، ما شبهتها إلا برجل يضرب آخر على ظهره فيصرخ من الألم، والنساء باكيات في الجنازة، فهذا إنّما كان للجهل الذي غشى على عقول أهل الأرض، لأن هذه مرتبتهم، فهم يجهلون حال الأنفس بعد مفارقة أبدانها، وعلمهم بها ضئيل قد أخذوه من الديانات، وما كان من الدين فما هو إلا إيمان، ولكن العلم واليقين فوق الإيمان، ولكن لا يكون اليقين إلا بالجد والتشمير، ومتى درس المسلم بقية أسماء الله الحسنى مثل: السلام المؤمن المهيمن العزيز الخالق البارئ المصور الغفار الوهاب الرزاق الفتاح الباسط الرافع الهادي النور، وهكذا، وهي نحو ٨٨ اسماً، فهذه الأسماء لها معان، وتلك المعاني موزعة في القرآن ومنبثة في أكناف الطبيعة، وينضم إليها ما دخل تحت الأسماء الإحدى عشرة المتقدمة التي ظاهرها العذاب، فإن البحث كالذي تقدم يظهر لنا أن باطنها الرحمة، فالقهر الذي نراه ظاهراً في حرارة الشمس إذ تكون محرقة في حمارة القيظ، والانتقام المجسم في الأسود والنمور والفهود والضباع والحيات وأنواع الحيوانات الذرية المهلكة لنوع الإنسان. كل هذه من حيث ظواهرها راجعات لظواهر الأحد عشر اسماً المتقدمة أو لبعضها، ولكن بواطنها أنها شروط للرحمات مقدمات لها، والمطلع على أكثر هذا التفسير وبالأقل ما ذكرناه هنا يوقن بهذه المعاني إيقاناً تاماً. وبهذا تم الكلام على الفصل الثالث، والحمد لله رب العالمين.

الفصل الرابع: في تربية النشء

وكيف كانت تعاليم الأمم كلما كانت أرقى كانت أقرب إلى النظام المتقدم وكلما كانت أدنى وأخس كانت أبعد منه

أذكرك أيها الذكي بما مر في سورة «الزمر» عند قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الزمر: ٩]، وكيف ترى الأستاذ «كانت» الألماني قد عوّل على أن تكون عقول التلاميذ موجهة إلى التفكر، وما المدرس إلا مرشد لهم ومذكر، وبالاختصار يكون التلميذ معوّلاً على جدّه نفسه بإرشاد المعلم، ومن عجب ما جاء في حديث البخاري الذي ذكرته في سورة «السجدة» عند آية: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴾[الآية: ٧]، إذ ذكرت لك هناك جمال ظواهر الأشجار وجمال بواطنها، وأبنت تشريح النخلة ومعرفة ما في داخلها من الأعضاء، ولهذه المناسبة ذكرت حديث البخاري، إذ سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه عن شجرة كالرجل المسلم لا يتحاتّ ورقها، وإذا قطع رأسها ماتت؟ فوقع الصحابة في أشجار البادية، فقال صلى الله عليه وسلم: هي النخلة. فهذه هي السنة التي درج عليها علماء أوروبا الآن، بحيث يكون أكثر الفهم راجعاً لنفس التلميذ، وهذه هي الخلة التي سنها الله للناس في أغذيتهم، إذ أبهم كثيراً من أسرارها،

وهاهم الآن وغداً كما كانوا أمس يبحثون، وكلما ازدادوا في منافع الأغذية بحثاً ازدادوا شوقاً، ولا آخر لما يدرسون، وهكذا في أمر الأحوال الطبيعية من البراكين والخسف والزلزلة كما تقدم، وهكذا هنا في التعليم، فكما كانت الكبرياء لله في الفصول المتقدمة؛ هكذا في فصل التربية يجب على المعلم أن يستنّ بالسنة الإلهية من حيث إنه يجعل تلاميذه مجدين بأنفسهم، مفكرين بعقولهم، كما فعل الله مع الناس في منافع أغذيتهم، والآثار العلوية الحاصلة في أرضهم، فهو اكتفى بأن خلق لهم عقولاً، وأراهم هذه الظواهر، وشوقهم إلى أسرارها، لمنفعتها تارة، وللوقوف على حقائقها، ودفع الحيرة في النظام العام تارة أخرى، ولأكتف الآن بما جاء في مجلة الشبان المسلمين تحت العنوان الآتي، وهذا نصه:

التربية الحديثة

طريقة دولتون في التربية والتعليم

ظهرت طريقة دولتون بعد سنة ١٩١٩، وهي الطريقة التي كانت تستعملها «مس هيلين باركهرست» في مدرسة بدولتون في «مساكستز» بالولايات المتحدة في أمريكا، ولقد ذكرت «مس باركهرست» في محاضراتها عن طريقتها الجديدة أنها ليست محددة تحديداً يضمن جعلها صالحة لكل مدرسة، وكل نوع من الأطفال، بل هي طريقة قابلة للتغيير والتبديل، وتتضمن آراء محددة معينة، فهي في جوهرها مجموعة مبادئ وقواعد، لا مجموعة أوصاف وأوامر، فلقد أعطت المدرس نفس الحرية التي أعطتها للتلميذ، وأعطت التلميذ المثل الأعلى الذي أعطته للمدرس، وتختلف عن طريقة تعلم الطفل في منزله تحت إرشاد أحد المربين.

ما هذه الطريقة؟

هي طريقة انتقلوا فيها من تعليم الفصل، أو تعليم الكل إلى تعليم الفرد، والفكرة الرئيسية في هذه الطريقة أن تحوّل حجر الدراسة أو الفصول إلى معامل كمعامل الطبيعة والكيمياء، بحيث توجد فيها الكتب الضرورية، وكتب المراجعة من قواميس ودوائر معارف وغيرها والأدوات العلمية التي يحتاج إليها في البحث عن المادة التي يبحث عنها التلاميذ والتلميذات بحثاً علمياً في فصولهم، لتساعدهم على الوصول إلى ما يرغبونه من الكشف والاطلاع والتنقيب. وفي هذه الطريقة يلقى مقدار كبير من المسؤولية على التلاميذ في مذاكرة دروس معينة في مدة محدودة مقدارها أسبوع، أو أسبوعان، أو شهر مثلاً، وفي هذه المدة تترك التلاميذ للقيام بأنفسهم بأعمالهم المفروضة عليهم، بحيث ينتهون من أدائها في نهاية المدة المخصصة لهم، ويكونون على استعداد لاختبار خاص في الدروس التي قاموا بإعدادها وتعلمها بأنفسهم بعد إرشاد أساتذتهم، وللتلاميذ الحرية في:

(١) أن يبتدئوا معرفة أي مادة يختارونها من المواد المعينة لهم.

(٢) وأن يمكثوا أي مدة يريدونها في فهم هذه المادة ما داموا يرغبون في ذلك، وهذه حسنة من حسنات دولتون، فكثيراً ما يشعر الإنسان بالألم حينما يقطع عليه بدق الناقوس في المدرسة، وكثيراً ما يتمنى أن يترك ولو بعض الوقت حتى ينتهي من العمل الذي في يده، فهذه الطريقة تشجع على أن يستمر الإنسان في عمله متى أراد الاستمرار.

أما المعلمون فيتركون التعليم ويصيرون مرشدين وناصحين وقواداً للطلبة، بحيث يعينون ساعات خاصة في حجر معروفة لإرشاد التلاميذ الذين هم في حاجة إلى الإرشاد، والذين يجدون صعوبة في عملهم، ولتوضيح القواعد والنظريات الجديدة، والمفروض أن المدرسين لا يتدخلون في عمل التلميذ ما لم يكن مخطئاً، وما لم يستشرهم التلميذ، وكل تلميذ حر في أن يعمل ما يريد بقدر ما يستطيع، ما دام ينجح في القيام بعمله.

وحينما ظهرت هذه الطريقة الحديثة في أمريكا وإنجلترا لم يوافق عليها طبعاً بعض المدرسين، شأن كل مشروع جديد، أما الآن فقد اتضح لكل مدرس حديث أنها هي الطريقة المثلى في تعليم كثير من المواد، ولقد قام بتجربتها كثير من المدرسين والنظار في مدارسهم، حتى أصبحت مبادئها مستعملة في معظم المدارس بالولايات المتحدة وإنجلترا وكندا وإيطاليا، فالمدرس الحديث يكلف تلاميذه أعمالاً خاصة يقومون بها بأنفسهم في أوقات معينة تحت إرشاد المدرس في مواد خاصة كالرياضة والجغرافيا والتاريخ وقواعد اللغة وآدابها.

اليوم المدرسي على طريقة دولتون

في مدرسة دولتون كان التلاميذ أحراراً في عملهم المدرسي من الساعة الثامنة والدقيقة ٤٠ إلى الساعة الحادية عشرة والدقيقة ٥٠، أي في النصف الأول من اليوم المدرسي، وفي النصف الثاني من اليوم كان المدرسون يقومون بتدريس المواد التي يحسن تدريسها في الفصول بالطريقة المعتادة عندنا، وفي الوقت الحر عند التلاميذ يقومون بتعلم الدروس المعينة لهم بالطريقة التي يحبونها، أما المدرسون في هذا الوقت فيخصصون أنفسهم لهذه الواجبات الخمسة:

(١) أن يقوموا بحفظ النظام في الفصل بحيث تكون الحجرة صالحة للمذاكرة.

(٢) أن يشرحوا النقط التي تحتاج إلى شرح من الدروس المعينة للتلاميذ.

(٣) أن يبينوا للتلاميذ كيفية استعمال الأدوات والأجهزة الخاصة في المعمل.

(٤) أن يوعزوا بآرائهم في كيفية حل المسائل الصعبة.

(٥) حينما يظهر للمدرسين أن التلاميذ حقيقة في حاجة إلى شرح نقطة معينة، فعليهم أن يشرحوها ويبينوا صلتها بالقاعدة العامة في المادة.

ولقد ادّعي أن طريقة «دولتون» سارت سيراً حسناً، وأن التلاميذ بعد أن تركوا وأنفسهم يبحثون وسمح لهم باتباع الطريقة التي توافقهم؛ قد نجحوا نجاحاً باهراً في عملهم، نجاحاً أكثر من نجاحهم المعتاد، وفي الوقت نفسه قد حصلوا على الثقة بأنفسهم، واعتادوا مقابلة القواعد الجديدة والتفكير في حلها من غير اعتماد على أحد.

سيوجد في الابتداء شيء من الصعوبة في تنفيذ هذه الطريقة، ولكن سرعان ما سيعتادها التلاميذ وسيفضلونها على غيرها، غير أنهم سيجدون أن بعض المواد يمكن السير فيها على هذه الطريقة أحسن من بعض المواد الأخرى، فهي تحسن في الجغرافيا والتاريخ والحساب والهندسة والجبر والقواعد والإنشاء، والمطالعة وقانون الصحة وأدب اللغة، ولا تحسن في الموسيقى والألعاب الرياضية

واللغة الأجنبية ، فإن اللغة الأجنبية مثلاً تحتاج إلى مدرس يعرف منه التلاميذ النطق ، ويتحادثون معه ويتحادث معهم ، ويسمعونه يتكلم حتى تعتاد آذانهم الاستماع وألسنتهم التكلم .

الصلة بين طريقة دولتون وبين طريقة منتسوري

إن هناك صلة كبيرة بين طريقة منتسوري وبين طريقة دولتون ، ولكن فضل الأسبقية يرجع إلى الدكتورة منتسوري ، فقد ابتدأت طريقتها قبل دولتون ، وإن « مس هيلين باركهرست » مؤسسة طريقة دولتون كانت من تلميذات منتسوري ، وكانت مساعدة لها حينما ذهبت منتسوري إلى كاليفورنيا سنة ١٩١٥ .

ومن المهم في طريقة دولتون إعطاء حرية كبرى للأطفال في أعمالهم المدرسية ، ويقول الدولتونيون : إن التلاميذ يستطيعون أن يسيروا على هذه الطريقة من السنة الثامنة من عمرهم ، فمن الممكن استعمالها في مدارسنا العالية طبعاً والثانوية من غير شك ، والابتدائية من السنة الثانية ، في الوقت الذي يستطيع فيه التلميذ أن يقوم بشيء من العمل بنفسه مع ملاحظة المدرس وإرشاده ، وبهذه الطريقة يكون التلميذ أو الطالب مسؤولاً عن عمله المدرسي وأكثر ولعاً به ، واشتياقاً إليه ، ورغبة فيه ، والغرض من هذا المشروع أن نعطي الطفل حرية في عمله المدرسي ، وأن نجعل المدرسة كهيئة اجتماعية يستطيع فيها التلميذ أن يقوم بعمله الخاص ، وأن يشترك مع جماعة من التلاميذ في تنفيذ عمل معين اشتراكاً متبادلاً بينهم .

حجر الدراسة على طريقة دولتون

أما حجر الدراسة فتصبح معامل للدراسة تجمع فيها جميع الكتب والأدوات المناسبة للمواد الخاصة المراد تعلمها ، والتلاميذ لا يزالون يجمعون تحت اسم معين لأجل الراحة في العمل كالجماعة الأولى والجماعة الثانية الخ . وحجرة الجغرافيا ، وحجرة التاريخ ، وحجرة الرسم ، ومعمل الطبيعة والكيمياء ، وحجرة اللغة العربية ، وحجرة العلوم الرياضية الخ . ولا يزال التلاميذ يستعملون الحجرة كمكان للبحث والتعليم ، بحيث يبحث فيه كل تلميذ على انفراده ، أو مع بعض إخوانه الذين معه في درجة واحدة ، وسنة واحدة . فإذا أراد بحثاً تاريخياً ذهب إلى حجرة التاريخ ، وإذا أراد إعداد دروسه في الجغرافيا ذهب إلى حجرة الجغرافيا ، وفي كل حجرة يوجد طبعاً مدرس خاص للمادة التي عينت لها هذه الحجرة ، يقوم بمساعدة من يحتاج إلى المساعدة وإرشاد من يحتاج إلى الإرشاد . انتهى ما أردته من مجلة « الشبان المسلمين » ، والحمد لله رب العالمين .

هذا آخر ما جاء في فن التربية . أليس هذا وأمثاله إنما هو ترديد لحديث النخلة المتقدم ، ولما في هذه العوالم من المنافع المخبوءة المشوقة للإنسان ، ومن الحوادث المهلكة المزعجة له حتى يعقل الأولى لنفعها والثانية لفهمها ، والاحتراس مما يمكن الاحتراس منه ، ولن يتم ذلك إلا بالجد والتشمير ، لا بمجرد التلقين والتعليم . إذن هذه المعاني كلها شملتها آية : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الجاثية : ٣٦] الخ ، فهو يربي العالمين بالكبرياء والعزة المصحوبتين بالحكمة ، وهذا بعينه هو ما يريد أن يتبعه أهل الأرض اليوم في مدارسهم . وبهذا تم الكلام على الفصل الرابع .

الفصل الخامس: في أمر الأمم من حيث سياستها وأنه عز وجل يفعل مع الأمم في سياستها ما يفعله مع الناس في عوالمه الطبيعية سواء بسواء

فإذا كان في الأغذية ما يضرهم فهم المسؤولون عن ذلك الضرر الحاصل لهم، لأن لهم عقولاً توجب عليهم الاستنتاج والبحث، فإذا أناموها فهم المسؤولون، هكذا في السياسة، فإذا حكمهم ملوك عادلون، ثم قام بدلهم أبناؤهم أو أبناء أبنائهم الذين هم غالباً يكونون غير مجربين وهم مترفون منعمون، فالأمم هي المسؤولة عن ذلك. وبيانه: أننا نرى المصريين وجميع سكان شمال أفريقيا وأهل الشام والعراق والموصل ونجد والحجاز واليمن، كل هؤلاء كانوا سادة العالم، وهم الذين نشروا العلم في العالم كله، ثم خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فلقوا غياً.

ومن أعجب العجب أن سند العلم متى انقطع في جيل من أمة انقطع أجيالاً وأجيالاً، فهذه الأمم لما اغترت بعظمة الملك نامت على وساد الراحة الوثير، ونام الأبناء على الخيرات التي خلفها لهم الآباء، وشر الأبناء من عاشوا من كدّ آبائهم، إذ يكونون عالة على المجتمع، فماذا فعل الله معهم؟ جعل ملوكهم يشبهونهم، ذلك لأنهم تربوا في مدارسهم، وتعلموا آراءهم، وهل يحكم الأمير إلا بما درس في مدارس الشعب، والشعب إن هو إلا عابد للشهوات، فإن الغنائم كثرت، والأرزاق والخيرات غمرتهم، فما لهم وللعمل؟ فلتكن البطالة والراحة، ومتى استراح جيل واحد ذهبت المروءة والنخوة والشرف، قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾[الإسراء: ١٦].

إن عذاب الخزي في الحياة الدنيا بالترف، وعذاب جهنم في الآخرة بالترف، ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾[الواقعة: ٤١-٤٥].

فانظر كيف ذكر الترف قبل أن يذكر الكفر، فهو كما يكون سبب الكفر يكون سبب الاستعباد ولقد اتخذ آباؤنا العرب من الفرس أجناداً ومن الترك، واتخذ الأندلسيون أجناداً ممن جاورهم من الأمم، وهكذا ملوك شمال أفريقيا اتخذوا من السود الأفريقيين جنوداً، فما كاد الملك الذي استعان بهم يفارق الحياة حتى التحق كل فريق من هؤلاء العبيد بأحد أبناء الملك ليحارب في صفه ضد أخيه، وهذا درس واحد الحدث فيه هذه الممالك، فكان بمصر الطولونيون، فالأخشيديون، فالفاطميون، فالأيوبيون، فالممالك البرية والبحرية، فالترك، فالفرنسيون، فأسرة محمد علي الحالية، فالإنجليز. وكانت المماليك البرية والبحرية بمصر، وكذا ولاة الترك بعدهم، يتحكمون في رقاب الأمة، ويهتكون الأعراض، ويخربون الديار، ومن عجب أن هؤلاء كانوا عبيداً يشترون بالمال ثم يملكون البلاد.

إن هذا كله هو آثار كبرياء الله في السماوات والأرض وعزته، فهو كما أعطى الناس عقولاً، وخلق لهم أغذية، وأغراهم بالبحث عنها؛ وهكذا خلق لهم أموراً مزعجة من رعد وخسف وبركان، وشوقهم لمعرفتها، وأخرجهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، وألهم المربين أن ينسجوا على منوال

سنة خالقهم في نظام خلقه، من حيث استقلال التلميذ بالتفكير. هكذا فعل معهم في السياسة، أعطاهم عقولاً، وأنزل في القرآن آية الشورى، وألهم عمر والخلفاء الراشدين أمر الشورى، ولما لم يفهموا ذلك وأعرضوا، ولى عليهم ملوكاً عظماء، فإذا ماتوا تولى أبناؤهم الجهلاء المترفون بحجة أن ابن الملك أولى بالملك على أيّ حالة كان، وهذه حجة داحضة، فإن قصة آدم وإبليس التي شرحت مقاصدها في سورة «الأعراف» أبانت ذلك أيما تبيان. إن الحجج في علم المنطق إما برهان، وإما جدل، وإما خطابة وإما مغالطة، وإما شعر.

وأخس أنواع الحجج المغالطة، وهي التي احتج بها إبليس، فامتنع عن السجود لآدم، ولعمري أين آدم وأين إبليس؟ إن القرآن لا يقرأ في زماننا إلا لنا نحن، لا لآدم ولا لإبليس، إنه ما نزل إلا عبرة لنا نحن، فإذا لم نعتبر فلا حياة لنا ولا علم. احتج إبليس بأنه خير من آدم، وبرهانه أن أصله من نار وأصل آدم من طين، والنار في نظره أشرف من الطين، ومتى كان الأب أشرف كان الابن أشرف، إذن إبليس أشرف من آدم، وهل هذه الحجة إلا مغالطة، وهل هي إلا نفس الحجج التي تلقفها جهلة المسلمين في الأمم المتأخرة، فقالوا: ابن الملك ملك لا بمزاياه وعواطفه وأخلاقه، بل بمجرد الانتساب.

والله تعالى يقول فيمن استحق الملك: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾[البقرة:٢٤٧]ويقول: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ﴾[ص:٢٦] الخ، فحجة المغالطة التي أقامها إبليس محتجاً بالنسب إلى الأشرف هي نفس الحجة التي أقامتها أمم الإسلام حججاً ومعاذير في قبول ابن الملك أو قريبه أو مملوكه، كابن طولون، وكافور الإخشيدي، والمماليك البرية والبحرية، ولكن الله لهم جميعاً بالمرصاد، وقد عامل هذه الأمم الإسلامية معاملة الأساتذة لتلاميذهم، يطلقون لهم الحرية في الدراسة حتى يستيقظوا، فالله وهب لهم العقول، ونصب لهم ملوكاً، وكلما مات ملك ورثه ولده، أو عبده، وأصبحت هذه الأمم:

كرة طرحت بصوالجة فتلقفها رجل رجل

ومن هؤلاء المتلقفين لتلك الكرة الماهر في اللعب والجاهل، وأصبح التعليم في ديار الإسلام في أيدي أخس طبقات الأمة وأجهلهم، وتركت العقول الراجحة والنفوس الشريفة معطلة، وبيوت العلم خاوية على عروشها، اللهم إلا دور العلم المشهورة في بلاد الإسلام التي لولاها لم يبق للدين أثر. إن خير وسيلة لتعليم السباحة في النهر أن يرمى المتعلم في النهر وهو يجاهد ويكاوح حتى يتعلم السباحة بطريقته هو، وهذه هي التي فعلها الله مع الأمم الإسلامية المتأخرة، فهي ذاقت الأمرين من جهلة أمرائها، ولما لم تستيقظ أرسل لها أمم الفرنجة، فاحتلت بلادها، فاستيقظت، وهذا التفسير قد جعله الله سبيلاً من سبل نجاتها، ولن تعود تلك الأضاليل والجهالات من بعد، بل الأمر سيكون شورى، ويستقيم التعليم، وسيكون الملوك والأمراء أكفاء للحكم، وسيكون وارث الملك مقيداً بالشورى، وله امتيازات خاصة، والأمر بيد الأمة لا بيده هو، وسيكون لميراث الملك في بيوت الإمارة شروط وقيود لا بد منها، ولن يحصل بعد اليوم ما حصل في الأزمان الغابرة من الاقتتال على الملك، وإضعاف الأمة بالتفرق والاختلال والاضطراب.

إن لانحطاط الأمم سببين رئيسين: أحدهما الجهل المطلق، ثانيهما اختلال الحكومات، وقد منيت أكثر البلاد الإسلامية في القرون المتأخرة بذلك، وأول السببين أهمها، إذ لا سبيل لرقي الحكومات إلا برقي التعليم، ولقد تقدم في هذا التفسير أن كتب الإمام الغزالي أحرقت إبان القرن الخامس في بلاد الغرب، وبعد ذلك بقرن نفي ابن رشد وغضب الأمير عليه، ومن ذلك الزمان سقطت النهضة العلمية في بلاد الإسلام إلا قليلاً، وتبعها ضعف الحكومات، وغفلة الحكام، وقد حلم الله على هذه الأمم آماداً وآماداً، لعلمه أن هذا الحلم مع العزة والكبرياء أيقظهم اليوم إيقاظاً تاماً، فهاهم أولاء أقبلوا إقبالاً جدّياً على العلم، وقد قيّض الله للأمم الإسلامية كتّاباً ومؤلفين ومحرّرين يذكرونهم بمجدهم ويزيدونهم علماً، ومن معدّات النهضة المستقبلة في القريب العاجل هذا التفسير، فإن ما فيه من المعارف لو ألقي بعضه إلى تلك القرون الخالية التي كانوا فيها يمقتون الحكومة لنبذوه ظهريا، ولوسموا قائله بالإلحاد والكفر، ولكن الله عز وجل يعامل الأمم معاملة الإنسان الواحد، فهو في صغره لا يعقل العلم والحكمة، بل يهيم باللهو واللعب، فإذا بلغ سناً معلومة أدرك وفهم وعقل، فهكذا هذه الأمم نبذت العلوم أيام الطفولة، فهاهي ذه اليوم تتلقاها بشغف وشوق عظيم.

الله أكبر، هذا التفسير يتلقاه المسلمون في أقطار الأرض بشوق عظيم، وهذا يظهر لنا أن أهم السببين المتقدمين لانحطاط الأمم أخذ يزول، وكيف يبقى الجهل والشوق للعلوم في ازدياد، إن الأمم الإسلامية ستعمم التعليم عاجلاً، ولن يبقى إلا السبب الثاني وهو ضعف الحكومات، وقد قدمنا أن ضعفها من لوازم الجهل، ولقد أثبتنا أن الجهل آخذ في الزوال، وأن العلم آخذ في الازدياد، وستصلح الحكومات على أثر ارتقاء التعليم، وذلك كله راجع لأمرين: أحدهما الكبرياء والعزة المذكوران في الآية اللذان يترتب عليهما اضطراب الأمم أجيالاً حتى تدرك خطأها. ثانيهما: التربية بالحكمة التي ظهرت بوادرها بعد أن فعلت الكبرياء فعلها، فالكبرياء والعزة في مقابلة السبب الأول، والتربية والحكمة في مقابلة السبب الثاني.

إن الأمم الإسلامية في القرون المتأخرة لما أغفلت التعليم؛ وتلا ذلك أنها لم تكن حكوماتها منتظمة؛ أصبحت أشبه بالأنعام في مرابضها تسام الخسف، ولا تجد لها محيصاً من الذل، متى أعرض المرء عن الكمال بالتعليم أصبح عرضة أولاً لذوي الأهواء من رجال الدين، والجاهلين من الصوفية، وظلمة الحكام، سواء أكانوا من أهل الوطن والدين، أم من غيرهم، ويكون ارتقاؤهم وإسعادهم موقوفين على الحاكم، إن أراد الخير لهم نالوه، أو الشر ألزموه، ولكن الأمم المستنيرة الحرة تكون أشبه في عزتها بالحيوان في القفر، عزيز الجانب، مرهوب القوة، يسعى بجدّه كالأسد، والغزال في القفر، لا كالكلب والعنز في الريف والمدن.

إن الله يقطع مدده عن كل عضو لا عمل له، والعقول التي لا عمل لها يسخرها الله ويذلها للعقول العاملة المفكرة، وهذا هو السبب في أن هذه الأمم الإسلامية المتأخرة أصابها الذل وسلط عليها الظالمون من أممهم ومن أمم غيرهم. ونبذة من ملخص تاريخ الأندلس تريك برهاناً على ما تقدم، فهاك ما جاء في كتاب تاريخ العرب في الأندلس وهذا نصه:

مما شيد عظمة الدولة الأموية الفتوحات الإسلامية لذلك العهد التي جعلت للإسلام عالماً مترامي الأطراف نشر فيه مدنية وعلماً وديناً جديداً، ونقصر الكلام هنا على ما كان من فتح الأندلس وإذا ما راجعنا ما تقدم نجد أن الحوادث مكنت العرب من الاستيلاء على الأندلس. ويرجع فضل ذلك إلى جرأة طارق، وإقدام موسى بن نصير، ثم لا نلبث أن نرى عودة هذين القائدين، ومصير الأندلس إلى الولاة، وكان خروج موسى عام ٩٦ هجرية، واستمر حكم الولاة حتى عام ١٣٨ هـ، وفي تلك المدة الوجيزة تعددت الحوادث الهامة.

ومما يلفت الأنظار، تعدد الولاة وظهور العصبيات، وهذه عادة العرب إذا ما استقر بهم الفتح وقعدوا عن الحرب والقتال، مما يؤدي حتماً إلى تفرق الكلمة وضعف القوة، ثم نرى ما كان بين العرب وحلفائهم أهل المغرب الذين ساعدوا بكل ما استطاعوا في فتح الأندلس، وكان جزاؤهم سوء معاملتهم، ففقد العرب بذلك أنصاراً أشداء مخلصين، وهذا دليل واضح على ضعف الحكمة السياسية من جهة العرب خاصة، وكان عهدهم حديثاً بتلك البلاد البعيدة عن مقر الخلافة الإسلامية.

كان من الطبيعي أن تؤدي تلك الحال إلى الفوضى والتوارث الداخلية، وليس أدلّ على ذلك مما كان من أمر صميل وأبي الخطار، وثورة جند الشام، ومصير الإمارة إلى يوسف بن عبد الرحمن الفهري. ثم كان ما كان من ظهور عامر وحباب وغيرهما من القرشيين، وانقسام الناس على بعضهم، مما جعل المؤرخين يقولون: إن سلطان الدولة الأموية كان ضعيفاً على بلاد الأندلس، أو عديم الوجود، وما كان للأمويين في آخر سنيهم بالمشرق أن يعيروا الأندلس أي اهتمام لما أحاط بهم بالمشرق من ظروف.

وبينما كانت الأندلس تسير في حالتها هذه، دبر الأمويون بها نقل الإمارة إلى أميرهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، واستعانوا بجند اليمن، وبعض البربر، ودخل عبد الرحمن الأندلس، وانتصر على يوسف وصارت له الإمارة، فشيد ملكاً للأمويين، دام ثلاثمائة من السنين، ويقسم بحسب حالته إلى عصر التأسيس، ويشمل حكم الداخل وابنه هشام والحكم بن هشام، وظهر كل منهم بمظهر الحزم والقوة فيما أحاط به من ظروف، فترى الداخل يخضع الثورات بقوة السيف ويغزو الشمال حيث كان المسيحيون، وتطلبت إليه الظروف أن يبني ملكاً على حكم استبدادي، المكانة الأولى فيه للسيف، وتبعه على سياسته من خلفه، ولما كان هذا النوع الحكومي لا يتفق مع أهواء العرب؛ نرى أنهم كانوا يخضعون صاغرين مادام السيف مشهوراً، وإذا ما أغمد ثاروا، وعملوا على استرجاع حرياتهم.

تعددت الثورات في عصر الداخل نفسه، وتآمر عليه بعض رجاله وأهله، ولكنه انتصر عليهم وأهم ما نجده في عصر هشام وابنه الحكم ما كان من دخول مذهب مالك بلاد الأندلس وانتشاره فيها، مما أدى إلى تطلع الفقهاء إلى زعامة سياسية تتفق مع منزلتهم الدينية، وزوال أيام الداخل واستبداده ساعدهم على ذلك، فاتخذوا من حلم هشام وطيبة خلقه فرصة، ولما كان عصر الحكم ولم يسمح لهم بشيء مما أرادوا قاد يحيى بن يحيى، وعيسى بن دينار، وغيرهما طلبة العلم، وحرضا

الغوغاء على الثورة، فقامت فتنة كادت تسقط إمارة الحكم، ولكنه انتصر بقوته، وعاقب الخارجين شديد العقاب.

وبموت الحكم بن هشام، وانتقال الإمارة إلى ابنه عبد الرحمن الثاني يبدأ عصر ضعف يتناول حكم محمد بن عبد الرحمن، ثم المنذر وعبد الله ولدي محمد بن عبد الرحمن، وكاد ذلك العصر ينتهي بسقوط ملك الأمويين بالأندلس، وأسباب ذلك الضعف ترجع إلى:

(١) اشتغال عبد الرحمن عن ملكه بتجميل قرطبة وتركه سياسة البلاد ليحيى بن يحيى والسلطانة طروب، ونصر الخصيّ، فتسربت الفوضى إلى البلاد، فأدرك ما كان من خطئه، وأسرع إلى إصلاح ما فسد.

(٢) وفي عهد محمد بن عبد الرحمن الذي أصبح أميراً على الأندلس على حسب رغبة الخصيان والموالي بقصر الخلافة، كره الناس الإمارة لسوء سياسة الأمير، وموقفه هذا من شعبه شجع بعض الأقاليم على الخروج، فاستقلت طليطلة نظير مبلغ من المال تدفعه سنوياً، وما لبث أن بسط موسى الثاني نفوذه على أرجونة والأقاليم الشمالية، وكان ذلك بمساعدة الفونسو الثالث، ولا شك في أن تدخل المسيحيين في أمر المسلمين كان له أثر سيئ للغاية، كما أن استنجاد المسلمين بالمسيحيين يدل على عدم ارتباط المسلمين ببعضهم، ثم تمكنت ماردة من إحراز انفصالها عن إمارة قرطبة، وهذه الحال بتلك البلاد شجعت ابن حفصون بإقليم ريا على مقاتلة الإمارة الإسلامية، ولقد سببت حروبه ضعفاً شديداً لها، ونتج عن ذلك كله أن سقطت هيبة الإمارة.

(٣) كانت إمارة المنذر أقصر من أن تدفع شراً، أو تعيد إلى الإمارة عظمتها الأولى، ولما آل الملك إلى عبد الله بن محمد ساءت الحال جداً، قامت العصبيات، وبلغ ابن حفصون وأمثاله قوة عظيمة، وعمل أمراء العرب إلى الانفصال عن الإمارة، فعمت الفوضى، وأصبح ملك الأمويين على قاب قوسين أو أدنى من السقوط. وفي هذه الحال مات عبد الله بن محمد وخدم بلاده أجلّ خدمة إذ أفسح المجال لحفيده عبد الرحمن الناصر.

بدأ الناصر عصر عظمة الأندلس، واستمر العصر الذهبي مدة الناصر، والحكم الثاني المستنصر ومدة حكم المنصور بن أبي عامر وولديه عبد الملك المظفر وعبد الرحمن المأمون، وفي ذلك العصر خلقت الأندلس خلقاً جديداً، تبدل ضعفها إلى قوة، فأخضعت الثورات، وأعيدت الولايات المستقلة إلى الطاعة، وسارت الجيوش إلى بلاد المسيحيين شمالي الأندلس، وأذلتها، ولم ينل منها الفاطميون مأرباً، وسارت البلاد في طريق الحضارة والعمران خطوات سريعة، وإذا كان المنصور بن عامر وصل بالبلاد إلى درجة عظيمة من القوة والمجد، فإنه أساء إلى الأسرة الأموية بطعنها طعنة نجلاء في صميم فؤادها، وذلك بما كان من أمره مع هشام الثاني حفيد الناصر، وتمهيد الحكم لولديه الواحد بعد الآخر، فلما عجز ثاني الولدين عبد الرحمن المأمون أن يسير بالبلاد سيرة أبيه قتل، وانتقلت البلاد إلى عصر يعرف بعصر الفوضى.

(٤) وعنوان العصر كاف للدلالة على سير الحكم الأموي بالأندلس إلى سقوطه الأخير، ومميزات هذا العصر :

أ ـ تنافس الأمراء من أحفاد الناصر وأعقابه على الخلافة، واستعانة بعضهم على بعض بالمسيحيين، وكانت تلك الحال خير فرصة لهؤلاء.

ب ـ انتقال النفوذ من يد الخليفة إلى الوزراء وقواد الجند الذين سعوا لإدراك أغراض شخصية ولم يهتموا بأمر الخلافة أقل اهتمام، فساعدوا بذلك على تهديم ما تبقى من الخلافة.

ج ـ ظهور دولة بني حمود بمالقة وانتقال الخلافة إليها، وصارت لعلي بن حمود أولاً، ثم لأخيه القاسم بن حمود، ثم ليحيى بن علي بن حمود، ثم للقاسم ثانية، ثم ليحيى لثاني مرة، ولكنهم لم يفلحوا بالاحتفاظ بالخلافة.

د ـ بداية عودة الإمارات إلى الانفصال عن قرطبة، وإعداد الطريق لقيام حكم ملوك الطوائف ففي عهد المستعين المرواني اقتصرت سلطة الخلافة على قرطبة وثلاث مدن حولها، ثم كانت خلافة المرتضى، ثم المستظهر، ثم المستكفي، ثم هشام الثالث، ثم أمية، وضعف أمرهم أدى بالناس إلى التفكير في إسقاط الأسرة الأموية نهائياً، وقام بذلك زعيم من قرطبة يدعى ابن جهور.

(٥) ولا بد أن نضيف إلى ما تقدم من أسباب ما كان من موقف المسيحيين العدائي نحو الإسلام، وعملهم المتواصل على استخلاص البلاد من أيديهم، وانتهاز كل فرصة ممكنة لإسقاطهم وطردهم، ويقول لينبول: إن من شر ما ارتكبه العرب من خطأ إهمال أمر المسيحيين من بدء الأمر.

(٦) ونختم جملة الأسباب بما كان من تغير كلي للأخلاق العربية، مما أدى بهم إلى نسيان شجاعتهم وعدم التمسك بدينهم والانغماس في الترف والنعيم، والكيد لبعضهم، وقعودهم عن نصرة بعضهم لبعض، لم يغن قيام حكم ملوك الطوائف شيئاً، كثرة عددهم دل على ضعفهم وصغر ملكهم، وتنافسهم أدى إلى حرب متواصلة بينهم ذهبت بريحهم، وكانت حالتهم خير أمنية للمسيحيين الذين استولوا على البلاد، وفرضوا الجزية على الإسلام، وأذلوا الناس، وكان خلاص المسلمين على أيدي المرابطين لزمن محدود. ثم كانت دولة الموحدين ولم تعمر طويلاً، وفي آخر عهد الإسلام بالأندلس اقتصر الأمر على دولة بني الأحمر بغرناطة، فشيدت أثراً باقياً، ومجداً دوّنه لها التاريخ، فقاتلت وصبرت وانتصرت حتى انتابتها الفتن الداخلية، وكانت المسيحية وصلت إلى عظمة قوتها على يد « فردناند » و« ايزابلا »، فأسقطا المعقل الأخير من المعاقل الإسلامية. وبادت دولة الإسلام بهذه البلاد بعد أن قامت بأجل الخدمات للمدنية والحضارة والعلم والعمران، وكل المؤرخين على اختلاف جنسياتهم يشهدون لها بذلك. انتهى ما أردته من كتاب « تاريخ العرب في الأندلس » تأليف الأستاذ حسن أفندي مراد، والحمد لله رب العالمين.

بأمثال هذا التقرير ترقى أمم الإسلام، وبه تعرف بعض أسرار آي القرآن، لا سيما أسماء الله الحسنى المذكورات في ثنايا آي القرآن. ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[النور:٤٦].

انتهى الفصل الخامس.

الفصل السادس

في أن نظام دالتون في التعليم الذي تقدم في الفصل الرابع
هو نفسه الذي صنعه الله في أرضه قبل خلق العالم كما ستراه الآن في هذا المقام

بهجة العلم في هذه الآيات:

﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الخ

اعلم أن هذه المعاني التي تقدمت في الفصول السابقة تتضمنها الصلاة، ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الجاثية: ٣٦] تتضمنه أول الفاتحة: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، وقوله: ﴿ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[الجاثية: ٣٧] الخ يذكر به تكبيرة الإحرام وتكبيرات الركوع والسجود والرفع منه، والتكبير ٣٣ مرة عقب كل صلاة.

هذا ما أردت بيانه في هذا المقام تفسيراً لآيات: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾[الجاثية: ٣٦] إلى آخر السورة، والحمد لله رب العالمين. انتهى في ليلة الجمعة الساعة العاشرة يوم ٢٧ فبراير سنة ١٩٣١م.

نفحة في صلاة الصبح يوم الجمعة ٦ مارس سنة ١٩٣١م

بيان الكبرياء والعزة أيضاً مع التربية في السماوات والتربية في الأرض وتربية العالمين المصحوبة بالحكمة

أحمدك اللهم على نعمة العلم والحكمة والعرفان، قرأت اليوم في صلاة الصبح أول سورة « طه »، وأخذت أردد الآيات لفهم معناها، فلك الحمد اللهم ولك الشكر على ما أنعمت به علينا من الفهم، ذلك أننا أصبحنا نرى نظام نفس الأرض وتاريخ حياتها يضارع في تصاريفه وتاريخ أحواله نظام الدراسة في المدارس على أحدث الطرق ونظام الفرد الكامل في حياته أيام الطفولة وأيام الشباب وأيام إفاضة العلم على غيره وإشراق أنواره على الناس في هذه الأرض.

جاء في قصة موسى، أن الله يقول:

(١) ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾[طه: ١٤]، ولا جرم أن هذه عبارة عن ظواهر الإسلام وعن بواطنه وهو التفكر، فالتوحيد والعبادة والصلاة المذكورات في هذه الآية هي من ظواهر الإسلام وباطنه، والمقصود منها هو الذكر، كما يقول تعالى في سورة «آل عمران»: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[الآية: ١٩١] فالتفكر بعد الذكر، لأن الذكر باللسان يحرك القلب للفكر، وإلا فجدواه قليلة، والذكر هنا في سورة « طه » لوروده بعد ظواهر الصلاة يرجع للفكر في السماوات والأرض وعجائب الصنع، لأن ظواهر الذكر تضمنتها الصلاة التي هي عبارة عن أقوال وأفعال، ومن الأقوال الذكر اللفظي، إذن قوله تعالى: ﴿ لِذِكْرِىٓ ﴾[طه: ١٤] هنا يراد به معرفة الحقائق المقابلة للتفكر في سورة « آل عمران » كما قدمناه.

(٢) حديث الله مع موسى إذ أمره بإلقاء العصا، فألقاها فصارت حية، فخاف موسى، فقال الله له: ﴿ لَا تَخَفْ ﴾[طه: ٦٨]، وأعادها لحالها الأولى كرة أخرى.

(٣) تبيان أن هذه الحادثة التي جرت بين الله وموسى نموذج لثلاث حوادث، كلها كان فيها الخوف أولاً والسلامة آخراً. وبعبارة أوضح: إن حديث موسى مع ربه وخوفه أولاً وسلامته آخراً نظير:

أ ـ لما حصل لأمه إذ ألقته في التابوت، وألقت التابوت في اليم، واليم ألقاه بالساحل، وأخذه العدو، والعدو صار حبيباً له، وقيل لها: ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ ﴾[القصص:٧] فقوله: ﴿ لَا تَخَافِي ﴾[القصص:٧] في مقابلة: ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ﴾[طه:٢١]، وقوله: ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ ﴾[القصص:٧] في مقابلة: ﴿ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴾[طه:٢١].

ب ـ ونموذج لما حصل له في قتله القبطي: ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾ [طه:٤٠]. ويقول شعيب لموسى لما ورد ماء مدين وسقى لابنتيه وقص عليه القصص: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[القصص:٢٥]، وذلك أنه لما جاء له رجل من أقصى المدينة يسعى قال: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[القصص:٢٠-٢١]، فهاهو ذا وهو خارج من أرض مصر كان خائفاً، ودعا الله أن ينجيه من القوم الظالمين، ولما توجه تلقاء مدين وقابل شعيباً قال له: ﴿ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[القصص:٢٥]، إجابة للدعاء الذي دعا به أولاً وهو خارج من أرض مصر.

ج ـ ونموذج أيضاً لما حصل بينه وبين السحرة إذ أجمعوا كيدهم ثم أتوا صفاً، وألقوا حبالهم وعصيهم، فخيل إليه من سحرهم أنها تسعى، فأوجس في نفسه خيفة موسى فقال له الله: ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ ﴾[طه:٦٨-٦٩].

عجب يا رب من هذا الكتاب المقدس وهو القرآن، خوف من العصا إذ صارت حية فأرجعتها له سيرتها الأولى فذهب الخوف، وخوف أم موسى عليه إذ ألقته في اليم، فأزلت خوفها وبشرتها بنجاته، وخوف موسى من أن القوم يقتلونه فنجيته من الغم، وخوفه من حبال القوم وعصيهم إذ خيل إليه أنها حيات، فألقى عصاه فتلقفت ما يأفكون.

هاهنا حوادث ثلاث: حادثة أمه، وحادثتاه، كلهن على نمط واحد، ويجمعها كلها مثال واحد وهو أنه ألقى عصاه فصارت حية، فأمرته بعدم الخوف، وأرجعتها إلى حالتها الأولى. أليس هذا يا رب من العجب! عجب صنعك! وعجب كتابك!

يا رب أنت هذا فعلك، وهذا قولك، إنك أريتنا هذه الوقائع في نظام أرضنا لأنك تربي السماوات وتربي الأرضين، وتربي العالمين.

هاهي ذه أرضنا التي هي أقرب إلينا ألفينا تربيتها على نظام هو نفسه نظام حياة الفرد الشريف العظيم كموسى عليه السلام وكجميع المصلحين في الأرض، لأنهم من العالمين الذين تربيهم، أليس نظام الأرض أنها تحدث فيها الحوادث العظيمة كالزلازل والبراكين والصواعق والخسف ـ وهذا شرحناه قريباً في نفس هذا المقام ـ فيكون الذعر، ويكون الخوف، وتبلغ القلوب الحناجر، ويظن الناس بالله الظنونا، فماذا يحصل بعد ذلك؟ يحصل أن البراكين:

(١) يعقبها حدوث أرض زراعية جديدة لا نظير لتربتها للزراعة ولا تحتاج إلى سماد.

(٢) ويعقبها منافع معدنية كالكبريت الذي ذكرناه آنفاً الخارج من أحد البراكين واشترته شركة أمريكية بألف ألف جنيه لمنافع الناس، وهكذا نرى إيطاليا تستعمل حرارة البراكين لمنافع عظيمة أخرى إذ بها تدير آلات لمصالح الحياة العامة كما تقدم في غير هذا المكان.

(٣) ويعقبها حدوث جزائر وجبال، وقد تحدث قارات في مئات الآلاف من السنين، فالزلازل والبراكين ونحوها تحدث خوفاً لنوع الإنسان وذعراً شديداً، فيقول الله للناس: يا عبادي، لا تخافوا هذه كعصا موسى، ألقاها فصارت حية، فخاف، فرجعت إلى حالها، فالخوف إنّما أبدعته في نفوسكم ليكون المران على الصبر، وبغير الصبر لا علم ولا سعادة، صبرت أم موسى، وربطت على قلبها لما فارقها، وهكذا علمت موسى الصبر لما خاف من العصا وقد صارت حية، إذ ألقاها بأمري، ليكون ذلك مراناً له على ما يحصل له، إذ يلاقي السحرة فيرى الحبال والعصي حيات، إن التربية يا عبادي هذا شأنها، فلتكن المشاق، ولتكن المخاوف أولاً، ثم لتكن القوة، وليكن السير في سبيل الحياة.

وذلك مثال لما يفعله من يعلم ابنه العوم، إذ يلقيه في اليم بلا آلة تساعده على العوم، فيجاهد بكل قوته حتى يتخذ له طريقاً خاصاً له، فهناك خوف، وهناك نجاة بعد الصبر، هكذا تربية المدارس على أحدث طريقة، وهي التي تقدم ذكرها عن «دالتون».

يذر الأستاذ تلميذه في ارتباكه وحيرته واضطرابه في حل المسائل العلمية، ويعينه معاونة إجمالية ويترك له التفصيل، ويعامله معاملة الله لموسى، ومعاملته للأرض في نظامها، فكما أن الأرض تضطرب اضطراباً شديداً حتى يظن الناس أن القيامة قامت بما يثور من براكينها، وبما يحدث من زلازلها، فيعقب ذلك حياة جديدة بتربة جديدة نافعة جداً، أو بجبل أو بجزيرة، أو بمنافع أخرى، وهكذا موسى خاف من عصاه لما صارت حية، وعلم الصبر على الخوف، وهذه الإخافة صارت له نعمة لما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم الخ، وصار ذلك مراناً له وقدرة، إذ قال موسى: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ [يونس: ٨١] الخ، ثم غلبهم، هكذا التلميذ في المدارس يضطرب في حل المسائل، والمعلم يذره يتخبط، ويفتح له الطرق ويذره، وتكون عاقبة ذلك قوة يكتسبها أيام عمله في المستقبل، إن آخر طريقة للتعليم هي التي وضعها الله في نظام أرضه العام، وهي التي وصفتها في تربيته لموسى عليه السلام، إذ أخافه ليكون ذلك الخوف مراناً على أعماله المستقبلة، وملخص ما تقدم في هذا الجدول:

	الكبرياء والعزة	تربية السماوات. تربية الأرضين. تربية العالمين. وأن الله حكيم في صنعه
تربية السماوات تربية الأرضين تربية العالمين	(١) الشمس كانت كرة غازية والأرض منها ثم بردت، وهذه مرسومة في سورة «فصلت». (٢) البراكين والزلازل والخسوف. (٣) خوف أم موسى عليه في اليم، وخوفه إذ ألقى عصاه فصارت حية، وخوفه من أن القوم ائتمروا به ليقتلوه. (٤) ترك الأستاذ تلميذه يبحث في مسائل العلم بنفسه.	(١) الأرض بعد أن برد ظاهرها صلحت لهذه المخلوقات (٢) ظهور جبال وتلال وجزائر وقارات ومعادن. (٣) كل ذلك مران له على ما قابله من المكاره بعد ذلك إذ ألقى السحرة الحبال والعصي الخ فألقى عصاه وبطل سحرهم. (٤) نجاح التلميذ في الابتكار والاعتماد على نفسه في العمل

إذن ما يلاقيه الناس في هذه الحياة مران لهم في نفس الحياة، أو في حياة أخرى، ألا ترى أننا مأمورون بالجهاد والموت في سبيل الله، إن في ذلك لمراناً لنا على ترك ما نألفه، وهذه الأرض مألوفة لنا، والموت إخراج لنا منها، والخروج من المألوف صعب، والله له عوالم غير هذه الأرض، ولا بد من أننا نرى عدله، وجمال صنعه فيها، وهل يتسنى لنا ذلك إلا بتركها، وهل تركها إلا الموت. فهاهنا تناقض، نحب أن نعلم جمال العوالم فوقنا، ونحب البقاء في أرضنا، ولكن الله الذي له الكبرياء في السماوات والأرض لا في الأرض وحدها التي نحن فيها يقهرنا على ترك المألوفات في نفس الحياة، وعلى ترك نفس الحياة وإن كرهنا ذلك، لأنه سيرينا إبداع صنعه في عوالمه الجميلة التي هي أرقى وأبهج وأبهى من أرضنا المتأخرة في أحوالها ونظامها عن غيرها.

تطبيق على ما تقدم من كبرياء الله وعزته مع تربيته لنا بالحكمة وذلك في تذكرتين

التذكرة الأولى: هي ما زاولته أنا في هذه الحياة.

التذكرة الثانية: في حديث سمكتين تتحاوران في ثقل ماء البحر عليهما، وكيف أخذ البخار يصعد إلى الجو لينقص الماء وما هو بناقص، وكيف صار بخاراً، ثم ماء في سحاب، ثم مطراً سقط على الجبل ويقي بعضه ثلجاً، فتراكم الثلج، فأخذ يتزلق من الجبل حاملاً معه صخوراً سائراً إلى البحر كرة أخرى فساقطاً فيه، فواضعاً تلك الحجارة أشبه بالبناء يقي ذلك السمك من ثقل الماء.

التذكرة الأولى

لقد ذكرت في هذا التفسير مراراً أنني في زمن الصبا عاهدت الله أنني إذا نلت من العلم واليقين حظاً نشرته بين المسلمين ليزول الشك من قلوب أذكيائهم، ولما نلت من العلم حظاً، وأتممت الدراسة بدار العلوم وعينت موظفاً بالتدريس، ونقلت من القاهرة إلى مدرسة الجيزة الابتدائية، هنالك أخذت أفكر فيما عاهدت الله عليه من التأليف، ولقد كانت الدروس تستغرق النهار كله، ولم يكن عندي من الليل ما يزيد على تحضير الدروس وإصلاح خطأ التلاميذ في كراريسهم، فعولت على أن أجعل يوم الجمعة مقسماً قسمين، فمن الصباح إلى قبيل صلاة الجمعة يكون عملي في التأليف، ومن صلاة الجمعة إلى الغروب يكون ذلك خاصاً بالرياضة في الحقول والرياض الناضرة والخلاء، ليكون ذلك الشطر للفكر وللجسم، فدمت على ذلك مدة. ثم إني يوماً قلت في نفسي: لأترك التأليف في هذا الأسبوع، ولأخرج في الخلاء من الصباح، فما كدت أخرج إلى شاطئ البحر حتى قابلني رجلاً أعرفه من القاهرة جاء إلى الجيزة ليشتري عجلاً من البقر ليذبحه في عيد الأضحى، فرافقته إلى سوق البهائم، وهناك تتصاعد الروائح الكريهة من أبوالها وأرواثها، ويسمع الإنسان عبارات السماسرة والمتبايعين، والحلف المتكرر، ورفع الأصوات، والجلبة في البيع والشراء، ولم أخلص من ذلك المأزق إلا وقت صلاة الجمعة، هنالك عرفت أن ذلك معناه ما يأتي: إنك طلبت الرياض الناضرة، والحقول الباهرة، والمناظر السارة، والحدائق الجميلة، تاركاً ما عاهدت الله عليه من التأليف، فهانحن أولاً عاقبناك فأرسلناك إلى سوق البهائم لتكون بين البقر والجاموس والحمير، ولتسمع ما لا تألفه، ولتشم

ما تكرهه، و ذلك ضد ما تطلبه على خط مستقيم، هنالك عرفت أن ترك التأليف في ذلك الموعد ذنب عوقبت عليه، فذلك راجع لكبرياء الله وعزته أولاً، وتربيته وحكمته ثانياً، ولله عاقبة الأمور.

ويتبع هذه التذكرة الأولى حديثان: الحديث الأول: إني قبل ذلك أي حين أردت أن أبتدئ فأكتب ما عاهدت الله عليه وأنشره بين المسلمين، أحاطت بي من المزعجات المنزليات والأحوال الداخلية ما آذاني وساءني، ومن عجب أني إذ ذاك خطرت لي خواطر عجيبة، فكنت أقول: أنا في المستقبل سأكتب لرقيّ الإسلام، ولا بد لكل عامل من حسدة وأعداء، فهذه المزعجات اليوم أحاطت بي، لأن من خلقي شدة الحياء، وسرعة التأثر، وهذه المزعجات تعطيني درساً به أتعلم الثبات في الأعمال النافعة، وأقول أيضاً في نفسي: هذا تدريب لنفسي على الثبات، وعدم التزلزل أمام الحوادث وفي تلك النوازل والحوادث والمزعجات أخذت أؤلف كتاب «جواهر العلوم» وكتاب «ميزان الجواهر» قائلاً للحوادث المنزلية: كلا. والله لا أنثني عن مطالبي ما دمت حياً. وبهذا تم الحديث الأول التابع للتذكرة الأولى.

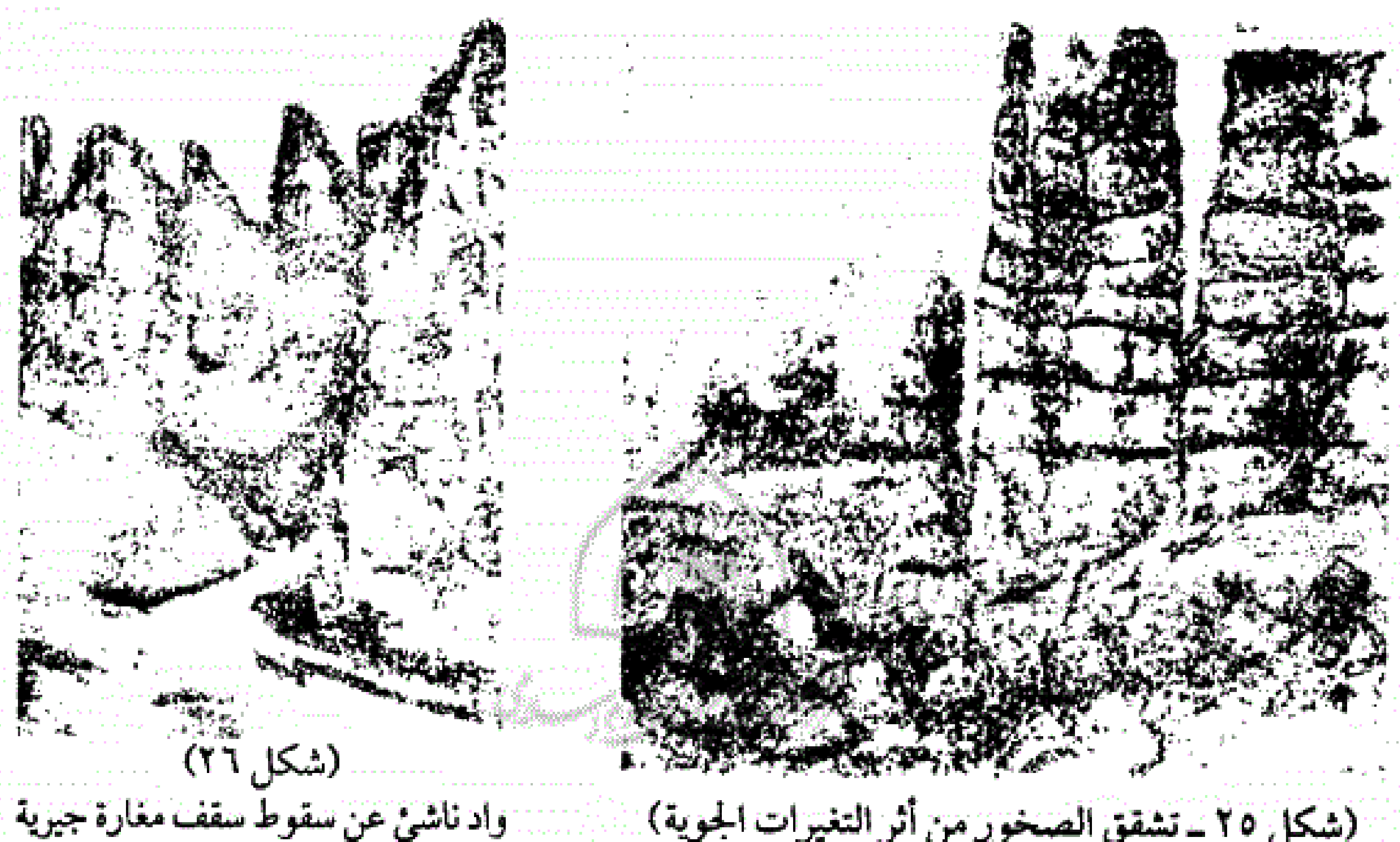
الحديث الثاني: إنني في أوائل طبع هذا التفسير أحاطت بي حوادث خارجية وهي مزعجة أشد من الأولى، فقابلتها بصدر رحب، ولم أدخر وسعاً في تذليلها، ومرت بسلام، ولم تعقني عن السير في التأليف والطبع، وكنت أجد المعونة من الله واضحة جلية ظاهرة.

التذكرة الثانية: حديث السمكتين

حدثنا الحارث بن همام. قال: ركبت في سفينة بخارية في لجج البحار العميقة، وقد قادها الربان بمهارة وإتقان، ولم أكن لأعتاد ركوب الأخطار، ولا مقاساة الأسفار، فما مضت ساعات حتى أغمي عليّ، وغبت عن حواسي، وخيل إلي أني في قاع المحيط، وأمامي آلاف السمك تتفرج علي وتدهش لمنظري، وقد أنطقهن الله، فصرن يتحدثن بأحاديث عجيبة، ومما أذكره أن سمكة منهن تسمى «سانده» وأخرى معها تسمى «مانده»، أخذتا تتسامران مسامرة أشبه بأقاويل الفلاسفة وعلم الحكماء. فقالت «سانده» لأختها «مانده»: حدثيني أيتها الأخت، إن ماء البحر يعلو فوقنا فوق ٢٠٠٠ ألفي قامة، وهذا الإنسان لا ثقل فوقه أكثر من (٧) قامات، لأن الهواء الجوي المحيط بهم ـ وإن كان عظيم الارتفاع ـ لا يزيد في ثقله على عشرة أمتار من الماء، وهي تساوي ٧٥ سنتيمتراً من الزئبق، نحن هنا في كرب شديد، فكيف نتحمل هذا كله، وهذا الإنسان في راحة بال لا يزيد الثقل فوقه عن ٧ قامات تقريباً، فأين السبعة وأين الألفان؟ إن هذا لهو البلاء. فقالت لها «مانده»: قومي ندعو الله نحن وبقية السمك في قاع المحيط عسى الله أن يخفف الأثقال عنا.

هنالك غابت السمكتان عني، ثم رجعتا بعد مدة، وأخذت «سانده» تقول لأختها: إن الله استجاب دعاءنا، وهاهو ذا أخذ يخفف العبء عنا، فإن المحيط أخذ يبخر، وهذا البخار يقلل الماء من فوقنا، فاستغرقت إذ ذاك «مانده» في الضحك، وقالت لها: ما الذي يرفعه البخار من الماء؟ إن هو إلا نزر يسير، فقالت لها «سانده»: إذن أين إجابة الدعاء؟ فقالت لها «مانده»: عجب لك! إن الله له الكبرياء والعزة، ففعله لحكمة، ولا بد من الصبر حتى نفهم كيف استجاب الدعاء، ألا ترين أن

العنكبوت تخرج من جسمها خيوطاً فلا يدري العاقل لماذا تخرج، وبعد حين يظهر أنها شبكة لصيدها ومنزل لسكناها. فقالت لها « سانده »: علميني مما علمك الله. فقالت لها « مانده »: إن البخار يذهب إلى الجو ويصل إلى الطبقة الباردة فيصير ماء ثانياً ولكنه خال من الملح، ثم يصير سحاباً، فيسوقه الهواء الذي تكون الحرارة والبرودة بسببه، ذلك أن الحرارة تمدد الأجسام والبرودة تكمشها، والصخور بتوالي الليل والنهار، وتعاقب الصيف والشتاء تتمدد وتنكمش، وينشأ عن ذلك تشققها بشقوق رأسية طولية وعرضية، فإذا كانت الصخور طبقية أصبحت كالطوب المرصوص بغير ملاط مستعدة للانهيار (انظر شكل ٢٥)، فلا تلبث أن تتسلط عليها عوامل الطبيعة من الماء والثلوج فتمزق شملها وتجرفها.



(شكل ٢٥ ـ تشقق الصخور من أثر التغيرات الجوية)

(شكل ٢٦)
واد ناشئ عن سقوط سقف مغارة جيرية

آثار المطر في التعرية

في شكل (٢٦) وادٍ عميق كان فيما مضى كهفاً من الكهوف الجيرية التي وصفنا لك طريقة تكوينها بسبب ذوبان الصخور بفعل ماء المطر، وقد رقّ سقف الكهف وسقط فكشف الوادي كما تراه.

وتأثير ماء المطر بهذه الكيفية في الصخور الجيرية تأثير كيميائي ناشئ عن التأثير الحمضي لهذا الماء، بسبب ما يمتزج به من غاز حامض الكربونيك في أثناء سقوطه في الهواء، ويؤثر المطر في الصخور بطريقة أخرى، وذلك بتكرار لطمها، وتمزيقها، وتشتيت مادتها. وتتشرب الصخور أحياناً ماء المطر، ثم تجف، ويتكرر التشرب والجفاف فتتراخى وتصبح عرضة لجرف المياه الجارية كما سترينه مفصلاً في عمل الأنهار.

فقالت سانده لمانده: أنا الآن لم أعرف إجابة دعائنا، فإنك أيتها الأخت لم تذكري لي إلا أن الحرارة والبرودة تؤثران في الصخور فتمزقها، وأن المطر الذي من بخار البحار يؤثر بطريقة أخرى، ولكن هذا كله فوق وجه اليابسة التي خلق فيها هذا الإنسان، ولكن أين إجابة دعائنا بتخفيف الضغط عنا؟ فقالت لها « مانده »: ألم أقل إنك لن تستطيعي معي صبراً، فاصبري حتى تفهمي، لأن العلم

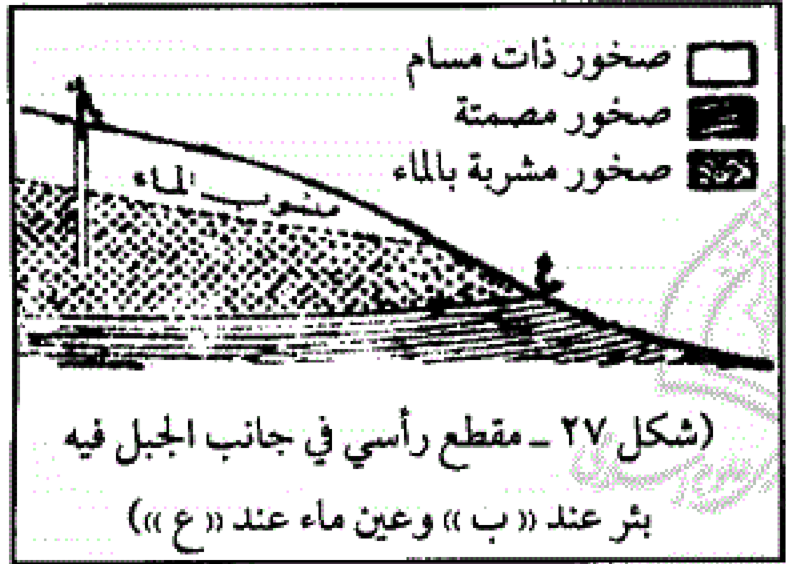
يعوزه الصبر، ولا علم بلا صبر، ولا سعادة بلا نصب، وأعلى السعادات سعادة الحكمة والعلم.
فقالت: فحدثيني إذن. فقالت «مانده»:

نشأة الأنهار

إنها تنشأ من تضاريس صغيرة في وجه الأرض الحديثة، هذه التضاريس تعين اتجاه سير المياه، ومتى تعين مرة أصبحت مسالكه متبوعة، وأمعنت المياه في الأرض نحتاً وتعميقاً حتى يكمل تنسيق حوض النهر.

العيون والآبار

بعض صخور القشرة الأرضية ذات مسامّ ينفذ فيها الماء، وبعضها مصمتة لا ينفذ فيها، فالقلة في الطبق ترشح فيه لأنها من الفخار، وهذا له مسامّ، ولكن الطبق يحفظ الماء ولا يرشحه لأنه مصمت فإن رشحت القلة حتى امتلأ الطبق وفاض سال الماء على جانبي الطبق، فهكذا تتفجر العيون والينابيع على جوانب الجبال، إذ ينفذ بعض ماء المطر من المسامّ والشقوق حتى تحجزه طبقة مصمتة، فإذا ملأ تجويف هذه الطبقة وفاض نشأت العيون والينابيع وفي شكل (٢٧) مقطع رأسي في جانب الجبل يسيل منه الماء عند (ع) والصخور التحتية مصمتة كالصلصال، والفوقية ذات مسامّ كالجير، وقد تشربت هذه الصخور بالماء إلى الارتفاع المشار إليه بعبارة «منسوب الماء»، فإذا حفرت بئر عند (ب) وعمقت إلى ما تحت منسوب الماء أمكن استخراج الماء منها بالدلو أو بالمضخة. وهاك صورته:



(شكل ٢٧ ـ مقطع رأسي في جانب الجبل فيه بئر عند «ب» وعين ماء عند «ع»)

الآبار الارتوازية



(شكل ٢٨ ـ نظرية الآبار الارتوازية)


(شكل ٢٩)
منظر بئر ارتوازي

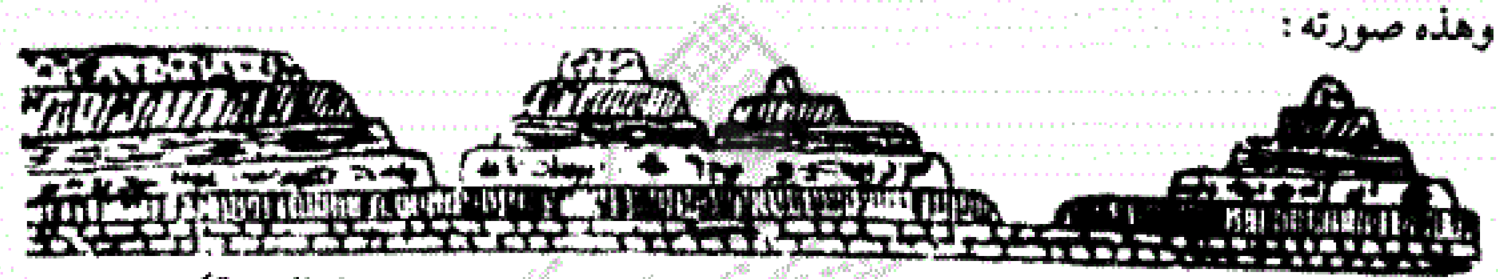
في شكل ٢٨ طبقة من الصخور ذات المسامّ (ب) محصورة بين طبقتين من الصخور المصمتة (أ) و(جـ)، والطبقات كلها ملتوية مقعرة، وللطبقة (ب) حافتان على وجه الأرض تقع عليهما الأمطار فتملأ صحن هذه الطبقة، بحيث لو ثقبت الطبقات التي فوقها بحفر بئر في وسطها يخرج الماء من تلقاء نفسه ويملأ الحوض، وهذه الآبار الارتوازية عظيمة الأهمية في ريّ الجهات البعيدة عن الأنهار والترع.
(انظر شكل ٢٩).

حفر المجرى وتوسيع الوادي


(شكل ٣٠ ـ واد عميق ضيق)

تحفر الأنهار مجاريها وتنحت الوديان، فإذا مرّ النهر بجهات عديمة الأمطار، حيث لا يمكن أن يتزوّد بنهيرات تمزّق جدران الوادي وتساعد في توسيعه، ينحت النهر وادياً غائراً يسمى خانقاً مثل خانق نهر كلورادو، وترى صورة مثل هذا الخانق في شكل (٣٠). وفي الجهات الأخرى تمزّق الأمطار والسيول والنهيرات جدران الوادي، وتجرف الصخور إلى مجرى النهر فينقلها إلى حيث يشاء، وبذلك تتكون الوديان العريضة، ولكل نهر واد قد كوّنه بنحت الصخور المجاورة لمجراه.

وقد عرفت أن الهضبة الحديثة إذا انسابت فيها الأنهار شققتها بالوديان تاركة سلاسل جبلية كالجدران تفصل الأحواض المختلفة، ويبين شكل (٣١) تكوين الوديان العريضة والجبال المتخلفة. وهذه صورته:


(شكل ٣١ ـ تحول الهضبة إلى وديان وسلاسل جبلية بفعل عوامل التعرية)

وفي عمق خانق كلورادو دليل على مقدار ما يستطيع الماء نحته رأسياً في الصخور، فإن حافة الصخر مرتفعة عن سطح الماء هناك بأزيد من ميل، فلو أضفت إلى ذلك ما يحتمل أن تعمله الأمطار والنهيرات على جانبي النهر من توسيع الوادي، وخاصة إذا كانت الصخور رخوة أمكنك أن تتصوّر كيف يتسنى للأنهار الصغيرة أن تنحت لها ودياناً عريضة منبسطة.

دورة التحات

تتشقق الهضبة الحديثة إذا انسابت فيها الأنهار فتتحول إلى وديان تفصلها الجبال المتخلفة، ثم لا تزال الأنهار تنحت في صخور هذه الجبال حتى تأتي على آخرها فتعود الهضبة مسطحاً واحداً مستوياً كما بدأت ويسمى هذا النوع من السهل سهلاً منحوتاً، وهو ينحدر عادة انحداراً خفيفاً تجاه الساحل، ويبين شكل ٣٢ دورة التحات في درجاتها الثلاث.

(أ) سطح البحر
(ب) سطح البحر
(ج) سطح البحر

(أ) هضبة حديثة
(ب) الهضبة بعد التضاريس
(ج) السهل المنحوت
(شكل ٣٢)

سرعة الجريان وشدة التحات

كلما كان التيار شديداً ازداد فعل النهر في التعرية ، وازداد تحات الصخور ، لذلك نجد تخريباً عظيماً في الصخور عند المنابع ، حيث يكون الانحدار شديداً والمجرى حديثاً ، إذ تتمزق كتل صخرية فيجرفها الماء ، وتتلاطم فتتفتت وتحتك بعضها ببعض وبالمجرى ، وقد ترقد بعض الحجارة في حفر فلا يستطيع الماء أن يخرجها منها ، ولكنه يقلبها على كل جانب ، ويصقل سطحها ، فتتكوّن منها الجلاميد « الزلط » المعروفة لنا ، أما الحفر فتتعمق ويكون لها أشكال وعائية غائرة ، ويوضح شكل ٣٣ الحفر الوعائية في حوض نهر آر بسويسرة وهذه صورته :



(شكل ٣٣ ـ الحفر الوعائية في حوض نهر آر بسويسرة من أثر رقود الجلاميد)

مساقط المياه والشلالات

(١) بين أسوان والخرطوم ستة شلالات مشهورة ، والسبب في تكوينها وجود طبقات جرانيت صلبة تتخلل الطبقات الرخوة التي يجري عليها النهر ، فتتحات الطبقات الرخوة أكثر من الطبقات الصلبة وتظهر الشلالات على شكل صخور وجزائر تعترض مجرى النهر ، والجزء الأول من شكل ٣٤ يوضح ذلك .



(شكل ٣٤ ـ أسباب وجود الشلالات ومساقط المياه)

(٢) ومن مساقط المياه المشهورة في الدنيا مساقط مياه فكتوريا على نهر زمبيزي، حيث يهوي الماء من علوّ ٤٠٠ قدم، ومساقط مياه نياجرا حيث يسقط الماء من ارتفاع ١٧٠ قدماً، والسبب في تكوين مساقط المياه وجود طبقات رخوة تحت الطبقات الصلبة، فتتحات الطبقات السفلى بفعل الماء، ثم تتداعى الطبقات التي فوقها بزوال دعامتها، وهكذا يزداد علو المسقط ويتراجع من مكانه صاعداً نحو أعلى النهر، والجزء الثاني من شكل ٣٤ يوضح ذلك.

(٣) وقد تنشأ مساقط المياه عن وجود عيب في الطبقات يترتب عليه مسقط طبيعي في الصخور.

(٤) كما تنشأ عند ملتقى نهير مجراه أعلى من مجرى النهر الأصلي.

(٥) وكذا عند تغير نوع صخور القشرة من نارية صلبة إلى رسوبية رخوة.

المنعطفات والبحيرات المقتطعة

في أدنى المجرى يضعف التيار ويبطؤ سير النهر فيغير مجراه إذا اعترضته الصخور، ولا يخفى أن الماء يحتّ في المجرى، ويحمل الغرين، ويحتفظ به ما دام التيار سريعاً، ولكن إذا ضعف التيار تنعكس الحال ويغلب الترسيب، والنهر المستقيم تياره في القلب أعظم منه في الجانبين، لكن تختلف هذه القاعدة عند المنعطفات، فإن التيار يكون بالغاً أشده في المنحنى الظاهري، ويكون في أضعف أشكاله في المنحنى الباطني، فينشأ عن ذلك نحت وجرف في الأول ـ حيث تكون المرتفعات عادة ـ وترسيب وردم في الثاني ـ حيث تكون الأراضي الواطئة ـ ولا يزال المنعطف في ازدياد حتى يستدير ويجد النهر سبيلاً لاجتيازه أخيراً في اتجاه مستقيم، فيترك بحيرة مقتطعة على شكل الهلال. وفي شكل ٣٥ منعطفات المسيسبي الأدنى والبحيرات المقتطعة. وهذه صورته:

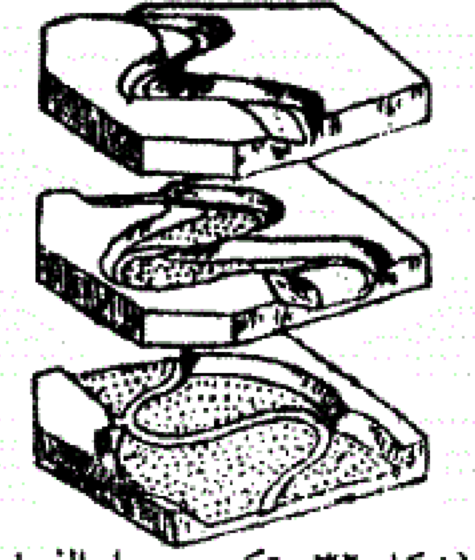


(شكل ٣٥)
منعطفات نهر المسيسبي في أدنى مجراه

سهل الفيضان

ينتج من عملي النحت والترسيب عند المنعطفات تكوين سهل فسيح في أواسط مجرى النهر وأدناه كما ترى في شكل ٣٦.

وهذا السهل عادة قليل الارتفاع عن البحر، وسير النهر فيه بطيء، فيرسب الغرين في قراره ويرتفع القاع، فإذا جاء زمن الفيضان لسبب إقبال موسم الأمطار، أو ذوبان الثلوج، تعرضت الأراضي المجاورة لخطر الغرق إذا لم تكن الجسور قوية، وإذا غمر الفيضان الأراضي رسبت عليها طبقة من الغرين تجعلها فائقة الخصب، والقطر المصري مثال من سهول الفيضان، وكذلك حوض نهر هوانهو المتكون من



(شكل ٣٦ ـ تكوين سهل الفيضان)

الغرين الأصفر في بلاد الصين، وقد تغلب هذا النهر الأخير على جسوره مراراً فغير مجراه، وسبب الكوارث، ونقل مصبه أخيراً من البحر الأصفر إلى خليج بتشيلي.

وينشأ فيضان النيل عن الأمطار الموسمية التي تسقط على الحبشة في الصيف، ويظهر الفيضان في مصر بوضوح في شهر سبتمبر من كل عام، وقد حسب أن الأراضي الزراعية في مصر قد ارتفعت في خلال أربعة آلاف السنة الماضية أربعة أمتار، تكونت من الطبقات الغرينية التي رسبت في مواسم الفيضان، لذلك تجد الآثار مطمورة في الطين إلى هذا العلوّ. أما الأنهار التي تنبع من الثلاجات مثل « السين » بفرنسا، فموسم فيضانها أول الصيف عند ذوبان الثلوج.

تكوين دال النهر

عند المصب يقف جريان الماء، فيرسب الغرين المعلق فيه، فإذا كان البحر عظيم المد والجزر كالمحيط الأطلسي فإنه لا يترك هذه الرواسب تعترض النهر بل ينقلها جانباً.

ولكن الأنهار التي تصب في البحار القليلة المد والجزر كالبحر الأبيض المتوسط، يرسب غرينها بمجرد وقوف التيار عند مقابلة البحر الملح، فيتكون من ذلك سهل غريني مثلث الشكل غالباً تنفذ منه مياه النهر إلى البحر من عدة فروع، وتسمى الأرض الغرينية المتكونة بهذه الصفة « دلتا » أو « دالا »، لقرب شبهها عادة من حرف الدال، غير أن لبعض الدالات أشكالاً مميزة مثل دال المسيسبي التي تمتد في خليج المكسيك امتداداً عجيب الشكل، وقد يكون للنهر فروع كثيرة في الدلتا، فمثلاً لنهر أورنوكو بأمريكا الجنوبية أكثر من خمسين فرعاً، ويجيء نهر المسيسبي كل عام بثلاثمائة وخمسين مليون طن من الغرين الجديد ليزيد بها بناء داله، واستمرار تشييد النهر في الدال يقلل أهمية الثغور الواقعة عند المصب بإبعادها عن البحر، كما قلت أهمية دمياط ورشيد أخيراً، وقد كانت « أدريا » مدينة رومانية عند مصب نهر « بو »، ومنها اشتق اسم بحر الأدرياتيك، وهي الآن بعيدة عن الساحل بعشرين ميلاً من الأراضي الغرينية.

ردم البحيرات التي تجتازها الأنهار

يصب نهر سمليكي في بحيرة البرت فيرسب الغرين في أولها على شكل دلتا صغيرة، ويخرج منها بحر الجبل صافياً قليل الغرين لرسوب كثير منه في البحيرة، ومآل البحيرات التي تصب فيها الأنهار أن يردمها الغرين نهائياً، ولا يبقى مجوفاً إلا مجرى النهر الذي يخترقها، والبحيرات التي لا تتصرف مياهها إلى البحر بالأنهار مثل بحيرة « شاد » في أفريقية تكون ملحة لكثرة الأملاح في نفايات اليابس التي ترد إليها، أما البحيرات التي تتصرف مياهها إلى البحر مثل فكتوريا ـ التي تتصرف مياهها في النيل ـ فإنها تكون عذبة.

هنالك قالت سانده لماندة: يا أختاه قد طال الحديث، ولم نصل إلى إجابة دعائنا، ولم أستفد منه إلا أن العيون تتفجر على جوانب الجبال بسبب طبقات مصمتات خاصات تمنع سريان الماء إلى أسفل فيفيض الماء فيكون عيوناً، وقد يستخرج الماء بالأعمال الصناعية، وهكذا عرفت أن النهر يوسع مجراه ويتسع الوادي، وتحول الهضبة إلى أودية وسلاسل جبلية بفعل عوامل التعرية، بل إن الهضبات

ترجع آخر الأمر سهولاً بذلك السبب ، وهكذا عرفت أسباب الشلالات ، ومساقط المياه ، والمنعطفات في بعض الأنهار وهكذا سهل الفيضان وأنهار الجليد وفعلها ، فقالت لها : قريباً ستعرفين الجواب ، فاسمعي بقية الحديث :

المطر والبرد والثلج

يسقط في مصر المطر ماء ، وقد يسقط معه البرد ـ بفتح الباء والراء ـ في بعض الأوقات ، فنرى قطعاً صغيرة من الثلج الجامد كالملح الحجري ، ولكن في الأقاليم الباردة يسقط الثلج الأبيض الرخو بدل المطر ، وخاصة في الشتاء ، حتى إذا ما أتى الصيف ذاب كله أو بعضه بحسب دفء المكان أو برودته .

الثلاجات وخط الثلج

وفي الجهات القاصية الشمالية مثل « ايسلندا » و« جرينلند » والجنوبية القاصية مثل « انتاركتكا » لا سبيل إلى ذوبان الثلج في مكانه ، فهو يزيد كل عام ، وتتراكم طبقاته ، ويندمج بعضها في بعض فتتكون منها مسطحات عظيمة من الثلج الجامد الأزرق ، سمكها بضع مئات من الأمتار ، وتسمى بالثلاجات ، ولا يقتصر وجودها على الجهات القريبة من القطبين ، فإن الارتفاع عن سطح البحر من شأنه نقص درجة الحرارة ، ولذلك صارت رؤوس الجبال في كثير من جهات المنطقة المعتدلة مسرحاً لنزول الثلوج وتراكمها ، فإذا وقفت تشاهدها من بعد ، تراها مكسوة بقلنسوات مفضضة من الثلج اللامع ، ومتى جاء فصل الصيف وتزايدت الحرارة ذاب الجزء الأسفل من هذا الغطاء إلى حد معين يسمى « خط الثلج » ، وكل ما زاد علواً عن هذا الخط دامت عليه الثلوج صيفاً وشتاءً .

الأنهار الجليدية

لا يمكن أن تزداد الثلاجات باستمرار من غير أن يكون لها مصرف تنفذ منه ، لأن الثلوج الجديدة لا تفتأ تسقط عليها من الجو ، ومتى زادت هناك الثلوج وتراكمت الطبقات الجديدة على القديمة ينزلق الثلج في فرجة بين الجبال وينحدر لثقله ودفع غيره له ، فيصبح لساناً من الثلج ممدوداً تجاه سفح الجبل ، ولا يزال هذا اللسان يمتد وينعطف عند كل منعطف ويتزود بثلوج أخرى من اليمين واليسار ، وهو ينحدر نازلاً على شكل نهر جليدي كما تراه في شكل ٣٧ وهاك صورته :



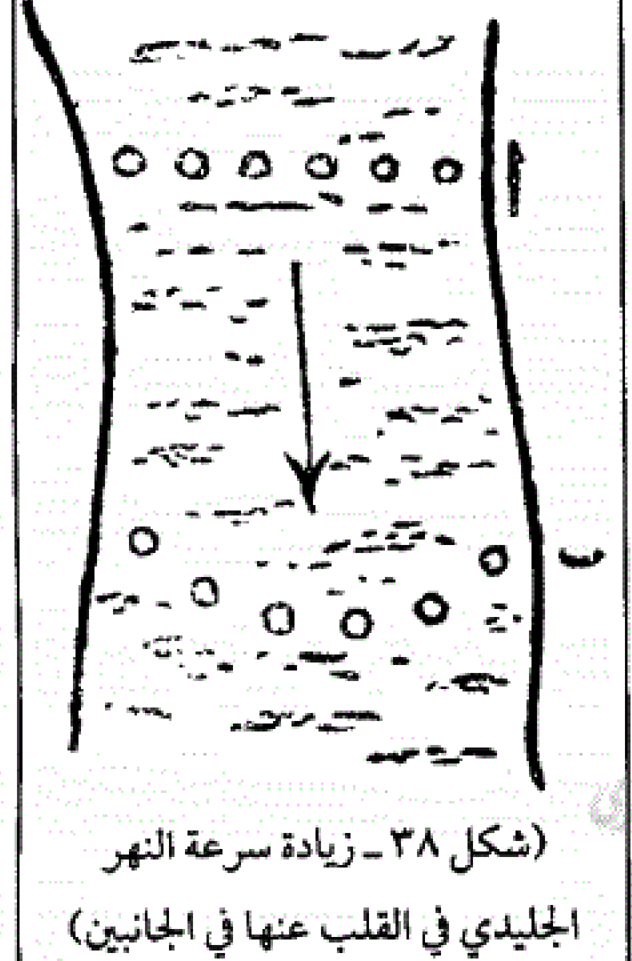
(شكل ٣٧)
صورة الطرف الأدنى من الجرف الثلجي في الرون بجالبي فركا منحدراً إلى رأس واد من الأودية حيث يبتدئ منه النهر

الهيارات الثلجية

ربما لا ينصرف الثلج المتراكم في الثلاجات المرتفعة في الوقت المناسب، فيزيد حجمه في إحدى النواحي فينهار منه الهيار إثر الهيار، وتكون له قعقعة مرعبة، إذ يهوي ويتقلب ويتدحرج، فيتلاطم ويحطم، ويهشم ويدمر، فلا يبقي ولا يذر، وأهل القرى العالية يحرصون على الغابات، لتكون بينهم وبين الهيار سداً.

فعل الأنهار الجليدية

من خواص الأنهار الجليدية أنها كثيراً ما تنعطف مع الوادي من غير أن تتكسر، وكثيراً ما تنزلق على مجارٍ خشنة مضرسة وهي متماسكة، وإذا تشققت فقد تلتحم بسهولة، لكن المجاري قد تكون وعرة جداً في بعض الأحيان، فتتشقق الأنهار الجليدية بشقوق طولية وعرضية والأنهار الجليدية كالأنهار المائية أسرع في قلبها منها في الجانبين، وذلك طبيعيّ لأن الصخور الجانبية تعوق سير الثلج، ولذلك تتقوس الشقوق العرضية أثناء سير النهر الجليدي. (انظر شكل ٣٨).



(شكل ٣٨ ـ زيادة سرعة النهر الجليدي في القلب عنها في الجانبين)

وفي أثناء هذا السير تنهار الصخور الآيلة للسقوط من أثر الصقيع والهيارات الثلجية السابقة وتقع على حافتي النهر الجليدي فيحملها معه على شكل ركامين جانبيين، وعند ملتقى نهرين جليديين يتحد ركامان جانبيان في ركام وسطي، فإذا تجمعت عدة أنهار جليدية تعددت الركامات الوسطية، فالنهر الجليدي في شكل ٣٦ المتقدم ينحدر نحوك ببطء، وعلى وجه الثلج بجانب كل حافة سطر من الصخور هو الركام الجانبي، وفي الوسط ركام وسطي ناشئ من اجتماع نهرين جليديين.

وقد تقع الصخور في الشقوق فتصل إلى قاع النهر الجليدي فيجرفها الثلج، ويسير بها على شكل ركام أرضي، وفي أثناء ذلك يصقلها وينحت بها المجرى. ويوضح شكل ٣٩ صقل الثلج للصخور. أما المسحوق الناعم الذي يتحات منها فيسير مع الثلج إلى خطم النهر الجليدي، حيث يذوب الثلج ويجري الماء العكر بداية لنهر مائي عظيم، وعند الخطم يتجمع فتات الصخور المختلفة التي جاءت مع الركامات كلها في ركام نهائي قد تنشأ عنه رابية عظيمة.



(شكل ٣٩ ـ صقل الثلج للصخور)

الأجماد الطافية

لا يسمح البرد القارس في أطراف المعمورة من الشمال والجنوب للأنهار الجليدية بأن يؤول أمرها إلى الذوبان، فتستمر ألسنتها بالانزلاق حتى تصل إلى الساحل، وهناك تنقضم منها الكتلة إثر الكتلة فتقع في البحر، وتطفو على الماء كأنها جبال من الثلج. وقد يكون الجزء الظاهر منها فوق الماء بضع مئات من الأمتار، لكن باقي جرمها وهو تسعة أمثال ذلك، يكون مختفياً تحت الماء. (انظر شكل ٤٠).



(شكل ٤٠)
تكوّن الأجماد من الأنهار الجليدية

وكلما ذاب منها ركن تزحزح مركز ثقل هذا الجمد الهائل. وصار يتمايل ويتقلب، وهو يسير مع التيارات البحرية تحفّ به غيوم كثيفة، وينشأ عنه خطر عظيم على الملاحة، فقد دهم أحد هذه الأجماد الباخرة «تيتنك» في أول سياحة لها في أبريل سنة ١٩١٢ تجاه سواحل جرينلند، وكانت عروس بواخر الدنيا. والأجماد كالأنهار الجليدية التي اشتقت منها تحمل معها ركامات صخرية، ومتى ذابت رسبت الصخور في قرار المحيط، فكونت مسطحات مرتفعة يأوي إليها السمك ليقيم فيها، حيث يكون ضغط الطبقات المائية عليه أخف من أعماق المحيط، وقد اشتهرت سواحل نيوفوندلند بأمريكا الشمالية، وسواحل هكيادو في اليابان بكثرة مصائد السمك لهذا السبب.

فقالت «سانده»: هيا بنا نذهب إلى سواحل اليابان. فقالت «مانده»: إن العلم أحسن شيء في الوجود، فأرجو أن تتممي درس الصقيع والثلج بحيث تسمعين ما أعلمك للنهاية، وبعد ذلك نسافر. فقالت: حباً وكرامة يا أختي. فقالت مانده:

عمل الصقيع في التعرية

قد عرفت في (شكل ٢٥) المتقدم كيف أن الصخور تتشقق من تغير درجة الحرارة، فإذا تشققت الصخور فإن ماء المطر يشغل الفراغ بينها، وإذا برد الجو يتحول الماء إلى ثلج، وقد رأيت الثلج يطفو على الماء في القدح، ورأيت كذلك أن الأجماد تطفو على المحيط بحيث يكون العشر فوق الماء، وتسعة الأعشار تحته. ومعنى هذا في علم الطبيعة أن الماء عندما يستحيل إلى ثلج يتمدد، لأن الثلج أخف من الماء، فالماء الذي في شقوق الصخور عندما يتجمد يزيد حجمه فيضغط عليها ويمزقها، وفي البلاد الباردة مثل كندا يساعد الصقيع على تمزيق التربة فيوفر حرث الأرض، وأنابيب الماء في الأقطار الباردة مثل إنجلترا تتعرض أحياناً للانفجار لضغط الثلج المتكون من الماء في داخلها.

الواقف عند الساحل تلفت نظره الأمواج بارتطامها على الشاطئ، وخاصة إذا هاج البحر وتلاطمت الأمواج، فينطح الموج الصخور، فيوهنها ويقدّ منها قطعاً يجرفها معه بعيداً عن الساحل، ثم يعود بها، فيناضل الساحل من جديد، فأما قطع الصخور فتتفتت إلى رمال وجلاميد، وأما صخور الساحل فتنحات، ومنها ما ينهار، ومنها ما ينخرم بالثقوب والمغارات.

والمتأمل في قوة الأمواج وفعلها يدور بخلده ذكر الأبدية ويسأل: هل ظل البحر يناطح الساحل طول الأبد، ولماذا لم يأت على آخر اليابس فيدفنه تحته، ويظهر منتصراً عليه؟ لكن لا يلبث أن يتذكر حركات القشرة الأرضية وأثرها في بروز أراض جديدة من قرار البحر لتعيد التوازن، والصخور اللينة أسرع تحاتاً من الصخور الصلبة. ففي (شكل ٤١) مسلات طبيعية قاومت الأمواج فبقيت بعد أن تحاتّ ما حولها من الصخور، وإذا كانت الصخور التحتية رخوة بليت ونخرت فتداعت الصخور التي فوقها من تلقاء نفسها.



(شكل ٤١)
مسلات طبيعية من نحت الأمواج

والمدّ إذا ملأ مغاور الشاطئ ضغط الهواء فيها، فإذا جاء دور الجزر انحسر الماء سريعاً، فانسحب الهواء وراءه من شقوق المغاور، فيتداعى ما لا يحتمل الجذب من الصخور، وبمرور الزمان تتخرّم سقوف المغاور بالمناور الطبيعية، ثم يحين الوقت أخيراً لتداعي السقف كله وتكوين فرجة في الساحل، ومن تفاوت مقاومة الصخور للأمواج تنشأ الشروم والرؤوس وتتكون تقاطيع الساحل، وهذه التقاطيع عظيمة الأهمية في الملاحة، فإن السفن لا يهولها اشتداد العواصف وسط المحيط مهما غضب البحر عليها، ولكن تفزعها الأنواء قرب الشواطئ الوعرة. والمرافئ الجيدة هي التي تتوافر فيها حماية السفن من الأنواء، ومتى وجدت المرافئ الصالحة أصبح مؤكداً نشوء الثغور وتبادل التجارة. انتهى

ثم قالت « سانده »: الآن قد تم الحديث. فقالت « مانده »: أما الآن فقد طاب السفر، فهيا بنا إلى سواحل بلاد اليابان لنعيش هناك تحت الحجارة، فما قالت ذلك ساندة حتى غابت السمكتان عن عيني ولم ترجعا لأنهما سافرتا.

قال الحارث بن همام: وما كادت السمكتان تسافران حتى استيقظت إذا طبيب السفينة وأعوانه يضعون السعوط في أنفي والأدهان على جسمي وهم يدلكونه، ولم تزد المدة على ثوان معدودة. قال: فعلمت أنها أضغاث أحلام، وهل لأضغاث الأحلام من تأويل؟.

فلما سمعت ذلك من الحارث بن همام عجبت من ذلك وأيقنت أنه من فتوح العزيز الرحيم، وأنه مناسب لهذه الآية. فوصف « ماندة » لأختها « ساندة » فعل الأمطار في الجبال والصخور والأنهار وتكوّنها ثلوجاً فوق الجبال ثم رجوعها للبحر ثانياً إجابة لدعاء السمك؛ مشابه للعجائب التي أسمعها الله لنا في قصة أم موسى والتابوت ووقوعه في يد فرعون وحفظه، وفي قصة موسى وإلقائه عصاه وخوفه منها لما صارت حية، ثم ذهاب خوفه، وهكذا خوفه من القوم أن يقتلوه، وخوفه من عصيّ السحرة إذ صارت حيات، ثم نصره عليهم، فهذه المقدمات والحكم التي نسمعها في التنزيل نظير ما في هذه العوالم من عجائب البخار والبرودة التي تجعله ماء، ثم الهواء المسير للسحاب، فالمطر، فانقلابه ثلجاً، فتراكمه فنزوله في البحر فيصير مأوى للسمك.

تباركت يا الله، تباركت وتعاليت. لك الكبرياء يا ربنا ولك العزّة، لك العجائب في قصص أمّ موسى وموسى، ولك الإبداع في قصص المطر والنهر والثلج والحجارة، حكم أبدعت، كيف هذا؟ بخار يثور من البحار فيصير ماء، فثلجاً. ثم يفعل هذا البخار فعلاً يعجز عنه البناؤون والمهندسون والعمال، فيكسر الصخور ويقطعها من الجبال، ويحملها ويجري بها، وينزل بها في البحر، ويبنيها، وتصير مأوى للسمك.

عجب وألف عجب! دنيانا يا رب عجيبة، مملوءة بالجمال، فأنت بهذه الأعاجيب والمقدمات قبل ظهور النتيجة ذو كبرياء وعزّة، وبرحمتك للسمك وأمّ موسى وموسى مربّ وحكيم، وهذه الآيات في آخر سورة «الجاثية» لتبيان ما في أولها، لأنه بدأها بأن الكتاب نزله عزيز حكيم، وهل العزة والحكمة يظهران إلا فيما بعدها من الآيات وهو ما ذكرته من السماوات والأرض، وخلق الدواب، وإنزال المطر، وتصريف الرياح، وختم السورة بأنه محمود لأنه يربي السماوات والأرض المذكورتين في أولها مع العزة والحكمة، فأول السورة عزة وحكمة، وآخرها كذلك، وهذا ملخص «الفاتحة»، فإن الحمد والرحمة والهداية كلها حكمة، وقوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾[الفاتحة: ٤] وذكر المغضوب عليهم والضالين راجع للعزة. هذا هو الذي خطر لي في تفسير هذه الآية، والحمد لله رب العالمين. كتب ضحى يوم ٨ مارس سنة ١٩٣١م.

تذكرة في قوله تعالى في أول السورة:

﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ ﴾[الجاثية: ٥] الخ

مع آية: ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا ﴾[الآية: ١٠] الخ في سورة حم فصلت

لما أتممت هذه السورة جاء صاحبي العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير، فقال: لعلك نسيت ما وعدت به في سورة «حم فصلت». فقلت: وما الذي وعدت به؟ فقال: ألم تقل هناك عند إيضاح آية: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ ﴾[فصلت: ٣٩] ما نصه:

وسيأتي تفصيل هذا المقام في أول سورة «الجاثية» فراجعه ولا تعوّل إلا على التفصيل هناك. فهأنا ذا قرأت السورة فلم أجد إجمالاً ولا تفصيلاً للكلام على الأغذية النباتية المناسبة لآية: ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ ﴾[الجاثية: ٥] الآية، ومقاديرها التي أشار لها الله فقال: ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا ﴾[فصلت: ١٠] الخ. فقلت: أتذكر أنني بعد أن قلت ذلك فصلت الكلام هناك بعد نحو صفحتين. فقال: نعم. ولكنك بهذا الوعد تحير الذي يقرأ التفسير، فلا يعوّل على ما أوضحته هناك. فقلت: إني أوضحته هناك في صحيفة ٢٦٧ في الجزء التاسع عشر، وأبنت أن الإنسان إذا كان في فراشه يعوزه في اليوم ١٨٠٠ سعر، والسعر معروف هناك فلا نعيده، وإن كان في شغل شاقّ يعوزه ٤٠٠٠ سعر في اليوم، وإن كان في شغل متوسط يعوزه ٣٠٠٠ سعر في اليوم أيضاً. فقال: ولكن أذكياء القراء يتطلعون إلى زيادة هنا.

فقلت: هاك نص ما جاء في كتاب «الغذاء في الأمراض» تأليف الدكتور حسن عمر، فقد جاء فيه تحت العنوان التالي ما نصه:

القيمة الغذائية للمأكولات

إن أهمية المأكولات موكولة لقيمتها الغذائية أي ما يستفيد الجسم منها، وذلك بأن يتحول الغذاء المأكول إلى حرارة في الجسم وحركة، أي إن كل الحركات التي يعملها الشخص تنشأ عن الحرارة التي تتولد من الجسم، فكل جرام من هذا النوع من الغذاء يولد حرارة جديدة بدلاً من الحرارة التي استنفذها الجسم وقت حركاته، ووحدة هذه الحرارة تسمى «الكالوري أو السعر».

فالجرام الواحد من المادة الزلالية يعادل ٤ كالوري، والجرام الواحد من المادة الدهنية يعادل ٩ كالوري، والجرام الواحد من المادة النشوية يعادل ٤ كالوري.

نحن محتاجون للغذاء لتوليد الحرارة، وكلما كثر العمل استنفذ الجسم مقداراً من الحرارة يعادل العمل الجسماني. إذن فقد وجب أن نتناول من الغذاء مقادير تعادل ما يتطلبه العمل من الحرارة أو أزيد قليلاً، حتى لا يستنفذ العمل كل حرارة الجسم فيظهر الضعف وإنهاك القوى، ولكل عمل جسماني قيمة معينة من وحدات الحرارة «السعر» يتمكن بها من القيام به خير مقام. ويجب فوق ذلك ملاحظة وزن الجسم، لأن اختلاف الأوزان يدعو إلى اختلاف الوحدات المطلوبة، مثلاً: رجل وزنه ٦٥ كيلوجراماً يحتاج من الغذاء يومياً إلى ما يأتي:

الحالة	السعر اللازم للكيلوجرام في اليوم	مجموع ما يحتاجه في اليوم بالسعر
في الفراش	٢٨	١٨٠٠
جالس	٣٢	٢١٠٠
شغل بسيط	٣٣	٢٣٠٠ - ٢٥٠٠
شغل متوسط	٤٠	٢٦٠٠ - ٣٠٠٠
شغل صعب	٤٨	٣١٠٠ - ٤٠٠٠

أما إذا كان العمل شاقاً فإن قيمة الغذاء تختلف باختلاف ما يتطلبه العمل من مجهود جسماني فمثلاً عمل الفلاح ليس كعمل البناء ولا النجار، إذ كل عامل منهم يحتاج إلى قيمة غذائية معينة حتى يمكنه القيام بالعمل على الوجه الأصح، وهاك جدولاً بمختلف الحرف وما تحتاجه من سعر يومياً:

أعمال عادية

الصنعة	السعر المحتاج له يومياً
الجزمجي	٢٤٠٠
الغزال	٢٧٠٠
النجار ـ البناء	٣٢٠٠
الفاعل الفلايكي	٤٠٠٠
الفلاح (أيام العزق والحرث والحصاد)	٤١٠٠
الساعي (راكب الدرّاجة)	٥٠٠٠
السيدة (شغل بسيط)	٤٢٠٠

أعمال فنية

الصنعة	السعر المحتاج له يومياً
الطبيب	٢٦٠٠
قاضي ـ مهندس رسام	٢٧٠٠
أستاذ الجامعة ـ كاتب	٢٨٠٠
محام ـ مدرّس ـ تاجر	٣٢٠٠
تلميذ ابتدائي مصري (داخلية)	٢٥٠٠
تلميذ ثانوي مصري (داخلية)	٢٩٠٠
طالب مدرسة الفنون والصنائع المصرية (داخلية)	٣٦٠٠
طالب بالزراعة العليا (داخلية)	٣٧٠٠
طالب بالقسم العالي الأمريكي	٣٥٨٠
طالب شد الحبل ولاعب كرة القدم (أمريكي)	٦٥٠٠
العسكري الإنجليزي (في السلم)	٢٢٠٠
العسكري الألماني (في السلم)	٢٧٠٠
العسكري المصري (في السلم)	٢٧٠٠
العسكري الإسباني (في السلم)	٣٤٠٠
العسكري الأمريكي (في السلم)	٣٧٠٠
العسكري الإيطالي (في السلم)	٤١٠٠
العسكري الفرنسي في الحرب	٤٠٠٠

وقال في صحيفة ٥١ وما بعدها ما نصه: ولكل جسم قدرة معينة وميزانية خاصة للاستفادة من خليط الغذاء الذي نأكله، فما زاد عن حاجة الجسم إما أن يخزن، وإما أن يخرج كإفرازات تالفة عديمة النفع للجسم، وأهم علاج هذه الحالات هو تنظيم مقادير الأكل وأنواعها، وقد قام رجال عدة بهذه الأبحاث، وقدروا ما يجب أن يؤكل من المواد الزلالية والنشوية والدهنية، بمقادير معينة تفيد حالة الجسم، ولا تزيد ما به من دهن، وأهمها هي:

اسم الأستاذ	زلال بالجرام	نشا بالجرام	دهن بالجرام	السعر
بانتج	١٧٢	٨١	٥	١١٠٠
هيرشفيلد	١٠٠	٥٠	٤١	١٠٠٠
فون نوردين	١٥٥	١١٢	٢٨	١٣٦٦
أورتل	١٥٦	٧٥	٢٥	١١٨٠
كشن	٢٠٠	١٩٩	١٢	١١١٦
ابشتين	١٠٢	٤٧	٨٥	١٣٠٠

هذه هي المقادير التي يجب اتباعها في علاج السمنة مع ملاحظة التمرينات الرياضية، وعلاج ما سببته السمنة في الجسم كالأكزيما والأمراض الجلدية الأخرى وتصلب الشرايين وضعف القلب، وكذلك معالجة الغدة الدرقية أو أي غدة أخرى ذات إفراز داخلي يكون لها يد في هذه السمنة.

انتهى ما أردته من الكتاب المذكور.

فلما سمع صاحبي ذلك. قال: لو عرفنا تحليل الأغذية لكان ذلك نفعاً عظيماً. فقلت: تقدم في سورة « فصلت » فارجع إليه، فاطلع عليه ففرح وقال: الحمد لله رب العالمين.

انتهى تفسير سورة « الجاثية ».



تفسـير سورة « الأحقاف »
هي مكية
إلا ثلاث آيات وهي

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

وقوله: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

وقوله: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾، **فمدنية.**

آياتها ٣٥ ،نزلت بعد الجاثية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ

خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ
إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ
ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ
أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً
قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ
وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ
أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾
وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ
ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ
ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ
مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ
طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ
فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ
خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾
قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ
ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ
أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ
كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾
وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ
وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾
فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟
يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟

فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَـٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

هذه السورة قسمان:

القسم الأول: في تفسير البسملة.

القسم الثاني: في تقسيم السورة.

القسم الأول: في تفسير البسملة

تجلت الرحمة في هذه السورة بما تبدى بها من ضروب الحكمة، وفنون العلم، وأزاهير النظام الاجتماعي، فبينما نراها مبدوءة بوصف الكتاب بالعزة والحكمة ومختومة بالتوصية والصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، إذا نحن نرى القوم مخاطبين بإظهار الأدلة على تلك الآلهة التي عبدوها، والأصنام التي أقاموها، موبخين على ما اقترفوا من إثم الذم بالسحر، مقامة لهم الأدلة على صدق النبوة التي ليست بدعاً بأن بعض بني إسرائيل صدّقوها وآمنوا بها وهم أعلم منهم، وقد تبع ذلك استهجان ما يهرفون به من أن الفضل خاص بهم، فكيف يتعداهم إلى غيرهم؟ فلو كان القرآن كذلك لكانوا هم أولى به، وتلاه الإشادة بمدح الذي حفظ وصية الله في والديه فبرّهما وأطاع ربه، والذم لمن عصى الله ووالديه، ثم أتى بالقاعدة العامة التي بها نظام الدول والممالك والأسرات والإمارات، وهي أن الانهماك في اللذات والشهوات، والإسراف في إنفاق الأموال والخروج عن حد الاعتدال في الطعام والشراب؛ كل ذلك مورث لهلاك الأمم، وضياع الدول والأفراد، والوقوع في الأمراض والخزي في الحياة الدنيا، وضرب لذلك مثلاً بعاد الذين أرسل لهم هود، فإنهم كذبوا واستكبروا فهلكوا فأنزل الله بهم العقاب في هذه الدنيا، وسيتبعه عقاب الآخرة، وهذه أمة عربية في بلاد حضرموت وهي الأحقاف وهم أقرب إلى الأمة العربية، المنزل الكتاب بلسانها، وهذا كان في الحقيقة ذكرى لأمم الإسلام التي جاءت بعد نزول القرآن، فيا ليت شعري، أي رحمة، وأي نعمة على مسلمي زماننا هذا أكبر من أن يتذكروا ما حلّ بالأمة الأموية والعباسية والممالك السلجوقية والفاطمية والتركية والمملكة الأندلسية

من ذهاب مجدهم، وأفول شمسهم، وغروب سعدهم، وبزوغ نحسهم، وظهور ذلهم وعذابهم في الحياة الدنيا لما استكبروا في الأرض بغير الحق، وتفننوا في ضروب الملاهي، واتبعوا الشهوات، وأسرفوا في كل ضرب من ضروب الحياة، فذهبت ريحهم وخرّ عليهم السقف من فوقهم، أليس كل هذا هو ما أنذر به القرآن وحذر بذكر عاد، وأنهم أذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا، فعذبوا فيها بعذاب الخزي، وسيعقب ذلك عذاب الآخرة، وسيأتي مقدار ما أسرفت أممنا السابقة، فحق علينا القول، فهذا عذاب من الرحمن، فالله عز وجل عذب الأمم الإسلامية عذاباً نتيجته الرحمة، وهل الرحمة هنا إلا أن نجتنب نحن ما فعله آباؤنا من التغالي في تبذير المال، واقتناء الجواري اللاتي يبلغن المئات كما ستراه واضحاً في هذه السورة، وأن نسير على منوال الخلفاء الراشدين في نظام حياتهم، فتكون لنا السعادة في الدنيا والآخرة، لهذا جاء القرآن، ولهذه الذكرى كان هذا التفسير، ثم إن الإيمان بالكتاب لم يقتصر من غير العرب على اليهود بل تعداهم إلى الجنّ.

فهذه نبذ من مجامع علوم هذه السورة، وهي مما تتضمنه الرحمة المذكورة في البسملة. انتهى الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة. كتب يوم السبت ١٨ يوليو سنة ١٩٣١م، والحمد لله رب العالمين.

القسم الثاني: في تقسيم السورة

هذه السورة ستة مقاصد:

المقصد الأول: في التوحيد، من أولها إلى قوله: ﴿بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾[الآية: ٦].

المقصد الثاني: في المعارضات التي ابتدعها الكفار للنبوة، والإجابة عليها، والبراهين على فسادها من قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾[الآية: ٧] إلى قوله: ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾[الأحقاف: ١٢]

المقصد الثالث: في أهل الاستقامة الذين وحدوا وصدقوا بالنبوة، وأن جزاءهم الجنة، وذكر بعض وصايا تتعلق بالمؤمنين من إكرام الوالدين، وذكر المحاورات بين الوالدين والمولودين، وبيان ما يرضي الله في ذلك، وذكر من صرفوا الحياة الدنيا في اللذات والشهوات، وأذهبوا طيباتهم في شهواتهم، من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾[الآية: ١٣] إلى قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾[الآية: ٢٠].

المقصد الرابع: في ذكر عاد والاستدلال بما حلّ بهم بعد العظمة والجلال، على أن صرف الطيبات والنعم في غير محلها يورث الهلاك في الدارين، فهي كالاستدلال على ما قبلها، وفي ذكر الأمم التي هلكت بالقرب من مكة كثمود وقوم لوط، وأن هؤلاء لم تنفعهم الشركاء التي ابتدعوها، وذلك من قوله: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾[الآية: ٢١] إلى قوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾[الآية: ٢٨].

المقصد الخامس: في استماع الجنّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأنهم بلغوا قومهم، وذكروا في الاستدلال ما يناسب أول السورة من أن القرآن مصدق لكتاب موسى وغيره، وما يتبع ذلك، من قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾[الآية: ٢٩] إلى قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[الآية: ٣٤].

المقصد السادس: عظة للنبي صلى الله عليه وسلم والمجاهدين من أمته، وهي ختام السورة، وذلك بالصبر كما صبر أولو العزم من قوله: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ﴾[الآية: ٣٥] إلى آخر السورة.

المقصد الأول: التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴾ تقدم الكلام عليها في السور السابقة، وأيضاً تذكير بالحمد المتقدم في آخر السورة السابقة، إذ قال الله تعالى: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الجاثية: ٣٦]. ثم أتبعه بتبيان أن الكبرياء في السماوات والأرض مختص به، إذ ظهرت آثار كبريائه وعظمته فيهما، وأردفه بإفادة أنه قاهر غالب حكيم فيما قدّره وقضاه، هذا ملخص السورة السابقة. وجاء في أول هذه السورة ذكر الرحمة في ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ كأنه يقول: إن كبريائي وعزتي وحكمتي مصحوبات بالرحمة، فكل ما قهرته من هذا الوجود وغلبته وحكمت عليه؛ فإنما ذلك بحكمة تامة، ورحمة عامة وخاصة. ثم قال: ﴿ حمٓ ﴾ أي: إن من يفعل ذلك يجب أن يحمد فاحمدوه، وهذا كالنتيجة للمقدمات السابقة المذكورة بعد قوله: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ ﴾[الجاثية: ٣٦]، فكأنه استدل على اختصاص الحمد به بما تقدم، وختم الاستدلال بالنتيجة، وهي أنه يجب حمده بقوله: ﴿ حمٓ ﴾، وبهذا البيان صارت هذه السورة وما قبلها في نمط واحد، وسلك منتظم، ونسق واحد، لا تغيير فيه، ولذلك ترى ذكر العزة والحكمة هنا كما ذكرا في آخر السورة.

يقول الله: الكبرياء لي في السماوات والأرض، وأنا الغالب القاهر، المحكم لعملي، المتقن لصنعي في السماوات والأرض، وفي تنزيل القرآن، فإذا أنا قهرت المادة وأحكمتها، فهكذا فعلي في القرآن أقهر من لا يؤمن به فأنتقم منه، وقد أنزلته بحكمة، ففعلي بحكمة وقولي بحكمة، إن الـ ﴿ حمٓ ﴾ أولها وآخرها ملتبسان بالحمد، فأول ﴿ حمٓ ﴾ مسبوقة بالحمد وآخرها كذلك، فهذه السور فيها المقام المحمود، والمقام المحمود مبناه العلم.

ثم قال تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي: خلقاً ملتبساً بالعدل، وهو ما تقتضيه الحكمة والمعدلة، وبتقدير أجل مسمى لكل مخلوق ينتهي إليه أجله، ومدة بقائه، فلا نبات، ولا حيوان، ولا إنسان، ولا جبل، ولا كوكب، ولا جامداً، ولا سائلاً، إلا لها آجال تنتهي إليها، وهذا معلوم مشاهد. يقول الله: إن خلق السماوات والأرض وخلق ما بينهما مصحوب بالحق، قائم بالعدل والنظام، ومن النظام أن تكون الآجال معلومة مقدرة لكل نوع ولكل فرد ولكل كوكب ولكل شمس ولكل روح، وهذا مشاهد معلوم، فإن النظام يعلمه الحكماء، وهكذا الآجال معلومة لله، والناس يرون أنه لا موجود في هذا العالم دائم، وإذا كان الأمر كذلك فليكن ذلك دليلاً إقناعياً أن لهذه العوالم كلها، حقيرها وجليلها، يوماً يكون موعداً للجميع، وهو يوم القيامة، وهذا يفيده النظام، إذ النظام يقضي أن يكون هذا العالم لغاية وحكمة، وأن لا يستوي المحسن والمسيء، ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ ﴾ أي: عما أنذروه من هول ذلك اليوم الذي لا بد لكل مخلوق من الانتهاء إليه ﴿ مُعْرِضُونَ ﴾ لا يؤمنون به، ولا يتفكرون فيه، فلا بالكتاب المنزل وإنذاره اعتبروا، ولا بما يشاهدون في العالم من النظام والحكمة فكروا، فهم قاصرون سمعاً وبصراً، فلا هم بسماع الوحي متعظون، ولا بالنظر في العالم المشاهد يتذكرون.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي: أخبروني عن حال آلهتكم بعد تأمل في خلق السماوات والأرض وما بينهما، والنظام الشامل لهما، والحكمة السائرة على نظام واحد فيهما، وبعد تأمل في حال آلهتكم، هل يعقل أن يكون لها مدخل في خلق شيء من أجزاء هذا العالم فتستحق به العبادة، ولو كان لها دخل لظهر في هيئة المخلوقات، وصار هناك تفاوت بين أجزاء النظام، ولكن نظام العالم واحد يستمدّ أدناه من أعلاه، فكأنه حيوان واحد، أو إنسان واحد، حتى إن كل كوكب أو مجموعة كواكب من الثوابت تفيد أهل الأرض علماً بسير سفنهم، وسير قوافلهم في البحر والبر، فكل النظام مرتبط بعضه ببعض، وكأن كل فرد واحد مخدوم بجميع الأفراد في الأرض، وكأن كل كوكب من الكواكب على نحو ما وهيئة ما، فلو كان هناك شركاء لاختلف النظام، ولاختلّ اختلالاً مبيناً، وهذا قوله تعالى: ﴿ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾، ثم طلب منهم أن يؤتوا بدليل على هذا الشرك المدعي بكتاب موحى به من قبل القرآن بقوله: ﴿ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ أي: بقية من علم بقيت عليهم من علوم الأولين، هل فيها ما يدل على استحقاق العبادة لهؤلاء الأصنام ومعلوم أن الدليل إما من الوحي، وإما من العقل، فأما الوحي فأين الكتاب قبل القرآن الذي فيه أنهم شركاء، وأما العقل فأين بقية علوم العلماء المفكرين في خلق السماوات والأرض، ومعلوم أنهم قد أيقنوا بوحدة النظام، فالفلاسفة مجموعون على حسن النظام ووحدته، والوحي جاء بالتوحيد، فهذا قوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم ﴾ إلى قوله: ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ لأن الصدق في الدعاوى بالبراهين، والبرهان هنا جاء على ضد ما زعموا فليسوا بصادقين. ثم بيّن ضلالهم فقال: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ ﴾ يعني الأصنام لا تجيب عابديها إلى شيء يسألونها ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ فهي لا تجيب أبداً ما دامت الدنيا ﴿ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾ فهم إما جمادات، وإما عباد مسخرون مشتغلون بأحوالهم، ﴿ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً ﴾ يضرونهم ولا ينفعونهم ﴿ وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ مكذبين، إما بلسان الحال، وإما بلسان المقال. انتهى تفسير المقصد الأول من السورة.

المقصد الثاني

وهو الذي فيه ذكر معارضات النبوة والإجابة عليها

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ ﴾ واضحات، أو مبينات ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ ﴾ أي: لأجله وفي شأنه، والحق المراد به الآيات المذكورة، والذين كفروا هم المتلوّ عليهم، وذلك لتسجيل الحق على الآيات والكفر عليهم لشدة انهماكهم في الضلالة ﴿ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ أي: بادءوه بالجحود ساعة أتاهم وأول ما سمعوه من غير نظر ولا فكر ﴿ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر أمره في البطلان.

ثم أضرب عن ذكر تسميتهم الآيات سحراً إلى ذكر قولهم إن النبي صلى الله عليه وسلم افتراه واختلقه وأسنده إلى الله كذباً، فقال: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ أي: بل أيقولون، ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ أي: لا تقدرون أن تردوا عني عذابه إن عذبني على افترائي فكيف أفتري على الله من أجلكم ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ تندفعون فيه من القدح في آياته والتكذيب وقولكم

إنه سحر ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ يشهد لي بالصدق وأن القرآن من عنده ويشهد عليكم بالإنكار والكذب، وهذا وعيد لهم على إفاضتهم في القرآن ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ لمن تاب وآمن منكم، وهذا فتح لباب الرحمة ليؤمنوا بعد الإنذار السابق بالكفر ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ بديعاً منهم أدعوكم إلى ما لا يدعون إليه، ولقد سبقني كثير من الأنبياء وأما أدعو كدعوتهم فكيف تنكرون نبوتي، أوَما كنت بدعاً من الرسل أقدر على ما لم يقدروا عليه وهو أنهم يأتون بكل ما يقترح عليهم. كلا. وإنّما ذلك بإذن الله، فليس لي من الأمر شيء، ويؤيد هذا المعنى قوله: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ في الدارين تفصيلاً، فما الغيب إلا لله، ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ لا أتجاوزه ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ من عقاب الله ﴿مُّبِينٌ﴾ بيّن الإنذار بالشواهد المبينة والمعجزات الصادقة، فلست أتجاوز ذلك إلى الإخبار بالغيب عما يقترحه المشركون، أو أخبر بأمري وأمر صحابي، أأترك في مكاني أم أخرج أنا وهم إلى أرض ذات نخل كما رأيت في منامي، فلست أعلم بتفصيل شيء من ذلك كله، ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ القرآن ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾.

وقوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وهو عبد الله بن سلام ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ أي: على نحو ذلك، وهو كونه من عند الله، ﴿فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ هذه الجملة كلها عطف على جملة ﴿كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ الخ، وجواب الشرط محذوف، أي: ألستم ظالمين، ويدل عليه قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. يقول تعالى: أخبروني إن اجتمع كون القرآن من عند الله مع كفركم به، واجتمع شهادة أعلم بني إسرائيل على نزول مثله مع استكباركم عنه وعن الإيمان به، ألستم أضلّ الناس وأظلمهم؟ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لأجلهم ﴿لَوْ كَانَ﴾ الإيمان ﴿خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ وهم سقاط فقراء، مثل عمار وصهيب وابن مسعود من العرب، ومثل عبد الله بن سلام من اليهود، ﴿وَ﴾ ظهر عنادهم ﴿إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ﴾ وهذا سبب في افترائهم إذ يقولون إنه إفك قديم، وهذا قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ وكيف يكون إفكاً قديماً ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: القرآن ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ وهو التوراة حال كونه ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا﴾ القرآن ﴿كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ لكتاب موسى وغيره، فكيف يكون إفكاً قديماً، إذن هو صدق قديم لا إفك حال كون الكتاب ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ والتوراة عبري، فتصديق الأول للثاني دليل على اتحادهما صدقاً، واتحاده مع ما قبله أوكد في الصدق، فبطل كونه إفكاً قديماً وثبت الصدق القديم، وقوله: ﴿لِّيُنذِرَ﴾ أي: ليخوف متعلق بقوله: ﴿مُّصَدِّقٌ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أشركوا ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: للإنذار والبشارة. انتهى المقصد الثاني.

المقصد الثالث

في أهل الاستقامة الذين وحدوا وصدقوا بالنبوة، وأن جزاءهم الجنة وذكر بعض وصايا تتعلق بالمؤمنين من إكرام الوالدين وذكر المحاورات بين الوالدين والمولودين إلى آخر ما قدمناه

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ جمعوا بين فضيلتي العلم والعمل الذي هو نتيجة العلم الذي هو أشرف منه، فلذلك قدّم عليه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مما يلحقهم في المستقبل

﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على فوات محبوب، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ من التحلية بالعلم والعمل، و« جزاء » مصدر، أي: جوزوا جزاءً الخ. ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾ أي: وصيناه بأن يحسن بوالديه ﴿ إِحْسَٰنًا ﴾ أو وصيناه بوالديه أمراً ذا حسن، أي: بأمر ذي حسن، فهو بدل اشتمال من قوله: ﴿ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾. وفيه قراءتان كما عرفت. ثم ذكر سبب هذه التوصية وخص الكلام بالأم لأنها أضعف وأولى بالرعاية وفضلها أعظم، ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا ﴾ أي: حملاً ذا كره ﴿ وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ وهو المشقة فيهما، ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ﴾ أي: ومدة حمله وفصاله، أي: فطامه ﴿ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ وفي أثناء ذلك تكابد أمه الآلام في التربية، ويؤخذ منه أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، لأننا نعتبر مدة الإرضاع حولين كاملين لقوله تعالى: ﴿ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ [البقرة: ٢٣٣] فلم يبق للحمل إلا ستة أشهر، وبذلك يعرف أقلّ الحمل وأكثر الرضاع لتحقق حكم النسب والرضاع. ويروى ابن عباس أنه قال: « إذا حملت المرأة تسعة أشهر أرضعت إحدى وعشرين شهراً، وإذا حملت ستة أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهراً ». ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ جمع شدة عند سيبويه، وهو جمع لا واحد له من لفظه عند غيره، أي: حتى إذا اكتهل واستوفى السن التي تستحكم فيها قوته وعقله، وذلك فيما بين الثلاثين والأربعين، وقوله: ﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ بيان لنهاية تلك المدة ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ ﴾ ألهمني ﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ ﴾ من التوحيد والإسلام ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ﴾ أي: واجعل لي الصلاح سارياً في ذريتي راسخاً فيهم ﴿ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ عما لا ترضاه، أو عما يشغل عنك ﴿ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ المخلصين لك، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ ﴾ أي: أعمالهم الصالحة التي عملوها في الدنيا، فالأحسن بمعنى الحسن فيثيبهم عليها ﴿ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ فلا نؤاخذهم بها لتوبتهم حال كونهم ﴿ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ أي: مع أصحاب الجنة، ولما كان قوله: ﴿ نَتَقَبَّلُ ﴾، و﴿ وَنَتَجَاوَزُ ﴾ وعداً لهم؛ أكده فقال: ﴿ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ في الدنيا، وهذه الآية تنطبق على سعد بن أبي وقاص وعلى أبي بكر الصديق اللذين قيل في كل منهما إنها نزلت فيه وتنطبق على كل مؤمن، فهو موص بوالديه وأمه حملته ووضعته كرهاً، وأرضعته حولين، وهو مأمور أن يشكر نعمة الله عليه، وعلى والديه، وأن يعمل صالحاً، وأن يسعى في إصلاح ذريته. كل ذلك بالجدّ فيه ودعاء الله أن يوفقه له، فهذا له الجنة. وأما من اتصف بضد ذلك، فهو من يأتي وصفه، وهو: ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ ﴾ إذ دعواه إلى الإيمان بالله والإقرار بالبعث بعد الموت، وهو مبتدأ خبره ما سيأتي: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ﴾ [الأحقاف: ١٨] الخ، وهذا القائل يعم كل كافر عاق لوالديه مكذب بالبعث، وليس خاصاً بعبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه، إن صحّ أنها نزلت فيه قبل إسلامه، ومقول القول: ﴿ أُفٍّ ﴾ وهي كلمة للتضجر، كما أن كلمة « حس » للتوجع، وهذا التأفيف كائن ﴿ لَّكُمَآ ﴾ خاصة، ولأجلكما دون غيركما ﴿ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ ﴾ أبعث ﴿ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى ﴾ فلم يرجع واحد منهم ﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ ﴾ يقولان: الغياث بالله منك، أو يسألانه أن يغيثه بالتوفيق للإيمان، حال كونهما يقولان له: ﴿ وَيْلَكَ ﴾ وهو دعاء بالثبور، والمراد به الحض على الإيمان

لا حقيقة الهلاك ﴿ ءَامِنْ ﴾ بالله والبعث ﴿ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ ﴾ بالبعث ﴿ حَقٌّ فَيَقُولُ ﴾ لهما ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ﴾ أي: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ ﴾[ص: ٨٥] الخ، ﴿ فِىٓ أُمَمٍ ﴾ في جملة أمم ﴿ قَدْ خَلَتْ ﴾ مضت ﴿ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ ﴾ من الأبرار والفجار المذكورين في هذا المقام ﴿ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾ أي: منازل ومراتب من جزاء ما عملوا ﴿ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ أي: جزاءها ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ بنقص في ثواب، أو زيادة في عقاب، ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ أي: يعذبون فيها من قولهم: عرض بنو فلان على السيف، إذا قتلوا به، و« يوم » متعلق بفعل محذوف، أي: يقال لهم: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ ﴾ لذائذكم ﴿ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا ﴾ باستيفائها ﴿ وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ فما بقي لكم منها شيء ﴿ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴾ أي: الهوان ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ أي: باستكباركم الباطل وفسقكم. انتهى المقصد الثالث.

المقصد الرابع

قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ ﴾ أي: هوداً ﴿ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ ﴾ جمع حقف، وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء، من احقوقف الشيء إذا اعوجّ، وهو واد بين عمان ومهره، وقيل: كانت منازل عاد باليمن في حضرموت بموضع يقال له مهره، وكانوا أهل عمل سيارة في الربيع، فإذا هاج العود رجعوا إلى منازلهم، وكانوا من قبيلة إرم، وسيأتي إيضاح هذا المقام إيضاحاً تاماً. ثم قال تعالى: ﴿ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ ﴾ الرسل، جمع نذير، أي: المنذر ﴿ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ ﴾ قبل هود وبعده ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ أي: لا تعبدوا، أو: بألا تعبدوا ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ هائل بسبب شرككم ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا ﴾ لتصرفنا ﴿ عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾ عن عبادتها ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ من العذاب على الشرك ﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ في وعدك ﴿ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ لا علم لي بوقت عذابكم ﴿ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ ﴾ إليكم ﴿ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ لا تعلمون أن الرسل بعثوا منذرين، فلا يقترحون، ولا يسألون غير ما أذن لهم ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا ﴾ حال كونه سحاباً عرض في أفق السماء ﴿ مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ﴾ متوجهاً إليها ﴿ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ أي: يأتينا بالمطر، قال هود: ﴿ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ﴾ من العذاب، ثم فسره فقال: ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ تهلك من نفوس عاد وأموالهم الكثيرة ﴿ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ رب الريح، ﴿ فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ﴾ أي: فجأتهم الريح فدمرتهم، فصاروا بعد الهلاك لا يرى إلا آثار مساكنهم، لأن الريح لم تبق منها إلا الآثار والمساكن معطلة، ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ وذلك تخويف لأهل مكة ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ ﴾ أي: في الذي ما مكناكم فيه، فهم كانوا أكثر منكم عدداً وأشدّ قوة ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً ﴾ ليعرفوا نعمنا عليهم ويشكروها ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ ﴾ من الإغناء وهو القليل، وقوله: ﴿ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ الظرف منصوب بـ« ما أغنى »، وهو يجري مجرى التعليل، تقول: ضربته حيث أساء، أو إذ أساء، تريد تخصيص الوقت بالضرب لوجود الإساءة

فيه، وقد غلب هذا في «إذ» و«حيث»، ومنه ما يجري في أحكام القضاء بمصر إذ يقال: حيث حصل كذا وحيث حصل كذا حكمنا بكذا، فـ«حيث» متعلق بـ«حكمنا» في معنى التعليل، ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ نزل بهم ﴿ مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي: جزاء استهزائهم، هكذا ستكون حالكم يا أهل مكة.

ثم أخذ يذكر أهل مكة فقال: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ ﴾ كحجر ثمود وقرى قوم لوط ﴿ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَـٰتِ ﴾ كررنا عليهم الحجج، وأنواع العبر ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عن الطغيان إلى الإيمان فلم يرجعوا ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ﴾ أي: هلا منعهم من الهلاك آلهتهم الذين يتقربون بهم إلى الله، حيث قالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، وقوله: «اتخذوا» أي: اتخذوهم، و«آلهة» مفعول ثان، و«قرباناً» حال. ﴿ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ﴾ غابوا عن نصرتهم ﴿ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ أي: وامتناع نصرة آلهتهم وضلالهم عنهم إثر إفكهم الذي هو اتخاذهم إياها آلهة، وثمرة شركهم وافترائهم على الله الكذب. انتهى المقصد الرابع.

المقصد الخامس

اعلم أن بعض علمائنا يقولون: إن الجن فرق وملل كأهل الأرض من الإنس، ففيهم اليهود والنصارى، والمجوس، وعبدة الأوثان، وفي المسلمين منهم المبتدعة، ومن يقول بالقدر، وبخلق القرآن، وأجمع علماؤنا المحققون أنهم مكلفون. وسئل ابن عباس: هل للجن ثواب؟ قال: نعم. لهم ثواب وعليهم عقاب.

كيف كانوا يسمعون قراءة الرسول صلى الله عليه وسلم

(١) يقال: إن الجن كانت تسترق السمع، فلما حرست السماء عجبوا ودهشوا، وأرسلوا سبعة نفر، أو تسعة من أشراف جنّ نصيبين أو نينوى، فضربوا حتى بلغوا تهامة، ثم اندفعوا إلى وادي نخلة فسمعوا قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائم في جوف الليل، أو في صلاة الفجر.

(٢) ويقول سعيد بن جبير: ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجنّ ولا رآهم، وإنّما كان يتلو في صلاته، فمروا به فوقفوا مستمعين وهو لا يشعر، فأنبأه الله باستماعهم، وهذا القول كالذي قبله.

(٣) وقيل: بل أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينذر الجنّ ويقرأ عليهم، فصرف إليه نفراً منهم، فقال: إني أمرت أن أقرأ على الجنّ الليلة، فمن يتبعني؟ قالها ثلاثاً، فأطرقوا إلا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: لم يحضره ليلة الجنّ أحد غيري، فانطلقنا حتى كنا بأعلى مكة في شعب الحجون، فخط لي خطاً وقال: لا تخرج منه حتى أعود إليك، ثم افتتح القرآن، وسمعت لغطاً شديداً فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل رأيت شيئاً؟ قلت: نعم. رجالاً سوداً، فقال: أولئك جنّ نصيبين، وكانوا اثني عشر ألفاً، والسورة التي قرأها عليهم: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾[العلق: ١].

وهذا قوله تعالى: ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ إِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ أي: أملناهم إليك، والنفر دون العشرة وجمعه أنفار ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ ﴾ أي: الرسول ﴿ قَالُوٓا۟ ﴾ قال بعضهم لبعض: ﴿ أَنصِتُوا۟ ﴾ اسكتوا مستمعين. ﴿ فَلَمَّا قُضِىَ ﴾ أتم وفرغ من قراءته ﴿ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ إياهم

بما سمعوا . وبيّن ذلك الإنذار فقال : ﴿ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾ وقد كانوا يهوداً ، واليهود يكفرون بعيسى ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ من الكتب ﴿ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ﴾ إلى الله تعالى ﴿ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ ﴾ محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي : يغفر لكم ربكم ذنوبكم في الجاهلية وينجيكم من عذاب وجيع .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي : لا ينجي منه مهرب ﴿ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ﴾ يمنعونه منه ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ حيث أعرضوا إجابة من هذا شأنه ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾ ولم يتعب ولم يعجز ﴿ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أي : قادر ﴿ بَلَىٰٓ ﴾ جواب للنفي ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٣٣ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ يقال لهم : ﴿ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ﴾ والإشارة إلى العذاب ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ بكفركم في الدنيا ، ومعنى الأمر هنا الإهانة والتوبيخ لهم . انتهى المقصد الخامس .

المقصد السادس

قال تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ أولو الثبات والجدّ منهم ، فإنك من جملتهم ، و« من » للتبعيض ، وأولو العزم المذكورون في الأحزاب نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، فهؤلاء هم أصحاب الشرائع الذين أسسوها وصبروا على تحمل المشاق ومعاداة الطاعنين فيها ، وبعضهم جعل منهم يعقوب ويوسف وأيوب وداود لصبرهم . ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ لكفار قريش بالعذاب فإنه نازل بهم في وقته لا محالة ، ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾ فهم يستقصرون حينئذ مدة لبثهم في الدنيا حتى يحسبوها ساعة من نهار ، وهذا ﴿ بَلَٰغٌ ﴾ أي : هذا الذي وعظتم به لغاية في الموعظة ، ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ ﴾ هلاك : عذاب ، أي : فلن يهلك بعذاب الله ﴿ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ المشركون الخارجون عن الاتعاظ به ، والعمل بموجبه . انتهى التفسير اللفظي .

لطائف هذه السورة :

(١) في قوله تعالى : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الآية : ٢٠] .

(٢) في قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ ﴾ [الأحقاف : ٢١] .

(٣) في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ [الآية : ٢٩] .

(٤) في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [الآية : ٣٣] الخ

(٥) في قوله تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ ﴾ [الآية : ٣٥] الخ .

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى:

﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الآية : ٢٠] الخ

(١) لقد مرّ في بعض سور الربع الثالث من القرآن حكاية الربيع بن زياد وعمر رضي الله عنه ، وقد حضر الأول مع أبي موسى الأشعري من البحرين بأمر عمر رضي الله عنه ، وكان عاملاً لأبي

موسى، فلما مثلوا بين يدي الخليفة صوّب وصعد، ثم صوّب وصعد، فلم يعجبه غير الربيع من الولاة الذين ولاّهم أبو موسى، لأنه تزيا بالزي الذي يرضاه بإشارة يرفأ خادم الخليفة، ولما جلسوا على المائدة لم يجد رجلاً منهم قد أكل بشهوة إلا هو، وكان الطعام ليس مما يسر المترفين، فظن أن ذلك طبع فيه، فأخذ يكلمه، فرأى الربيع أن ذلك فرصة، فكلمه في أمر الطعام، وأنه كان الأليق أن يكون أنعم من هذا وأوفق لصحة أمير المؤمنين، فزجره، ثم قال: لو شئت لملأت هذه الأفنية من رقيق الطعام ولذيذه، ولكني رأيت الله ذمّ قوماً فقال: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا ﴾[الآية: ٢٠] الخ. انتهى ملخصاً بالمعنى. فانظر كيف كان يفهم الصحابة في القرآن، ولم يجعلوا الآية موجهة إلى الكفار فقط كما يظن أكثر المسلمين اليوم، فغاب عنهم كتاب الله تعالى.

(٢) اعلم أن الذي لا يريد من الحياة إلا اللذات يفقد اللذات، فإذا قال الله تعالى: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴾[الأحقاف: ٢٠] الخ؛ فاعلم أن لهذا القول صدى في هذه الحياة الدنيا، ولذلك نجد النهم وكثير الشبق يحرمان من اللذات متى انكبا عليها، وانظر إلى قول سقراط: إن العفيف يتمتع باللذات، ويحرم منها من ليس عفيفاً. وضرب مثلاً، فقال: ألم تر إلى من يكثر شرب الماء يحرم لذة الماء، فأما من عطش فإنه يستلذ، هكذا جميع اللذات. أقول: إن أكثر الناس في الدنيا غافلون نائمون.

(٣) جاء في البخاري ومسلم والنسائي عن أبي سعيد رضي الله عنه. قال: جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر، وجلسنا حوله، فقال: إن مما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا ـ أي حسنها ـ وزينتها، فقال رجل: أويأتي الخير بالشر؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأيناه أنه ينزل عليه، فأفاق يمسح الرحضاء، أي: العرق الشديد، وقال: أين هذا السائل؟ وكأنه حمده فقال: إنه لا يأتي الخير بالشر، وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً ـ نفخاً، يقال: حبط بطنه، إذا انتفخ فهلك ـ أو يلم إلا آكلة الخضر، فإنها أكلت حتى امتدت خاصرتاها فاستقبلت عين الشمس فثلطت ـ ثلط يثلط: ألقى رجيعه سهلاً رقيقاً ـ وبالت ثم ربعت، وإن هذا المال خضر حلو ونعم صاحب المسلم هو لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل، وإن من يأخذه بغير حقه كمن يأكل ولا يشبع، ويكون عليه شهيداً يوم القيامة. اهـ.

وملخص الحديث أن المال وكل ما على الأرض خير، وهذا أشبه بالعشب النابت في الأرض بالمطر، فمن البهائم ما تستضر بأكله فتنتفخ وتموت، ومنها ما تأكل وتستريح، وقد وافقها النبات، فالعيب ليس من نفس النعمة، بل العيب من المنعم عليهم، فإذا كثر المال، فإن جعل للكنز أضرّ بصاحبه، وإن جعل للإحسان والمنافع العامة نفع صاحبه، فالمال في حد ذاته ليس شراً، بل الشر والخير يرجعان للاستعمال وللمستعمل نفسه. وفي البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب. قال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو متكئ على رمال حصير، قد أثر في جنبه، فقلت: أستأنس يا رسول الله؟ قال: نعم، فجلست فرفعت رأسي في البيت، فوالله ما رأيت شيئاً يردّ البصر إلا أهبة ثلاثة فقلت: ادع الله أن يوسع على أمتك، فقد وسع على فارس والروم ولا يعبدون الله، فاستوى جالساً،

ثم قال: أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا، فقلت: استغفر لي يا رسول الله. وفي البخاري ومسلم أيضاً عن عائشة. قالت: ما شبع آل محمد من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفي رواية أخرى. قالت: إنا كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال، ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقد في أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار. قال عروة: يا خالة فما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم جيران من الأنصار، وكانت لهم منائح، فكانوا يرسلون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من ألبانها فيسقينا.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيت الليالي المتتابعة طاوياً، وأهله لا يجدون عشاء، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير. أخرجه الترمذي.

وفي البخاري عن أبي هريرة. قال: لقد رأيت سبعين من أصحاب الصفة ما منهم رجل عليه رداء، إما إزار وإما كساء، قد ربطوا في أعناقهم، فمنها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته.

وفي البخاري أيضاً عن إبراهيم بن عبد الرحمن أن عبد الرحمن بن عوف أتي بطعام وكان صائماً. فقال: قتل مصعب بن عمير، وهو خير مني، فكفن في بردة، إن غطى رأسه بدت رجلاه، وإن غطى رجلاه بدا رأسه. قال: وأراه قال: قتل حمزة وهو خير مني، فلم يوجد ما يكفن به إلا بردة، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط، وقد خشيت أن تكون عجلت لنا طيباتنا في حياتنا الدنيا، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام.

وقال جابر بن عبد الله: رأى عمر بن الخطاب لحماً معلقاً في يدي، فقال: ما هذا يا جابر؟ قلت: اشتهيت لحماً فاشتريته. فقال عمر: أوكلما اشتهيت يا جابر اشتريت، أما تخاف هذه الآية: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠] انتهت اللطيفة الأولى.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾

قد تقدم الكلام على قوم عاد في سابق هذا التفسير، وسيأتي بسط الكلام فيها.

اللطيفة الثالثة

في الكلام على الجنّ وأنهم آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم

إن من اطلع على ما تقدم في هذا التفسير يرى أن هذا الزمان هو الزمان الذي تظهر فيه أسرار القرآن. إن الملائكة والجنّ وأمثالهما لا يقوم عليها دليل عقلي، وما هي إلا سمعيات، والسمعيات لا برهان لها إلا السمع، فأما العقل فهو بمعزل عنها، فليس في العقول أن هنا جناً تحيط بنا ولا ملائكة، فمثل هذا القول نؤمن به مجرد إيمان ونسكت، هذا هو الذي عليه الرأي في الأمة، ولكن انظر إلى الأمم المحيطة بالأمة الإسلامية اليوم، انظر كيف أصبح قوله تعالى هنا: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾ [الأحقاف: ٢٩] الخ معقولاً، كما تقدم مراراً في هذا التفسير، وإذا كان العلامة الرازي في سورة «إبراهيم» يقول ناقلاً عن قدماء الفلاسفة: إن أرواح الناس

بعد الموت تكون إما ملهمة للخير أو موسوسة بالشر للناس على مقتضى طباعها. وهكذا الغزالي، وإخوان الصفاء، وغيرهم. فانظر اليوم إلى أمم أوروبا وتأمل كيف أصبحوا يخاطبون الأرواح التي فارقت الأجساد، وكيف يقولون إنهم بعد الموت على ما كانوا عليه من أخلاق وآداب وديانات وعلوم وأحوال، فالميت يموت ومعه جميع أخلاقه لم يفقد منها شيئاً، وانظر إلى قول أكبر عالم طبيعي في بلاد الإنجليز وهو اللورد أوليفرلودج إذ يقول: إن عالم هذه المدركات ـ أي: الأرواح ـ ليس عالماً غريباً عن عالمنا، فإن الكون واحد، إن مداركنا ونحن هنا على الأرض محدودة، فلا نرى كثيراً من الأمور التي تجري، ولكن تحيط بنا كائنات، وتعمل معنا، وتساعدنا، وقد عرفها قليل من الناس بعض المعرفة من الرؤى التي رأوها. وعندي أن كل ما تقول به الأديان من أن الملائكة والقديسين معنا، وأن الله نفسه يساعدنا على وجهه من غير تأويل، هذه الجملة نقلتها عنه في كتابي المسمى «الأرواح».

ثم إن السير أوليفرلودج من أشهر علماء الطبيعة في هذا العصر، وهو من المعتقدين أن أرواح الناس تخرج من أجسادهم وقتما يموتون، وتلبس أجساداً روحية، وتبقى في الفضاء بوجدانها ومشاعرها وقواها العقلية، وتتصل ببعض الأحياء، فيرونها بهذه الأجساد ويخاطبونها وتخاطبهم، كأنها لم تزل بأجسادها الأرضية، ويقول: إن هذا الاعتقاد سيشيع قريباً، إذ تكثر الأدلة على صحته، ويزيد عدد الذين يخاطبون الأرواح، فيتم الاتصال بين العالم الفاني والعالم الباقي، أو بين الحياة الدنيا والحياة الأخرى. كل هذا مذكور في كتابي «الأرواح»، وقد تقدم في سورة «آل عمران» وغيرها.

موازنة بين علماء الإسلام وعلماء أوروبا في هذا المقام

لقد قرأت في تفسير السورة اللفظي الذي تقدم قريباً ما قاله سعيد بن جبير من أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ والجنّ يسمعون، ولم يشعر هو بذلك، وما قاله عبد الله بن مسعود أنه خط له خطاً ولزمه، وقرأ النبي صلى الله عليه وسلم والجنّ يسمعون، وأن ابن مسعود رآهم. وأيضاً يقول بعض علمائنا إنهم أصناف، فمنهم اليهودي والمسلم، ومنهم النصراني والمجوسي الخ.

هذا ملخص ما تقدم، وانظر إلى علماء الأرواح كيف يقولون: إن حولنا عوالم تحيط بنا، فمنهم من هم أرقى منا علماً وأدباً، ومنهم من هم مثلنا، ومنهم أشرار، ومنهم أخيار، والأشرار والأخيار غير قاصرين على الأرواح التي خرجت من أجسام أهل الأرض، ومعلوم أن الملائكة يمتازون عن الجنّ بأمور أهمها أن الأولين كاملون، والآخرين ناقصون، ولقد علمت مما تقدم في هذا التفسير أن أرواحنا بعد الموت فيها القسمان: فمنهم من يلحقون بعالم الملائكة أي أنهم أخيار، ومنهم من يلحقون بعالم الشياطين أي أنهم أشرار، ويقول علماء أوروبا: إن الاتصال بين عالم الأجسام وعالم الأرواح حاصل الآن بالاستحضار وسيكثر ذلك، وانظر لهذه الآية وغيرها فإن الاتصال قد تم بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين عالم الملائكة وعالم الجنّ. فالأولون اتصل بهم فأوحي إليه على أيديهم، والآخرون اتصل بهم فعلمهم، وهل كان هؤلاء الجنّ من أرواح الناقصين من أهل الأرض كاليهود الذين ماتوا، أو هم أرواح جاهلة لم تكن في الأجسام، وإنّما مذاهبها وأخلاقها مقتبسة من أخلاق أهل الأرض وآرائهم.

هذا ما لا نعلمه، وإنّما مثل هذا يجب على الأمة الإسلامية بعدنا أن تجدّ في بحثه، وتنظر في أمره، لأن ذلك أجمل العلوم وأشرفها، وأي علم أشرف من أن نعرف مستقبلنا بعد هذه الحياة، وأن ندرس العوالم التي هي أرقى منا والعوالم الأخرى، ولقد جاء ذكر قراءة النبي صلى الله عليه وسلم عن الجنّ لندرس هذه المسائل ونفكر فيها، والتفكير فيها باب العلم النافع، فإذا شك المسلم واشتبه عليه أمر الجنّ، ودهش من أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ على الجنّ، فهذا مهماز من الله، وسبب يسوقه إلى الدراسة والعلم، وقراءة علم الأرواح واستحضارها، ومعرفة أحوالها، وبهذا يرتقي العقل الإنساني ويستنير. إن المسلمين يمرون على مثل هذه الآيات مر الكرام، ولكن الأجيال المقبلة سيدرسونها، ويعرفون الحقائق بأنفسهم لا بتقليد الفرنجة الذين نقلنا عنهم، ولقد مهد لنا أسلافنا فوجب علينا أن نمهد السبيل لمن بعدنا حتى يقفوا على الحقائق. انتهت اللطيفة الثالثة، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الرابعة: في قوله تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾

اعلم أن الله ابتدأ السورة بما يتحقق منه المبدأ، فهاهنا ختمت بما يثبت المعاد. انتهت اللطيفة الرابعة.

اللطيفة الخامسة: في قوله تعالى:

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾

هم ذوو الحزم، والجدّ، والصبر، والرأي، والعقل الكامل، ويقال: إن كل الرسل كانوا أولي عزم واستثنى بعضهم يونس، وخصصهم بعضهم بالثمانية عشر المذكورين في الأنعام الذين قال فيهم: ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾[الأنعام: ٨٢]. وقيل هم ستة: نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم الصلاة والسلام. وبهذا تم الكلام على اللطيفة الخامسة، والحمد لله رب العالمين.

بهجة العلم في قوله تعالى:

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ ﴾[الأحقاف: ٢٠]

إلى قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾[الأحقاف: ٢٥]

في هذا المقام فصلان:

الفصل الأول: في قوله تعالى: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ ﴾[الأحقاف: ٢٠] الخ

الفصل الثاني: في تحقيق الكلام في أمر عاد، وأين مساكنهم، وفي الأحقاف، وفي الخريطة الجامعة لديارهم، وفي قبر هود وصالح عليهما السلام.

الفصل الأول: في قوله تعالى: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ ﴾

هذه الآيات وما يماثلها فيها:

أولاً: ذهاب الطيبات بالاستمتاع بها في الحياة الدنيا.

ثانياً: المجازاة بالعذاب الهون بسبب الاستكبار في الأرض بغير الحق، وبسبب الفسق.

ثالثاً: ضرب مثل لذلك بقصة عاد، وأنهم كفروا، فأهلكوا، وأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم، لأنهم مجرمون.

رابعاً: جاء في سورة « حم السجدة » أن عاداً استكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة.

خامساً: جاء في سورة « القصص » أن فرعون اتصف بصفتين هما: العلوّ في الأرض والإفساد فيها.

سادساً: جاء في نفس السورة نهي قارون عن الإفساد في الأرض.

سابعاً: جاء في آخر سورة « القصص » أن الدار الآخرة تجعل للذين لا يريدون علوًّا في الأرض ولا فساداً.

فلتنظر إذن في هذه الآيات التي نحن بصددها. فنقول: هاهنا قاعدة في هذه السورة وهي أن الشهوات البهيمية، والاستكبار في الأرض، والفسق فيها، عاقبتها العذاب الهون، ولما كانت عاد قد استكبروا في الأرض بغير الحق كما تقدم ناسب أن يضرب بهم المثل في ذلك، كما جعل قارون مثلاً لمن علوا في الأرض، وأفسدوا فهلكوا، وهكذا فرعون.

هذا إجمال ما نريده في هذا المقام، واعلم أيها الذكي أرشدك الله، ولقاك من لدنه علماً أن القضايا الكلية ما لم يؤت لها بالأمثال والحوادث الواقعة فقليلاً ما تؤثر في عقول الأمم، وإذا رأينا الله عز وجل يضرب لنا مثلاً بعاد المستكبرين في الأرض بغير الحق، وأنه أهلكهم بظلمهم واستكبارهم، وعذبهم في الدنيا وفي الآخرة إذ قال: ﴿ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾[فصلت: ١٦].

ولا جرم أن هذا القول كان مؤثراً أشد الأثر في أفئدة الأمم العربية، وهم آباؤنا لأنهم كانوا أقرب إلى تلك الأمم، ونحن اليوم نسمعه في القرآن يتلى علينا، والله يقول: ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ﴾[إبراهيم: ٢٥]، ويقول: ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[النحل: ٤٤].

فلتكن قصة عاد وأمثالها ضرب مثل يتبعه أمثال متلاحقة، ونسبة الدول الإسلامية الأموية والعباسية والتركية والطولونية والإخشيدية والأيوبية والفاطمية والبويهية والغزنوية إلينا نحن الآن كنسبة عاد وثمود إلى آبائنا أيام النبوة، فلئن اكتفوا بتلك الأمم فلأنهم أعرف بها منا، وليس عندهم غيرها، أما نحن فإننا لا نعرف عن تلك الأمم مع بعدها الشاسع عنا إلا أنباء مجملة لا تفي بالمقصود، فوجب أن نتبعها بأمثال من الدول الإسلامية، لننظر في ممالك الإسلام السابقة، هل بغوا في الأرض بغير الحق، وهل أذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا واستمتعوا فيها؟ وهل ذاقوا عذاب الخزي في الحياة الدنيا لما استمتعوا بالطيبات فيها؟ وهل كان في هذه الأمم قوم مخلصون صادقون يمكننا أن نقلدهم الآن ونتبع خطواتهم.

إذا وجدنا ذلك، وأثبتناه في هذا التفسير، واطلع عليه المسلمون، فإن ذلك موجب لسرعة ارتقاء هذه الأمة، لأنهم يرون التطبيق على القاعدة حاضراً عنهم ظاهراً واضحاً، يقرؤونه في تاريخ الأمم القريبة منهم، وهنالك يتم الأمر وتنتظم الأحوال، ويفيد التاريخ حقاً فائدته التامة، فأما قراءة القرآن وفهمه، ومعرفة القاعدة العامة، والاقتصار في التطبيق على الآثار البعيدة العامة، وجهل الوقائع القريبة المعروفة للأمم الإسلامية، فإن ذلك معناه الجهل العام، وتقل الفائدة العملية، إن القواعد بلا تطبيق عليها كشجر بلا ثمر، وكأرض طيبة لم تزرع.

فهأنا ذا أيها الذكي أفصل هذا المقام في مبحثين:

المبحث الأول: في أن اتباع الشهوات وعدم المحافظة على الصحة توجب ضعف الأجسام وعدم الانتفاع بالحياة.

المبحث الثاني: في أن التبذير في الأموال والإسراف سبيل لهلاك الأفراد والأمم.

أما المبحث الأول

وهو أن الإسراف في المطاعم والمشارب يعذب الإنسان عليها في الحياة الدنيا بالأمراض وعدم الانتفاع بالحياة؛ فذلك واضح أشد وضوح في سورة «ص» إذ أبنت هناك كيف ظهر أن الطب الحديث يحرض على ترك أنواع من الطعام متداولة بين الناس، ويوجب الإقلال من الأغذية، ويحتم الرياضة البدنية، وهناك ترى أن سيرته صلى الله عليه وسلم في طعامه، وسيرة أبي بكر وعمر وعليّ ومن نحا نحوهم، كانت أقرب إلى الطب الحديث، وأن ذلك موجب لقوة الأبدان، والإخلال بذلك يورث الخزي في الحياة الدنيا بالأمراض، والأمراض توجب الحرمان من نعم كثيرة، لولاها لارتقى الإنسان في الآخرة درجات بأعماله. وهناك ترى كيف كان لقدماء الفلاسفة آراء في تربية الجند والملوك والأمراء، وأن هذه الآراء لم يظهر لها أثر ما، ولكن في الصدر الأول من أممنا الإسلامية ظهرت آثار بطريق الوحي لا بالفلسفة التي لم يعمل بها أحد في الأمم التي ظهر فيها أولئك الفلاسفة، فذلك فضلاً عن كونه معجزة هو تطبيق على الآية هنا في المبحث الأول من مبحثيها، ولا أدلّ على ذلك من قول عمر رضي الله عنه للربيع بن زياد فيما مرّبك: لو شئت لملأت هذه الرحاب صلائق وسبائك وصناباً، ولكني رأيت الله عز وجل عيّر قوماً فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

فلأقتصر في المبحث الأول على هذا، ففيه غنية لذي لب، لا سيما إذا أضاف إليها ما جاء في سورة «الشعراء» و«طه» و«الحجر» و«الأعراف» و«البقرة» من المسائل الطبية الواضحة هناك.

المبحث الثاني

في أن التبذير في الأموال والإسراف سبيل لهلاك الأفراد والأمم

لما وصلت إلى هذا المقام قال لي صاحبي العالم الذي اعتاد أن يحادثني في هذا التفسير: لقد أجدت في المبحث الأول، أما المبحث الثاني فليس من حقك أن تكتب فيه شيئاً، بل يجب أن تشير إشارات إلى ما كتبته فيما تقدم، لقد جاء في هذا التفسير العبر، والمبتدأ والخبر، بتقلب الدهر وضياع الأمم بجهلها وشرها، وهل بعد ما تقدم في سورة «النمل» من شرح الأمم التي هلكت بظلمها، وبعد سورة «الإسراء» وسورة «سبأ» وغيرها من المباحث التي بها ظهر أن أمم الإسلام التي نحن أبناؤها قد حلّ بها الوبال والهلاك بظلمها، وليس بعد ما قلته في أمم الإسلام قول لقائل، فإنك ضربت الأمثال في أكثر السور بنفس التاريخ وشرحت شرحاً وافياً، فأصبح التعليم بذلك نافعاً ناضجاً، وهل بعد ذلك قول لقائل؟ إن ما تكتبه الآن لا يكون إلا تكراراً وتحصيل حاصل. فقلت:

أيها الذكي، إني خطر لي أمس أمر عجيب في هذه الآيات! فإني ما كدت أقرأ هذه الآيات، وأعرض معناها على عقلي حتى حضرت في نفسي القرون الأولى وحكمتها وشهواتها.

لقد والله استحضرت الأمم وحكماءها وملوكها، كأنها كتاب أقرؤه، وكأنها تفسير لكتاب الله تعالى في هذا المقام.

أيها الذكي، إني أعجب لقلبي، وكيف تلوح له المعاني المختلفة فيراها موافقة. فقال لي: هذا الكلام مجمل ففصله، وموجز فبيّنه. فقلت: إن هذا القرآن قد أوضحته عقول الحكماء قبل نزوله، وفسره الفلاسفة قبل الإيحاء به، ثم فصلته وقائع الملوك بعد نزوله، وأظهرته حوادث المسلمين في الأزمان الغابرة. فقال: إن هذا إجمال فسرت به إجمالاً، وأظن أني لم أصل للحقيقة، فأنت في مستوى الإجمال، ولكن عقلي وفهمي في مستوى التفصيل. فقلت: الآن أقول: إن الدين إذا نزل من السماء، ثم جاء أتباعه فوجدوا العقول الكبيرة قد فصلته قبل نزوله بالبرهان، ثم جاءت الحوادث بعد ذلك وفصلته، فإنه يكون ديناً غاية في العجب! مزدوج البرهان.

انظر إلى هذه الآية: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ﴾[الأحقاف: ٢٠] الخ، وإلى جمهورية أفلاطون، أفليس من العجب أننا نرى أفلاطون في كتابه الثالث يقول ما ملخصه تحت عنوان «دستور المدينة»:

قال: ولا يجوز تشجيع مخاوف الموت في قلوبهم بإخبارهم أن الحياة في العالم الآتي مظلمة، ولا تمثيل صفات أكابر الرجال لبصرهم وسمعهم بصورة محقرة، أو مضحكة، أو دنية، بل يجب أن تكون الشجاعة والحق وضبط النفس لحمة كل القصص المستعملة في تهذيبهم وسداها. ثم قال: إن الصورة التي بها تزف القصص إلى عقولهم تؤثر في طبيعة نفوذها أعظم تأثير، فيجب أن يكون قرض الشعر إما تمثيلياً صرفاً كما في الرواية، أو قصصياً صرفاً كما في خمرية باخس، أو مركباً من النوعين كما في الشعر القصصي، ولا يمكن الشخص الواحد أن يعمل أو يجيد تمثيل أشياء كثيرة، فمن ثم إن أتيح لهم درس التمثيل فليقتصروا على تمثيل رجال الصفات السامية المحترمة، والنسق الذي يستعمله أناس هذه الطبقة في الإلقاء وفي التأليف بسيط فعال يندر أن يتلبس بالتمثيل، فهذا هو النسق الذي يجب أن يؤذن للحكام بأن يستعملوه في إلقائهم، والذي يتبعه الشعراء القائمون على تهذيبهم، ويجب أن يسن لهم نظام شديد التدقيق في الأغاني والألحان والآلات الموسيقية، فلا يسلم لأمة كاملة آلات موسيقية تنشئ فيها الرخاوة وتثبيط العزائم، فيحظر عليهم كل الآلات الموسيقية إلا العود والقيثارة والزمر، ويحظر عليهم أيضاً كل الألحان المركبة، والبسيط من هذه هو المباح لهم، وغرض كل هذه القوانين هو أن يتربى ويرتقي في عقول التلاميذ الشعور بالجمال والاتساق والاتزان، وهي صفات تؤثر في سجيتهم، وفي علاقاتهم المتبادلة.

وبعد ما بحث سقراط بحثه السابق في الموسيقى الإغريقية تقدم للنظر في الجمناستيك. فقال: يجب أن يكون طعام الحكام بسيطاً ومعتدلاً وصحياً، و ذلك يغنيهم عن الاستشارة الطبية إلا في أحوال استثنائية، وقد نخطئ في هذا الموقف إذا اعتبرنا أن نسبة الجمناستيك للجسد هي نفس نسبة الموسيقى للعقل، ويجب القول: إن الجمناستك يراد لترقية العنصر الحماسي في طبيعتنا، كما تراد الموسيقى لترقية العنصر الفلسفي، وأقصى أغراض التهذيب إعداد هذين العنصرين، ومزجهما معاً على نسبة عادلة متزنة.

هذا ما يقال في شأن تهذيب الحكام وتدريبهم، فمن هذه الطبقة العالية يجب انتقاء القضاة، ويلزم أن يكونوا من أكبر أعضاء الجسم الاجتماعي سناً، وأوفرهم فطنة، وأعظمهم جدارة، وأعرفهم وطنية، وأقلهم أنانية، هؤلاء هم الحكام الحقيقيون، والذين دونهم يسمون مساعدين، ولكي تقنع الأمة بعدالة هذه الأنظمة وحكمتها ينبغي لنا أن نقص عليهم القصة التالية، وهي: أنهم كلهم قد نسجوا أولاً في أحشاء الأرض أمهم الكبرى، وقد سرّت الملائكة أن تمزج بجبلة بعضهم ذهباً، وفي جبلة بعضهم الآخر فضة، وفي غيرهم نحاساً وحديداً، فالفئة الأولى هم الحكام، والثانية المساعدون، والثالثة الفلاحون والصناع، ويجب رعاية هذا القانون وتخليده، وإلا حلّ بالدولة الدمار.

وأخيراً يجب وقف محلة في المدينة لهؤلاء الحكام ومساعديهم يعيشون فيها عيشة شظف وتقتير ساكنين الخيام لا البيوت، معتمدين على تبرعات الأهالي، وأخيراً يجب أن لا يمتلكوا ملكاً خاصاً وإلا انقلبوا ذئاباً بدل كونهم كلاباً حارسة.

ثم قال سقراط: أفنحصر أنفسنا في مراقبة شعرائنا، فنوجب عليهم أن يطبعوا منظوماتهم بطابع الخلق الحميد، وإلا فلا ينظمون، أو نوسع نطاق مراقبتنا فتشمل أساتذة كل فن، فنحظر عليهم أن يطبعوا أعمالهم بطابع الوهن والفساد والسفالة والسماجة، سواء في ذلك رسوم المخلوقات الحية، أو الأبنية، أو أي نوع آخر من المصنوعات، ومن لا يستطيع غير ذلك فلننهه عن العمل في مدينتنا، لكي لا ينشأ حكامنا في وسط صور الرذيلة نشوء الماشية في مزارع رديئة، فتتسرب الأضرار إلى نفوسهم فتفسدها بما تلتهم يوماً فيوماً من الأقوات من مختلف المواقع، فيتجمع في نفوسهم مقدار وافر من الشر وهم لا يشعرون، وعلى الضد من ذلك أولاً يجب علينا أن نستدعي فنيين من طراز آخر فيتمكنون بقوة عبقريتهم من اكتشاف أثر الجودة والجمال، فينشأ شبابنا بينهم كما في موقع صحي، يتشرّبون الصلاح من كل مربع تنبعث منه آي الفنون، فتؤثر في بصرهم وسمعهم كنسمات هابة من مناطق صحية فتحملهم منذ حداثتهم دون أن يشعروا على محبة جمال العقل الحقيقي والتمثل به، ومطاوعة أحكامه.

غلوكون: إن ثقافة كهذه هي أفضل الثقافات.

سقراط: فلهذا يا غلوكون نعزو إلى تهذيب الموسيقيّ شأناً خارقاً، فإن الإيقاع واللحن يستقرّان في أعماق النفس ويتأصلان فيها فيبثان فيها ما صحباه من الجمال، فيجعلان الإنسان حلو الشمائل إذا حسنت ثقافته، وإلا كان الحال بالعكس، ومن حسنت ثقافته الموسيقية، فله نظر ثاقب في تبين هفوات الفن وفساد الطبيعة فيفندها ويمقتها مقتاً شديداً، ويهوى الموضوعات الجميلة، ويفتح لها أبواب قلبه، فيتغذى بها، فينشأ شريفاً صالحاً، وإذا كان منه ذلك وهو بعد فتى دون سن الرشد قبلما يبرز في تلك الأمور حكماً عقلياً، فإنه متى بلغ رشده يزداد ولعاً بها عن معرفة، إذ تربى عليها وألفها.

غلوكون: لا أرتاب في أن هذه هي أغراض التهذيب الموسيقي. انتهى.

ثم هاهو ذا نراه في صفحة ٧٩ في النسخة المترجمة بالعربية يقول:

(١) يجب على حكام الدولة أن يتجنبوا المسكر، لأن الحاكم راع، وإذا سكر الراعي فمن ذا الذي يرعاه.

(٢) إن الحاكم مجاهد مدة حياته، فكيف يسكر المجاهدون وهم في الميدان.

(٣) طعامهم يجب أن يكون بسيطاً، وإلا جلب لهم النعاس، وهدد الصحة.

(٤) إذا حادوا عن أطعمتهم قيد أنملة انتابتهم الأمراض، واشتد عليهم الخطر.

(٥) يجب أن يكون رجال الحرب يقظين كالكلاب الحارسة.

(٦) إن «هومروس» الشاعر المشهور وصف الجنود على ضفاف الدردنيل بأنهم شووا اللحم فقط ولم يسلقوه.

(٧) ويقول في صفحة ٨٠: إنني لا أستحسن طعام السيراتومسيسين، ولا كثرة أنواع الطعام عند الصقليين.

(٨) وقال: أنكر على الرجال الذين يحبون أن يحرصوا على سلامة أجسادهم تسري الفتيات «الكريديات».

(٩) وأخذ يشنع على أهل أثينا تأنقهم في صنوف الحلوى.

(١٠) ويقول أيضاً في صفحة ٨١: إن هناك اتفاقاً تاماً بين تنوع الموسيقى، وتنوع الطعام، فتنوع الموسيقى يجلب الفجور في النفس، وتنوع الطعام يولد عللاً في الجسد، والبساطة في التمرينات البدنية تولد في الجسد صحة، والبساطة في الموسيقى تولد في البدن عفة.

(١١) إذا انتشرت في المدينة الأمراض وصور الفجور، اضطر الناس لإنشاء المستشفيات، ولإنشاء المحاكم، وهناك هناك يتيه الطب عجباً، والحقوق تكبراً، ويقف كثير من الشرفاء حياتهم على هذه المهن بوافر الرغبة، وكثرة المستشفيات في الأمة، ووفرة القضاة فيها دليل على سوء تهذيب المدينة، وانحطاط سكانها. وأي برهان أقطع على سوء تهذيبها من كثرة المستشفيات والقضاة!.

(١٢) ما أكثر غرور الرجل الذي يضيع حياته بين مدّع ومدّعى عليه، ويظن جهلاً وغباوة أنه ماهر في ارتكاب الكبائر، وأستاذ في الحيل، والمواربة، والدهاء والمكر، بتملصه من قبضة العدالة والنجاة من براثن العقاب. وكل ذلك لأجل الحصول على أشياء طفيفة تافهة، جاهلاً أفضلية الحياة المنظمة المتسقة وجمالها، فهي أفضل وأشرف من مثوله أمام قاض خامل.

(١٣) وقال سقراط في صفحة ٨١ أيضاً: إن الاحتياج إلى المعالجة الطبية عيب، اللهم إلا ما كان لجرح، أو لمرض موسمي وافد. إن عاراً علينا الاحتياج إلى المعالجة الناشئة من كسلنا، ونوع معيشتنا التي بها تملؤنا الرياح والأخلاط كما تملأ المياه القذرة الحمأة، وتظهر أسماء جديدة للأمراض مثل قولهم: تطبل البطن، الزكام الخ.

(١٤) وأخذ في صفحة ٩١ يقسم الناس إلى ثلاثة أقسام: ذهب وفضة وحديد، وبرهن على أنه يجب أن يوضع كل امرئ في مركزه، ويقطع النظر عن مركز والده، فالذهب حاكم، والفضة تساعد، والحديد فلاح، ولا يجوز الخلط، فلا عبرة إلا بالاستعداد، والنسب هنا لا قيمة له.

وقال سقراط: يلزم أن تكون الخيام كافلة وقايتهم من تأثير الإقليم صيفاً وشتاءً.

غلوكون: حسناً فيظهر أنك تعني بها أن تكون بيوتاً لا خياماً، هذا إذا لم أكن مخطئاً في ظني.

سقراط: نعم. ولكن بيوتاً عسكرية، لا بيوت أغنياء.

غلوكون: فما الفرق بين هذه وتلك؟.

سقراط: سأريك، فإن من أفظع أعمال الرعاة وأدعاها إلى الخزي في الرعية أن كلابهم التي ربوها لحراسة القطيع تهجم على الأغنام، إما لسبب جوعها أو نهمها، فتمزقها بأنيابها، فتكون ذئاباً لا كلاباً حارسة.

غلوكون: حقاً إنه أمر شائن.

سقراط: أفلا يلزم الاحتياط لئلا يفعل مساعدو حكامنا هكذا بالأهلين، لأنهم أقوى منهم، فيصيرون وحوشاً ضارية بدل كونهم حلفاء صادقين؟.

غلوكون: يلزم ذلك.

سقراط: أوَلا يتسلحون بأفضل ضمان إذا تهذبوا تهذيباً حسناً؟.

غلوكون: لقد سبق أن سلمنا أنهم مهذبون.

سقراط: ليس من الضرورة يا عزيزي غلوكون الوقوف عند هذه النقطة، ولكن الأمر الأجدر بأعظم أهمية هو الإصرار على ما قلناه، وهو أنه يجب أن يهذبوا تهذيباً صحيحاً مهما يكن من أمرهم إذا أريد بهم الحصول على أعظم مؤهلاتهم للحنان واللطف نحو رفاقهم ونحو الذين يحكمونهم.

غلوكون: حق.

سقراط: علاوة على ذلك التهذيب، فإن الرجل الحكيم يقول: يجب أن تكون بيوتهم مما لا يحول دون كونهم حكاماً كاملين، ولا تمكنهم من الإضرار بالآخرين.

غلوكون: ويحق يقول.

سقراط: فاعتبر الرأي التالي: أيوافق حياتهم وسكنهم إذا أريد أن يكونوا على ما ذكرت من الأوصاف الأمور التالية:

أولاً ـ أن لا يتملك أحدهم عقاراً خاصاً ما دام ذلك في الإمكان.

ثانياً ـ ولا يكون لأحدهم مخزن أو مسكن يحظر دخوله على الراغبين، فليكونوا في أسمى ما يتطلبه الأعفاء الشجعان المدربون تدريباً حربياً، ويجب أن يقبضوا من الأهلين دفعات قانونية أجرة خدمتهم، بحيث لا يحتاجون في آخر العام ولا يستفضلون، ولتكون لهم موائد مشتركة كما في ثكنات الجنود، وأن يخبروا أن الملائكة ذخرت في نفوسهم ذهباً وفضة سماويين، فلا حاجة فيهم إلى الركاز الترابي، وعيب عليهم أن يدنسوا بصناعة الملائكة السامية بمزجها بالذهب الفاني، لأن نقود العامة فيها دخل كثير، وهي مجلبة لكثير من الشرور، ولكن ذهب الحكام السموي عديم الفساد، فهم وحدهم من بين كل رجال المدينة مستثنون من مس الفضة والذهب، فلا يدخلونهما تحت سقفهم، ولا يحملونهما، ولا يشربون بكؤوس صيغت منهما، وبذلك يصونون أنفسهم ودولتهم، لكنهم إذا امتلكوا أراضي وبيوتاً ومالاً ملكاً خاصاً صاروا مالكين وزرّاعاً عوض كونهم حكاماً، فيصيرون سادة مكروهين، لا حلفاء محبوبين ويصبحون مبغَضين ومبغِضين، يكاد لهم ويكيدون، فيقضون الجانب

الأكبر من حياتهم في هذا العراك، وخوفهم العدو الداخلي أكثر جداً من العدو الخارجي. ففي حال كهذه يسرعون بالدولة إلى الدمار، فلأجل كل ما ذكر هل نبرم ما قررناه في مصير حكامنا بالنظر إلى بيوتهم وغيرها، ونربط ذلك بأحكام الدستور أم لا؟.

غلوكون: نبرمه ونربطه. انتهى.

(١٥) وهنا منع سقراط منعاً باتاً بإدخال بدعة جديدة في الموسيقى، وفي التمرينات العضلية «الجمناستك». وإن ظهور نشيد، أو أغنية جديدة، فيها فتح الشهوات، يحدث خللاً في سياسة الدولة. وقال: يجب أن يكون التسلي والتلهي بالأمور المشروعة، لأن الملاهي إذا كانت غير مشروعة انغمس الأحداث فيها واستحال أن يشبوا رجالاً مخلصين.

(١٦) وفي صفحة ١٠١ أخذ يذكر أن النهمين في الطعام والشراب تكون حياتهم كلها محيرة مضطربة، يعيشون بين أيدي الأطباء ولا يستفيدون منهم شيئاً، بل يسيرون من رديء إلى أردأ، وهم دائماً بحاجة إلى من يصف لهم الدواء. قال: ومن المدهش أنهم يبغضون من يصرّح لهم بالحق، ويؤكد لهم أنهم ما لم يعدلوا عن النهم والشراب والفجور والتراخي، فإن العقاقير لا تفيدهم، ولا كيّ، ولا بتر، ولا تعاويذ، ولا أربطة، ولا شيء آخر من أمثال هذه. وهاهنا أخذ يقيس رجال السياسة في الأمة على أحوال الفرد الواحد السكير المعربد، قال: فكما أن الشره في الطعام المواظب على طلب اللذات مغرور لا يسمع نصح الناصحين، هكذا رجال الدولة الفاسقة سيئة النظام يكرهون من يتعرض لقوانينهم، ولا يحبون إلا من يتملق لهم ببراعته ويمدح سوء فعلهم.

(١٧) ولما كانت هذه الشرائط كلها لا يمكن كمالها في الأرض، قال في صفحة ١٢١ وما بعدها ما نصه: إن غرض تبيان نظام الدولة الكاملة سعياً وراء الغرض المقصود منها هو اكتشاف طبيعة العدالة أما إمكان إنشاء دولة كهذه بالفعل فهي مسألة أخرى، ليس لها أقل أثر في سلامة النظام وصحة نتائجه وكل ما يصح أن يطلب منه هو أن يبين كيف يمكن الهيئات الناقصة الحاكمة حالياً أن تبلغ أقرب نقطة ممكنة إلى مدى السياسة الكاملة التي مرّ وصفها، وهنالك انقلاب واحد لا بد منه لتحقيق هذا الغرض وهو تسليم مقاليد السياسة إلى الفلاسفة، وللتخلص مما يلابس ذلك من وجوه المقاومة يلزم أن نلوي عنان البحث إلى تحديد الفيلسوف الحقيقي.

(أولاً) الفيلسوف الحقيقي هو المغرم كل الغرام بالحكمة في كل فروعها، وعلينا أن نميز في هذا الموقف أدقّ تمييز بين الفيلسوف الحقيقي وبين المدعي حب الفلسفة تدجيلاً، وتستقر نقطة الفرق بينهما في أن الدجال يكتفي بدرس الموضوعات الجميلة مثلاً، أما الفيلسوف الحقيقي فلا يقف عند ذلك الحد بل يتجاوزه إلى إدراك الجمال المطلق، ويمكن وصف حال الأول العقلي بأنه تصوّر، وحال الثاني أنه معرفة حقيقية، أو علم، فهنالك الوجود الحقيقي الذي يتناوله العلم، واللاوجود، أو العدم، الذي نسبته إلى الجهل نسبة الوجود الحقيقي إلى العلم، ويتوسط بين العلم وبين الجهل التصور، فنستنتج أن التصور يتناول الوجود الظاهري، فالذين يدرسون الوجود الحقيقي يدعون محبي الحكمة أو فلاسفة، والذين يدرسون الوجود الظاهري يدعون محبي التصور لا فلاسفة. انتهى من «جمهورية أفلاطون».

هنالك قال صاحبي : إن هذه الحكم المستخرجة من كلام سقراط مدهشة ، ذلك أنها مطابقة لمعنى الآية ، لأن هؤلاء السكارى ، أو الذين يكثرون ألوان الطعام ، أو الكسالى ، أو الذين يحدثون في الدولة أنواع المغاني كما يحصل في بلادنا المصرية الآن ، أو الصور المحرضة على الفسوق ، كما يفعله الأوروبيون الآن في بلادنا المصرية بواسطة دور السينما « الصور المتحركة » ، فكل هؤلاء أذهبوا طيباتهم في الحياة الدنيا واستمتعوا بها ، وأخذ الجزاء يظهر فيهم ، ويعاقبون في نفس الحياة الدنيا قبل الآخرة ، فوالله إني لا أوافقك كل الموافقة على ما قلته ، وهو أن كتاب الله قد فسر بالفلسفة قبل نزوله ، وإذا كان سقراط قبل النبوة بنحو ألف سنة فمن العجب العجاب أن يكون ما فصله هو نفس ما أجملته الآية ، بل أنا أقول : والله إنها لمعجزة . فقلت : يا صاح ، هذه الأمة الإسلامية في عصرنا تجتزئ بقولها هذه معجزة ، والمتعلمون تعليماً ناقصاً يشكون في الديانات كلها ، ولكن ليس هذا جوهر الموضوع ، إن جوهر الموضوع هو بحث أخلاقنا وعوائدنا وعرضها على كتاب الله ، ولما كان كتاب الله مشروحاً بالحكمة التي ظهرت في الأمم كان ذلك أمراً مدهشاً يجب علينا إذاعته في زماننا حتى يوقن الشاك أولاً ويقنع أولئك المترفون ، العاجزون ، المتعلمون نصف تعليم في عصرنا ، أن شكهم في الديانات لا يخليهم من المسؤولية ، ولا يقوم حجة ، لأنهم يدّعون أنهم متعلمون ، فنقول لهم : ويحكم ، ألستم تسمعون علماء أوروبا ومنهم « سبنسر » وأمثال « ستلانة التلياني » وغيرهما ، يقولان بأعلى صوتهما : أيها الناس ، إننا معاشر الفلاسفة في أوروبا لا نبلغ في العلم والحكمة ، وأصول الفلسفة ، شأو « سقراط » ولا « أفلاطون » ، بل نسبتنا إلى هؤلاء القوم كنسبة البقة إلى الفيل ، فنحن إنّما برعنا في العلوم الجزئية أما الكليات التي توضح الأمور العالية ، كأصل النفس ، ومنشأ العالم ، وما شابه ذلك ، فنحن منه بعيد .

إذن ما نكتبه الآن في هذا التفسير حجة قائمة على كل متعلم في بلاد الشرق ، لأنه إذا ادعى أنه يشك في الديانات ، فلن يتسنى له أن يتخلص من أنه رجل جاهل أحمق ، لأن فلاسفة أوروبا الذين يدّعي هو أنه متمسك بآرائهم متعلق بهم متبع سبيلهم ، فهو كفر كما أنهم كفروا ، وأسرف كما أنهم أسرفوا ، وظلم كما أنهم ظلموا ـ في زعمه ـ قد أعلنوا أنهم أقل شأناً من سقراط وأفلاطون ، وهاهو ذا سقراط يفسر القرآن قبل نزوله ، ويبين لنا هذه الآية : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾[الأحقاف : ٢٠] ، وهو لا يعلم بالقرآن ولا بالنبوة ، ولا بالأمة العربية التي ستأتي بعده بنحو عشرة قرون .

فقال صاحبي : الله الله ، الآن حصحص الحق ، واستبان السبيل ، وظهر الإبداع الفلسفي الذي هو أكبر معجزة قرآنية سياسية دولية ، وأن الأمم اليوم كلها عاجزة ، بعيدة عن الكمال ، فحدثني حفظك الله عما أحدثه ملوك الإسلام من الفسوق في الدولة الأموية والعباسية وغيرهما تطبيقاً على ذلك كما وعدت . فقلت : اعلم أيها الذكي أن ما أكتبه اليوم سترى فيه ما لم تره فيما مضى ، وما مثل الآراء والأحوال المختلفات في التعاليم إلا كمثل الأزهار في اختلاف ألوانها ، والثمار في تباين طعومها والأقطار في تنوع أهوائها ، ولكل زهر ، ولكل ثمر ، ولكل قطر قوم هم به مغرمون ، وإذا لم يكن التأليف جارياً مجرى النظام الطبيعي الإلهي في اختلاف المناظر ، وتباين المشارب ، ليجد كل امرئ فيه مأربه ، لم يحز القبول في الأمم ، ولم يكن مثار الانتفاع ومجتلى الأنظار .

فهاأنا أذكرك أيها الصديق أولاً بما جاء في سورة «الشورى» وما كان من أمر عمر رضي الله عنه ومبلغ زهده وورعه، وقد ذكرت هناك ١٧ خصلة مشروحة في عدله وأخلاقه الكريمة، فهل تذكرها؟ قال: نعم. ولكن هذا القول منك انتهجت به منهجي، واتبعت سنتي، وسمعت نصيحتي، لأنك تشير إليه الآن، ولا تذكره، وهذا هو مقولي. فقلت: إنّما أشرت إليه لأنني في هذا المقام كما تقدم أبحث في أمرين: أمر المصلحين الذين نقتدي بهم، وهذا هو الذي ذكرته الآن، وأمر المفسدين الذين نحترس من عملهم، ونخالفهم، وهؤلاء هم الذين سأفصل القول فيهم تفصيلاً كما وعدتك، وقبل ذلك التفصيل أقول في السلف الصالح قولاً مجملاً غير ما تقدم لتتم القدوة بهم:

إن عصر الخلفاء الراشدين من سنة ١١ إلى ٤١ هجرية هو العصر الذهبي، عصر العدل والتقوى كانت الحكومة جارية فيه على سنن العدل والاستقامة، والغيرة الحقيقية على الدين، ونبذ الدنيا، وهو العصر الذي اتخذه المسلمون منوالاً ينسجون عليه، وكلما حادت دولة من دولهم عن جادة الحق طلبوا منها الرجوع إليه والسير على خطوات الخلفاء الراشدين، لأن الحكومة انتقلت بعدهم إلى طور جديد، وانقلبت من الخلافة الدينية إلى الملك السياسي، ونشأت في الخلفاء والعمال المطامع، وأخذوا في حشد الأموال بأية وسيلة كانت.

بيت المال: توفي النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون هم رجال الحكومة والجند، ولم يكن عندهم بيت مال للأسباب التي قدمناها، ولم يكونوا يتطلبون المال إلا لقضاء الحاجيات، وكان أكثر ما يرد عليهم منه ماشية وحنطة وخيلاً ونحو ذلك من أموال الصدقة والغنيمة، وكانت النقود قليلة بين أيديهم، فلما فتحوا الشام وفارس ومصر وردت عليهم الأموال ذهباً وفضة، فأدهشتهم كثرتها، وتنبهوا لها. يقال إن أبا هريرة قدم على عمر بن الخطاب من البحرين بمال. فقال له عمر: بم جئت؟ قال: بخمسمائة ألف درهم، فاستكثره عمر، وقال: أتدري ما تقول؟ قال: نعم مائة ألف خمس مرات، فصعد عمر المنبر، وقال: أيها الناس، قد جاءنا مال كثير، فإن شئتم كلنا لكم كيلاً، وإن شئتم عددنا لكم عداً. وكان ذلك من جملة ما دعاه إلى وضع الديوان، وفرض العطاء لكل واحد من المسلمين، باعتبار السابقة والقرابة من النبي، ولكنه نهى عن اختزان المال، فقال له قائل: يا أمير المؤمنين لو تركت في بيوت الأموال شيئاً يكون عدّة لحادث إذا حدث. فزجره عمر، وقال: تلك كلمة ألقاها الشيطان على فيك، وقاني الله شرها، وهي فتنة لمن بعدي، إني لا أعدّ للحادث الذي يحدث سوى طاعة الله ورسوله، وهي عدّتنا التي بلغنا بها ما بلغنا.

فلما كثرت الأموال في أيام عمر، ووضع الديوان، فرض الرواتب للعمال والقضاة، ومنع ادخار المال، وحرّم على المسلمين اقتناء الضياع، والزراعة أو المزارعة، لأن أرزاقهم وأرزاق عيالهم تدفع لهم من بيت المال، حتى إلى عبيدهم ومواليهم، أراد بذلك أن يبقوا جنداً على أهبة الرحيل، لا يمنعهم انتظار الزرع، ولا يقعدهم الترف والقصف. فإذا أسلم أحد من أهل الذمة سكان البلاد الأصليين صار ما كان في يده من الأرض وداره إلى أصحابه من أهل قريته، تفرق فيهم، وهم يؤدون عنها ما كان يؤدى من خراجها، ويسلمون إليه ماله ورقيقه وحيوانه، ويفرضون له راتباً في الديوان مثل سائر المسلمين.

والغرض الذي كان يرمي إليه عمر من هذه القاعدة أن يبقى أهل الذمة وأرضهم مصدراً للمال الذي يحتاج إليه المسلمون في إتمام الجهاد ووقفاً لمصالحهم مدى الدهور، أما إذا اشترى المسلمون الضياع فإنهم يستقلون بنفعها دون سواهم، ولا يمضي بضعة أجيال حتى تصير أملاكاً خاصة بهم، وعمر يريد أن يبقيها محبوسة على آخر هذه الأمة من المسلمين المجاهدين قوة على جهاد من لم يظهروا عليه بعد من المشركين، لا تباع ولا تورث، لما ألزموه أنفسهم من إقامة فريضة الجهاد، وأيد هذه القاعدة عمر بن عبد العزيز الأموي، وكان يتحدى ابن الخطاب بكل خطواته. فقال: أيّما ذميّ أسلم فإن إسلامه يحرز له نفسه وماله، وما كان من أرض فإنها من فيء الله على المسلمين، وأيّما قوم صالحوا على جزية يعطونها فمن أسلم منهم كانت داره وأرضه لبقيتهم. فترتب على ذلك ونحوه ترفع المسلمين عن سائر الأعمال من تجارة أو صناعة أو نحوهما.

ثروة الخلفاء وعمالهم

علمت مما تقدم أن الراشدين لم يكونوا يلتمسون ثروة، فلما توفي أبو بكر، لم يجدوا عنده من مال الدولة إلا ديناراً واحداً سقط من غرارة، لأنه كان يفرق كل ما يجتمع عنده على السواء، لا ينظر إلى مصلحة نفسه، بل هو أنفق كل ما كان عنده من المال قبل إسلامه، وذلك أربعون ألف درهم، غير ما اكتسبه من التجارة، لأنه كان يتجر ليستعين على النفقة، ثم فرضوا له مالاً معيناً من مال المسلمين لينفقه على نفسه وعياله، لئلا يشتغل بالتجارة عن النظر في مصالحهم، فلما دنا أجله أوصى أن تباع أرض كانت له ويدفع ثمنها بدلاً مما أخذه من مال المسلمين، وكان عنده ثوبان أوصى أن يكفن بهما.

وأخبار عمر بن الخطاب بالزهد والنزاهة أشهر من أن تذكر، ويقال بالإجمال: إنه هو مؤسس دولة المسلمين، وقد أسسها على أمتن دعائم الملك، أسسها على العدل، والتقوى، والزهد، والاستهلاك في نصرة الحق مما يندر اجتماعه في رجل واحد، وقد يوهم لغرابته أنه من قبيل المبالغة، ويسهل علينا التصديق به إذا تذكرنا النتائج التي ترتبت على تلك المناقب مما لم يسمع بمثله في التاريخ، يكفي منها تلك الفتوح التي جعلت الأموال تنصب نحو بيت المال في المدينة كما ينصب الماء من الميازيب، وعمر مع ذلك لا يلتفت إليه، ولا يأخذ منه إلا ما فرضه لنفسه كسائر الصحابة الأولين، وكان إذا احتاج إلى مال فوق راتبه جاء إلى صاحب بيت المال، فاستقرضه حتى يفيه إياه من عطائه فيما بعد، ولما طعن وأحس بدنوّ الأجل قال لابنه: إني استلفت من بيت مال المسلمين ثمانين ألفاً فليرد من مال ولدي، فإن لم يف مالهم فمال آل الخطاب. وزهده في الطعام واللباس مشهور.

ويقال نحو ذلك في الإمام عليّ، فقد كان مغالياً في الزهد والعدل، ومن أقواله: تزوجت بفاطمة وما لي فراش إلا جلد كبش ننام عليه بالليل، ونعلف عليه ناضحنا بالنهار، وما لي خادم غيرها. وجاءه في أيام خلافته مال من أصبهان، فقسمه على سبعة أسهم، فوجد فيه رغيفاً، فقسمه على سبعة أسهم، ودعا أمراء الأسباع، فأقرع بينهم، لينظر أيهم يعطى أولاً، ولم يبن عليّ آجرة على آجرة، ولا لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة، وكان يأتي بحبوبه من المدينة في جراب، وقيل إنه أخرج سيفاً له إلى السوق فباعه، وقال: لو كان عندي أربعة دراهم ثمن إزار لم أبعه. ومناقبه لا تحصى.

وقد ساعد الخلفاء الراشدين على تأييد العدل والحق، أن عمالهم كان أكثرهم من أهل التقوى وحسن الاعتقاد في الإسلام، فكان عمر إذا اكتسب أحد عماله مالاً من تجارة، أو سبيلاً آخر غير عطائه المفروض له قاسمه عليه، وهو لا يرى في ذلك غبناً. كذلك فعل بسعد بن أبي وقاص عامله على الكوفة وعمرو بن العاص عامله على مصر، وأبي هريرة عامله على البحرين، وغيرهم.

ولا غرابة في ذلك، لأن العامل إذا رأى خليفته زاهداً تقياً يمنع نفسه من كل شيء ويستهلك في مصلحة الأمة؛ فإنه يقتدي به ولو كان ذلك مخالفاً لرأيه، على أن الخليفة نفسه لا يولي أعماله إلا من يكون على رأيه وخلقه، وخصوصاً عمر، فقد كان شديداً على العمال يتفقدهم كل سنة ويعزلهم لأقل تهمة، ذكروا أنه استعمل على حمص رجلاً اسمه عمير بن سعد، فلما انقضت السنة كتب إليه: اقدم إلينا، فلم يشعر عمر إلا وقد قدم الرجل إليه ماشياً حافياً، عكازه في يده، وإداوته ومزوده وقصعته على ظهره، فلما رآه عمر قال: يا عمير، أأجبتنا أم البلاد بلاد سوء؟ فقال: يا أمير المؤمنين، أما نهاك الله أن تجهر بالسوء وعن سوء الظن، وقد جئت إليك بالدنيا أجرّها بقرابها، فقال: وما معك من الدنيا؟ عكازة أتوكأ عليها وأدفع بها عدواً إن لقيته، ومزود أحمل به طعامي، فقال: ما صنعت بعملك يا عمير؟ قال: أخذت الإبل من أهل الإبل، والجزية من أهل الذمة، ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل، فوالله يا أمير المؤمنين لو بقي عندي منها شيء لأتيتك به، فقال له: عد إلى عملك.

ولأقتصر في هذا المقام على ما سمعته الآن، وأقفي بذكر المبذرين، فأقول مستعيناً بالله:

شيوع التبذير في الدولة

لم تطل مدة المسلمين الأولين الذين لم يكونوا يعدّون الخلافة ملكاً سياسياً، فلما انقضى عصر النبوة وزالت دهشتها عاد الناس إلى فطرتهم أيام عثمان سنة ٣٣ ـ ٣٥ هجرية، لأنه لم يكن شديداً مثل عمر، وكان مع ذلك أموياً، فاعتز الأمويون به، وأرادوا أن يعيدوا لأنفسهم السلطة التي كانت لهم في الجاهلية، وكان بنو هاشم قد سلبوهم إياها بعد الإسلام، لأن النبي صلى الله عليه وسلم منهم فأخذ عثمان يولي رجالاً من أقربائه، وفيهم من لم يعتنق الإسلام إلا يأساً من فوزه على المسلمين، وكثرت في أيامه الفتوح، وفاضت الغنائم، فكان يختص أهله منها بأكثر من سائر الصحابة، كما فعل بغنائم أفريقية سنة ٢٧ هجرية، فإن المسلمين حاربوها وعليهم عبد الله بن سعد أخو عثمان من الرضاع فبلغت غنائمهم منها (٢,٥٠٠,٠٠٠) ديناراً، أعطى خمسها إلى مروان بن الحكم وزوّجه ابنته، وكان هذا الخمس من حقوق بيت المال، وأبطل عثمان محاسبة العمال لأنهم من أهله، فازدادوا طمعاً في حشد الأموال لأنفسهم، وخصوصاً معاوية بن أبي سفيان عامله على الشام، وهو أكثرهم دهاء، وأبعدهم مطمعاً، فكان في مقدمة الذين أبطلوا قاعدة عمر في منع المسلمين من الزرع واتخاذ الضياع ونحوها.

وكيفية ذلك أن المسلمين لما فتحوا الشام، وأقروا الأرضين في أيدي أصحابها، كان جانب كبير منها ملكاً للبطارقة قواد جند الروم، فلما غلبت الروم، وفرّ البطارقة، أو قتلوا، ظلت ضياعهم سائبة لا مالك لها، فأوقفها المسلمون على بيت المال، فكان العمال يقبلونها كما يقبل الرجل ضيعته ـ أي

يضمنها ـ ويضيفون دخلها إلى بيت المال، فلما استقر معاوية على ولاية الشام، واقتدى بالروم في البذخ واتخاذ الحاشية، لم يعد راتبه يكفيه، ورأى من عثمان ضعفاً وميلاً، فكتب إليه: إن الذي أجراه عليه من الرزق في عمله لا يقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الأجناد ورسل أمرائهم، ومن رسل الروم ووفودهم، ووصف في كتابه هذه المزارع وأن لا مالك لها، وليست هي من قرى أهل الذمة، ولا للخراج، وسأله أن يقطعه إياها، وكان عمر قد جعل لمعاوية على عمله في الشام راتباً مقداره ألف دينار في السنة، وهو كثير بالنظر إلى رواتب العمال في تلك الأيام، فلما طلب من عثمان أن يقطعه تلك الضياع أجابه إلى طلبه فوضع يده عليها وجعلها على فقراء أهل بيته، فجرأه ذلك على التمادي في اقتناء الأرضين وبيعها في أيام خلافته، والإذن للمسلمين في ذلك.

واقتدى بمعاوية غيره من العمال وسائر الصحابة، فاقتنوا الضياع والعقار، وفيهم جماعة من كبار الصحابة، مثل طلحة والزبير وسعد ويعلى وغيرهم، وزادت أموالهم، وظهر الغنى فيهم، حتى عثمان نفسه، فإنه اقتنى الضياع الكثيرة، واختزن الأموال، فوجدوا عند خازنه بعد موته (١٥٠,٠٠٠) دينار و(١,٠٠٠,٠٠٠) درهم، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما (١٠٠,٠٠٠) دينار، وخلف خيلاً وإبلاً، والظاهر أن عثمان اندفع إلى تسهيل الثروة على المسلمين بما زاد عنده من الأموال وأغراه أهله على ذلك وخصوصاً معاوية، ثم صار امتلاك العقار مألوفاً شائعاً.

ومن أسباب شيوع الأملاك بين المسلمين أن عثمان أقطع هو وخلفاؤه بعض الأرضين مما لم يتعين مالكوه على أن يدفعوا لبيت المال بمقابل الإيجار أو الضمان كما تقدم، فلما حدثت فتنة الأشعث سنة ٨٢ هجرية حرق الديوان وضاعت الحسابات فأخذ كل قوم ما يليهم.

على أن المسلمين لم يكونوا راضين عن أعمال معاوية، لأنه لم يساو بينهم فيه، فنقموا عليه وخصوصاً الفقهاء ورجال التقوى. وفي حكاية أبي ذر الغفاري ما يغني عن البيان، فقد كان هذا الرجل مغالياً في التمسك بقاعدة عمر، وكان يرى: أن المسلم لا ينبغي أن يكون له في ملكه أكثر من قوت يومه وليلته أو شيء ينفقه في سبيل الله، أو يعدّه لكريم. وكان يقوم في الشام ويقول: يا معشر الأغنياء، واسوا الفقراء ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤]، وما زال يقول ذلك ويكرره حتى ولع الفقراء بقوله وأوجبوه على الأغنياء، فشكا الأغنياء إلى معاوية ما يلقون منهم، وكان معاوية يشكو أمرّ من شكايتهم، لأن أبا ذر وبخه غير مرة لاختزانه المال، ومما قاله على أثر بنائه قصر الخضراء في دمشق، وقد سأله معاوية: كيف ترى هذا؟ فقال أبو ذر: إن كنت بنيته من مال الله فإنك من الخائنين، وإن كنت بنيته من مالك فإنك من المسرفين، فعظم ذلك على معاوية، فأراد أن يوقعه فيما يوجب محاكمته، فبعث إليه بألف دينار أراد أن يغرّه بها، ثم يتهمه باكتناز المال، فلما وصلت الدنانير إلى أبي ذر فرّقها حالاً مع أنها وصلته ليلاً، وجاء رسول معاوية في الصباح يزعم أنه دفع المال إليه خطأ، وأن معاوية يطلبه، فأخبره أنه أنفقه في ساعته، فلم ير معاوية سبيلاً إلا اتهامه بالفتنة، فكتب إلى عثمان: إنك أفسدت الشام على نفسك بأبي ذر. فكتب إليه: احمله على قتب بغير وطاء. فلما جاء المدينة حاكمه عثمان فلم يرهب سلطانه، وجاهره بما يراه من جشع بني أمية

وخروجهم من الحق، فأخرجه عثمان من المدينة إلى الربذة بالعنف، وظل هناك حتى مات، فنقم المسلمون بموته على عثمان في جملة ما نقموه عليه إلى مقتله. اهـ.

هذا ما جاء في كتاب « تاريخ التمدن الإسلامي » وربما كان ما جاء فيه من أمر عثمان رضي الله عنه فيه مبالغة، ومن جهة أخرى أنه رضي الله عنه كان مجتهداً، والمجتهد مثاب، أصاب أم أخطأ، فله حرمته، فلنفصل الكلام في أيام بني أمية :

الإسراف أيام بني أمية

وعصرهم سنة ٤١ ـ ١٣٢ هجرية

هذه الدولة كانت عربية بحتة محتقرة لسواهم، ومن أسلم من غير العرب يسمونهم الموالي

اعلم أن بني أمية وإن فتحوا البلاد شرقاً وغرباً فإن عمالهم أخذوا في الإسراف، وبعض ملوكهم كذلك، فدالت دولتهم. خذ لذلك مثلاً :

إن محمداً أخا الحجاج بن يوسف لما تولى اليمن أساء السيرة، وظلم الرعية، وأخذ أراضي الناس بغير حقها وضرب على أهل اليمن خراجاً سماه « الوظيفة ». فلما ولي عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله هناك بإلغاء تلك الوظيفة والاقتصار على العشر.

وفي كلام القاضي أبي يوسف في عرض وصيته على الرشيد بشأن عمال الخراج ما يبين الطرق التي كان أولئك الصغار يجمعون الأموال بها. قال : بلغني أنه قد يكون في حاشية العامل أو الوالي جماعة منهم من له به حرمة، ومنهم من له به وسيلة، ليسوا بأبرار ولا صالحين، يستعين بهم ويوجههم في أعماله، يقتضي بذلك الذمامات، فليس يحفظون ما يوكلون بحفظه ولا ينصفون من يعاملونه، إنّما مذهبهم أخذ شيء من الخراج كان أو من أموال الرعية، ثم إنهم يأخذون ذلك كله فيما بلغني بالعسف والظلم والتعدي، ويقيمون أهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد، ويعلقون عليهم الجرار، ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة، وهذا عظيم عند الله، شنيع في الإسلام.

وكان شأن بني أمية وعمالهم وجباتهم على نحو ما تقدم حين تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩ هجرية، وكان تقياً منصفاً، فأراد أن يردّ الأمور إلى ما كانت عليه في أيام سميّه وجده لأمه عمر بن الخطاب، فأصدر أوامره إلى العمال بإبطال تلك المظالم، وعينها بأسمائها مفصلة، وإبطال لعن عليّ على المنابر، وكان أهله قد اقتنوا الضياع، وأخذوا كثيراً منها من أهل الذمة بغير حق، ففتح بابه للناس وأعلن أن من كانت له ظلامة فليأت، فأتاه المظلومون، وفيهم النصارى واليهود والموالي وغيرهم، ومنهم من يشتكي اختلاس ماله، وآخر اغتصاب ضيعته، وكان ينصفهم بالحق والعدل، ولو أن الحكم على ابنه أو إخوته أو أبناء عمه. فقال له بعضهم : وكيف تصنع بولدك؟ فبكى حنوًّا وقال : أكلهم إلى الله، وأخذ أموال أعمامه وأولادهم وسماها مظالم، فلما رأى أهله ذلك خافوا على سلطانهم، وهو إنّما قام بالمال، فإذا خرجت الضياع والأموال من أيديهم ذهب ضياعاً، فمشوا إلى عمته فاطمة بنت مروان وشكوه إليها، فأتته، فقال لها : إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة ولم يبعثه عذاباً إلى الناس كافة.

ولما رأى الموالي عدله وتقواه، اغتنموا الفرصة، وشكوا إليه ما يقاسونه من الذل والضغط، وكان الجراح بن عبد الله الحكمي عامل خراسان قد أرسل إلى عمر بن عبد العزيز في الشام وفداً رجلين من العرب، ورجلاً من الموالي، فتكلم العربيان والمولى ساكت، فقال له عمر: ما أنت من الوفد. قال: بلى. قال: فما يمنعك من الكلام؟ فقال: يا أمير المؤمنين، عشرون ألفاً من الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزق وصلهم، قد أسلموا من أهل الذمة يؤخذون بالخراج، وأميرنا سيف من سيوف الحجاج قد بالظلم والعدوان، فقال عمر: أحر بمثلك أن يوفد، وكتب إلى الجراح: انظر من صلى من قبلك فضع عنه الجزية، فرغب الناس في الإسلام، وتسارعوا إليه، فقيل للجراح: إن الناس قد سارعوا إلى الإسلام نفوراً من الجزية، فامتحنهم بالختان. فكتب الجراح إلى عمر بذلك، فأجابه: إن الله بعث محمداً داعياً ولم يبعثه خاتناً.

وفعل عمر نحو ذلك مع عامله على مصر حيان بن شريح، وكان حيان قد كتب إليه: أما بعد فإن الإسلام قد أضر بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين ألف دينار أتممت بها عطاء أهل الديوان، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل. فكتب إليه عمر: أما بعد فقد بلغني كتابك، وقد وليتك جند مصر، وأنا عارف ضعفك، وقد أمرت رسولي بضربك على رأسك عشرين سوطاً، فضع الجزية عمن أسلم قبح الله رأيك، فإن الله قد بعث محمداً هادياً، ولم يبعثه جابياً، ولعمري لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه.

وقس على ذلك عماله الآخرين، فإنه عزل من لم يوافقه منهم، فأصبحت الدولة ورجالها كلها ضده، لأنه حاول إصلاح الأمور بالعنف دفعة واحدة، والطفرة محال، وما في بني أمية وعمالهم إلا من كره ذلك منه، فلم يصبروا على خلافته ثلاث سنوات، فقتلوه بالسم، ويعده المؤرخون من الخلفاء الراشدين، وإذا قالوا العمرين أرادوه وعمر بن الخطاب.

فترى مما تقدم أن القواعد الأساسية التي قام عليها الإسلام تدعو إلى الإنصاف والرفق، ولكنها تختلف مظاهرها باختلاف الذين يتولون شؤونها، ولو أتيح لعمر بن عبد العزيز أن يعيدها إلى ما كانت عليه في عهد ابن الخطاب لأمحت مظالم بني أمية، ولكنه جاء في غير أوانه، فذهب سعيه هدراً، ولما مات عادت الأمور إلى مجاريها، ورافقها رد الفعل، فصارت أشد مما كانت عليه قبله، وبالغ العمال في الاستبداد والعسف، وشددوا في استخراج الخراج وزادوه، حتى اضطر بعض أصحاب الأرضين إلى الإلجاء، أي: أن يلجئوا أراضيهم إلى بعض أقارب الخليفة، أو العامل، تعززاً به من جباة الخراج كما سيأتي.

أما الخلفاء فإنهم ازدادوا انغماساً في الترف، وأولهم يزيد بن عبد الملك، فإنه انقطع إلى اللهو والخمر واشتغل عن مصالح الدولة بجاريتيه: سلامة وحبابة، وحديثهما مشهور، وخلفه أخوه هشام وكان بخيلاً، وفي أيامه زيدت الضرائب في مصر على يد ابن الحبحاب كما تقدم. وجاء بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وكان مثل أبيه في اللهو والخمر، فقتله أهله، وولوا يزيد بن الوليد بن عبد الملك سنة ١٢٦ هجرية، وكان عازماً على إصلاح الأمور اقتداء بعمر بن عبد العزيز، كما يؤخذ من خطاب ألقاه

عند مبايعته، فأصابه من الفشل ما أصاب عمر، لأن الأحوال غير ملائمة، وفي أيام خلفه مروان بن محمد تغلب بنو العباس وصارت الخلافة إليهم.

وكان بنو أمية قد انغمسوا في الترف واللهو والخمر، وأصبحوا لا ينظرون إلى ما يؤيد سلطانهم ولا يبالون في انتقاء عمالهم، وربما ولوا العامل عملاً بإشارة جارية، أو مكافأة على هدية، كما فعل هشام بن عبد الملك بالجنيد بن عبد الرحمن، وكان الجنيد قد أهدى امرأة هشام قلادة من جوهر، فأعجبت هشاماً، فأهدى هشاماً قلادة أخرى، فولاه هشام على خراسان سنة ١١١ هجرية، وبلغ ثمن الجارية في أيام بني أمية (١,٠٠٠,٠٠٠) درهم، وهي الذلفاء، وأصبح العمال لا هم لهم إلا حشد الأموال، والاستكثار من الصنائع والموالي، ولم يعد أهل العدالة يرضون بولاية الأعمال، مخافة أن يقصروا بالمال الذي يطلبه الخلفاء، كما حدث ليزيد بن المهلب لما ولاه سليمان بن عبد الملك العراق، فقال يزيد في نفسه: إن العراق قد أخربها الحجاج، وأنا اليوم رجاء أهل العراق، ومتى قدمتها وأخذت الناس بالخراج وعذبتهم عليه صرت كالحجاج، أدخل على الناس الحرب، وأعيد عليهم تلك السجون التي قد عافاهم الله منها، ومتى لم آتِ سليمان بمثل ما جاء به الحجاج لم يقبل مني، وقس على ذلك رأي غيره ممن يؤثرون الرفق، فلم يرغب في الولايات إلا أهل المطامع، وجعل الخلفاء من الجهة الأخرى يطمعونهم بالرواتب الفادحة، فبلغ رزق يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراق في أواخر أيام بني أمية (٦٠٠,٠٠٠) درهم، وكان العمال يبذلون جهدهم في اختزان الأموال لأنفسهم، لعلمهم أن الولاية غير ثابتة لهم، فكثرت أموالهم واتسعت ثروتهم، فبلغت غلة خالد القسري أمير العراق في أيام هشام (١٣,٠٠٠,٠٠٠) درهم، أي: نحو مليون دينار، فأصبح الخلفاء لا يعزلون عاملاً عن عمله إلا حاسبوه على ما عنده من المال، وكانوا في أيام معاوية يشاطرون العمال اقتداء بعمر ابن الخطاب، ثم صاروا يحاكمونهم ويستخرجون كل ما تصل إليه معرفتهم، كما فعلوا بخالد القسري إذ وشى به كاتبه حيان النبطي أنه فرّق (٣٦,٠٠٠,٠٠٠) درهم، فبعث هشام إليه من أخرج معظم هذا المال منه ومن عماله، ويسمون هذا العمل استخراجاً، وكانوا يستخدمون الشدة فيه، فوقع بين العمال والخلفاء تنافر زاد الخطر على دولة بني أمية. وقد كان متوسط جباية العراق في أيامهم نحو (١٣٠,٠٠٠,٠٠٠) درهم، ومصر (٣,٠٠٠,٠٠٠) دينار، أو (٣٦,٠٠٠,٠٠٠) درهم، وجباية الشام (١,٧٠٠,٠٠٠) دينار أو (٢٠,٠٠٠,٠٠٠) درهم، فيكون ارتفاع هذه البلاد نحو (١٨٦,٠٠٠,٠٠٠) درهم يضاف إليه أموال البلاد الأخرى مما لا نعرف مقداره. انتهى.

هذا بعض أفعال هذه الدولة، فسقطت وذهبت كأمس الدابر، وهذا عذاب الخزي في الحياة الدنيا المذكور في هذه الآية.

دولة بني العباس والإسراف فيها

هذه الدولة لها عصران: عصر ذهبي يمتد من أول نشأتها سنة ١٣٢ هجرية إلى آخر أيام المأمون سنة ٢١٨ هجرية، والعصر الثاني هو عصر التقهقر والانحطاط، ويبتدئ بخلافة المعتصم سنة ٢١٨ وينتهي بانقضاء الدولة العباسية.

فانظر أيها الذكي إسراف الخلفاء ونسائهم، فقد جاء في كتاب «تاريخ التمدن الإسلامي» أنهم انهمكوا في البذخ والإسراف والتبذير والترف، فاقتنوا الجواري، واتخذوا الفرش من الخز والديباج والحرير والمسامير الفضة، وابتنوا المتنزهات والقصور والمدن، واقتنوا الندماء، وأنشؤوا مجالس الغناء، وارتكبوا سائر ضروب الترف والتأنق بالطعام واللباس والرياش، وقد سهل عليهم ذلك لقرب عهد العراق وفارس من بذخ الفرس قبيل الفتح الإسلامي، وأطلقوا أيدي نسائهم وأمهاتهم وخاصتهم في الأموال.

ثروة نساء الخلفاء

لم يتزوج السفاح إلا امرأة واحدة، وقبل أن يتوفى المنصور أوصى ابنه المهدي أن لا يشرك النساء في أمره، ومع ذلك فإن الخيزران أم الرشيد كانت هي صاحبة الأمر والنهي في أيام الهادي وأيامه، وكان وزيره تحت أمرها، فأفضى نفوذها إلى حشد الأموال لنفسها، حتى بلغت غلتها في العام (١٦٠,٠٠٠,٠٠٠) درهم، وذلك نحو نصف خراج المملكة العباسية لذلك العهد، وغلة أعظم متمولي العالم اليوم لا تزيد على ثلثي هذا المال، فقد ذكروا أن إيراد «روكفلر» الغني الأمريكي الشهير نحو (١٠,٥٠٠,٠٠٠) جنيه في السنة، وغلة الخيزران أكثر من (١٠,٥٠٠,٠٠٠) دينار، وقيمة النقود كانت تساوي ثلاثة أضعافها اليوم، والدينار نصف جنيه، فتكون غلة «روكفلر» نحو ثلثي غلة الخيزران، وكانت الخيزران مع ذلك شديدة الوطأة، رغابة في الاستئثار، فلما آنست في ابنها الهادي معارضة لإرادتها، دست إليه من قتله، ولما ماتت توسع الرشيد بأموالها، وأقطع الناس ضياعها.

على أن الخيزران كانت من أهل العلم والرأي، فلا غرابة في اقتنائها الأموال في إبان الثروة العباسية، إنّما الغرابة في اقتناء أمهات الخلفاء الأموال الكثيرة في عصر الانحطاط وبيت المال فارغ، فإن قبيحة أم المعتز وجدوا لها من مخبآت في الدهاليز ونحوها نحو (٢,٠٠٠,٠٠٠) دينار نقداً، وما لا تقدر قيمته من التحف والجواهر مما نأتي بذكره على سبيل المثال، من ذلك مقدار مكوك من الزمرد الثمين ونصف مكوك لؤلؤ كبير ونحو كيلجة ياقوت أحمر قدروا قيمته (٢,٠٠٠,٠٠٠) دينار، وكانت مع ذلك قد عرضت ابنها للقتل من أجل (٥٠,٠٠٠) دينار.

وأغرب من ذلك شأن أم محمد بن الواثق، فقد كانت غلتها (١٠,٠٠٠,٠٠٠) دينار في العام تنفقها في جواريها وهي نحو غلة الخيزران، وأخرجوا من تربة والدة المقتدر (٦٠٠,٠٠٠) دينار كانت مخبأة هناك، ولم يعلم بها أحد مع ضيق الخليفة وفراغ بيت ماله. وقس على ذلك أمهات الخلفاء الآخرين في العراق وغيره من بلاد الإسلام، فقد كنّ يتمتعن بالنفوذ ويستولين على الأموال بالتواطؤ مع القواد ورجال الجند، بما يتاح لهن من إطلاق الأيدي في أمور الدولة، كما فعل المستعين العباسي (٢٤٩هـ)، فإنه أطلق يد والدته ويد أتامش وشاهك الخادم في بيوت الأموال وأباحهم فعل ما أرادوا، فكانت الأموال التي ترد من الآفاق يصير معظمها إلى هؤلاء الثلاثة.

فلا عجب والحالة هذه إذا تحول الغنى إلى النساء والخدم والقواد، وهل تستغرب بعد ذلك إذا علمت أنه كان بين رياش أم المستعين بساط أنفقت على صنعه (١٣٠,٠٠٠,٠٠٠) دينار، ربما درهم

فيه نقوش على أشكال الحيوانات والطيور، أجسامها من الذهب وعيونها من الجواهر. أو إذا قيل لك: إن فلانة حشت فم الشاعر الفلاني درًّا فباعه بعشرين ألف دينار. أو إذا سمعت بهدايا قطر الندى وغيرها من نساء الخلفاء.

ناهيك بما كان في بلاط الخلفاء العباسيين وغيرهم من القهرمانات اللواتي كنّ يتولين شؤون دور الخلفاء والنفقة عليها بالاتفاق مع الوزير أو من ينوب عنه، فكان لهؤلاء النساء نفوذ عظيم في قصور الخلفاء وفي أعمال الدولة، كما كانت تفعل أم موسى القهرمانة في أيام المقتدر في أوائل القرن الرابع للهجرة، ولم يكن لأولئك القهرمانات سبيل للإنفاق لولا ما في قصور الخلفاء من الجواري والخدم وغيرهم.

الجواري والغلمان

وفي مناقب المنصور صفحة ١٠٤ أنه لما علم بوجود الطنبور في داره كسره على حامله، ولكن لم يمض على موته أربعون سنة حتى أصبحت دور الخلفاء مسرحاً للغناء واللهو، قالوا: إنه كان في قصر الرشيد ثلاثمائة جارية ما بين جنكية إلى عودية، إلى دفية، إلى قانونية، إلى زامرة، إلى مغنية، إلى راقصة إلى سنطيرية، فضلاً عمن كان في قصره من الندماء والمضاحكين، كالشيخ أبي الحسن الخليع الدمشقي وابن أبي مريم المدني وغيرهما، وما من جارية إلا وثمنها ألف دينار، أو عشرة آلاف دينار، إلى مائة ألف دينار، غير ما يقتضيه اقتناؤهن من النفقات الأخرى كالألبسة والحليّ وهي شيء كثير، فقد اشترى الرشيد خاتماً بمائة ألف دينار، وقس على ذلك. ناهيك بما كانوا يقتنونه من المماليك والغلمان مما يعدون بالمئات والألوف، فقد بلغ عدد خدم المقتدر (١١,٠٠٠) خصيّ من الروم والسودان، غير ما يقتضيه ذلك من الأبنية والقصور والرياش، فقد بنى المعز داراً في بغداد أنفق عليها (١٣,٠٠٠,٠٠٠) درهم وبنى الأمين قصوراً في الخيزرانية أنفق عليها (٢٠,٠٠٠,٠٠٠) درهم، واصطنع في دجلة خمس حراقات «سفن» إحداها على صورة الأسد، والثانية بصورة الفيل، والثالثة بصورة العقاب، والرابعة بصورة الحية، والخامسة بصورة الفرس وأنفق عليها مالاً عظيماً، وفيها يقول أبو نواس:

سخر الله للأمين مطايا ... لم تسخر لصاحب المحراب

فإذا ما ركابه سرن براً ... سار في الماء راكباً ليث غاب

عجب الناس إذ رأوك على صو ... رة ليث تمرُّ مرَّ السحاب

سبحوا إذ رأوك سرت عليه ... كيف لو أبصروك فوق العقاب

ذات زور ومنسر وجناحيـ ... ـن تشق العباب بعد العباب

تسبق الطير في السما إذا ما اسـ ... ـتعجلوها بجيئة وذهاب

ومما يحسن إيراده مثالاً على بذخهم أن الأمين المذكور أمر يوماً أن يفرش له على دكان في الخلد، ففرش عليها بساط ذرعي ونمارق وفرش، وهيئ من آنية الذهب والفضة والجواهر أمر عظيم، وأمر قيمة جواريه أن تهيئ له مائة جارية صانعة، فتصعد إليه عشراً عشراً بأيديهن العيدان يغنين بصوت واحد ففعلت. انتهى من كتاب «تاريخ التمدن الإسلامي».

فلما سمع صاحبي ذلك، ضرب كفاً على كف، وقال: أنا قرأت التاريخ في المدارس وفي الكتب ولكني والله لم أعلم ما علمته اليوم، إن التفصيل يفعل ما لا يفعله الإجمال، وكيف يقتني المقتدر (١١,٠٠٠) من خصيّ الروم والسودان، وكيف تكون الحياة كلها حياة إسراف، وما هذا الإسراف في الطعام والشراب، هذا والله هو التفسير الحقيقي للقرآن، حكمة الفلاسفة قبل ظهور القرآن وظهور الآثار في أمم الإسلام بعد ذلك.

لطيفة: إن ما كان ينفقه الخلفاء إنّما كان من بيت المال، ألا ترى أن يحيى بن خالد البرمكي أمره الرشيد أن يدفع ثمن الجارية (١٠٠,٠٠٠) دينار، فاستكثره واعتذر عن دفعه، فغضب الرشيد، فأراد يحيى أن يبين له مقدار ما يتحمله بيت المال من هذا الإسراف فيما لا مصلحة للدولة فيه، فجعل ذلك المال دراهم، فبلغت نحو (١,٥٠٠,٠٠٠) درهم، فوضعها في الرّواق الذي يمر به الرشيد إذا أراد الوضوء، فلما رأى الرشيد ذلك المال استكثره، ولما أخبروه أنه ثمن الجارية أدرك إسرافه، ولكنه شعر بما في ذلك من الجرأة عليه ومحاولة غلّ يديه، فحفظ ذلك في نفسه، ويقال إنه كان من جملة ما حمله على نكبة البرامكة. واتفق نحو ذلك للواثق بالله مع وزيره ابن الزيات في ثمن جارية، فلما مطل الوزير بالدفع أمره أن يدفع ضعفين ففعل.

وفي كتاب سفيان الثوري إلى الرشيد جواباً على كتاب استدعاه به إلى بغداد ما يشبه كلام أبي ذر الغفاري لمعاوية، ويدل على أن الرشيد كان يهب ويجيز من بيت مال المسلمين، وذلك أن الرشيد دعاه بكتاب بعثه إليه في الكوفة، وأخبره أن الناس قدموا إليه، وأنه فتح بيوت الأموال، وأعطاهم من المواهب السنية الخ. فأجابه سفيان بكتاب شديد اللهجة، وفي جملة ذلك قوله: أما بعد فإني كتبت إليك أعلمك أني صرمت حبلك، وقطعت ودك، وأنك قد جعلتني شاهداً عليك بإقرارك على نفسك في كتابك، أنك هجمت على بيت مال المسلمين، فأنفقته بغير حقه، وأنفذته بغير حكمة، ولم ترض بما فعلته وأنت ناء عني حتى كتبت إلي تشهدني على نفسك، فأما أنا فإني قد شهدت عليك أنا وإخواني الذين حضروا كتابك، وسنؤدي الشهادة غداً بين يدي الله الحكم العدل، يا هارون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم، هل رضي بفعلك المؤلفة قلوبهم، والعاملون عليها في أرض الله، والمجاهدون في سبيل الله، وابن السبيل؟ أم رضي بذلك حملة القرآن وأهل العلم ـ يعني العاملين ـ أم رضي بفعلك الأيتام والأرامل؟ أم رضي بذلك خلق من رعيتك؟. فهذا وأمثاله يدل على أن الخلفاء كانوا يهبون ويجيزون ويبذخون ويسرفون من بيت المال.

ومن هذا القبيل استئثار رجال الدولة بالأموال لأنفسهم، فإن الدولة إذا بلغت قمة ثروتها، وانغمس الملك في الترف والقصف وتقاعد عن مباشرة الأحكام بنفسه تحوّل النفوذ إلى المحيطين به، أو الذين ينوبون عنه، أو يتوسطون بينه وبين الناس كالوزير والعامل والكاتب والحاجب والقائد، وأصبح الأمر والنهي في أيديهم، فيستأثرون بالأموال لأنفسهم يجمعون منها ما استطاعوا ويسرفون ويبذخون على ما تقتضيه أحوالهم وأطوارهم، ولا يكون ذلك إلا في الدولة المطلقة التي ليس على عمالها مراقب ولا محاسب، فمن ينوب عن الملك من الوزراء أو الكتاب أو الحجاب في عصر الترف والتقاعد

يكون له نحو ذلك النفوذ، وخصوصاً في مثل الدولة العباسية، لأن وزراءها وكتابها من أمة لم تقم دولتهم إلا بها، ولم يزه تمدنهم إلا بعلمائها، ولذلك كان للوزراء في هذه الدولة الكلمة النافذة، والسيف القاطع، حتى في إبان تمدنها، اعتبر ما كان من نفوذ البرامكة في أيام الرشيد، وما كان من إحرازهم الأموال لأنفسهم، حتى كان الرشيد يحتاج إلى اليسير من المال فلا يقدر عليه، فلما غلوا يديه عما كانت تتطلبه نفسه من الترف والاستبداد نكبهم على ما هو مشهور، كما نكب المهدي قبله وزيره يعقوب بن داود، وكان قد استوزره، وسلم إليه الأمور، وفوض إليه الدواوين، وانشغل المهدي عنه باللهو، وسماع الأغاني، فعظم ذلك على الناس، وخصوصاً العرب، فهجوا يعقوب، ومن ذلك قول بشار بن برد:

بني أمية هبوا طال نومكم	إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا	خلافة الله بين الناي والعود

ووشى بعض الناس إلى المهدي بذلك، فاستدعاه، وقبض عليه، وسجنه، وظل في سجنه أعواماً طوالاً. وكما اتفق للمأمون مع يحيى بن أكثم القاضي إذ عهد إليه بتدبير مملكته وأكرمه نحو إكرام الرشيد للبرامكة، ثم لم يكن راضياً عنه، ولذلك لما دنت وفاة المأمون، أوصى أخاه المعتصم قائلاً: لا تتخذن وزيراً تلقي إليه شيئاً، فقد علمت ما نكبني به يحيى بن أكثم في معاملة الناس وخبث سيرته. وكان العرب يكرهون الوزراء، خصوصاً لأنهم في الغالب من الفرس، وكانوا يصفونهم بالجبن والبخل وقبول الرشوة. قال إعرابي يصف وزيراً:

ومظهر نسك ما عليه ضميره	يحب الهدايا بالرجال مكور
أخال به جبناً وبخلاً وشيمة	تخبر عنه أنه الوزير

على أن الوزراء كثيراً ما كانوا يمنعون المال عن الخلفاء ضناً ببيت مال المسلمين أن يذهب في الإسراف لا طمعاً به لأنفسهم، كما اتفق للواثق مع وزيره ابن الزيات إذ أعجبه صوت غنته جارية اسمها «علم»، فأمر لصاحبها بخمسة آلاف دينار، فمطل ابن الزيات في دفعها، فغضب الواثق وأمره أن يدفع ضعفي ذلك المال، فدفع إليه (١٠,٠٠٠) دينار، وكان الوزراء يزدادون نفوذاً واستئثاراً بالمال بزيادة ضعف الخلفاء، حتى صارت معظم الأموال إليهم.

الوزراء: بلغ من ثروة الوزراء ما يشبه ثروة الخلفاء، أو بيت المال في أيام الزهو، كأن الأموال تحولت من بيت المال إلى بيوت هؤلاء الناس، وصارت الوزارة مطمح أنظار أهل المطامع يبذلون الرشا، ويقدمون الهدايا رغبة فيها، على أنها كثيراً ما كانت تعرض عرضاً على من يقوم بنفقات الجند ولكن الغالب أن تبذل الأموال في سبيل الحصول عليها إما رأساً إلى الخليفة كما فعل ابن مقلة إذ بذل (٥٠٠,٠٠٠) دينار حتى استوزره الراضي في أوائل القرن الرابع للهجرة، وكما فعل ابن جهير إذ ابتاع الوزارة من القائم بأمر الله بمبلغ (٣٠,٠٠٠) دينار، أو بواسطة واحد من خاصة الخلفاء يستخدمونه بالمال، وهم لم يكونوا يفعلون ذلك إلا لاعتقادهم أنهم يسترجعون في أثناء وزارتهم أضعاف ما بذلوه بما تصل إليه أيديهم من الرشوة من تولية العمال والنظار والكتاب وغيرهم.

ومن غريب ما يحكى عن ارتشاء الوزراء أن الخاقاني وزير المقتدر بلغ من سوء سيرته في قبول الرشوة أنه ولى في يوم واحد تسعة عشر ناظراً للكوفة، وأخذ من كل واحد منهم رشوة، فانحدروا واحداً واحداً حتى اجتمعوا جميعاً في بعض الطريق، فقالوا: كيف نصنع؟ فقال أحدهم: ينبغي إن أردتم النصفة أن ينحدر إلى الكوفة آخرنا عهداً بالوزير، فهو الذي ولايته صحيحة، لأنه لم يأت بعده أحد، فاتفقوا على ذلك، فتوجه الرجل الذي جاء في الأخير نحو الكوفة، وعاد الباقون إلى الوزير، ففرقهم في عدة أعمال، وهجاه بعض الشعراء بقوله:

وزير لا يمل من الرقاعه ... يولي ثم يعزل بعد ساعه
ويدني من تعجل منه مال ... ويبعد من توسل بالشفاعه
إذا أهل الرشا صاروا إليه ... فأحظى القوم أوفرهم بضاعه

وكانت الأموال ترد على الوزراء من العمال وغيرهم من موظفي الدولة ضريبة في كل عام بصفة هدية، استبقاء لرضاهم. على أن بعضهم، وهو نادر، لم يكن يقبل الرشوة، ولا يعمل إلا بالحق مثل عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل على الله، فإنه كان عفيفاً، ذكر الفخري أن صاحب مصر حمل إليه (٢٠٠,٠٠٠) دينار وثلاثين سفطاً من الثياب المصرية على عادته مع غيره من الوزراء فلما أحضرت بين يديه، قال لوكيل صاحب مصر: لا والله لا أقبلها، ولا أثقل عليه بذلك، ثم فتح الأسفاط وأخذ منها منديلاً وضعه تحت فخذه، وأمر بالمال فحمل إلى خزانة الديوان وصحح بها، وأخذ به دوراً لصاحب مصر.

ومن الوزراء الذين اشتهروا بالعفة وصدق الخدمة علي بن عيسى وزير المقتدر، ولا يخلو أن يكون غيرهم قد أخلص الخدمة، ولكن يقال بالإجمال إن الوزراء في عصر التقهقر العباسي قلما كانوا يتولون الوزارة إلا طمعاً باختزان الأموال، فإن أبا الحسن بن الفرات وزّر للمقتدر ثلاث دفعات: الأولى سنة ٢٩٦ هجرية بقي فيها ثلاث سنين، فكان مقدار ما اجتمع عنده من المال يساوي (٧,٠٠٠,٠٠٠) دينار أخذت كلها مصادرة، ثم عاد إلى الوزارة سنة ٣٠٤ وخلع سنة ٣٠٦، ثم عاد ثالثة سنة ٣١١ وخلع سنة ٣١٢ هـ، فمجموع المدة التي مكث فيها بالوزارة في الدفعتين الأخيرتين نحو ثلاث سنوات، فكان عنده لما خلع أخيراً ما يزيد على (١٠,٠٠٠,٠٠٠) دينار، وضياع يستغل منها كل سنة (٢,٠٠٠,٠٠٠) دينار، ومع ذلك لم يذكره المؤرخون بسوء لفرط كرمه وإحسانه، وكان إذا ولي الوزارة يغلو الثلج والشمع والكاغد لكثرة استعماله، لأنه ما كان يشرب أحد كائناً من كان في داره في الفصول الثلاثة إلا الماء المثلوج، ولا كان أحد يخرج من عنده بعد الغروب إلا وبين يديه شمعة كبيرة نقية، وكان في داره حجرة معروفة بحجرة الكاغد، من دخلها واحتاج إلى شيء منه أخذه، وكان يطلق لأصحاب الحديث عشرين ألف درهم، وللشعراء عشرين ألف درهم، ولأصحاب الأدب عشرين ألف درهم، وللفقهاء عشرين ألف درهم، وللصوفية عشرين ألف درهم، وكان يجري الرزق على خمسة آلاف من أهل العلم والدين والبيوت والفقراء، وأكثرهم (١٠٠) دينار في الشهر، وأقلهم خمسة دراهم وما بين ذلك، فغطى الكرم طمعه كما غطى طمع البرامكة قبله، وقطع ألسنة الشعراء، وكسر أقلام المؤرخين.

وهناك كثير من الوزراء جمعوا أموالاً طائلة، وانغمسوا في أنواع الترف والبذخ، وذلك طبيعي في الدول المنتظمة على الطرق القديمة، لأن الوزراء كانوا يجمعون الأموال الكثيرة حيثما كانوا في العراق، أو في مصر، أو في الأندلس، فقد خلف الماردانى وزير بني طولون بمصر من الضياع الكبار ما قلما ملكه أحد قبله، وارتفاعها (٤٠٠,٠٠٠) دينار كل سنة سوى الخراج، وقد وهب وأعطى وأفضل وحجّ ٢٧ حجة أنفق في كل منها (١٥٠.٠٠٠) دينار. ويعقوب بن كلس أول وزراء الفاطميين كان في جملة أملاكه أقطاع في الشام دخله (٣٠٠,٠٠٠) دينار في السنة، وخلف أملاكاً وضياعاً وقياسر ورباعاً وخيلاً وبغالاً ونوقاً، وغير ذلك ما قيمته (٤,٠٠٠.٠٠٠) دينار غير ما أنفقه في تجهيز ابنته وهو (٢٠٠,٠٠٠) دينار، وخلف (٨٠٠) حظية سوى جواري الخدمة، وأربعة آلاف غلام عرفوا بالطائفة الوزيرية، وخلف الأفضل أمير الجيوش وزير المستنصر الفاطمي ما لم يسمع بمثله وذلك (٦٠,٠٠٠,٠٠٠) دينار عيناً و(٢٥٠) أردب دراهم نقد مصر، و(٧٥,٠٠٠) ثوب ديباج أطلس، و(٣٠) راحلة أحقاق ذهب عراقي، ودواة ذهب فيها جوهر قيمته (١٢,٠٠٠) دينار، ومائة مسمار من ذهب، وزن كل مسمار مائة مثقال، في عشرة مجالس في كل مجلس عشرة مسامير، على كل مسمار منديل مشدود مذهب بلون من الألوان أيما أحب لبسه، و(٥٠٠) صندوق كسوة ما عدا الخيل والبغال والماشية والجواري والعبيد ما لا يحصيه عدّ.

وقس على ذلك أحوال الوزراء في الأندلس، فإن هدية الوزير ابن شهيد لعبد الرحمن الناصر سنة ٣٢٧ هجرية تدل على مقدار تلك الثروة، فقد أوردها ابن خلدون والمقري، وفصلها هذا الأخير تفصيلاً حسناً في ثلاث صفحات كبيرة.

وحدث نحو ذلك في الدولة العثمانية في إبان ثروتها، فكان الوزراء يقتنون الضياع الواسعة، ويحتالون في استغلالها بأن يقفوها على بعض المساجد، بشرط أن يستولي ورثتهم على معظم ريعها، ليخلصوا أنفسهم من خراجها، أو عشورها.

أما الأبواب التي كان وزراء الدولة العباسية يكتسبون تلك الأموال بها فكثيرة، من جملتها قبول الرشوة في التوظيف كما تقدم، وما يرد عليهم من هدايا العمال للسبب نفسه، ومنها اغتصاب الضياع بما لهم من النفوذ، فيستولون على ما شاؤوا بغير حساب، ناهيك بما كانوا يمدون إليه أيديهم من أموال الخراج الواردة إلى الديوان، وقد تقدم أن طرق دفاتر تلك الأيام لم تكن تمنع الاختلاس أو تظهره.

ومن أبواب الكسب أيضاً أن بعض الموظفين كانوا يحتاجون إلى رواتبهم وهم مشغولون بما هم فيه من الخدمة، ولا سبيل لهم إلى المال فكان بعض الوزراء يقيم من قبله أناساً يشترون توقيعات أرزاق أولئك الموظفين بنصف قيمتها، ثم يقبضها هو كاملة، وكانوا يفعلون نحو ذلك أيضاً في رواتب الفقهاء وأرباب البيوت، فكأنهم يقاسمون الناس على أنصاف رواتبهم، وهو اتجار برواتب الموظفين، فضلاً عن اتجارهم بالأرزاق وعما كانوا يكتسبونه ممن يضمن بلداً أو خراجاً على سبيل الرشوة أو الاقتسام، وما كانوا يغتصبونه من التجار بنفوذهم وإغضاء الخلفاء عنهم، وكانوا يسمون ما يكتسبه

الوزراء على هذه الصورة « مرافق الوزراء »، وكانت مشهورة بين الناس، ومن مرافقهم أيضاً تنقيص عيار النقود، فكانوا يضربون الدنانير ناقصة، فيربحون من ذلك مالاً طائلاً.

تلك كانت حال الوزراء، وفي أيديهم الحل والعقد، ومع ذلك الخلفاء هم المطالبون بأرزاق الجند وقد علمت ما كان من أمر الأتراك واستبدادهم في الخلفاء ومطالبتهم بالأموال لأرزاقهم ونفقاتهم، فلم يكن يرى الخلفاء سبيلاً إلى ذلك إلا بمطالبة الوزراء، فإذا لم يدفعوا أخذوا المال منهم بالقوة، وهو ما يعبرون عنه بالمصادرة، وكانت المصادرة رائجة في عصر التقهقر، إذ لم يكن من سبيل إلى سد نفقات الدولة إلا بها، ولا يكاد يتولى وزير إلا انتهت وزارته بالمصادرة أو بالقتل أو بهما جميعاً. اهـ.

هنالك أعجب صديقي بهذه الأخبار إعجاباً شديداً، وانشرح صدره، ولكنه قال: إن مصادر هذه الأخبار كتب مختلفة، وبعضها كتب محاضرات وحكايات. فقلت: نعم. ولكنه على كل حال يدل على حال القوم إذ ذاك بجملته لا بتفصيله. قال: فأرجو أن تبين لي حال ثروة المملكة في ذلك الزمان. فقلت: جاء في كتاب « تاريخ التمدن الإسلامي » ما نصه:

كانت المدنية محصورة في المدن دون القرى عملاً بقاعدة التمدن في تلك الأيام، وهي أن تكون الثروة والأبهة حيث ما يكون ولاة الأمر أو من يلوذ بهم من الخليفة إلى أهله، فأهل بلاطه فعماله فوزرائه، وهؤلاء كانوا يقيمون في المدن، وخصوصاً العواصم، ولذلك عمرت بغداد والبصرة ودمشق والفسطاط والقاهرة والقيروان وقرطبة وغرناطة ونحوها، وظلت القرى والضياع مغارس لا عمارة فيها. ولا تكاد تجد أثراً من آثار ذلك التمدن في غير المدن.

ففي هذه المدن فاضت ينابيع الثروة الإسلامية وعاش الناس في الرخاء والرغد بجوار الخليفة، ورجال دولته ينالون جوائزهم وهداياهم وخلعهم، ويبيعونهم السلع والجوهرات والأقمشة، وفي هذه المدن كان يجتمع العلماء والشعراء والمغنون والندماء، يتعيشون بما يجود به الخليفة، أو أمراؤه أو رجال دولته.

فلما كان بلاط الرشيد غاصاً بالوفود، وبيت ماله حافلاً بالنقود، والبرامكة يبذلون المئات والألوف، كان تجار بغداد في نعمة وثروة، وخصوصاً باعة الجوهرات والرياش، لأنهما مما تتطلبه المدنية في عهد الترف والبذخ، فقد رأيت في بعض ما تقدم بأن جوهرياً بالكرخ في بغداد ساومه يحيى البرمكي على سفط من الجوهر بمبلغ (٧,٠٠٠,٠٠٠) درهم فلم يبعه، وهو جزء مما في حانوته، فما قولك بسائر ما فيه، وهناك جوهري آخر يقال له ابن الجصاص صادره الخليفة المقتدر سنة ٣٠٢ هـ، فكان ما أخذوه من بيته من صنوف الأموال تزيد قيمته على (٢٠,٠٠٠,٠٠٠) دينار، وكان في بغداد شريف يسمى محمد بن عمر بلغ خراج أملاكه (٢,٥٠٠,٠٠٠) درهم في السنة.

وقس على ذلك سائر التجارات في بغداد وغيرها، فقد كان في إصطخر بيت ينتسب إلى آل حنظلة أحدهم عمرو بن عيينة، بلغ من يساره أنه ابتاع بمليون درهم مصاحف فرقها في مدن الإسلام، وكان مبلغ خراج هذا البيت من ضياعهم نحو (١٠,٠٠٠,٠٠٠) درهم، ومنهم مرداس بن عمر كان خراج ماله (٣,٠٠٠,٠٠٠)، وابن عمه محمد بن واصل ملكه مثل ملكه. وكان في سيراف تجار

واسعو الثروة يجوز مال أحدهم (٦٠,٠٠٠,٠٠٠) درهم، اكتسبها من تجارة البحر من العود والكافور والعنبر والجواهر والخيزران والعاج والآبنوس والفلفل وغيرها، ومنهم من يبني داراً فينفق على بنائها (٣٠,٠٠٠) دينار، وأوصى أحدهم بثلث ماله لعمل فبلغ (١,٠٠٠,٠٠٠) دينار بين مركب قائم بنفسه وآلته، وأمثال ذلك كثيرة في معظم مدن الشرق.

وقس عليه ثروة كل من خالط الخلفاء ونال جوائزهم، أو خدمهم في بلاطهم في إبان ثروتهم، غير الوزراء والكتاب والعمال، فإنهم جمعوا أموالاً طائلة، حتى المغنين والشعراء، فقد توفي إبراهيم الموصلي مغني الرشيد عن ثروة مقدارها (٢٤,٠٠٠,٠٠٠) درهم، وتوفي جبريل بن بختيشوع طبيب الرشيد وخلف ما يساوي (٩٠,٠٠٠,٠٠٠) درهم من ضياع وجواهر ونقود.

واعتبر ذلك في سائر البلاد والأحوال، فتجد الثروة كانت في الغالب عند الخلفاء، أو من ينتمي إليهم، حتى التجار فإنهم إنّما كانوا يأمنون على ثروتهم بالانتماء إلى أولي الأمر إلا نادراً.

القرى

أما القرى فقد كان سكانها الفلاحين من أهل البلاد الأصليين، ويسمونهم أهل الخراج، فهؤلاء يعملون بالأجرة، أو شركاء لأصحاب الأملاك من الخلفاء، أو الأمراء، أو من ينتمي إليهم من الأعيان وخصوصاً الدهاقين في العراق وفارس، وهم أصحاب الإقطاعات الكبرى قبل الإسلام. فلما كان الإسلام تقربوا من الحكومة بأموالهم ونفوذهم في أهل بلادهم، ويندر أن يكون للفلاحين ملك خاص بهم لأسباب تقدم بيانها، فسكان القرى هم الفلاحون، ومن يجري مجراهم، وكانوا يقتنعون بالحصول على ما يقوم بأود حياتهم، ويغلب فيهم الفقر المدقع، وربما كان بينهم من لم ير الدنيا طول عمره، فكان أهل الدولة في المدن يبذلون الدنانير جزافاً، ويهبونها مئات وآلافاً، وأهل القرى في فقر مدقع، ولو رأى أحدهم الدينار لسجد له وقبله مثنى وثلاث، ولو دفعت له عشرة دنانير أو عشرين لأصابه خبل، أو مات من ساعته، كما اتفق للصياد بين يدي ابن طولون أمير مصر في أواسط القرن الثالث للهجرة، وهو مشهور بكرمه وبذخه بما أنشأه من القصور والغياض والإسطبلات، وكان ينفق كل شهر ألف دينار على الفقراء، وهو الذي جاء وكيله يوماً، فقال: إني تأتيني المرأة وعليها الإزار، وفي يدها خاتم الذهب، فتطلب مني فأعطيها. فقال له: من مدّ يده إليك فأعطه.

ومع ذلك فإن هذا الأمير نفسه ركب في غداة باردة إلى جهات المقس بجوار الفسطاط، فأصاب بشاطئ النيل صياداً عليه خلق لا يواريه منه شيء، ومعه صبي في مثل حاله، وقد ألقى الشبكة في البحر فلما رآه ابن طولون رقّ لحاله، وقال: يا نسيم ادفع إلى هذا عشرين ديناراً، فدفعها إليه، ولحق ابن طولون، فسار ولم يبعد، ورجع فوجد الصياد ميتاً، والصبي يبكي ويصيح، فظن ابن طولون أن بعض سودانه قتله وأخذ الدنانير منه، فوقف بنفسه عليه وسأل الصبي عن أبيه. فقال له الغلام: هذا، وأشار إلى نسيم الخادم، دفع إلى أبي شيئاً فلم يزل يقلبه حتى وقع ميتاً. فقال: فتشه يا نسيم، فنزل وفتشه فوجد الدنانير معه بحالها، فحرض الصبي أن يأخذها فأبى، وقال: هذه قتلت أبي وإن أخذتها قتلتني فأحضر ابن طولون قاضي المقس وشيوخه، وأمرهم أن يشتروا للصبي داراً بخمسمائة دينار تكون لها

غلة، وأن تحبس عليه، وكتب اسمه من أصحاب الجرايات، وقال: أنا قتلت أباه لأن الغنى يحتاج إلى تدريج وإلا قتل صاحبه، هذا كان يجب أن يدفع إليه دينار بعد دينار حتى تأتيه هذه الجملة على تفرقة فلا تكثر في عينيه.

فإذا كان هذا حال رجل من أهل ضواحي العاصمة، فكيف بأهل القرى البعيدين عن ترف الدولة وبذخها وجراياتها ووظائفها. اهـ.

فلما سمع صاحبي ما تقدم. قال: إن من أعظم نعم الله عز وجل على أممنا الإسلامية اليوم امتزاج التاريخ والفلسفة بالقرآن، والله إن المسلمين بعد أن اختلطوا بالأمم، وذاقوا حلو الزمان ومرّه، لن يخرجهم من مأزقهم إلا الاطلاع على السير والأخبار والفلسفة، بشرط أن يكون منهم من يمتحنون تلك السير، ويفهمون المتأخرين أخلاق المتقدمين، ويذكرونهم بما كان منهم من الخطأ والخطل، هنالك يرجع للأمم الإسلامية مجدهم، ويعلو شأنهم، ويذهب عنهم الخزي في الحياة الدنيا.

هذا وأني أرجو أن أنشرح بقول جامع في هذه المسألة، وهي أن «سقراط» كان يحرّم على الأمراء والجنود أن يقتنوا بيوتاً، أو يكون لهم مال، فإذا أفضت في ذلك وشرحت أوامر عمر رضي الله عنه كان ذلك خير معوان على تذكير أممنا الإسلامية بعدنا. فقلت: جاء في الكتاب المذكور تحت عنوان: «انتشار العرب في الأرض» ما نصه:

قد رأيت رغبة عمر بن الخطاب رجل الإسلام في جمع كلمة العرب وتوثيق عرى الاتحاد بين قبائلهم، وتأكيد العلائق بين منازلهم، فحرّضهم على فتح العراق والشام، لعلمه بما هنالك من قبائل العرب، فإذا انضموا إلى عرب الحجاز واليمن زادوا الإسلام قوة، ولكنه منعهم مما وراء ذلك، وأمرهم إذا بنوا بلداً في دار الفتح أن لا يبنوه في مكان يحول بينه وبين المدينة ماء خوفاً على الجامعة العربية أن يزداد تباعد أطرافها فتتمزق، ورغبة منه في استبقاء مركز الخلافة عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم على أن يستبقي البلاد المفتوحة لاستدرار ما فيها من غلة أو مال لأهل الحجاز، ولهذا السبب أيضاً نهى المسلمين عن الزرع وشدّد في منعهم اعتماداً على الحديث القائل: السكة «المحراث» ما دخلت دار قوم إلا دخله الذل. ولأن الاشتغال بالزرع يشغلهم عن الحرب، وهو يريد أن يقيمهم حامية لجمع الخراج والجزية واستبقاء السلطة، ولم تكن المدن التي بنوها في صدر الإسلام كالبصرة والكوفة والفسطاط إلا حصوناً أو معسكرات ينزل فيها جند العرب نزول الحامية أو جيش الاحتلال، ولهذا السبب أيضاً أخرج غير المسلمين من جزيرة العرب عملاً بوصية النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يترك في جزيرة العرب دينان، وأن لا يأتي الحج أحد من المشركين، فأخرجهم وتخلص من خطرهم، إذ لو بقوا هناك على غير دين الإسلام لأقلقوا الراحة، وربما كانوا عوناً لغير المسلمين، كما كان نصارى الشام والعراق ينصرون الروم بعد ذلك كما سترى.

فكانت السياسة في صدر الإسلام أن يبقى المسلمون في بلاد العرب وضواحيها، وكان القواد الذين فتحوا الشام والعراق قد ذاقوا لذة الفتح مع سهولته عليهم، فلم يكفوا عن عمر حتى أذن لهم بفتح ما وراء ذلك كما تقدم، فكان عمر وهو في المدينة قابضاً على أطراف الدولة يشدّها نحوه، ورجاله

يحاولون الذهاب بها شرقاً وغرباً، حتى اضطر أخيراً إلى مجاراتهم، وأذن بانسياحهم في الأرض، فتفرق العرب، وفتحوا مصر وفارس وأفريقيا وغيرها. ولما تولى عثمان أطلق العنان لقريش أن يخرجوا من المدينة، فخرجوا وتفرق العرب في الأرض، وانتشروا في مصر والشام والعراق وفارس، وما وراءها وعددهم يومئذ لا يزيد على (٢٠٠,٠٠٠) نفس، وهم جند المسلمين، وعليهم حماية مملكتهم الجديدة واستغلالها، وسكانها يزيدون على مائة مليون، ودولة الروم واقفة لهم بالمرصاد. انتهى.

فهاأنت ذا ترى من هذا المقال وغيره أن عمر رضي الله عنه منع من الزرع وشدّد فيه، وإذا قرأت ما تقدم في سورة «الشورى» عند الكلام على عدل عمر رضي الله عنه عرفت مما هناك أيضاً كيف كان يمنع المسلمين من اقتناء الأرض، وهو نفسه كان لا يملك شيئاً.

فقال صاحبي: يا سبحان الله، نحن جئنا في زمان مختلط مزدوج جاهلي، نحن من أبناء العرب ونحن اليوم فلاحون، إذن كان أمرنا قديماً غير ذلك، وكان آباؤنا مأمورين أن يكفوا عن الزرع، وأن يكونوا قادة وسادة للأمم، فلما طمعوا في المال ذلوا. فقلت: نعم ذلوا. وهل ترى أعجب من أن يتحد العلم والدين على هذه القضية، فنرى «سقراط» يحرّم على الأمراء والجند الذهب والفضة، ويقول: خذوا ما يكفيكم من مال الأمة، ولا تشاركوها في أموالها، ثم نرى هذه الفكرة عينها هي التي جاءت في الإسلام، ولكن الوحي الإسلامي كانت له نتيجة فعلاً، ودولة قامت، وإن لم تدم، أما الفلسفة السقراطية فإنها لم تقم بها دولة على قيامها، بل هي آراء وقوانين لم يتحقق منها شيء في الأرض، اللهم إلا ما يقتبسه الناس اليوم في أوروبا من تربية الجند وحفظ الأجسام والعقول بالتمرينات العضلية ونحوها، ولقد أخذ المسلمون بما يقرب من نظام عمر زماننا، فكان الرجل إذا أسلم من الأمم التي فتحوا بلادها سموه مولى، وجردوه من ملكه، وألحقوه بالحامية الإسلامية، وصار له ما لهم، وعليه ما عليهم، وأخذ عطاء مثلهم، ولكن لما فسدت الأخلاق، وتطورت الأحوال، وساءت العقبى، خلعوا العذار، ونسوا العهود، وبغوا في الأرض فساداً، فانظر نبذاً مما جاء في كتاب «تاريخ التمدن الإسلامي» وهو خلاصة الجزء الخامس، وهاك بيانها:

أولاً ــ أتباع الخاصة

كان للخاصة أتباع أخرجوهم من طبقات العامة بما خصوهم من أسباب القربى أو الخدمة، وهم أربع طبقات: الأولى الجند، الثانية الأعوان، الثالثة الموالي، الرابعة الخدم. انتهى.

ثانياً ــ كثرة الأسرى أو الأرقاء

وتكاثر الأسرى في أثناء الفتوح حتى كانوا يعدون بالألوف، ويباعون بالعشرات، اعتبر ما كان من ذلك في الصدر الأول، وما تبعه من الفتوح البعيدة في أيام بني أمية، فقد بلغت غنائم موسى بن نصير سنة ٩١ هجرية في أفريقية (٣٠٠,٠٠٠) رأس من السبي، فبعث خمسها إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك (٦٠,٠٠٠) رأس، ولم يسمع بسبي أعظم من هذا، وذكروا أن موسى هذا لما عاد من الأندلس كان معه (٣٠,٠٠٠) بكر من بنات شرفاء القوط وأعيانهم، وقس على ذلك غنائم قتيبة في بلاد الترك وغيرها، وبلغت غنائم إبراهيم صاحب غزنة سنة ٤٧٢ هجرية من قلعة في الهند (١٠٠,٠٠٠)

نفس، وفي وقعة ببلاد الروم سنة ٤٤٠ هجرية بقيادة إبراهيم بن ينال سبى المسلمون (١٠٠,٠٠٠) رأس غير الدواب، وفي جملة غنائم الحرب فضلاً عن الأسرى من الرجال جماعات من النساء والغلمان مما يثقل نقله، فكثيراً ما كانوا يبيعونهم بالعشرات رغبة في السرعة كما فعلوا في واقعة عمورية سنة ٢٢٣ هجرية، إذ نادوا على الرقيق خمسة خمسة، أو عشرة عشرة، وربما بلغ ثمن الإنسان بضعة دراهم، ذكروا أن غنائم المسلمين في واقعة الأرك بالأندلس سنة ٥٩١ هجرية بيع الأسير فيها بدرهم، والسيف بنصف درهم، والبعير بخمسة دراهم، وقد يقضون عدة أشهر وهم يبيعون الأسرى والغنائم.

تلك أمثلة من أسباب تكاثر الرقيق عند المسلمين غير ما كان يرسله بعض العمال إلى بلاط الخلفاء من الرقيق وظيفة كل سنة من تركستان وبلاد البربر وغيرهما.

معاملة الأسرى

كانوا في صدر الإسلام إذا ظفروا بغنيمة تولى الأمير قسمتها على القواد بعد إرسال الخمس إلى بيت المال، ثم اختلف ذلك مع الزمان باختلاف الدول، ففي الدولة الفاطمية بمصر كانوا إذا عاد الجند من حرب ومعهم الأسرى يصل الأسطول بالنيل إلى شاطئ القاهرة، فينزلون الأسرى، ويطوفون بهم القاهرة ثم ينزلونهم في مكان كانوا يسمونه المناخ في جهة الإسماعيلية اليوم، كان مستودعاً للأسرى الذكور، فينظرون فيهم، فإذا استرابوا في أحد قتلوه، ومن كان شيخاً لا ينفع ضربوا عنقه، وألقوا جثته في بئر كانت في خرائب مصر تعرف ببئر المنامة، ومن بقي يضاف الرجال منهم إلى من في المناخ، ويمضى بالنساء والأطفال إلى قصر الخليفة بعد ما يعطى الوزير منهم طائفة، ويفرق الباقي لخدمة المنازل، ويدفع الصغار من الأسرى إلى الأستاذين فيربونهم ويعلمونهم الكتابة والرماية، ويسمونهم إذ ذاك «الترابي»، وقد يرتقي أولئك الصبيان إلى رتب الأمراء.

ولم يكن استخدام الأسرى على هذه الصورة خاصاً بالمسلمين، بل هي عادة كانت مرعية في تلك الأعصر، فمن يقع من المسلمين في يد أعدائهم كان حظهم الاسترقاق حتى يفتديهم المسلمون، وكان للخلفاء عناية في فكاك الأسرى يبذلون في سبيله المال، أو يعطون أسرى عندهم على سبيل المبادلة وأشهر ما وقع من الفداء بين المسلمين والروم، لأن الحرب كانت سجالاً بينهما في البر والبحر يأسر بعضهم بعضاً، فاحتاج الخلفاء إلى الفداء، وكان الأمويون يفتدون أسراهم أحياناً، وعلى قلة النفر بعد النفر في سواحل الشام والإسكندرية وملطية وسائر الثغور على الحدود، وأول فداء منظم وقع في أيام بني العباس على يد الرشيد سنة ١٨٩هـ، وتوالى الفداء بعده بضع عشرة مرة في أثناء ١٥٠ سنة، وتزايدت عناية المسلمين في فكاك أسراهم حتى أصبح أهل الورع من الأغنياء يقفون المال على فكاكهم.

أما الروم فكانوا يفتدون أسراهم بالمال، ولعل السبب في ذلك أن أولئك الأسرى يكونون في الغالب لفيفاً من رعاياهم، أو أجناداً من الغرباء المأجورين، وليس من الروم أنفسهم، أما المسلمون فهم غالباً المهاجمون، فإذا ظفروا كانت غنائمهم من ذلك اللفيف، وإذا غلبوا فمن وقع في الأسر منهم كان من المحاربين الذين يستحقون الفداء، والرابطة القومية بين المسلمين يومئذ أشد وثوقاً منها بين الروم ورعاياهم وأجنادهم. على أن المسلمين كثيراً ما كانوا يأبون المال بدل الأسرى، ولا سيما في

الدولة الفاطمية، ولا يعرف عن هذه الدولة أنها فادت أسيراً من الإفرنج بمـال، ولا بأسير مثله، فكان ذلك من جملة البواعث على زيادة الأرقاء عند المسلمين.

فهل يستغرب بعد ذلك إذا استكثر المسلمون من العبيد والمماليك، فيبلغ عددهـم عند بعضهم عشرة أو مائة أو ألفاً، حتى الفقراء من عامة الجند لا يخلو أحدهم من عبـد أو بضعـة عبيـد يخدمونـه، وكان للفارس في عصر الأيوبيين عشرة أتباع يخدمونه، أو بضع عشرات إلى مائة، فكيف بالأمراء والقواد حتى في صدر الإسلام، فإن الخليفة عثمان كان لـه ألف مملوك مع علمك بزهد الراشدين قبله، فاعتبر كم يكون عددهم في أيام الثروة والترف؟ فقد كان الأمير في الدولة الأموية إذا سار مشي في ركابه مائة عبد، أو بضع مئات أو ألف عبد، وبلغ عدد غلمان رافع بن هرثمة والي خراسان سنة ٢٧٩ هجرية (٤٠٠٠) عبد، ولم يملك أحد من ولاة خراسان قبله مثله.

أصناف الأرقاء

وكانوا إذا تكاثر الأرقـاء عنـد أحدهـم وأراد استخدامهم في منزلـه؛ جعـل عليهـم رقيباً يتولى النظر في شؤونهم يسمونه « الأستاذ ». على أن الغالب في الغلمان إذا كثروا عند أمير أن يتخذهم جنداً يحرسونه فيعلمهم الحرب والقتال، فقد كان عند الإخشيد صاحب مصر (٨٠٠٠) مملوك، يحرسه في كل ليلة ألفان، وأكثر فرق الجند عند الأمراء من غلمانـهم، وأصلـهم مـن السبي والأسرى، أو يبتاعونـهم بالمال لهذه الغاية، كما تقدم في كلامنا عن فرق الجند، وربما بلغ ثمن المملوك ألف دينار.

أما الباقون من الأرقاء للخدمة في البيوت، فيعلمونـهم الصنائع اللازمة لتدبير المنزل، فمنهم الفرّاش، والطباخ والخازن والوكيل أو النقيب والبوّاب والملاح والركابي وغيرهم، ومنهم الوصيف والمملوك، وفيهم الرومي والتركي والفارسي والبربري والزنجي والصقلبي بين مجلوب ومولد من الذكور والإناث مما لا يحصى. وإذا زادوا عما يحتاجون إليه في الخدمة أو الحراسة أو الحماية اتخذوا الغلمان منهم زينة لمجالسهم، وكان يفعل ذلك أهل السعة واليسار، ولا سيما الخلفاء، فإنهم تأنقوا في تزيينهم بأنواع الألبسة المزخرفة مما لم يسبق له مثيل، وأول من أقدم على ذلك الأمين بن الرشيد، فإنه بالغ في طلب الغلمان ولا سيما الخصيان وابتاعهم، وغالى فيهم، وصيرهم لخلوته، وزينهم مثل زينة الجواري، ثم صار الاستكثار من الغلمان سنة عند الخلفاء، فكان عند المقتدر بالله (١١,٠٠٠) غلام أو مملوك، وفيهم البيض والسود، فالبيض من الفرس والديلم والترك والطبرية وغيرهم، والسود من النوبة والزغاوة يجلبونهم من مصر ومكة وأفريقية، والزنج أصلهم من رجال صاحب الزنج الذي ثار بالبصرة، وهم غتم قحّ يأكلون لحوم الناس والبهائم الميتة، وقد عوقبوا على ذلك فلم يرجعوا، وكانوا منفردين لا يختلطون بالبيض، ولكل طائفة نوبة في خدمة الخليفة بين حراسة وغيرها.

الخصيان

الخصاء عادة شرقية شائعة قديماً بين الآشوريين والبابليين والمصريين القدماء، وأخذها عنهم اليونانيون، ثم انتقلت إلى الرومان فالإفرنج، ويقال إن أول من استنبطها « سميراميس » ملكة آشور نحو سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد، وكان المظنون أن الخصاء يذهب بقوة الرجولة، وفي التاريخ جماعة من

الخصيان اشتهروا بالشجاعة والسياسة، وتولوا مناصب مهمة في أزمنة مختلفة، منهم نارسس القائد الروماني الشهير في عهد يوستنيان في القرن السادس للميلاد، وهرمياس حاكم أتارنية في ميسيا الشهير الذي قدم الفيلسوف أرسطو ذبيحة عن روحه، غير ما ذكره فيه من القصائد، وممن اشتهر من الخصيان في الإسلام كافور الإخشيدي صاحب مصر، واشتهر منهم في الهند وفارس والصين جماعات كبيرة، واستبد الخصيان في أواخر الدولة الرومانية استبداداً كبيراً.

وللخصاء أغراض أشهرها استخدام الخصيان في دور النساء غيرة عليهن، فلما ظهر الإسلام وغلب الحجاب على أهله استخدموا الخصيان في دورهم، وأول من فعل ذلك يزيد بن معاوية، فاتخذ منهم حاجباً لديوانه اسمه « فتح »، واقتدى به غيره، فشاع استخدامهم عند المسلمين، مع أن الشريعة الإسلامية أميل إلى تحريمه على ما يؤخذ من حديث رواه ابن مظعون.

وكانت تجارة الرقيق شائعة في أوروبا قبل الإسلام، ومن أسباب رواجها أن قبائل السلاف الروسيين نزلوا في أوائل أدوارهم شمالي البحر الأسود ونهر الطونة، ثم أخذوا ينزحون غرباً جنوبياً نحو أواسط أوروبا، وهم قبائل عديدة عرفت بقبائل السلاف أو « السكلاف » والسرب والبوهيم والدلمات وغيرهم، فاضطروا وهم نازحون أن يحاربوا الشعوب الذين في طريقهم كالسكسون والهون وغيرهم، وكان من عادات أهل تلك العصور أن يبيعوا أسراهم بيع الرقيق كما تقدم، فتألف لذلك جماعات كبيرة من التجار يحملون الأسرى عن طريق فرنسا فإسبانيا إلى أفريقية ومنها إلى الشام ومصر، فلما وقعت هذه البلاد في أيدي المسلمين راجت تلك التجارة.

فكان التجار من الإفرنج وغيرهم يبتاعون الأسرى من السلاف والجرمان من جهات ألمانيا عند ضفاف الرين والألب وغيرهما إلى ضفاف الدانوب وشواطئ البحر الأسود، ولا يزال أهل جورجيا والجركس إلى اليوم يبيعون أولادهم بيع السلع، فإذا عاد التجار من تلك الرحلة ساقوا الأرقاء أمامهم سوق الأغنام، وكلهم بيض البشرة على جانب عظيم من الجمال، وفيهم الذكور والإناث، حتى يحطوا رحالهم في فرنسا، ومنها ينقلونهم إلى أسبانيا « الأندلس »، فكان المسلمون يبتاعون الذكور للخدمة أو الحرب والإناث للتسرّي، وغلب على أولئك الأرقاء انتسابهم إلى قبيلة السلاف، وكانت تلفظ عندهم « سكلاف » فعرّبها العرب صقلبي، وأصبح هذا اللفظ عندهم يدل على الرقيق الأبيض بالإجمال، وكثيراً ما يرد لفظ الصقالبة في تاريخ الإسلام ويراد به الأرقاء من قبائل السلاف والجرمان وفعل الإفرنج نحو ذلك أيضاً، فاستخدموا هذه اللفظة لنفس هذا المعنى ومنها (Esclave) في الفرنساوية و(Sklave) في الجرمانية و(Slave) في الإنكليزية.

ثالثاً ـــ خصاء بعض الأرقاء

ولما شاع الحجاب بين المسلمين في إبان سلطتهم، واستخدموا الخصيان في دورهم، عمد تجار الرقيق، وأكثرهم من اليهود إلى خصاء بعض الأرقاء، وبيعهم بأثمان غالية، فراجت تلك البضاعة، وكثر المشتغلون بها، وأنشؤوا لاصطناع الخصيان معامل عديدة، أشهرها معمل الخصيان في فردون بمقاطعة اللورين في فرنسا، كانوا يخصون أولئك المساكين وهم أطفال، فيموت كثيرون منهم على أثر

العملية، فمن بقي حياً أرسلوه إلى إسبانيا، فيشتريه الكبراء بثمن كبير، وأصبحوا بتوالي الأزمان يتهادون الخصيان كما يتهادون الخيل، أو الأثاث، أو الآنية، فكان ملوك الإفرنج إذا أرادوا التقرب من خليفة المسلمين في الأندلس أو غيرها أهدوه التحف، ومن جملتها الخصيان، كما فعل ملك برشلونة وطركونة، لما طلبا تجديد الصلح من المستنصر خليفة الأندلس، فإنهما أهدياه ٢٠ خصياً من الصبيان والصقالبة و٢٠ قنطاراً من صوف السمور الخ. فتكاثر الخصيان في بلاد الخلفاء حتى تألفت منهم فرق لحراسة الخاصة، كما تألفت الفرق من سائر المماليك والعبيد، فإذا احتفل الخليفة ببيعة أو نحوها كان المماليك والخصيان زينة ذلك الاحتفال، وراجت تجارة الصقالبة في إبان التمدن الإسلامي، وكل ما كان يفد على المملكة الإسلامية منهم يستجلب من الأندلس، لأنهم كانوا يخصون بالقرب منها، غير ما يحملونه من الصقالبة من جهات خراسان مما يسبيه الخراسانيون ويحملونه للبيع، لأن بلد الصقالبة طويل يسبيه الإفرنج من الغرب والخراسانيون من الشرق.

رابعاً ـــ الجواري

للجواري شأن كبير في تاريخ التمدن الإسلامي، لا يقل عن شأن العبيد والموالي، وأصل الجواري ما يسبيه الفاتحون في الحرب من النساء والبنات، فهن ملك الفاتحين، ولو كنّ من بنات الملوك، أو الدهاقين، يستخدمونهن أو يستولدونهن، أو يتصرفون في بيعهن تصرف المالك بملكه. ولما أفضت أحوال المسلمين إلى الترف والقصف، وتدفقت الأموال من خزائن الخلفاء والأمراء جعلوا يتهادونهن كما يتهادون الحلي والجواهر، فمن أحب التقرب من كبير أهدى إليه جارية أتقنت صناعة يعلم أنه راغب فيها، فإذا علم مثلاً أنه يحب الجمال أهداه وصيفة جميلة، أو علم منه ميلاً إلى الغناء أهدى إليه قينة رخيمة الصوت، وقد يهديه عدة جوار أتقنّ عدة صنائع، وربما صارت إحداهن بعد حين أم ذلك المنزل وصاحبة الأمر فيه، إذا استولدها سيدها، وإذا كانت في دار خليفة لا يبعد أن تصير من أمهات الخلفاء، كما اتفق لأكثر خلفاء بني العباس.

ذكروا أن جارية اسمها «دنانير» صفراء صادقة الملاحة، كانت أروى الناس للغناء القديم، وقد خرجها رجل من أهل المدينة، فاشتراها جعفر البرمكي، وسمع الرشيد صوتها فألفها، وصار يسير إلى جعفر لسماع غنائها، ووهب لها هبات سنية، وعلمت امرأته زبيدة بخبرها، فشكته إلى عمومته، فلم ينجحوا في إرجاعه، فرأت أن تشغله عنها بالجواري، فأهدت إليه عشر جوار، منهن مارية أم المعتصم، ومراجل أم المأمون، وفاردة أم صالح.

وكثيراً ما كان العمال والأمراء يتقربون إلى الخلفاء بأمثال هذه الهدايا، فأهدى ابن طاهر إلى الخليفة المتوكل هدية فيها ٢٠٠ وصيفة ووصيف.

فلا غرو إذا تكاثروا في قصور الخلفاء، والأمراء، وأهل الوجاهة، وليس الاستكثار منهن حادثاً في الإسلام، وإنّما هو من بقايا التمدن القديم، فقد كان ملوك الفرس والروم يتهادونهنّ، وبلغت عدتهن عند بعض الأكاسرة ٦,٠٠٠ جارية، وكان لجماعة من بني العباس ألف جارية، وسيأتي بسط ذلك في مكان آخر. اهـ.

خامساً ــ تزيينهن

فتعدد الجواري في دور الكبراء، وتسابق أهل الترف إلى التفنن في تزيينهن، وأشهر من فعل ذلك أمّ جعفر المذكورة، فإنها لما رأت ابنها يغالي في تخنيث الغلمان وإلباسهم ملابس النساء اتخذت طائفة من الجواري سمتهنّ المقدودات، عممت رؤوسهنّ، وجعلت لهنّ الطرر والأصداغ والأقفية، وألبستهنّ الأقبية، والقراطق والمناطق، كأنهنّ من الغلمان، واقتدى بها وجيهات قومها، فاتخذن الجواري الغلاميات، أو المطمومات، وألبسوهنّ الأقبية والمناطق والذهب. اهـ.

سادساً ــ مقاومة الخلفاء للغناء

على أن أهل التعقل من الخلفاء، أو الأمراء كانوا لا ينفكون عن منعه جد طاقتهم، وكان العقلاء غير الحكام يحرضون الولاة على منعه حتى في المدينة معدن الغناء في ذلك العصر، وكثيراً ما كان أمير مكة يخرج المغنين من الحرم خوفاً من افتتان الناس بغنائهم، وصرفهم عن أمور دينهم، ولم يكن أهل الغيرة على العرض يصبرون على سماعه، ومن أقوالهم: المغنون رسل الغرام.

ذكروا أن سليمان بن عبد الملك، وكان يكره الغناء، سمع مغنياً في معسكره، فطلبه، فجاؤوه به، فقال: أعد ما غنيت، فتغنى واحتفل، فقال سليمان: والله لكأنها جرجرة الفحل في الشول، وما أحسب أنثى تسمع هذا إلا صبت إليه، ثم أمر به فخصي.

وسليمان هو الذي أمر بخصي المخنثين في المدينة لهذا السبب، قيل إنه كان في بادية له يسمر ليلة على ظهر سطح، وقد تفرق عنه جلساؤه، فدعا بوضوء، فجاءت به جارية، فبينما هي تصب عليه لحظ أن ذهنها مشتغل عنه بغناء تسمعه، فتجاهل، وفي الصباح ذكر الغناء ولين فيه، حتى ظن القوم أنه يشتهيه، فأفاضوا فيه، وذكروا من كان يسمعه، ومن يغنيه، حتى توصل إلى الرجل الذي شغلت الجارية بغنائه بالأمس، فلما تحقق ذلك أقبل على القوم، وقال: هدر الجمل فضبعت الناقة، ونبّ التيس فشكرت الشاة، وهدر الحمام فزافت الحمامة، وغنى الرجل فطربت المرأة، ثم أمر به فخصي، وسأل عن الغناء: أين أصله؟ فقيل: في المدينة بجماعة المخنثين، وهم أئمته والحذاق فيه، فكتب إلى عامله هناك: اخصِ من قِبَلَك من المخنثين المغنين، فخصاهم.

على أن المنهتكين من الخلفاء والأمراء لم ينكروا ما يجرّ إليه الغناء من أسباب اللهو. قال الوليد بن يزيد الذي ذكرنا أنه أول من استقدم المغنين إليه: إياكم والغناء، فإنه ينقص الحياء، ويزيد في الشهوة ويهدم المروءة، ويثور على الخمر، ويفعل ما يفعل المسكر، فإن كنتم فاعلين فجنبوه النساء، فإن الغناء رقية الزنا، وإني لأقول ذلك فيه على أنه أحب إليّ من كل لذة، وأشهى إليّ من الماء البارد إلى ذي الغلة، ولكن الحق أحق أن يقال. اهـ.

سابعاً ــ الغيرة

كانت أيام بني أمية من حيث العفة والغيرة عصر انتقال من البداوة إلى الحضارة، فلما انقضى عصر الأمويين ذهب ما بقي من سذاجة البداوة في طبائع العرب، واستسلم الناس للترف والرخاء، وضعفت الغيرة وأبيح التشبب، وشاع على ألسنة الشعراء حتى صاروا يصدّرون به قصائد المدح

والفخر، وكان الخلفاء الأولون من بني العباس لا يزالون على مقربة من البداوة، فأنكروا ذلك ونهوا عنه، ومن أشدهم غيرة المهدي بن المنصور، فإن بشاراً أنشده مديحاً فيه تشبيب، فنهاه عن التشبيب البتة، فصار إذا مدحه بدأ بالمدح، فظل التشبيب مستقبحاً حتى أباحه الرشيد، وألحّ في نظمه، فآل ذلك طبعاً إلى ضعف الغيرة. اهـ.

ثامناً ـــ اللباس

ولما أترف بنو أمية لبسوا الحرير على أنواعه وتفننوا بأنواع الأنسجة، وأحبوا الوشي وأكثروا من لبسه، فقلدهم الناس في ذلك، فراجت الملبوسات الموشاة في أيامهم. اهـ.

تاسعاً ـــ لباس رجال الدولة

على أن رجال الدولة ومن جرى مجراهم من الخاصة كانت لهم ألبسة لمجالس الأنس والشراب يسمونها ثياب المنادمة، وهي أثواب مصبغة بالألوان الزاهية، الأحمر أو الأصفر أو الأخضر، يصقلونها حتى تلمع وتشرق. اهـ.

عاشراً ـــ مباني العباسيين

أول من شاد الأبنية منهم المنصور، فبنى القبة الخضراء ليحوّل أذهان الناس عن الكعبة إليها، وبنى الجامع، والحصون والقصور في بغداد، كقصر الخلد، وقصر باب الذهب وغيرهما، وأخذ الخلفاء بعده في تشييد المصانع، واقتدى بهم وزراؤهم وأمراؤهم، فأقاموا قصوراً فخمة، تعرف غالباً بأسماء بانيها، كقصور البرامكة في الشماسية، وقصر ابن الخصيب، وقصر أم حبيب بالجانب الشرقي من بغداد وقصر بني خلف بالبصرة، وقصر عيسى بن علي، وهو أول قصر بناه الهاشميون في أيام المنصور، وقصر وضّاح بناه رجل اسمه وضّاح ـ بتشديد الضاد ـ للمهدي العباسي، وقصر الرشيد، وقصر الأمين، وقصر ابن الفرات، وقصر ابن مقلة، غير ما أطلقوا عليه لفظ الدار، كدار الشجرة الآتي ذكرها، ودار القرار، وهي قصر زبيدة زوج الرشيد وغير ذلك، وأخذت رغبتهم في بناء القصور تتزايد كلما تقدموا في المدنية وأغرقوا في الترف والرخاء. على أن بعض خلفائهم كانوا يحبون العمارة وينشطونها، وأولهم المعتصم بالله، فقد كان كلفاً بالبناء، فبنى سامرّا لأتراكه وأقطعهم فيها القطائع، والمتوكل على الله كان مغرماً بالعمارة، يبذل فيها الأموال الطائلة، فأحدث أساليب من الأبنية، لم تكن معروفة قبله، منها النمط الحيري، والكمين ذات الأروقة، وبنى ثلاثة أبنية تعرف بالهاروني والجوسق والجعفري، بذل في بنائها جميعاً أكثر من (١٠٠,٠٠٠,٠٠٠) درهم، أنفق منها على القصر الجعفري أكثر من (٢,٠٠٠,٠٠٠) دينار أو نحو (٤٠,٠٠٠,٠٠٠) درهم، ثم صار تشييد المباني عادة جرى عليها الخلفاء، فضلاً عن المتنزهات، فبنى إسماعيل بن علي متنزهاً أنفق فيه (٥٠,٠٠٠,٠٠٠) درهم. اهـ.

١١ ـــ دار الشجرة

وبنى المقتدر بالله في أول القرن الرابع داراً فسيحة ذات بساتين مونقة عرفت بدار الشجرة، لشجرة كانت فيها مصنوعة من الذهب والفضة في وسط بركة كبيرة أمام إيوانها، وبين شجر بساتينها، لها ثمانية عشرة غصناً من الذهب والفضة، لكل غصن منها فروع كثيرة مكللة بأنواع الجوهر على

شكل الثمار، وعلى أغصانها أنواع الطيور من الذهب والفضة، إذا مر الهواء عليها أبانت عن عجائب من ضروب الصفير والهدير، وفي جانب الدار من يمين البركة تماثيل خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرساً، ومثله على يسار البركة، قد ألبسوا أنواع الحرير المدبج، مقلدين بالسيوف، وفي أيديهم المطارد، يتحركون على خط واحد، فيظن الناظر إليهم أن كل واحد منهم يقصد صاحبه.

وفي دولة آل بويه بني معزّ الدولة قصره المعروف بالدار المعزية، أنفق في بنائه (١,٠٠٠,٠٠٠) دينار، وموّه سقفه بالذهب، ذكروا أنهم لما أرادوا هدمه بذلوا في حك الذهب من سقفه (٨,٠٠٠) دينار، ولم يبق لهذه القصور أو الدور أثر الآن.

أما الأندلس فقد بنى فيها آل مروان قصوراً سارت بذكرها الركبان، ولا يزال بعض آثارها باقياً إلى اليوم، وأكثرها في قرطبة وغرناطة، فمنها في قرطبة القصر الكبير، وهو آية من آيات الزمان، شرع ببنائه عبد الرحمن الداخل في أواسط القرن الثاني للهجرة، وأتمه من جاء بعده، وبنوا القصور في داخله وقد رأيت عند ذكر أبنية قرطبة أن القصر المذكور مؤلف من ٤٣٠ داراً، بينها قصور فخمة، لكل منها اسم خاص، كالكامل والمجدّد، والحائر والروضة، والمعشوق والمبارك، والرستق وقصر السرور والبديع وقد غالوا في زخرفها وإتقانها، وأنشؤوا فيها البرك والبحيرات والصهاريج والأحواض، وجلبوا إليها الماء في قنوات الرصاص على المسافات البعيدة من الجبال حتى أوصلوه إليها، ووزعوه فيها، وفي ساحاتها ونواحيها في تلك القنوات تؤدّيها إلى المصانع صوراً مختلفة الأشكال من الذهب الإبريز، والفضة الخالصة، والنحاس المموّه إلى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة في أحواض الرخام الرومية المنقوشة، ينصب فيها الماء من أنابيب من الذهب أو الفضة بصور الحيوانات الكاسرة، أو الطيور الجميلة على أشكال بديعة. اهـ.

١٢ ــ قصر الزهراء

ومن قصورهم في قرطبة «الزهراء»، بدأ بإنشائها الخليفة الناصر سنة ٣٢٥ هجرية على أربعة أميال من المدينة، وأتمها ابنه الحكم، فاستغرق البناء أربعين سنة، وهي عبارة عن بلد كبير، طوله من الشرق إلى الغرب ٢,٧٠٠ ذراع، وعرضه ١,٥٠٠، وعدد أعمدته أو سواريه ٤,٣٠٠ سارية، بعضها حمل إلى قرطبة من رومية وإفريقية وتونس، وبعضها أهداه صاحب القسطنطينية، وفيها الرخام الأبيض والأخضر والوردي والمجزع، وكان في الزهراء مسجد فخم، وعدة قصور، وحدائق على نحو ما تقدم في وصف القصر الكبير، وفيها البحيرات تسبح فيها الأسماك بألوانها وأنواعها، وأحواض الرخام المنقوش على أشكال شتى بين مذهب وغير مذهب، وفي جملتها حوض منقوش بتماثيل الإنسان جيء به من القسطنطينية، ونصبه الناصر في بيت المنام بالمجلس الشرقي المعروف بالمؤنس، وجعل عليه ١٢ تمثالاً من الذهب الأحمر، مرصعة بالدر النفيس الغالي، مما صنع بدار الصناعة في قرطبة بصورة أسد، بجانبه غزال إلى جانبه تمساح يقابله ثعبان وعقاب وفيل، وفي المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر، وكلها من ذهب مرصع بالجوهر، يجري الماء من أفواهها، ووكل الناصر النظر في بناء هذه القصور إلى ابنه الحكم بعده، وذكروا أن الناصر كان ينفق

عليها ثلث جباية الدولة وكانت (٦,٠٠٠,٠٠٠) دينار، فينفق منها (٢,٠٠٠,٠٠٠) دينار كل سنة على ذلك البناء، وقد تقدم أنهم واصلوا العمل فيه ٤٠ سنة، فلو فرضنا أنهم كانوا ينفقون هذا القدر في نصف هذه المدة فقط لبلغ مجموع ما أنفق على الزهراء أكثر من (٥٠,٠٠٠,٠٠٠) دينار، ولكن يظهر أن الإنفاق السنوي لم يكن يبلغ ثلث جباية المملكة إلا في بضع سنين، وأما في سائر مدة البناء فكانت النفقة أقل من ذلك كثيراً.

وقد ورد في مكان آخر أن الناصر كان ينفق على بنائها في أيامه (٣٠٠,٠٠٠) دينار في السنة، فإذا حسبنا ما أنفقه ابنه الحكم فيما بقي من الأربعين سنة على هذه النسبة مع ما أنفقه هو غير المقدار السنوي المذكور؛ كان مجموع ما دخل في بناء هذا القصر الفخم نحو (٢٠,٠٠٠,٠٠٠) دينار على الأقل، ولا غرابة في ذلك، لأننا إذا أعدنا النظر في تفاصيله رأينا فيه ما يفوق الحصر من المرصعات والمذهبات، وقد أدخلوا فيه كثيراً من الذهب حتى جعلوا بعض قرميده منه، وقد كان يتصرف في بنائه من الخدم والفعلة عشرة آلاف رجل ١,٥٠٠ دابة، وأغرب من كل ذلك أن الناصر إنّما عمد إلى بناء الزهراء مرضاة لحظية له كان اسمها زهراء طلبت إليه أن يبني مدينة باسمها وتكون خاصة بها. اهـ.

١٣ ـــ الزاهرة

واقتدى بالخليفة الناصر المنصور بن أبي عامر، فابتنى سنة ٣٦٨ هجرية قصراً لإقامته سماه الزاهرة، ليكون معقلاً له يحميه من أعدائه، فأقامه في طرف البلد على نهر قرطبة الأعظم، وحشد له الصناع والفعلة وبالغ في رفع أسواره، وجعل فيه أبنية كثيرة من جملتها أهراء ودواوين، وأقطع ما حولها لوزرائه وكتّابه وقوّاده، فابتنوا الدور والقصور، وغرسوا الحدائق، فقامت الأسواق، وتنافس الناس بالنزول في أكنافها تقرّباً من صاحب الدولة، حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة، واتصلت بهما الزهراء من الجهة الأخرى، فأصبح الناس يمشون بين هذه المدن عشرة أميال على ضوء السرج.
ويجدر بنا في هذا المقام الإشارة إلى القنطرة الفخمة التي أقامها المسلمون على نهر قرطبة، وكانت مبنية قبل الإسلام، ثم سقطت، فأعاد المسلمون بناءها على يد عبد الرحمن الغافقي، وطولها ٨٠٠ ذراع، وعرضها عشرون ذراعاً، وارتفاعها ٦٠ ذراعاً، وعدد حناياها ١٨ حنية، وأبراجها ١٩ برجاً.

قصر الحمراء وأمثاله

الحمراء قصر شهير في غرناطة لا يزال شكله محفوظاً إلى الآن، يقصده السياح من كل مكان، بناه ابن الأحمر في القرن الثامن للهجرة كما تقدم، في أرض مساحتها ٣٥ فداناً على مرتفع فسيح، ويقال إنها سميت «الحمراء» نسبة إلى لون قرميدها، وفي هذا القصر كانت بركة السباع، وفي وسطها تماثيل أسود تقذف المياه من أفواهها على شكل جميل.

وبنى المنصور بن الأعلى قصراً فخيماً في بجاية، أنشأ فيه بركة على حافتها أسود يجري الماء من أفواهها، وعلى البركة أشجار من ذهب وفضة، ترمي فروعها في الماء، وعلى أغصانها أطيار من أشكال شتى بألوان بديعة، وصنع عجيب، على مثال الشجرة التي ذكرنا أنها نصبت في قصر المقتدر العباسي عند كلامنا عن أبنية العباسيين.

وقد نظم ابن حمديس الشاعر الأندلسي قصيدة يصف فيها بركة هذا القصر وخروج الماء من أفواه الأسود. قال منها:

وضراغم سكنت عرين رياسة ... تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشى النضار جسومها ... وأذاب في أفواهها البلورا
أسد كأن سكونها متحرك ... في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما ... أقعت على أدبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها ... ناراً وألسنها اللواحس نورا
فكأنما سلت سيوف جداول ... ذابت بلا نار فعدن غديرا
وكأنما نسج النسيم لمائه ... درعاً فقدّر سردها تقديرا

وقس على ذلك قصر المأمون بن ذي النون الأندلسي، فإنه أنفق في بنائه بيوت الأموال، وكان من عجائبه أنه صنع فيه بركة ماء كأنها بحيرة، وبنى في وسطها قبة، وساق الماء تحت الأرض حتى علا فوق رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون، فكان الماء ينزل من أعلى القبة وحواليها محيطاً بها متصلاً بعضه ببعض، فكانت القبة في غلالة من ماء سكباً لا يفتر والمأمون قاعد فيها.

مباني آل طولون بمصر

أنشأ بنو طولون في مصر أبنية فخمة، أشهرها الجامع الذي بناه أحمد بن طولون، لا تزال آثاره إلى الآن بالقاهرة، والقصر الذي بناه في القطائع، وجعل له ميداناً كبيراً، ولما توفي أحمد زاد فيه ابنه خمارويه، وجعل الميدان كله بستاناً، زرع فيه أنواع الرياحين، وأصناف الشجر، ونقل إليه الودي اللطيف الذي ينال ثمره القائم، ومنه ما يتناوله الجالس من أصناف خيار النخل، وحمل إليه كل صنف من الشجر المطعم العجيب، وأنواع الورد، وزرع فيه الزعفران، وكسا أجسام النخل نحاساً مذهباً حسن الصنعة، وجعل بين النحاس وأجساد النخل مزاريب الرصاص، وأجرى فيها الماء المدبر، فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء فتنحدر إلى فساق معمولة، ويفيض منها الماء إلى مجار تسقي سائر البستان، وغرس فيه من الريحان المزروع على نقوش معمولة، وكتابات مكتوبة يتعهدها البستاني بالمقراض حتى لا تزيد ورقة على ورقة، وزرع فيه النيلوفر الأحمر والأزرق والأصفر والجنوي العجيب، وأهدي إليه من خراسان وغيرها كل أصل عجيب، وطعموا له شجر المشمش باللوز، وأشباه ذلك من كل ما يستظرف ويستحسن، وبنى فيه برجاً من خشب الساج المنقوش بالنقر النافذ، ليقوم مقام الأقفاص، وزوّقه بأصناف الأصباغ، وبلط أرضه، وجعل في تضاعيفه أنهاراً لطافاً، جداولها يجري فيها الماء مدبراً في السواقي التي تدور على الآبار العذبة، ويسقي منها الأشجار وغيرها، وسرّح في هذا البرج من أصناف القماري والدباسي والنونيات، وكل طائر جميل الشكل حسن الصوت، فكانت الطير تشرب وتغسل من تلك الأنهار الجارية في البرج، وجعل فيها أوكاراً في قواديس لطيفة ممكنة في جوف الحيطان لتفرخ الطيور فيها، وعارض لها فيه عيداناً ممكنة في جوانبه لتقف عليها إذا تطايرت حتى يجاوب بعضها بعضاً بالصياح، وسرّح في البستان من الطير العجيب

كالطواويس ودجاج الحبشة ونحوها شيئاً كثيراً. وعمل في داره مجلساً برواقه سماه بيت الذهب، طلى حيطانه كلها بالذهب المجاول باللازرد المعمول في أحسن نقش وأظرف تفصيل، وجعل فيه على مقدار قامة ونصف صوراً في حيطانه بارزة من خشب معمول على صورته، وصور حظاياه، والمغنيات اللاتي تغنينه بأحسن تصوير، وأبهج تزويق، وجعل على رؤوسهن الأكاليل من الذهب الخالص الإبريز الرزين، والكوادن المرصعة بأصناف الجواهر، وفي آذانها الأجراس الثقال الوزن، المحكمة الصنعة، وهي مسمرة في الحيطان، ولوّنت أجسامها أشباه الثياب من الأصباغ العجيبة، فكان هذا البيت من أعجب مباني الدنيا، وجعل بين يدي هذا البناء فسقية ملأها زئبقاً، وذلك أنه شكا إلى طبيبه كثرة السهر فأشار عليه بالتغميز، فأنف من ذلك، وقال: لا أقدر على وضع يد أحد عليّ، فقال له: تأمر بعمل بركة من زئبق، فعمل بركة يقال إنها خمسون ذراعاً طولاً في خمسين ذراعاً عرضاً، وملأها من الزئبق، فأنفق في ذلك أموالاً عظيمة، وجعل في أركان البركة سككاً من الفضة الخالصة، وجعل في السكك زنانير من حرير محكمة الصنعة في حلق من الفضة، وعمل فرشاً من أدم يحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شدّه، ويلقى على تلك البركة، وتشدّ زنانير الحرير التي في حلق الفضة بسكك الفضة، وينام على هذا الفرش، فلا يزال الفرش يرتج ويتحرك بحركة الزئبق ما دام عليه، وكانت هذه البركة من أعظم ما سمع به من الهمم الملوكية، ويرى لها في الليالي المقمرة منظر بهيج، إذا تألف نور القمر بنور الزئبق.

مباني الفاطميين

ولما أفضى الأمر إلى الفاطميين بنوا في القاهرة الجامع الأزهر، وهو عامر إلى اليوم، وقصوراً أشهرها القصران الشرقي والغربي، وأنفقوا على الأخير منهما (٢,٠٠٠,٠٠٠) دينار، فقس على ذلك ما أنفقوه في سائر القصور والدور كدار الفطرة، ودار الديباج وغيرهما، ولما استبحر عمرانهم تفننوا في بناء المقاصير والمناظر على ضفة الخليج وشاطئ النيل، كمنظرة الجامع الأزهر، ومنظرة اللؤلؤة على الخليج، ومنظرة الغزالة بجانبها، ومنظرة السكرة، ومنظرة الدكة ومنظرة المقس، ومنظرة التاج، ومنظرة باب الفتوح، ومنظرة البعل، ومنظرة دار الملك، غير المتنزهات العظيمة، والقصور الفخمة، في الجزيرة والروضة، كالقصر الذي بناه الآمر بأحكام الله لمحبوبته البدوية، وسماه الهودج.

وكانوا يتأنقون في زخرفة تلك المناظر والقصور تأنقاً عظيماً يدل على مبلغ حضارتهم وتفننهم فمنظرة بركة الحبش كانت مصنوعة من خشب مدهون، صوّر فيها الشعراء كل شاعر وبلده، وعند رأس الشاعر أبيات نظمها في ذكر المنظرة، وبجانب كل صورة رفّ لطيف مذهب، فإذا دخل الخليفة وقرأ الأشعار أمر أن يوضع على كل رف صرة مختومة فيها خمسون ديناراً، فيدخل الشاعر ويأخذ صرته.

مباني الأيوبيين والمماليك

ولما انتقلت الدولة إلى الأكراد كان أعظم آثارهم البنائية قلعة القاهرة، بناها السلطان صلاح الدين ليعتصم بها من الشيعة، ولا تزال قائمة إلى اليوم.

ومعظم ما في مصر اليوم من الآثار البنائية إنّما هو من أعمال السلاطين المماليك، ولا سيما المساجد كجامع السلطان حسن، وجامع المؤيد، وقايتباي، وقلاوون، وغيرهم. ومن آثارهم قبور

الخلفاء خارج القاهرة، فإنها لهم وإن نسبت إلى الخلفاء بالاسم، غير ما اندثر من قصورهم، وكانوا يقلدون الفاطميين في زخرفها كالرفرف الذي بناه الأشرف خليل بن قلاوون عالياً يشرف على الجيزة كلها، وصوّر فيه أمراء الدولة وخواصها، وعقد عليه قبة على عمد وزخرفها، وكان السلطان يجلس فيه. وقصر يلبغا بناه الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٨ هجرية لسكنى الأمير يلبغا حيث مدرسة السلطان حسن تجاه القلعة وغيرها.

الثروة والرخاء

واشتغال الخلفاء والأمراء بإنشاء المدن وبناء القصور والمتنزهات؛ إنّما هو من ثمار الثروة وتكاثر النقود في بيوت الأموال، فتنتقل إلى رجال الدولة وغيرهم على ما بيناه في نظام الاجتماع، ولذلك كان الخليفة أكثر الناس مالاً، لأنه قابض على بيت المال، يليه الوزراء والكتاب والعمال فبنو هاشم فالأتباع والتجار وغيرهم، وإليك أمثلة من ذلك:

ثروة الخلفاء وأهلهم

لما كان الخلفاء يتولون شؤون الدولة بأيديهم كانوا أكثر الناس ثروة، فلما عهدوا بها إلى الوزراء تحوّلت الثروة إليهم، وأصبح الخلفاء أحياناً مثل سائر الفقراء، والأصل في ثروة بيت المال أن تكون للدولة تنفق في مصالحها، وللخليفة بيت مال خاص به، ولكن الخلفاء تصرفوا بأموال الدولة أولاً لاعتبارهم إنفاقها مساعداً على تأييدها، ثم أنفقوها في الجوائز والهدايا لمثل هذه الغاية، وتدرجوا إلى بذلها في ملذاتهم وسائر أسباب تنعمهم، وكان يبقى مع ذلك في بيوت الأموال شيء كثير، وقد بينا في الجزء الثاني من هذا الكتاب «تاريخ التمدن الإسلامي» مقدار ما بقي منها في خزائن الخلفاء الأولين من بني العباس، المنصور والمهدي والمعتصم والمستعين والمكتفي وغيرهم «صفحة ١٢١»، وما صار إليهم من الضياع الكثيرة «صفحة ١٣٢»، وذكرنا ما بلغت إليه ثروة أمهات الخلفاء، ولا سيما الخيزران أم الرشيد وقبيحة أم المعتز وغيرهما «صفحة ١٣٤»، فلا حاجة إلى التكرار، وإنّما نأتي ببعض التفصيل على سبيل المثال: ذكروا أن المكتفي خلف (١٠٠,٠٠٠,٠٠٠) دينار هذا تفصيلها:

٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار من العين والورق والأواني المعمولة.

٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار من الفرش.

٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار من الكراع والسلاح والغلمان.

٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار من الضياع والعقار والأملاك.

٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار من الجواهر والطيب وما يجري معهما. انتهى.

١٤ ـ البذخ في الألبسة

كان المسلمون في صدر الإسلام يتوخون الخشونة في العيش والتعفف بالمطعم والملبس، فكان الخليفة من الراشدين يمشي في الأسواق وعليه القميص الخلق المرقوع إلى نصف ساقه، أو ثوب من كرباس غليظ، وفي رجله نعلان من ليف، وحمائل سيفه من ليف، وفي يده درّة يستوفي الحد بها، وكان عماله في مثل حالهم، إذا وفد أحدهم على الخليفة لبس جبة صوف، وتعمم بعمامة دكناء، واحتذى

خفين مطارقين ودخل عليه، وأول من اتخذ زيّ الملوك من أمراء المسلمين معاوية منذ كان أميراً في الشام وقدم عليه عمر بن الخطاب في أثناء ذلك، فلما رآه في أبهة الملك أنكرها عليه، وقال له: أكسروية يا معاوية؟ ثم تحضروا، وكثرت الأموال بين أيديهم، وخالطوا أهل الترف من الأعاجم، فاضطروا بطبيعة المدنية إلى التبسط في العيش، والتنعم في اللباس، وأحب الأمويون الوشي كما تقدم، وأكثرهم رغبة في لبسه هشام بن عبد الملك، فاجتمع عنده ١٢,٠٠٠ قميص وشي و١٠,٠٠٠ تكة حرير، وكانت كسوته إذا حجّ تحمل على ٧٠٠ جمل، وفي أيامهم تسابق الصناع إلى إجادة الوشي، وزاد المسلمون بذخاً في أيام بني العباس، ورغب أهل التجارة في حمل أصناف المنسوجات الحريرية والصوفية بين موشى ومطرز ومحوك بالذهب أو الفضة، والمرصع بالحجارة الكريمة على اختلاف البلاد التي يصنع فيها.

ومن أهم المنسوجات الثمينة الخز، وهو نسيج ناعم يصنع من الحرير، ومن وبر الخرز وهو ذكر الأرانب، والإبرسيم حرير خالص، والديباج نسيج حريري موشى بالقصب بأشكال الحيوانات ونحوها والبز نسيج قطني ثمين، وغير ذلك من أصناف الحرير والكتان والأوداري والملحم والمعلم والمنير، ومنسوجات الشعر أو الوبر أو الصوف، وما يلحق ذلك من أنواع السمور والقماقم وغيرها، يصنعون منها الأقبية والدراريع والطيالسة والجبب والعمائم والأبراد والغلائل والملاحف والآزر والسراويلات والشاشيات والتكك وغيرها.

وكان الصناع يتبارون في إتقان هذه الصنائع، ويغالون في ترفيعها، لما يلاقونه من البذل في ابتياعها، لتوفر الثروة بين أيدي الناس، ولا سيما الخليفة وأهل دولته، فكان هؤلاء يتهافتون على اقتناء الألبسة، لا يبالون كم يكون ثمنها، حتى بلغت قيمة العمامة من الديبقي خمسمائة دينار، وهم مع ذلك يكثرون من اقتنائها، وربما لبس الواحد ٩ أقبية، كل قباء بلون خاص للمفاخرة في البذخ، وقد تزيد على أضعاف حاجتهم إليها، فيجتمع عند أحدهم عشرات أو مئات أو ألوف من القطعة الواحدة ولا سيما الخلفاء، مثاله ما خلفه المكتفي بالله من الألبسة، وهو:

عدد	
٤,٠٠٠,٠٠٠	من الثياب المقصورة سوى الخامات.
٦٣,٠٠٠	من الأثواب الخراسانية المروية.
٨,٠٠٠	من الملاءات.
١٣,٠٠٠	من العمائم المروية.
١,٨٠٠	من الحلل الموشاة اليمانية وغيرها منسوجة بالذهب.
١٨,٠٠٠	من البطائن التي تحمل من كرمان في أنابيب القصب.
١٨,٠٠٠	من الأبسطة الأرمنية.

وتوفي ذو اليمينين وفي خزانته ١,٣٠٠ سروال لم يستعملها، ووجدوا في كسوة بختيشوع الطبيب ٤٠٠ سروال ديبقي، ولما قتل برجوان خادم الوزير بمصر وجدوا في تركته ألف سروال ديبقي بألف تكة حرير. انتهى.

١٥ ــ الأثاث والرياش عند العباسيين

لما انتقلت الخلافة إلى العباسيين اشتغل السفاح والمنصور بتأسيس الدولة وتأييدها، فلما تأيد سلطانهم مالوا إلى الترفه، فأخذوا بتقليد الدول السابقة لهم عملاً بناموس العمران، فاقتنوا الأسرّة الذهب المرصعة بالجواهر أو الأبنوس المنزل بالعاج، واتخذوا المقاعد والنمارق والكراسي، ونصبوا منائر الذهب، أوقدوا فيها الشموع من العنبر، وعلقوا الستور المطرزة، والموشاة، وافترشوا البسط، والطنافس المزركشة، والحصر المنسوجة بالذهب، المكللة بالدر والياقوت، وغالوا في اقتناء آنية الذهب والفضة، يأتون من كل بلد بأحسن مصنوعاته وأثمنها، فحملوا الستور المعلمة من فسا، والبسط والمصليات من تستر وبخارا، والحصر من عبادان، والمقاعد من دشت.

على أن أحسن أصناف الفرش المذهبة بطراز الذهب، كانت تأتيهم من أرمينية، والطاقم الأرمني وهو عشرة مصليات بمخادها ومساندها ومطارحها وبساطها يساوي خمسة آلاف دينار، وكانت أطباق الخشب لآنية الطعام تأتيهم من طبرستان، والزجاج والخزف من البصرة، وأكثره وارد في الأصل من بلاد الصين على ما فصلناه في كلامنا عن التجارة فيما تقدم، ولكن الزجاج الرقيق كان يحمل إليهم من الشام، وكان يضرب به المثل بالرقة والصفاء، فيقال: أرق من زجاج الشام، وأصفى من زجاج الشام. اتخذوا ما تقدم من الآنية والمفروشات تقليداً للفرس والروم على ما كانت عليه عندهم، ثم عرّبوها فجعلوا ما ينقش عليها من الكتابة باللغة العربية بين أمثال وأشعار وحكم ينقشونها على الستور، ويعلقونها بمسامير الذهب والفضة، ويزركشون البسط والطنافس، فيرسمون في أواسطها أشكالاً وصوراً مما في البر والبحر، ويطرزون حواشيها بالذهب أو القصب أبياتاً من الشعر، وربما طرزوا دور البساط بقصيدة، وغالوا في الزخرفة حتى نقشوا الأشعار على آنية البلور، وأطباق الطعام، وعلى جدران القاعات، وفوق أبوابها، يتفاوت ذلك شكلاً ومقداراً بتفاوت طبقات الناس من المطرز بالحرير إلى المزركش بالقصب، فالمحلى بالذهب، فالمرصع بالجواهر كالبساط الذي كان لأم المستعين وعليه صورة كل حيوان من جميع الأجناس، وصورة كل طائر من ذهب، وأعينها يواقيت وجواهر، أنفقت في صنعه ١٣٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم. اهـ.

١٦ــ ثروة رشيدة بنت المعزّ

ومما خلفته رشيدة بنت المعزّ وحفظ هناك ما قيمته ١,٧٠٠,٠٠٠ دينار، من جملتها ١٢,٠٠٠ من الثياب المصمت ألواناً و ١٠٠ قاطرميز مملوءة كافوراً قيصورياً، ومعممات بجواهر من أيام المعزّ، وبيت هارون الرشيد الخز الأسود الذي مات فيه بطوس، ومثل ذلك مما تركته عبدة بنت المعز أيضاً، ويطول شرحه، وخزائن مملوءة بأنواع الصيني تساوي القطعة منها ألف دينار، وحصير من الذهب وزنه عشرة أرطال، يظن أنه الحصير الذي حملت عليه بوران بنت الحسن بن سهل لما زفت إلى المأمون كما تقدم، وصوان من الذهب كان ملك الروم أهداها إلى العزيز بالله.

ووجدوا أنواعاً من الشطرنج والنرد مصنوعة من الجوهر والذهب والفضة، أو العاج، أو الآبنوس، وعدد كبير من الزهريات ونحوها، ومن تماثيل العنبر ٢٢,٠٠٠ قطعة، أقل تمثال منها وزنه

١٢ مناً، ومن تماثيل الخليفة ما لا يحد، والكلوتة المرصعة بالجوهر قيمتها ١٣٠,٠٠٠ دينار فيها من الجواهر ١٧ رطلاً، وطاووس من ذهب مرصع بنفيس الجوهر، عيناه من ياقوت أحمر، وريشه من الزجاج المينا المجرى بالذهب على ألوان ريش الطاووس، وغزال مرصع بنفيس الدرّ والجوهر، بطنه أبيض، قد نظم من درّ رائق، ومائدة من الجزع يقعد عليها جماعة، قوائمها مخروطة، ونخلة ذهب مكللة بالجوهر وبديع الدرّ في إجانة من ذهب تجمع الطلع والبلح والرطب بشكله ولونه وعلى صفته وهيئته من الجواهر لا قيمة لها، وكوز زير بلور مرصع يحمل عشرة أرطال، ومزيرة مكللة بحبّ لؤلؤ نفيس، وقس على ذلك عشرات من أمثاله.

١٧ ــ الفرش والأثاث عند الفاطميين

ووجدوا في خزائن الفرش من أصناف الأثاث والرياش ما يعد بالألوف، من ذلك ١٠٠,٠٠٠ قطعة خسرواني أكثرها مذهب، ومراتب خسرواني وقلموني ثمن الواحدة ٣,٥٠٠ دينار، وأجلة معمولة للفيلة من الخسرواني الأحمر المذهب، و٣,٠٠٠ قطعة خسرواني أحمر مطرز بأبيض من هدبها لم يفصل من كساء البيوت كاملة بجميع آلاتها ومقاطعها، وكل بيت يشتمل على مسانده ومخاده ومساوره ومراتبه وبسطه ومقاطعه وستوره وكل ما يحتاج إليه.

ومن أدلة الترف والإسراف في هذه الدولة السيدة أن الشريفة ست الملك أخت الحاكم بأمر الله أهدت أخاها هذا هدايا من جملتها ثلاثون فرساً بمراكبها ذهباً، منها مركب واحد مرصع ومركب من حجر البلور وتاج مرصع بنفيس الجوهر، وبستان من الفضة مزروع من أنواع الشجر. اهـ.

١٨ ــ أثمان الجواري

والاستكثار من الجواري في أوائل الإسلام لم يكن يحتاج إلى نفقة كبيرة لكثرة السبايا، فلما نضج التمدن صاروا يبتاعونهن، ويغالون في رفع أثمانهن، وكانت أسعارهن تتضاعف إذا جمعن بين الجمال ورخامة الصوت وصناعة الغناء، ويختلف ثمن الجارية من بضعة مئات إلى بضعة آلاف، أو مائة ألف دينار.

وأول من بذل في هذا السبيل إلى هذا المقدار سعيد أخو سليمان بن عبد الملك، فابتاع الزلفاء الجارية الشهيرة بمليون درهم (نحو ٧٠,٠٠٠ دينار، وابتاع الرشيد جارية بمائة ألف دينار، وجارية أخرى اشتراها من إبراهيم الموصلي بمبلغ ٣٦,٠٠٠ دينار فباتت عنده ليلة ثم أرسلها إلى الفضل، وطلب محمد الأمين إلى جعفر بن الهادي أن يبيعه جارية له اسمها «بذل» فأبى، فأمر فأوقروا قاربه ذهباً، فبلغت قيمة ذلك ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم، أي: أكثر من مليون دينار، وهذا إذا صحّ كان أعظم ما بلغ إليه بذلهم في أثمان الجواري.

وأما ما خلا ذلك فقد اشترى يزيد بن عبد الملك الأموي سلامة المغنية بعشرين ألف دينار، وبيعت الجارية «ضياء» بخمسين ألف دينار، واشترى جعفر البرمكي جارية بأربعين ألف دينار، وابتاع الواثق بالله جارية مولدة للغناء اسمها «الصالحية» بعشرة آلاف دينار، وقس عليه ما دون ذلك وفوقه واعتبر ما كانوا ينفقونه من الأموال في اقتنائهنّ. اهـ.

١٩ ــ مبلغ السخاء على العموم

تدرج المسلمون فيه بتدرجهم في الحضارة والمدنية ، وزادت جوائزهم بزيادة الثروة واتساع الأرزاق ، فكان الأمويون يعطون بالألف درهم ، أو بضعة آلاف يلحقونها ببعض الماشية ، أو الكسوة أو الخيل ، وإذا توسموا في العطاء مصلحة جعلوا الصلة عشرة آلاف ، أو عشرات الألوف ، أو مائة ألف ، أو مئات الألوف ، كما فعل معاوية في استرضاء الناس واكتساب بني هاشم إلى حزبه ، فإنه جعل صلات أبناء الصحابة ملايين يبذلها رواتب كل عام ، غير ما كان يصلهم به من الهدايا ، لسبب أو لغير سبب ، كما فعل لما ولد لعبد الله بن جعفر غلام ، فبذل له ١٠٠.٠٠٠ درهم على أن يسميه معاوية ، فرضي ولكنه أعطى تلك الصلة للذي بشره بالغلام .

واقتدى بمعاوية من خلفه من الأمويين وأمرائهم ، واشتهر من هؤلاء آل المهلب بالسخاء في الدولة الأموية ، كما اشتهر البرامكة في الدولة العباسية ، ومن أسخياء عمالهم خالد القسري ، والحجاج بن يوسف ، إذا مست الحاجة إلى السخاء ، فالحجاج أعطى للذي توسط في زواجه بهند بنت أسماء ثلاثين غلاماً ، مع كل غلام عشرة آلاف درهم ، وثلاثين جارية ، مع كل جارية تخت من ثياب وغير ذلك ، وكان سعيد بن العاص لا يرسل إلى أحد هدية مع عبد إلا كان العبد في جملتها .

أما العباسيون فكانت الثروة في أيامهم أوفر ، فبلغت أعطياتهم عشرات الملايين من الدراهم ، وأول من أعطى هذا القدر منهم المنصور ، ثم صاروا يهبون الضياع وخراج البلاد ، أو يوقرون الزوارق ذهباً أو فضة ، أو يهدون الغلمان يحملون بدر المال ، أو يرسلون الجائزة على مئات من الدواب ، أو يولون الولايات والأعمال ، وتزداد جوائزهم إذا استخفهم الطرب ، أو استفزّهم الإطراء ، فقد ولى السفاح رجلاً الأهواز بقصيدة ، والغالب يكون سخاؤهم لغرض سياسي يعود نفعه على الدولة كما فعل المنصور ، إذ أعطى في يوم واحد عشرة ملايين درهم ، فرّقها في أعمامه ، ووجوه قوّاده ، ليقطع ألسنتهم عن مقاومته .

ولما تولى ابنه المهدي استكتب أسماء أولاد المهاجرين والأنصار ، وجلس مجلساً عاماً فرّق فيه ٣,٠٠٠,٠٠٠ درهم ، وقرّر لكل واحد من أهل بيته ٦,٠٠٠ درهم كل سنة ، وأعطى المغيرة بن حبيب فريضة يضعها حيث شاء ، وفرّق الرشيد في يوم واحد ١,٣٥٠,٠٠٠ دينار ، وطرب يوماً فنثر على الناس ٦,٠٠٠.٠٠٠ درهم ، وأعطى الهادي لعبد الملك بن مالك صاحب شرطة أبيه مالاً أرسله إليه على ٤٠٠ بغل موقرة دراهم ، وأعطى الأمين إلى سليمان بن أبي جعفر مليون درهم ، واختص الأمين من أساليب السخاء بأنه كان يأمر بإيقار زورق الطالب ذهباً أو فضة ، وكان قصره على شاطئ دجلة ، فإذا جاءه شاعر ، أو طالب في زورق وأخذته الأريحية ، أو استخفه الطرب ، قال : أوقروا زورق هذا ذهباً أو فضة ، وقلما كانوا يفعلون ذلك ، والغالب أن يعوّضوا عنه بمبلغ من المال ، كما فعلوا بأبي محمد التيمي ، فإنه مدح الأمين بقصيدة أطربته ، فأمر الفضل بن الربيع أن يوقر زورقه مالاً ، قال : نعم يا سيدي ، فلما طالبه التيمي بذلك ؛ قال له الفضل : أنت مجنون ، من أين لنا ما يملأ زورقك؟ ثم صالحه على ١٠٠,٠٠٠ درهم ، وأجاز المأمون طبيبه بمليون درهم ، وألف كرحفظة « كذا » ، وفرّق

المأمون في ساعة ٢٦,٠٠٠,٠٠٠ درهم، ومدحه أعرابي فأجازه بثلاثين ألف دينار، وكان المتوكل يهب القطائع جوائز على المدح، وقس على ذلك هدايا سائر الخلفاء. اهـ.

٢٠ ــ سخاء البرامكة

سمع المأمون بشيخ يأتي خرابات البرامكة، ويبكي وينتحب طويلاً، ثم ينشد شعراً يرثيهم به وينصرف، فبعث في طلبه، فلما حضر انتهره الخليفة وسأله من هو، وبم استحق البرامكة منه ما يصنع؟ فقال الرجل وهو غير هائب: للبرامكة عندي أياد خضرة، فإن أمر أمير المؤمنين حدثته ببعضها، فقال: هات، فقال: أنا المنذر بن المغيرة الدمشقي، نشأت في نعمة فزالت حتى وصلت إلى بيع داري، وأملقت إلى غاية، فأشير علي بقصد البرامكة، فخرجت إلى بغداد، ومعي نيف وعشرون امرأة وصبياً، فدخلت بهم إلى مسجد بغداد، ثم خرجت وتركتهم جياعاً لا نفقة لهم، فمررت بمسجد فيه جماعة عليهم أحسن زيّ، فجلست معهم أردّد في صدري ما أخاطبهم به، فتحيد نفسي عن ذلّ المسألة، وإذا خادم قد أزعج القوم، فقاموا فقمت معهم، ودخلوا داراً كبيرة فدخلت، فإذا يحيى بن خالد على دكة وسط بستان، فجلسوا وجلست، وكنا مائة رجل ورجل، فخرج مائة خادم في يد كل خادم منهم مجمرة ذهب، فيها قطعة عنبر، فتبخروا، وأقبل يحيى على القاضي، وقال: زوّج ابن عمي هذا بابنتي عائشة، فخطب وعقد النكاح، وأخذنا النثار من فتات المسك، وبنادق العنبر، وتماثيل الندّ، فالتقط الناس والتقطت، ثم جاءنا الخدم في يد كل واحد منهم صينية فضة، فيها ألف دينار مخلوطة بالمسك، فوضع بين يدي كل واحد واحدة، فأقبل كل واحد يأخذ الدنانير بكمه، والصينية تحت إبطه، ويخرج، فبقيت وحدي، لا أجسر أفعل ذلك، فغمزني بعض الخدم، وقال: خذها وقم، فأخذتها وقمت، وجعلت أمشي وألتفت خوفاً من أن تؤخذ مني، ويحيى يلاحظني من حيث لا أفطن، فلما قاربت الستر رددت فيئست من الصينية، فجئته فأمرني بالجلوس، فجلست، فسألني عن حالي، فحدثته عن قصتي، فبكى، ثم قال: عليّ بموسى، فجاءه، فقال: يا بني هذا رجل من أولاد النعم، قد رمته الأيام بصرفها، فخذه إليك فاخلطه بنفسك، فأخذني وخلع عليّ، وأمرني بحفظ الصينية لي، فكنت في ألذ عيش يومي وليلتي، ثم استدعى أخاه العباس وقال: إن الوزير قد سلم إليّ هذا، وأريد الركوب إلى دار أمير المؤمنين، فليكن عندك اليوم، فكان يومي مثل أمس، فأقبلوا يتداولونني وأنا قلق بأمر عيالي ولا أتجاسر أن أذكرهم، فلما كان في اليوم العاشر أدخلت على الفضل بن يحيى، فأقمت عنده يومي وليلتي، فلما أصبحت جاءني خادم، فقال: قم إلى عيالك وصبيانك، فقلت: إنا لله ذهبت الصينية وما فيها، فليت هذا كان من أول يوم، وقمت والخادم يمشي بين يدي، فأخرجني من الدار، فازداد ما بي، ثم أدخلني إلى دار كأن الشمس تطلع في جوانبها، وفيها من صنوف الآلات والفرش، فلما توسطتها رأيت عيالي يرتعون في الديباج والستور، وقد حمل إليهم مائة ألف درهم وعشرة آلاف دينار، وسلم إليّ الخادم صكاً باسم ضيعتين جليلتين وقال: هذه الدار وما فيها والضياع لك، فأقمت مع البرامكة في أخفض عيش إلى الآن، ثم قصدني عمرو بن مسعدة في الضيعتين وألزمني من خراجهما ما لا يفي به دخلهما، فكلما لحقني نائبة قصدت دورهم فبكيت، فاستدعى المأمون عمرو بن مسعدة وأمره أن يرد

على الرجل ما استخرجه منه ويقرر خراجه على ما كان في أيام البرامكة، فبكى الشيخ بكاء شديداً، فقال له المأمون: ألم أستأنف بك جميلاً. فقال: بلى، ولكن هذا من بركة البرامكة، فقال: امض مصاحباً فإن الوفاء مبارك، وحسن العهد من الإيمان. اهـ.

٢١ ــــ السخاء على الشعراء

أما الرشيد فأعطى مروان كما كان يعطيه المهدي، أي: مائة ألف درهم، وأعطاه مرة ٥,٠٠٠ درهم وعشرة من الرقيق، وكان يعطي أبا العتاهية راتباً سنوياً مقداره ٥٠,٠٠٠ درهم غير الجوائز والمعاون، وفاقهم المتوكل في ذلك، لأنه أعطى حسين بن الضحاك ألف دينار عن كل بيت من قصيدة قالها، وهو أول من أعطى ذلك، وكان المعتصم إذا أعجبه قول الشاعر ملأ فمه جوهراً، وقد سبقه إلى ذلك يزيد بن عبد الملك.

وتشبه الوزراء والأمراء بالخلفاء، فكان خالد القسري يجلس للشعراء في يوم معين ويجيزهم، وكذلك آل المهلب فإنهم فرضوا لهم الأعطية والجوائز، أما في الدولة العباسية فالبرامكة لم يدّخروا وسعاً في إجازة الشعراء، وخصوصاً الفضل بن يحيى، وقد قال فيه بعضهم:

ما لقينا من جود فضل بن يحيى ... ترك الناس كلهم شعراء

وكان أبوه يحيى إذا لقيه شاعر ولم يكن معه مال أعطاه دابته، وقد فاق البرامكة الخلفاء في إجازة الشعراء، فنال شاعرهم إبان اللاحقي على قصيدة واحدة مثل ما ناله مروان بن أبي حفصة من الرشيد كل عمره، وقس على ذلك سخاء سائر الوزراء والأمراء، فإن يزيد بن مزيد أعطى نصف ماله لشاعر.

ويقال نحو ذلك في سخائهم على المغنين، فقد أعطى المهدي دحمان المغني في ليلة واحدة ٥٠,٠٠٠ دينار، لأنه أطربه، وأعطى الأمين إسحاق الموصلي ١,٠٠٠,٠٠٠ درهم، لأنه غناه شعراً في مدحه، فحملها إلى داره مائة فراش، وكان الهادي يجري على إبراهيم الموصلي عشرة آلاف درهم في الشهر سوى صلاته، أما الرشيد إذا طرب وهب وجاد حتى ولى إسماعيل بن صالح مصر لأنه أطربه بغنائه، وأخبار الشعراء والمغنين كثيرة فلا نطيل بها. اهـ.

٢٢ ــ التهتك

وطبيعي فيما قدمناه من الحضارة والترف أن يعتورها شيء من التهتك والفحشاء، وإن كان ذلك لا يخلو من قوم مهما بلغ من بعدهم عن الحضارة، ولكنه يكثر غالباً في المتحضرين، لسكون خواطرهم وتوفر أسباب الرغد والتنعم عندهم، كان في جاهلية العرب جماعة من البغايا لهن رايات يتنحيها الفتيان، وكان بعض الناس يكرهون إماءهم على البغاء يبتغون عرض الدنيا، ولكن ذلك شأن الحضر منهم، لأن البدو أقرب إلى صحة الآداب، فاعتبر كم تكون أسباب التهتك أوفر في المدن الكبرى حيث تتزاحم الأقدام، وتتوفر الثروة، وتكثر الجواري، ويتفشى الغناء والمسكر، كما كان شأن بغداد وقرطبة والقاهرة والفسطاط في إبان ذلك التمدن، فلا غرو إذا تفشت الفحشاء فيها، ولا سيما في العصور الوسطى، حتى صار البغاء صناعة عليها رئيس يحتكم إليه البغاؤون عند الحاجة، وتفننوا في ترويج تلك البضاعة بتصوير النساء على جدران الحمامات، وأصبح أهل القصف من الأغنياء

يصورون حظاياهم على جدران منزلهم كما فعل ابن طولون، وكان الحكام العقلاء يبذلون جهدهم في منع الفحشاء، ويقاومون تيارها بما في إمكانهم، ولما عجزوا عن كفّ أذاها بالقوة ضربوا عليها ضرائب يدفعها أصحابها مثل سائر التجارات.

وأقبح ما ظهر من التهتك في أثناء هذا التمدن مغازلة الغلمان وتسرّيهم، وظهر ذلك على الخصوص في أيام الأمين، وتكاثر بتكاثر غلمان الترك والروم من أيام المعتصم، وفيهم الأرقاء بالأسر أو بالشراء، وتسابق الناس إلى اقتنائهم كما تسابقوا إلى اقتناء الجواري وغالوا في تزيينهم وتطييبهم، وكانوا يخصونهم ليأمنوا تعدّيهم على نسائهم وجواريهم، وفشا حبّ الغلمان في أهل الدولة بمصر، وتغزّل بهم الشعراء حتى غارت النساء من ذلك، فعمدن إلى التشبه بالغلمان باللباس والقيافة ليستملن قلوب الرجال.

وكثرة الجواري في بعض القصور جرّهنّ إلى التفنن في أساليب الفحشاء، وربما اتخذت كل جارية خصياً لنفسها كالزوج، كما فعلت جواري خمارويه صاحب مصر، حتى النساء الشريفات؛ فإنّ قعودهنّ عن الزواج لعدم وجود الأكفاء، أو لأسباب أخر كان يجرّهنّ إلى مثل ذلك، فتكاثر الفساد فيهنّ لقلة التزويج، ذكروا أن ابنة الإخشيد صاحب مصر اشترت جارية لتتمتع بها، وبلغ المعز لدين الله الفاطمي ذلك، وكان لا يزال في الغرب يتحفز للوثوب على مصر ويخاف الفشل، فلما بلغه ما فعلته ابنة الإخشيد استبشر، وقال: هذا دليل السقوط، وجند على مصر وفتحها، والعفاف سياج العمران.

٢٣ ـ شكل المجلس وفرشه

وقس على ذلك سائر ما أدخلوه من مظاهر الأبهة من الطراز، ونقش الأشعار في صدور المجالس، وفرش الديباج والخز. اهـ.

٢٤ ـ احتفالات الأعراس ونحوها

فالاحتفال بالأعراس تقلب على أحوال شتى ترجع إلى نحو المشهور من الاحتفال بأعراس المسلمين في مصر الآن، مع اعتبار عوائد البلاد وتفاوت الثروة، ونأتي بمثال من أبلغ ما يعرف من التناهي بالبذخ في مثل هذه الحال، فنذكر احتفالين اشتهرا في تاريخ الإسلام:

الأول: زفاف خديجة بنت الحسن بن سهل المسماة بوران إلى الخليفة المأمون، احتفلوا به في فم الصلح احتفالاً لم يسبق له مثيل، نثر الحسن فيه على الهاشميين والقوّاد والكتاب والوجوه بنادق المسك فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك، فكانت البندقة إذا وقعت في يد رجل فتحها، فيقرأ ما في الرقعة، فإذا علم ما فيها ومضى إلى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها إليه ويتسلم ما فيها، سواء كان ضيعة، أو ملكاً آخر، أو فرساً، أو جارية، أو مملوكاً، ثم نثر على سائر طبقات الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر، غير ما أنفقه على المأمون وقواده وأصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأتباعه، وكانوا خلقاً لا يحصى، حتى على الحمالين والمكارية والملاحين، وكل من ضمه عسكره، ذكروا أنه خدم في ذلك الاحتفال ٣٦,٠٠٠ ملاح، ونفد الحطب يوماً فأوقدوا تحت القدور الخيش مغموساً في الزيت، ولما كانت ليلة البناء وجليت بوران على المأمون فرش لها حصير من

الذهب، وجيء بمكتل مرصع بالجواهر فيه درر كبار نثرت على النساء، وفيهن زبيدة وحمدونة بنت الرشيد، فما مست إحداهن من الدر شيئاً، فقال المأمون: شرفن أبا محمد وأكرمنه، فمدت كل واحدة منهن يدها فأخذت درة، فبقي سائر الدر يلوح على ذلك الحصير الذهب ويتلألأ، فقال المأمون: قاتل الله الحسن بن هانئ كأنه قد رأى هذا حيث يقول:

كأن صغرى وكبرى من فواقعها حصباء درّ على أرض من الذهب

وكانت في المجلس شمعة عنبر فيها مائة رطل، فضجّ المأمون من دخانها، فعملت له مثل من الشمع، فكان الليل مدة مقامه فيه كالنهار، وبلغت نفقة هذا الاحتفال ٥٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم، وأمر المأمون للحسن بن سهل عند منصرفه بمبلغ ١٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم وأقطعه فم الصلح، فجلس الحسن وفرّق المال على قوّاده وأصحابه وحشمه، وأطلق له خراج فارس وكور الأهواز مدة سنة، وجاء المأمون إلى عروسه في الليلة التالية، فنثرت عليه جدتها ألف درّة كانت في صينية ذهب، وغير ذلك مما يفوق طور التصديق.

والاحتفال الثاني: احتفله المتوكل على الله حين ظهر ابنه المعتز بالوضع المعروف بيركوازا، ومما جرى فيه أنه جلس بعد فراغ القواد والأكابر من الأكل، ومدّت بين يديه مرافيع ذهب مرصعة بالجوهر وعليها أمثلة من العنبر والندّ والمسك المعجون على جميع الصور، وجعلت بساطاً ممدوداً، وأحضر القواد والجلساء وأصحاب المراتب، فوضعت بين أيديهم صواني الذهب مرصعة بأصناف الجواهر من الجانبين، وبين السماطين فرجة، وجاء الفراشون بزنابيل قد غشيت بالأدم مملوءة دراهم ودنانير نصفين فصبت في الفرجة حتى ارتفعت على الصواني، وأمر الحاضرون أن يشربوا، وأن يتنقل كل من شرب من تلك الدنانير بثلاث حفنات ما حملت يده، وكلما خفّ موضع صبّ عليه من الزنابيل حتى يردّ إلى حالته، ووقف غلمان في آخر المجلس، فصاحوا: إن أمير المؤمنين يقول لكم: ليأخذ من شاء ما شاء، فمدّ الناس أيديهم إلى المال فأخذوه، وكان الرجل يثقله ما معه فيخرج به، فيسلمه إلى غلمانه ويرجع إلى مكانه، ولما تقوّض المجلس خلع الناس ألف خلعة، وحملوا على ألف مركب بالذهب والفضة وأعتق ألف نسمة.

وقس على ذلك احتفال الخليفة المقتدي بالله سنة ٤٨٠ هجرية لما زفت إليه بنت السلطان ملكشاه وحمل جهازها إلى دار الخلافة، وأما الاحتفال بتتويج السلاطين والبيعة فقد ذكرنا أمثلة منه في الجزء الأول من هذا الكتاب «تاريخ التمدن الإسلامي» صفحة ٩١ و١١٧. اهـ.

٢٥ ــ استقبال الوفود

أما استقبال الوفود فكان فخماً يظهرون به عزّ الإسلام، ولا سيما إذا كان القادمون من وفود الدول غير الإسلامية من الروم، أو الهند، أو الإفرنج، والاحتفال بذلك يختلف باختلاف الأحوال، نذكر من أمثلته احتفال المقتدر العباسي برسل جاؤوه من ملك الروم سنة ٣٠٥ هجرية، فإنه استقبلهم في دار الشجرة التي تقدم ذكرها، وعبأ لهم الجيوش، وصفت الدار بالأسلحة، وأنواع الزينة، وكانت جملة العساكر المصفوفة حينئذ ١٦٠,٠٠٠ رجل بين راكب وواقف، ووقف الغلمان الحجرية بالزينة

والمناطق المحلاة، وكانوا اثنين وعشرين ألفاً، ووقف الخدم والخصيان كذلك، وعددهم سبعة آلاف منهم ٤,٠٠٠ خادم أبيض، ٣,٠٠٠ خادم أسود، ووقف الحجاب وكانوا سبعمائة حاجب، وزينت المراكب والزوارق في دجلة أعظم زينة، وزينت دار الخلافة، وكانت جملة الستور المعلقة عليها ٣٨,٠٠٠ ستر منها ديباج مذهب ١٢,٥٠٠ ستر، وكانت جملة البسط ٢٢,٠٠٠ بساط، واستعرضوا مائة سبع مع مائة سباع، وكان في جملة الزينة الشجرة الذهب والفضة التي تشتمل على ثمانية عشر غصناً من الذهب والفضة، فكانت أغصانها تتمايل بحركات موضوعة وعلى الأغصان طيور وعصافير مختلفة من الذهب والفضة تصفر بحركات مرتبة كما وصفناها في محلها، فشاهد الرسل من العظمة ما يطول شرحه. انتهى ما أردته من كتاب «تاريخ التمدن الإسلامي»، والحمد لله رب العالمين.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: أما الآن فقد أوفيت القول حقه، وأصبح ما كان مجرد خيال واضح الحقيقة ظاهراً للعيان، إذن على المسلمين بعدنا أن يذروا الخطأ الذي وقع فيه آباؤنا الأولون، ويقيموا دولهم على حفظ صحة الأبدان والعقول، وترك الفضول، وإلا هلكوا كما هلك الأولون، وذلوا كما ذل الأقدمون، وإذا أتبعت هذا المقام بما يلقي عليه شعاعاً من نور العلم، فتبين ما حصل لبعض الملوك الذين تربوا تربية الترف والنعيم، وهل جنودهم وأعوانهم حفظوا عهدهم، أم كانوا أول الفاتكين بهم، ومات أكثرهم في ريعان شبابهم. فقلت: سأفعل إن شاء الله، انظر:

عقاب أمراء المسلمين بجهلهم في نفس الحياة الدنيا قبل عقاب الآخرة

ذلك أن صديقي العالم الذي يذاكرني هذا التفسير سمع ما سمعته أنت أيها الأخ فهاله الأمر جداً، وقال: ألهذا الحد وصل ملوك الإسلام؟ أين القرآن؟ أين الحكمة والفلسفة؟ أين العقول؟ فكيف تكون أسرّتهم ذهباً مرصعة بالجواهر، وكيف يميلون للترف والتنعم، اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ثم قال لي كما قلت أنت أيها الصديق: ليكن في هذا المقام مقال فيه ما حلّ بهؤلاء المسرفين من الذلّ في الحياة الدنيا، ولست أكتفي بأن تذكر لنا أن دولهم ذهبت، وعزّهم اختفى، بل أنا أرجو أن تبين ما حاق بنفس هؤلاء المترفين، فإن هذا يبين للناس أن الغفلة المستحكمة في الأمم لها عقاب في نفس الحياة، ولعمري إن ذلك متى اتضح تماماً كان أقوى رادع، وأعظم زاجر، ومؤثر في الأمم بعدنا.

كيف يجهلون علم الصحة، وكيف يسكرون، وكيف يكثرون من ألوان الطعام، وكيف يتفننون في الملاهي؟ أجهلوا أن هذا نفسه يمنع السعادة في نفس الحياة؟ ألم يدرسوا، ألم يتعلموا؟ هذا هو الجهل. ثم إن الانغماس في اللذات هو نفسه مزيل للملك، مسلط للجند على الأمراء، فهل كان هؤلاء لا يعقلون؟ فقلت: حياك الله. أرح فؤادك قليلاً، إن المطلع على ما تقدم في سورة «ص» من الكلام على تربية الأمراء والجند عند آية: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾[ص: ٢٦] الخ، وعلى حفظ الصحة في الكلام على قصة آدم، هناك يعرف علم الصحة عند أطباء زماننا في أوروبا، ويراها موافقة أشد الموافقة لسيرة النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين في بساط طعامهم، وأن الذين يتجاوزون هذه السيرة أذلاء في نفس حياتنا الدنيا، وهاك ما طلبت من الأمثلة على ذلك:

أولاً ـــ ما جاء في كتاب مروج الذهب

جاء في كتاب « مروج الذهب » للمسعودي ما نصه : حدّث البحتري ، قال : اجتمعنا ذات يوم مع الندماء في مجلس المتوكل فتذاكرنا أمر السيوف ، فقال بعض من حضر : بلغني يا أمير المؤمنين أنه وقع عند رجل من أهل البصرة سيف من الهند ليس له نظير ولم ير مثله ، فأمر المتوكل بكتاب إلى عامل البصرة يطلب بشرائه ما بلغ ، فنفذت الكتب على البريد ، وورد جواب عامل البصرة بأن السيف اشتراه رجل من أهل اليمن ، فأمر المتوكل بالبعث إلى اليمن بطلب السيف وابتياعه ، فنفذت الكتب بذلك ، قال البحتري : فبينما نحن عند المتوكل إذ دخل عليه عبيد الله والسيف معه ، وعرفه أنه ابتيع من صاحبه باليمن بعشرة آلاف درهم ، فسرّ بوجوده ، وحمد الله على ما سهل من أمره ، وانتضاه فاستحسنه وتكلم كل واحد منا بما يحب ، وجعله تحت ثني فراشه ، فلما كان من الغداة قال للفتح : اطلب لي غلاماً تثق بنجدته وشجاعته ، أدفع له هذا السيف ليكون واقفاً به على رأسي لا يفارقني في كل يوم ما دمت جالساً . قال : فلم يستتم الكلام حتى أقبل باغر التركي ، فقال الفتح : يا أمير المؤمنين ، هذا باغر التركي قد وصف لي بالشجاعة والبسالة ، وهو يصلح لما أراده أمير المؤمنين ، فدعا به المتوكل ، فدفع إليه السيف وأمره بما أراد وتقدم أن يزاد في مرتبته وأن يضعف له الرزق ، قال البحتري : فوالله ما انتضى ذلك السيف ولا خرج من غمده من الوقت الذي دفع إليه ، إلا في الليلة التي ضربه فيها باغر بذلك السيف . قال البحتري : لقد رأيت من المتوكل في الليلة التي قتل فيها عجباً ، وذلك أننا تذاكرنا أمر الكبر وما كانت تستعمله الملوك من الجبرية ، فجعلنا نخوض في ذلك وهو يتبرأ منه ، ثم حوّل وجهه إلى القبلة فسجد ، وعفر وجهه بالتراب خضوعاً لله عز وجل ، ثم أخذ من ذلك التراب فنثره على لحيته ورأسه ، وقال : إنّما أنا عبد الله ، وأن من صار إلى التراب لحقيق أن يتواضع ولا يتكبر ، قال البحتري : فتطيرت له من ذلك ، وأنكرت ما فعله من نثر التراب على رأسه ولحيته ، ثم قعد للشراب ، فلما عمل فيه غنى من حضر من المغنين صوتاً استحسنه ، ثم التفت إلى الفتح فقال : يا فتح ما بقي أحد سمع هذا الصوت من مخارق غيري وغيرك ، ثم أقبل على البكاء ، قال البحتري : فتطيرت من بكائه ، وقلت هذه ثانية ، فأنا في ذلك إذ أقبل خادم من خدم فتيحة ومعه منديل وفيه خلعة وجهت بها إليه فتيحة ، فقال له الرسول : يا أمير المؤمنين تقول لك فتيحة : إني استعملت هذه الخلعة لأمير المؤمنين واستحسنتها ووجهت بها لتلبسها ، قال : فإذا فيه دراعة حمراء لم أر مثلها قط ومطرف خز أحمر كأنه دبقي من رقته ، قال فلبس الخلعة والتحف المطرف ، قال : فإني على ذلك إذ تحرك المتوكل فيه وقد كان التف عليه المطرف فجذبه جذبة فخرقه من طرفه إلى طرفه ، قال : فأخذه ولفه ، ودفعه إلى خادم فتيحة الذي جاءه بالخلعة ، وقال : قل لها احتفظي بهذا المطرف عندك ليكون كفناً لي عند وفاتي ، فقلت في نفسي : إنا لله وإنا إليه راجعون انقضت والله المدة وسكر المتوكل سكراً شديداً ، قال : وكان من عادته أنه إذا تمايل عند سكره أن يقيمه الخدم الذين عند رأسه ، قال : فبينما نحن كذلك ومضى نحو ثلاث ساعات من الليل إذ أقبل باغر ومعه عشرة نفر من الأتراك وهم متلثمون والسيوف في أيديهم تبرق في ضوء ذلك الشمع ، فهجموا علينا وأقبلوا نحو المتوكل حتى صعد باغر وآخر معه من الأتراك على السرير ، فصاح بهم الفتح : ويلكم

مولاكم، فلما رآهم الغلمان ومن كان حاضراً من الجلساء والندماء تطايروا على وجوههم، فلم يبق أحد في المجلس غير الفتح وهو يحاربهم ويمانعهم. قال البحتري: فسمعت صيحة المتوكل وقد ضربه باغر بالسيف الذي كان المتوكل دفعه إليه على جانبه الأيمن، فقدّه إلى خاصرته، ثم ثناه على جانبه الأيسر ففعل مثل ذلك، وأقبل الفتح يمانعهم عنه، فبعجه واحد منهم بالسيف الذي كان معه في بطنه فأخرجه من متنه وهو صابر لا يتنحى ولا يزول، قال البحتري: فما رأيت أحداً كان أقوى نفساً ولا أكرم منه، ثم طرح بنفسه على المتوكل فماتا جميعاً، فلفا بالبساط الذي قتلا فيه وطرحا ناحية، فلم يزالا على حالتهما في ليلتهما وعامة نهارهما حتى استقرت الخلافة للمنتصر، فأمر بهما فدفنا جميعاً، وقيل: إن فتيحة كفنته بذلك المطرف المخرق بعينه، وكانت سنه ٤١ سنة. اهـ.

ثانياً ـ الكلام على المنتصر بالله بعد المتوكل

الذي تولى الملك سنة ٢٤٧ وسنه ٢٥ سنة

تولى الخلافة نصف سنة لا غير

قال المسعودي في «مروج الذهب»:

إن الخليفة المنتصر كان يلعب الصولجان في الميدان، فانصرف وهو عرق فدخل الحمام ونام في الباذهنج، فضربه الهواء، وركبته حمى هائلة، فدخل عليه أحمد بن الخصيب فقال: يا سيدي أنت متفلسف وحكيم الزمان، تنزل من الركوب تعباً فتدخل الحمام، ثم تخرج عرقاً فتنام في الباذهنج، فقال له المنتصر: أتخاف أن أموت؟ رأيت في المنام البارحة آتياً أتاني فقال لي: تعيش خمساً وعشرين سنة، فعلمت أن ذلك بشارة في المستقبل من عمري، وأني أبقى في الخلافة هذه المدة، قال: فمات في اليوم الثالث، فنظروا فإذا هو قد استوفى خمساً وعشرين سنة.

وقد قيل إن الصنفوري الطبيب سمه في مشراط حجمه به، وقد كان عزم على تفريق جمع الأتراك، فأخرج وصيفاً في جمع كثير إلى غزاة الصائفة بطرسوس، ونظر يوماً إلى بغا الصغير وقد أقبل في القصر، وحوله جماعة من الأتراك، فأقبل على الفضل بن المأمون، فقال: قتلني الله إن لم أقتلهم، وأفرّق جمعهم بقتلهم المتوكل على الله، فلما نظر الأتراك إلى ما يفعل بهم وما قد عزم عليه وجدوا منه الفرصة، وقد شكا ذات يوم حرارة، فأراد الحجامة، فخرج له من الدم ثلاثمائة درهم لما كان في المبضع، وشرب شربة بعد ذلك فحلت قواه، ويقال: إن السم كان في مبضع الطبيب حين فصده، وقد ذكر ابن أبي الدنيا عن عبد الملك بن سليمان بن جعفر، قال: رأيت في نومي المتوكل والفتح بن خاقان، وقد أحاطت بهما نار، وقد جاء محمد المنتصر فاستأذن عليهما، فمنع الوصول، ثم أقبل المتوكل عليّ، فقال: يا عبد الملك، قل لمحمد بالكأس التي سقيتنا تشرب، قال: فلما أصبحت غدوت على المنتصر، فوجدته محموماً، فواظبت على عيادته فسمعته في آخر علته يقول: عجلنا فعوجلنا، فمات من ذلك المرض. اهـ.

فلما سمع صاحبي ذلك، قال: إن هذا وأمثاله هو الذي يفهمنا قوله تعالى: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ ﴾[التوبة: ٥٥]، فقلت:

ثالثاً ـ الكلام على المستعين بالله

لما كان في شهر رمضان من هذه السنة، وهي سنة اثنتين وخمسين ومائتين، بعث المعتز بالله سعيد بن صالح الحاجب ليلقى المستعين، وقد كان في جملة من حمله من واسط، فلقيه سعيد، وقد قرب من سامرا فقتله واحتزّ رأسه، وحمله إلى المعتز بالله، وترك جثته ملقاة على الطريق، حتى تولى دفنها جماعة من العامة، وكانت وفاة المستعين بالله يوم الأربعاء لست خلون من شوال سنة اثنين وخمسين ومائتين، وهو ابن خمسة وثلاثين سنة، وذكر شاهك الخادم، قال: كنت عديلاً للمستعين عند أشخاص المعتزلة إلى سامرا ونحن في عمادية، فلما وصل إلى القاطول تلقاه جيش كثير، فقال: يا شاهك، انظر من رئيس القوم، فإن كان سعيداً الحاجب فقد هلكت، فلما عاينته قلت: هو والله سعيد، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ذهبت والله نفسي، وجعل يبكي، فلما قرب سعيد منه جعل يقنعه بالسوط، ثم أضجعه وقعد على صدره، واحتز رأسه وحمله على ما ذكرنا، واستقامت الأمور للمعتز، واجتمعت الكلمة عليه. اهـ.

رابعاً ـ الكلام على المعتز وقتله

قال المسعودي: إنه لما رأى الأتراك من إقدام المعتز على قتل رؤسائهم، وإعماله الحيلة في فنائهم وإنه قد اصطنع المغاربة والفراعنة دونهم صاروا إليه بأجمعهم، وذلك لأربع بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين، وجعلوا يقرّعونه بذنوبه ويوبخونه على أفعاله وطالبوه بالأموال، وكان المدبر لذلك صالح بن وصيف مع قواد الأتراك فلج وأنكر أن يكون قبله شيء من المال، فلما حصل المعتز في أيديهم بعث إلى مدينة السلام في محمد بن الواثق الملقب بالمهتدي، وقد كان المعتز نفاه إليها واعتقله فيها، فأتي به في يوم وليلة إلى سامرا، فتلقاه الأولياء في الطريق، ودخل إلى الجوسق، وأجاب المعتز إلى الخلع على أن يعطوه الأمان أن لا يقتل وأن يؤمنوه على نفسه وماله وولده، وأبى محمد بن الواثق أن يقعد على سرير الملك أو يقبل البيعة حتى يرى المعتز ويسمع كلامه، فأتي بالمعتز وعليه قميص مدنس وعلى رأسه منديل، فلما رآه محمد بن الواثق وثب إليه فعانقه، وجلسا معاً على السرير فقال له محمد بن الواثق: يا أخي ما هذا الأمر؟ قال المعتز: أمر لا أطيقه، ولا أقوم به، ولا أصلح له، فأراد المهتدي أن يتوسط أمره، ويصلح الحال بينه وبين الأتراك، فقال المعتز: لا حاجة لي فيها، ولا يرضوني لها، قال المهتدي: فأنا في حلّ من بيعتك. قال: أنت في حلّ وسعة، فلما جعله في حلّ من بيعته حوّل وجهه عنه، فأقيم عن حضرته، وردّ إلى محبسه، فقتل في محبسه بعد أن خلع بستة أيام. اهـ.

خامساً ـ المعتمد على الله العباسي

قال المسعودي: قد كان المعتمد على الله قعد للغداء، واصطبح يوم الاثنين لإحدى عشرة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين، فلما كان عند العصر قدّم الطعام فقال: يا موشكيره ـ للموكل به ـ ما فعلت الرؤوس بأرقابها، وقد كان قدم من الليل أن يقدّم له رأسا جملين، وقد فصل فيهما أرقابهما فقدّمتا، وكان معه على المائدة رجل من ندمائه يعرف بقف الملقم، ورجل آخر يعرف بخلف المضحك فأول من ضرب بيده إلى الرؤوس الملقم، فانتزع أذن واحد منها، وأما المضحك فإنه يقتلع اللهازم

والأعين، فأكلوا وأكل المعتمد، وأتموا يومهم، فأما الملقم صاحب اللقمة الأولى فإنه تهرّى في الليل، وأما المضحك فإنه مات قبل الصباح، وأما المعتمد فأصبح ميتاً، قد لحق بالقوم، ودخل إسماعيل بن حماد القاضي إلى المعتضد وعليه السواد، فسلم عليه بالخلافة، وكان أول من سلم عليه بها، وحضر الشهود منهم أبو عوف والحسين بن سالم وغيرهم من العدول، حتى أشرفوا على المعتمد، ومعهم بدر غلام المعتضد يقول: هل ترون به من بأس أو أثر؟ مات فجأة وقتلته مداومته لشرب النبيذ، فنظروا إليه، فإذا ليس به من أثر، فغسل وكفن، وحمل في تابوت قد أعدّ له إلى سامراً فدفن فيها، وذكروا والله أعلم أن سبب وفاته أنه سقي نوعاً من السم في شرابهم الذي كانوا يشربونه، وهو نوع يقال له البيش يحمل من بلاد الهند وجبال الترك والتبت، وربما وجدوه في سنبل الطيب وهو ألوان ثلاثة وفيه خواص عجيبة. اهـ.

سادساً ــ المعتضد بالله بعد المعتمد

قال المسعودي: كانت وفاة المعتضد لأربع ساعات خلت من ليلة الاثنين لثمان بقين من ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين، في قصره المعروف بالحسنى بمدينة السلام، وقيل إن وفاته كانت بسم إسماعيل بن بلبل قبل قتله إياه، فكان يسري في جسده، ومنهم من ذكر أن جسمه قد تحلل في مسيره في طلب وصيف الخادم على ما ذكرنا، ومنهم من رأى أن بعض جواريه سمته في منديل أعطته إياه يتنشف به، وقيل غير ذلك مما عنه أعرضنا. اهـ.

سابعاً ــ المقتدر بالله

قتل وسنه ٣٨ سنة في سنة ٣٢٠ هجرية

وكان قتله وقت صلاة العصر في الواقعة التي كانت بينه وبين مؤنس الخادم بباب الشماسية من الجانب الشرقي، وتولى دفن المقتدر العامة. اهـ.

ثامناً ــ القاهر بالله ابن المعتضد

بويع يوم الخميس لليلتين بقيتا من شوال سنة ٣٢٠ هجرية، ثم خلع يوم الأربعاء لخمس خلون من جمادى الأولى سنة ٣٢٢ هجرية، وسملت عيناه، وكانت خلافته سنة وستة أشهر وستة أيام. اهـ.

تاسعاً ــ المتقي لله

إذ بويع له بالخلافة سنة ٣٢٩ هـ وسملت عيناه سنة ٣٣٣ هـ، وكانت خلافته نيفاً وثلاث سنين ولقد كان بينه وبين «توزون» التركي وقائع، فأشهد توزون من حضره من الفقهاء والشهود، وأعطى العهود والمواثيق بالسمع والطاعة للمتقي، والتصرف له بين أمره ونهيه وترك الخلاف عليه، وأنفذ إليه كتب القضاة والشهود مما بذل من الأيمان وأعطى من العهود، وأشار بنو حمدان على المتقي أن لا ينحدر، وخوّفوه من توزون وحذروه أمره، فإنه لا يأمنه على نفسه، فأبى إلا مخالفتهم والثقة بما ورد عليه من توزون، وقد كان بنو حمدان أنفقوا على المتقي نفقة واسعة عظيمة طول مقامه عندهم واجتيازه بهم يكثر وصفها ويعسر علينا في التحصيل إيرادها بإكثار المخبرين لنا بتحديدها، وانصرف الإخشيد عن الفرات متوجهاً نحو مصر، وانحدر المتقي في الفرات، فتلقاه أبو جعفر بن سيرار كاتب

تورون بأحسن لقاء وأقام الأتراك، ومضى في انحداره حتى دخل النهر المعروف بنهر عيسى، وسار إلى الضيعة المعروفة بالسندرية على شاطئ هذا النهر، فتلقاه تورون هنالك، وترجل له، ومشى بين يديه، فأقسم عليه أن يركب، ففعل حتى وافى به إلى المضرب الذي كان ضربه له على الشط من نهر عيسى، وذلك على شوط من مدينة السلام، فأقام هنالك، وأنفذ رسلاً إلى دار طاهر ليحضر المستكفي، فلما حضر المستكفي في المضرب قبض على المتقي، ونهب جميع ما كان معه، وقبض على وزيره أبي الحسن عليّ بن محمد بن مقلة وعلى قاضيه أحمد بن عبد الله بن إسحاق، ونهب جميع العسكر، وانصرف القائد الذي كان الإخشيد ضمه إلى المتقي ومن معه إلى صاحبهم، وأحضر المستكفي فبويع له، وبكى المتقي وصاح النساء والخدم لصياحه، فأمر تورون بضرب الدبارب حول المضرب، فخفي صراخ الخدم وأدخل إلى الحضرة مسمول العينين، وأخذ منه البردة والقضيب والخاتم وسلم إلى المستكفي بالله. اهـ.

عاشراً ــ المستكفي بالله

وقد بويع بالخلافة سنة ٣٣٣ هـ وخلع سنة ٣٣٤ هـ، والذي خلعه أحمد بن بويه الديلمي، وسمل عينيه لأنه اتهمه بمخاطبة الأعداء. اهـ.

نظام الأمم ونظام الأفراد على سنن واحد

ثم قلت لصاحبي: هؤلاء هم الذين أردت أن أضرب لك المثل بهم، وهم عشرة كاملة، ليعلم المسلمون في أقطار الأرض أن نظام الدول ونظام الأفراد يسيران على وتيرة واحدة. ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾[الملك: ٣].

ما الأمم إلا أفراد كثرت، إن الفرد الواحد يأكل ويشرب ويسكر ويبالغ في الشهوات، وهو يجهل أنه يقتل نفسه بيده، ويجهل أن مطالبة نفسه له بالشهوات وبالظلم وبالبغي فتح لباب هلاكه، وقصر عمره وانحراف صحته.

اللهم إني لا أرى فرقاً ما بين من يتعاطون السم ومن يسرفون في الشهوات. يا سبحان الله، انظر أيها الذكي في الذي كتبته في سورة «البقرة» في آية الخمر هناك، وانظر ما يقوله أطباء أمريكا وفرنسا وإنكلترا، انظر كيف يقولون، يقولون: إن الخمر عقار من عقاقير جمة كلهن سامات، والإنسان متى تعاطى أي سم أحسّ في نفسه بلذة، إذن الخمر ليست خاصة به، بل هي حاصلة في جميع السموم. اهـ.

هذا كلام أطباء الأمم في عصرنا، إذن جميع اللذات الهاجمات على الناس قاتلات لهم مهلكات، فقس على ذلك كل ما استلذ به الناس من حطام الدنيا، إن في النفوس لسعادة يجهلها الغافلون، ولا يحظى بها المترفون.

فقال صاحبي: ألم يكن في هؤلاء الملوك من يقتدي بالخلفاء الراشدين وبالنبي صلى الله عليه وسلم؟ فقلت: وهل تنفع تلك القدوة إذا فسد الزمان؟ أرأس جمل على جسم عنز وخنزير؟ فقال: أوضح فإني لم أعرف ماذا تريد؟ فقلت: إذا أردت إسعاد نفسك وجب عليك أن تعمم العلم والحكمة في الأمة، ولتقرأ ما قصه الله عن موسى: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾[طه: ١٠]، فإنه لما رأى النار أحب أن يساعد أهله كما يساعد

نفسه، وهذه في القرآن وأمثالها مضرب أمثال لنا، فليست هدايتي وحدي سواء أكنت ملكاً أم فرداً عادياً بمغنية عن هداية الأمة، وإن كان كل امرئ في الأرض عضو في جسم أمته، وهذا العضو تصل آثار أمته إليه شرفاً وضعة، وعزًّا وذلًا، وسعادة وشقاء، شاء أم أبى، فأما أني أقف وأقول سأكون على منوال أبي بكر وعمر، وفي الوقت نفسه لم تكن التعاليم في المدارس والمعاهد على هذا النمط؛ فإن الناس لا يعبؤون بما أقول، فقال: هذا كلام عام، فأرجو أن تأتي فيه ببيت القصيد. فقلت: هذا المهتدي بالله العباسي قد بويع له بالخلافة سنة ٢٥٥ هجرية وقتل ولم يستكمل الأربعين. هذا الخليفة قرّب منه العلماء، ورفع منازل الفقهاء، وعمّهم ببرّه، وكان يقول: يا بني هاشم دعوني حتى أسلك مسلك عمر بن عبد العزيز، فأكون فيكم مثل عمر بن عبد العزيز في بني أمية، وقلل من اللباس والفرش والمطعم والمشرب، وأمر بإخراج آنية الذهب والفضة من الخزائن فكسرت، وضربت دنانير ودراهم، وعمد إلى الصور التي كانت في المجالس فمحيت، وذبح الكباش التي كان يناطح بها بين يدي الخلفاء والديوك، وقتل السباع المحبوسة، ورفع بسط الديباج، وكل فرش لم ترد الشريعة إباحته، وكانت الخلفاء قبله تنفق على موائدها في كل يوم عشرة آلاف درهم، فأزال ذلك وجعل لمائدته وسائر مؤنه في كل يوم نحو مائة درهم، وكان يواصل الصيام، وقيل إنه لما قتل أخرج رحل من الموضع الذي كان يأوي إليه فأصيب له سفط مقفل فتوهموا أن فيه مالاً أو جوهراً، فلما فتح وجد فيه جبة صوف وغلّ، وقيل جبة شعر، فسألوا من كان يخدمه، فقال: كان إذا جنّ الليل لبسها وغلّ نفسه، وكان يركع ويسجد إلى أن يدركه الصباح، وإنه كان ينام من الليل ساعة من بعد العشاء الآخرة، ثم يقوم، وإنه سمعه بعض من كان يأنس إليه قبل أن يقتل وقد صلى المغرب، وقد دنا من إفطاره وهو يقول: اللهم إنه قد صحّ عن نبيك محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال: ثلاثة لا تحجب لهم دعوة عن الله، دعوة الإمام العادل، وقد أجهدت نفسي في العدل على رعيتي، ودعوة المظلوم، وأنا مظلوم، ودعوة الصائم حتى يفطر، وأنا صائم، وجعل يدعو عليهم وأن يكفى شرّهم.

وكانت بين المهتدي وبين بايكيال حرب عظيم قتل فيها خلق كثير من الناس، وانكشف بايكيال واستظهر المهتدي عليه، فخرج كمين بايكيال على المهتدي وفيه مارجوج التركي، فولى المهتدي وأصحابه، ودخل سامرا مستغيثاً بالعامة، مستنصراً بالناس، يصيح في الأسواق فلا مغيث، وأمامه أناس من الأنصار، فمضى مؤيساً من النصر إلى دار ابن خيعونة بسامرا مختفياً، فهجموا عليه وعزلوه وحملوه منها إلى دار مارجوج، وقيل له: أتريد أن تحمل الناس على سيرة عظيمة لم يعرفوها، فقال: أريد أن أحملهم على سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأهل بيته والخلفاء الراشدين، فقيل له: الرسول صلى الله عليه وسلم كان معه قوم قد زهدوا في الدنيا ورغبوا في الآخرة، كأبي بكر وعمر وعثمان وعليّ، وأنت إنّما رجالك تركيّ وجزريّ ومغربيّ، وغير ذلك من أنواع الأعاجم، لا يعلمون ما يجب عليهم من أمر آخرتهم، وإنّما غرضهم ما استعجلوه من هذه الدنيا، فكيف تحملهم على ما ذكرت من الواضحة، فكثر منهم ومنه الكلام والمراجعة في هذا المعنى وأشباهه، ثم انقادوا إليه على حسب ما ظهر للناس من ذلك، فلما كاد الأمر أن يتم قام فيهم سليمان بن وهب الكاتب، وقيل غيره

وقال: هذا سوء رأي منكم، وخطأ في تدبيركم، إن أعطاكم بلسانه فنيته فيكم غير هذا، قال: وسيأتي عليكم جميعاً ويفرّق جمعكم، فلما سمعوا هذا القول استرجعوا وجاؤوه بالخناجر، فكان أول من جرحه ابن عم لبايكيال جرحه بخنجر في أوداجه، وانكبّ عليه فالتقم الجرح والدم يفور منه، وأقبل يمص الدم حتى روي منه والتركي سكران، فلما روي من دم المهتدي قام قائماً وقد مات المهتدي، فقال: يا أصحابنا قد رويت من دم المهتدي كما رويت في هذا اليوم من الخمر. وقد تنوزع فيما ذكرنا من قتل المهتدي، والأشهر ما ذكرناه من قتله بالخناجر، ومنهم من رأى أنه عصرت مذاكيره حتى مات، ومنهم من رأى أنه جعل بين لوحين عظيمين وشد بالحبال إلى أن مات، وقيل خنقاً، وقيل كبس عليه بالبسط والوسائد حتى مات، فلما مات داروا به ينوحون ويبكون عليه، وندموا على ما كان منهم من قتله لما تبينوا من نسكه وزهده. وبهذا تم الكلام على الفصل الأول في آية: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا ﴾[الأحقاف: ٢٠] الخ، والحمد لله رب العالمين.

فقال صاحبي: أريد قبل أن ننتقل إلى الفصل الثاني أن أرجو منك أن تشرح لي هذه الدنيا وأحوالها بقول موجز. وكيف نراها إلى الهوان والبؤس أقرب منها إلى العزّ والسعادة، وكيف وجدنا الفلاسفة قبل النبوة الإسلامية بعشرة قرون، يقولون لنا: إن سعادة الدنيا نفسها بترك الشهوات، وإن الأمراء عليهم أن يكونوا زاهدين لمصلحتهم هم أنفسهم وإسعادهم، وإن أرباب الدولة يجب عليهم أن لا يكون لهم متاع ولا ملك ولا يسكرون ولا يقتنون، فما الذي دها هذا الإنسان؟.

فقلت: أيها الصديق، يخيل لي أن هذه الأرواح الأرضية كأنها كانت في عوالم أخرى من عوالم الأرواح قبل حلولها في عالم الأجسام، وأن أهل هذه الأرض كأنهم لم يصلحوا للحياة هناك، فأخرجوا من السعادة، وقيل لهم: أنتم لا تصلحون إلا للحياة في أجسام غليظة. فجيء بهم إلى هذه الأرض، ومن رحمة الله أنه أنزل لهم فلاسفة وحكماء يعلمونهم، وأرسل لهم رسلاً، فهؤلاء بالعقل وهؤلاء بالوحي، فيقولون لهم: يا أهل الأرض، إياكم والبطنة، وإياكم والظلم، وإياكم والفحشاء. وهم لم يقولوا ذلك لإسعادهم في الآخرة فقط، بل أرادوا إسعادهم في الدنيا أيضاً، فأخذ الناس يسمعون كلام هؤلاء الأنبياء كالخلفاء الراشدين رضي الله تعالى عنهم، ثم غلب على الناس طبعهم، فرجعوا إلى عادتهم. ولقد مر بك ما قاله سقراط في الجمهورية، فإن أهمّ علمها موافق للإسلام في الفضيلة وقليل منه يخالف الإسلام، لأنهم لا وحي ولا نبوة عندهم، فهذا العلم منبعث من العقل، وقد وافق الوحي والنبوة، ولكن الناس يرجعون إلى دينهم، ومتى رجع جيل واحد اتبعته الأجيال كلها.

هذا رأيي في هذا الإنسان، فمثل بني آدم كمثل الذي استوقد ناراً في صحراء فلما أضاءت ما حوله ذهب النور وبقي الناس في الظلمات وهم لا يبصرون، فالحكمة والنبوة هما كالنار أضاءت ما حولها، ولكن ما يكاد الأنبياء يفارقون الناس حتى يرجعوا إلى أخلاقهم وأحوالهم.

هذه الأمم الإسلامية ورثت دول الروم والفرس، واتبعت خطواتهم في غدواتهم وروحاتهم، فما تركوا خمراً ولا موائد ولا لذات ولا أوزاراً وقع فيها القوم إلا اتبعوهم فيها، سواء في ذلك الأمويون والعباسيون والأندلسيون، وكلما خلت أمة اتبعتها أخرى حذو القذة بالقذة، تشابهت قلوبهم، فهم

جميعاً في غمرات الجهالات غارقون، حتى إنك ترى أمتنا المصرية في زماننا تسير على منوال العصر العباسي. ذلك أن الفرنجة ملؤوا بلادنا بالخمر والحشيش والمخدرات، وأعظم ما يحزنني أن أكثر المتعلمين الذين يعيشون من خزانة حكومتنا لا يهنأ لهم طعام ولا شراب ولا سكر ولا لهو إلا في تلك الأماكن المعدّة للفسوق، وفيها الصور الداعية للشهوات، وفيها الملاهي والمخازي ودور الصور المتحركة «السينما» لا تذر شاباً إلا حركت فيه الشهوات، وأعدّته للفسوق، فإن كان حاكماً أصبح في الغالب لصاً، وإن كان غنياً أضاع ثروته، وهكذا. إن كثيراً من الناس في ديارنا أصبحوا في حال احتلال واختباط، فإنا لله وإنا إليه راجعون. فقال: وما رأيك الآن؟ فقلت:

(أولاً) أن تمتحن أشعار القرون الأولى، وينبذ منها كل ما كان فيه رقاعة وحثّ على الشهوات ويطرح جميع الغزل المهيج الذي كان أيام الدولة العباسية، وذلك بلجنة من علماء التربية الدارسين لعلم النفس حتى يميزوا بين الغثّ والسمين، ويحرم على الشعب أن يقرأ شيئاً من ذلك، وهكذا تبحث الكتب العربية التي ورثناها عن آبائنا، ويلغى منها كل بيت فيه ما يدعو إلى الشهوة، ولو كان شاهداً على قاعدة، فكفى جهلاً وغروراً، وكما رأينا سقراط يعرض أشعار «هوميروس» وينقدها فلنعرض نحن أشعار المتنبي وأبي تمام والبحتري والمعري وننقدها نقداً صحيحاً، ونحذف منها كل ما يخالف تهذيب شبابنا. فإذا سمعنا المعري يقول:

قالوا إله بلا زمان ولا مكان ألا فقولوا ... هذا كلام له خبيء

معناه ليست لنا عقول، وإذا سمعناه يقول:

هذا جناه أبي عليّ ... وما جنيت على أحد

يريد بذلك إحجام الناس عن التناسل بالثاني، وجحود الإله في الأول، فإننا ننبذه ونحذفه، ونحرّم على الشبان قراءته، وإذا سمعنا عبد الله بن المعتز يقول:

يقول العاذلون تعزّ عنها ... واطف لهيب قلبك بالسلوّ
وكيف وقبلة منها اختلاساً ... ألذ من الشماتة بالعدوّ

أو سمعناه يقول:

إذا اجتنى وردة من خدّه فمه ... تكوّنت تحتها أخرى من الخجل

قلنا له: يا ابن المعتز احفظ هذا لنفسك أنت وأشباهك، فإن حفظ هذه الأبيات يدعو إلى الذكرى، والذكرى تهيج النفس لأمثال ما سمعت، وعلى الأمم الإسلامية أن تستبدل بذلك الجمال الطبيعي في الكواكب والنبات والحيوان، مما ملأنا به هذا التفسير وكتبنا الأخرى لنفتح للشبان باب الجمال الذي لا تشوبه الشهوات، فأما الأمم العربية آباؤنا في الشرق والأندلس فقد قتلهم الغزل، وظنوا جهلاً أن هذا يرقي النفوس ويعلم البلاغة، وهذا حق أريد به باطل. الجمال المطلوب هو جمال السماوات والأرض والنبات والحيوان وعجائب هذه الدنيا. أما الوقوف عند هذا الجمال الشهواني فهو الذي أضاع أمة العرب وأهلكها وأطمع أهل أوروبا في الأندلسيين الذين انحصرت عقولهم في تلك الشهوات، وجيرانهم يستعدّون لهم سرًّا، ففتكوا بهم فتكاً ذريعاً، فعلى الأمم الإسلامية أن

يرجعوا لأشعار آبائهم، فإن أشعارهم هي التي قتلت دولتهم فهي إما مدح لملك، وهذا نقص، وإما غزل في امرأة، وهذا نقص آخر، وليمحصوها، وليعطوا الأبناء منها ما يوافق الرقيّ، كقول بشار بن برد:

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما
إذا ما أعرنا سيداً من قبيلة ذرى منبر صلى علينا وسلما

أيها المسلمون، أنا أنذركم إن لم تفعلوا ذلك، هاأنا ذا والحمد لله قد فتحت باب فلجوه، وادرسوا الأشعار، ولا تقفوا ما ليس لكم به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً.

(ثانياً) أن لا ندع صورة من الصور «شريط السينما» تدخل بلادنا إلا إذا كانت لعلم، أو لصناعة، أو لزراعة، فأما العشق وأما الغرام فلا.

(ثالثاً) أن لا نجلس في المطاعم الفرنجية، ولا نجلي إلا في مطاعم أبناء بلادنا، فإن كان ولا بد فلنعلم نحن طبقة منا، ولنقم مقام الفرنجة في ذلك.

(رابعاً) أن نحرّم على الملوك والأمراء والمديرين أن يشتغلوا بغير المملكة، ونعطيهم من مال الدولة ما يكفيهم، فأما الاشتغال بالمال الخاص، فهذا خطر عظيم. فقال: هذا أمر لا يقبله أحد. فقلت: ليس المقام في القبول ولا عدمه، وإنّما أنا الآن في مقام النظام الكامل، والناس ينظرون في أحوالهم بحسب زمانهم، فيقتربون من الكمال بقدر الإمكان. إن الأمة الكاملة هي التي يكون حكامها متفرغين لأعمالها فرحين برقيها، فتكون لذتهم في إسعادها أعظم من السعادة بالمال بآلاف الآلاف.

(خامساً) أن نعمم التعليم للرجال والنساء.

(سادساً) أن نضع كل متعلم فيما يستحقه بحسب استعداده.

(سابعاً) لا رشوة، لا محاباة.

(ثامناً) أن نحرّم السؤال في الدولة، فنجمع الشحاذين، ونعرضهم على الأطباء، فمن صلح للعمل أتينا له بعمل تحت إشرافنا، ومن لن يصلح له أعطيناه طعاماً من بيت المال. اهـ.

هذا مجمل ما أريده في أمم الإسلام اليوم، والحمد لله رب العالمين.

فلما سمع ذلك صاحبي قال: لقد أوضح التاريخ العبر والمبتدأ والخبر في آية: ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]، وعرفنا كيف هلك الملوك وذلوا بأيدي جنودهم، فأرجو أن تبين لي ثلاثة أمور: ما الذي جرى لأمم الإسلام في الشرق؟ وهل ملوك الأندلس جرى لهم ما جرى للملوك الإسلام في الشرق؟ وهل هلكت دولة الآخرين ودولة المتقدمين؟ فقلت:

أولاً: إن الذي جرى لأمم الإسلام في الشرق إنّما هو زوال الملك وضياع الأمة، وذهاب ملك العرب بتاتاً، وهذا تقدم في سورة «الكهف في الآية ٩٤»: ﴿إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فقد جاء التتار من الشرق وعلى رأسهم جنكيز خان، وخلفه ملوك منهم «هولاكو»، وأذل الأمة ودمرها تدميراً لا رجعة له، وقتل الخليفة، وقد أحضر أمامه جميع الجواهر والماس والياقوت والذهب مما لا يحصره العد، وأراه أن هذا جاء من مخازنه وهو غافل عنه، وقتله في زكيبة مكظوم النفس، فإن أردت يا صاح معرفة هذا الموضوع فاقرأه هناك تحت عنوان «يأجوج ومأجوج».

ثانياً : إن الذي جرى لأمراء الأندلس هو الذي جرى لملوك العباسيين في الشرق، فانظر ما جاء في كتاب « غادة الأندلس » المؤلف حديثاً في عصرنا، وهذا ملخص مما فيه :

ذلك أن القائد « برّاقاً » قابل الأذفونش في روما في الفاتيكان، وجاء أيضاً معهما دوق فينيزيا، فقال له ابن أذفونش : اعلم أيها البطل أن البابا قد استدعى بارونات أوروبا وشاورهم في استرجاع مملكة إسبانيا من العرب، فلتكن مساعداً لنا . فقال برّاق : إن الأسد لا يصاد إلا بالمكر والخديعة، وقد يستعين الصيادون بالخمر، ولا يفلّ الحديد إلا الحديد . فقال دوق فينيزيا : إن جيوش البارونات تسحقهم سحقاً في أقلّ من لمح البصر . فقال البرّاق : إن العرب يحافظون على دينهم وعلى حريمهم، ولقد تفنى القبيلة كلها محافظة على الشرف، ولكن هم قوم كرام صادقون يأبون الكذب، فهم يخدعون بسهولة بالظواهر المموّهة، فاجعلوا بينكم وبينهم معاهدة على حرية الدين والتعليم والتجارة، فهذه تفتح لرهبانكم طريقاً بها يبثون التعاليم بين أطفالهم، فإن لم يتبعوا دينكم فهم على الأقل يهملون دينهم، فيفقدون تلك الحمية الدينية التي تحببهم في الحرب، فأما حرية التعليم فإنها تولد لهم غلمان شؤم عليهم، لأنهم يكونون مشغولين بحب معلميهم، ويبتعدون عن محبة وطنهم، فأما حرية التجارة فهي التي تضعضع شيئاً فشيئاً تمسكهم بأزيائهم فضلاً عن تجارة الخمر، فهي الآن محرّمة، فمتى شاعت بينهم أقدموا على المنكرات بلا مبالاة، وفقدوا النخوة والشرف، وضعفت منهم العقول والجسوم، وفشا بينهم الشر، وساءت حالهم، وارتبكت شؤونهم، فيساقون كالأغنام، ولا تنس يا حضرة الدوق أن التأنق في النعمة، والبذخ، والإسراف في الشهوات، وإهمال سير الآباء والجدود من أقوى أسباب انحطاط الممالك القوية .

فلمعت أسرة ابن أذفونش بعد أن كان يلوح عليه اليأس . وشكر برّاقاً على إخلاصه . وفي الصباح اجتمع البابا ودوق فينيزيا وبارونات أوروبا ببرّاق وتحادثوا ملياً، وكتبوا صورة هذه الشروط وأرسلوها مع معتمدين إلى أمراء الإسلام بالأندلس، فوصلت شروط طلب الهدنة إلى مالك بن عباد بقرطبة وقد فرغ من تحصين مدائنه وقلاعه، فدعا قواده وعمال مدائنه وأمراء إشبيلية وطليطلة وبلنسية ومالقة والجزيرة الخضراء وغرناطة، فحضروا بعد أيام إلى قرطبة وهم يختالون على خيولهم، وكان من بينهم عدي بن أبي عامر صاحب بلنسية يتبعه مائتا فارس نعال أفراسهم ذهب إبريز، فنزلوا جميعاً برصانة قرطبة، وكان مالك قد بنى بها قصراً فخماً تحيط به الحدائق والجنات، قد جعل فيه تماثيل من فضة بأشكال الطيور والحيوانات، تخرج من أفواهها المياه، وفيها قال ابن زيدون من قصيدة :

قصر يقرّ العين منه ناظر ... بهج الجوانب لو مشى لاختالا

فقبلوا شروط الصلح، فعارضهم قيس بن مصعب، وبقي الأمراء في ضيافة مالك بن عباد شهراً :

ومن رعى غنماً في أرض مسبعة ... ونام عنها تولى رعيها الأسد

فلما انقضت أيام الولائم رجع الأمراء إلى بلادهم إلا عدي بن أبي عامر صاحب بلنسية فإنه بقي مع الأمير يقضيان الزمن في اللهو والصيد، وهكذا بقية الأمراء وشعوبهم يتبعونهم، فانحطت الدولة بذلك، وزاد في فسادها تلك المعاهدة، فانتشر الرهبان في أنحاء الأندلس وأخذوا يبثون تعاليمهم

وكانوا يجتمعون في أوقات خاصة للتشاور، وقد شيدوا ضيعة على ضفة نهر قرطبة وسط البساتين، وكانت متنزهاً جميلاً يؤمّه العظماء والأمراء لا سيما أيام الآحاد.

وقال صاحب التاريخ المسمى بالمعجب: لقد جدّدوا في عام هذه المعاهدة أربع مدارس كبرى على نفقة دوق فينيزيا، أحد كبارهم، وجعلوا التعليم عاماً فيها لمن شاء، بينما كانت مدارس المسلمين بقرطبة وغيرها تكاد تمحى، إذ أنقصت تعاليمها تماماً إلا ما يختص بالشريعة، فأقبل العرب على تلك المدارس، واختلطوا بالقسيسين والرهبان، وتعلموا لغاتهم، وجاروهم في عوائدهم وأخلاقهم، وزاد الأمر في بلنسية، فإن المبشرين والمعلمين تدخلوا في كل شيء، لأن نائب عدي عليها المسمى «ابن ذي النون الغافري» أطلق لهم الحرية التامة، حتى اتهمه بعض الوزراء بأن البابا استماله بالرشوة.

وقد لعب برّاق بن عمار دوراً مهماً هنا، ذلك أن أمير إشبيلية المسمى «جندل بن حمود» لم يمكث بقرطبة إلا ريثما وقع على شروط الهدنة، وأبى البقاء وعاد إلى عاصمته، وذلك لسرّ خفيّ في نفسه، ذلك أن أحد معتمدي البابا الذين حضروا إلى قرطبة أعطاه خطاباً من البابا، ووعده فيه بأن يؤمل أن يجعله ملكاً مستقلّاً بولايات الأندلس قاطبة، وأن البارونات متفقون على نصرته في أي وقت شاء، ثم إن برّاقاً وفى بعهده لأنه عاهد البابا أن يدخل بعض البطارقة في قيادة الجيش، وقد أخذ البطريق المسمى «شيل» يرافقه في أيام الصيد، وأخذ برّاق يمدحه عند ابن عباد بالشجاعة، ثم أحضره إلى الديوان، فقال مالك بن عباد: وما بلغ من شجاعته يا برّاق؟ فقال: اختبره إن شئت. فقال مالك: لتبارزا، فإن غلبته فكفاه خزياً، وإن غلبك جعلته من قواد جيشنا، فتبارزا وتظاهر برّاق بأنه مغلوب، فتكدّر مالك بن عباد لما يعلم من مهارة برّاق وشجاعته، وجعل البطريق قائداً وقرّبه منه، فانتخب من أبناء بلاده من أراد لتدريب عسكر المسلمين على استعمال السلاح، وصارت عواصم الأندلس محط الغرباء، وراجت التجارة في البلاد، ولا سيما الخمر.

قسيس يخصّ شباب المسلمين بخمر عنب قرطبة

وهل أتاك نبأ ذلك القسيس الذي لم يكتف بالخمر الوارد من أنحاء أوروبا حتى اشترى عنب قرطبة كله وعصره خمراً، وحلف أن لا يبيعها إلا لأكرم الناس عليه، وهم المتعلمون من أبناء المسلمين في مدارس هؤلاء القسيسين، وفرح الشبان بهذه الهدية: (١) فشربوا الخمر نهاراً جهاراً. (٢) وخلعوا رداء الحياء والحشمة. (٣) وحقروا عوائد آبائهم. (٤) ولبسوا الحرير، ونبذوا الصوف والشعر. (٥) وأهملت تعاليم البلاد. (٦) وأخذوا يختلفون إلى نسوة في حانات النزلاء، فيصرفون الليل هناك متهتكين متصابين في عشق هؤلاء العاهرات.

وزاد الأمر حتى بلغ الأمراء، فإن المعتصم بن صمادح صاحب المرية عشق فتاة رومية واغتصبها من أبيها، فاستجار أبوها بجندل بن حمود، فأرسل إليه يعنفه على ارتكاب ما لا يليق بأدنى الناس، فكان ذلك سبباً في الحرب بينهما، فطلب ابن حمود من دوق فينيزيا والبابا وباروناته نجدته على خصمه ففرحوا للخبر وأرسلوا إليه سفناً تحمل جنداً تحت قيادة دوق فينيزيا، فقهروا ابن صمادح، وخرّبوا قصوره، واحتلها جند الروم، وأقام لهم ابن حمود الولائم، وملوك الإسلام هناك ساكتون لا يبدون

حراكاً، حتى الأمير مالك بن عباد وهو صاحب البلاد لم يرعه ذلك، وقد قتل عامله، وسقطت المريّة، وهذه أول نتيجة للمعاهدة. ولما رجع دوق فينيزيا إلى روما قصّ القصص على البابا والبارونات، فأيقنوا بتفرّق كلمة العرب، وأن الوقت آن لتخريب ممالكهم، وتفريق شملهم.

ولقد كان عدد المبشرين بالأندلس ألفاً، وعدد المعلمين بالمدارس التي أنفق عليها البابا ٤٨٥، وأنفق البابا من خزينته لترويج الخمر خمسمائة ألف (فلورين).

وفي اليوم الرابع من جمادى الثانية سنة ٤٨٦ هـ بلغ الحصين بن جعفر ـ وهو أحد القواد المعروفين بالأمانة على جيوش بلنسية ـ أن ابن ذي النون وزير عدي بن عبد العزيز يراسل الفرنجة، وأنه تواطأ معهم على تسليم حصونها لهم، فقابل الحصين الوزير وكلمه في ذلك، وظهرت له دلائل تدل على صدق ما سمعه عنه، ومنها أنه دخل عليه وهو يحادثه بطريق من البطارقة، فأخذ يسارّه واسمه « بروديل »، فلما علم ابن ذي النون أن الإنكار لا يفيده أخبره بالحقيقة، محتجاً بأن ملوك الإسلام قوم ظالمون، لا يالون بالشكوى من الظلم، وأن ملك الأندلس لا بقاء له، والملوك يقتلون الناس ظلماً، وعند الفرنجة ٧٥ ألف فارس فبم نقاتلهم نحن؟ فغضب الحصين وقال له: أنت تريد هدم مجد الآباء، وأن تكون المثل السوء في الخيانة والجبن، وإذا ظننت أن ابن أذفونش يعطيك نوالاً فأنت مخدوع، فجزاؤك كجزاء سابور ذي الأكتاف للنضرة بنت الضيزن بن معاوية، أنت كفرت النعمة، وأنت سينالك الذل من العدو، وتمادى ابن ذي النون في ذلك، وحضرت الجيوش النصرانية فاحتلت بلنسية، وأخذ الفرنجة في نهب المدينة، وفضحوا البكر بحضرة أبيها، والسيدة الجميلة بحضرة زوجها، فيترك الرجل المدينة تاركاً زوجته وأولاده وأملاكه.

وقد قال ابن زيادة: إن الذين قتلوا في « بلنسية » ظلماً بسبب الدفاع عن العرض (١٣) ألفاً، والذين قتلوا لإبائهم الدخول في دين الغير (٣٠) ألفاً، وأحرقت المدرسة الكبرى والجامع الكبير. وقد احتل هذه المدينة العدو قبل أن يبلغ عدياً خبر تلك الخيانة، فلما وصلته الأنباء جهز جيشاً لاسترجاعها ففاجأته الأخبار بأن الفرنجة احتلوا « ميورقه » و« مينورقه »، فاضطر أن يبقي الجند في قرطبة للدفاع عنها. ثم استولى الفرنجة على طليطلة، ثم إن ابن أذفونش بعد أن احتل بلنسية أمر بإحراق ابن ذي النون، ويقول المؤرخون: إنه إنّما أحرقه لأنه لما خان دينه وملكه جدير أن يخون عدوّه.

مصير برّاق بن عمار

ذلك الماكر الخبيث الذي مكث زماناً معظماً في قرطبة عند مالك بن عباد حتى سقطت بلنسية، وحضر قواد الروم بجيوشهم، وأرسلوا لمالك، فطلب برّاق أن يكون قائد الطلائع، فرضي بذلك، فأرسله إلى الأمراء ليجتمعوا لمقاومة العدو، فتوجه لغير ذلك، وذلك أنه أخذ رسالة من ابن الأذفونش إلى جندل بن حمود ووعده بالنصر على بقية ملوك الطوائف، وأنه يصير ملك الأندلس كلها كما وعدوه من قبل، وفي شهر شعبان سنة ٤٩٨ هجرية نرسل لك أسطولاً تزحف بجنودك على قرطبة من جهة الغرب، ففرح جندل بهذا الخطاب، ثم توجه برّاق إلى جهة المرية وبها جيش الروم من أيام أن قتل ابن صمادح، فسلم كتاباً معه من ابن الأذفونش إلى القنبطور أي القائد، وفيه: إنا سترسل لك ٢٠ مركباً

فيها جند ، ويحضر ابن مردينش معاهدنا أمير إقليمه قاضي كادية معاهدنا ، فيكون تحت رأيك ٢٥,٠٠٠ مقاتل ، فتفتح أشبيلية في شعبان ، وأميرها جندل إذ ذاك يكون مغيراً على قرطبة ، وقد تم ذلك كله ، فجندل يغير على قرطبة في الوقت الذي تغير فيه جيوش الروم على مملكة أشبيلية ، وبينما جندل يغزو قرطبة كانت جيوش الروم تحت إمرة القائد « كولي » تبيح أشبيلية حلًّا لجنوده ، وقد ذل مالك بن عباد وهو محافظ على شرفه ، ولكن جندل بن حمود الذي ظن أنه سيكون سيد الأندلس كلها خاب فأله ، فقد قتله الفرنجة ، فأما عسكره فلما لم يرجع إليهم رجعوا إلى أشبيلية ، فلاقاهم جند الروم ، فقتلوهم تقتيلاً ، فنادوا الأمان .

أما مالك بن عباد فبقي في سرقسطة ذليلاً لا ناصر له مدة حياته . وأما ابن الأذفونش فإنه جلس في قصر الإمارة ، واستحضر خمسين بكراً من الأشراف ، وقسمها وقسم الدور على رجاله ، وأمر بإحراق المكتبة وفيها نيف و ٨٠٠ ألف مجلد ، وقتل أربعة آلاف نفس ، وهدم الجامع الأموي بالمجانيق وجعل مكانه فسقية .

وأما برّاق الخائن فقد قتل أيضاً بأمر الدوق ، وإلى هنا أقف الكلام على أمراء الأندلس . اهـ .

فلما سمع صاحبي ذلك قال : هذا والله نعمة عظمى على المسلمين بعدنا ، فإن التاريخ أصبح شرحاً لآيات القرآن ، ولكني أعترض على ذلك اعتراضاً يوافقني عليه جميع أذكياء المسلمين :

اعتراض على المؤلف

إنك وإن جمعت المتفرقات في الكتب ، وظهر ما كان خافياً على أكثر الناس من أفعال الملوك العباسيين والأمويين وأمراء الأندلس وغيرهم ، فقد فاتك أن التاريخ أكثره كاذب ، ألم تتذكر ما كنا نقرؤه في زمن الصباء :

واعلم رعاك الله أن السيرا تجمع ما صحّ وما قد أنكرا

التاريخ مشحون بالمتناقضات ، وقد أثبت ابن خلدون أن أكثر الممدوحين فيه مدحوا دهاء ونفاقاً وظواهر هذه الدنيا كلها خلابة خادعة ، وتعكس ذلك من ذمّهم التاريخ ، وإذا كانت هذه درجة التاريخ فكيف أطلت به في آية : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الأحقاف : ٢٠] ، وكيف تذكر ما لا صدق فيه وتجعله تفسيراً لما هو محقق الصدق ، ومن ذا الذي يقول إن الوهم مفسر للحقائق؟ أوَتفسر كتاب الله الحق بالتاريخ الموهوم؟ ولقد ذكرت أمثال هارون الرشيد ، وذكرت معه ما لا يليق به من مال كثير لشراء جارية ، ومن أنواع الطرب ، فهل هذا يتفق مع تقواه؟ ومع ما روي عنه أنه حجّ ماشياً؟ لأنه نذر ذلك ، وأنه أيضاً كان يصلي بالليل ركعات كثيرة . إن التاريخ مملوء بالمتناقضات ، فهذا لا يليق بكتاب الله تعالى . فلما أتم مقالته ، قلت : يا صاح أهذا رأيك فيما كتبناه وأسمعناكه؟ فقال : بلى . قلت : أنا أجيبك على هذا الاعتراض بحمد الله ، فأقول :

حدثني حفظك الله ، إذا جاءك رجل فلاح وقال أنا لا أزرع أرضي ، فيقال له : لماذا؟ فيقول : لأني لست على يقين من أن محصولها يوازي ما أصرفه عليها ، ويحتجّ ذلك الفلاح بقوله : إن العاقل لا يعمل إلا بدليل يقيني ، وأنا لست على يقين من أن الجوائح والآفات السماوية تترك حقلي ، وأيضاً

إذا قامت دولة تطالب أمة من الأمم بقطعة من أرضها، فيقول أميرها: لنترك هذه القطعة لها، محتجاً بأنه ليس على يقين من أنه يقهر الأمة الهاجمة عليه، وهكذا لو قال مثل ذلك التاجر في تجارته التي يريد بيعها في الأقطار البعيدة، فيقول: إني لا أتاجر لأني سمعت أن سفناً كثيرة غرقت في البحر فربما غرقت تجارتي، وهكذا إذا قال رجل: أنا لا أعلم ابني، فيقال له: لماذا؟ فيقول: لأني رأيت كثيراً من المتعلمين قد فسدت أخلاقهم.

فهذه أيها الأخ أربعة أسئلة، فما جوابك على هذا؟ أتقول: إن الفلاح، والأمير، والتاجر، وأبا الغلام مصيبون فيما فعلوا؟ فقال: كلا. هم غير مصيبين. فقلت: لماذا؟ فقال: لأن المدار في هذه الأمور العملية من الفلاحة والإمارة والتجارة والتعليم على غلبة الظن، فمتى كانت المنافع مظنونة بسبب مقدماتها؛ فإن الشروع في العمل واجب، فأما اليقين هنا فلا وجود له، ومن ترك أعمال الفلاحة والتجارة ومحاربة الأعداء الهاجمين وترك تعليم ابنه محتجاً بأنه لا يقين في ذلك كله، فهو جاهل غبي مخدوع. وهذا جوابي لك أيها الأخ. فقال: وأي مناسبة بين الأمثلة الأربعة وبين التاريخ الذي اعترضت عليك في جعله تفسيراً للقرآن. فقلت: إن القرآن يقيني. قال: نعم. والتاريخ ليس يقينياً، فقال: نعم. وإذا لم نفسر اليقين وهو القرآن إلا بيقين أصبحنا مغرورين كذلك الفلاح والأمير والتاجر وأبي الغلام.

إن أكثر الفقراء في الدنيا حجتهم في فقرهم ـ وإن لم يعلموا ـ أنهم يطلبون اليقين، ولا يقين له بل الظن هو المعول عليه في الأعمال، والدين الإسلامي قسمان: قسم هو الأصول، وقسم هو الفروع فالأصول لا بد فيها من اليقين، والأصول هنا هي العقائد كمعرفة الله وملائكته وكتبه ورسله الخ.

أما الفروع الراجعة للأعمال فيكفي فيها الظن، فإذا سمعت الله يقول: ﴿ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾[يونس: ٣٦] فذلك في الاعتقاد، ولو أن علماء الإسلام أخذوا بما قلته أنت الآن ولم يعوّلوا على اليقين؛ لانهارت الأمم الإسلامية ولطاحت ومزّقت كل ممزّق، فإن علم الفقه كله مظنون ولولا هذه الأحكام المظنونة ولولا أن للظن في الأحكام الشرعية أمام القضاة منزلة لبطل القضاء في الإسلام، ولزالت جميع ممالكه، فالأدلة الشرعية في الفقه ظنية وشهادة الشهود ظنية، والله كلفنا بالعمل بهذين الظنين، فهكذا هنا في تفسير القرآن، إذا جرينا على هذه النظرية وقلنا: هذا كلام الله، وكلام الله يقين والتاريخ فيه الصدق والكذب، ولا يفسر الصادق بما هو محتمل الصدق والكذب. أقول: إذا جرينا على هذه النظرية أصبحنا أمة عاطلة جاهلة غبية لا تفرّق بين الخير والشرّ.

إن الله عز وجل ملأ القرآن بالقصص والتاريخ، وأمرنا بالاعتبار والاحتراس مما وقع فيه غيرنا ولم يمنع ذلك ما في التواريخ من التناقض، بل تجاوز القرآن ذلك، ونظر إلى ملخص التاريخ، لا إلى حوادث خاصة، ألم تر إلى ما قصه الله في سورة «الكهف»، ألم يقل في عدد أهل الكهف إنهم ثلاثة ورابعهم كلبهم وخمسة وسادسهم كلبهم وسبعة وثامنهم كلبهم، وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتجاوز عن ذلك، وأن لا يماري في مثل هذه المسائل إذ لا أهمية لها، وإنّما جعل الاعتبار بمضمون القصة لا بكل حادثة على حدتها.

إن الله تعالى أبان لنا في نفس القرآن أن هذه المتناقضات لا تضرّ في نفس القرآن، لأن العبرة بملخص القصة، وإذا صحّ هذا في نفس القرآن، أفلا يصح في تفسيره!

ذكرنا هنا أمم الإسلام والقول منقول عن كتب التاريخ، وكتب التاريخ ملأى بالأكاذيب، محشوة بالأباطيل، ولكننا لو أبطلنا علم التاريخ لما فيه من الأباطيل لأصبحنا أمة جاهلة، غبية غافلة لا تعقل ولا تفهم. وما مثل علم التاريخ فيما نحن بصدده من العبرة به من حيث إجماله لا تفصيله إلا كمثل مناظر هذا الكون كله، والموت والحياة فيه، والفقر والغنى، والعزّ والذلّ، والسلم والحرب، والمرض والصحة. فهذه العوالم من نظر لها من حيث الجزئيات اعتقد أن هذا العالم كله ظلم وخسار ودمار، فما هذه الزلازل والبراكين والحروب والأمراض والعداوات! فأما إذا نظر إليه نظراً فلسفياً علمياً فإنه يوقن بأنه عالم منظم، ويصير حكيماً.

فهذه نظرات الجهلاء والحكماء في هذه الكائنات، وعلى منهاجها نظرات الناس في التواريخ التي تذكر في تفسير القرآن.

إن الأمم التي تذر التاريخ لمثل هذه الشبهة تصبح خاوية على عروشها. فيا سبحان الله، ألم أذكر في هذا التفسير أن أمة الإنجليز لما دخلت بلادنا المصرية أعطت العرب الذين في جهة الشرقية جنيهات ذهبية وضعتها في أكياس، وجعلت ظواهر الجنيهات من الذهب الخالص وما تحت الظاهر كله بهرج زائف، وقد نجحوا، لماذا؟ لأنهم أخذوا من قصة جعفر بن فلاح وزير المعزّ لدين الله الفاطمي، فإن القرامطة لما هجموا على مصر اتفق المعزّ مع العرب الذين في جهة الشرقية وأعطاهم أكياساً مملوءة ذهباً، أعلاه ذهب خالص، وأدناه زائف، فما كاد عمود الصباح يظهر حتى التقى الجمعان، العرب المصريون مع القرامطة ظاهراً، ولكن بعد ساعة أخذوا يتقهقرون على غير انتظام، فهلك القرامطة، إذ كان جيش المصريين أقوى منهم، فهذه بعينها هي التي فعلها الإنجليز مع العرب في بلادنا أيام دخولهم فممّا أخذوها؟ أخذوها من حادثة المعزّ لدين الله فنجحوا، وأيضاً إن الشركة الإنجليزية في الهند فعلت مع بعض أمراء الهند ما فعله حسن بن الصباح في القرن الخامس الهجري في قلعة الموت، إذ وصف لصاحب قلعة الموت وصفة طبية، وجعل صاحب القلعة له جعلاً في مقابلة المداواة، وهو مقدار ما يسع جلد الثور من أرض ذلك الأمير، فلما شفي الأمير وطالب حسن بن الصباح بالجعل أعطاه الأمير مقدار ما يسع جلد الثور، فجاء ابن الصباح وجعل ذلك الجلد سيوراً ومدّها، فاحتوت أرضاً واسعة جداً، فلم يرض الأمير، فحصل القتال، فغلب ابن الصباح واستولى على قلعة الموت، وهذا بعينه هو الذي فعلته الشركة الإنجليزية، فوصفوا الدواء للأمير الهندي وشفي، وحصل النزاع على مقدار جلد الثور، وانتهى بذلك احتلال الإنجليز.

فيا أيها الأخ أنا لم أذكر مسألة الإنجليز للاقتداء بهم. كلا. بل أقول: إن العلم علمنا والتاريخ تاريخنا، وكان علينا أن نعتبر نحن به، فهاهم أولاء أخذوا علومنا وأذلونا بها، كل ذلك لجهل القائمين بالتعليم في ديار الإسلام، فتراهم يتقاعدون عن العلم لشبهة كهذه الشبهة. فقال: وكيف ينتفع المسلمون بهذا التاريخ. فقلت: هذه الدولة الأموية والعباسية ودولة أمراء الأندلس وبقية المسلمين

كانوا كلهم على وتيرة واحدة، يظهر نابغون مصلحون، ويتبعهم فاسقون مسرفون، فتنحط الدولة، فيذل الأمراء، ويتحكم الجند.

من ذا ينكر سطوة الجند وقتلهم للأمراء العباسيين، وهكذا الانكشارية للملوك العثمانيين، من ذا ينكر ذلك، من ذا ينكر الإسراف والتبذير في مال الدولة بعد العصر الأول، فإذا نحن تحاشينا أن نصدّق المغالاة في أمثال سيرة الرشيد ومن نحا نحوه فنحن مضطرون أن نصدّق بالإسراف العام في الدول الإسلامية ونصدّق بنتائجه، وهل ينكر عاقل ما بلغته الدولة الإسلامية أيام قطب أرسلان، إذ هجم التتار على بلاد الإسلام وقتلوا الشيوخ والأطفال، والنساء والرجال، والبهائم. ألم يكن ذلك جهل هذه الأمة بجيرانها الذين اجتاحوها وأزالوها، أليس ذلك من الجهالة العامة، والتفاني في الشهوات، الموجبات الكسل والبطالة، حتى وقعت الواقعة، وانشقت سماء المجد بالدولة العباسية، وهلك من هلك عن بينة، وأزال الملك، وقتل الخليفة العباسي هولاكو التتاري.

ومن عجب أن أمراء الأندلس مثلهم كمثل أمراء الشرق كلهم، لا يعقلون التاريخ ولا يعتبرون به، انهماك في الشهوات، وجهل مطبق بالتاريخ، وغفلة عن الاعتبار.

وكما اكتسح التتار ملك العباسيين في الشرق في أوائل القرن السابع، اكتسح الملك فرديناند والملكة إيزابلة مملكة الأندلس في أوائل القرن التاسع الهجري، وترى القوم في الشرق والغرب صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية. فلم يعتبر الأندلسيون بآبائهم الأولين أيام مالك بن عباد والأمراء الأندلسيين معه، إذ تفرّقوا شذر مذر في القرن الخامس، وضحك الأسبانيون على المسلمين، وسقوهم الخمر، وأذاقوهم سوء العذاب، وجعلوهم مترفين منعمين كالغواني، وزعزعوا عقائدهم، فزلزلت بلادهم زلزالاً شديداً، واحتلها الإسبانيون بمساعدة البابا في روما الذي لعب دوراً مهماً في الضحك على أذقان هؤلاء الأمراء الجاهلين الأغبياء.

فقال صاحبي: ألم يستفد أحد بذلك التاريخ؟ فقلت: كلا والله. هذه أمتنا المصرية كانت غافلة نائمة قبيل أيام محمد علي باشا، ولما علموا أن فرنسا تريد الإغارة على البلاد؛ قالوا: لو أن أوروبا كلها اجتمعت على حربنا لأذقناها سوء العذاب، ولمزّقنا أجسام جيوشها بسنابك خيولنا، فلم تمرّ ٤٥ دقيقة على التقاء جيش المصريين بجيش الفرنسيين عند بولاق حتى انهزم المصريون، وذلك أنهم كانوا لا يعلمون عن الأمم شيئاً. ثم انظر وانظر بعد ذلك، أي بعد أن تعلم المصريون أيام محمد علي باشا، ودارت الأيام دورتها، ومات محمد علي باشا وابنه في القرن الثامن عشر، وأراد إسماعيل باشا أن يحارب الحبشة، فماذا حصل؟ ائتمن المصريون قواداً من الأمم الأوروبية على جيوش المصريين، فاتحدوا مع الحبشة سرًّا، لأنهم أبناء دين واحد وأهلكوا المصريين.

أليست هذه جهالة، أليس درس الأندلس قد نسي بتاتاً وجهله القوم هنا، نسي المسلمون ما حصل من القائد الإسلامي المسمى برّاقاً من الاتفاق مع البابا سرًّا، وبهذه الوسائل السرية والنفاق والمكر والحيل التي استعملها برّاق عدو الإسلام المتظاهر بحب الدولة الإسلامية القائم بالقيادة العامة في الجيش دمّر الدولة ومزقها شر ممزق كما قدمنا في هذا المقام. فانظر ما جاء في كتاب «كشف الستار

عن سرّ الأسرار » في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية سنة ١٢٩٨ هجرية وسنة ١٨٨١ ميلادية بقلم المغفور له السيد أحمد عرابي الحسيني المصري . قال في الفصل الثاني صفحة ٣٣ وما بعدها ما ملخصه :

إن الخديوي إسماعيل باشا لما أرسل الجيش المصري لمحاربة الأحباش ومكث الجيش هناك مدة طويلة ؛ أرسل أمراً وشدد على القائد العام راتب باشا ورئيس أركان حربه بوجوب السرعة في الزحف على الحبشة ، بسبب ما صنعوا من التمثيل بالمصريين ، فسارت الفرقة في شهر أغسطس سنة ١٨٧٦ للقتال ، ولقد قابلهم أحد القسيسين الفرنسيين المبشرين في بلاد الأحباش ، وصار يتردد على رئيس أركان الحرب الجنرال « لورنج الأمريكي » مستطلعاً أحوال الجيش المصري ، حتى علم مقداره واتفق معه على الحركة الحربية التي تكون سبباً لهلاك الفرقة المصرية عند الصدمة الأولى ، وكان يبلغ المعلومات في كل يوم إلى ملك الحبشة ، فحشد هذا الملك جيشه ، وكان عدده أكثر من ثلاثمائة ألف من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال ، على حسب عادتهم في الدفاع عن بلادهم ، وكان القسيس المذكور الفرنسي المبشر يتردد كل يوم على الجنرال « لورنج » رئيس أركان الحرب الذي وضع فيه الخديوي إسماعيل باشا ثقته ، وينقل القسيس ما دار بينه وبين الجنرال إلى يوحنا ملك الحبشة ، ولما التقى الجيشان ، واستعد جميع أركان الحرب الأوروبيين والأمريكيين للملحمة ، ألقوا جانباً طرابيشهم الرسمية ، ولبسوا قبعاتهم ، ثم ربطوا في أعناقهم مناديل بيضاء إشارة إلى أنهم مسيحيون ، ليأمنوا على أنفسهم الخطر عند اختلاط الجيشين على حسب الاتفاق مع القسيس المذكور . وهاهنا أطال المؤلف في خسارة المصريين وقتلهم ، ونجاة هؤلاء الأوربيين . قال : وقد علم بذلك كله الخديوي إسماعيل باشا ، وكان يريد محاكمتهم ، ولكنه خاف من غدرهم ، كما غدر حسن شركس مملوك السلطان عبد العزيز في الأستانة ، فأطلق الرصاص على أحمد باشا القيصري وغيره ، ثم قتل هو ، فخاف إسماعيل باشا أن يناله مثل ذلك ، فبشّ في وجوههم وانتهى الأمر . هذا ما كان من الخطر والخطل والخطأ الذي وقع فيه المسلمون في هذه الأيام الأخيرة غير معتبرين بالتاريخ المتقدم ، فلم يتعظوا بما فعله الأجانب عن البلاد في الأندلس وغيرها ، فوقعوا في الأهوال والشرور وهم يجهلون التاريخ ، ويجهلون قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [المائدة : ٥١] وغيرها من الآيات ، أليس هذه الآية ظهر أثرها في أمم الإسلام في كل حين ، كما ظهر أثر الآية التي نحن بصددها وهي : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ ﴾ [الأحقاف : ٢٠] الخ .

الأمم الإسلامية جميعها متشابهة

ومن العجب أن الأمة المصرية بعد أيام محمد علي باشا حذت حذو الدولة الإسلامية القديمة ، فكان فيها الإسراف والتبذير ، والغناء والخمر والغزل ، فهي مختصرة من الدول الأندلسية والدولة العباسية ، ولقد كان من أسباب دخول الإنجليز مصر تلك الديون التي ارتكبتها الحكومة المصرية بعد مؤسس الدولة المرحوم محمد علي باشا ، وقد أخذت إنكلترا وفرنسا تتنافسان في استغلال مصر ووضع اليد عليها ، وقد شجعهما على ذلك ظهور إسماعيل باشا بمظهر من لا يحسب حساباً للعواقب

فقد كان في إصلاحاته كما يقول البارون دي ملورسي « كالباني الذي أراد أن يبني بيتاً يكلفه ما لا طاقة له به ، فرهن الأرض وتقدمت له الشركات الأوروبية بالمال علماً منها بأنها ستضع يدها على الملك يوم يعجز المدين عن سداد دينه ».

ولا ريب أنهم كانوا يعيرون إسماعيل باشا المال بأفحش أنواع الربا ، وقد وضح كاتب إنكليزي « سيموركي » في سنة ١٨٨٢ أن مصر كانت دفعت لغاية هذا العام جميع دينها الحقيقي ، أي المبلغ المستعار حقيقة ، بفائدة ٦ في المائة ، ومع ذلك فقد ظلت مثقلة بدين رسمي لا يقل عن التسعين مليون جنيه ، كان أصحاب الأموال يعلمون أنهم يخاطرون بأموالهم ، وكان إسراف إسماعيل باشا نذيراً لهم ، فكان عليهم أن يحملوا تبعة عملهم ، ولكن « روتشلد وأوبنهايم » وغيرهما من أصحاب رؤوس الأموال كانوا على اتصال برجال السياسة في إنكلترا وفرنسا ، فوجدت الحكومتان في عجز الحكومة المصرية عن سداد ديونها وسيلة ـ لم تعرف من قبل ـ لتدخلهما تدخلاً فعلياً منذ سنة ١٨٧٦ بحجة إصلاح المالية والإدارة ، وما إلى ذلك من إنشاء صندوق الدين وتعيين مراقبين ماليين وموظفين أجانب كانوا يعملون في الحقيقة على تحويل الدين المالي إلى دين سياسي ، وكانت إنكلترا تحول دون حلّ المسألة حلّاً مالياً ، وتطالب بوضع يدها على الإدارة المصرية ضمانة للدائنين ، فأرسلت إلى مصر بعثات مختلفة تندد كل منها بسوء إدارة إسماعيل باشا ، وتطلب كلما سنحت الفرصة إرسال أخصائيين سياسيين في زي ماليين لإصلاح الأمور من جديد وإيقاف الحاكم المستبد عند حده .

وقد كان المصريون يشكون حقاً من حكومة إسماعيل باشا المطلقة التي كانت ترهقهم بضرائبها وأحكامها الجائرة ، فلما تدخل الأجانب في شؤون البلاد الداخلية واختلت الإدارة أكثر من ذي قبل ، ووضحت نية القوم قلق المصريون على مستقبلهم . انتهى . وجاء في صفحة ٥٥ وما بعدها من الكتاب المذكور ما يأتي :

سرّ مكنون

وفي ١١ رجب سنة ١٢٩٦ هجرية سافر الخديوي السابق إسماعيل باشا من القاهرة إلى الإسكندرية ، حيث أقلته الباخرة « المحروسة » إلى نابولي ـ ثغر من ثغور إيطاليا ـ وكانت معه أوراق مالية « بون » بمبلغ ثلاثة عشر مليوناً من الجنيهات ، كما صرح بذلك ابنه الخديوي توفيق باشا بحضوري ، وحضور خيري باشا رئيس الديوان الخديوي ، والشيخ عبد الرحمن الأبياري إمام المعية ، في أثناء تناول طعام الإفطار على المائدة الخديوية في شهر رمضان سنة ١٢٩٦ هجرية ، إذ قال : يا ليته ترك للحكومة ولو ستة ملايين لإصلاح شأنها . ولما وصل الخديوي إسماعيل باشا المعزول إلى محطة مصر وقف الخديوي توفيق باشا مودعاً والده وعيناه مغرورقتان بالدموع ، فضمه والده ، ثم قال له : لقد اقتضت إدارة سلطاننا المعظم أن تكون يا أعز البنين خديوي مصر ، فأوصيك بإخوتك وسائر الآل براً . واعلم أني مسافر ، وبودي لو استطعت قبل ذلك أن أزيل بعض المصاعب التي أخاف أن توجب لك الارتباك ، على أني واثق بحزمك وعزمك ، فاتبع رأي ذوي شوراك ، وكن أسعد حالاً من أبيك .

وكان من أشد المناظر تأثيراً في النفوس منظر العبدان والجواري وهو يودعون سيدهم وسيداتهم بأدمع

مزجت بدماء القلوب، ويرفعون أصواتهم بالبكاء حتى كادت تزهق أرواحهم حزناً وغماً، ثم سار القطار الخصوصي حتى وصل الإسكندرية. انتهى ما أردته من الكتاب المذكور.

هذا ولقد سمعت أن عالماً ألمانياً ألف كتاباً وترجم إلى العربية بعنوان «تدهور مصر بسبب الدين»، ولكن لم أطلع عليه، هذه نسخة من حياة أمم الإسلام قديماً وحديثاً. فقال صاحبي: وماذا تريد من أمم الإسلام المستقبلة؟ فقلت: أمم الإسلام المستقبلة ستكون غير الأمم الإسلامية الماضية. هذه الأمم التي بعدنا سيدرس رؤساؤهم ما كتبناه في كتبنا وفي هذا التفسير، وما كتبه الكاتبون في زماننا هذا، وهو زمن النهضة الحقيقية الإسلامية، وسيكون ما كتبناه هنا من أقوى الأسباب لاستكناه علم التاريخ تختص به جماعة في كل دولة إسلامية، ويتباحثون ويستخرجون نتائج، وعلى مقتضاها يعملون في السياسة فلا يفرطون مثقال ذرة في التاريخ، وتكون هناك جماعات جماعات في سائر العلوم والصناعات.

هذا كله سيتم ولن يكون غيره، وسيكون للمسلمين خليفة ينتخبه الأمراء من بينهم لمدة معينة كخمس سنين أو عشر سنين أو نحو ذلك، ولا يراعى في ذلك إلا قوله تعالى: ﴿ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةً فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ ﴾[البقرة: ٢٤٧]، فمن كان من أمراء الإسلام أقوى جيشاً وهو وأمته أغزر علماً من الأمراء الآخرين فهو حتماً الذي يجب أن يكون خليفة. أنا أكتب هذا وأنا موقن بما سيكون في المسلمين من آثار ما كتبناه وكتبه الكرام الكاتبون في الإسلام.

فلما سمع ذلك صاحبي قال: بالله زدني إيضاحاً في بعض ما تقدم، فيا ليت شعري، إن المناسبة بين علم التاريخ من حيث الإجمال والتفصيل، وبين نظام هذا العالم كله من حيث الإجمال والتفصيل أيضاً؛ لا تزال غير مفهومة عندي. فقلت: الأمر سهل، إن أمم الإسلام قد اعتراهم الوهن والضعف والجهل في القرون الماضية، فأحاطت بهم الأمم من كل جانب، وذاقوا طعم الذلة والهون والتفريق والشر المقيم. فقال: نعم. فقلت: وأنت تعلم أن سبب ذلك إنّما هو الإهمال والانغماس في الشهوات قال: نعم. فقلت: إذا نظرنا في تاريخهم من هذه الوجهة وحدها فإننا نغرق في بحر من الشبهات والخطل لا مخرج لنا منه، فنصبح غرقى فيه صرعى الأوهام، لأننا نضيع زماننا في الجزئيات ونذر الكليات، ونتصفح تاريخ زيد وعمرو من ملوك الإسلام، ويقف نظرنا عند هذه الجزئيات ونقول: لقد ضلّ فلان وجهل فلان، فيردّ آخر علينا ويقول: إن التاريخ فيه الغث والسمين، ويحتج بذلك، ويضيع زماننا بأمور جزئية لا تفيدنا، ونعيش في جدال أبد الآبدين ودهر الداهرين. فأما إذا نظرنا نظراً كلياً، وبحثنا في الداء العام الذي عمّ الأمة كلها وتوارثوه جيلاً بعد جيل من غير وقوف عند الجزئيات؛ فإننا بذلك ننقذ من بعدنا من الضلال كما فعلنا في هذا التفسير، وهذا نظير العقائد، فإن كل امرئ في الأرض على أي دين متى فكر بعقله وأخذ يوجه فكره إلى شقاء زيد وسعادة عمرو، وأن ثوب الناسك أحرق وأن بيت هذه العجوز خرّ سقفه عليها، وأن هذا الطفل مات أبواه ولا عائل له، وأن هذا الرجل له ابن واحد فمات، أما غيره فله أبناء كثيرون فلم يموتوا، فهذه الجزئيات يضل المفكر فيها لأنه نظر نظراً جزئياً فأما الحكماء والمفكرون من جميع الأمم وهم ساداتها، فهؤلاء هم العارفون الذين أدركوا حقائق

الوجود، وأيقنوا بالعدل وبالصدق وبالنظام، فهؤلاء الحكماء في العقائد نظير أولئك المؤرخين الذين نظروا نظراً كلياً في علم التاريخ كما قدمناه.

هنالك قال صاحبي وهو يحاورني: هل لذلك نظير فيما نشاهده؟ فقلت: نعم، نحن نمر عليه صباحاً ومساء ونحن غافلون، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[الصافات: ١٣٧-١٣٨]، والحقيقة التي لا مناص منها أن العوالم التي نراها أمامنا وخلفنا وفوقنا وتحتنا مشحونة بالعلم ونحن عنها غافلون. انظر إلى شجرة السنط. فقال: يا عجباً، أشجرة السنط تفهمنا أن في التاريخ نعمة لقوم مفكرين، وجهلاً لقوم غافلين، فقلت: إي وربي إنه لحقّ. فقال:

أنعم بردّ جواب ما أنا سائل ... عنه فنار العلم ذات تشعشع

فقلت: ألم أقدم في هذا التفسير أن ورق شجر السنط لضعفه المتناهي حبته العناية الإلهية بشوك يحافظ عليه، فهذا الشوك منفعته هي المحافظة على الورق الضعيف، ومعلوم أن الورقة هي الرئة التي بها يتنفس النبات، فإذا لم تسعف العناية الإلهية ذلك الورق الضعيف بالشوك للمحافظة عليه مات شجر السنط، إذ لا رئة له، والرئة بها يدخل ما في الهواء الجوي من المواد النافعة لجميع الشجر، فإذا نظرنا في تاريخ المسلمين إلى قصة النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان وعليّ، ومن نحا نحوهم من كل من كان عادلاً من المسلمين، رأينا ذلك قليلاً جداً في جانب الملوك المستبدين الظالمين الذي تقدم تاريخهم وتبذيرهم وإسرافهم ولهوهم وغزلهم وجواريهم وغلمانهم ومبانيهم وما أشبه ذلك؛ فهؤلاء الآخرون أشبه بالشوك في شجرة السنط، والأولون لقلتهم أشبه بورقة السنط، فإذا رأينا أمم الإسلام مضى لهم نحو ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن، وفي أكثر هذه المدة أذلهم ملوك وأمراء ووزراء وظلموهم؛ قلنا: إن هؤلاء أشبه بالشوكة التي تشوك المسلمين كلما أرادوا قطع تلك الأوراق الإسلامية التي تحيا بها أمتنا، وما هي أوراقها تلك إلا سيرة الخلفاء الراشدين ونور النبوة.

إن ما تقدم من سير الملوك الإسلاميين الذين أسرفوا أحدث في الأمة ذلًا كما يحدث شوك السنط لمن أقدم على قطع ورقه ألماً، فإذا رأينا الأمم الإسلامية اليوم قد أجمعت على إحياء السنة النبوية وعلى الإشاد بذكر عمر وعليّ وعثمان وأبي بكر ومن نحا نحوهم؛ فما ذلك إلا لما أحست بآلام الشوك الذي نبت في جسم الأمة فأذلها وآلمها وحركها إلى المحافظة على ما به حياتها، وهو أن ينهجوا نهج أبي بكر وعمر مثلاً، ويعرضوا عمن بعدهم، وإذا كنا نرى شجر السنط ينمو نمواً عظيماً ويكون قوياً متيناً بما أعطي من الورق ومن الشوك المحافظ عليه؛ فهكذا هذه الأمة بما أصابها من الذل والهوان من أمم الفرنجة، وكان ذلك بسبب الملوك المسرفين، ستحيي ذكرى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكرى العادلين من أمته، وتقطع الصلة التي تصلها بغيرهم، وستقوى قوة متينة كما قوي شجر السنط، والفضل في قوته راجع لمتانة الشوك الحافظ لورقه، الذي هو السبب في نمائه وقوته، فهذه الأمم الإسلامية ربما تعيش عشرات الآلاف من السنين أو مئات الآلاف منها، ويكون الفضل في طول بقائها وسعادتها راجعاً إلى الخطأ الذي وقع فيه الأمويون والعباسيون والأندلسيون والمصريون وغيرهم، فإن ذلك الجرح الدامي الذي أصاب أمتنا أخذ يندمل اليوم باجتماع المسلمين واتحادهم، وستبقى ذكراه إلى

آخر الدهر، فكما قويت وارتفعت شجرة السنط بقوة ومتانة شوكها هكذا ستقوى وترتفع أمم الإسلام بقوة ومتانة التبصرة والذكرى الناجمة من سوء سلوك ملوك الإسلام وأمرائهم السابقين إلا المصلحين منهم النافعين.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: جلّ الله وجلّ العلم، أيكون شجر السنط أمامنا صباحاً ومساء ونحن عنه غافلون، إن في نفس السنط الممثل به لحكماً عالية عجيبة، وأعجب منها أن تكون مثالاً لعلم تاريخ المسلمين. الله أكبر، الله أكبر، والله إن الأمم الإسلامية المسكينة قد أذن الله لها بالرفعة والسعادة، ولعمري كيف يطلع على هذا المسلمون ولا يرتقون، والله لو أن أمم الإسلام ألقي إليهم هذا العلم قبل الآن لكانوا على غير ما هم عليه الآن، ولكن الله أراد أن يخلق في أمم الإسلام خلقاً جديداً وهذا أوانه والله خير الناصرين. فقلت: أنا موقن بما تقول، وأنه سيظهر في هذا الزمان الذي ينشر فيه التفسير وفي الزمان الذي بعده رجال لم يحلم بهم التاريخ، ويكونون قدوة الأمم الإسلامية، وستبقى هذه الآراء وما هو خير منها عشرات القرون ومئاتها، وأنا لذلك مطمئن به وموقن، والله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين.

فقال صاحبي: فهل تضرب لي مثلاً آخر للغفلة المستحكمة في النفوس غير مثل شجرة السنط.

فقلت: كل ما نراه أشبه بمثل السنط المذكور مثلاً.

إنني في بعض ليالي هذا الشهر وهو شهر أغسطس سنة ١٩٣١، وهو الذي أكتب فيه هذا المقال كنت أستيقظ قبل الفجر، لتعاطي طعام السحور، والنظر في السماء فوقنا، وأنا فوق سقف المنزل الذي جرت عادتي في الصيف أن يكون نومي ليلاً فيه، فماذا كنت أرى؟ كنت أرى ثلاث طبقات فوقي: طبقة السحاب الذي طبق الآفاق، وطبقة الهواء الذي يعوم فيه السحاب، وطبقة النجوم التي لا يعرف عددها، ومنها مجرتنا التي شمسنا فيها، وشموسها لا تنقص عن عشرة آلاف مليون شمس. فهذه الطبقات أخذت أنظر إليها وأقول: يا رباه، عجباً لأهل الأرض! يتقاتلون ويختصمون، ويحقدون على متاع قليل وهم لا يعقلون هذه النعم التي تحيط بهم من مال وبنين وممالك، إن هي إلا ثمرات لهذا السحاب ولهذا الهواء ولهذه الشموس. ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾[الذاريات: ٢٢].

فهذه الغفلة الشاملة لنوع الإنسان تشبه الغفلة الشاملة لأمم الإسلام المتأخرة قبلنا عن تاريخ أسلافهم، فلم يكن ملوك العثمانيين ليفكروا بما حلّ بأهل الأندلس قبلهم والعباسيين من أن الجند كانوا يفتكون بالملوك، ولم يفكروا أن الفرنجة هم الذين أدخلوا الترف والنعيم في بلاد الأندلس فكان سبباً لخرابها، وهكذا أهل الأندلس المتأخرون لم يعتبروا بفسوق المتقدمين منهم، وهكذا المصريون أيام الثورة العرابية لم يفطنوا للتاريخ ودخل المبشرون ديارهم، وفعلوا في الأبناء من تحقير الإسلام في قلوبهم مثل ما فعل البابا ودوقات أوروبا في بلاد الأندلس أيام مالك بن عباد كما قدمناه، إذن لا فرق بين جهل الأمم الإنسانية بالنعم التي تحيط بهم كما قدمنا من نعم الهواء والنجوم والسحاب وبين جهل متأخري المسلمين بالغفلة المستحكمة في أمراء الإسلام جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن، وهم غافلون. ولا جرم أن هذه النقم المذكورة المنصبّة على أممنا السابقة ستصبح اليوم نعمة لنا بالاعتبار.

خطاب المؤلف ربه

في ليالي شهر أغسطس سنة ١٩٣١

يا الله، ما أجل حكمتك، وأعظم نعمتك، أنت الذي جعلت الشقاء نعيماً، والذل عزاً، والبلاء رخاء، سبحانك اللهم وبحمدك، لولا نعمة الغفلة المستحكمة في النوع الإنساني لهلك العالمون، أنت أنعمت بنعم لا حصر لها، وهذه النعم الباهرة، والآيات الظاهرة، لم تختص بها الشموس والأقمار والأرضين، فإن العظيم في رحمتك كالحقير، تدور الشمس، ويدور القمر، وتدور الأرض، فنراك أيضاً تجعل في الجوهر الفرد، وفي الذرّة التي لا تراها العيون نقطاً كهربائية سالبة تدور حول أخرى موجبة نحو ستة آلاف مليون مرة في الثانية، وهي نور كما أن نور الشمس نور.

نرى نعمك في النملة، وفي الذبابة، وفي النحلة، كما نراها في القمر، وفي الأرض، وفي الشمس، بل إننا نعقل من الرحمات في هذه الحشرات مالا يستقصى من الرحمات، ولا نقدر على عدّه، فما هذه العيون اللاتي تعدّ بالمئات في النمل، والتي تعدّ بالآلاف في الذباب، وما هذه الحكم البديعة التي تجلت في صنائع العنكبوت؟ إذن حار فكرنا في العظيم كما حار في الحقير، إذن لا حقير في هذا الوجود، وإذا غاب عن أكثر الناس هذا الجمال، وجهلوا الحكم المحيطة بهم، فهكذا غاب عن أمم الإسلام السابقة الاعتبار بما أحاط بآبائهم في التاريخ، وقد آن أوان الاستبصار والاعتبار والازدجار والازدهار والاستبشار.

عمت النعم نوع الإنسان، وغمرهم الجهل والنسيان، الرحمات نعمة، والغفلة عنها نقمة، لو عرف الناس هذه النعم ولم يذهلهم عنها ما أحاط بهم من المرض والذلة والحروب لماتوا طرباً، لأنهم يرون رحيماً لا حدّ لرحمته وجماله وحبه وإكرامه، فهذه الغفلة التي سببتها المصائب كانت سبباً في بقاء نوع الإنسان، هكذا غفلة الأمم الإسلامية السابقة عن الاعتبار بالتاريخ أصبحت اليوم نعمة علينا لتبقى بذكراها أمم وأمم بعدنا، أليس هذا هو ما يقوله الأطباء: إن الحمى تشفي من داء القولنج. وهو معنى قول الشاعر:

من يعتصم بإله العرش يحفظه فهو الحكيم يداوي الداء بالداء

فداء انحطاط المسلمين داويناه بالاعتبار بداء التخاذل للأمم البائدة، والله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين.

ذكر المؤلف نعم الله عليه

وهو يخاطب ربه وهو ناظر إلى السماء قبل الفجر

يا الله، عرفت الآن ما كان يخيل لي زمن الشباب، اللهم إني أحمدك حمداً كثيراً، وأشكرك شكراً جزيلاً، لقد كنت إذا قفلت من القاهرة إلى قريتنا كفرعوض الله حجازي أجد في نفسي ميلاً قوياً إلى الخلوة والتباعد عن القرية كل ليلة، فأجلس وحدي في أحد الحقول المجاورة لقريتنا، وأرى أني خيل إليّ:

(١) الدول والممالك دولة دولة وهم في مواكبهم البهجة، وعلى خيولهم المطهمة، وفي أعيادهم العظيمة، وهم يختالون اختيالاً.

(٢) وكأني أشاهد جميع من عاشوا من تلك الأمم إجمالاً، وكأنهم مشاهدون لي ثم يتوارون ويقوم غيرهم مقامهم، وهكذا جيلاً بعد جيل، ودولة بعد دولة.

(٣) وهذا كان ديدني في كل ليلة والناس نيام.

(٤) لقد فهمت خيال الشباب اليوم في زمن المشيب.

تبين لي اليوم أن هذه النفس مستعدة من زمن الشباب أن تستعرض الأمم الغابرة أمة أمة، وتلقي نظرة عليها وتقول: أيها المسلمون، ليس علم التاريخ علم استظهار، بل هو علم اعتبار، فليمتحن المسلمون بعدنا التاريخ على نحو ما امتحناه، وهذا مبدأ أسسناه، وعلى من بعدنا البناء والتمام والكمال. والحمد لله رب العالمين. كتب عصر الأربعاء ١٢ أغسطس سنة ١٩٣١م.

حمد المؤلف لربه

اللهم لك الحمد على العلم وعلى الحكمة، لك الحمد على أنك أنرت بصائرنا، وأصبح ما كان مجملاً من العلم في كتبنا السابقة مفصلاً في هذا الكتاب، فقد جاء في كتابي «التاج المرصع» ما نصه:

فمن هذا ترى أن الرؤساء والمرؤوسين مسؤولون عن أممهم، وهذا معنى مسألة الانتخاب والشورى ومجلس النواب وهكذا، وفي آية أخرى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾[سبأ: ٣١]، الإيمان هو المعرفة والعلم بالله وبغيره من المخلوقات ديني أو دنيوي، فإن هذا معناه في اللغة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[سبأ: ٣٣]، فكأنه يقول: ما جعلت الأغلال في أعناقهم في الآخرة إلا وقد وضعتها في أعناقهم في الدنيا، فغلت أيديهم وعقولهم بالجهل، وذلوا لاستبداد الرؤساء وقلدوهم واتكلوا على ما لديهم من السطوة، وظنوها مناط العلم، فجازاهم الله في الآخرة وجعلهم جهلاء معذبين محقرين لجهلهم في الدنيا، وتبرأ الرؤساء من المرؤوسين، كما يحصل في الدنيا عند استبداد الحاكمين على المحكومين ووقوع العذاب عليهم، فنراهم يتبرؤون، ويقول الضعفاء: جهلنا بمكركم علينا وتدبيركم الحيل في الليل والنهار لتبقى لكم الرئاسة وحدكم، وتدعونا في جهلنا نرسف في قيود الذل والجهل، وترسلوا علينا غاشية من سحاب الجهل المزجاة بعواصف المكر المدبرة بأيدي استبدادكم وظلمكم، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[هود: ١١٧]، ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦]، أمرنا أن ننظر آثار الأمم، ونحفر الآثار، ونقرأ الأحجار، ولم يكفه ذلك حتى قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ أي: علوماً وآداباً وأخلاقاً. ثم قال: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ ما خطه الأولون، وزبره الأقدمون، في مطمورات الأرض، ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[الأنبياء: ١٠٥]، وعد ببقاء الأمم النافعة الصالحة في الأرض كما وعد بإهلاك الأمم التي لا تنفع لعمارتها، ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا

﴿نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾[آل عمران: ٦٤]. ولقد قدمنا في هذه الآية أنه صلى الله عليه وسلم أرسل كتابه إلى الملوك بهذا الوضع كما في البخاري، وفسر الربوبية بسن السنن وتشريع الشرائع، فخاطب النبي صلى الله عليه وسلم الملوك بالصيغة النيابية، ونبذ الاستبدادية، ولذلك نرى العلماء يعتبرون عندنا الإجماع من الأدلة الشرعية، فكأن القرآن إذ ظهر في الشرق ظهرت ثمرته في الغرب، فكأن الشرق إلى الآن لم يستيقظ من غفلته، فسبحان مقسم العقول والحظوظ، وأكثر قصص القرآن وردت للعمران، وسيرد عليك عند التفصيل قصة فرعون وموسى وما كان من إذلال بني إسرائيل واستكبار فرعون وقومه، وتكوين دولة جديدة من الأمة الصغيرة في الشرق من سوريا وهم بنو إسرائيل، ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ﴾[القصص: ٥-٦]، يشير إلى أن الضعيف متى صبر أضحى ذا شوكة الخ. وترى يوسف وقصة عاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وقوم نوح وقصة آدم وخلافته في الأرض، وكل منها له قسط من العمران، فعاد أهلكوا بطغيانهم، وثمود بافترائهم، وقوم شعيب بتطفيف الكيل، وقوم لوط باللواط، فقلّ النسل، وقوم نوح هلكوا لأنهم لا يصلحون لعمارة الأرض، وقصة آدم تشير إلى أنه وبنيه خلفاء الله في أرضه، متساوون في الحقوق، ولنقتصر على هذا القدر من الكتاب.

وهاك ما ورد في السنة من جمل تريك علامات دنو أجل الأمة وسقوط الدولة، فأخبر صلى الله عليه وسلم أن أسافل الناس إذا علوا على الحكومة سقطت الأمة وتقلص ظلها، وعبر عنه بتطاول رعاة الإبل في البنيان، وقال أيضاً: إن الرجال إذا أكثروا من الإسراف واقتناء الجواري كان علامة على دنوّ زوال الأمة من الوجود، وعرّفه بأن تلد الأمة ربتها أي سيدها، وفي هذا القول معنيان مصطحبان: كثرة النساء والإسراف بينهن، واختلاط الأجناس، فإذا اتخذ الرجال الإماء وهن من أمة أخرى جرى الدمان واختلط الجنسان وضاع كيان الأمة، وسقطت من شامخ مجدها، ورفيع قدرها، كما ذكره العلامة «اسبنسر» الفيلسوف الإنجليزي للفيلسوف الياباني، إذ سأله عن اليابانيين أيتزوجون من الأوروبيين؟ قال: كلا. لئلا يختلط الجنسان ولا يحفظ الكيان، ولا يلتئم الزوجان، وعلله بعلة صحية ونحن نعلل بالصحة والاجتماع معاً، والحديث في البخاري: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بارزاً للناس، فأتاه رجل فقال: ما الإيمان؟ فقال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالبعث. قال: ما الإسلام؟ قال: الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان وتحج البيت الخ. قال: ما الإحسان؟ قال: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: ما الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، وسأخبرك عن أشراطها: إذا ولدت الأمة ربتها، وإذا تطاول رعاة الإبل البهم في البنيان في خمس لا يعلمها إلا الله، ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾[لقمان: ٣٤] الآية. ثم أدبر فقال: ردّوه، فلم يروا شيئاً، فقال: هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم». وعبر عن المعنى السابق بما هو أوضح في حديث آخر. فقال: «إذا أضيعت الأمانة فانتظر الساعة»، وفي حديث:

« إن من أشراط الساعة أن يقلّ العلم ، ويكثر الجهل ، ويظهر الزنا ، وتكثر النساء ، ويقل الرجال حتى يكون للخمسين امرأة القيم الواحد » ، وفي حديث : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهلاء ، فسئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا » . اهـ . وأشراط الساعة هنا المراد بها الصغرى ، وهي الدلالة على خراب أمة من الأمم ، أو قبيلة ، أو قرية ، ولا ريب أن الزنا يقل النسل ، وظهور الجهل من أشد العوامل في التخريب ، وارتفاع الأسافل بارتقاء المناصب بلا استحقاق يورث ضياع الأمة ، وقلة الرجال بالحروب وكثرة النساء داعيان لتغير الأمة وزوالها ، كما حصل في زماننا ، فقد قتل التعايشي الرجال حتى لم يبق إلا العجائز والنساء في كثير من القبائل ، ولم تكن تجد لنحو خمسين امرأة إلا شيخاً أو صبياً واحداً ، وهكذا اختلاط العشائر ، فهذا كله من إمارات زوال الأمة من الوجود ، كما عليه علماء العمران في بلادنا . انتهى من كتابي « التاج المرصع » .

يا ليت شعري كيف يعرف أذكياء المسلمين بعدنا تفصيل ما أجملناه في « التاج المرصع » ، حتى يصير يقيناً عندهم إلا بما نقلناه هنا ، ألست ترى فيما تقدم كيف اضطربت دولة الإسلام لما ولدت الأمة ربتها ، فأصبحنا نرى الخيزران وهي جارية أماً للرشيد وللهادي ، وكم من جوار اشتريت بالمال ، وأصبحن أمهات للخلفاء . يا عجباً ! أليس هذا الحديث الوارد في البخاري إنذاراً لأمم الإسلام أن يقفوا استيلاد الإماء ، غفل المسلمون عن هذا وجهلوا مقاصد النبوة ، لا فرق فيهم بين العباسي والأموي والشيعي والتركي والأندلسي ، كل هؤلاء تراهم فيما مرّ بك من هذا الكتاب سواسية في جهل مقاصد النبوة ، وهاهو ذا جاء الفيلسوف « سبنسر » يقول بمنع ذلك خيفة الفساد .

لك الحمد اللهم على نعمة العلم ، وعلى نعمة الفهم ، وعلى فضل التوفيق بالإنعام والإلهام . هذه صحيفة الأمم الإسلامية منشورة بيننا واضحة جلية ظاهرة . صحائف منشورة ، وكتب مسطورة ، وضح فيها اتباع الخلف للسلف ، والأول للآخر .

اللهم أنت مالك الملك حكمت على هذا الإنسان أن يكون موثقاً في أغلال التقليد ، مقيداً في أصفاد من حديد ، شابهت قلوب أوائله قلوب أواخره ، واستنّ المتأخرون سنن المتقدمين ، وسار الأبناء على سنن الآباء ، فأحاطت بهم النذر ، وأهلكتهم الأمم ، فهم في ديارهم صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية ، طمّ الجهل وعمّ ، واستحوذ على العقول فأصماها ، وعلى الأمم فأرداها ، فتباً للجهالة ، وتعساً للصغار والمهانة ، ألم يكن فيهم منذرون؟ أفلم يكونوا يعقلون؟ .

غشيتهم الغواشي ، وأخذوا بالأقدام والنواصي ، فطاحوا طحين الرحى وهم غافلون . سمعوا أحاديث الإماء ، وأنهن يلدن سادتهن ، وأن ذلك من علامات الانحطاط والتدهور والهلاك ، فجعلوا أصابعهم في آذانهم واستكبروا استكباراً ، وسمعوا أن رعاة الشياه إذا تطاولوا في البنيان مزّقوا شر ممزّق وأصبحوا صرعى هالكين ، سمعوا ذلك فما أغنى عنهم ما كانوا يسمعون ، ولا أفادهم ما كانوا يقرؤون ، فهاأنت ذا ترى مبانيهم الشامخة ، وقصورهم العالية ، وبذخهم وإسرافهم ، فما أغنى عنهم ما كانوا يبنون ، ولا حفظ مدنهم ما كانوا يصنعون .

يا الله أنت الوكيل، أنت الحفيظ، أنت العليم، أنت المنتقم. دبر الخلفاء الراشدون الأمور بالشورى والعدل وزهدوا في المطعم والملبس، وجعلوا أنفسهم خلفاء لله والناس أبناؤهم، ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [مريم: ٥٩] فلقوا غياً، طاح مجدهم في الجواري الحسان، وإقامة البنيان، والتغالي في الزخرف والزينة، فحاق بهم ما كانوا به يستهزئون.

تغالى العباسيون والأندلسيون والعثمانيون والمصريون المتأخرون بعد محمد علي باشا في القرن الماضي، تغالى هؤلاء في البذخ والإسراف، وإقامة المباني، والتفاخر أمام دول أوروبا رياء وسمعة فأضاعوا الأموال، فهل مانعتهم حصونهم من الله، وهل مانعهم إسرافهم ورياؤهم وأخدانهم وإخوانهم والمتملقون لهم. كلا. بل أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي أعدائهم، كل ذلك حصل في مصر في زماننا كما حصل في الأندلس والدولة العباسية وغيرهم.

اللهم إننا نعلم أن خلفاء الدولة العباسية وإن كانوا هم الذين رفعوا شأن الأمم الإسلامية حيناً ما؛ فإن توارثهم الخلافة كما يورث المتاع أودى بتلك الأمم وأضاعها، وفرّق شملها، وأذاقها لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون.

ارتفاع الدولة

فأما ارتفاع شأن الأمم الإسلامية بالدولة العباسية، فذلك ما يقوله العلامة «سديو الفرنسي» في تاريخه المسمى «خلاصة تاريخ العرب»، فقد جاء فيه في صفحة ١١١ وما بعدها ما نصه:

كان للعباسية ديوانان: ديوان وارد وصادر أموال المملكة، وديوان النظر في مصالح الرعية وأحكام الدولة، يصدّق على الأحكام الصادرة من الخلفاء، ثم استبدلوا الأول بأربعة دواوين لمرتبات العسكر والخراج وتولية أرباب الوظائف الصغار ومقابلة الحساب وتعديله، ثم اتخذوا حاجباً يدخل سفراء الملوك إلى الخليفة، ويحكم في القضايا المهمة عند رفعها إلى الخلفاء ليريحهم من النظر فيها، واتخذوا وزيراً ينظر في القضايا قبل بتّهم الحكم فيها، ثم جدّدوا خراجاً على أراضي المسلمين، وكذا اليهود والنصارى مع جزية مقدارها من الغني ثمانية وأربعون درهماً، والمتوسط أربعة وعشرون، والفقير اثنا عشر، سوى ما يرد عن عوائد الجمارك واستخراج المعادن وإجارة أراضي وارث من لا وارث له وغير ذلك.

بلغ وارد المملكة سنة في زمن الرشيد أربعة ملايين وأربعمائة وعشرين ألف دينار ومائتين واثنين وسبعين مليوناً وثلاثمائة وخمسة آلاف وثمانمائة درهم، والدينار إذ ذاك يساوي مثقالاً أو اثني عشر فرنكاً إلى ثلاثة عشر، والدرهم يساوي ستة دوانق، وكل ستة دراهم تساوي سبعة مثاقيل.

الأعمال العامة والإدارة زمن العباسية

لما كانت عليه مالية العباسية من حسن الانتظام شرعوا في أعمال مهمة، فرتبوا ببغداد ديوان ضبط يمنع عدوان بعض الناس على بعض، ويحفظ الأملاك لأربابها، ونظموا عساسين يطوفون ليلاً لمنع الشر، ورأوا عرب البادية عادوا بعد انقطاع الحروب إلى العيشة في البيداء مع النهب والسلب،

فرتبوا لقافلة الحج أميراً يحفظها، ورتبوا أوقافاً لإحياء المساجد والمدارس، وبنى الهادي في الدرب الممتد من بغداد إلى مكة خانات وصهاريج تلجأ إليها الحجاج والقوافل من الحرّ والعطش، ورتب بين الحجاز واليمن من الخيل والجمال بريداً يوصل الأخبار إليها، كما رتب معاوية بن أبي سفيان بين بنادر المملكة العربية سعاة لذلك.

وابتكر المهدي تولية محتسب يؤتمن على الضبط والربط البلدي، يطوف بالأسواق حيناً بعد حين بجنود ينفذ بهم أوامر ديوان الضبطية، ويحقق أوزان ومكاييل البياعين، فإن وجد مخالفاً أدبه فوراً أمام حانوته، وقد جمعت العباسية ما ببغداد من الدفاتر المشتملة على أوامر أسلافهم ليرجعوا إليها، وبالجملة قد أبدوا أولاً الحمية في الحروب ثم عدلوا عنها إلى تحقيق العزّ والرفاهية لمملكتهم، حيث أخذوا يحرضون الناس على استعمال أذهانهم في الأمور النافعة، حتى وصلوا سريعاً إلى درجة عالية في التمدن، وتقدموا على اليونان في التجارة والصنائع والفنون الأدبية وغيرها التي ظن اليونان أن لا مسابق لهم فيها.

الفلاحة والصنائع زمن العباسية

استخرجت العباسية معادن الحديد في خراسان، والرصاص في كرمان، ونسجوا الأقمشة في مدائن العراق والشام لا سيما الموصل وحلب ودمشق، واستخرجوا القار والنفط، وطينة الأواني الصينية، ورخام طوريس، والملح الأندراني، والكبريت. وأظهر ذوو الفنون الميكانيكية تقدمات يشهد بها ما بعثه الرشيد إلى شرلمانيه ملك الفرنسيس من الساعة الكبيرة الدقاقة التي تعجب منها أهل ديوانه، ولم يمكنهم معرفة كيفية تركيب عدّتها، ومع ذلك لم يكن في عصر العباسية أهم من صناعة الفلاحة التي بمهارتهم فيها أظهروا مزايا فواكه الفرس وأزهار إقليم مازندران.

الفنون الأدبية والصناعية زمن العباسية

كان فنا النقش والحفر متقدمين لدى العرب الجاهلية الصانعين لتصاوير الإنسانية والتماثيل الإلهية، حتى جاء القرآن الكريم بمنعهما، فوقفا عن التقدم حتى اشتغل بهما العباسية في غير تلك التصاوير، فتقدموا فيهما كفنيّ الموسيقى والعمارة، فقد بنوا مباني فاخرة ببغداد والبصرة والموصل والرقة وسمرقند، وشغفوا مع ذلك بالعلوم الأدبية، فأحضروا من القسطنطينية أحسن الكتب اليونانية وترجموها إلى العربية، وفتحوا ببغداد مدرسة «ألسن» لتربية المترجمين تحت نظارة طبيب نسطوري، ورتبوا خمسة عشر ألف دينار لمدرسة يتعلم بها مجاناً ستة آلاف تلميذ من الفقراء والأغنياء، وأنشؤوا كتبخانات رخصوا الدخول فيها لمن أراد، فانتشرت اللغة العربية في سائر جهات آسيا حتى تكلموا بها بدلاً عن لغتهم، واعتاد المأمون ومن اقتدى به بعده حضور الدروس العامة التي يلقيها المدرسون، وأطلعوا شموس العلوم الرياضية، وبنوا أرصاداً بها آلات عجيبة للاستكشاف الفلكي، ومستشفيات يمتحن فيها من أراد أن يوظف عدة امتحانات، ومعامل كيماوية لاستكشاف النباتات، إلا أنهم وقعوا في ضلالات بتصديقهم بمظنونات التنجيم، وبالمسائل النظرية المتعلقة بعلم كيمياء الفضة والذهب المسماة بالصنعة الإلهية وعلم جابر، لكنها ساعدتهم على التقدم في علوم مكتسبة بالمشاهدة.

ومكثت المدرسة البغدادية على رونقها الباهر نحو مائتي سنة تقريباً، فكان العباسيون في ذلك أسعد حظاً من شرلمانيه الذي أراد أن ينقذ مملكته من الخشونة والجهالة بتنوير عقولهم بأعلم من في عصره من الفرنج، فإن ذلك عدم بعد هلاكه.

فخامة العباسية

لاستحواذ العباسيين على أموال كثيرة مع عدم جيوش دائمة ينفقون عليها أبدوا من الزينة والزخرفة أعجب المناظر، ومنحوا منحاً وافرة، وعملوا أعمالاً فاخرة، نثروا الذهب في قصورهم وبساتينهم ومساجدهم، وأنفق المهدي في حجه ستة ملايين من الدنانير، وصرفت زبيدة زوجة الرشيد مليوناً وسبعمائة ألف دينار على حفر مجرى يوصل إلى مكة المياه من الجبال المجاورة لها، وكان لباسها من الديباج المبطن بالسمور، أو الأقمشة المنسوجة بخيطان الفضة، ونعالها مزركشة باللآلئ الثمينة، وفرّق المأمون في يوم أربعمائة ألف دينار، ونصب في مجلسه عند قدوم سفير اليونان شجرة ذهب حاملة لؤلؤاً على هيئة الثمار، ورتب مقترعاً به سهام أكثر من مائتي شخص يأخذ كل منهم سهمه فيجد به أرضاً جسيمة مع ما يلزم لزراعتها من العبيد، ويقال: كان في قصره ثمانية وثلاثون ألف بساط، منها اثنا عشر ألفاً وخمسمائة مزركشة بالذهب، وبه أيضاً سبعة آلاف خصي، منها ثلاثة آلاف من الزنج، وسبعمائة خفير، وعساكر تحمي الحواشي الخارجة عنه، ووضع المعتصم أساس سامرا قرب بغداد على أرض أعلاها بمصاريف هائلة، وبنى بها إسطبلات تسع على ما قيل مائة ألف جواد، ولما بلغه العباسية من الفخامة وقوة الشوكة بعث شرلمانيه إلى هارون هدايا ليحمي النصارى الذاهبين إلى بيت المقدس، فأجابه إلى ما طلب، وبعث له أقمشة نفيسة، وعطراً وخشباً ذكياً، وفيلاً، وخيمة عظيمة على هيئة خيام العرب، ثم بعث الساعة الدقاقة السالفة. انتهى.

انحطاط الدولة العباسية

فأما انحطاط الدولة العباسية فما ذلك إلا بسبب توارث الملك والتنازع عليه، ولو كانت الخلافة بالشورى لم يحصل شيء من ذلك، ولقد قدمنا كيف قتل عشرة من الخلفاء، ونزيد الآن ما يقوله الأستاذ سديو المتقدم في كتابه وهذا نصه:

لقد أحيطت بغداد بالولايات المستقلة من ابتداء هذا الزمن الذي استمر فيه القتل في القواد والوزراء والملوك المستقلين بالحكم، وكذا الخلفاء، فقد قتل من التسعة والخمسين خليفة ثمانية وثلاثون وعذبوا بالجوع، أو إدمان السجن، أو الرمي في وعاء كبير مملوء ثلجاً، ولذا خرج القاهر من السجن مفقوء العينين عليه ثياب بالية يسأل الناس على أبواب المساجد، وتغلب على الراضي ضابط العساكر التركمانية، وتصرفوا كما شاؤوا في سائر فروع المملكة، فاخترع منصب إمارة الأمراء، وأعطاه ابن رائق، فتولى قيادة الجيش وخزينة المملكة وسائر أمور الرعية، وقرن اسمه باسم الخليفة في الخطبة، وما زال متصرفاً بالمملكة حتى حنق منه جندي يسمى «ياقم»، فحاصر بغداد وقبض على الراضي سنة أربعين وتسعمائة ميلادية، وألزمه أن يوليه إمارة الأمراء، فولاه، وحكم حتى مات في خلافة المتقي سنة ثلاثة وأربعين وتسعمائة ميلادية. اهـ.

اللهم لك المشتكى. اللهم أنت رب العباد، أنت الحكيم، أنت الذي علمتنا تاريخ أسلافنا، لنجعله نموذجاً لنا، لأنك تريد رقي أمم الإسلام، وأمم الأرض، ولن يقوم المجد إلا على أساس، وهل الأساس إلا ما قام به عمر رضي الله عنه ومن معه من الخلفاء الراشدين؟ وهل يتبع الناس بعدنا الخلفاء الراشدين اتباعاً تاماً إلا إذا علموا أن الأمم التي هجرت طريقهم، وخالفت سننهم هالكون؟ فهاهنا نجدان وطريقان ممهدان: طريق الخير سنة الخلفاء الراشدين، وطريق الشر سنة الخلفاء الذين ليسوا براشدين، بل هم قوم لقبائلهم متعصبون.

يا رباه، هانحن أولاء الآن قدرنا أن نفهم بعض الفهم كلامك في كتابك الكريم، رباه عرفنا ومعرفتنا قد أثبتها التاريخ، أثبت التاريخ أن التنعم في الدنيا ذلّ، وأن القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ذلّ، هاهو ذا أثبت التاريخ بالأرقام والأعداد، والناس شرقاً وغرباً غافلون، هاهم أولاء الخلفاء قتلوا تقتيلاً وسملت أعينهم، وأخذ بعضهم يسأل الناس على أبواب المساجد، وكان أحدهم يملك القناطير المقنطرة، بل المرأة مَن نساء الخلفاء ربما تملك الملايين من الدنانير، وإذا كنا نرى المأمون في وليمة عرسه لبوران إذ تزف إليه يأمر بالنقود فتصب بين السماطين وترفع حتى تكون فوق الموائد، ويؤمر القوم أن يأخذوه لأنفسهم وهو عشرات ألوف ألوف، أفليس ذلك يشبه مال قارون المذكور في القرآن، ذلك الكتاب الذي ذكر تلك القصة ليشير إلى ما سيحصل في البلاد الإسلامية، وقد حصل فعلاً، نقود وجواهر تتكاثر وتجتمع اجتماع مال قارون، والكانزون هم أنفسهم يقتلون تقتيلاً، ويسأل بعضهم الناس على أبواب المساجد، أليس هذا يشابه ما حصل لقارون، إذ قال له العلماء لا تفرح بالمال والزينة، ففرح فخسف به وبداره الأرض، فأصبح الذين تمنوا مكانه وهو في زينته يحمدون ربهم على أنه نجاهم من الزينة والزخرف وكثرة المال. هذا هو بعض أسرار القرآن، هاهي ذه قصص القرآن فسرها التاريخ، لهذا أنزل القرآن، أنزل أقوالاً ثم ظهر أفعالاً، أليس هذا هو قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴾ [الفجر: ١٥-١٧] الخ.

سبحانك اللهم وبحمدك، أسمعتنا كلامك يذم التنعم، وأريتنا التاريخ فأثبت هذا الذم أن المسلمين إذا نبذوا التاريخ ظهريا كما هو حاصل الآن فليسوا خير أمة أخرجت للناس، لأنهم لا يفهمون حقائق القرآن إلا بالتاريخ، إن جيل المسلمين بعدنا خير من جيلنا، لأن التاريخ والفلسفة والقرآن ستتحد في عقولهم، ويخرج جيل جديد لم يحلم به أهل الأرض، ويكون خلفاؤهم بالشورى، وحكامهم جميعاً بالشورى، والمال موزع على مستحقيه، فلا إسراف ولا ظلم، ويكون المسلمون كالجسد الواحد.

سينظر بعدنا المسلمون ما كتبناه وكتبه غيرنا، ويقولون: نحن رأينا الطريقين، وقرأنا الدرسين، وهدينا النجدين، فلننهج سنن الخلفاء الراشدين، ولنجعل الخلافة بالشورى، ولا نخصها بأمة ما، ولا بنسب ما، ولا بقبيلة ما، وسنجعل الخليفة فينا أقرب في أخلاقه إلى أخلاق عمر، وأخلاق الخلفاء الراشدين الآخرين، وإذا مات الخليفة أقمنا آخر بالشورى، وراعينا قوته العقلية والعلمية، وقوة جيشه

فأما مراعاة الأنساب، فهذه تصيب وتخطئ، وهي ضلال مبين، اللهم إلا إذا توافرت الشروط وقامت الحجج، فإن ذلك لا مانع منه، والله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين.

ثم يقولون: إن من قبلنا ظلمهم الملوك، فخشوا بأسهم، وخافوا بطشهم، فلم يؤدبوهم، ولم يهذبوهم، فهلك الملوك منهم والسوقة أجمعون. إن الأمة كلها أشبه بجسم واحد إذا فسد عضو تداعت له سائر الأعضاء، إن الله امتحن أسلافنا بظلم ملوكهم فلما لم يقوموهم سلط عليهم أمماً آخرين، وقد جعل ذلك درساً لنا، فنحن عن أمرائنا مسؤولون، لا نفرّط كما فرّط آباؤنا، لا ظلم اليوم في بلاد الإسلام، نحن أصبحنا نفهم آية: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾[غافر: ٤٧] الخ. وتبين لنا بها أن المحكوم مسؤول عن حاكمه، وأن الشورى هي القانون العام في بلاد الإسلام، فنحن مسؤولون عن سير ملوكنا.

كيف تكون النبوة المحمدية المبنية على الأساس القوي قد قامت من قبلها عقول راجحة، ونفوس قوية، برهنت على أن تملك العقار ضار بالملوك وبالرعية، فهذا سقراط يقول: إن الملوك والأمراء والجند إذا ملكوا عقاراً أصبحوا ذئاباً جائعين آكلين، بدل أن يكونوا كلاباً حارسين. وكيف جهل القائمون بالأمر هذه الحكم النبوية، فهاهو ذا اليوم ظهر أن العقل وافق الوحي، فليكن أبناؤنا خيراً من آبائنا، لأنهم يجمعون بين النقل والعقل، فيكون ذلك يقيناً عندهم لا مجرد إيمان.

هاهم أولاء خلفاء الإسلام وملوكهم المتأخرون قد بنوا القصور، وزخرفوا الدور، ألم تر فيما مر بك أن هؤلاء الذين بنوا وشيدوا وأسرفوا هم الذين سقطوا وذهب ملكهم، أنا لست أقول إننا لا نبني. كلا. ولكني أقول نراعي العقل والأحوال، ولا نكون مسرفين.

فهاهي ذه بلاد الحجاز في زماننا، وبلاد اليمن، وبلاد نجد، ليست عندهم حصون كحصوننا في مصر، ولا زخرف كزخرف بلادنا، ولا قلاع كقلعتنا، ولا ثغور كثغور بلادنا، ولكنهم مستقلون، ونحن في مصر من الاستقلال محرومون، ألا ترى أن ذلك مصداق للنبوة، وأن الإسراف في البنيان، وفي الجواري والقصور والدور والزخرف هو المضعف للأمم، والمخرب للعمران، صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم انظر إلى البصرة والكوفة، هما من المدن الإسلامية التي اختطها العرب لأنفسهم، وكانوا قبل الإسلام أهل ماشية وخيام وخيل، يكرهون الإقامة ضمن الأسوار، وينفرون من الانحصار في المدن، فلما تأيد الإسلام واجتمع العرب على فتح الأمصار في العراق والشام ومصر، كانوا في بادئ الرأي إذا ساروا إلى غزو أو فتح اصطحبوا نساءهم وعيالهم، فإذا فتحوا بلد أقاموا في ضواحيه بخيامهم وأخبيتهم وهو معسكرهم، وكان عمر بن الخطاب يشترط على جنده المقيمين في الأمصار أن لا يقيموا في مكان يحول الماء فيه بينهم وبينه، حتى إذا أراد أن يركب راحلته إليهم ركب، كذلك فعل عمرو بن العاص في الفسطاط، وسعد بن أبي وقاص في الكوفة والبصرة، وكانت كلها مضارب لجند العرب الفاتحين، يعبرون عنها بالرابطة أو المعسكر، فإذا طال بهم المقام اختطوا الأسواق وبنوا المنازل والقصور، ذلك شأنهم في صدر الإسلام، فبنوا البصرة والكوفة على هذه الصورة، على أنهم ظلوا

نازعين إلى البداوة بعد تخطيط البصرة لأول عهدها، فبنوا مسجدها ودار إمارتها بالقصب، فكانوا إذا غزوا نزعوا ذلك القصب وحزموه وحفظوه حتى يعودوا من الغزو فيعيدوا بناءها كما كان، واعتبر ذلك بالكوفة أيضاً.

فأول من عمر البصرة والكوفة الفاتحون وأهلهم، ثم اتسعت الفتوح الإسلامية شرقاً وغرباً، ورسخت دولة المسلمين حتى نزح العرب بأهلهم وخيلهم التماساً لسعة العيش في البلاد العامرة من مملكتهم الجديدة، وهم يختارون أقربها إلى البادية بلدهم القديم، فالبصرة والكوفة أوفق البلاد لهم، لأنها على الحدود بين جزيرتهم والشام والعراق. انتهى.

اللهم إنك أنت الملهم، أنت المنعم، أنعمت علي بالتوفيق، وأيدتني، وشرحت صدري، وقد أوضحت للأمم الإسلامية بعدنا هذا المقام أشدّ إيضاح، فلك الحمد والنعمة والملك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك، وأنت رب العالمين. انتهى الكلام على الفصل الأول الخاص بآية: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾[الأحقاف: ٢٠] الخ.

فلنشرع في الفصل الثاني في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: ٢١] فأقول مستعيناً بالله:

الفصل الثاني في الكلام على قوله تعالى:
﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾
وبيان مساكنهم، وخريطة بلادهم، وما أشبه ذلك

لعل الكلام في عاد يحملنا على الرجوع إلى مجموع الأمم العربية في أقدم الأزمنة فنقول: يقال إن سكان وادي النيل القدماء كانوا من الشعوب الحامية نسبة لـ «حام»، وسكان ما بين النهرين دجلة والفرات كانوا من الشعوب الطورانية، أما الساميون فهم كانوا بين وادي مصر ووادي العراق. ويقال إن الساميين دخلوا مصر في عصور قديمة جداً قبل التاريخ أيام العصر الحجري، وهؤلاء الساميون أدخلوا صناعة الحديد بمصر.

ثم إن الساميين في الأزمان المتأخرة هجم جماعة منهم على بابل وآخرون على مصر، فالذين هجموا على بابل ابتدأ حكمهم من سنة ٢٤٦٠ ق. م. وانتهى سنة ٢٠٨٢ ق. م، وأول هؤلاء ساموابي، وسادسهم حمورابي المشهور.

أما الذين هجموا على مصر دولة «الشاسو» الهكسوس من سنة ٢٢١٤ ق. م إلى سنة ١٧٠٣ ق. م، فهؤلاء الشاسو، أي: الرعاة وإخوانهم الذين هجموا على العراق، كانت لهم نهضة تشبه النهضة العربية الإسلامية من بعض الوجوه، وهذه النهضة كما ترى قبل يومنا هذا بنحو أربعة آلاف سنة. والذي يهمنا من هاتين الدولتين العربيتين المصرية والبابلية أن ننتقل من الكلام عليهما إلى الكلام على عاد التي نحن بصدد الكلام عليها.

يا سبحان الله، أنا يوماً توجهت إلى دار الآثار المصرية التي فيها أسلحة وملابس وحلي قدماء المصريين، فكنت أجد العجب مما أرى! فإن السيوف والرماح والحلي هي هي بعينها ما نراه اليوم في

جزيرة العرب، ثم إننا نسمع في القرآن أن هذه الأمم لهم أبنية ومصانع، وأن ثمود نحتت من الجبال بيوتاً، وهذه الأعمال بعينها هي التي يعملها قدماء المصريين.

فهل لك أن أقص عليك ما خاطبنا به المرحوم أحمد بك كمال وهو أكبر عالم أثري في بلادنا المصرية، بل في بلاد الإسلام. فقال صاحبي: إن حديثه تقدم في هذا التفسير، فأشر إليه إشارة فقط. فقلت: حقاً؟ إنه قال: إنه وجد مكتوباً على حائط الدير البحري في أيام الأسرة الثامنة عشرة ما نصه: إن المصريين لما كثروا خرج منهم جماعتان: جماعة إلى بلاد شمال أفريقيا، وجماعة إلى بلاد العرب. وقال لنا معاشر مدرّسي اللغة العربية: أنا أرى أن عاداً وثمود هم الذين نزحوا إلى بلاد العرب. فقلت أنا والمرحوم حفني بك ناصف: نحن لا مانع يمنعنا من القول بهذا، ولقد دهشنا لما أثبت لنا بكتابه أن اللغة الهيروغليفية وهي المصرية القديمة عربية دخلها التحريف، بل هي أوسع من العربية، وألف كتاباً في ذلك ضخماً، وقرأ كثيراً منه لنا. فهذا كله يؤيد ما قلنا إن الساميين هم الذين نزحوا إلى مصر من قبل التاريخ، فلنرجع إلى ما نحن بصدده من أمر عاد فنقول: إن عمالقة العراق لما خرجوا منها، وعمالقة مصر أيضاً لما خرجوا منها تفرّقوا في جزيرة العرب، وهؤلاء منهم العرب البائدة، مثل عاد وثمود وطسم وجديس، فأما عاد فإنها تعرف بأنها عاد إرم، فإرم اسم للقبيلة، فيقولون عاد إرم وثمود إرم، والقبائل البائدة كلها من نسل إرم، ويعرفون بالأرمان، ويؤيد ذلك أن اليونانيين ذكروا في جملة قبائل اليمن حوالي تاريخ الميلاد قبيلة يكتبونها بلسانهم ADRAMITAI، وقد يتبادر إلى الذهن أن المراد بها حضرموت، ولكن هذه يكتبونها باليونانية XADRAMOTITAI وباللاتينية CHATRAMOTITAI، وقد أرادوا اللفظين معاً، فلو أرادوا قبيلة واحدة لما ذكروهما معاً، فالأرجح أن ADRAMITAI يراد بها العادرميون أو العاديون.

والعرب يضربون المثل بقدم عاد ويريدون أنها أقدم من العمالقة، ولا سبيل إلى تحقيق ذلك لأن ما ذكروه عنها محشو بالمبالغات والخرافات، كقولهم: إن طول الرجل منهم ٧٠ ذراعاً إلى مائة ذراع، ورأس أحدهم كالقبة العظيمة، وعينه تفرخ فيها السباع، ولم يذكروا من ملوكها إلا بضعة، أولهم: عاد، قالوا: إنه عاش ١,٢٠٠ سنة، وأنه تزوج ألف امرأة، وولد له أربعة آلاف ولد ذكر لصلبه واعتدل بعضهم فجعل عمره ٣٠٠ سنة، ولا تخلو هذه الخرافة من حقيقة، فالظاهر أن العرب كانوا يسمعون بقدم هذه الأمة ولا يعرفون من ملوكها إلا نفراً قليلاً، فجعلوا أعمارهم طويلة لتسع ذلك القدم، وترتب على طول أعمارهم تعدد الزوجات. وعثر النقابون في آثار بلاد العرب على نتف من بقايا كثير من الدول القديمة، وعرفوا كثيراً من أحوالهم إلا عاداً فإنهم لم يروا لها ذكراً. على أن العرب تعودوا إذا رأوا أطلالاً قديمة عليها نقوش لا يعرفون أصحابها أن يسمونها «عادية».

وجاء في معجم ياقوت الحموي بمادة «جش» قوله: جش إرم جبل عند آجا أحد جبلي طيء، أملس الأعلى، سهل ترعاه الإبل والحمير، كثير الكلأ، وفي ذروته مساكن لعاد إرم، فيه صور منحوتة في الصخر. وقال في مادة «صير»: والصير جبل باجا في ديار طيء كهوف شبه البيوت. ولعل بين تلك النقوش وهذه البيوت نسبة، فعسى أن يوفق الرواد إلى كشفها وقراءتها كما قرؤوا مثلها في حوران

والعلاء ومدائن صالح وتيماء واليمن. انتهى ملخصاً من كتاب « تاريخ العرب قبل الإسلام ». هذا آخر ما عرفه علماء زماننا في التاريخ، فهل لك أيها الأخ أن أقص عليك أنباء عجيبة، ذلك أن زماننا هذا تقاربت فيه الأمم، وامتدت الطرق، وسهل السفر، وأنا لا يتسنى لي في هذا التفسير أن أكتب من أفواه الرجال، فخبر الواحد لا ثقة به، ولكن جاء صديق من متخرجي الأزهر فأسمعني كلاماً سمعته من كثير غيره، ولكني لم أرد أن أكتب عن أحد شيئاً، فقال لي هو إنه زار قبر نبي الله هود وسمع بقبر نبي الله صالح في تلك البلاد. فقلت له: انظر هذه الخريطة، وقد كان أهداها لي بعض الفضلاء من بيت السقاف المشهور، فلما نظرها ورأى مكان قبر هود.

هذه الخريطة التي رسمها أهل البلاد بأنفسهم، وهم أعلم ببلادهم وليس بعجيب أن نسمع في التاريخ أن مما كان سبباً في نفي العلامة « ابن رشد » أنه لما سمع أحد جلسائه يقول: هذه ريح صرصر عاتية، كالتي أهلكت عاداً قال على الفور: وهل ثبتت قبيلة عاد حتى نثبت هلاكها بالريح. أقول: ليس هذا بعجيب، لأن المواصلة كانت عسيرة جداً، وإذا صح ما في هذه الخريطة فإنه يؤيد الرأي القائل: إن ثمود كانت في الجهة التي فيها عاد، على هذا تكون مدائن صالح من البلاد التي كانت تحت حكمهم.

هذا، وإنا نحمد الله عز وجل إذ هيأ اليوم للمسلمين أسباب الرقي ومن ذلك أن راسم هذه الخريطة السيد أحمد بن عبد الله السقاف قد أخذته الحمية الشريفة والنخوة العربية، وأنف أن نكون تابعين للأمم، فرسم هذه الخريطة وجعلها موافقة للواقع بشهادة أهل البلاد.

اللهم ألهم الشبان أن يذروا ذلك النوم العميق الذي وقع فيه أسلافنا المتأخرون، وأن يبذلوا الجهد، ويقوموا بنصيبهم من العمل.

إن الله عز وجل كما فرّق المنافع على الأرض فرّق المواهب على أفراد نوع الإنسان، ولن يعطي الأمم ما في أرضها من منافعها، ولا ما في هوائها ومائها من عجائب إلا إذا برزت كنوز عقول أبناء البلاد جميعها، وهذه الكنوز لن نعثر عليها إلا بالتعليم، والتعليم هو الذي يفتح لكل عقل نوع المواهب التي كمنت فيه، وهذه المواهب المختلفة موازية للمنافع المختلفات في أنواع الأرض والماء والهواء، والله هو الولي الحميد.

قال: هذه الخريطة حق. ولقد رأيت في قبر نبي الله هود نقوشاً بعيني رأسي لا أعرف أنا ولا غيري منها شيئاً، فإذا رحل بعض علماء الآثار إلى تلك البلاد والوصول إليها سهل، فإن ذلك يفتح باباً للعلم واسعاً، فعسى أن يقوم أرباب العلم بهذا ليرفعوا النقاب عن وجه التاريخ. اهـ.

فانظر إلى العجب العجاب! وكيف نرى قبر هود عليه السلام في واد قريب من قبر صالح عليه السلام، وانظر كيف نرى وادي المسيلة الذي فيه قبر هود متصلاً بوادي سر الذي فيه قبر صالح، وكيف نسمع أنهم في تلك البلاد يشدون الرحال لزيارة قبري النبيين كما يزور أهل بلادنا قبر السيد أحمد البدوي رضي الله تعالى عنه .

تذكرة

إن صديقنا الأستاذ الشيخ محمد منصور أحد علماء شبين القناطر هو الذي أشرت له آنفاً، وأنه زار قبر هود عليه السلام، ولم يكن ورد لي منه خطاب في هذا المعنى، ولما كتبت ما تقدم ورد خطابه، وقد جاء فيه بعد الديباجة ما نصه بالحرف الواحد :

وأما مسألة سيدنا هود وسيدنا صالح عليهما الصلاة والسلام فهاك حديثهما : في اليوم الثامن عشر من شهر جمادى الثانية سنة ١٣٤٥ هجرية خرجت بصحبة فقيد الشرق والإسلام السيد محمد بن عقيل الحضرمي وابن عمه السيد أحمد بن عمر السري الشهير لإدارة التعليم بحضرموت، وهي بلاد الأحقاف الوارد ذكرها في القرآن الكريم، وقد وصلنا إليها في اليوم السادس من شهر شعبان لتلك السنة المذكورة، وحينما وصلنا إليها وجدنا البلاد في هياج وحركة غير عادية، ونظراً لأني غريب عن البلاد رأيت عدم الإسراع بالسؤال عن سبب هذه الحركة، ولم ألبث إلا يسيراً حتى حضر عندي في الجناح المعدّ لسكناي من سراي أحمد بن عمر الفخمة السيد أحمد بن عمر نفسه، وعرض علي التوجّه لزيارة قبر سيدنا هود عليه السلام، فعلمت حينئذ السر في هذه الحركة، وباستمرار حديثي مع حضرة السيد تبين لي أن البلاد من أقصاها إلى أقصاها تتوجه إلى شعب هود عليه السلام في اليوم العاشر من شهر شعبان كل سنة لأداء هذه الزيارة، والليلة الختامية لهذه الزيارة هي ليلة النصف من شهر شعبان، ولهم هناك مراسيم اعتادها السادة العلويون بحضرموت، وهناك بقبر هود عليه السلام صخرة عظيمة جداً يسمونها الناقة، وفي صباح ليلة النصف من شعبان يبكرون قافلين إلى بلادهم، واعتقاد أن هذا قبر هود عليه السلام متواتر عن سكان البلاد قبل الإسلام، وكذا هناك قبر سيدنا صالح عليه السلام، وهو مشهور شهرة قبر هود، غير أن اعتناء أهالي البلاد بزيارة سيدنا صالح أقل من اعتنائها بزيارة هود .

هذا ما يتعلق بوجود هذين القبرين ببلاد حضرموت التي هي بلاد الأحقاف، إني رأيت ما تقدم بعيني رأسي وشاهدته مع مئات الألوف من أهالي البلاد، وإذا كان هناك شك في أن ببلاد العرب بلدة تسمى « مكة » توارث الناس علمها جيلاً بعد جيل جاهلية وإسلاماً، فليصح أن يوجد من يشكّ في أن ببلاد الأحقاف التي هي حضرموت قبري هود وصالح عليهما الصلاة والسلام .

محمد منصور

تحريراً في ٢٧ أغسطس سنة ١٩٣١م

تم تفسير سورة « الأحقاف » .

تفسير سورة محمد صلى الله عليه وسلم

هي مدنية إلا آية:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ ﴾

آياتها ٣٨،نزلت بعد الحديد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ

مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا
فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ
مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟
زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ
فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ
وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ
أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ
ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ
لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ
أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ
لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ
يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى
قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ
وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ
وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ
مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟
ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟
وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن
يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ
وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ
هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ
وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

هذه السورة قسمان : القسم الأول : في تفسير البسملة . القسم الثاني : في تفسير السورة كلها .

القسم الأول:في تفسير البسملة

كتب قبيل فجر يوم الاثنين وفي صباح يوم الثلاثاء ٢٣و٢٤ مارس سنة ١٩٣١م

قبيل فجر يوم الاثنين بنحو ساعتين وأنا أفكر في البسملة في أول سورة « محمد » صلى الله عليه وسلم وأقول في نفسي : إن هذه السورة تمت بصلة إلى سورة « التوبة » ، فكلاهما فيها القتال ، وإذا كانت « التوبة » تركت فيها البسملة فهذه تقرب منها ، فتلك تركت فيها البسملة ، وهذه فيها أكثر من عشرين آية فحواها الغضب لا الرحمة :

(١) على الكافرين الصادّين عن سبيل الله فحكم عليهم بالضلال .

(٢) التابعين للباطل .

(٣) وقد أمر المؤمنون بضرب أعناقهم إذا لقوهم .

(٤) وهكذا حكم الله عليهم بالتعس وضلال الأعمال .

(٥) ووصفهم بكراهية الدين المحبطة للأعمال .

(٦) وذكرهم بهلاك من قبلهم .

(٧) وتبرأ من موالاتهم .

(٨) وجعلهم في مرتبة الأنعام ، ونهايتهم جهنم .

(٩) وهم لا نصير لهم من عذاب الله .

(١٠) وهم قد طبع الله على قلوبهم .

(١١) وهدّدهم بيوم القيامة وعذاب النار .

(١٢) وحكم عليهم باللعنة والصمم والعمى .

(١٣) وأن قلوبهم عليها أقفالها .

(١٤) وأنهم تابعون للشيطان .

(١٥) وهم خائنون يوالون الأعداء .

(١٦) وإذا ماتوا ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم .

(١٧) لأنهم يكرهون رضوان الله ويتبعون ما أسخطه .

(١٨) وهكذا وصف قلوبهم بالمرض .

(١٩) وأعمالهم تحبط .

(٢٠) وإذا ماتوا فلا مغفرة لهم .

وهكذا ، فهذه السورة مع قلة آياتها مشحونة بالغضب ، فأين الرحمة فيها حتى تبتدأ بالبسملة؟

وبينما أنا أفكر في هذه المعاني إذ خيل إلي أني خارج القاهرة في جو فسيح والنسمات تهب ، وكأني بناموستين تتكلمان كما يتكلم الناس فيما بينهم ، وإحدى الناموستين اسمها « باسا » والثانية اسمها « ساسا » .

ذكرى أيام الصبا في الحقل
وكيف كنت أفهم أصوات الناموس إذ ذاك

ولما أخذتا تتكلمان لم أكن لأميز كلامهما، ولا أفهم خطابهما، ولكن في أثناء ذلك تذكرت ما اتفق لي وأنا طفل، إذ كنت أذهب مع والدي إلى الحقل وفيه الذرة ليلاً، وأسمع أصوات الناموس، وكان يخيل إلي إذ ذاك معان غامضة محزنة، ملخصها أن هذه الدنيا غامضة لا يفهمها عقلي، ولا أدري أسرارها، ولا عجائبها، ولا أعرف لها آخر، وهذه المعاني كانت تخطر لي فعلاً من امتداد أصوات الناموس، وهو امتداد محزن في تلك الظلمات، فهذا الامتداد الذي لا آخر له مع كونه محزناً غير شارح للصدور؛ كان يحدث في قلبي حزناً، وهذا الحزن ينصرف إلى أني أجهل آخر هذا العالم وأسراره.

خواطري في أصوات الناموس الآن

فلما تذكرت ما جال بخاطري أيام الصبا عند سماع أصوات الناموس قلت في نفسي: عسى أن يكون ما أقفل عليّ في الصبا عند سماع أصوات هذا الناموس يفتح عليّ الآن، ولا جرم أن الله علم أحد ابني آدم بما بعث له غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يدفن أخاه، فما تم هذا الخاطر لي حتى سمعت «باسا» تقول لـ«ساسا» بلسان فصيح واضح: فلنعلم هذا الشيخ حتى يكون لنا ثواب ما نعلمه:

تفسير آية: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾[النمل: ٨٢]
بغير ما فسرت به سابقاً

فقالت ساسا: وهل أنت دابة الأرض التي يرسلها الله للناس إذا وقع القول عليهم فتكلمهم أن الناس كانوا لا يؤمنون بآيات الله. فقالت باسا: أتنكرين علي رأيي وتسخرين مني، فلأكن أنا ومثلي من دواب الأرض معلمات لهذا الشيخ، وليكن هو ناقلاً عنا، ولتتضح الحقائق الآن لأولي الألباب، أتظنين أن الكتب السماوية يكتفى فيها بظواهر ألفاظها، هل فهمت معنى قوله تعالى: ﴿ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾[النمل: ٨٢]، وكيف يكون الإيقان؟ وأي إيقان يأتي من أجل دابة تتكلم وتكتب على وجه الكافر كافر وعلى وجه المؤمن مؤمن، أليست هذه من خوارق العادات، أولم يتذكر المسلمون قصة سحرة فرعون إذ سجدوا لما عرفوا علماً لموسى فوق علم السحر فأبطله، فأما بنو إسرائيل فإن خوارق العادات التي ظهرت على يد موسى كفروا بها لما رأوا عجل السامري، وهل ذكرت هذه القصة في القرآن إلا لأجل أن يفهم المسلمون ـ الذين منهم هذا الشيخ الذي نحن نعلمه الآن وهو ينشره لهم ـ آية: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾[الإسراء: ٥٩].

فإذا كانت ناقة ثمود وأمثالها لا ترسل إلا تخويفاً، وإذا كان آخر الأنبياء قيل له: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[العنكبوت: ٥١] فهل بعد هذا كله تظنين أن اليقين الذي عيرت الدابة الناس بعدم اتصافهم به يأتي لهم بمجرد نطقها؟ وهل هي إلا من خوارق العادات المرسلات للتخويف؟ وهل يكون اليقين إلا بالتعقل الذي يفهم من آية: ﴿ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[الجاثية: ٤]، فدراسة عجائب كل دابة مبثوثة

في الأرض هي التي بها يكون اليقين، أما نطق دابة مثلي ومثلك أمام هذا الشيخ وأمام جميع الناس في صحوهم، لا في الحال البرزخية كما هي الحال الآن مع هذا الشيخ، فإن هذه ليست من العجائب، فليست تورث اليقين، بل تكون آية يؤمن بها الناس، ولا يقين إلا بالتعقل والفهم، وعليه تكون الآية لها ظاهرها ورمزها، فهي كناية، والكناية لفظ أطلق وأريد به لازم معناه، فظاهرها أن دابة تنطق في آخر الزمان، وهذا الظاهر لا غبار عليه ولا إنكار له، وباطنها هو الحقيقة وهو الوقوف على أسرار التكوين لا سيما في عالم الحيوان والإنسان المشار إليه في أكثر آيات القرآن، وفي السجود، إذ يقول المصلي: سجد وجهي للذي خلقه وصوّره وشقّ سمعه وبصره الخ، فدراسة هذه العجائب في جسم الإنسان والحيوان هي التي تورث اليقين، وهذا معنى: ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾[العلق: ١٩]، بخلاف ذكر الركوع فليس فيه إلا خشوع السمع والبصر والمخ، وليس فيه التعرض لخلق هذه الأعضاء، فالراكع عابد، والساجد مفكر موقن إذا أدرك وعلم ما يقوله، وهذا هو الذي تقوله دابة الأرض ﴿ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾[النمل: ٨٢] وهذا نظير قول نصيب يمدح عبد العزيز:

لعبد العزيز على قومه وغيرهم نعم غامره
فبابك أرحب أبوابهم ودارك مأهولة عامره

إلى أن قال:

وكلبك آنس بالزائريـ ـن من الأم بالابنة الزائره

فهاهنا مدح نصيب عبد العزيز بأن كلبه أكثر إيناساً بزائري عبد العزيز من إيناس الأم بابنتها التي هي أحب الناس إليها حين تزورها، وهذا المعنى ليس مقصوداً لأنه لا قيمة له، ولكن القيمة راجعة لما يلزمه، وذلك أنه يلزم من ذلك أن الكلب الذي اعتاد أن ينبح كل طارق قد اعتاد الزائرين فكفّ عن النباح، بل زاد على ذلك أنه أنس بهم، ومقتضى ذلك كله الوصف بالكرم، إذن المعنى الظاهري غير مقصود والمعنى الكنائي هو المقصود، وهذا تجده في جميع الكنايات، فليكن هكذا في القرآن وهو أفصح من كلام العرب، فيقال إن وجود دابة في آخر الزمان تكلم الناس لا مانع منه، كما لا مانع يمنع من وجود كلب لعبد العزيز يأنس بالزائرين، ولكن المعنى المقصود ليس وجود الدابة، كما أن المعنى المقصود في كلام نصيب ليس وجود الكلب الذي يأنس بالزائرين، بل المقصود أن يكون هناك يقين للناس بدراسة العلوم العقلية ـ كما كان المقصود في كلام نصيب الوصف بالكرم ـ ومن أهمها علم كل دابة في الأرض ودراستها، فهذه هي التي تشدّ إليها الرحال.

فلما سمعت هذا القول وأنا مغشي عليّ عجبت كل العجب! ولم أجد حجة أردّ بها هذا الكلام عن نفسي، لأني إذا قلت: من أنكر الدابة ربما فسق أو كفر، يكون الجواب: لا إنكار بل الباب مفتوح لها ولا مانع من كلامها. وإن قلت: نكتفي بنطق الدابة في آخر الزمان ونؤمن بذلك ونسكت، أجد أن ذكر الإيقان في الآية يمنعني من ذلك، ولكني قلت في نفسي إن هذه المحاورة العجيبة ترد عليّ أنا لأني ذكرت في كتاب الأرواح ـ وذكرت نظيره عند تفسير هذه الآية في سورة «النمل» ـ أن هذه الآية تشير إلى علم الأرواح، وجعلت ذلك مجازاً وانشرح صدري لذلك، فإن الأرواح الآن قد خاطبت

الناس، فهي أشبه بدابة ظهرت من الأرض كلمت الناس، وأطلت هناك في هذا المعنى. فهذا الذي قالته الناموستان الآن يغاير ما كتبته سابقاً، وهذا والله أحق بالقرآن مما كتبته في تفسير الآية هناك، فما كدت أتم هذا الخاطر حتى سمعت ساسا تقول لباسا: أتظنين أن هذا الشيخ يأنس بكلامك كما أنس كلب عبد العزيز بالزائرين. فقالت: نعم. يأنس به ويسرّه. فقالت: إنه فسر الآية بغير ذلك. فقالت: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾[يوسف: ٧٦] ففي هذه الليلة جاء له فتوح أكمل ونفسه تقبل الفتوح، وهل للعلم آخر؟ فقالت ساسا لباسا: ماذا تقولين فيما يروى أن الدابة تكتب على وجه الكافر كافر وعلى وجه المؤمن مؤمن، أو كما روى. فقالت باسا: هذا أمر اليوم ظاهر، إن هذا الزمان قد ظهرت فيه هذه البوادر إن الذين يدرسون هذه العلوم قسمان: قسم يدرسها ويريد معرفة الحقائق وعنده ذكاء، فهؤلاء يصلون لليقين. والقسم الآخر يدرسها لأجل نيل الشهادة فحسب ويكتفي بالظواهر، ولما كانت الأمم اليوم تعشق الحرية ظهر القسم الأول أمام الثاني بأنه موقن مصدق بعقله، والقسم الآخر منكر لأنه لم يصل للحقائق، والقسمان الآن يظهران ما في نفوسهما أمام الناس، فالأول قد كتب على وجهه مؤمن، والثاني قد كتب عليه كافر، وهذه الكتابة كتابة واضحة معنوية، بحيث إن الرجل اليوم يجلس مع كثير من متعلمي هذه العلوم فيجدهم لا يعقلون لها نتيجة إلا الشهادة التي أخذوها من المدارس، والذي أوقعهم في ذلك الدراسة الظاهرة، لأنها توجب الشك، وإذا جلس مع من تعمقوا في الدراسة يجدهم موقنين، والسبب هو نفس علم الطبيعة، وأهمها الدواب، وهذا هو قوله تعالى: ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[البقرة: ٢٦]، فإذا كان القرآن يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وهو كلام الله؛ فهكذا فعل الله وهو الطبيعة بها الضلال لقوم والهدى لآخرين، وظهور الضلال والهدى للناس اليوم أوضح من الكتابة على الوجوه. فقالت ساسا لباسا: ما الذي نأمر به هذا الشيخ حتى يقوم من مجلسنا هذا بفائدة تامة في معنى الرحمة العامة في ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، لأنه إلى الآن لم يصل للمقصود، ذلك لأنه يفكر في معنى الرحمة ويريد تطبيقها على ما في السورة من القتال والكفر الخ.

وهذه المقدمات كلها نتيجتها أمر واحد وهو أن كلام الدواب أمثالنا لبني آدم ليس المقصود منه إلا معرفة الحقائق، ولكن أين هي الحقائق التي يأخذها الناس منا على يد هذا الشيخ الماثل أمامنا. فقالت باسا: أولاً ليبين هل الموت عدل؟ ثانياً ليدرس أمثالنا من الحشرات، ثالثاً ليفكر في تراكم القاذورات في المادة وفي الأخلاق، ثم قالتا معاً: نودّعك الله، وطارتا، فما كادتا تطيران حتى زالت غشيتي ورجعت إلى حسي، ومن عجب أن هذه كلها لم تتجاوز ٢٠ ثانية. مهنا رأيت نفسي مغمورة في النور، مبتهجة منشرحة، وتجلت لي معان كانت مخبوءة مغطاة على عقلي، وكأن هذه الجملة التي نطقت بها باسا كشفت الغطاء عن عقلي، وأحسست بتجليات لم أنل نظيرها فيما سبق.

فلأوضح ما خطر لي الآن في ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في بيان هل الموت عدل.

الفصل الثاني: في دراسة بعض الحشرات.

الفصل الثالث: في دراسة تراكم القاذورات المادية التي بسببها تخلق الحشرات الضارات بالإنسان، وفي تراكم القاذورات الخلقية كالقوة الغضبية في الإنسان التي بانحرافها تصبح شجى في حلق الإنسانية وضرراً كالحقد والحسد اللذين بهما يكون القتل والفتك بالنفوس الإنسانية بالحرب كفتك الحشرات بأنواع الحمى والطاعون الخ.

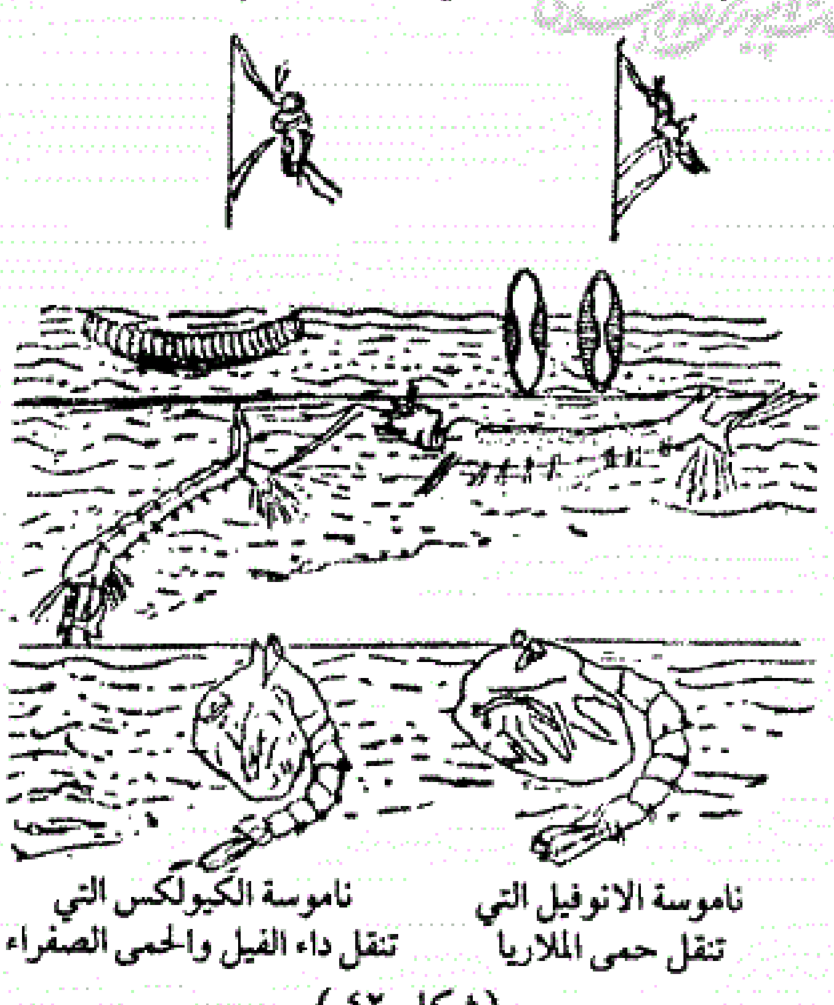
الفصل الأول: في بيان هل الموت عدل

لقد ثبت في الحكمة أن الموت رحمة وعدل، والدليل على ذلك أن الناس إذا عاشوا على الأرض آلاف آلاف السنين هم ودوابهم ونباتهم فمن أين يأكلون؟ وإذا أكلوا الموجود فأين خلود الحيّ؟ وإذا أجزنا أن يختلّ نظام الملك فيخلد الإنسان، فأما الحيوان والنبات فيكونان كما نراهما اليوم، فهل تسع الأرض بني آدم ألف سنة فقط فضلاً عن آلاف الآلاف، وذلك كله فضلاً عن الخلود لو صحّ للأحياء لكان ذلك بخلاً في الطبيعة وقصوراً، لأن تعاقب الأجيال في الحياة أكثر كرماً ورحمة لو كان جيل واحد باقياً إلى الأبد، إذن الموت عدل ورحمة، والخلود في الأرض جور يصحبه قلة الرحمة. انتهى الفصل الأول.

الفصل الثاني: في دراسة بعض الحشرات

كما خلق الله الماء في الأرض لحياة الحيوان وهكذا النبات وغيرهما؛ خلق الغضب في نحو الإنسان ليدافع به من يهلكه، فهو إذن للمحافظة عليه، فأما الماء والنبات فإنهما خلقا ليعيش بهما الحيوان، وهذا الخلق الإنساني إذا انحرف عن الجادة كما نراه في العرب الجاهلية الأولى بأن يكون لا ضابط له؛ فإنه يكون سبباً في التفرق والانحلال، وتكون هذه القوة سبباً في إهلاك الأمم بدل أن تكون للمحافظة عليها، فهذا أشبه بتعفن المواد الأرضية، فتكون القاذورات والمزابل والأوساخ، فيخلق في كل ذلك حشرات تكون في تلك القاذورات وفي البرك والمستنقعات، وهذه الحشرات توجب الهلاك والموت الزؤام، وهذا واضح فيما تقدم في هذا التفسير، فهاهنا حشرات تعيش على القاذورات أصبحت سبب إعدام الحيوان، بعد أن كانت نفس المادة عند اعتدالها سبب الحياة، كما أن الأخلاق السبعية المنحرفة عن الجادة بالطمع والحقد والحسد أصبحت سبب هلاك الأمم وذهاب العمران. ومن أمثلة الحشرات الناموس والبراغيث.

(انظر شكل ٤٢ وشكل ٤٣).



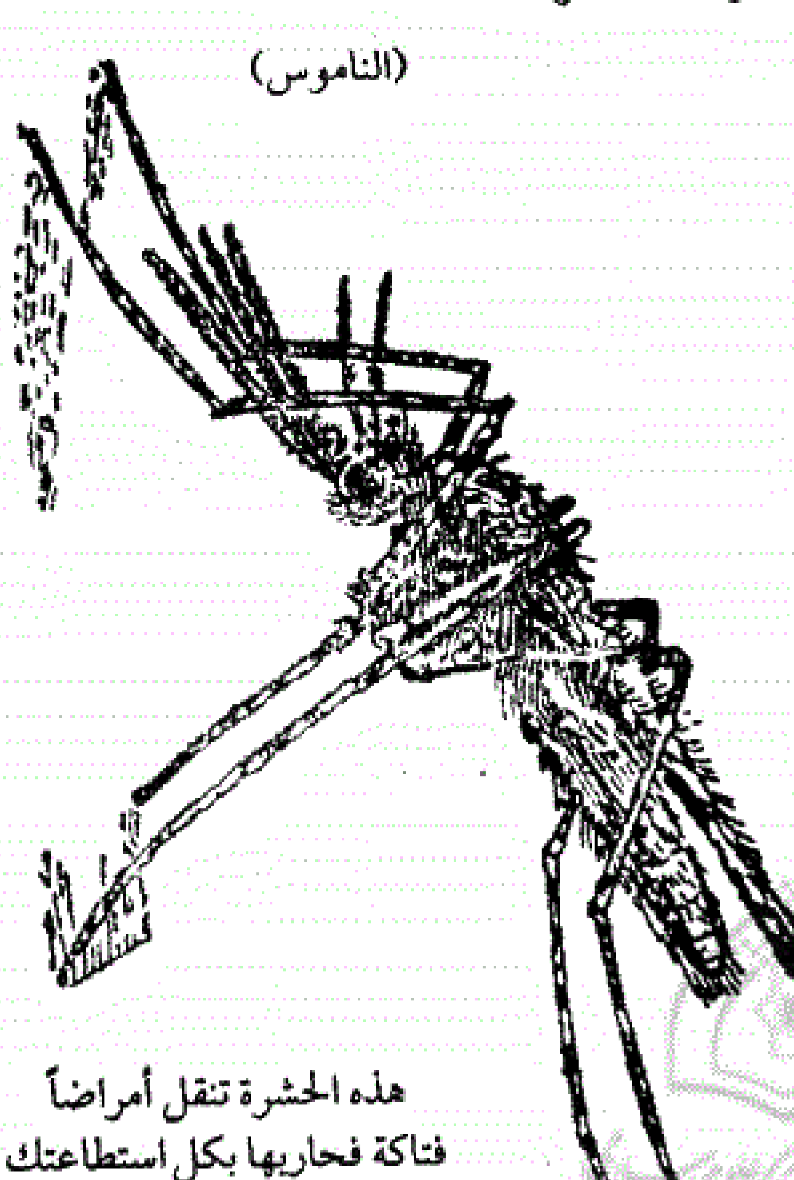
ناموسة الانوفيل التي تنقل حمى الملاريا — ناموسة الكيولكس التي تنقل داء الفيل والحمى الصفراء

(شكل ٤٢)

شكل يبين حياة الناموسة في أطوارها المختلفة

الكلام على الناموس

تاريخ حياة البعوضة « الناموسة »



هذه الحشرة تنقل أمراضاً فتاكة فحاربها بكل استطاعتك

(شكل ٤٣)

تضع الأنثى بيضها فوق سطح المياه الراكدة كالبرك والآبار، والأوعية التي تحتوي على مياه لا تتغير، وبعد يومين أو ثلاثة تفقس هذه البويضة علقة « دودة صغيرة » تعيش مدة أسبوع على الأقل في الماء، ثم يتغير شكلها جملة مرات إلى أن تصير شرنقة، وأخيراً تخرج منها البعوضة « الناموسة ». وتكفي مدة ثمانية أو عشرة أيام في جو حار كجو القطر المصري من تاريخ وضع البويضة لتكوين بعوضة « ناموسة » كاملة. والناموسة تبيض جملة مرات مدة حياتها، وفي كل مرة تضع مئات من البويضات، وزد على ذلك أن الأنثى تبيض بعد تمام تكوينها بعشرة أيام فقط، فتصور العدد الهائل لذرية ناموسة واحدة، خصوصاً إذا علمت أن الناموسة تعيش عدة شهور.

الأمراض التي تنقلها البعوضة « الناموسة »

الملاريا، حمى الدنج، داء الفيل، الحمى الصفراء، كيفية نقل العدوى

عندما تلدغ الناموسة شخصاً مصاباً بأحد هذه الأمراض تمتص جزءاً من دمه ومعه جرثومة المرض التي يتم نموها في جسمها، فكل شخص تلدغه بعد ذلك تلقحه ببعض هذه الجراثيم فيصاب بالمرض، فهي بذلك تنقل المرض من شخص واحد إلى عدة أشخاص، وجميع هذه الأمراض الخطرة لا تنقل إلا بواسطة أنواع من الناموس، وهناك أنواع متعددة من الناموس تنقل الأمراض المختلفة.

كيف نتقي شر البعوض « الناموس »

إذا وجدت في جهة يكثر فيها الناموس فاتبع النصائح الآتية:

(١) أبذل كل الجهد في عدم تمكين الناموس من الدخول في منزلك بتغطية جميع النوافذ والشبابيك بسلك أو قماش رفيع.

(٢) من الضروري أن تنام داخل ناموسية مع وضع أطراف الناموسية تحت الفراش بإحكام.

(٣) وجه كل عنايتك لإعدام جميع الناموس الذي يدخل منزلك.

(٤) لا تترك مياهاً راكدة في براميل، أو أزيار، أو في أواني أخرى دون تغييرها مرتين على الأقل كل أسبوع.

(٥) إذا لم يمكنك حفظ نفسك من لدغ الناموس فمن الضروري لوقايتك من الإصابة بالملاريا أن تأخذ حبوب الكينين قبل الغروب وبالليل حسب إرشاد الطبيب.

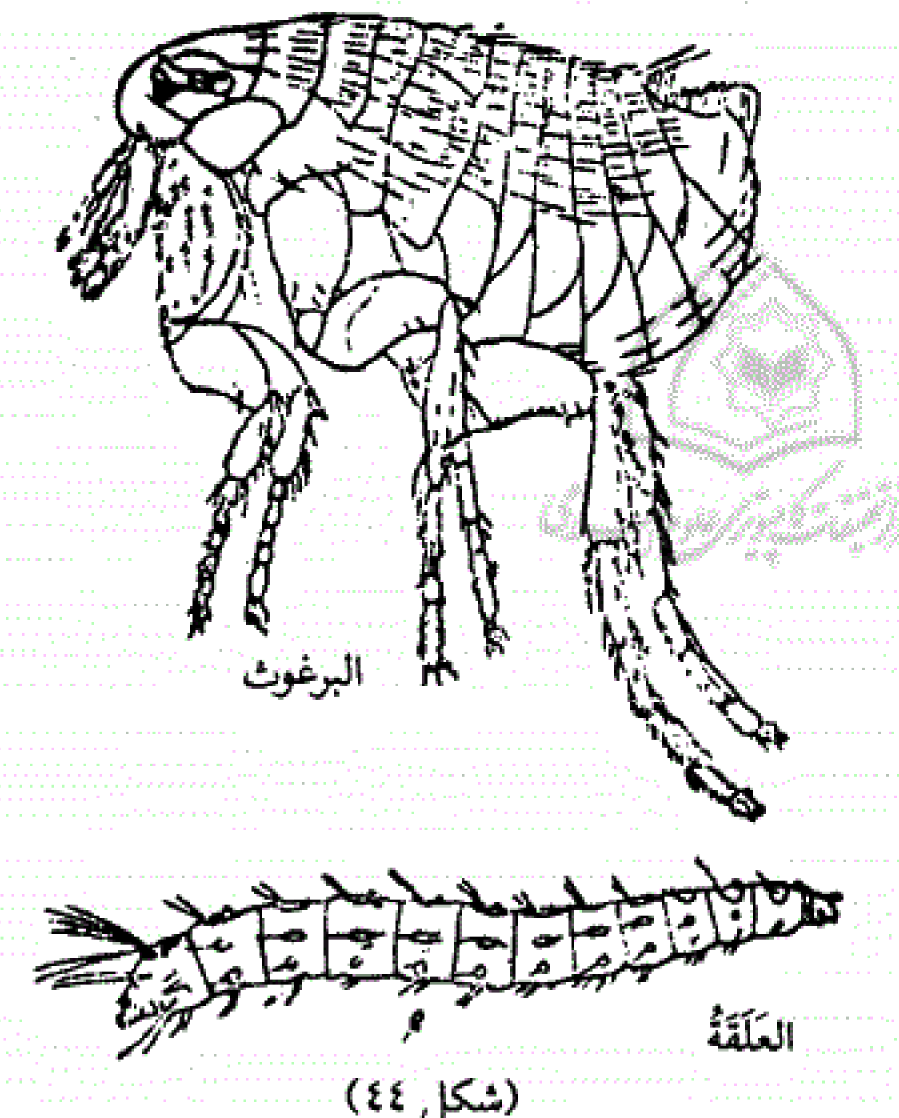
ماذا تفعل لو أصبت بالملاريا

(١) إذا أصبت بقشعريرة، أو حمى، فاعرض نفسك على الطبيب في الحال.

(٢) وبعد شفائك من الحمى يجب أن تستمر على تعاطي الكينين لمدة ثلاثة أشهر على الأقل بالمقادير التي يقررها الطبيب.

(٣) اتبع الإرشادات المذكورة سابقاً لكيلا تمكن الناموس من نقل العدوى للآخرين.

الكلام على البرغوث



(شكل ٤٤)

البرغوث: يختلف البرغوث عن بقية الحشرات الطفيلية كالبق والقمل بأنه منبسط من الجنب، وهو على عدة أنواع، بعضها يعيش على دم الحيوانات ذوات الثدي، والبعض الآخر على دم الطيور.

تاريخ حياته: تبيض الأنثى بويضات صغيرة بيضاوية الشكل، وتفقس في مدة من يومين إلى عشرة أيام علقة «دودة صغيرة» بيضاء اللون ومغطاة بشعر قصير يساعدها على الحركة، وتعيش هذه العلقة في القاذورات على المواد العضوية الموجودة بها، وبعد مدة تنسج هذه العلقة شرنقة حولها وتتغير إلى يرقة، ومن اليرقة تتكون الحشرة التامة. وتمكث هذه الحشرة بعد تكوينها داخل الشرنقة مدة طويلة حتى تشعر بحركة حولها فتقفز من شرنقتها.

طبائع البرغوث: يجد البرغوث صعوبة في المشي على الأسطح الملساء، ولذلك يتحرك عليها بالقفز، ومن طبائعه أنه يكره ضوء الشمس، ويفضل المعيشة في الأجزاء الدافئة، وله قدرة عظيمة على القفز، وقد شوهد يقفز إلى مسافة ١٨ سنتيمتراً، ولو كانت للإنسان هذه القدرة بالنسبة لجسمه لأمكن لشخص طوله ١٨٩ سنتيمتراً أن يقفز ٢٧٤ متراً تقريباً. ويختلف البرغوث

في معيشته باختلاف أنواعه، فالبعض لا يعيش إلا على نوع واحد من الحيوانات، وبعضها ينتقل من حيوان إلى آخر، والبعض لا يترك الحيوان الذي يعيش عليه، والبعض الآخر لا يعلق بالحيوان إلا عندما يحتاج إلى غذاء.

البرغوث والأمراض: البرغوث ينقل الطاعون بواسطة لدغاته، وقد وجد أخيراً أن طريقة نقله لهذا المرض هي كالآتي:

(١) عندما يلدغ البرغوث شخصاً مصاباً بالطاعون يمتص جزءاً من دمه ومعه ميكروبات هذا المرض، فتنمو هذه الميكروبات وتتكاثر في معدة البرغوث، وينسد طرفها المعوي، فإذا ما لدغ البرغوث شخصاً سليماً تقايأ جزءاً مما في معدته وبه الميكروبات داخل جسم الشخص، فيصاب بالمرض.

(٢) وفضلاً عن ذلك فإن الميكروبات التي في أمعاء البرغوث يخرج بعضها من إفرازه، فعند حك الجلد وقت لدغته يتسبب الشخص في تلقيح نفسه بواسطة هذه الإفرازات.

ومعلوم أن الطاعون من أشد الأمراض خطراً وفتكاً بالناس، وهو على ثلاثة أنواع:

(١) الطاعون الدملي. (٢) الطاعون التسممي. (٣) الطاعون الرئوي.

وأعراض هذا المرض ارتفاع شديد في درجة الحرارة تصحبه آلام في الرأس والأطراف وإنهاك شديد للقوى، وتغور عينا المريض، ويغطى لسانه بطبقة بيضاء، ثم تجف هذه الطبقة وتصبح قاتمة اللون، وكذلك تتكون هذه الطبقة على الأسنان والشفتين والأنف، ويزداد ضعف المريض في أيام قلائل، وقد ينتهي المرض بموته غالباً بين اليوم الثالث والخامس من ابتدائه. وفي ثلاثة أرباع الحالات تظهر أعراض المرض بتضخم في إحدى الغدد كالغدد الموجودة بين الفخذ والبطن من الأمام، أو الرقبة، أو تحت الإبط، وهذا النوع يسمى بالطاعون الدملي. أما في الطاعون التسممي فلا يظهر هذا التضخم في الغدد، وقد ينتهي الطاعون الدملي أو التسممي بإصابة الرئة بميكروب الطاعون، فينشأ عن ذلك الطاعون الرئوي، وهذا النوع الأخير شديد الخطر جداً، ولا ينجو منه أحد تقريباً متى أصيب به، وهو ينتقل من شخص إلى آخر مباشرة بواسطة الرذاذ الذي يتطاير في الهواء متى سعل المصاب أو بصق، وترى في الجدول التالي بعض إحصاءات عن إصابات الطاعون في الست سنوات الأخيرة:

السنة	عدد الإصابات	عدد الوفيات	نسبة الوفيات إلى الإصابات في المائة
١٩٢٢	٤٨٧	٢٢٨	٤٧
١٩٢٣	١٥١٩	٧٢٥	٤٩
١٩٢٤	٣٧٣	١٩٣	٥٢
١٩٢٥	١٣٨	٧٧	٥٤
١٩٢٦	١٥٤	٧٣	٤٩
١٩٢٧	٧٨	٣٥	٤٤

ومن هذا البيان يتضح أن متوسط نسبة الوفيات إلى الإصابات في السنوات المذكورة هي ٤٩ في المائة ، أي أن عدد الوفيات كان نصف عدد الإصابات تقريباً ، وهذه نسبة عالية جداً تشهد بخطورة هذا المرض وشدة فتكه .

طرق إبادة البرغوث :

(١) حافظ على النظافة التامة في المنزل بكنسه وغسل أرضيته جيداً ، فإن بويضات البرغوث توضع وتفقس في القاذورات وتعيش عليها .

(٢) سد جميع الشقوق الموجودة في أرضية الغرف ، فإن سقوط القاذورات فيها يجعلها بؤرة يتوالد فيها البرغوث .

(٣) احترس من وجود الحيوانات الأليفة كالكلاب والقطط داخل المنزل ، فإنها تحمل البرغوث ، وإذا كان لا بد من وجودها فيجب تنظيفها جيداً على الدوام ، ويرش على جسمها مسحوق النفتالين بكثرة.

(٤) اعمل على إبادة الفيران لأنها تنقل إليك البرغوث .

(٥) لا تجعل بمنزلك أو بجواره محلات لتربية الطيور ، أو إسطبلات ، لأن البرغوث يتوالد فيها بكثرة .

(٦) ضع كمية من مسحوق النفتالين داخل دواليب الملابس .

(٧) لا تضع سريرك ملاصقاً للحائط ، ولا تترك الغطاء يتدلى إلى الأرض ، وادهن أرجل السرير بزيت اليوكالبتوس ، ورش مقداراً منه أيضاً بين المراتب .

(٨) اعمل على إبادة البرغوث برش المزيج الآتي في الأماكن التي يكثر بها بعد كنسها : ١٠٠ مقدار من زيت البترول « الغاز » . ١٥ مقداراً من الماء . ٣ مقادير من الصابون السائل . ويحضر هذا المزيج بطريقة مخصوصة ، ويمكن طلبه جاهزاً من مصلحة الصحة .

وبهذا تم الكلام على الفصل الثاني في دراسة حشرتي الناموس والبرغوث ، والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثالث
في تراكم القاذورات المادية والخلقية

وهذا الفصل هو المقصود

اعلم أيها الذكي أن في عالم الإنسان قوة غضبية تقدم شرحها ، وهي لم تخلق فيه إلا ليحافظ بها على حياته وكيانه وشرفه ، فإذا حاد عن الصراط استعملها في الإضرار بغيره ، ومن أعجب العجب أننا نجد هنا قاعدة واحدة لا محيص عنها ، ولا تغيير لها ، وهي أن الخير سواء أكان في المعنويات أو في الماديات ، إذا انحرف عن الجادة تحول إلى شر ، فالماء والهواء والمادة الأرضية ، وحرارة الشمس ، كل هذه إذا اعتدلت كانت سبب الحياة ، وإذا لم تعتدل كانت سبب الهلاك . ومن ذلك جميع القاذورات والبرك والمستنقعات ، فهذه كانت سبب انحراف هذه المواد عن الصراط السويّ ، فهي لو تركت وشأنها تملأ الجو عفونة فيهلك الإنسان والحيوان ، ونظير ذلك في أخلاق الإنسان إذا تركت قوته الغضبية وشأنها كانت سبباً في إهلاك الناس بعضهم بعضاً ، كما في الأمم الوحشية والعرب الجاهلية الأولى .

فهذه هي القاعدة، إن ما به الصلاح من الأمور المادية ومن الأمور المعنوية عند انحرافه يكون به الفساد، وهناك قاعدة أخرى، وهو أن هذا الذي به الفساد يمكن تحويله إلى صلاح بتلطف حسن صنعة ولذلك مثالان:

المثال الأول: في الأمور المادية

وذلك أن العفونات والقاذورات خلقت فيها الحشرات كالناموس والبراغيث وغيرها من الحشرات ليتحول الشر الذي في تلك المواد إلى أجسام حية يقلّ شرّها، فبدل أن يكون الجو كله متعفناً فيهلك الإنسان والحيوان؛ يحصر الهلاك في أحياء عندهم استعداد خاص:

(١) للملاريا، وحمى الدنج، وداء الفيل، والحمى الصفراء مثلاً بسبب الناموس.

(٢) أو للطاعون الدملي، والطاعون التسممي، والطاعون الرئوي مثلاً بسبب الفيران.

(٣) أو لمرض الدفتريا بسبب حيوان دقيق خاص بها.

(٤) أو لمرض الرهقان «الانكلستوما» بسبب حيوان دقيق جداً، فيكون ألم فوق المعدة وفقر دم في الجسم، وآلام في الرأس، وضربات في القلب.

(٥) أو للحمى التيفودية، أو الكوليرا، أو الرمد الصديدي، أو الإسهال في الأطفال، والدوسنطاريا، وذلك بسبب الذباب، وقد تكون الحمى التيفودية وحدها بسبب الميكروب الذي يكون في جسم المصاب بهذه الحمى ويفرز مع البول أثناء المرض، فإذا وصل ذلك إلى ماء أو غيره ولوّث به نبات مثلاً انتقل منه إلى أناس آخرين.

(٦) أو للطاعون، أو داء «الاسبيروكينا» المصحوب باليرقان والنزيف، أو المرض بالدودة الخيطية، أو بالديدان المعوية، أو للحمى المتسببة عن عض الفار، كل ذلك بسبب الفيران.

(٧) أو للتدرن، أو السل، وذلك بسبب ميكروب خاص يكون في ألبان البقر المريضة بالتدرن، وفي المواد البلغمية التي يبصقها المرضى بهذا الداء وهكذا.

فهذه الأمراض كلها الناجمة عن الفيران والبراغيث والذباب والناموس والميكروبات جاءت تلطيفاً وتهذيباً للهلاك العام، والوباء الشامل، إن رطوبات الأرض لو بقيت فيها ولم تصبح في أجسام هذه الحشرات لمات الأحياء، فأما هذه الأحياء فإنها حصرت الهلاك في قوم مختصين وتركت بقية الإنسان والحيوان. فهذه الجنود المجندة من الحشرات إن هم إلا شرطة وجند من جنود الله، بسببهم ينظف الجو، وبسببهم ينقذ النفوس الضعيفة من هذه الأرض فيخرجون منها، لأنهم مستعدون لذلك، كما تحبس الحكومات كل من يضر بالمصلحة العامة. وبهذا انتهى المثال الأول.

المثال الثاني: في الأمور المعنوية

جلّ الله الذي جعل الأمور المادية أمثلة ونظائر للأمور المعنوية، وبهذا سهل علينا العلم، سبحانك اللهم، إن الطبيب وعلماء الحيوان لا يهمهم إلا ما يختص بعلمهم، فالأول لا علاقة له إلا بصحة الأجسام فتكون دراسته لهذه الحشرات وغيرها راجعة إلى ما يخص الأجسام صحة ومرضاً، والثاني لا يهتم إلا بالأوصاف الخاصة لكل حيوان وبه يمتاز عما سواه، ولكن نحن الآن في الدراسة

العامة والنظام البديع الجميل، نظرنا أعم وفكرنا لا يقف في منطقة واحدة، إننا نفسر كتاب الله، وكتاب الله عام وملكه واسع، إذن تكون دائرة أبحاثنا عامة، فنحمدك اللهم على نعمة العلم، ونعمة الحكمة، ونعمة الفهم.

هاهي ذه المواد العفنة المشاهدة تهلك الحرث والنسل، وهانحن أولاء نراك حولّتها بالحشرات إلى إصلاح الجو بقدر الإمكان، وحصرت الضرر في طوائف خاصة عندهم استعداد لذلك المرض، ذلك لأنه ثبت في الفصل الأول أن الموت لا بد منه لكل حيّ، إذ لو لم يكن موت لكان ذلك خطلاً وبخلاً ووقوفاً بالمادة في عمل واحد، وهي تصلح لآلاف آلاف من الأعمال، وإذا ثبت أن الموت لا بد منه وجب أن ننظر فيه أيهجم على الأحياء بلا استعداد، أم يأتي لهم بالتدريج، والعقل يقضي أن التدريج أفضل الطرق، وذلك هو الحاصل بتلك الأمراض التي سببتها تلك الحشرات والميكروبات أي الحيوانات الدقيقة. إذن الضرر في المواد العفنة حوّل إلى جنود من الحشرات وغيرها تحدث أمراضاً في أناس مستعدين لذلك. وهذا حكمة عجيبة أيضاً، فلننظر الأمور المعنوية، فإننا نجدها مثل الأمور المادية سواء بسواء، ألم تر أن الأخلاق السبعية السائدة في أمم العرب في الصحراء أيام الجاهلية جاء الإسلام فحوّل ذلك الشر إلى خير، حرّضهم على الجهاد، وذلك الجهاد لإحداث أمم تكون متفقة المشارب في صلاتها، وفي صيامها، وفي حجها، وغير ذلك، فهناك أناس وقفوا في وجوههم وصدّوهم عن نشر الدين وهم الكفار فأمر الله بقتلهم. إذن الشر الذي حصل بطغيان القوة السبعية في العرب الجاهلية حوّل إلى الخير بإحداث أمة تكون على مشرب واحد، وبعد أن كان القتل يحدث بلا نظام صار هنا ذلك القتل بنظام، بحيث لا يتعدى الذين يقاومون الإصلاح بالسلام العام «دين الإسلام».

إذن ضرر الأخلاق السبعية الغضبية انحصر في فئة مستعدة للهلاك وهم الكافرون، كما انحصر ضرر المواد القذرة في أناس مخصوصين وهم المستعدون للأمراض المختلفة.

نحمدك اللهم على نعمة العلم، بهذا عرفنا معنى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في أول سورة «محمد» صلى الله عليه وسلم، فالسورة وإن كان فيها القتل وضرب الرقاب، والذم والتشنيع على قوم مختصين، فهذا القتل نعمة، فليس كل قتل مذموماً، بل هذا القتل ممدوح، ذلك لأنه أولاً: ثبت أن الموت لا بد منه، وإلا كان نظام العالم فاسداً. ثانياً: إن الأمراض المختلفة إنّما وجدت لتكون مقدمات للموت، وهي موجبات للاستعداد له ولرقيّ عقول بعلم الطب، ولا رقي للطب إلا برقيّ العلوم الطبيعية كلها. ثالثاً: إن هذه الأمراض الناشئة من الحشرات اللاتي عاشت على القاذورات ضررها أقل من الضرر الذي يحدث لو تركت القاذورات بلا حشرات فيها، فهناك يكون موت كل حيوان وإنسان. رابعاً: إن الأخلاق السبعية لو تركت وشأنها عمّ ضررها. خامساً: إن هذه الأخلاق بسبب الدين انحصر ضررها في أقوام يستحقون الهلاك، لأنهم يسارعون إلى مقاومة السلام العام. إذن ما ذكر في السورة من القتل وذم الكافرين من أنواع الرحمات، وهذا معنى قوله تعالى في أول السورة: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وهذا من أسرار أن سورة «الفتح» جاءت في الترتيب عقب سورة «محمد» صلى الله عليه وسلم، لأن الفتح ليس فتح مكة فحسب، بل هو الفتح العام بنشر المعارف

والعلوم والإسلام، ألا ترى أن العالم الإنساني لم يخط هـذه الخطوات إلا بعد انتشار الإسلام، فبه هجم المسلمون على أوروبا من جهة الأندلس أولاً ومن جهة القسطنطينية آخراً، فاستيقظ القوم وارتقوا بالعلوم والمعارف، وهكذا الحروب الصليبية فتحت عيونهم للعلوم والرقيّ، وبهذا انتشر البخار والبرق وصار الناس كأنهم في قرية واحدة الآن، كل ذلك سر الفتح الآتي بالسورة بعدها.

نور على نور

اللهم إني أحمدك وأشكرك على نعمة العلم، بيدك الميزان في الدنيا والآخرة، تخفض وترفع.

في صباح يوم الأربعاء في التاريخ المذكور ما كدت أكتب في هذه المقالات هذه الجملة: ومن طبائع البرغوث أنه يكره ضوء الشمس، ويفضل المعيشة في الأجزاء الدافئة، أقول: ما كدت أقرؤها حتى تجلت لي أمم الإسلام قديماً وحديثاً، تجلت لي بهيئة علمية حكمية سياسية.

سبحانك اللهم وبحمدك، هذه الجملة أنارت لي السبيل، ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ [الزمر: ٦٩]. الله عز وجل هو الحكيم العليم، هو الذي خلق الشمس وأرسل ضوءها إلينا، إني لما قرأت هذه الجملة خيلت لي أضواء الشمس كأنها منتشرة صباحاً بالشكل الجميل المقبول البديع، انتشر هذا الضوء فماذا جرى؟ أصلح أحوال الحيوان، ولكن البرغوث توارى عنها، فماذا يقول البرغوث حين يتوارى عن الشمس؟ يقول: أيها الناس الأحياء في هذه الأرض، أنا جند من جنود ربكم، هو الذي خلقني لأعيش في الظلام، لماذا؟ لأنه علم أن هذا الإنسان لا يأكل إلا إذا آلمه الجوع، ولا يقرب الأنثى إلا إذا آلمه الشبق، ولا يتحرك حركة إلا بسبب يقوم بنفسه، وعلم أن الناس يجهلون النعم كنعمة الشمس، ونعمة الشمس تحفظ صحة الناس والحيوان، فبعض الناس لا يتعرضون لها، فلذلك أمرني الله أن من ترك الشمس من الناس وجاء عندي ولم يتعرض لها أنقل له الطاعون الدملي، والطاعون التسممي، والطاعون الرئوي، إن الله أمرني أن أعيش في الظلمة حتى ألدغ وأضر من جهل ضوء الشمس ومنافعها. اهـ.

هذا ما يقوله البرغوث قولاً عاماً. وأنا أقول: إن هذا الدرس أعطاني فكرة عامة في سياسة أمم الإسلام، ذلك أن الشمس شمسان: الشمس المحسوسة، وشمس العلوم، وخطأ في الشمس المحسوسة أسهل ألف مرة من خطأ في الشمس العلمية، لأن الحسيات أقل قيمة من المعنويات آلاف الآلاف المرات، فهاك أمثلة لذلك:

أولاً: كانت أمتي المصرية قبل نحو مائة سنة أمة محكومة بالترك، وقد بقيت حافظة أخلاقها البدوية، الفطرية والإسلامية، ولكنهم جهلاء، لأن الترك لا يعلمون الأمم، فلما جاء لهم محمد علي باشا وجدهم نحو مليونين من النفوس، ففتح لهم بلاد العرب، وجعل لمصر مجداً ذلك أنه وجد في الأمة النخوة والشرف والإباء. وبعبارة أخرى: وجد فيهم الشمس المعنوية وهي الأخلاق الفطرية.

ثانياً: إن أوروبا لما وجدته أيقظ أمم العرب خافت أن يرجع الإسلام لسابق عهده بالعرب، فيجرف أوروبا مرة أخرى، فخضت شوكته وحصرته في مصر، وانحصر الارتقاء في الأمور المادية، ودخلت العلوم من أوروبا مع المفاسد، فزاد عدد المصريين اليوم حتى بلغ ١٤ مليوناً، أي ما يقرب من

أضعاف عددهم لما دخل محمد علي باشا ، فالشمس المعنوية الأدبية اختفت عن كثير من طبقة المتعلمين وبهم لا بغيرهم تمكن الأجانب من البلاد سياسة وتجارة وفسوقاً وخمراً ومداينة للناس ، فلا ترى متعلماً إلا وهو مغمور في محال الأجانب ، فإذا كنا اليوم أضعافنا أيام محمد علي باشا وقد طغت براغيث الأمم علينا ، فما ذلك إلا لاختفائنا عن شمس الفضائل التي اتصف بها آباؤنا منذ قرن ، وإن لم يكونوا على علم كالذي عمنا اليوم ، إذن القاعدة واحدة ، من اختفوا عن الشمس المحسوسة فلم تطهر ثيابهم وأماكنهم يصابون بأمراض البراغيث ، وهكذا من أصيبوا بمرض الجهل أو الفسوق يصابون ببراغيث الأمم الأرضية .

خيال المؤلف

إن الله تجلى فوق عرشه على الأمم في الدنيا قبل الآخرة ، وهو الآن يعاقب المقصرين قبل يوم الدين ، تجلى الله على الأمم كلها الآن ، وجميع قصص القرآن تشهد أن العذاب يقع على الأمم في الدنيا قبل الآخرة ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارًا ﴾[نوح : ٢٥] ، فالغرق عذاب دنيوي .

هذه أمم العرب التي أنا منهم وهم يقرؤون هذا الكتاب هم يعلمون أن أجدادهم نشروا الدين والعلم ، لكن آباءهم تركوا العلوم ، وتركوا المواهب في الأرض وفي السماء ، فماذا يفعل الله بهم؟ اختصهم وحدهم بدخول التليان طرابلس وأرتيره ، وبدخول الإنجليز مصر وفلسطين والعراق والجزائر ومراكش وتونس وسوريا ، وبدخول الإسبانيين مراكش ، وذلك على قاعدة ضوء الشمس والبراغيث فإن القاعدة لا تتغير ، والله واحد ونظامه واحد ، مع أن اليابان والصين استقلتا ، والترك والفرس كذلك ، والهند اليوم قائمة على ساق وقدم لطلب الاستقلال ، فلم تبق أمة مقسمة بين الدول إلا أمة العرب ، وما ذلك إلا للجهل الذي عمّ بلاد الإسلام .

هذا البحر الميت في بلاد فلسطين ، ذلك الذي جهله الترك الذين كانوا يحكمون البلاد ، وجهله العرب المحكومون ، وما كانوا يظنون أن هذا البحر المتصف بالموت يكون مصدراً لحياة أمم ، ألا قاتل الله الجهالة العمياء . يا الله إنك عدل وحكيم ، نام المسلمون وجهلوا نعم بلادهم ، فماذا جزاؤهم إلا أن تملك أرضهم لغيرهم ، لقد شرط الإنجليز على الشركة التي أعطتها استخراج الثروة من البحر الميت أن تعطيها بعد عشر سنين أي سنة ١٩٤٠م (١٠,٠٠٠) طن من البوتاس النقي ، ثم بعد ذلك يستخرجون في كل سنة (٥٠,٠٠٠) طن ، وهذا البحر ٧٠ ميلاً في الطول ، وعشرة أميال في العرض ، وعمقه ١٣١٠ أقدام ، فهو أوطأ عن سطح البحر الأبيض وألفين وستمائة قدم وقدمين ، وقد ارتفع ماؤه من سنة ١٨٨٣ إلى سنة ١٩٣٠م (٢٨٠) قدماً ويقدّرون البوتاس فيه بمقدار (٢,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) طناً من البوتاس ، و٩٨٠ ألف ألف طن من المغنيزيا ، و١١٩٠٠ ألف ألف طن من كلورات الصودا ، و٢٢٠ ألف مليون طن من كلورات المغنيزيا ، وستة آلاف مليون طن من كلورات الكلس ، ولقد دهش الجنرال اللنبي حين استحوذ على هذا البحر ، إذ قال جملته المأثورة : حقاً هذه هي مروج الذهب ، وهي تقدّر بنحو ١٠ مليون مليون و٢٠٠ ألف مليون دولاراً . وهذا يعادل ٣٠٠ مرة من قيمة مجموع ديون بريطانيا العظمى كلها في الحرب للولاية المتحدة ، ومن عجب أن المهندسين الألمان قرروا أنه إذا أحدث

نفق بين البحر الأبيض وبين نهر الأردن، وهذه لها علاقة بأمر البحر الميت، لأن نهر الأردن يصب فيه، ومتى صب في البحر الأبيض وتحول عن البحر الميت يمكن استخراج قوة كهربائية منه تعادل مليون، يمكن توزيعها لإدارة دولاب الأعمال في كل وقت في فلسطين وسوريا وتركيا أيضاً. ومن هذا القبيل:

مشروع القطارة بالقطر المصري

جاء في جريدة الأهرام يوم ٢٣ مارس سنة ١٩٣١م ما نصه: إن القطارة موضع منخفض في الجزء الشمالي من صحراء ليبيا في منتصف المسافة بين وادي النيل والحدود الغربية، ويبلغ متوسط عمقه ٦٠ متراً، وأوطأ نقطة فيه منخفض عن سطح البحر ١٣٤ متراً، وهي أوطأ نقطة كشفت حتى الآن في قارة أفريقيا، وهذا الكشف ظهر سنة ١٩٢٧م.

ومن أعجب العجب أن نفس انخفاض هذا المكان عن سطح البحر الأبيض المتوسط يعتبر ثروة عظيمة لمصر وهي بلد إسلامية، والذي كشفها رجل إنجليزي يسمى الدكتور «بول» مدير مساحة الصحاري، فهذه الأرض تريد الحكومة المصرية الآن ببلادنا أن تحفر نفقاً يمر به المياه من البحر الأبيض إلى القطارة، والماء حتماً ينزل في ذلك البحر بسرعة شديدة، وهذه البحيرة دائمة التبخير، فكلما صب فيها ماء ارتفع بالتبخر، ويكون ذلك بحساب دقيق، فيستمر جري الماء، وهذا الجري المنحدر السريع الانحدار يولد قوة كهربائية عظيمة، مع بقاء منسوب الماء على حال واحدة، وجعل منسوب سطح البحيرة خمسين تحت الصفر، إذن يتولد قوة مقدارها ١٨٠ ألف كيلو واط عند مخرج المحطة، وتريد الحكومة أن تحفر في العشرين كيلومتر المجاورة لشاطئ البحر ترعة عادية تحفر في الأرض الجيرية، ثم تدخل المياه في نفق طوله (٤٥) كيلومتراً، وقطره (١٧) متراً، حتى تصل إلى المنخفض، ويقول رجال الحكومة: إن الوجه البحري لا يستعمل أكثر من (١٨٠) ألف كيلو واط، واقترحوا أن يجعل هناك ثلاثة أنفاق: أولاً نفق (٦٠) ألف كيلو واط، ثم في سنة ١٩٧٠ يبنى نفق ثان لنحو (٦٠) ألف كيلو واط أخرى، وفي بداية القرن الحادي عشر يبدأ في النفق الثالث، والنفق الأول يحتاج إلى (١٧) مليوناً ونصف مليون جنيه.

فمشروع القطارة بالقطر المصري أمر كان مخبوءاً، وهل يظهره إلا العلم، والفرنجة هم الذين كشفوه، فواجب على المسلمين أن يكونوا قدوة في البحث لإسعاد الأمم، لا أن يعيشوا ذيولاً للأمم التي تعلمت من آبائهم، إن الإنسان كله مسؤول عن السعادة العامة، والعلم هو الذي يقوم بإسعادها في الدنيا والآخرة. اهـ.

هذه بعض النعم التي كانت مخبوءة في بلاد الإسلام والمسلمون يجهلونها، فقال الله للأمم حولها: أيتها الأمم افتحي بلاد العرب، وخذي نعمي، إنهم قوم جهلاء، ووالله ليس هذا خاصاً بفلسطين، إن بلاد نجد والحجاز وبلاد اليمن وغيرها مملوءة بكنوز أكثر من هذه، ولكن جهل هذه الأمم هو الذي أوجب عقابها على ما فرطت، كما يمرض الإنسان بالحمى أو الجدري، وهو لا يدري سبب المرض، فالأمم الإسلامية لا يغفر لها الجهل كما لا يغفر للمريض الجهل بسبب علته، اللهم إن عذاب الدنيا بالجهل، وعذاب الآخرة بالجهل.

ومن هذا القبيل أن مصلحة الصحة المصرية أعلنت عند كتابة هذه الأسطر يوم ٢٤ مارس سنة ١٩٣١ في جريدة الأهرام أن عدد المصابين بالبلهارسيا في مصر، وهو مرض البول، يبلغون نحو ٧٠ في المائة من مجموع السكان، أي نحو ١٠ مليون نسمة، وأن عدد المصابين بالأنكلستوما وثعابين البطن يبلغون نصف سكان القطر المصري، وأن الذين لم يصابوا بتلك الأمراض سدس مجموع السكان، فهل هؤلاء المرضى في بلادنا منع الله المرض عنهم لجهلهم قانون الصحة، كلا. هكذا في أمور السياسة فإذا جهل أبناء العرب منافع بلادهم، وما خزن الله فيهم من القوى والقدر فإن الله سريع الحساب، يعاقبهم اليوم في الدنيا بقهرهم وذلهم، وإذا وقفت الأمة العربية وغير العربية جامدة أمام حكامها إذا لم يصلحوا للحكم ولم يستخرجوا من أرضهم كنوزها، ولا من عقولهم قواها المخزونة، ولم ينشطوا الأمم في قواها الحيوية، وتركوا هؤلاء الحكام فلم ينصحوهم؛ فإن الله عز وجل يذل المحكومين والحاكمين، لأنه لا يغفر الجهل، وهناك لا ينفع المحكومين أن يقولوا: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾[الأحزاب: ٦٧]، فيقول الله لهم: كلكم مسؤولون، أنسيتم الأمراض تدخل الأبدان وإن جهل المرضى، أنسيتم عقولكم، أنسيتم أن لي جنداً أسلطهم على كل جاهل بنعمتي أيها المسلمون.

وفي اعتقادي أن المسلمين عموماً وأبناء العرب سينهضون نهضة لم يسمح بها الدهر قريباً، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. كتب يوم الأربعاء ٢٥ مارس سنة ١٩٣١م.

وإلى هنا تم الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة، والحمد لله رب العالمين.

القسم الثاني: في تقسيم السورة

هذه السورة ثلاثة مقاصد

المقصد الأول: في وصف الكافر والمؤمن، من أول السورة إلى قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ﴾[الآية: ٣].

المقصد الثاني: في جزاء القسمين في الدنيا والآخرة من خذلان ونصر، ونار وجنة، من قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾[الآية: ٤] إلى قوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴾[الآية: ١٩].

المقصد الثالث: وعيد وتهديد للمنافقين والمرتدين، من قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞ ﴾[الآية: ٢٠] إلى آخر السورة.

التفسير اللفظي للسورة كلها

المقصد الأول

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ صرفوا الناس عن الدخول في الإسلام، وهذا يستلزم أنهم هم امتنعوا عن الدخول فيه، ﴿ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ أبطلها سواء أكانت تلك الأعمال حسنة كصلة الأرحام وإطعام الطعام، وعمارة المسجد الحرام، أم كانت سيئة كالكيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم والصد عن سبيل الله، فالأولى يبطل ثوابها، والثانية يبطل أثرها، ويمحو نتائجها، وهكذا كل من

قاوم عملاً شريفاً صادقاً فإن مآله الخذلان، كما يقال في العصر الحاضر: من كان مع الحقيقة أو ضدّها قوّاها، فالمعارض لها كالمنتصر، لأنه بالمعارضة يزيد المنتصرين لها قوة، فالحق هو الغالب ولكن في العاقبة. وقد ظهر ذلك في كثير من الدول، فالروس والفرس والأفغان والترك، وبلاد بولونيا وهكذا، كل هذه الأمم كانت مستعبدة فأخرجها الله من الذل إلى العز، وذلك بصبر رجالها والعاقبة للصابرين كل بحسبه، ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ من المهاجرين والأنصار، وأهل الكتاب المؤمنين وغيرهم، وخصص القرآن المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم بالذكر تعظيماً لشأن القرآن، ودلالة على أنه لا يتم الإيمان إلا به، فقال: ﴿ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﴾ وإنّما خصه بالذكر لأنه ناسخ الأديان كلها، ولا يرد عليه نسخ، وهذا قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾، وقوله: ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ خبر الذين آمنوا، أي: سترها الإيمان وعملهم الصالح ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ حالهم في الدين والدنيا بالتوفيق والتأييد، كما جعل أعمال الكافرين ضالة ضائعة ليس لها من يتقبلها ويثيب عليها كالضالة من الإبل. ثم علل ما تقدم من ضلال الأولين، وإصلاح حال الآخرين، بقاعدة عامة تبرهن على ذلك فقال: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ المذكور من الإضلال وإصلاح البال ﴿ بِأَنَّ ﴾ أي بسبب أن ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ يقول الله: إنّما أضللت الكافرين، وأصلحت حال المؤمنين، لأن هذين الفريقين جريا على القاعدة العامة، وهي أن الحق منصور، والباطل مخذول، تلك قاعدة عامة في الدين والدنيا، فالصناعات المحكمة إنّما قبلها الناس وأثرى أهلها، لأنها جارية على النسق الحق، والطريق المستقيم، والقواعد العلمية الصادقة، وهكذا الزراعة المتقنة، والتجارة الجيدة، والسياسة المحكمة، كل من هذه تصح نتائجها، وتصدق ثمراتها، فأما الصناعات المرذولة، والتجارات المزجاة بضائعها، والأعمال المهملات، فلن يكون نصيبها إلا الضياع والبوار، لأن الباطل لا ثبات له، والله هو الحق فينصر الحق. ولما كان المسلمون في هذه العصور مهملين لمدنهم وصناعاتهم وهم عالة على أوروبا في حربهم وسياساتهم وتجاراتهم، ضلّ سعيهم، فأصبحوا تابعين لأوروبا سياسة وتجارة وإمارة، إلا من استيقظوا فاتبعوا الحق والصدق، ونشطوا كأهل الأناضول والفرس والأفغان، فأولئك الذين تنبهوا وعرفوا الحقائق، فقاموا من نومتهم، ونفضوا غبار الذل، وأخذوا يستنبطون الحيل لإحراز المجد، وارتقاء البلاد، فالقاعدة واحدة، فإن العلم الصحيح، والدين الصحيح، والصناعات الصحيحة، والآراء الصادقة، نتائجها السعادة، وبضدّها تتميز الأشياء. انظر أيها الذكي، انظر كيف كانت هذه القاعدة العامة. انظر كيف كانت كما تقدم في قوله تعالى: ﴿ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [إبراهيم: ٢٤] الخ، وقوله: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ [إبراهيم: ٢٦]، انظر كيف جعلها الله مثلاً، انظر كيف جعل كلمة التوحيد وكلمة الكفر كشجرة النخل وشجرة الحنظل، وثبات أحدهما وعدم ثبات الأخرى، أي أن القاعدة واحدة في الماديات والمعنويات، أي لا فرق بين معقول ومشاهد في الضلال والثبات، وانظر كيف يقول هنا: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي: مثل ذلك الضرب ﴿ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴾ بأن جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار، والإضلال مثلاً لخيبتهم، واتباع الحق مثلاً

للمؤمنين، وتكفير السيئات مثلاً لفوزهم، إن شأن القرآن أن يبين مزايا المقام الذي فيه ذكرى عامة، وموعظة تامة، وهذا المقام من أجلها وأعظمها، ضرب المثل بالباطل وبالحق كما ضرب المثل بالنخل وبالحنظل في سورة أخرى، كل ذلك يرمي لغرض واحد، ومقصد تام، ألا وهو الثبات وعدم الثبات. وبعبارة أخرى: إن الله خلق السماوات والأرض بالحق، على قوانين ثابتة منظمة، فكل ما قرب من الحق كان باقياً، وكل ما ابتعد عنه كان هالكاً على مقدار بعده، فرجال الجد والنشاط مؤيدون، ورجال الكسل والتواكل مخذولون، والمحققون في كل شيء محبوبون منصورون، وبضدّها تتميز الأشياء.

لطيفة

تذكر ما مرّ عليك في سورة «آل عمران» من ضرب أمثال خمسة من المخلوط المعدني، وكيف كان خلط المعدن بنظام يفيد فائدة تامة، فالنحاس الأحمر إذا صهر جزءان منه مع جزء من الخارصين تكوّن مخلوط معدني صلب هو النحاس الأصفر سهل الصنع لونه الصفرة، هكذا الرصاص لا يصلح لحروف الطبع إلا إذا خلط معه الأنتيمون بنسب خاصة، والمدافع لا يمكن صنعها من النحاس وحده، فإذا خلط معه القصدير بنسب معلومة حصل من المخلوط البرونز، وهو الذي تصنع منه المدافع. فهذه بعض الأمثلة على الحق وهو بعض الحق العام. قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [العنكبوت: ٤٤]، وهو النظام التام والقوانين الصادقة وضدها الباطل، فعلوم الهندسة التي بها صنع أهرام الجيزة ببلادنا المصرية على مقتضى دائرة الأرض حول الشمس حق مما به قامت السماوات والأرض، ولكنه لا يكون كالحق الأعظم وهو قوانين السيارات والثوابت ونظام الشموس والأقمار، فإن تلك القوانين بها ثبتت تلك العوالم ودامت، أما قوانين الأعمال الصناعية الأرضية فإنها تدوم على نسبة كمالها، وكل كمال في الأرض له أثره، فالجمال في الوجوه، وفي الأشجار، وفي الأزهار الذي هو عبارة عن التجانس والتشاكل والنسب الصادقة يحصل أثره في الرائين، ويكون الأثر في النفوس على مقدار الحقائق العلمية في الجميل من زهر وشجر وإنسان، وهكذا بقاء الأهرام المصنوع على نسب هندسية فلكية يكون على مقتضى ما وصل إليه العلم في التحقيق، وهكذا كل بناء، وكل صناعة، ولذلك ترى المباني التي صانعها جاهل لا تدوم بل تنقضّ، ومثل ما رأيت في المشاهدات تكون الأمور المعقولة، انظر إلى دين الإسلام كيف دام ١٣٥٠ سنة وهو باق لم يتزلزل، ذلك لأنه هو الحق، والحق يبقى، فإذا بقيت الكواكب لثباتها على الحق، وإذا بقي الهرم لبنائه على الحق، وإذا ثبت المدفع لصنعه على النسبة الحقة، هكذا ثبت القرآن ثلاثة عشر قرناً ونصف إلى الآن وإلى يوم القيامة على مقتضى حقيقته، هذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ﴾، ثم أبان ذلك فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾ أي: يبين أحوالهم. انتهى المقصد الأول من السورة.

المقصد الثاني

قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في المحاربة ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ أي: فاضربوا الرقاب ضرباً، لأن الرأس من أشرف أعضاء البدن، فإذا أبين عن البدن كان أسرع إلى الموت بخلاف غيره،

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ ﴾ أكثرتم قتلهم وأغلظتموه، من: الثخين، وهو: لغليظ ﴿ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ ﴾ فأسروهم واحفظوهم، والوثاق ـ بالفتح والكسر ـ ما يوثق به، ﴿ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ أي: فإما تمنون مناً أو تفدون فداء، أي: إنكم مخيرون بعد الأسر بين المنّ والإطلاق، وبين أخذ الفداء، فالذكر الحرّ المكلف إذا أسر يخيّر الإمام فيه بين القتل والمنّ والفداء والاسترقاق، والفداء إما بمال أو بأسارى المسلمين، وهذا مذهب الحسن وعطاء وأكثر الصحابة والعلماء والثوري والشافعي وأحمد وإسحاق. وقال أبو حنيفة: إن الآية منسوخة فلا فداء بمال ولا بغيره عنده، خيفة أن يعودوا حرباً للمسلمين. ثم ذكر غاية المجموع من الشدّ والمنّ والفداء فقال: ﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ﴾ آلاتها وأثقالها التي لا تقوم إلا بها كالسلاح والكراع، أي: حتى لا يبقى إلا مسلم أو مسالم، أي: هذه الأحكام جارية فيهم حتى لا يكون حرب مع المشركين بزوال شوكتهم، أو بنزول عيسى ابن مريم، فمتى زالت الشوكة أو نزل عيسى ابن مريم فلا حرب ولا أسر ولا قتال، ولقد تقدم في هذا التفسير أن كتابنا المنزل على نبينا صلى الله عليه وسلم يخبرنا أنه سيكون هناك يوم تجتمع فيه الأمم كلها على حال واحدة، ويكون بينهم مودة فربما قرب ذلك الوقت، وربما كانت الأمم اليوم مستعدة له، ألا ترى إلى المدافع والطيارات والغازات الخانقة والمعمية، كل تلك مهلكات، ولقد علمنا أن أهل ألمانيا اليوم قد اخترعوا من المهلكات ما لا تصدقه العقول، كأضواء ينصبونها فتصيب أهل لندن فتحرق بلاد الإنجليز في يوم ما، والأنوار في نفس برلين والله أعلم، كل ذلك إفراط في الهلاك، ويقال إن ألمانيا عندها غاز لو أطلقته في الجو لجعل الهواء كله مسموماً فيموت أهل الأرض قاطبة، ويموتون هم معهم، وكل هذه أقاويل لايدرى مدى صحتها، ولكن لا دخان بلا نار.

فالملخص من هذا كله أن الأمم قد أفرطت في المهلكات، فربما كان ذلك سيعود بالإفراط في السلم، لأن الشيء متى زاد عن حدّه انقلب إلى ضدّه، وربما كان هذا السلام أن يكون لكل أمة أعمال خاصة، ومجموع الأمم تكون لها جمعية تدبر شؤون المجموع، والطيارات والبرق «التلغراف» والمسرّة «التلفون» تجري بينهم لا يمتنع شرقي عن غربي، وتكون الأمم كلها أمة واحدة، نظاماً وحياة، كما ذكره الفارابي في كتاب «آراء أهل المدينة الفاضلة»، وكما ذكرته في كتابي «أين الإنسان» الذي سترى ملخصه إن شاء الله في سورة «الحجرات» قريباً بقلم الأستاذ ستتلانه الطلياني في مجلته باللغة الإيطالية، وهو مترجم بالعربية، لتعلم أن العقول في الأرض تتفاهم، مع أنه لا صلة بيني وبين أي إنسان في أوروبا. وسترى أن السلم ينشده كثير من العقلاء، ولقد حدث في ألمانيا مذهب البلشفية أي الأكثرية، وانتشر هذا المذهب في الروسيا، وهذا المذهب يقال إنه يجعل الناس كلاً في عمله الخاص به، والمجموع مسخر للمجموع، والتفصيل في الكتب لا يسعه هذا الكتاب، فربما كان ذلك مقدمة لمذاهب أخرى تكون منقحة مهذبة تجعل الناس كلهم إخواناً، وإذا كان المسلمون هم البادئين به كان أفضل لأنهم شهداء الله على خلقه، فيكون العالم كله إما مسلمين أو مسالمين، أي ليس بيننا وبينهم حرب، ولا ضرب، ولا قتال، فعلى المسلمين أن يجدّوا ليصلوا لذلك اليوم الذي لا ينزل عيسى إلا وقد استعد الناس له، ومستحيل أن ينزل عيسى على قوم مجرمين، فعلى المسلمين أن يستكملوا العلم

والعمل، والعدة الحسية والمعنوية، ليرقوا نفوسهم والأمم حولهم ويقودوها إلى السلام العام، هذا بعض أسرار كتابنا المقدس.

إن كتاب «أين الإنسان» ظهر لي قريباً أنه كله تفسير لآية «الحجرات» الآتية، فاعجب للقرآن! واعجب ألف مرة لهذه السورة التي ذكر فيها أن الحرب تضع أوزارها، بعد ما تقدم قريباً في سورة «الدخان»، والدخان هو الذي ظهر في الحرب الحاضرة، إنك تعجب الآن وستعجب ثم تعجب أني في هذا التفسير في بحر من العجب ومن القرآن، وما أدري ما يكون أثر هذه العجائب، وإني أوقن أنه يكون من أسباب سرعة الارتقاء للمسلمين. ثم إن الأمم ما دامت لم تصل إلى تلك الدرجة فعلى المسلمين أن يكونوا أقوى الأمم في العلوم والصناعات، ذلك هو الذي سيكون في مستقبل الزمان، بعد انتشار هذا التفسير وأمثاله من مؤلفات المسلمين في الشرق والغرب، والله هو الوليّ الحميد.

ثم اعلم أن الله جعل للسلم فوائد وللحرب فوائد، فالأمم ما دامت في حال الطفولة عقولها أشبه بعقول شاب مراهق لم يبلغ الحلم، بحيث لا يزال يقاتل الصبيان ويشاجرهم ويوقع الأذى بهم وهم يزيدون أذى، فإنها لا تزال في حرب كأهل أوروبا وأهل الشرق، فهذه الأمم حكم الله عليها بالحرب لتقوى الأبدان وترقى الصناعات وتنمو الأمم، فإن الحرب تشرح الصدور، وتوقظ الشعوب، وتفتح المغلق، وتيسر العسير، كما يقوله علماء الألمان، وكما قاله أرسطاطاليس للإسكندر: إن الراحة للأمم مضرة بهم، ولذلك يقولون: إذا أردت رقيّ أمة فاجعلها تخوض الحروب، فذلك يفتح لها باب السعادة، والأمم النائمة على فراش الراحة الوثير معرضة للزوال والهلاك. كل ذلك والأمم في حال الطفولة، فأما إذا كملت أخلاقها ومواهبها فإن نتائج السلم عندهم كنتائج الحرب عند من قبلهم، فكما يفرح الرجل في الأمم الحاضرة بغلبة الأعداء، وشفاء الغليل، ويجمع الرجال السلاح والكراع، هكذا سيكون فرح الأمم بمساعدة غيرها، وانشراح الصدور بظهور أمم جديدة تكافح معهم في الحياة مساوياً لفرح من قبلهم بالغلبة والانتصار على سواهم، ويكون كل فرد في الأمم المستقبلة أشبه بالأب يجري ويكدح لمساعدة أولاده، وهذا الكدح يحدث فيه فرحاً أشد من فرح المنتصر في ميادين القتال.

الأمم اليوم نصف كاملة تسعى لإسعاد نفسها وإهلاك غيرها، وسيأتي وقت تسعى فيه لإسعاد الجميع، ويكون الفرح أشد من الفرح بهزيمة الأعداء، ويكون جميع الناس كالأمهات والآباء، وإلى هذين الحالين الإنسانيين أشار الله هنا، فإلى حال الكمال أشار بقوله: ﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ وإلى حال النقص المشاهدة في الأمم وإلى حكمتها قال: الأمر ﴿ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ أي: لانتقم منهم بالاستئصال، ﴿ وَلَٰكِن ﴾ أمركم بالقتال ﴿ لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ أي: ليبلو المؤمنين بالكافرين بأن يجاهدوهم فتقوى أبدانهم، وتصح نفوسهم، وترقى عقولهم، وتنظم مدنهم، وتتحد كلمتهم، ويجتمع شملهم بما يرون من اتحاد عدوهم فيوجب اتحادهم، وترتقي الزراعة والتجارة والصناعة، وأحوال الأمة، والقضاء، وجميع العلوم، إذ لا يتم حرب ولا غلبة إلا بها، وهكذا أعداؤهم يرتقون في أمور الدنيا فتعظم المدن، ويختلطون بالمسلمين فيقرؤون كتبهم ويعرفون أحوالهم، وهذا رقي للنوع الإنساني، ثم الضعيف من الطرفين هالك، ويكون الرقي دائماً، هذا كله في حال النقص. أما في

حال الكمال فذلك حين يكون الناس كلهم كأسرة واحدة، وحالهم أرقى من حال هؤلاء الناقصين.
ثم أخذ يبين درجات الفريقين من حيث نتائج أعمالهم في الآخرة، فقال في فريق المؤمنين المجاهدين: ﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي: جاهدوا ﴿ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ فلن يضيعها، ﴿ سَيَهۡدِيهِمۡ ﴾ إلى الثواب أو يثبت هدايتهم ﴿ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ﴾ يرضي خصماءهم، ويقبل أعمالهم، ﴿ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ في الآخرة ويجعلها طيبة الرائحة بحيث يطيبها لهم، ويجعل لكل واحد جنة منفردة منفرزة عن الأخرى، بحيث تكون محددة معينة، ويهديه إليها بحيث لا يضل في طلبها، وذلك كله في الآخرة، أما في الدنيا فإنه يصفها لهم بالوصف الذي يشوّقهم إليها، ففي الدنيا وصف مشوق لها، وفي الآخرة طيب الرائحة والهداية إليها وتحديدها، هذه المعاني كلها حاصلة، وقد فسر بكل واحد منها قوله تعالى: ﴿ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ﴾ فـ« عرّفها » تحتمل المعاني المتقدمة، ولا جرم أن لكل امرئ في الدنيا عملاً خاصاً يستوجب حالاً في الآخرة لا يتعداه، كما يستوجب كل من نال شهادة في علم أو صناعة حالاً توازي شهادته في الحياة الدنيا والنظام العمراني، فإذا مات الإنسان وضع في مركزه وضعاً طبيعياً لا تكلف فيه، فيكون الناس في الآخرة أشبه بأنواع السمك في البحر الملح وأنواع الطير في جو السماء، فكما أن الطير في الجو لكل من أنواعه درجة في العلوّ لا يتعداها؛ هكذا لكل من الصالحين درجة في الآخرة لا يتعداها، بل يجد نفسه مقهوراً على البقاء فيها، وكما أن السمك منه ما هو قرب سطح الماء، ومنه ما وجد تحت سطح الماء بمائة قدم، أو ألف، أو آلاف، كما تقدم في هذا التفسير، فهكذا أهل السعير، ﴿ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾[الأنعام: ١٣٢]، وعلى هذا يكون التعريف هنا بمعنى التحديد والتمييز والاهتداء إليها. اهـ.

وقرئ: « والذين قاتلوا » بالبناء للمعلوم، أي: استشهدوا، وهذا جزاء المجاهدين في الآخرة، أما جزاؤهم في الدنيا فهو في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ ﴾ إن تنصروا دينه ورسوله ﴿ يَنصُرۡكُمۡ ﴾ على عدوكم ﴿ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ في القيام بحقوق الإسلام، ومجاهدة الكفار، هذا جزاء فريق المجاهدين، وأعقبه بجزاء الكافرين فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ مبتدأ ﴿ فَـ ﴾ تعسوا ﴿ تَعۡسٗا لَّهُمۡ ﴾ كما قيل للمجاهدين بتثبيت أقدامهم، قيل للكافرين تعساً، يقال للعاثر: تعساً إذا دعوا عليه ولم يريدوا قيامه، فإذا ثبت المجاهد في الحرب عثر الكافر وسقط ولم يقم من سقطته، وقوله: ﴿ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ مقابل لقوله في فريق المجاهدين: ﴿ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾، وبيّن سبب ذلك فقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ وهو القرآن، وقد تقدم في أول السورة أنه الحق من ربهم، ومن لم يتبع الحق الذي قامت عليه السماوات والأرض لم يثبت بل يسقط ويقال له تعساً، لأن الذي يبنى على الحقائق لا يزول، والذي يبنى على غير الحق زائل، لزوال أسه وعدم ثباته، وقوله: ﴿ فَأَحۡبَطَ ﴾ الله ﴿ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ مرتب على ما قبله، وتكراره للإشعار بذلك الترتيب، والإحباط الإبطال، فكل ما عملوه باطل مع عدم الإيمان الذي هو الأس، ثم إن المشاهدات المحسة لها آثار في النفوس ونتائج عند ذوي العقول إذا تدبروا فيها واعتبروا، فلذلك أمرهم الله بالنظر في أحوال الأمم السابقة ومشاهدة آثارها فقال: ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ من الأمم الماضية والقرون الخالية

الكافرة، وكأنه يقال: ماذا كان عاقبتهم؟ فأجاب: ﴿ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ يقال: دمره أهلكه، ودمر عليه إذا أهلك ما يختص به، أي: أهلك الله عليهم ما يختص بهم من مال وولد ونفس، وإذا رأوا ذلك في الأمم السابقة أفلا يعقلون أن ما جاز على أحد المثلين جاز على الآخر، فبطريق القياس التمثيلي يقال: إن الكافرين بمحمد صلى الله عليه وسلم يحصل لهم ما حصل للأمم قبلهم، وهذا قوله: ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾ أي: ولهم، فوضع الظاهر موضع المضمر، أي: لهم أمثال تلك العاقبة، أو العقوبة والهلكة، ثم أتى بسبب ما تقدم كله من عاقبة الفريقين فقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أي: ناصرهم على أعدائهم، ﴿ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ فيدفع عنهم العذاب، وأما قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ﴾[الأنعام: ٦٢] فمعناه المالك، وإنّما كان الله مولى الذين آمنوا لما تقدم أول السورة من أنهم آمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم، ومعلوم أن الله هو الحق وأنه خلق السماوات والأرض بالحق، فرجع الأمر إلى القاعدة العامة، أن الحق هو الموجب للنصر لأنه ثابت، ومنه جميع القواعد العلمية والصناعية لأنها مؤسسة على نظام الله الذي قامت به السماوات والأرض، والإسلام لما كان حقاً عاش وبقي في زمن عزّه وزمن ضعفه دلالة على أنه حق والحق له البقاء، ومن هذا القاعدة العامة في الدنيا، وهي أن الأمة التي اتحدت وجهتها ونظمت أعمالها تكون منصورة، وقد ينصر الأقلون إذا كانوا أشد إحكاماً، وإذا تساوت الطائفتان في الأحكام والعلم والعمل غلبت أكثرهما عدداً، إن الله جعل نظام العالم توحيد الوجهة، فالأمم التي وحدت وجهتها وانتظمت تغلب من هي أقلّ منها في ذلك، كل ذلك من قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾[النحل: ٣]. ولما كان المسلمون في أول أمرهم أكثر اتحاداً وأسرع إلى نشر الفضائل غلبوا مع قلتهم الأمم العظيمة، فلما قصدوا المال هزمتهم أقلّ الأمم، ولما انتظمت دول أوروبا وكثر اتحادها غلبوا المسلمين، لأنهم لم يقوموا بالحق كما يجب، فالإسلام حق ولكن نظام العالم الذي خلقنا فيه تجب دراسته، فإذا أغفلناه أغفلنا ما يطلبه الحق وهو القرآن، إذن تغلبنا الأمم، هذا هو الحكمة في قول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾[محمد: ٢]، فـ: ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ عنوان لذلك كله، ولما جاء دور ارتقاء المسلمين وخاضوا غمار الحرب في هذا الزمان نصروا في كل مكان، في الأناضول، في الفرس، في مراكش، في الأفغان، في الحجاز. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ ﴾ في الدنيا بشهواتها ولذاتها، ﴿ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ فليس لهم همة خارجة عن بطونهم وفروجهم، وهم ساهون لاهون عما يراد بهم في غد، فكما تأكل الأنعام في معالفها ومسارحها وهي غافلة عما هي بصدده من النحر والذبح؛ كذلك هؤلاء يأكلون ويتلذذون وهم غافلون عن عذاب النار، وهذا قوله: ﴿ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ منزل ومقام. ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ ﴾ أي: أخرجك أهلها ﴿ أَهْلَكْنَٰهُمْ ﴾ بأنواع العذاب ﴿ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ يدفع عنهم. ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ حجة من عنده نقلية كالقرآن، أو عقلية بنور العقل كالنبي والمؤمنين ﴿ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ﴾ بالشرك والمعاصي ﴿ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴾ في ذلك، والمراد كفار مكة الذين زين لهم الشيطان شركهم وضلالهم، واللفظ يعمهم وغيرهم.

﴿ مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ صفة الجنة العجيبة ﴿ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ أي: فيما قصصنا عليك صفتها العجيبة، فخبر « مثل » محذوف، وهو الجار والمجرور، ثم استأنف يشرح المثل فقال: ﴿ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ ﴾ يقال: أسن الماء أسناً، إذا تغير طعمه وريحه، ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ ﴾ كما تتغير ألبان الدنيا إلى الحموضة وغيرها ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ ﴾ تأنيث لذ، وهو اللذيذ ﴿ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ أي: ما هو إلا للتلذذ الخالص ليس معه ذهاب عقل، ولا صداع، ولا آفة من آفات الخمر ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ لم يخالطه الشمع وفضلات النحل ولم يمت فيه بعض نحلة كعسل الدنيا، بل هو خالص من الشوائب، وفي ذلك تمثيل لأشربة الجنة لذيذ مجردة من كل تنغيص ونقص مع استمرارها وكثرتها ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ وفي إعراب « مثل الجنة » وجه آخر، وهو أن يعرب مبتدأ خبره قوله: ﴿ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا ﴾ حاراً شديد الحرارة ﴿ فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ وهو في معنى الاستفهام الإنكاري، كقوله: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ أي: مثل الجنة التي وعد المتقون كمثل جزاء من هو خالد في النار؟ كلا، ليس مثله. وكأنه قيل: ليس من هو على بينة من ربه كما يتبع هواه. وكما لا تستوي الجنة والنار لا يستوي ذو البرهان وذو الهوى، ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾، بعد أن ذكر المؤمنين وجناتهم والكافرين ونارهم ذكر طائفة المنافقين الذين هم كالمؤمنين من وجه والكافرين من وجه، فقال: إنهم يستمعون إليك، فإذا خرجوا من مجلسك وقد تهاونوا بما سمعوا منك؛ قالوا لأولي العلم من الصحابة: ماذا قال الساعة؟ على جهة الاستهزاء، و« آنفاً » من أنف الشيء لما تقدم منه، مستعاراً من العضو المعروف، وهو ظرف بمعنى وقتاً مؤتنفاً، ويقال: ائتنفت الأمر، أي: ابتدأته، ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾.

قال مقاتل: كان صلى الله عليه وسلم يخطب ويعيب المنافقين، فإذا خرجوا من المسجد سألوا عبد الله بن مسعود استهزاء: ماذا قال محمد صلى الله عليه وسلم؟ قال ابن عباس: وقد سئلت فيمن سئل. ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ ﴾ بالإيمان واستماع القرآن ﴿ زَادَهُمْ ﴾ الله ﴿ هُدًى ﴾ أي: بصيرة وعلماً وشرح صدورهم ﴿ وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ أعانهم عليها، أو آتاهم جزاءها، ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ ﴾ أي: ينتظرون ﴿ أَن تَأْتِيَهُم ﴾ أي: إتيانها، وهذا بدل اشتمال من « الساعة »، ﴿ بَغْتَةً ﴾ فجأة ﴿ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ علاماتها، وهو مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، وانشقاق القمر، كما قال بعض المفسرين، والدخان، وقطع الأرحام، وقلة الكرام، وكثرة اللئام. ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾ أي: فأنى لهم، أي: كيف لهم ذكراهم إذا جاءتهم الساعة؟ أي: كيف يتذكرون إذا جاءتهم الساعة وهاهي ذه علاماتها قد ظهرت حيث لا تنفع الذكرى، ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ أي: إذا علمت سعادة المؤمنين، وعذاب الكافرين، فاثبت على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية، وإصلاح حال النفس باستكمالها وهضمها بالاستغفار من الذنب ـ ولا معنى لذنوب الأنبياء إلا أن يتركوا ما هو أفضل أو أولى ـ وتوجيهها إلى الاستغفار للأتباع، قال الله: ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ أي: لذنوبهم، ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ أي: متصرفكم ومنتشركم في الدنيا، ومصيركم إلى

الجنة أو إلى النار في الآخرة، فاتقوا الله واستغفروه. وسئل سفيان بن عيينة عن فضل العلم، فقال: ألم تسمع قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾، فأمر بالعمل بعد العلم. انتهى التفسير اللفظي للمقصد الثاني من السورة.

لطائف هذا المقصد:

(١) في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾[الآية: ١٠] الخ.

(٢) في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾[الآية: ١٢].

(٣) في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾[الآية: ١٥] الخ.

(٤) في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾[الآية: ١٨].

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾

جاء القرآن والأمة العربية غافلة عن النظر في الآثار البائدة، والأمم الهالكة، فكانوا يمرّون وهم معرضون، ويسافرون صيفاً وشتاء وهم غافلون، فبعثهم القرآن من مرقدهم، وقاموا بنوبتهم في نظام الجنس البشري. يقول الله: أغفلوا أفلم يسيروا في الأرض فينظروا، عيّرهم بالغفلة، وبكتهم على ترك السير في الأرض المصحوب بنظر العواقب المترتبة على الإهمال والغفلة، وحذرهم أن يصيبهم ما أصاب الأمم قبلهم، وقد جاء في أول السورة أن القرآن هو الحق من ربنا، وفي آية أخرى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾[النحل: ٣]، فكأنه يقول لهم: انظروا في الأمم البائدة، فكل أمة خالفت نظامنا، وجهلت صنعنا، وحادت عن صراطنا، أوردتها المتالف، وأذقتها المصاعب، وجعلتها عبرة للمعتبرين، هكذا كان السابقون، وهكذا يكون اللاحقون.

فيا ليت شعري أيّ عذر لمسلمي العصر الحاضر، وأيّ ذنب أقعدهم، وأيّ مصيبة حلت بربوعهم؟ ناموا ولم ينظروا، لم ينظروا أهل أوروبا وأمريكا، لم ينظروا كيف حلّ الخراب بساحات الأندلس المسلمين لما بطروا النعم، لم ينظروا قصور الملوك المسلمين وآثارهم في قرطبة وباقي بلاد الأندلس، فإذا أمر الله آباءنا أن ينظروا في آثار غيرهم من الأمم البائدة؛ فنحن مأمورون أن ننظر في آثار الأمم الإسلامية الهالكة بذنوبهم وجهلهم، وكأن الله يقول: أفلم ينظر أهل مصر وتونس والجزائر ومراكش وأبناء الشام والعراق والحجاز، أفلم ينظروا ما حل بالأندلس المسلمين، كيف انكبوا على مصنوعات الفرنجة وملابسهم وخمرهم، فأذقناهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون.

لقد حقر أبناء العرب في الأندلس مجد آبائهم وعاداتهم ودينهم في أواخر أيام عزّهم، وكرعوا من خمر الإسبانيين وتعلموا على أساتذتهم، فانحلت عرى قوميتهم، فساء صباح المنذرين، وحلّ بهم ما حلّ بالماضين، وأنسوا بالإفرنج، فأصبحوا صعيداً خامدين كما تقدم قريباً في سورة «الأحقاف».

أفلا يعتبر المسلمون في في مصر والشام وبلاد شمال أفريقيا عموماً كيف لا يحلو لبعضهم الأكل إلا في مطاعمهم، ولا الغزل إلا مع نسائهم، ولا الملابس إلا من منسوجهم، فلئن لم ينتهوا عما

يفعلون ليذوقنّ النكال، وليحلنّ بهم ما حلّ بالأندلسيين. أقول: ومن عجب أن التعاليم الإسلامية اليوم مغيرة وجهتها، ويا ليت شعري أنام علماء الإسلام؟ أجهل حكماؤهم أمثال هذه الآيات؟ لماذا لم ينبهوا الشعوب الإسلامية؟ لماذا لم يوقظوها؟ لماذا ناموا على الأحكام الفقهية، وجهلوا الحقائق الكونية، نعم تنبه من المسلمين قوم، ولكن ذلك ليس من تعاليم القرآن المهجورة، بل من تعاليم الفرنجة المسطورة، فاستيقظ أهل الأناضول ولكن بالتعاليم الإفرنجية، تنبهوا وحظروا أن يتكلم في الرسميات أحد إلا باللغة الوطنية، وأن لا يكتب إلا بها، على عكس ما فعل الأندلسيون في أواخر أيامهم، إذ كانوا يحاكون الفرنجة محاكاة، فذلوا لهم خاضعين، وخضعوا لهم صاغرين. تم الكلام على اللطيفة الأولى، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾

الإنسان امتاز عن الحيوان بالعقل والفكر، فمتى عطل تلك القوى التي امتاز بها حلّ به الدمار في الدنيا والآخرة، فأما في الدنيا فبالصغار والذلة، وأما في الآخرة فبنار جهنم وبئس القرار، ومن درس هذا التفسير في السور الماضية أدرك هذا المقصد في مواضع كثيرة فلا حاجة للإطالة، وإنّما أقول: إن المسلمين في القرون الأخيرة ناموا على وسادة الراحة، ونسوا أن لهم عقولاً، وأن لهم ديناً، فأذلتهم الفرنجة، وخضعوا لهم صاغرين. ومن موجبات العقل النظر في الأمم الهالكة وأسباب هلاكها، ولقد جاء في اللطيفة المتقدمة الحثّ على النظر في الأمم البائدة، والأجيال الهالكة، وأنهم هلكوا بكفرهم، وأن هذا قانون عام، وإذا كان القرآن يأمر بالنظر في الأمم الهالكة لنعتبر بها؛ فهو من باب أولى يأمر بالنظر في الأمم الحية لنقلدها، ونعمل عملها، إذا وافق شرعنا، فحقّ على المسلمين أن لا يذروا علماً إلا درسوه، ولا صناعة إلا أحاطوا بها، وعليهم أن يرسلوا من عندهم جماعات يجوسون خلال الأمم في أوروبا وأمريكا واليابان، ويدرسوا أحوالها، وينشروا أسباب رقيها، ويتلافوا النقص الحاصل في بلاد الإسلام. ليكن ذلك وليدرسوا لغات الأمم وأخلاقها وعلومها، وليكن في كل علم وكل فن وكل لغة اختصاصيون يقومون بالواجبات، كل ذلك من قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾[الحج: ٤٦]، ومن قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾[محمد: ١٠]. وقلنا ومن باب أولى فينظروا كيف كان عاقبة الذين هم معاصرون لهم كيف أنعم الله عليهم وأيدهم بالاتحاد والعلم، وللمجدّين أمثالها، هذا هو دين الإسلام، هذا هو الدين الحق، لا تلك التعاليم الناقصة، المشوّهة، الجاهلة، الخاطئة في أكثر ديار الإسلام حتى حقّ القول على أكثرنا، فيقال في الغافلين: ﴿ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ ﴾[محمد: ١٢]، فأصبح أكثر المسلمين تحت رعاية الأوروبيين، يتركونهم في الحقول يعملون، ويجبون منهم الضرائب، ويذرونهم في الجهالة العمياء ويأكلون كما تأكل الأنعام. فلا علم يدرسون، ولا قرآن يعقلون، ولا حكمة يزاولون، ولقد آن أن يعزّ الله قوماً ذلوا، ويسعد قوماً شقوا. والله هو الولي الحميد. انتهت اللطيفة الثانية.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى:

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾

لقد تقدم الكلام على الجنة والنار في « البقرة » و« آل عمران » وغيرهما، وأسهبنا في الكلام هناك، والذي ينبغي أن نذكره هنا ما يناسب هذه الآية، إن الله شرح الجنة شرحاً يسرّ النفوس في سورة « الواقعة » وغيرها، فذكر الجنات والحرير والحور العين والأنهار مما هو معلوم ومشهور، وأكثر من ذلك، لأن أكثر الأمم عوامّ، فإذا ماتوا لا يجدون لهم لذة إلا فيما عرفوه في الحياة الدنيا، فيدخلون الجنة، وينالون ما يشتهون، كما يقال: « أريت الجنة فإذا أكثر أهلها البله، وعليون لأولي الألباب »، والمراد بالبله أولئك الذين لم يرتفع نظرهم إلى سماء الجمال والكمال والحكمة والنظام، فأما المفكرون فهم الذين ينظرون وجه ربهم لما عشقوا جماله في هذه الدنيا، فيكون نورهم الذي اقتبسوه في الدنيا ونظرهم الحكمي هو الذي يهديهم يوم القيامة إلى النظر إلى وجه ربهم الكريم، فوصف الجنة بالحور العين والأنهار لأكثر الأمة، وخاطب الطبقة المتوسطة التي لا هي بالغة النهاية في الحكمة، ولا هي باقية مع الطبقة الجاهلة بمثل هذه الآية فقال: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ﴾[محمد: ١٥]، فجعل الأنهار من اللبن والعسل والخمر أمثالاً، وفي آية أخرى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]. وفي الحديث: « في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر »، ولا جرم أن هذا أصرح من هذه الآية، وتبيان لحقائق عالية، وهي تلك المراتب السامية للمفكرين وأهل الحكمة، وفي آية أخرى: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾[الزخرف: ٧١]، وهذا جامع للذات العوامّ، ولذات الخواص، ولذات المتوسطين، وإذا كنا نرى هذه الدنيا قد جمعت لذات البهائم في المروج، ولذات الملوك الفاتحين، والقواد الماهرين، ولذات الحكماء والعلماء المفكرين الذين يعرضون عن الماديات إعراضاً، ويفرحون بما في نفوسهم من الحكمة، ولا يطلبون به بدلاً، أفلا نقول: إن الجنة تكون كذلك، بل هي أجمل وأبهج في هذه المراتب، إن الله سيحشر الناس على حسب ما كانوا في الدنيا، فالبهائم والجهلة لا يفرحون إلا بما كانوا فيه، وأرباب الحكمة لا يفرحون إلا بما كانوا فيه، وليس من المعقول أن رجلاً عشق الحكمة وفني فيها ثم مات ويجازى بالانهماك في المادة، أي أنه ينزل في الجنة درجات. كلا. فإذا عشق الحكمة والعلم ولقاء ربه فهو لا محالة صائر إلى ما اشتاق إليه. قال عليه الصلاة والسلام لسائله عن الساعة: « أنت مع من أحببت ».

الكلام على الأنهار التي في الجنة
وسيحان وجيحان والفرات والنيل

في حديث مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة ».

قال الشيخ محيي الدين النووي في شرح مسلم: « سيحان وجيحان غير سيحون وجيحون، فأما سيحان وجيحان فهما في بلاد الأرمن، فالأول نهر أدرنة، والثاني نهر المصيصة، وهما نهران كبيران جداً أكبرهما جيحان ». اهـ.

أقول: واعلم أن الأرض التي نسكنها فيها الخير وفيها الشر، والخير المحض في الجنة، والشر المحض في جهنم، ولما كانت هذه الأنهر الأربعة متمحضة للخير، وهي منبع حياة كثير من الأمم أشبهت الجنة من حيث الحياة والنعيم والخيرات، وهذا وارد في كلام العرب. قال الشاعر:

أوحشية العينين أين لك الأهل ... أبالحزن حلوا أم محلهم السهل
قفي خبرينا ما طعمت وما الذي ... شربت ومن أين استقلّ بك الرحل
وأية أرض أخرجتك فإنني ... أراك من الفردوس إن فتش الأصل
فإن علامات الجنان مبينة ... عليك وأن الشكل يشبه الشكل

فانظر كيف قال الشاعر: فإنني أراك من الفردوس، مع أنه يعلم قطعاً أنها مخلوقة في الأرض، ثم علل ذلك بعلتين: علامات الجنان، وتشابه الأشكال، فهكذا هنا يقال: إن هيئة هذه الأنهار أشبه بأنهار الجنان من حيث الخيرات وإن كان الفرق شاسعاً. انتهت اللطيفة الثالثة.

اللطيفة الرابعة: في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾

قد تقدم الكلام على أشراط الساعة في أواخر سورة «الأنعام».

المقصد الثالث

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي: هلا أنزلت سورة في أمر الجهاد ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ مبينة لا تشابه فيها ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ أي: الأمر به ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ضعف ونفاق ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ شزراً وكراهية للجهاد، وجبناً عن لقاء العدوّ، ﴿نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: كما ينظر الشاخص ببصره عند معاينة الموت، ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ فويل لهم، وهو دعاء عليهم بأن يليهم المكروه، و«أولى» من: ولي، على وزن «أفعل»، ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أي: يقولون طاعة الخ. ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: فإذا دنا الوقت خالف المنافقون وكذبوا فيما وعدوا به، ﴿فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: لكان الصدق خيراً الخ. ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: أعرضتم عن سماع القرآن وفارقتم أحكامه، أو توليتم أمور الناس وتأمرتم عليهم ﴿أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أن تعودوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الفساد في الأرض بالمعصية والبغي، وسفك الدم، وترجعوا إلى الفرقة بعد ما جمعكم الله بالإسلام ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾ أي: فهل عسيتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم إن توليتم عن الإسلام أو توليتم أمور الناس، وقد تم هذا كله.

قال قتادة: كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله تعالى؟ ألم يسفكوا الدم الحرام، وقطعوا الأرحام، وعصوا الرحمن. وفي حديث البخاري ومسلم قال صلى الله عليه وسلم: «إن الرحم شجنة من الرحمن، فقال الله تعالى: من وصلك وصلته، ومن قطعك قطعته». وفي رواية أخرى نحو ذلك، ثم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اقرءوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٢-٢٤]». اهـ.

وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ الإشارة إلى المذكورين، وإنّما لعنهم لإفسادهم وقطعهم الأرحام ﴿ فَأَصَمَّهُمْ ﴾ عن استماع الحق ﴿ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ فلا يهتدون إلى سبيله ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ يتصفحونه وما فيه من المواعظ حتى لا يجسروا على المعاصي ﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ لا يصل إليها ذكر ولا ينكشف لها أمر.

واعلم أن هذه الآية جاءت ردعاً لقسمين من الناس: (١) الذين تولوا عن الإيمان ورجعوا إلى الكفر، والذين تولوا عن القرآن وهم مؤمنون. (٢) ومن يتولون أمور الناس، فقوله: «توليتم» سواء أكان بمعنى التولي عن الدين أو عن أحكام القرآن، أو تولي أحكام الناس مصحوباً بقطع الأرحام، والإفساد في الأرض يترتب عليه وعيد شديد، وعذاب أليم، فذكر اللعنة والصمم والعمى، وأنهم لا يتدبرون القرآن، أو أن على قلوبهم أقفالاً، كل ذلك وعيد شديد وذمّ لمن اتصفوا بهذه الأوصاف التي جاءت في هذا المقام، فالوعيد كما يكون على الكافر المرتد عن الإسلام يكون على من قطع الأرحام وأفسد في الأرض ظلماً لتوليه أحكام الرعية، أو لإعراضه عن كتاب الله، ولقد استفاض ذلك الذنب في المسلمين قروناً، فالآية تلميح بأنهم سيقعون في هذا الذنب في الإسلام، ولقد تقطعت الأرحام في الدولة الأموية والعباسية، وقاتل كل فريق منهم الآخر، ولا يزال ذلك جارياً الآن، بل الأمة الإسلامية اليوم يضرب بها المثل في التقاطع والتدابر والتناحر والتشاجر لأجل الولاية، وترى ملوك الإسلام، وشيوخ الطرق، وبعض آل البيت، كل يحارب الآخر لا لقصد سوى التسلط على الناس، ولقد سمعنا أن ابني الأب الواحد في مراكش قاتل كل منهما الآخر على مرأى ومشهد من فرنسا، فكان ذلك سبباً لوضع يدها على البلاد. كل ذلك داخل في قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾، وهذا سيكون شأن الإسلام في المستقبل غيره اليوم، وسيقوم الخلف فيقرؤون علوم الأمم، ويفهمون مثل هذا القول ويذرون تلك الرئاسات التي أسسها مجد الآباء، بل يتدبرون القرآن، وتزول الأقفال من على القلوب وتفتح الأبصار والبصائر ويسمعون القول، وإذن يجعلون الأمر شورى فيما بينهم، ولا يولون إلا من أجمع عليه الشعب، أما الإمارات التي جرت في الإسلام سابقاً فهي إمارات أغلبها كاذبة خاطئة جاهلة، أوقعت المسلمين في أشد النكبات.

هذا هو المفهوم من قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾، فإن الناس إذا جعلوا الرؤساء تبع الأنساب كانت الأمة رهن الجالس على كرسي الحكم، فإن كان عاقلاً عقلوا، وإن كان أحمق خرّب البلاد، وتكون الأمة كأنها آلات صماء وعلى قلوبها الأقفال، فإذا عقلت وفهمت ولت الأكفاء، ولم تبال بالأنساب، هذا هو فحوى هذا المقام. ثم خصّ المرتدين بعقوبات بيّنها بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم ﴾ إلى ما كانوا عليه من الكفر ﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ﴾ بالدلائل الواضحات، والمعجزات الظاهرات ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ ﴾ سهل لهم اقتراف الكبائر، ومعنى «السول»: الاسترخاء، ﴿ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾ ومدّ لهم في الآمال، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ ﴾ أي: قال المنافقون للذين كفروا: ﴿ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ﴾ أي في بعض ما تأمرون كالقعود عن الجهاد والتظاهر على الرسول ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ كقولهم هذا الذي أفشاه الله عليهم.

﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ فكيف يعملون ويحتالون حينئذ إذا قبضتهم الملائكة حال كونهم ﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ بمقامع من حديد ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الضرب والعقوبة ﴿ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ ﴾ أي: ترك الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ﴿ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ ﴾ أي: كرهوا ما فيه رضوان الله عز وجل ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ التي عملوها من أعمال البر لأنها لم تكن لله ولا بأمره ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ شك ونفاق وهم المنافقون ﴿ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴾ أي: يظهر أحقادهم على المؤمنين فيبديها حتى يعرف المؤمنون نفاقهم، والضغن: الحقد الشديد ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ ﴾ لعرّفناكهم بدلائل تعرّفهم بأعيانهم ﴿ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ﴾ بعلاماتهم وهو أن يسمهم الله بعلامة يعلمون بها. وعن أنس رضي الله عنه: ما خفي على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية أحد من المنافقين كان يعرفهم بسيماهم. واللام في قوله: ﴿ فَلَعَرَفْتَهُم ﴾ داخلة في جواب «لو» كالتي في ﴿ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ ﴾. ثم قال: ﴿ وَ ﴾ الله ﴿ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾ أي: أسلوبه وإمالته إلى جهة تعريض وتورية، أي: ولتعرفن المنافقين يا محمد فيما يعرضون به من القول من تهجين أمرك وأمر المسلمين وتقبيحه والاستهزاء به، فكان بعد هذا لا يتكلم منافق عند النبي صلى الله عليه وسلم إلا عرفه بقوله، ويستدل بفحوى كلامه على فساد باطنه ونفاقه، وذلك لأن الناس مجبولون على أن تنطلق ألسنتهم بما وقر في أنفسهم واستقر بها من المعاني فتظهرها فلتات اللسان، وكما أن العين تظهر ما أكنه الجنان من حب وبغض ولون الوجه يبين ما خفي من الحياء والخجل والبشر والحزن والغضب، هكذا اللسان تأتي على طرفه فلتات تبين تلك المخبآت النفسية، هذا طريق علم المخلوق، أما علم الله تعالى فقد ذكره بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ فيجازيكم على حسب قصدكم، فإن الأعمال بالنيات، ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾ بالأمر بالجهاد، وسائر التكاليف الشاقة؛ ﴿ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ على مشاقها، أي حتى يتميز المجاهد الصابر من غيره، ويستبين أمره ﴿ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ أي: ما يخبر عن أعمالكم فيظهر حسنها وقبحها. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ ﴾ أي: من بعد ما تبين لهم أدلة الهدى وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم وهم قريظة والنضير والمطعمون يوم بدر ﴿ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾ وإنما يضرون أنفسهم والله منزه عن ذلك ﴿ وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ ثواب حسنات أعمالهم، أو مكايدهم التي نصبوها للمشاقة المذكورة، وستكون عاقبتها قتل بعضهم وجلاء البعض الآخر عن الأوطان. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ أي: كما أبطل هؤلاء أعمالهم بكفر، أو نفاق، أو عجب، أو رياء، أو بغض الرسول وعداوته ومخالفته، يقول الله: يا أيها الذين آمنوا بمحمد والقرآن أطيعوا الله فيما أمركم من الفرائض والصدقة، وأطيعوا الرسول فيما أمركم من السنة والغزو والجهاد، ولا تبطلوا أعمالكم بالرياء الخ. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ كأصحاب قليب بدر ﴿ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾، فأما من مات وهو مؤمن مع كثرة ذنوبه فعسى الله أن يغفر له، ﴿ فَلَا تَهِنُواْ ﴾ فلا تضعفوا ﴿ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ ﴾ ولا تدعوا إلى الصلح خوراً وتذللاً ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾ الغالبون لهم، والعالون عليهم ﴿ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ ناصركم

﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ ولن ينقصكم أجر أعمالكم، يقال: وترت الرجل إذا قتلت قريباً له، أو حميماً مثلاً فأردته عنه، ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ لا ثبات لها ﴿ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾ ثواب إيمانكم وتقواكم ﴿ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴾ جميع أموالكم، بل يقتصر على جزء يسير كربع العشر، أو العشر أو شاة من الأربعين، إلى آخر ما في الزكاة، ﴿ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ ﴾ فيجهدكم بطلب الكل، والإلحاح كالإلحاف، المبالغة وبلوغ الغاية، ﴿ تَبْخَلُوا۟ ﴾ فلا تعطوا ﴿ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴾ ويضغنكم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ﴿ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ ﴾ «ها» للتنبيه، و«أولاء» اسم موصول بمعنى الذين، صلته: ﴿ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ كالغزو والزكاة، ﴿ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ﴾ أي: فمنكم قوم يبخلون، ﴿ وَمَن يَبْخَلْ ﴾ بالصدقة وأداء الفريضة ﴿ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ أي: يبخل عليها، كأن الله يقول: لو أنكم سئلتم إعطاء أموالكم كلها لبخلتم بها، ولكرهتم النبي، والدليل على ذلك أنكم أنتم الذين تدعون للنفقة في سبيل الله، وهي المنافع العامة، ومع ذلك يمتنع بعضكم، فإذا كانت هذه حالكم والمطلوب منكم العشر، أو ربع العشر، أو شاة من الأربعين، أو شاة من كل مائة شاة، فما بالكم لو كنتم مطالبين بالمال كله، ومع ذلك فمن بخل فإنّما نتيجة البخل عائدة عليه، ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ﴾ وإنّما هو الذي نظم ملكه فيجعل قوماً للمنافع العامة، هكذا قضى نظامه أن لا يدع الأرض وعباده فيها بدون مرشدين قائمين بالأمر يبذلون مالهم وجاههم وأنفسهم، فإذا كنا أرسلنا محمداً صلى الله عليه وسلم إليكم لتكونوا للناس هداة، وظهر منكم أنكم غير قائمين بالأمر لنقص في استعدادكم، ولسبق علمنا القديم نقلنا هذا الدين إلى أمم أخرى يقومون به ويسودون عليكم لأنهم أصلح له منكم، وهذا قوله: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ أي: يقم مقامكم قوماً آخرين، ﴿ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴾ في التولي والزهد في الإيمان، وهذا راجع لقوله تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴾، فهاهنا أوضح المقام، ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا ﴾ خيراً منكم في القيام بهذا الأمر، وهذه من معجزات القرآن. ألا ترى أن أمة العرب الذين خوطبوا بهذا القول هم الذين اقتتلوا على الخلافة، فأولاً بنو أمية قاتلوا آل البيت وشردوهم، ثم جاء العباسيون والفرس معهم فقاتلوا أبناء عمهم فأهلكوا بني أمية وشردوهم كل مشرّد، ولما تولى بنو العباس أخذوا يقتلون أبناء الحسن والحسين رضي الله عنهما، وهذا هو بعينه تقطيع الأرحام، فلما استفحل الظلم وأفحشوا في تقطيع الأرحام سلبهم الله الملك ونقله إلى الفرس تارة والترك أخرى، وذلك أيام ملك بني العباس، فكان بنو العباس ملوكاً لفظاً والفرس أو الترك ملوكاً معنى، حتى قال الشاعر في أحد خلفائهم في القرون الأولى:

خليفة في قفص　　بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له　　كما تقول البغا

فكان لهذا الخليفة مملوكان: أحدهما اسمه وصيف والثاني اسمه بغا، وهو تحت أمرهما، وكانوا يقتلون الخليفة، ويجعلون آخر مكانه، وتارة يسملون عيني الخليفة وهكذا، ولما ضعف أمر الفرس والترك الأولين سلط الله التتار فهبطوا على الدول الإسلامية فأفنوها، وخرّبوا الديار، وأزالوا

ملك العباسيين والفرس، ثم أسلموا هم أنفسهم وتولوا أمر الإسلام. وقد تقدم مطولاً قريباً، ولقد كان الترك قائمين بأمر الإسلام ثم تغيرت الحال، وحكومتهم الآن مسلمة قوية، ولكن تزعم أنها لا دين لها، وهكذا نرى الفرس والأفغان كل هذه حكومات قائمة الآن إسلامية، أما أمة العرب فإنها في مصر وفي الشام وفي العراق، وفي بلاد الغرب وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش ليس بينهم جامعة، أما الترك فهم اليوم يبحثون عن جامعة جنسية لغوية، فأما أبناء العرب ونحن أهل مصر منهم فليس بيننا جامعة، لأنهم لم يتعلموا تعليماً صحيحاً يؤهلهم الاجتماع، ولذلك نرى الله استبدل بنا نحن أبناء العرب قوماً غيرنا، وليسوا مثلنا، بل هم أرقى مدنية وسياسة، فحافظوا على أوطانهم ودياناتهم، ولذلك نجد الفرنجة ببلادنا جاثمين، وعلى دورنا حارثين، وفي رغد عيشنا متمتعين، وستتبدل الحال ويرجع الأمر إلى أصله، ويرقى أبناء العرب رقياً لا نظير له في قديم الزمان. هذا ملخص معنى قوله: ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم﴾.

هذا هو الأصل في الاستبدال، فإذا سمعت قول الكلبي هم كندة والنخع من عرب اليمن، أو سمعت قول الحسن إنهم العجم، أو سمعت قول عكرمة إنهم فارس والروم، وإذا سمعت أن النبي صلى الله عليه وسلم ضرب على منكب سلمان الفارسي ثم قال: هذا وأصحابه، وإذا سمعت ما روي عنه صلى الله عليه وسلم إذ قال: «لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس».

إذا سمعت هذا كله فاعلم أنه قد تمّ، وقد تمّ ما هو أكثر منه، فقد قام الترك بدورهم، وأما الروم فلم يقوموا بدورهم في الإسلام إلى الآن، وقد عرفت سرّ ذلك الاستبدال، فإذا علم الله أن المسلمين لا يصلحون لإقامة العدل في الأرض، ولا هم صالحون لنظام المدن، ولا هم قائمون بإدارة حركة العالم الإنساني، ولا هم آباء لعباده يعلمونهم ويكونون خلفاء الله عليهم؛ أذلهم وأبادهم، وسلط عليهم أمماً أخرى تقاتلهم، وقد تعتنق الإسلام كما جرى أيام جنكيز خان الذي زحف على بلاد الإسلام في أواخر القرن السادس الهجري، والسبب هو المذكور في سورة «الكهف» إذ قتل المسلمون التجار الواردين من بلاده، وكان معهم مال عظيم، وذلك بإشارة التجار المسلمين الذين حقدوا على أولئك التجار الأغنياء، فصام جنكيز خان ثلاثة أيام لم يذق فيها طعاماً، وتضرّع إلى ربه، وهو من عباد النار، أي: يتقرب لله بالنار، وقال: يا الله أردت عمارة بلادك فقاومني المسلمون، وقتلوا رجالي. واستعان بالله تعالى، وقام لحرب المسلمين، فنصره الله عليهم، وسلط الله التتار على أمة الإسلام، وذهبت دولة الأمة العربية إلى الآن، وكان الملك إذ ذاك قطب أرسلان، وبعد نحو قرنين أسلم التتار، وقاموا بأمر الإسلام في جهات كثيرة من الأرض، ولا يدري إلا الله من ذا من الأمم سيقوم بهذا الدين بعد هذا الزمان، فآية الاستبدال تقرأ ولا ناسخ لها، والله هو المنزل وهو المغير. اهـ.

لطائف عامة للسورة كلها

وهي سبع لطائف:

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [الآية: ١] إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَـٰلَهُمْ﴾ [الآية: ٣].

اللطيفة الثانيـــة : في قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾[الآية : ٤] .

اللطيفة الثالثـــة : في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[الآية : ٧] إلى قوله تعالى: ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾[الآية : ٩] .

اللطيفة الرابعـــة : في قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [الآية : ١٠] إلى قوله : ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾[الآية : ١٠] .

اللطيفة الخامسة : في قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾[الآية : ١٨] .

اللطيفة السادسة : في قوله تعالى : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾[الآية : ١٩] .

اللطيفة السابعة : في قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴾[الآية :٢٢] .

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾

إلى قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴾

مقتضى هذه الآية أن الذين كفروا تضل أعمالهم ، والمؤمنون تصلح حالهم ، وهل لنا مصداق لهذه الآية أكبر مما شهد به العلامة « لوثروب استودارد » العالم الاجتماعي الأمريكي في كتابه « حاضر العالم الإسلامي » الجزء الثاني ، إذ يقول تحت عنوان : « سيطرة الغرب على الشرق » ما ملخصه :

إن العالم الإسلامي أخذ في النمو السريع الآن . وضرب أمثالاً لذلك لا محلّ لذكرها هنا ، وسنذكر ذلك كله مطولاً إن شاء الله في سورة « الحجرات » عند الكلام على قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾[الآية : ١٣] ، وهناك سيكون الكلام في أربع مقالات :

المقالة الأولى : في قوله تعالى : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ ﴾[الآية : ٩] الخ ، فنذكر هناك كيف تناكر المسلمون بعد عصر الصحابة واقتتل الأمويون والعباسيون وغيرهم ، ونذكر هناك أن أفعالهم تخالف هذه الآية على خط مستقيم ، وكل ذلك إنّما جاء من الاستبداد وترك الشورى ، والشورى لا يراعى فيها للخلافة إلا الأصلح .

والمقالة الثانية : في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾[الآية : ١١] إلى قوله : ﴿ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾[الآية : ١٢] ، وفي هذا كلام في تفصيل الأخلاق الشخصية .

المقالة الثالثة : في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾[الآية : ١٣] الخ ، وفيها الكلام على معاملة أوروبا لأهل الشرق الآن .

المقالة الرابعة : في الكلام على هذه الآية أيضاً ، ورأيي الذي نشرته في الشرق والغرب في السلام العام .

اللطيفة الثانية في قوله تعالى:

﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾

لقد تقدم تفسير هذه الآيات، وأن الحرب تنقطع إذا لم يبق في الأرض إلا مسلم أو مسالم، أو إذا نزل عيسى ابن مريم، واعلم أن هذا الزمان هو زمان الانقلاب، فترى الأمم تلهج دائماً بالسلام العام، ونزع السلاح، وقامت البلشفية، وأزالت أكثر الملكية، وجعلت الأمة كأسرة واحدة، ولكن أعمالها مجهولة لدينا.

فاعلم أن هذه الحركات البلشفية وغيرها لن تقف اليوم ولا بد من بقاء هذه الآراء وتحوّرها وتبدّلها حتى يأتي يوم ترتقي فيه أمة الإسلام، وتلقي دلوها في الدلاء وتقول: يا عجباً! إن أوروبا تقول: السلام السلام، «ليس بعشك فادرجي» يا أوروبا، أنا قائمة مقام نبي آخر الزمان الذي قال الله فيه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾[الأنبياء: ١٠٧]، ولقد رحم الله العالم به أيام طفوليته، فرجّ العالم الإنساني رجة أطارت نومه، وتقلبت الدول والممالك، وهاهو ذا الزمان قد دار دورته، وتحوّلت حاله وصار العصر عصر العلم، والعلم هو مقتضى ديننا.

فلنقم بالأمر، ولنكن أرقى الأمم علماً وصناعة وجيوشاً، ولتقم أمة العرب بنصيبها من العلم والمدنية، ولترتق، ولتتحد شعوبها من طنجة إلى العراق، وتضم أطرافها إلى مملكة واحدة كما تقدم شرحه مطولاً في سورة «آل عمران» عند قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ﴾[الآية: ٢٣] فارجع إليه إن شئت، تجد طريق اتحاد العرب أولاً مع بعضهم، ثم اتحادهم مع الترك الذين سبقوهم في هذه المزية وكذا غيرهم، ثم يقوم المسلمون بعد ذلك بدورهم المهم ويقولون: فلنكن رحمة للعالمين، وليكن السلام في العالم، فلنمهد طرقه حتى تستعد الأمم لإشراق الروح العيسوية، فيصير العالم إخواناً، وإذن لا يكون حرب ولا ضرب ولا جزية، بل يكون العالم الإنساني كله كأسرة واحدة، كلّ يقوم بما يخصه من الأعمال الإنسانية وهو خادم للمجموع.

بهذا وحده نستحق أن يقال فينا: ﴿ لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[البقرة: ١٤٣]، وتكون نسبتنا إلى الأمم كنسبة نبينا صلى الله عليه وسلم إلينا، فكأننا مبعوثون للأمم، والمبعوث يكون كريماً وحكيماً وعليماً وشجاعاً ومقداماً، وبهذا أيضاً يظهر قوله تعالى: ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾[الفتح: ٢٨]، فأما نحن الآن فلا نستحق وصفاً من هذه الأوصاف بل نحن عالة على الأمم، فإذا قام المسلمون الحاضرون بمبادئ هذا العلم، فبها ونعمت، وإلا فإن الله يقول: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴾[محمد: ٣٨]، فأرى أنه لا بد أن تقوم أمة بهذا العمل لا نعرفها الآن إذا نكص المسلمون الحاضرون على أعقابهم، وبقوا في الجهالة يتسكعون، وفي جهنم الذل والاستعباد يسجرون هذا وقد تكلمت في هذا الموضوع في سور كثيرة، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾

وأعظم ما نستشهد به على معنى هذه الآية في زماننا ما جاء في كتاب المؤلف المذكور لكتابه « حاضر العالم الإسلامي » إذ قال في صفحة ٧١ وما بعدها في الجزء الثاني ما ملخصه وسيأتي في سورة « الحجرات »: إن العرب في بلادهم، والترك في الأناضول، والفرس في بلادهم، وأهل الهند، كل هؤلاء مجدّون للرقيّ، وأوروبا راحلة عنهم سريعاً لا محالة.

اللطيفة الرابعة: في قوله تعالى:

﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ ﴾

مقتضى هذه الآية أن معرفة أحوال الأمم قديماً وحديثاً من أهم ما تعنى به الأمم الإسلامية، ولقد كان من صنع الأوروبيين في بلادنا أنهم يمنعون الحقائق العلمية الواضحة، ويعلمون الناس قشورها لئلا يعرفوا الحقائق، ولكن الله غالب على أمره، ولا نطيل في هذا المقام، فهذا التفسير جله لإيضاح هذه الحقيقة.

اللطيفة الخامسة: في قوله تعالى:

﴿ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ ﴾

جاء في الحديث من رواية البخاري: « إذا ضيعت الأمانة، فانتظر الساعة، قال: وكيف إضاعتها؟ قال: إذا وسد الأمر إلى غير أهله »، وفي رواية أخرى في البخاري ومسلم: « إن من أشراط الساعة أن يتقارب الزمان، وينقص العلم، ويثبت الجهل ». وفي روايات أخرى: « ويشرب الخمر، ويفشو الزنا، ويذهب الرجال، ويبقى النساء ». وجاء أن من أشراطها انشقاق القمر، وبعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأنت إذا نظرت في هذا كله علمت أنها هي الأسباب في خراب الأمم، فإن الأمر إذا وسد لغير أهله بأن أسند إلى من لا يصلح له كما اتفق لملوك الترك إذ جعلوا خلفاء الإسلام من أسرة مخصوصة فكان ذلك سبباً في ضعف الدولة، فلذلك أخذها الفرنجة، فلما تولى الشعب الحكم بنفسه طردوا الفرنجة. فالمتصفح لهذه الأحاديث التي هي من علامات الساعة الكبرى يجدها من حيث علم الاجتماع دلائل على قيام الساعة الصغرى وهي خراب الدول، فمتى رأيت أمة من الأمم الإسلامية أقامت عليها رئيساً جاهلاً يتولى أمرهم، وتركوا له التفكير أو فشا بينهم ما يضر بنظام الدولة من ظهور الفتن، ونقص العلم، وظهور الشح، والقتل، ورفع العلم، وظهور الجهل إلى آخر ما في الأحاديث؛ فإن ذلك كله مؤذن بخرابهم، وضياع دولهم، ولما فشا ذلك في أمتنا المصرية، دخل الإنجليز بلادنا وهكذا بلاد أخرى، فكل علامات الساعة المذكورة تكون منذرات بهلاك الدولة التي تقع فيها، وهذه المنذرات في الأمم تتلاحق آلافاً وآلافاً من السنين، والأمم تموت دولة بعد دولة، حتى إذا انقطعت سلسلة الأمم، ووقعت الواقعة، هنالك تقوم القيامة، ويكون العرض العام الأخروي بعد انتهاء أعمار الأمم.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾[الآية: ١٩] الخ جاء في حديث البخاري عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة»، وفي رواية: «أكثر من سبعين مرة». وفي حديث مسلم: «إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر في اليوم مائة مرة». وفي رواية أيضاً: «توبوا إلى ربكم فوالله إني لأتوب إلى ربي عز وجل مائة مرة في اليوم». اهـ.

ذكر بعض سر هذه الأحاديث

اعلم أن الذين اصطفاهم الله من الناس لهداية الخلق لا يقبل الناس على أقولهم إلا لما فيها من النور الإلهي والإشراق القلبي، فهؤلاء في أول أمرهم يكونون عاكفين على العبادة والتأمل والخلوة، فإذا كملت نفوسهم وقاموا بالدعوة والإرشاد فإن لم يدم الإمداد لهم من الله وقفت دعوتهم ولم تتم، فلا حكيم مرشد، ولا عالم له قبول، ولا وليّ إلا وهم متجهون إلى وجهة الحق أثناء الدعوة، فلو أنهم غفلوا عن الوجهة الإلهية إبان الدعوة لهجرهم الناس، لموت وجدانهم، وضعف نفوسهم، مع أنهم فصحاء، بلغاء حكماء، أما الأنبياء فأمرهم فوق هؤلاء، ومع ذلك هم ملزمون بالتوجه إلى الله دائماً ليدوم الإمداد السرّي. فإياك أن تظن أنك وأنت تعلم الناس وترشدهم تنال من نفوسهم مطلبك إلا إذا كانت نفسك متجهة لله في أكثر الأوقات.

وإذا كان الله تعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾[العلق: ١٩] ويقول: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ ﴾[الشرح: ٧] أي: من عملك؛ ﴿ فَٱنصَبْ ﴾[الشرح: ٧] أي: في العبادة، ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾[الشرح: ٨]؛ فما بالك وأنت لست نبيّ. إذا فهمت هذا فهمت قوله صلى الله عليه وسلم: «إنه ليغان على قلبي» أي: يغطى عليه، وذلك أنه وهو في الغزوات وفي حلّ مشكلات القضايا، والفصل بين الناس، وتعليم الأمة، لا يجد متسعاً فيه يذكر الله تعالى، وقد علمت أنه لا بد له من الاستمداد، ولا إمداد إلا بصلة، والصلة بين العبد والرب الذكر والاستغفار، فمتى ذكر الله العبد حصلت الصلة بينهما، فيكون الإمداد، وبه ينجع الإرشاد، ويتبع المرشد سامعوه، فإذا استغفر الله في اليوم مائة مرة، أو سبعين مرة، أو أكثر أو أقل، فإنّما ذلك لربط الصلة حتى يستمر الإمداد، فإذا سمع المسلم قوله صلى الله عليه وسلم: «توبوا إلى ربكم فإني والله لأتوب إليه» الخ؛ فيراد منه هذا المعنى أي: إنه يجب بقاء الصلة بين العبد والرب بالاستغفار أو الذكر، أو التفكر في جماله وصنعته أو نحو ذلك حتى يدوم الإمداد، فإن الإنسان ما دام يزاول الأعمال سواء أكانت دينية أم دنيوية فإن ذكر الله أكبر، فليفزع إليه في أوقات الصلوات الخمس وغيرها ليدوم الإمداد والقبول. وبهذا تم الكلام على اللطيفة الخامسة في قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ ﴾[محمد: ١٨] إلى قوله: ﴿ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾[محمد: ١٩]، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة السادسة: في قوله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾

اعلم أن هذه الآية عليها ألفت كتب الحكمة بحذافيرها من أقدم التاريخ إلى الآن، وقد رأيت أن أقدم إليك أيها الذكي في هذا المقام عنوان فلسفة الأمم إجمالاً، وهي رسالتنا المسماة «مرآة الفلسفة» وهي التي أشرنا إليها غير مرة فيما تقدم من التفسير. وهذا نصها:

رسالة مرآة الفلسفة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

في يوم من أيام شهر رمضان المعظم سنة ١٣٤٧هـ قابلني طائفة من طلبة مدرسة دار العلوم بالمنزل، وأخذوا يلقون علي أسئلة في الفلسفة. ومما قاله أوسطهم لي: إن في الشرق اليوم حكمة علمية، وهاهو ذا ناهض يدرس العلوم على اختلاف أنواعها، والفنون على تنوع أصنافها، والعقول استيقظت من سباتها، وقامت من رقدتها، وأخذت تبحث في الآراء والديانات القديمة والحديثة:

وكلاً يدّعي وصلاً لليلى　　وليلى لا تقرّ لهم بذاكا

فهانحن أولاء جئنا إليك قاصدين أن تبين لنا على وجه الاختصار مقاصد الفلاسفة العامة بحيث يكون ذلك المختصر جامعاً لمجمل ما عنوه، وأهم ما رأوه، ليكون نموذجاً لدراستها في مظانها، ولتطمئن النفوس إلى الحقائق، لأن العقول في الشرق الناهض الآن تفرقت وجهتها، واختلفت آراؤها، في أصل العالم، وفي أمر الروح والمادة والعقل، وماذا قال الأولون في هذا. ولا بد من الإلمام بهذه الأصول التي هي أس العلوم كلها، لأن العلوم الجزئية من النبات والحيوان، وتشريح الإنسان، والطب، والفلك، ونحوها من سائر العلوم الطبيعية والرياضية؛ كلها تحتاج إلى علم يكون لها بمثابة الرأس من الجسد. فقلت: هذه مباحث العالم أجمع، وكيف أجمع علوم الأمم كلها. ذلك يعوزه مكاتب الأمم كلها شرقاً وغرباً، ولا طاقة لأمة فضلاً عن فرد واحد بجمع العلوم كلها وتلخيصها. فقال: أنا ما طلبت إلا إجمال ما اطلعتم أنتم عليه، لا كل علوم الأمم، ونريد فوق ذلك أن يتجلى لنا رأيك في الوجود، وتجاربك الخاصة، وما هو أقرب إلى الحق من المذاهب. فقال آخر:

ومرآة المنجم وهي صغرى　　تريه كل عامرة وقفر

فقال آخر: إن الوجه من الجسم يدل على ما فيه من قوة وضعف، وجمال وقبح، وصحة ومرض. فقلت: سأجيبكم بعد ثلاثة أيام إن شاء الله تعالى. ولما مضت المدة حضروا وطالبوني بإنجاز ما وعدت. فقلت: إن هذا الموضوع فكرت فيه، فرأيت أنه يشتمل على مقدمة وبابين:

الباب الأول: في ذكر مذاهب الطبيعيين والدهريين من اليونان والسوفسطائية، ومنهم العندية والعنادية واللاأدرية، ثم أقفي على آثارهم بذكر مذهب أنكساغورس الذي ارتقى عن أهل السفسطة بإثبات صانع للعالم ولكن لا عمل له، ثم أذكر مذهب سقراط الذي أثبت صانعاً للعالم يحيط به علماً، ثم مذهب أفلاطون الذي قال بذلك وبالمثل الأفلاطونية، ثم أقفي بمذهب أرسطاطاليس الذي لا يعتبر المثل الأفلاطونية موجودة، إنّما يعول على المادة وصورتها، والمعوّل عليه عنده هي الصورة الخ. كما ستراه إن شاء الله تعالى، وهكذا مذاهب الإسكندريين وعلماء الإنجليز، والألمان وغيرهم إن شاء الله تعالى.

الباب الثاني: في تقسيم العلوم جميعها بحيث يمكن حصرها أصولاً وفروعاً، فيخرج القارئ من هذين الموضوعين واقفاً على صفحة من تاريخ العقول البشرية في الفلسفة، وعلى صفحة من نفس الوجود المقسم إلى علوم، إذ لكل حصة من العالم قسطها من العلوم، كالنبات والحيوان والفلك

الخ . فقال أوسطهم : فلتمل علينا المقدمة الآن ثم البابين ، وأقترح أن تسمي الرسالة « مرآة الفلسفة » ، فأقرّه الجميع ، وهنالك شرعت ألقي عليهم هذه الرسالة مبتدئاً بالمقدمة :

مقدمة رسالة مرآة الفلسفة

هاهنا أربع قواعد :

(١) إن جسم الإنسان من العوالم الأرضية .

(٢) وإن الضوء الذي يشرق عليه وعلى كل حيوان ونبات لنموه آت من الكواكب العلوية كالشمس .

(٣) والضوء الواصل لكل حيّ هو ما يطيقه ويناسبه .

(٤) وأيضاً هو نافع له .

فهذه القواعد الأربع ظاهرة في كل مخلوق ، فكل مخلوق على الأرض إنّما هو جسم اشتق من جسم أكبر منه ، وضوؤه سماوي ، آت من ضوء عام ، وهذا الضوء على مقداره ، وهو نافع له ، وعلى مقتضى هذه القواعد الأربع ننظر في نفسه الناطقة ونقول : لكل امرئ نفس ناطقة :

(١) هي من عالم عقلي أكبر منها ، كما كانت أجسامنا من عالم أرضي أكبر منها ، وكما اشتقت أرضنا من عالم أكبر منها .

(٢) وهذا العالم العقلي سماوي لا أرضي ، بدليل أن الضوء في القاعدة الثانية من السماء ، فإذا كانت الأرض قد احتاجت إلى عوالم السماء في أخسّ الضوءين وهو الحسي وهو النور ولم تقدر على الإتيان به من نفسها ؛ فهي عن الضوء المعنوي وهي النفس الناطقة أعجز ، إذن النفس الناطقة ذات الآثار الباهرة آتية من عوالم أرقى وألطف من عوالم الأرض ، إذن في الوجود عقل عام يستمد منه كل موجود ما يناسبه من الإدراك ، فإحساس النبات وغرائز الحيوان ، وعقل الإنسان كلها منه ، وكما أنها جميعاً تستضيء بالشمس ، هكذا يستضيء باطنها بالعقل العام الذي يدرك بالبصائر لا بالأبصار .

(٣) وهذه النفس الناطقة هي المناسبة لهذا الجسم لا يطيق أعظم منها .

(٤) وغرائز هذه الروح مقدرة بمقدار منافع الجسم وحاجاته .

فهذه أربع قواعد في مقابلة الأربعة الأولى بالقياس عليها . فقال قائل منهم : إذن هذا برهان تمثيلي . فقلت : نعم . ولسنا ونحن في هذه الأرض بقادرين على برهان عقلي أرقى منه . فقال : ماذا بعد ذلك؟ فقلت :

(١) هذه القوة الناطقة لا قوة لها على أن تدرك ما فوق طاقتها وهو كل معقول ومعلوم . فقال : ما الدليل على ذلك؟ فقلت : لأنها محصورة في مقدار صغير من المواد الأرضية ، وأن الأرض صغيرة بالنسبة للشمس ، والشمس ومجموعتها نقطة من بحر من بحار المجرة ، والمجرة لا قدر لها بالنسبة للأجرام الأخرى ، وما نسبة أرضنا إذا صغرت بحيث تكون جوهراً فرداً إلى العالم المقدر وجوده إلا كنسبة الجوهر الفرد إلى ألف مليون أرض ، إذن كيف تدرك القوة الناطقة المحصورة في جزء صغير من الأرض ما لا حدّ له من الوجود .

(٢) فقال لي: أيهما أصل في الوجود؟ القوة الناطقة أم المادة؟ فقلت: إن العامة وصغار العلماء يظنون أن المادة هي الأصل، ولكن البرهان يثبت أن القوة الناطقة هي أصل الوجود. ذلك أننا نرى هذه المادة لما بحثها القدماء قالوا إنهم لم يعرفوا إلا صفاتها وهي ستة وثلاثون صفة تعرف في فن المقولات، وهي عشرة موضحة في كتابي «بهجة العلوم» في الفلسفة العربية، وموازنتها بالعلوم الحديثة ـ تحت الطبع الآن ـ فالثقل والخفة، والحرارة والبرودة، والحلاوة والعذوبة، والملوحة والمرارة، وخبث الرائحة وطيبها، وأصوات الحيوان والإنسان، وكلامه وموسيقاه وصور الأشياء وألوانها وأحجامها، وقربها وبعدها. هذه عشرون صفة من ست وثلاثين للمادة اكتفينا بها عن باقيها، لم يعرف الناس من المادة إلا أمثال هذه، وهي لم تخرج عن كونها أعراضاً، فإذا اعتبرنا الثقل في قطعة من الحديد وقلنا هذا دليل على وجود المادة، فهذا الثقل يزول إذا حميناه فسال، ثم أحميناه فصار بخاراً، فأين الثقل إذن؟ وهكذا بقية الصفات، هذا بحث المتقدمين، فهم قالوا إنها لا وجود لها، أو وجودها ضعيف، كما سيأتي إيضاحه في الكلام على أرسطو، ولما بحثها المتأخرون ساروا على نهج غير ذلك النهج ووصلوا إلى نفس النتيجة، ذلك أنهم قالوا: إن هذه المادة ترجع إلى العناصر التي تبلغ نحو ٨١، والعناصر ترجع إلى جواهر فردة، والجوهر الفرد راجع إلى نقط ضوئية، والنقط الضوئية تدور سالبتها حول موجبتها ستة آلاف مليون مليون مرة في الثانية مثلاً، وباختلاف أعداد تلك النقط الضوئية واختلاف حركاتها تختلف العناصر، ومن العناصر ركب هذا الوجود كله من سماوات وأرضين. إذن إن كل ما تراه إن هو إلا أضواء كهربائية تدخلت أمام حواسنا فصارت على هذا النمط الذي ألفناه، إذن لا مادة عند القدماء، ولا مادة عند المحدثين، وإنّما هي أمر خيالي راجع إلى عرض هو ضوء، والضوء حركة، والحركة قوة، إذن هذا العالم قوة عظيمة لا غير، هذا ما يراه الحكماء قديماً وحديثاً في عالم المادة، فلننظر إذن في القوة الناطقة: (أولاً) إننا نرى أننا إذا رأينا صورة ما في وقت ما، وكانت بهيئة جميلة ثم مرت عشرات السنين، فإننا نرى تلك الصورة الشابة صارت شيخة محدودبة الظهر، فإذا رجعنا إلى نفوسنا وجدنا نفس الصورة الأولى لا تزال في ألواح نفوسنا، وهي باقية لم تتغير، ولم تسط عليها عاديات الدهور، فهي ثابتة ثبات رضوى والأهرام بالجيزة، إذن الصور تثبت في القوة الناطقة، ولا تثبت في المادة، وهذا يؤيد ما تقدم: إن المادة عرض كثير التغير.

(ثانياً) إن الصور التي ترسم على اللوحات في عالمنا الأرضي أشبه بالصور المرسومة في خيالنا، لأنها صور رسمت في المادة الأثيرية التي هي أثبت من عالم المادة، والمادة الأثيرية أقرب إلى النفس الناطقة، لذلك تدوم هذه الصورة الشمسية في لوحات التصوير مع سرعة تغير الصورة المرسومة في المادة، إذن عالم الأثير، وعالم النفوس الناطقة أصل في الوجود، فأما المادة فليست أصلاً فيه، بل هي فرع، فهي قوة، أو عرض، فأما النفس الناطقة فهي أصل، وهي جوهر. وعليه يكون الناس مخطئين في مشاهداتهم، فهم كما ظنوا الأرض ساكنة، والشمس دائرة، وجاء العلم فعكس الأمر عليهم؛ هكذا هم أخطؤوا في ظنهم أن الموجود هي الأجسام، فأما الأرواح والنفوس فهي أعراض زائلة، إذن العلم في واد، والجهال في واد.

(٣) معرفة العقل بواسطة معرفة النفس:

إن الناس عرفوا عوالم السماء والكواكب بواسطة معرفة العناصر الأرضية، وهكذا فليعرف العقل العام في الوجود بمعرفة النفوس الناطقة، وبيانه أن هذه الأجسام البسيطة الأرضية كل جسم منها له ضوء مخصوص، وكل ضوء منها له خواص تخصه. وذلك بخطوط سود تتخلل ذلك الضوء، وباختلاف تلك الخطوط السود المتخللة ذلك الضوء تختلف العناصر، بهذا علم الناس اليوم ماذا في الشمس والكواكب والسيارات من العناصر عندما عرفوا اختلاف الألوان الواردة من تلك الكواكب، ورأوا العناصر فيها عنصراً عنصراً، فوجدوها هي العناصر الأرضية كالحديد والنحاس والأكسوجين وغيرها، هكذا بالقياس عليه نعرف العقل العام بمعرفة نفوسنا. نحن حكمنا الآن بوجود نفوسنا، وأنها أحق بالوجود، وأنها جوهر، وأنها أصل والمادة فرع، لثبات الأولى وعدم ثبات الثانية، فهاهنا نقول إن هذه النفس الناطقة كما قدمنا في القاعدة الخامسة مستمدة من نفس أكبر منها، والتي هي أكبر منها مشتقة مما فوقها، وهكذا نشاهد أجسامنا المشتقات من أرضنا المشتقة من شمسنا الخ، وهذا العالم العقلي عالم عام أعم من عالم الأجسام، وإذا كنا نرى عالم الأجسام لا يكاد العقل يتصور له نهاية، فأولى بهذا التعميم أصل الوجود وهو العقل العام، إذن نقطع بأنه عظيم المقدار وهو عام العلم إلى ما لا حدّ له، ثم إن أنفسنا مستمدة منه استمداد النفس من الهواء، واستمداد أجسامنا من الأرض، وشربة الماء من الماء المحيط بالكرة الأرضية، المتطاير بخاره في الجو، النازل في الأنهار، المأخوذة منها تلك الشربة فنفسنا الناطقة أشبه بشربة الماء المأخوذة من مخزن الماء العظيم، وأشبه بالنفس ــ بالفتح ــ المأخوذ من مخزن عظيم وهو الهواء، وأشبه بأجسامنا المشتقة من مخزن الأجسام وهي الأرض، ثم إن هذا العقل الكلي الذي خالطته نفوسنا وهي فرع منه؛ كما أن الماء الذي نشربه فرع من الماء العام؛ يدلنا على موجود لا حدّ له هو أصل وجوده، وإنّما كان دليلاً عليه لأنه ليس من المعقول أن يكون أصل هذا العالم المتغير ملابساً للتغير مثله، فهذا العقل العام الذي لا حدّ له تفرّعت منه جداول، فهو أشبه ببحارنا وهوائنا.

إذن فليكن هذا العقل العام الذي هو أحق بالوجود مستمداً من موجود هو أصل وجوده، قياساً على أن ضوء الشمس منبعث من الشمس، فضوء الشمس كما قسنا عليه معرفة العقل العام نستفيد منه فائدة أعظم، وهي كما أن هذا الضوء وجوده مستمد من غيره، هكذا وجود العقل العام مستمد من غيره، وكما أن ضوء الشمس مستمد من الشمس هكذا العقل العام مستمد من أصل الوجود وهو الله. وحينئذ ننظر هل هذا الذي سميناه أصل الوجود وأنه هو الموجود الحقيقي الذي منه كان العقل الأول العام الذي اشتقت منه كل العقول والإدراكات قد وجد بعد العدم، أو سيكون معدوماً بعد الوجود، وهل علمه عام إلى ما لا يتناهى، فالجواب على هذا واضح وهو أننا إذا أثبتنا وعلمنا أن نفوسنا هي أصل في الوجود، وهي جوهر؛ وأن العقل العام المتصلة هي به أحق باسم الجوهر وباسم الوجود من المادة التي لم تخل من كونها عرضاً أو قوة، فالذي هو مصدر هذا الوجود هو الموجود الحقيقي، فالوجود أصل والعدم لا نعرفه.

نحن لا نعرف إلا الوجود، فالوجود هو الأصل، والعدم هو الذي يحتاج إلى دليل، فإذا قيل لنا كيف وجد الله؟ نقول: يجب أن نعكس السؤال، لأن هذا السؤال إنّما يرد إذا كان العدم أصلاً، ولكننا نعلم أن الوجود أصل، لأننا لا ننكر وجود نفوسنا المتصلة بعقل عام موجود مستمد وجوده من أصله وهو الله، فالوجود أصل، والعدم يحتاج إلى دليل، فالعدم كلمة لا أصل لها، وإنّما هذا الإنسان ظن أن تغير الأجسام وتفرقها عدم، فيرى أجسام النبات والإنسان والحيوان تتفرق بعد الاجتماع، فيقول: قد أعدمت، ويراها اجتمعت بعد الافتراق فيقول: هاهي ذه موجودة، وهذا خطأ، بل هو اجتماع وافتراق لا غير، والوجود مصاحب لها، فالعدم كلمة وهمية لاحظها الإنسان في العالم أمامه من صفات له لا من وجود وعدم، حتى إن العلماء اليوم وقد قالوا: إن المادة تنعدم، كأمثال جوستاف ليبون؛ قالوا: إن انعدامها ما هو إلا رجوعها إلى عالم الأثير، أو رجوعها للقوة، والأثير موجود، والقوة موجودة، إذن أين العدم؟ فإذا كان هذا حاصلاً في العالم الذي نشاهده وهو فرع فبالأولى يكون ذلك الحكم في أصل الوجود، فهو لا عدم يسبقه ولا عدم يلحقه، وكما أن الفكر الإنساني قد أخطأ في ظنه أن الأرض ثابتة والشمس متحركة حولها، وأخطأ في قوله: إن النفس الناطقة فرع عن وجود المادة؛ هكذا هنا أخطأ في ظنه أن العدم هو الأصل والوجود طارئ، فاحتاج إلى دليل على عدم العدم، وهل تحتاج الأصول الثوابت إلى دليل؟.

(٤) كيف كان خلق هذا العقل العام:

فقال أحدهم: كيف كان خلق هذا العقل العام؟ وكيف كان خلق هذا العالم؟فقلت له: قدمت لك في المسألة التاسعة أن هذه القوة الناطقة جاءت لتربية هذا الجسم فكيف تعدو طورها؟ فقال: ولكن عقولنا لا تفتأ تسأل، والأنبياء والحكماء كلهم أثبتوا تعاليمهم في ذلك. فقلت له: ليس عندنا إلا نموذج نفوسنا، فإذا فكرنا فيها عرفنا بقدر طاقتنا، ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾[الذاريات: ٢١]، قال: هذا حق. فقلت له: ننظر إلى نفوسنا، أليست تتخيل صوراً وأشكالاً؟ قال: بلى. هي دائمة التخيل. قلت: أفمعدومة هذه الصور أم هي موجودة؟ قال: بل هي معدومة، قلت: كلا. بل هي موجودة. فقال: ما الدليل على ذلك؟ فقلت: إننا إذا تصورنا في أذهاننا صور البساتين ثم اصطفينا صورة منها، وزرعنا بستاناً على هيئتها، فإننا إذ ذاك نكون قد اهتدينا بهدي هذه الصورة، لأننا نظمنا بستاناً على مقتضاها. قال: بلى. قلت: فهل المعدوم ينتج الموجود؟ قال: كلا. قلت: إذن هذا الخيال الذي في ذهننا موجود لا معدوم بدليل أثره، فكل ما له أثر موجود فهو موجود، قال: نعم. هذا حق. فقلت: فإذا كانت هذه النفس الناطقة قد صورت فيها صور السماوات والأرض وهذه الصور قد أثبتنا لها اسم الوجود، ولكن لم ترتق في الوجود إلى أن تراها حواسنا كما رأت الصفات، أو القوى التي سميناها مادة، فبالأولى الذي عرفناه أصل الوجود يبرز عالم السماوات والأرضين كما أبرزناها نحن، وتكون نسبة هذه العوالم التي أبرزها في الظهور إلى العوالم التي أبرزناها في خيالنا كنسبته إلى نفوسنا الناطقة، فعلى مقدار ضآلة نفوسنا كان ظهور خيالنا، وعلى مقدار عظمته هو وجلاله أبرز ما صنعه فكان مشاهداً للعيون، دائم التقلب، ظاهراً، باهراً، جميلاً. إذن نفوسنا هي النموذج الذي نعرف به الإله وبه

نعرف خلق العالم، وإذن هنا فتحت لنا أبواب العلم على مصراعيها. فقال أحدهم: إذن كيف يكون العالم حادثاً مع قدم الله تعالى؟ فقلت: ألم أقل لك إن باب العلم فتح على مصراعيه، الإجابة على ذلك سهلة مما تقدم، فأقول لك: أنت الآن تحضر في ذهنك السماوات والأرض إحضاراً وجودياً. قال: نعم. أحضرها. قلت: أقديم هذا أم حادث؟ قال: بل حادث. قلت: ويمكنك تكرار هذا العمل. قال: نعم. قلت: هل هذا العمل وتكراره قديم؟ قال: كلا. والله، والحمد لله، ما أجمل هذه البراهين.

إذن العالم الإنساني بعد هذه المباحث سيدخل في جنة عرضها السماوات والأرض من المعارف والعلوم، ويرتقي في المعلومات كما يرتقي في المحسوسات. قلت: فإذا سمعت أن العوالم الأرضية والسماوية سبقتها عوالم أخرى، وستعقبها عوالم بعد فنائها، فهذا كله مقيس على خيالنا. فقال: يقولون: ولكن الوجود لا يكون من العدم، ولا بد من مادة اشتقت منها هذه العوالم كلها، وكيف يشتق الوجود من العدم؟ فقلت له: ألم أقل لك إن أبواب العلم فتحت على مصراعيها، فهل الصور التي في خيالك احتاجت إلى مادة صوّرت منها. قال: لا. ولكن نفس مصدرها فقط. قلت: كذا السماوات والأرض رجعت إلى موجد هذا الوجود، وإذا قلنا: إن المادة لا وجود لها، بل الموجود معان وصفات، فكيف تحتاج هي لمادة تصدر منها وتشتق، ثم قلت: وهذا هو السبب في أن كل دين، وكل نحلة تحرّض على الرجوع إلى المعقولات، وترك الشهوات، والتنزه عن الدنيا، وهذا من سر التسبيح، فالمتدين يسبح، أي: ينزه الله عن الحوادث، ليكون ذلك التذكير باعثاً له على التنحي عن العوالم التي سميت مادة، وعلى مقدار اجتهاده يخلص، ولا يرى الله إلا بعد التخلص من الوهم الذي استولى عليه بهذه المادة المحيطة به، فبتنزيه نفسه عن النقائص يقرب ممن تنزه عن العالم، وبمعرفة نظامه يحبه فيحمده، وفوق ذلك يكبره، فهذا هو السر في التسبيح والتحميد والتكبير في الديانات.

إذا عرفت هذا عرفت معنى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] فجعل خلق العالم كنطقنا بالكلام، وهذا حق لأننا نتصور الوجود كله بمجرد خطوره ببالنا، ومتى سمعنا اسم قصر أو شجرة أو بستان حالاً نحس به في نفوسنا، فهو يحصل عندنا بمجرد نطقنا أو نطق غيرنا، هكذا العالم بالنسبة لله، هذا معنى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ﴾ [يس: ٨٢] الخ، وهذا هو تحقيقه، فإننا نشاهد في نفوسنا نظيره، غاية الأمر أن وجود الصور عندنا ونحن متخيلوها قصير الأمد في ثانية ثم يزول، ووجود الأجسام تطول مدته، فالمادة موجودة مئات الآلاف من السنين بادي الرأي، والصور الخيالية ذاهبة حالاً من خيالنا وإن خزنت في خزائن النفس، ولكن ليس اسم الوجود خاصاً بما طالت مدته، فالجرادة التي لا يحول عليها الحول موجودة، والفيل والغراب موجودان، فطول الأجل وقصره لا يؤثران في الوجود، كما أن الإحساس بالحواس الخمس وعدمه لا يؤثران في وجود ولا عدم، وخضراء الدمن التي تطلع في الغدوات، وتصير هشيماً في الضحى، وقد أزهرت في تلك المدة ولها بزر، ثم تخرج في اليوم الثاني كاليوم الأول موجودة كوجود النخلة التي تعيش عشرات السنين.

وبهذه القواعد التي قرّرناها عرفنا بمقدار طاقتنا وجود الله، وعرفنا المادة.

بيان الملائكة، والأرواح الأرضية، وأنها تعرف من هذا الدليل

قال أوسطهم: إن هذا المبحث قد عرّفنا كما أشرت أنت فيما تقدم علماً كان مخبوءاً، يقولون: من عرف نفسه عرف ربه. وجاء في كتاب «راجايوقا» الهندي الذي قرأته بالإنجليزية أن المدار على علم النفس، فالنفس مبدأ العلوم كلها، إذن معرفة نفوسنا عرّفنا ربنا، وإذا كان الأمر كذلك فإني أقول: لنسر في البحث إلى الأمام. قلت: سر. فقال: إن نفوسنا هي التي عرّفتنا ما تقدم، وأوصلتنا إلى الله، كما أن ضوء الشمس أوصلنا إلى معرفة قرصها وهكذا، أفلا تقول أيضاً: إن الكواكب كلها والشموس والهواء والماء والأرضين والذرات والميكروبات والحشرات، كل واحد منها فيه قوة عاقلة مستمدة من مصدر الوجود العام. وبعبارة أخرى: أفلا نقول إن العقل العام الذي امتد منه فرع إلى أجسامنا قد امتد منه فروع إلى كل كوكب، وكل شمس، وكل أرض، وكل ذرّة، وكل حجر، وكل نام، وكل جامد، وهذا الفرع الذي امتد منه هو الذي يعطي الجماد خواصه وتلاصقه، والمعدن خواصه، والنبات نفسه النامية، والحيوان نفسه المدركة، والإنسان نفسه الناطقة، وكل هذه جداول من النهر المستمد من البحر، فإذا رأيت الذرات البيضاء في دمائنا تساعد الحمراء في الدفاع عن أجسامنا أثناء الطاعون، فتجندل من الحيوانات الطاعونية آلافاً في ساحات ميادين القتال في الطحال والكبد والقلب وهكذا؛ فإننا نقول إذ ذاك: هذه نفوس صغيرة مستمدة من العقل الكلي الذي له التصرف في المادة كلها، ولذلك نرى نظاماً مدهشاً يدل على الوحدة الحقيقية للمبدأ الأصلي. فقلت: إن هذا المبحث يدل عليه أن جميع الديانات وعلماء الأرواح يذكرون الملائكة ويأمرون بالرياضة وبالصيام وبالصلاة، وفي الإسلام وجوب الإيمان بالملائكة واليوم الآخر، لمَ هذا كله؟ كل هذه الحقائق صادقة، وبهذا البرهان أمكننا أن نعرف عوالم وعوالم عقلية مشاكلة للعالم المحسوس، وهي في توزعها وتنوعها مشاكلة للعالم المشاهد، وبهذا تنحل مشاكل كثيرة أمام الإنسانية، ويفهم المسلمون خاصة بعقولهم بعد النقل آية: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴾[الانفطار: ١٠-١١]، وأمثالها من الآيات التي تعدّ بالعشرات.

الكشف الحديث والقديم والرؤى الصادقة

ثم قلت: وتنحل أيضاً بهذه البراهين مشاكل كثيرة كأمر الكشف، إن الكشف يرجع إلى فكرة خطرت لإنسان فتدبرها ثم أخذ يبحثها، ثم تظهر وتنفع الناس، فما ذلك إلا لأن هذه النفوس الإنسانية متصلات بعوالم اتصال الماء الذي نشربه بالمياه حولنا، والهواء الذي نستنشقه بالهواء حولنا، والضوء الذي ينير سبلنا بضوء الشمس، فهذه النفوس الجزئية التي ظهرت في أجسامنا تأتي لها آراء من النفوس المحيطة بها إحاطة الهواء بأجسامنا، فتارة تكون كهانة، وتارة تكون رؤيا، وتارة تكون كشفاً لأمر نافع كالكهرباء، والدليل على ذلك أن الذين كشفوا أكثر المخترعات لم يكونوا أنبغ أهل زمانهم، ولا أعظم مفكريهم، بل إن نفوسهم باتصالها واستعدادها لأمر خاص استمدت تلك الفكرة من العقل العام الذي يشمل هذه الكائنات كلها، وهذا العقل العام لا يحصره مكان، ولا يحويه زمان، وبرهانه أنه لا دليل على حصره، ولا وقوفه عند حد خاص، وعليه يكون الخلاء وراء الكواكب ليس يخلو من

امتداد هذا العقل العام الممتد من الله إليه . فلما سمع الطلاب ذلك قال أوسطهم : الآن عرفنا الأرواح الصغيرة والكبيرة ، وما تلا ذلك كله ، وأنه يعرف بمعرفة النفس ، أي : إننا لما عرفنا وجود نفوسنا قادنا ذلك إلى معرفة عقل عام ، وإلى معرفة مبدأ لذلك العقل العام ، وهو الله سبحانه ، وعرفنا أن الوجود هو الأصل ، والعدم هو الذي يحتاج إلى دليل ، وعرفنا ملائكة تعدادها وكثرتها على حسب تعداد وكثرة الموجودات المتحيزة الخاصة ، وأكثر من ذلك ، وأن الجاذبية والنمو والتلاصق ، وما أشبه ذلك ، كلها نتائج تلك النفس الكلية ، أو العقل الكلي الذي كان سبب معرفتنا به معرفة نفوسنا ، ولكني لا أرى ذلك برهاناً قاطعاً . فقلت : إنه برهان استقرائي ، أي : إننا بالاستقراء علمنا أن كل ما اشتملنا عليه نحن من جسم وتنفس وضوء فإنه متصل بما هو أعظم منه من جنسه ، فهذا دليل استقرائي ، وقياس الاستقراء وإن لم يكن دليلاً قاطعاً له منزلة شريفة في العلم في عصرنا الحاضر . فقال : ولكني أريد ازدياد المعرفة بالله نفسه ، ثم بعد ذلك تذكر آراء الأمم قديماً وحديثاً .

معرفة الله وعرض آراء علماء اليونان والمسلمين وأوروبا على هذه النظرية

فقلت : أما معرفة الله وإن كانت تقدمت فإني أزيد القول فيها تبياناً . اعلم أن هذه النفوس الناطقة فينا لم نرها ، فإني إلى اليوم لم أر بعينيّ إلا أجساماً ، أما النفوس فإني لم أرها . قال : نعم . قلت : والذي رأيته حركات وسكنات وأعمال ، فاستدللت بذلك على وجودها ، إذن وجود الإنسان ووجود الحيوان ، أي : وجود نفس صديقك ورئيسك وخليلك ، لم تعلم إلا بآثارها ، وهكذا وجود الله ، لا فرق بين الاستدلال على الله والاستدلال على وجود روح صديقك ، ولكنا لم نجد امرأة شكت في وجود زوجها ، ولا أمًّا شكت في وجود ابنها ، ولا صديقاً اشتبه في وجود صديقه ، بل كلهم يقولون هم موجودون بداهة كوجود الشمس في رابعة النهار ، هكذا وجود الله ، ولكن وجود الله كثرت الدلائل عليه ، فإذا كانت براهين وجود الله لا نهاية لها ، وبراهين وجود صديقك محدودة أصبح العقل البشري كالأعمى وكالمدهوش أمام اتفاق الأدلة وكثرتها في أحدهما ، وهو موقن بسبب حصر الأدلة وقلتها في الثاني ، وذلك لأن كثرة الأنوار تكاد تعمي الأبصار ، وهكذا كثرة أنوار الدليل تكاد تعمي البصيرة ، لذلك احتاج الإنسان إلى إقامة الدليل على وجود ما كان في غاية الوضوح للبصيرة حتى أعماها ، فاضطر إلى البحث من جديد . لهذا كان لا بد في معرفة الله تعالى من دليل ، هذا هو السبب في استدلال الناس على وجود الله وتأليف الكتب ، ولعل هذا يكفيك في هذا المقام . انتهت المقدمة ، والحمد لله رب العالمين .

الباب الأول: في ذكر مذاهب الطبيعيين

اعلم أن هذا الإنسان ونسبته إلى هذا العالم ومباحثه أشبه بزاوية منفرجة ، ففي أولها عند رأسها حاسة اللمس ، ويليها حاسة الذوق ، فالشم ، فالسمع ، فالبصر ، فالعقل ، ولكل منها درجة في رقيه ، ويقابل الإنسان في كل درجة من درجات إدراكه حيوان في مرتبته ، وهكذا يقابله في الحكماء طبقات مختلفات : الطبيعيون والدهريون والسوفسطائيون وأنكساغورس والإلهيون .

انظر ما يلي :

العقل: يدرك الكليات، وله خمس قوى، كل منها له مدركات تخصه، مثل: الحس المشترك، والخيال والمفكرة والذاكرة والحافظة، وبه يشبه الإنسان الملك، ويقابله مذهب أفلاطون وأرسطاطاليس اللذين إليهما وإلى سقراط ترجع جميع المذاهب بعد ذلك عند اليونانيين وعند علماء الإسكندرية، وعند المسلمين، وعند الفرنجة كما سترى إيضاحه قريباً إن شاء الله.

البصر: به يعرف الشكل، والحجم، والسطح، واللون، والقرب والبعد، والنور والظلمة. ويقابل به حيواناً ذا خمس حواس مثل ذوات الأربع، وبه يقابل مذهب سقراط وإليه ترجع المعرفة بالله تعالى، وأنه محيط بالعالم مدبر له.

السمع: به يعرف الإنسان صوت الإنسان والحيوان والجماد موسيقياً أو غير موسيقي، وبه يقابل حيواناً ذا أربع حواس مثل الخلد ــ بفتح الخاء واللام ــ الذي يعيش في الظلمة دائماً، فيكون أعمى، وهذا مقابل لمذهب أنكساغورس بأثينا سنة ٤٢٧ ق. م يقول: إن أول موجود هو العقل، وهو أي العقل مغاير للمادة، وهو المحرك لها، ولكن لا عمل له بعد ذلك.

الشم: وبه يعرف الإنسان الخبيث والطيب من الروائح، وبه يشبه حيواناً ذا ثلاث حواس، وبه يشبه علماء السوفسطائية إذ قالوا: لا علم ولا حقيقة. مثل بروتاغورس القائل: العلم باعتبار ما عند الإنسان وإن خالف غيره. ومثل غورغياس إذ يقول: لا علم مطلقاً بل هي إدراكات وقتية. ومثل بيرون الذي يشك في كل شيء، وهم العندية والعنادية واللاأدرية بالترتيب.

الذوق: وبه نعرف الحلاوة، والمرارة، والحرافة، والملوحة، والعذوبة، وهكذا، وبه يشبه الإنسان حيواناً ذا حاستين كبعض الدود على الشجر، ويشبه به الإنسان مذهب الدهريين مثل ديموقراطيس وقد جمع آراء من قبله، وقال: الطبيعة القديمة، وكذا الدهر. والمادة عنده مركبة من أجزاء لا تتجزأ.

اللمس: وبه يعرف الإنسان ثقلاً وخفة، وحرارة وبرودة، وهكذا، وبه يشبه حيواناً ذا حاسة واحدة كالدودة، وبه يشبه الطبيعيين مثل تاليس المالطي إذ قال: الأصل في الوجود الماء. ومثل أنكسيمانيس سنة ٥٢٨ ق. م إذ قال: إن أصل الوجود الهواء. وهكذا.

الإنسان: فقال أحد الطلبة لما رأى هذا الجدول: هذا جدول أشبه باللغز، فنحن نريد التفصيل ويظهر أن تفصيله يفهمنا هذه الدنيا في عصرنا، فإننا نحن الآن في زمان انتشار العلم ونظام المدنية، وقد رأينا علماء من الشرق في زماننا تلقوا علوماً من أوروبا، وأتوا بآراء متباينة، فهذا يشكّ في الدين، وهذا يؤمن بالله، ويكفر بالأنبياء، وهذا لا يرى غير المادة وهكذا، فإذا اطلع الناس على جميع المذاهب الفلسفية حكموا على كل قائل بالدرجة التي وصل إليها. فقلت: حباً وكرامة، سأشرح هنا بالتفصيل ما وصل إليه العلم قديماً وحديثاً إلى وقتنا الحاضر في أمر الله والعالم، فأما الاختراعات والفنون فأمرها بين أيدي عموم الأمم.

ثم قلت: اعلموا أيها الفضلاء أن الله تعالى عامل الأمم جميعها معاملة الفرد الواحد، وأقرب الأمم التي ظهر علم فلاسفتها هي اليونان، إن الأمم اليونانية ومن قبلهم ومن بعدهم كلهم كانت لهم ديانات، والعامة لا يشكون فيها، إنّما الذي يهمنا أن نذكر مباحث الفلاسفة الذين جعلوا العقل إمامهم

ولم يتقيدوا بالتقليد، وإنّما أردنا أن نذكر مباحثهم، لأن الله يقول: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [النمل: ٩٣]، ويقول: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣]، وهذه الإراءة تكون بالحس والعقل، إذن فلنجعل هذه الرسالة معرضاً لامتحان آراء الفلاسفة والحكماء، ونعرضها على ما قررناه في النظريات السابقة هنا في هذا المقام، ونعرف إلى أي مدى وصل النوع الإنساني في عقله، ومتى عرفنا ذلك ووقفنا على الحقيقة حينئذ نقول: أيها الشرقيون أكملوا ما نقصته الإنسانية، وقوموا بخدمتها، وجدّوا لإسعادها، ولا تكونوا من الغافلين. فقالوا جميعاً: هذا حسن جداً. فقلت: يعلمنا الله بهذه المباحث كيف نرتقي في التعليم.

الدرجة الأولى: حاسة اللمس في الإنسان ومذهب الطبيعيين

لما خلق الله الطفل جعله يشعر بما حوله من حرارة وبرودة، وثقل وخفة، ونعومة وخشونة، هكذا حصل في الأمم، فإن تاليس المالطي المتقدم ذكره وأنكسيمانيس وأنكسمندر، وأولهم قال: أصل الوجود الماء، وثانيهم قال: أصله الهواء، وثالثهم قال: أصل الوجود مادة لا صورة لها معينة دائمة التحرك، ومن معهم قالوا: نحن ليس عندنا إلا الماء، أو الهواء، أو النار، أو الأرض، أو المادة العمومية فإما أن يكون الماء هو الأصل وقد جمد فصار أرضاً، أو ألطف فصار هواء، وإما أن يكون الأصل هو الهواء فلما تكاثف صار ماء، ثم لما تكاثف الماء صار أرضاً، وهكذا قالوا في النار وكذلك الأرض، فهؤلاء في الإنسانية يشبهون الطفل وهو في أول أدوار حياته، وهذه الدرجة في حاسة اللمس، وفي الفلسفة الحسية تشبه حياة الدودة، فليس لها حاسة إلا اللمس، ومثلها العلق وغيرهما، فالطفل في أول أمره كالدودة وكالفلاسفة الطبيعيين.

الدرجة الثانية في الإنسان: درجة حاسة الذوق

هي أرقى مما قبلها، وبعض الدود الذي يشاهد على سوق النبات له حاستان، فهو أرقى مما له حاسة واحدة، والذوق أرقى من اللمس، لأن له اختيار الأغذية المنمية للأجسام، ويشبه الطفل في هذه الدرجة علماء الدهريين، وهؤلاء يقولون: لا دين، ولا رب، ولا رسول، ولا كتاب، ولا ميعاد الخ، وذلك أن الإنسان لم يزل ولن يزال والدهر دائر، لا أول له ولا آخر، ولقد قال هذا القول اليعقوبي في تاريخه المجلد الأول صفحة ١٦٨، ومثله الغزالي في المنقذ من الضلال، وسماهم زنادقة، وقد نقل آراءهما العلامة ستتلانه الطلياني في زماننا، ووازنها بما في كتاب «سنبقليوس» في كتابه «السماء والعالم»، فوجد أن هذا القول نقله هذا العالم عن «أنباذقليس»، وهو أن العالم لم يحدثه أحد لا إله ولا بشر، بل كان أبداً. انتهى.

وهكذا نقل عن أرسطاطاليس في المقالة الثالثة من كتاب «السماء والعالم» ما نصه: أما من ذهب إلى قول «أنباذقليس» و«ديموقراطيس» فإنه قال: إن الأركان لن تحدث باستحالة بعضها إلى بعض، بل لا حدوث إلا في الظاهر، فإنها موجودة على حدتها فتفترق بعد الاجتماع. انتهى.

ونقل عنه في كتاب «الكون والفساد» في المقالة الأولى، ونقل عن «ديوتانسن» في تاريخ الحكماء مثل ذلك، ثم قال العلامة ستتلانه المذكور: إن هذا القول مطابق فصلاً فصلاً لما ذكره اليعقوبي.

الدرجة الثالثة للإنسان الفرد: أن تكون له حاسة الشم

وهي أرقى من سابقتها، لأنها تحدثه عما بعد عنه، وتأتي له بأخبار المشمومات التي لا تلامسه، وهذا هو الآتي في قوله: ولما كان الإنسان العام في ارتقائه يجب أن تكون له حاسة أرقى من حواس الدهريين والطبيعيين، هنالك خلق له ديموقراطيس فقال بالجزء الذي لا يتجزأ، ومعنى هذا أنه قدر أن يتحرك إلى البحث، فأخذ يبحث في أجزاء المادة التي اكتفى سابقوه بالنظر إلى ظاهرها، فهو رجع المادة إلى أجزاء تتفرق وتجتمع، إذن هذا أخذ مذاهب من قبله وأراد تلطيفها وتوحيدها، وتوحيدها لا يتم إلا بإرجاعها إلى الأجزاء التي لا يمكن تحليلها، فبدل أن كان الأصل دائراً بين الماء والهواء الخ رجع إلى أصل واحد وهو الأجزاء العامة الأزلية الأبدية، وهذا المذهب اقتبس منه الأشاعرة الجزء الذي لا يتجزأ، وأخذ منه إبراهيم النظام ـ بتشديد الظاء ـ من متكلمي المعتزلة القول بالكمون، وأخذ منه الطبيعيون والملاحدة قولهم بإنكار الباري تعالى ووحدة الوجود، ويقول الأستاذ ستتلانه المذكور: ومن طابق قول ديموقراطيس بما عليه الطبيعيون من الفلاسفة في عصرنا هذا لم يجد فرقاً بين القولين، ولم ير تفاوتاً إلا في العبارة، أما المعنى فلا. ثم قال: والحق أن من اقتصر على الطبيعيات ولم يقل بغير المحسوسات لا يسعه إلا اقتفاء أثرهم، والتحلي بشعائرهم، مع إن من تبصر في عواقب الأمور تحقق أن مثل هذا الرأي في كل زمان لا يفضي إلا لإنكار الحقائق، وهدم دعائم العقل، كيف لا ومن قال إنه ليس في الوجود إلا المحسوس، ولا شيء سواه، كيف يمكن له أن يحكم بالوجود؟ قال: وقد أصاب المحقق ناصر الدين الطوسي في شرح المفصل حيث قال نقلاً عن أرسطاطاليس وغيره: الحس إدراك فقط، والحكم تأليف بين مدركات بالحس أو بغير الحس، وليس من شأن الحس التأليف الحكمي، لأنه إدراك فقط، فلا شيء في الأحكام محسوس أصلاً، فإذن كل ما هو محسوس لا يمكن أن يوصف من كونه محسوساً بكونه يقينياً، أو غير يقيني، أو حقاً أو باطلاً، أو صواباً أو غلطاً، فإن هذه الأوصاف من لواحق الأحكام انتهى كلامه.

قال: وهو واضح بمن تحقق ماهية الحس وأنه قاصر بالضرورة على خصوص المدرك لا يتعداه. إلى أن قال: فكل فلسفة مقصورة على مجرد الحس لا يكون مثلها حينئذ إلا الشك في الحقائق، كما وقع في اليونان في أثناء القرن الرابع قبل المسيح.

الدرجة الرابعة للإنسان

حال الطفل وحال الحيوان الذي يستعمل أربع حواس أعلاها السمع

فهو أرقى، وقد أمكنه أن يتسع مدى إدراكه لما هو أبعد من المشمومات مثل حيوان الخلد ـ بفتح الخاء واللام ـ الذي يعيش في الظلمات، فهذا لا يرى النور، ولا النجوم، هكذا الأعمى من نوع الإنسان لا يراهما، فهو إذن في حال أقل مما بعده، وأوسع مما قبله، إذن خلق الله في الإنسانية الكبرى طبقة أرقى وهي:

السوفسطائية

قال اليعقوبي في تاريخه مجلد ١ صفحة ١٦٦ ما نصه: السوفسطائية: وتفسير هذا الاسم باليونانية: المغالطة، وبالعربية: التناقضية. يقولون: لا علم ولا معلوم، إلى آخر كلامه، وقد تعقبه

الأستاذ سنتلانه وخطأه، فقال: السوفسطائية باليونانية: معلمو الحكمة، أو طالبو الحكمة. وصوّب كلام الشريف المرتضى في الإتحاف مجلد ٩ صفحة ٤١٨ إذ قال: السوفسطائية طائفة من حكماء اليونان ينكرون حقائق الأشياء، ويزعمون أنه ليس هاهنا ماهيات مختلفة، وحقائق متميزة، فضلاً عن اتصافها بالوجود، بل كلها أوهام لا أصل لها، وسوفسطاء كلمة يونانية معناها طالب الحكمة. انتهى كلام الشريف الذي نقله الأستاذ سنتلانه.

ثم قال الأستاذ المذكور: والحاصل أن السوفسطائية قوم اتخذوا الفلسفة حرفة كانوا يجتازون المدن والأقطار، يدّعون القدرة على كل علم، وعلى تعليمه أيضاً في أقرب وقت، مع أنهم أجمعوا أنه لا علم في الحقيقة ولا حكمة، وأن قصارى ما يدركه الإنسان من الوجود على فرض وجوده هو ما يدركه بحواسه الخمس، ولما كان الإدراك الحسي مما يختلف بين الناس من إنسان لآخر، بل وفي الإنسان الواحد باختلاف الأوقات والصحة والمرض، ومع ذلك يتغير تغيراً مستمراً، لزم من ذلك أنه لا حق ولا باطل، ولا خير ولا شر، بل كل ذلك مما تواطأ الناس عليه، ليستقيم به معاشهم، ويكفي بعضهم شر بعض، وهو نفسه أمر ليس بموجود طباعاً. ثم قال: وبعد إجماعهم على هذه الأصول قد اختلفوا، فذهب:

(١) بروتاغورس إلى أن ما ظهر لكل واحد حقاً فهو حق بالنسبة إليه. فقال: إن الإنسان مقياس الأمور في وجُودها، وفي عدم وجودها، أي ما رآه كل واحد موجوداً فهو عنده موجود، وما رآه معدوماً فهو بالقياس إليه معدوم، ولا يتعدى الحكم إلى غيره.

(٢) وذهبت طائفة أخرى اشتهرت باسم «غورغياس» إلى أنه لما كانت الأشياء في حكم التغيير الدائم كان الإنسان غير متمكن من إدراك الحق بوجه، وغاية ما يقدر عليه أن يقتصر على ما يدركه في كل آن من ظواهر الأشياء لا يتعدى حكمه فيها إلى ما يدركه في آن آخر، ولا يقول بوجود شيء البتة، إذ حقيقة الأشياء على فرض وجودها معاً لا طاقة للبشر عليه. قال: والمذهب الأول عند العرب يسمى مذهب العندية، والمذهب الثاني العنادية. قال: وقد ألحقوا بهما مذهباً آخر ولكنه ليس من السوفسطائية في شيء، وهو مذهب «بيرون» كان معاصراً للإسكندر الرومي، ذهب إلى الشك المطلق، وهو الإمساك عن الجزم بشيء أحق هو أم باطل. قال: ويسميه العرب بمذهب اللاأدرية قال: وإليهم أشار نصير الدين الطوسي في حاشيته على المحصل صفحة ٢٣ وذكر ما يقرب مما تقدم فلا نطيل فيه.

فهاهنا خرج أهل البحث من انحصار أفكارهم في الماء، أو الهواء، أو أجزاء المادة. وبعبارة أخرى: إن هذه الطبقة وهم السوفسطائية أشبه بالجنين خرج من بطن أمه، فإذا كان من قبلهم قد حبسوا في العناصر من ماء وهواء ونار وأرض، أو في أجزاء تلك العناصر؛ خرج هؤلاء من ذلك السجن المادي، وقالوا: نحن لا نتقيد بقيد ما، فهؤلاء أشبه بحاسة السمع وهم أشبه بطبقة الإنسان، وقد انضمت حاسة السمع إلى الحواس السابقة. ثم قال: هذه هي فلسفة اليونان في أواخر دهرها الأول، وهو منتصف القرن الرابع قبل المسيح من التردد والارتباك بين مذاهب الطبيعيين، ومشاغبات

السوفسطائية، وأخذ يدحض هذا المذهب. ومما قال: وقد قيل: إن الشك يهدم نفسه. وذكر حكاية « ديوجانس » الكلبي أنه حضر مجلس بعض السوفسطائية فسمعه ينكر الحركة ويكثر البراهين على عدم وجودها، فلم يجبه « ديوجانس » بحرف، وأخذ يتمشى في المجلس ويضرب بعصاه الأرض، إشعاراً منه بأن مثل هذا القول المنكر للظواهر لا يحتاج في نقضه إلى بيان. ثم نقل عن المتكلمين المسلمين في كتبهم: إن هؤلاء الشاكين لا ينبغي مناظرتهم بل إحراقهم بالنار حتى يحسوها فيعرفوا ما كانوا ينكرون فيمكن التكلم معهم. قاله الإمام الرازي في المحصل، والشيخ التفتازاني في شرح العقيدة النسفية. انتهى كلام الأستاذ ستتلانه.

ثم إني هنا لا بد لي أن أنقل لكم أيها الأذكياء كلام الأستاذ ستتلانه بنصه وفصه، لأنه فيلسوف أوروبي، ليكون ذلك زجراً لهؤلاء المتعلمين في الشرق، الذين يرجع بعضهم من أوروبا وهم إما دهريون وإما طبيعيون، وإما سوفسطائية. وهم يجهلون ما عند أساتذتهم من العلم، فيرجعون وهم غافلون. قال ما نصه بالحرف الواحد: أما القول بالطبيعة وأن لا شيء غيرها، فهو لا يرضي العاقل المتبصر. كأنه يقول: نعم. لا أنازع في كون الطبيعة والحركة من أصل الموجودات، وإنما توقفت في كيفية صدور الفعل منها، فلو لم يكن هناك إلا مادة تتحرك من الأبد إلى الأبد؛ فمن أين حصل لهذا العالم النظام العجيب، والترتيب الغريب، الذي حارت فيه العقول، وقصرت عن إدراكه الفحول، كيف ينسب ذلك إلى الاتفاق والمصادفة، ومجرد البحث؟ ليت شعري كيف بقيت على تآلفها، وكيف تجددت على نمط واحد المرة بعد المرة، وقد شهدت المعاينة بأن حركات أجزاء لا نهاية لها ولا محرك لا تفضي إلا إلى غاية الالتباس وعدم القياس، هذا لعمري كمثل من وضع حروف المعجم في ظرف أو في صندوق، ثم جعل يحركها يوماً بعد يوم طمعاً منه أنها تتألف من تلقاء نفسها، فيتركب منها قصيدة بليغة، أو رسالة عميقة في المنطق، أو كتاب في الهندسة دقيق، أليس هذا من السفه المبين؟ فإنه لو دام على تحريكها السنين والدهور ما حصل من كدّه إلا على حروف، فكيف يتصور حدوث هذا الموجود بما هو عليه من الإتقان والإحكام وتطابق الأجزاء وعجيب مناسبة بعضها إلى بعض من حركات اتفاقية في خلاء لا نهاية له.

قال أرسطاطاليس في كتاب « سمع الكيان »: إن كل نظام يدل على وجود العقل، وفضلاً عن هذا إن ما حصل اتفاقاً لا يحصل إلا مرة واحدة، ولا يتكرر، ولا يسوغ بناء حكم عقلي عليه، ولا يقبل القياس بخلاف ما شهدت به التجربة في عالمنا من الثبوت، ولولا هذا ما أمكن إنشاء علم من العلوم الرياضية والطبيعية. هذا وإذا فرضنا وجود مجرد الطبيعة ولاشيء سواها؛ فمن أين هذه القوة العقلية التي يجدها كل واحد من نفسه، وهي مع ما فيها من العجز والقصور من أظهر الشواهد على وجود ما يخالف مجرد المادة في هذا العالم، ولا سبيل من المادة إلى الأفعال العقلية لما بينهما من المغايرة الأصلية، فوجود مثل هذه القوة يستدعي وجود جوهر عقلي يجانسها ويماثلها ويكون مركزاً لها. ثم قال: ومن المحتمل أن ما نشعر به من تصور المعقولات، والكشف عن الكيان وتفريق القضايا وتركيب القياسات لم يكن في نفس الأمر إلا من اصطكاك جزء من المادة بجزء آخر، وهل يسوغ في

العقل أن ما تضمنته عقولنا من الأبحاث الدقيقة، كالمنطق والرياضيات والإلهيات، وما فتنت به القلوب من الشعر الرائق، والمطرب من الألحان، وسحر البيان، أصله من تلك الأجزاء، كانبعاث النار من اصطكاك حجر بحجر، وذلك في خصوص النار، إذ ليس بين مادة النار ومادة الحجر فرق كبير، وإنّما ليت شعري ما النسبة بين الحجارة والعقل؟ فإذا كانت المادة غير قادرة أن تكون علة لنفسها، فمن باب أولى وأحرى أن لا تكون علة لما هو أعلى منها مكاناً وأهم شأناً في درجات الوجود وإلا لكان الأخس أصلاً لما هو أرفع، وهذا مما يستبعده العقل، وتأنفه الفطرة السليمة. انتهى كلام الأستاذ سنتلانه مع تغيير يسير جداً.

هنالك سئم اليونانيون من هذه الحيرة، فلا العناصر كالماء، ولا الهواء أصل الوجود، ولا الجزء الذي لا يتجزأ، ولا مذهب الشك، أو العندية، أو العنادية، تغني فتيلاً عن معرفة الحقائق، فظهرت طائفة أخرى وهم:

شيعة فيثاغورس

هذه الشيعة ظهرت في أثناء القرن الخامس قبل المسيح، فتوطنت المستعمرات اليونانية في إيطاليا واسمها شيعة فيثاغورس.

هذه الشيعة يقول رئيسهم: إن كل شيء أصله العدد، فما من شيء إلا وفيه للقياس وللعدد حظ. ولهم عناية بالعلوم الرياضية، ولا سيما الهندسة والحساب، فأصل ما في هذا العالم العدد. وقد دحض العلامة سنتلانه الطلياني كل ما يعزى إلى فيثاغورس من المبالغات في كتب أسلافنا العرب. وقال: لم يثبت إلا هذه الفكرة عنه.

ثم ظهر بعده « أنباذوقلس » فقال: إن هناك قوى محركة للمادة غير المادة سماها بالمحبة والعداوة، فالمحبة تتصل بالأشياء، وبالعدوان تتفرق.

فهذان المذهبان عدلا عن مذاهب اليونانيين الأولى، فالفيثاغوريون عرفوا النظام الهندسي والعددي في العالم، ولا جرم أن هذا لا يكون إلا نتيجة لعقل يضبط الحساب، ولكن لم يقولوا بالعقل، ولكن هؤلاء أرقى من السوفسطائية، وأنباذوقلس لاحظ شيئاً سماه المحبة والعداوة للاتحاد والتفريق، فانظر ماذا جرى:

ظهر أنكساغورث. قال الأستاذ سنتلانه: وكان في أواسط القرن الخامس ق. م بمدينة أثينا سنة ٤٢٧ أشار إليه أرسطاطاليس بمقالة أولى من كتاب « ما بعد الطبيعة » فقال بعد حكاية الأقدمين ما نصه: ثم نبغ بعد ذلك رجل فقال: إن العقل هو مبدأ الوجود، فكان كالصاحي فيما بين قوم سكارى لا يفقهون. اهـ.

قال: والحق أنه منذ ذلك العصر نشأت الفلسفة اليونانية نشأة جديدة، فهي كالطفل إذا قوي واتسع نطاق عقله وجاء يتصور المبادئ بعد ما كان في المحسوسات مغموراً، ولم يخف على مؤرخي العرب هذا الفرق بين الدور الأول والدور الثاني. فقال القفطي في تاريخ الحكماء ما نصه: وكانت هذه الفلسفة، أي: الطبيعة، شائعة في اليونان إلى ما قبل زمان أرسطاطاليس بمائة سنة.

ذكر هذا أرسطاطاليس في كتاب الحيوان فقال: لما كان منذ مائة سنة، وذلك منذ زمن سقراط، مال الناس عن الفلسفة الطبيعية إلى الفلسفة المدنية، والفلسفة المدنية هي فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس. انتهى كلامه.

فإذا راجعنا كتاب الحيوان الذي أشار إليه القفطي وجدناه مطابقاً لما ذكره. فمهما وجدتم في الكتب العربية ذكر الفلسفة المدنية فافهموا أنها فلسفة الإلهيات التي أنشأها سقراط وأفلاطون، وأنها مغايرة لما سبقها من الفلسفة الطبيعية، وفلسفة الدهرية.

وحاصل قول أنكساغورس أن المبدأ الأول في الموجودات هو العقل، وهو جوهر بسيط مفارق للمادة موجود بنفسه، وهو أصل نظام العالم، والمحرك الأول للمادة، قال: كان العقل أولاً والمادة على غاية من الاضطراب والالتباس، فأثر العقل فيها وجعلها تركيباً محكماً، وذلك أنه صدرت منه حركة إلى جزء من تلك المادة، فتولدت من تلك الحركة حركة أخرى، فتجاوزت إلى ما جاورها من المادة، فتولدت من هذه الثانية حركة أخرى، فتجاوزت مثل الثانية إلى ما جاورها، وهلم جراً إلى غير نهاية. قال: فبموجب هذه الحركات المتولدة بعضها من بعض انتظم العالم وتألفت أجزاؤه من غير أن يكون للعقل في ذلك دخل ولا تأثير. فأورد بعض الحاضرين على هذه المقالة الشبهة، فقال: إنني قرأت في كتاب الشهرستاني «الملل والنحل» عند ذكر فلاسفة اليونان ما ملخصه: الحكماء السبعة الذين هم أساطين الحكمة هم طاليس الملطي وأنكساغورث وأنكسيمانيس وفيثاغورث وسقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس، وتبعهم جماعة من الحكماء مثل فلوطرخيس وبقراط وديموقراطيس والشعراء والنساك، وإنّما يدور كلامهم في الفلسفة على ذكر وحدانية الباري تعالى وإحاطته علماً بالكائنات كيف هي، وفي الإبداع، وتكوين العالم، وأن المبادئ الأولى ما هي؟ وكم هي، وأن الميعاد ما هو؟ ومتى هو؟ انتهى.

ثم ذكر طاليس فقال: إنه هو أول من تفلسف في الملطية. فقال: إن للعالم مبدعاً لا تدرك صفته العقول من جهة جوهريته، وإنّما يدرك من جهة آثاره، وهو الذي لا يعرف اسمه فضلاً عن هويته. إلى آخر ما قاله، وقد أتى بمثل ما ذكر في حق أنكسيمانس، فقال: إن مذهبه أن الباري تعالى أزلي لا أول له ولا آخر، وهو مبدأ الأشياء وهكذا، وهو قريب من علماء التوحيد في الإسلام. ثم نقل عن أنكسيمانس أيضاً أن أول المبدعات من العوالم هو الهواء، ومنه تكوّن جميع ما في العالم. ثم قال في صفحة ٢٦٠ ما يأتي: إنه نزّل العنصر منزلة القلم الأول، والعقل بمنزلة اللوح القابل لنقش الصور، ورتب الموجودات على ذلك الترتيب، وهو أيضاً من مشكاة النبوة اقتبس، وبعبارة القوم التبس. ثم قال: إن أنباذوقلس كان في زمن داود عليه السلام مضى إليه وتلقى عنه، وقال في حق فيثاغورث أيضاً إنه كان في زمن سليمان عليه السلام، وإنه أخذ الحكمة من معدن النبوة، ثم إن اليعقوبي في المجلد الأول صفحة ١٣٤ قال في حق فيثاغورث إنه أول من نطق بالأعداد والحساب والهندسة ووضع الألحان. وكان في زمان ملك يقال له «أغسطس» وهرب منه وتبعه، فركب فيثاغورث البحر حتى صار إلى هيكل في جزيرة، فأحرقه عليه الملك الجبار.

هذا كلام المؤرخين، وأنت تقول لنا غير ذلك، تقول إن طاليس المالطي يقول: أصل العالم هو الماء. ولبس يعتقد بموجد للعالم سواه، وأن أنكسيمانس يقول: إن أصله الهواء، ولا يعتقد في الإله أيضاً. ومثله أنكسيمندر إذ يقول: إن العالم مادة لا صورة لها معينة، فهي دائمة التحرك، تتغير تارة وترجع إلى أصلها أخرى، وقلت: إن ديموقراطيس لا يعتقد بالإله، بل يقول بالجزء الذي لا يتجزأ، وهو أصل العالم، ومنه وجد. وقلت: إن فيثاغورث لم يذكر إلا الأعداد، ولم يحم حول الألوهية، وهكذا أنباذوقلس فإنه أرجع العالم للمحبة والكراهة، فهذا كلامك، وذلك كلام المؤرخين، فأيّ القولين نصدق؟ أقولك أم أقوال اليعقوبي والشهرستاني في «الملل والنحل»؟ فقلت: إن هذه التي ذكرتها أيها الذكي قد ذكرها بنفسها وذكر قريباً منها الأستاذ سنتلانه الطلياني المذكور، وهذا الرجل أقرب إلى علماء اليونان منا. ولما نقل هذه الأقوال نفاها وأثبت بالدليل استحالة بعض ما جاء فيها، بمثل أن فيثاغورس كان بينه وبين أغسطس أكثر من ٤٥٠ سنة، وكل ما ذكر من التوحيد والمعرفة قال إنه لا أصل له، وعليه يكون ما قلناه الآن هو لبّ الفلسفة، وأنها ارتقت حالاً بعد حال حتى وصلت إلى سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس، وهؤلاء هم الذين لهم السلطان العلمي في العالم الغربي والشرقي كما بيناه. ثم قلت: لقد وصلنا في الكلام إلى رأي أنكساغورث القائل: إن المبدأ الأول في الموجودات هو العقل. ولكن لم يجعل لهذا العقل عملاً إلا في أول الخلق ثم يترك العوالم وشأنها، فكان ذلك مما حرّض سقراط على إنشاء مذهبه.

مذهب سقراط

قال: قال سقراط في بعض المحاورات الأفلاطونية المشهورة بـ« فيدون » ما ترجمته لكم حرفياً: إني لما كنت حديث السن كنت مولعاً بالبحث عن الطبيعيات وأسبابها وأصولها، والقوى المحركة لها، فكنت لا أرتضي قول الطبيعيين في ذلك، ولم أجد قولاً آخر يقاومه، فبقيت محيراً مذبذب الرأي لا أدري ما أعتمده، وبينما أنا هكذا ذكر لي بعض أحبائي أن هناك كتاباً منسوباً إلى أنكساغورث صرّح فيه بأن أصل الوجود العقل، فسررت من ذلك سروراً عظيماً، وبادرت إلى اقتناء الكتاب لأطالعه بشوق وأسرعت في مطالعته، فلم ألبث إلا وقد تبدل سروري أسفاً، وأملي يأساً، لما رأيت هذا الرجل بعد نصبه العقل منبعاً للموجودات تركه في زاوية الخمول بطالاً، وركن في شرح الموجودات إلى تولد الحركات بعضها عن بعض، إلى غير ذلك من الأسباب الطبيعية مما ليس فيه للعقل تأثير، وذلك من جعل آلة وصانعاً، ثم قال: إن الآلة تستغني عن الصانع، وإنها قادرة على إتمام ما أعدّت له من تلقاء نفسها. ليت شعري ما الحاجة حينئذ إلى الصانع إذا كانت الآلة نفسها كافية؟ فتركت الكتاب، ورجعت أبحث عما يقوم لي مقام ما ساءني فقده في كلام أنكساغورث. انتهى كلام أفلاطون حاكياً عن سقراط، ومنه يفهم ما حمل سقراط في الحياد عن كلام أنكساغورث وإنكار مذهبه.

قال سقراط في محاورة أخرى حكاه عنه تلميذه « أكسانوفون » في كتاب التذاكير: لا تنكر أيها الحبيب أن روحك التي في جسدك تتصرف فيه كما شئت، فعليك أن تعتقد أن العقل هو أصل الأشياء والمتصرف فيها كما شاء. انتهى كلامه.

وقال أفلاطون في محاورة أخرى من المحاورات الأفلاطونية: أوَليس من الظاهر أن المستعمل لآلة هو غير الآلة التي يديرها ويباشرها، على ذلك يجري القياس في الأسباب الطبيعية، فإنها كالآلة بيد الصانع الأول، وهو العقل يتصرف فيها كيف شاء في قضاء مراده، ولزم من ذلك أن المهم في العمدة في معرفة الموجودات عللها العقلية، لا ما هو مسخر لها من الأسباب المادية، فإن الصانع العاقل لا يفعل شيئاً إلا لغرض ولا يصنع شيئاً إلا لعلة، فما من موجود إلا وله على رأي سقراط فائدة قد وضع لأجلها ومصلحة هي الغاية المقصودة من تركيبه، يتأتى للعاقل أن يتوصل إليها في الأغلب، إذ هي صادرة عن عاقل. هذا كله كلام الأستاذ سنتلانه الطلياني نقلته من كتابه مع حذف يسير لا يخلّ بالمعنى.

وهاك محاورة أخرى لسقراط نقلتها من الكتاب المذكور هذا نصها منتخبات من تذاكير أكسانوفون منها في الفصل الأول من الكتاب الأول. قال أكسانوفون:

إني أريد أن أحكي هنا ما جرى بمحضري من الكلام بين سقراط وأرسطوديموس الملقب بالصغير، وقد جرى بنا سياق الحديث إلى ذكر الإله، وكان سقراط قد علم منْ أرسطوديموس أنه لا يقرّب القرابين ويستحقر صنعة الكهانة، ويسخر ممن يعتني بالعبادة. فقال: أفي الناس من يعجبك براعته في الصنعة؟ فقال: نعم. الشعراء والمصورون، من كان منهم أبرع من غيره. فقال سقراط: أيما عندك أرفع شأناً، أمن يصنع التماثيل العارية عن الحركة والعقل، أمّن يصورّ الأشباح الحية المتحركة؟ فقال: من يصنع الصور الحية، اللهم إلا إذا كانت تلك الصور من عمل المصادفة والاتفاق لا من عمل العقل. قال سقراط: إذا فرضنا أشياء لا يظهر المقصود منها، وأشياء أخرى بينة القصد والمنفعة، فما قولك في تلك الأشياء، ما هي عندك من فعل العقل، وما هي من فعل الاتفاق؟ قال: لا شكّ أن ما ظهر قصده ومنفعته من فعل العقل. قال سقراط: أوَلست ترى أن صانع الإنسان في أول نشأته جعل له الآلات والحس، لما في تلك الآلات من المنفعة الظاهرة، فأعطاه البصر والأذنين ليبصر ويسمع ما يكون لعيشه صادقاً، وما فائدة الروائح لو لم يكن لنا الخياشيم، وكيف ندرك المطاعم ونفرق بين المرّ والحلو والمز لو لم يكن لنا لسان نذوق به. إن بصرنا معرّض للآفات، أوَليس ترى كيف اعتنت القدرة الإلهية بذلك فجعلت الأجفان له كالأبواب لتمنع ما يصيب البصر، وجعلت الأشفار كالمناخل لتقيها من أضرار الرياح، فما قولك في آلة السمع وهي تقبل جميع الأصوات ولا تمتلئ أبداً، أما رأيت الحيوان كيف رتبت أسنانها المقدمة وأعدت لقطع الأشياء، فتلقيها إلى الأضراس فتدقها دقاً، فإذا تأملت في ترتيب ذلك أيمكن لك أن تشك هل هي من فعل الاتفاق أو العقل. قال أرسطوديموس: نعم، إذا تفكرنا في ذلك لا نشك في أنها من فعل صانع حكيم كثير العناية بمصنوعاته. قال سقراط: اعتبر ما فعل في الذكور من حب التناسل، وفي الإناث من الحنين إلى بنيها، وما هو مغروس في كل حيوان من الشوق إلى الحياة والنفور من الموت، أليس ذلك من عناية صانع قد أراد بقاء مصنوعاته؟ فإذا تحققت وجود العقل فيك فكيف تظن أن لا وجود للعقل فيما هو خارج عنك، مع أنك إذا تفكرت في الأرض واتساعها، وقست ذلك بجسدك؛ فقد تحققت أنه ليس لك من الأرض إلا أخس جزء وأقله، وكذلك الرطوبة التي تركب منها جسدك، فإنها ليست من مجموع الرطوبة إلا أصغر جزء، وكذلك بقية ما في

جسدك ، فكيف تظن أنك منفرد وتستبد بالعقل دون بقية العالم على سعته ورحبه ، وأن هذه المصنوعات التي لا تدخل تحت الحصر ، وهذا النظام الغريب الحاصل فيها إنّما نشأ عن عدم العقل . قال : لا والله ، وإنّما لا أرى أصحاب هذه العجائب كما أشاهد أصحاب التماثيل والصور المصنوعة في عالمنا هذا . قال سقراط : إنك لا ترى نفسك المدبرة لبدنك ، فعلى هذا كان ينبغي لك أن تقول إن أفعالك صادرة عن اتفاق ومصادفة لا عن عقل . قال : إني لا أستصغر اللاهوت ، وإنّما أراها تجلّ على أن تكون محتاجة لعبادتي . قال : فإذا كانت لا تجلّ عن العناية بك كان من الواجب أن تحترمها . ثم قال : اعلم أيها الحبيب أن نفسك تدبر جسدك ما دامت مقارنة إياه ، فعليك أن تعتقد أن الحكمة الموجودة في العالم تدبر كل شيء كما شاءت ، أتظن أن بصرك يقدر على إدراك ما بعد عنك على مسافة بعيدة ، وأن بصر الإله لا يقدر أن يحيط بجميع ما في العالم . انتهى ملخصاً منقولاً عن الأستاذ ستتلانه .

ويناسب هذه المحاورة التي بين طيماوس وسقراط التي ذكرها أفلاطون . قال طيماوس : يا سقراط ، لنذكر الآن السبب الذي حمل منظم هذا العالم على تنظيمه ، فأقول : إنه كان جواداً ، والجواد لا يدخله نوع من أنواع البخل ، فأراد أن تكون جميع الأشياء حسنة على قدر الإمكان ، فمن ذهب في بيان سبب تكوين العالم إلى هذا الرأي ؛ وهو رأي الحكماء ؛ فقد يكون على الصواب والسداد ، ثم كان مراد الإله أن يكون كل شيء خيراً ولا شيء شر على قدر إمكانه ، فأخذ جميع الأشياء المرئية وهي حينئذ مضطربة تتحرك بلا نظام ولا ترتيب ، فجعل النظام فيها بدل ما كان من الاضطراب .

ثم بعد كلام طويل بين تصوير الأبدان من العناصر على يد الله وتصوير الآلات المختلفة من البصر والسمع وغيره ، قال : إن البصر نار جعله الإله في داخل العين ، فمن تلاقيه بالنار الموجودة في الخارج يتولد الإبصار . وبسط القول في مدح البصر وبيان منافعه . قال : إن فائدة البصر على ما أرى أنه لو لم تكن لنا القدرة على إدراك الشمس ما كنا نتمكن من الكلام على السماء والعالم ، إذ من مراقبة اليوم والليل وتحوّل الأشهر والأعوام حصل لنا العلم بالأعداد والشعور بالزمان ، وحدث فينا الشوق لمعرفة الطبيعة والعالم ، فمنه نشأت الفلسفة وهي أنفس ما أنعم الله به على الناس .

ثم قال : إن الإله لم يقصد من إيجاد البصر إلا أن يمكننا من تأمل دوران العقل في السماء لنستفيد منها تقويم دوران عقولنا ، وتنظيمه على نسق ما نراه في السماء من ترتيب العقل في دورته ، إذ هو وذلك طبيعة واحدة . انتهى كلامه .

وجاء في الفصل الخامس من الكتاب الرابع من المذاكرات ما يأتي : كان سقراط كثير العناية بتدريب أصحابه على العمل فضلاً عن تعليمهم أصول الفضائل ، وكان يعتقد أن العفة أصل كل خير ، فكان دائم المواظبة عليها ، يكرر ذكرها في محاوراته ، ومن ذلك ما جرى بينه وبين «أوتوديمس» .

قال سقراط : أوَليس ترى يا حبيبي أن الحرية من أنفس الأشياء للذوات وللمدن . قال : هي عندي أفضل الخيرات وأنفسها . قال : فإذا سخر الإنسان نفسه للشهوات حتى صار لها كالعبد مقيداً عن إتيان الفضائل أتراه حراً؟ قال : أرى أن لا أعبد منه . قال : كأنك ترى أن الحرية هي القدرة على فعل ما هو حسن ، والعبودية أن يسلط الإنسان على نفسه ما يسلبه تلك القدرة . قال : نعم ، وكأنك ترى أن من

عدم العفة كان من الرقيق. قال: إنه والعبد على حد سواء ولا جور. قال: هل ترى أن عبد الشهوات ممنوع من الخير فقط، أوَليس هو مجبوراً على إتيان الشر أيضاً؟ قال: نعم. قال: إنه لممنوع عن الخير مجبور على الشر لا محالة، قال: وما ترى فيمن ينهى عن الخير ويأمر بالشر؟ قال: إن شر الأرباب هو. قال: وما شر العبودية؟ قال: شر العبودية ما سخرت لشر الأرباب. قال سقراط حينئذ: فلا شك حينئذ أن من اتبع شهواته إنّما هو مسخر لشرّ عبودية، أوَليس ترى أن الانهماك في الشهوات يبعد الإنسان عن الحكمة، ويحمله على نقيضها، فباله مشغول بطلب اللذات عن الأشغال المفيدة، وهو مجبور على اختيار الشر مع علمه الفرق بينه وبين الخير، فبسط الكلام في منافع العفة ومفاسد عدمها، حتى قال: إن عديم العفة لا يبلغ ولا الغرض المقصود منه وهو اللذة، لأن صاحب الشهوات لا يصبر على الجوع والعطش والسهر وغيرها التي هي سبب التذاذنا بالأكل والشرب والنوم، إذا أمسكنا عنها تكلفنا العفة، وصاحب الشهوات لا ينال من ذلك ولا أصغر جزء. قال: فالعفة إذن سبب علمنا بالخير وتعاطي به ما يصحّ البدن، ويستقيم تدبير المنزل، ويقدر المرء على مساعدة أحبائه، ووطنه، ومبارزة أعدائه. كل ذلك من العفة. انتهى.

ولخص كلامه بأن قال: لا فرق عندي بين الحيوان والإنسان المنهمك في اللذات، كيف يتميز من الحيوان من لم يقصد من الأمور إلا ألذها، لا أحسنها، لا يتأتى اختيار أحسن الأشياء إلا لمن تكلف العفة، فقدر بذلك على تمييز الأجناس جنساً جنساً قولاً وفعلاً، وعلى اختيار الحسن منه، والإمساك عن خلافه.

عناية سقراط بالتعريف والحد

كان سقراط شديد العناية بالتعريف والحد ومعرفة حقيقة الأشياء، بحيث يجرّدها من العوارض الشخصية، فالإنسان مثلاً عند تعريفه يقطع النظر فيه عن أمثال القصر والطول، والذكورة والأنوثة، وهكذا، وما بقي بعد ذلك فهو: هوية الإنسان، وحقيقته، وجوهره، الذي يقوم به وجوده. قال: فإذا أدرك الباحث هذا الحد من بحثه لم يبق له ما يطلبه، وقد ظفر بالمعنى العقلي الذي به يتصور الإنسان، وهو وجوهر الإنسان شيء واحد، وهنا أخذ سقراط يبحث في نفس الإنسان وأخلاقه من الصبر والشجاعة والحياء والعفة الخ. معتقداً بأن لا شيء أهم للإنسان وأجدى عليه من تحسين سيرته، وتهذيب ضميره، وأن ذلك أكثر حاجة من اقتناء العلم، فإن من اقتنى علماً كثيراً وقلبه بالهوى مشغول، ونفسه دنيئة مغمورة في الطبيعة، كان كالبناء على غير عماد، لا يحصل له من تعبه إلا مزيد العناء، ولكن تلاميذ سقراط استعملوا أساليب أستاذهم في البحث في الإلهيات، وأشهرهم:

أفلاطون

ولد سنة ٤٢٧ ق. م، ومات سنة ٣٤٧ ق. م

لقد نقل الأستاذ سنتلانه كلام أفلاطون فقال ما نصه: قال أفلاطون في المقالة الخامسة من كتاب النواميس: ينبغي لمحب الحكمة أن يعتني أولاً باستنباط العلل المعقولة، ثم منها ينتقل إلى ما يتحرك بنوع حركة ضرورية، يعني بذلك الطبيعيات، وقال: إن العلم الحقيقي الذي هو مطمح العقلاء،

ومطلب الحكماء، لا يكون مبناه إلا الوجود الحق، فالوجود الحق هو في نفس الأمر الغاية المقصودة من العلم والحكمة، فكيف السبيل إليه؟ قال: لا يتأتى الوصول إلى مثل هذا العلم ما دام الإنسان منغمساً مغموراً في المحسوسات مقصوراً عليها، إذ «الهيولى» أي: العنصر الأول الذي منه تكونت الموجودات الطبيعية، دائم التغير والسيلان عسير الإدراك والعرفان لا يستقر طرفة عين، يقبل جميع الصور، ولا يثبت على صورة، فلا يحسن والحالة هذه إطلاق اسم الوجود عليها، ولا إطلاق اسم العلم على ما يتعلق به من الإدراك، والحال أنه يستحيل تعيين ماهيته، ولا التعبير عنه، فهو للوجود الحق بمثابة الظلام إلى النور، فلو بقي الإنسان محصوراً في هذا الطور من الوجود ما تمكن من معرفة العالم، ولا من معرفة نفسه بشيء، وغاية ما يناله هو شيء شبيه بالعلم قد سماه أفلاطون بالظن وبالوهم، هو للعلم كالخيال للجسد، يختلف باختلاف الأوقات ويسيل معه سيلان المادة لا يثبت صاحبه على يقين البتة.

هذا شأن علم السوفسطائية، وكل علم لم يكن له أساس إلا الحس، لأن الحس يتغير، وبتغيره تختلف القضايا والأحكام العقلية. قال: فلا بد من أن يكون في العالم شيء لا يعتريه التغيير، ولا تطرأ عليه الاستحالة والفساد، وإلا فلا علم ولا يقين ولا حكم بشيء، إذ العلم ما تعلق بالحق، والحق مطابقة الصورة المرتسمة في ذهننا بالجوهر الموجود في الخارج، فلو لم يكن هناك جوهر ثابت بسيط غير قابل التغيير ما أمكن العلم بشيء. قال أفلاطون في المحاورة المترجمة «بتيانيتوس»: كيف يتصور أن يحصل الإنسان على الحق ما لم يكن له حصوله على الحقيقة. انتهى.

فلزم من ذلك أنه يوجد وراء المحسوسات صور قائمة وجواهر دائمة يتعلق بها علمنا، وهي للمحسوسات بمثابة الشبح للخيال، قد سماها أفلاطون بالمعاني، وتعرف عند العرب بالمثل الأفلاطونية وهو جمع مثال، وباليونانية «بواديكما» قد استعملها أفلاطون أيضاً. قال الشهرستاني في صفحة ٢٨٣ يحكي عنه، أي عن أفلاطون، أنه أثبت لكل موجود مشخص في العالم الحسي مثالاً موجوداً مشخصاً في العالم العقلي، يسمي ذلك المثل الأفلاطونية. انتهى.

قال أفلاطون: ما من شيء في هذا العالم إلا وله في العالم العقلي معنى يقابله هو عماد وجوده ومنبع حياته وأصل حركاته، وموضوع علمنا به، فالإنسان مثلاً والحيوان من كل ما ثبت نوعه، واستقر وجوده، له بخلاف الأمور الطارئة له في العالم العلوي مثال بسيط مجرد عن القشور العادية والطوارئ الحسية، مفارق للمادة قائم بنفسه، فهما حينئذ عالمان متقابلان متطابقان: عالم الحس والشهادة، وعالم العقل واليقين. فعالم الحس فيه من الذوات المفردة الناقصة المتغيرة ما يقابله في عالم العقل من كليات المعاني الكاملة الثابتة، وهي التي بها يصح تثبيت معرفتنا بالوجود، وهذه القاعدة الأفلاطونية مما ينبغي فهمها لمن أراد أن يفهم أقوال حكماء الإسلام، قد أشار إلى ذلك ابن سينا في بعض رسائله حيث قال: فالحيوان الواحد لا يحصل واحداً، وقد تقدّمه معنى الوحدة التي صار بها واحداً، ولولاه لم يصح وجوده، فإذن هو الأشرف الأبسط الأول، وهذه صورة العقل. اهـ.

قال الإمام الرازي في «مفاتيح الغيب» في المجلد الرابع صفحة ٧٣٧ ما نصه: مذهب حكماء الإسلام أن الموجودات الغائبة عن الحواس علل، أو كالعلل للموجودات المحسوسات، وعندهم أن

العلم بالعلة علة للعلم بالمعلول، فوجب كون العلم بالغيب سابقاً على العلم بالشهادة، فلهذا السبب أينما جاء هذا الكلام في القرآن كان الغيب مقدّماً على الشهادة، فهذا كما علمتم هو مذهب أفلاطون بعينه، فإذا قيل: علمنا ما هو الموجود، وما هو اليقين، وما هي المعاني، فما الطريق إليه؟ قال أفلاطون: إن المعاني تنكشف للبصيرة دون مشاركة الحس، فإذا تجردت النفس عن العلائق الطبيعية، وانحازت إلى جوهرها، صفا بصرها فأدركت تلك الجواهر، وذلك لأن النفس كانت في العالم العقلي بصفة معان قائمة وجواهر مجردة عن المادة، فأهبطت إلى هذا العالم حتى تدرك الجزئيات، وتستفيد ما ليس لها من ذاتها بواسطة القوى الحسية. قال: وقد كنا أدركنا حينئذ المعاني العقلية في أول الفطرة قبل الهبوط إلى العالم السفلي، فإذا شرعت في التعلم فكأنها أفاقت من نومها وفتحت بصرها، وتذكرت ما رأته في حياتها السابقة، فإذا واظبت على ذلك ولم تكسل حصل العلم شيئاً فشيئاً، وما هو في نفس الأمر إلا رجوع النفس إلى جوهرها واتصالها بعالمها الذي منه هبطت وإليه تعود، ومنه قول أفلاطون في تعريف العلم: إنه اتصال جوهرنا العاقل بالجواهر المعقولة التي في الوجود. وقال أفلاطون في المقالة الخامسة من كتاب النواميس: إن محبّ الحكمة دائم النزوع إلى الوجود، معرضاً عن الأفراد والظواهر ساعياً في البحث عن الماهيات العقلية، لكي يتصل جوهره العقلي بما في الأشياء من الجواهر المعقولة، فيتحد بها لما بينهما من المشاكلة والمجانسة، فتتولد من اتصالها المعرفة واليقين، فما العلم في نفس الأمر إلا تذكر النفس حالها السابقة التي كانت عليها قبل الوجود البشري، وما قد تشاهده في تلك الحياة السابقة، فهو أشبه شيء بالولادة، والنفس أشبه ما يكون بالمرأة الحبلى، تلقي حملها وتبرز ما كان في قواها كامناً، وفي جوهرها باطناً. ومن ذلك أخذ الإمام الغزالي في أصل النفس قوله في الرسالة اللدنية صفحة ٢٤٠: العلوم مركوزة في أصل النفس بالقوة كالبذر في الأرض، والجوهر في قعر البحر، أو في قلب المعدن، والتعلم هو طلب خروج ذلك الشيء من القوة إلى الفعل.

ثم قال في صفحة ٣٤٩ ما نصه: وليس التعلم إلا رجوع النفس إلى جوهرها وإخراج ما في ضميرها إلى الفعل. اهـ.

وقد رأينا عالماً يمرض بمرض خاص كالرأس والصدر تعرض نفسه عن جميع العلوم، وينسى معلوماته، وتلتبس عليه، فإذا صحّ وعاد الشفاء إليه يزول النسيان عنه، وترجع النفس إلى معلوماتها، فتتذكر ما قد نسيت في أيام المرض العارض، فعلمنا أن العلوم ما فنيت وإنّما نسيت، فاشتغال النفس بالتعلم هو إزالة المرض العارض عن جوهر النفس لتعود إلى ما علمت في أول الفطرة. انتهى كلامه.

فهذه وأمثالها مما يوجد في كتاب الإحياء للغزالي، وفي التفسير للإمام الرازي، وفي مصنفات محيي الدين ابن العربي، وغيره من المتصوفين، بقطع النظر عن فلاسفة الإسلام، هي أفكار أفلاطونية محضة، تجدونها مبسوطة في المحاورات الأفلاطونية، لا سيما في المحاورة المترجمة «بتيانيتوس» وفي الفيدون: قال الأستاذ ستتلانه للطلبة: كان بودي أن نطالع شيئاً منها لو ساعد الوقت. ثم قال في محاضرة أخرى ناقلاً عن أفلاطون: قد يصعب في عالمنا الحسي العروج إلى المعاني على صفائها الأصلي، وهي في الأشياء الحسية كالخيال في الماء الكدر، فمن أراد أن يدرك المعاني فعليه أن يجرد

الأشياء عن قشورها المادية وظواهرها المتغيرة، حتى يصير شيئاً فشيئاً إلى ما في أصلها إلى الجوهر الثابت المعقول، فقد جاز بذلك على حقيقة الشيء وجوهره المطابق، لصفاء الموجود في العالم العقلي، وهذا كما علمتم مذهب سقراط اقتبسه عنه أفلاطون وجعله أساساً للإلهيات، قال: فإذا عرج من المحسوسات إلى المعاني، وروّض فكره فيها كشف من المعاني عالماً غريب البهاء والكمال، اندرجت فيه المعاني بعضها تحت بعض، كما يندرج في عقولنا ما هو أخصّ فيما هو أعمّ، فيصعد من الصورة العامة إلى ما هو أعمّ منها وجوداً وأرفع شأناً وكمالاً إلى أن تتحد جميع تلك المعاني في ذات الإله تقدس وتعالى. أقول: هذه عبارة الأستاذ سنتلانه التي نقلها عن أفلاطون وهي موهمة لا تجوز في عرف الديانات، وهو ما سماه أفلاطون بالخير المحض، وبالكمال المطلق، وبالوجود المطلق، وبمعنى المعاني أيضاً، فالمعاني كأنها أفكاره، أقول: وهذه العبارة لا تجوز عند أهل الديانات، وصفاته ومجموعها حكمته التي أوجد بها العالم ودبره وأخرجه من الظلام والاختلاط إلى النور والنظام والترتيب، وقد اتضح بذلك أن العالم في قبضة الخير المحض، وأنه ما من شيء إلا وله مصلحة هي المقصودة من وجوده، وهذا هو الركن المهم في الطبيعيات عن أفلاطون، ولا يمكن لنا أن نخوض فيها الآن، ثم قال: وبه تعلق أيضاً ما قاله في الأخلاق. قال أفلاطون: فمن أدرك تلك المعاني وتحقق ما هي عليه من الكمال والجمال استصغر دنياه وما فيها، واستحقر ما شغفت به نفوس العامة من حب الحياة وجمع المال، والتوسع في المكاسب، والانهماك في اللذات الحيوانية، وتشوّق هو إلى الرجوع إلى وطنه ومنشئه ليس الإنسان كما ذكرنا إلا روحاً، أي: معنى من المعاني قد تعلقت نفسه ببدن هو لها كالسجن المظلم فإذا أفاقت بتأثير العلم لم يكن حرصها واجتهادها إلا على التخلص من هذا الرباط والخروج إلى عالمها الروحاني، فلم يبق إلا تنقية نفسه، وتزكية ضميره، وصقل قلبه من الرعونات، لكي يكون مستعداً للاتصال بتلك الجواهر الصافية. قال: هذا شأن كل من كانت نفسه على الفطرة أو قريبة منها لتزايد العلم فيها، وما ازداد الإنسان علماً إلا وقد ازداد إلى تلك المعاني قرباً ورغبة، وعن الظواهر الفانية إعراضاً ونفوراً، فإذا كملت حكمة الرجل وتم عروجه من معنى إلى معنى كان آخر أمره الاتصال بالعالم الروحاني، وفيه تمام الحكمة، وكمال السعادة الأبدية التي ليس بعدها سعادة، ولا حكمة إلا ما اختص به الإله تعالى دون غيره لا يشاركه فيه أحد، ويلزم من ذلك أن المعرفة ومكارم الأخلاق لا يفترقان، وهذه من الأصول المهمة عند أفلاطون، عليه تأسس مذهبه في الأخلاق. قال: إن العقل لا يختار ما هو أضر وأدنى، وهو يعلم أن هناك ما هو أرفع وأصلح، فإذا وقع ذلك منه لا يكون إلا للجهل بما هو أصلح، أو عدم رسوخ العلم، أو ضعف اليقين، فكل من ارتكب الذنب والظلم والشر، ومن انهمك في اللذات الحيوانية، ومن أفرغ عمره في طلب الدنيا لا يطلق عليه اسم مذنب ولا مجرم، إذ لا ذنب باختيار وعلم، والحق أنه لا يعلم إذا اختار ما هو أخسّ رتبة، وأقلّ بقاء، وأضرّ عاقبة، وترك ما هو أعمّ نفعاً، وأثبت بقاء، فهو إذن بالرحمة والعذر والتعليم أحق منه بالعقوبة.

ثم قال الأستاذ سنتلانه للطلبة: عرفتم تتابع المذاهب، وكيف كانت مذاهب الأولين الطبيعية ولا عماد لهم إلا الحس، حتى لم يكن للمعقولات عندهم رسم ولا ذكر، فانقلب بعد سقراط

وأفلاطون الأمر بالكلية، فصارت الطبيعة تبعاً والعقل متبوعاً، والطبيعة الموجودة آثاراً والعقل مؤثراً، ولم يبق للهيولى فعل ولا وظيفة في العالم إلا من حيث القابلية والانفعال، وانحصر الموجود والتأثير في العالم في العقل والنفس الإنساني وهو من ذلك العالم، وترقى العقل الإنساني إلى الاعتراف بوجود الإله وتدبيره للعالم وأنه خير محض، فمن تبصر في هذا الفرق العظيم، وتصفح الرسائل الأفلاطونية، وعلم ما بها من متانة الحكمة، ودقة الأفكار، وجزالة اللفظ، لم يسعه أن ينكر ما لهذه الفلسفة من علوّ المقام الذي اجتمعت عليه الأوائل والأواخر، فمن تأمل التاريخ رأى الفلسفة الأفلاطونية سارية في أفكار الأمم منذ نشأتها سريان الدم في بدن الإنسان، منها أخذ أرسطاطاليس، ثم الإسكندريون، نصيباً وافراً من أصولهم، ومنها أخذ الإلهيون من النصارى أمهات أقوالهم في النفس الإنسانية وبقائها بعد الموت، حتى امتزجت باعتقادهم امتزاج العرق باللحم، ومنها أخذ جمّ غفير من المعتزلة كثمامة وأبي هاشم وغيرهما من حكماء الإسلام أقوالهم، ومنها اقتبس فلاسفة القرون المتوسطة من النصارى واليهود، كما أخذ منها البعض من فلاسفة ألمانيا في القرن السابق، ولا زالوا منها يقتبسون. فمن هذه الفلسفة التي علا صيتها بين الأمم وأثرت في أفكارها مما يستدعي من كل طالب الحكمة طول التأمل ومزيد العناية. انتهى ما قاله الأستاذ سنتلانه بالحرف.

وإنّما نقلت هذا الكلام برمته لأني وجدته أشبه بمعجزة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فهذا القول آخر ما وصل إليه العقل الإنساني، ولم يزد عليه أحد كما سأزيده إيضاحاً بعد، وهو آخر سلسلة علوم الأوائل ونهايتها، ومع ذلك جاء بما هو أعلى منه القرآن، فهذا عجب أن تجيء نهاية الحكمة على لسان من لم يقرأ حرفاً واحداً، ولم يتعلم، وهو أمر عجيب وغريب!

فقال بعض الطلبة لي: ما إجمال ما مضى من آراء الفلاسفة؟ قلت: إن الغاية المطلوبة من الفلسفة هو العلم اليقيني، ولا يقين فيما يطرأ عليه التغير ولا ثبوت له، فهو إلى العدم أقرب منه إلى الوجود، وهذه حال الطبيعة، فإذن لا تخلو الحال من أحد أمرين: إما أن لا يتمكن الإنسان من العلم، وهذا رأي السوفسطائية وكل من أنكر الحقائق، وإما أن يكون وراء الطبيعة ما لا تدركه حواسنا من الجواهر الثابتة التي لا يتطرق إليها التغير وتكون موضع العلم اليقيني، وهذا ما حمل أفلاطون على إثبات ما سماه بالمعاني، وهي جواهر مجردة عن المادة مفارقة للطبيعة الحسية تفيدنا العلم إذا تعلق بها عقلنا. فقال: ماذا جرى بعد ذلك؟ فقلت:

آراء أرسطاطاليس

هنالك قال أرسطاطاليس تلميذه: أنا لا أنازع في أن موضوع الفلسفة هو الوجود، وأنا لا أنازع في أن المحسوسات الطبيعيات ليست من الوجود في شيء، فلا يمكن اتخاذها أساساً للمعرفة، ولا أنازع في أن العلم لا يتعلق إلا بالكليات لا بالظاهر والأفراد، كل ذلك سلمناه، ولكن أنازع في قول أستاذي: إن الكليات التي تعلق بها العلم إنّما هي جواهر قائمة بنفسها مفارقة للمادة، فكيف تكون الكليات قائمة بنفسها مفارقة للمادة وهي في الوقت نفسه مؤثرة فيها، فهاهنا لا تخلو الحال من أحد أمرين: إما أنها مفارقة لا اتصال لها بالأفراد، كالإنسانية العامة لا اتصال لها بزيد وعمرو، فكيف إذن أثرت في

الأفراد الوجود وهي مفارقة لهم، وإما أنها مقارنة، والمقارن للمتحرك المتغير متحرك متغير، فأين الثبات والدوام الذي امتازت به تلك الكليات، ثم أين المفارقة؟ إذن كلام أفلاطون عندي مشكل، فإنه أثبت مفارقة الكليات لأفراد الموجود منها وأثبت تأثيرها فيها، إذن المفارق مقارن، إن التأثير بغير المقارن غير ممكن. يقول مؤلف هذه الرسالة: هذا القول في عصرنا منقوض فتأثير المفارق حاصل الآن على بعد. ثم كيف يكون جوهر الشيء مفارقاً لما هو جوهر له، وكيف ينطبق الجوهر الواحد على زيد وعمرو الخ. ثم إن ما زعمه أفلاطون من أنه منطبع في الأفراد انطباع الصورة في المرآة؛ كلام تشبيهي تمثيلي، والمثال غير الحقيقة، إذن هو أثبت عالمين: عالم العقل، وعالم الحس، ولم يبين وجه الاتصال بينهما، فقال أحد الطلبة لي: فماذا فعل أرسطاطاليس إذن؟ قلت: قال إن أساس العلم شيء نراه بأبصارنا، ونحسه بحواسنا، وهو الصورة، ذلك أن العالم الذي نراه هو عبارة عن مادة، ولكن هذه المادة إنّما هي أمر عدميّ. وبعبارة أخرى: هي مجرد استعداد أو إمكان، وهذا الاستعداد أو الإمكان أو العدمي تعين لنا وظهر لنا بالصورة، فإننا نفرق بين صورة الكرسي والشباك والباب والسقف وجميعها من الخشب. فالخشب المشترك بين هذه الأربعة نسميه مادة لها، والأشكال التي رأيناها من المقادير طولاً وعرضاً وعمقاً ولوناً وما أشبهها نسميه صورة، فهذا التمثيل جعلناه تفهيماً للمادة العامة، والصورة العامة، والمادة أو الهيولى العامة لا وجود لها إلا بالصورة، وهي في نفسها إمكان محض، فإننا قط ما رأينا مادة إلا وهي متميزة بصورة، أما المادة وحدها فلم نجدها، فإننا نرى كوكباً وشمساً وقمراً وجماداً وحيواناً وأرضاً، ولم نر هيولى بغير صورة، فالصورة هي التي تعلق بها العلم وهي موجودة نشاهدها، أما الكليات والجواهر العقلية فوجودها ذهني لا خارجي، فكيف يتعلق بها العلم؟ فالعلم إذن يتعلق بالصورة، فينزع العقل الكليات من تلك الصور، فيرى أفراداً في الوجود كفرس وإنسان وحصان، فيقول: حيوان، ويرى حيواناً وإنساناً ونباتاً، فيقول: نام، وهكذا، فهذا هو موضوع العلم، منه انتزع العقل الكليات، لا أن الكليات هي أصل العلم، بل هي فرع عن الأفراد الخارجة المحسوسة فهي الثابتة.

فقال بعض الطلبة: فما تفرّع عن هذين المذهبين؟ قلت: تفرع عليهما في الإسلام الخلاف بين الأشاعرة والمعتزلة كما يقول الأستاذ سنتلانه، فإذا سمعت الأشاعرة يقولون: إن وجود الشيء عين ماهيته.

فهذا هو عين قول أرسطاطاليس، وإذا سمعت المعتزلة وفلاسفة الإسلام يقولون: إن الوجود غير الماهية. وأثبتوا اسم الوجود لما يتصور في العقل ولما يمكن وجوده، وهو نفسه معدوم. قال الأستاذ سنتلانه: وما هذا إلا رجوع إلى مذهب أفلاطون.

ثم قال أرسطاطاليس: إن المادة والصورة لا تمييز بينهما إلا باعتبار العقل، وفي الحقيقة لا ينفك أحدهما عن الآخر، فلا المادة توجد بدون صورة، ولا الصورة خالية عن المادة. انتهى.

وقال أرسطاطاليس أيضاً: فهاهنا أمران: مادة وصورة، ولما كانت المادة تخلع صورة وتلبس أخرى كان هناك أمر ثالث لا بد منه ملازم لها، وهو ما نسميه: الحركة.

فالمادة أبداً متنقلة من صورة إلى صورة، وهذا الانتقال نسميه حركة من مكان إلى مكان، أو من جوهر إلى جوهر آخر، أو من كمية إلى كمية، هذا قوله، ومعناه أن الغذاء إذا صار في الحيوان جسم سبع مثلاً، والطفل إذا نما سنة فسنة، والإنسان إذا سار من مكان إلى مكان.

فهذه كلها نسميها حركات فالأولى حركات جوهر إلى جوهر، والثانية نسميها حركات في الكمية، والثالثة نسميها حركات في المكان.

قال: الطبيعة هي مجموع الثلاثة: المادة، والصورة، والحركة. قال أرسطاطاليس: إن المادة دائمة النزوع والتشوق إلى الوجود، لا تزال تشتاق إلى الاتصال بالصورة حتى تستكمل بها ذاتها، فإذا بلغت من الصورة درجة ما فلا زالت تشتاق إلى ما فوقها، فهي أولاً مادة كادت أن تكون عارية من الصورة خالية من الأوصاف والتعيينات الفعلية، ثم ترتقي فتصير معدناً، ثم ترتقي فتصير شيئاً متوسطاً بين المعدن والنبات، ثم تصير نباتاً فتلتحق بها النفس النباتية، وآخر درجة منها شيء متوسط بين النبات والحيوان، ثم تصير حيواناً فتلتحق به النفس الحيوانية، وآخر درجة منها شيء متوسط بين طبيعة الحيوان وطبيعة البشر، ثم يصير إنساناً فتلتحق بمادته القوة العقلية، وهي نور إلهي يأتيه من خارج، ثم ما فوق الإنسان من الجواهر المفارقة والنفس المجردة، فهي كالسلسلة ارتبطت كل حلقة بالأخرى، وكالدَّرَج تابع بعضها بعضاً إلى أعلى المنزل. ثم قال: ومن تبصر في هذا الارتقاء العجيب تحقق أنه ما من خطوة تخطوها الطبيعة إلا وقد خلعت شيئاً من أوصافها العادية وقشورها الدنية، وازدادت صفاء ونوراً واتحاداً وبسطاً إلى أن تصل إلى صفات العقل، فهو ارتقاء من القوة المحضة إلى العقل المحض، ومن المادة المجردة إلى العقل الصرف، والكل متوجه لا محالة إلى الخير المحض، وهو الغاية المقصودة من الطبيعة.

وقال أرسطاطاليس أيضاً: إن العالم مثل المنزل الواحد، فيه أرباب وأحرار وعبيد وبهائم، جمعهم صاحب المنزل في محل واحد، ورتب لكل منهم وظيفة خاصة، وخطة معلومة لا يتجاوزها، حتى يحصل بتعاونهم مصلحة الجميع، أو هو كالجيش الواحد اجتمع تحت إذن أميره اختلفت فيه المراتب والخطط، واتحد الكل بكلمة الأمير. قال: وبدون هذا الأمير لا يستقيم وجود الجيش ولا تنظيم حركاته. قال: فما رأيناه في العالم من تناسب الحركات واتحادها يلجئنا إلى الاعتراف بوجود هذا الأمير، وهو الإله، وهو مبدأ الحركات، وهو غير متحرك.

فهذه آراء أرسطاطاليس، وما تقدم قبله من آراء سبقته، هي آخر ما وصل إليه العقل الإنساني إلى عصرنا الحاضر، وليس هناك فلسفة غير ما تقدم، فكل ما نسمعه في بلادنا المصرية وبلاد الشرق وبلاد أوروبا في عصرنا لا يخرج عما سمعته الآن.

فقال أحد الطلبة: هذه رسالة فلسفية، والفلسفة لا تعتمد إلا على دليل، فما دليلك على أن العالم كله شرقاً وغرباً لم يخرج عن الآراء المتقدمة من أيام تاليس إلى أيام أرسطاطاليس؟ فقلت له: قال الأستاذ ستلانه الطلياني: إنك إذا أردت أن تفهم الفلسفة حق الفهم فلا بد لك من معرفة آراء الأقدمين، إذ الفلسفة وسائر العلوم كالمرء يكون طفلاً ثم يشبّ ثم يصير كهلاً وهو شخص واحد،

وكالسلسلة كل حلقة منها ارتبطت بالأخرى حتى لا يمكن حلها من غير أن يفسد الجميع، فمن لم يقف على أقوال القدماء حق الوقوف لا يتمكن من استنباط آراء المعاصرين، ولا من سبب اتخاذهم رأياً دون رأي، ولا ما آلت إليه الفلسفة في حالها الراهنة.

قال «باكون» الفيلسوف الإنجليزي: إن التاريخ للعلوم كالبصر لجسد الإنسان، به يبصر ما تقدم وما بين يديه، لكي يعلم الناحية التي ينبغي له أن يقصدها. انتهى كلامه.

ثم إنه لا يخفى أن المسائل الفلسفية لا تتغير بتغير الزمان، وهي الآن كما كانت عليه في القرون الماضية من البحث عن ماهية الوجود، ووجود الإله، وجوهر النفس وكيفية اتصالها بالبدن، وإدراكها بالحس، وما هي حق المعرفة والميزان الذي به يقاس حقيقتها. فهذه المسائل وأمثالها التي اشتملت عليها الفلسفة لم تختلف باختلاف الأجيال، أتظن أنّا نحسن الجواب أكثر مما كان يحسنه أفلاطون وأرسطو؟ لا والله إنّا لو قدرنا على ذلك لقدرنا على الاتصاف بصفات الألوهية، وشتان ما بين البعوضة والفيل، فلو راجعت هربارت سبنسر مثلاً لوجدته يعترف في كتابه المرسوم بالأصول الأولية بأن الأوليات في الفلسفة مما لا طاقة للبشر عليها، وأن لا سابقية لنا على الأقدمين إلا في المسائل الجزئية، والمباحث الفرعية، دون ما يهمنا من حل إشكالات الأصول، فالمسائل باقية والجواب يختلف، وكل جيل أخذ سبب من تقدمه يخطو ثلاث خطوات ويؤخر أخرى، وبيننا وبين الغاية المقصودة بون بعيد يكاد لا يتصوره عقل البشر فضلاً عن أن يتخطاه، ذلك سرّ الله لا يحيط به إلا هو.

ثم قال الأستاذ سنتلانه: فلا يغرّنك أيها الحبيب شقشقة المتفلسفين، وأنصت إلى الفلاسفة تجد كلاً منهم متبعاً رأياً من آراء من تقدم، يوافقه تارة ويخالفه أخرى إلى أن ينتهي النسق إلى فلاسفة اليونان، ولهم حق السبق وفضيلة التمهيد.

فقال بعض الطلبة: حقاً يقال: إن كنت ناقلاً فالصحة، أو مدّعياً فالدليل. وهاأنت ذا صحّ نقلك فلا سبيل إلى المعارضة، ولكني هنا أريد أن أعرف تفصيل ما أجمله من نقلت عنهما، فإنهما يقولان إن الآراء كلها في عصرنا ترجع إلى علماء اليونان.

وبعبارة أخرى: إن السلسلة المتقدمة التي ذكرتها لا يعدوها مذهب من المذاهب في الشرق والغرب الآن، فأرجو أن تذكر لنا أمثلة على ذلك حتى يصح لدينا أن الآراء لا تعدو تلك السلسلة الفلسفية المبتدئة بتاليس المنتهية بأرسطاطاليس.

فقلت: مثال ذلك أنه ظهر في أواخر القرن السابع عشر في إنجلترا الفيلسوف الإنجليزي «جون لوك»، وكان يقول: إن المعرفة سببها الاختبار والبحث، ولا سبيل إلى البحث بغير الحواس، والحواس توصل ما في المادة من المعاني إلى النفس، فالمادة أصل والأمور العقلية فرع، فهاهنا ثلاثة أشياء: مادة، وعقل، وحواس. فالحواس خدّام ينقلون صور المادة إلى نفوسنا، فالمادة هي الأصل والمحور، والحواس خدّامها، وللمادة الأثر الفعال، فالفلسفة ترجع إلى المادة لا غير، أليس هذا الرأي يرجع إلى آراء الفلاسفة الأولين اليونانيين الذين قالوا: إن العالم يرجع إلى المادة من هواء أو ماء أو جزء لا يتجزأ.

فقال: نعم، هذا حق.

فقلت : ثم جاء بعده : باركلي فقال : إن قول « لوك » يثبت من نفسه أن المادة ليس لها وجود مستقل ، وإنّما هي موجودة ، لأن حواسنا تشعر بها ، فإذا لم تكن الحواس لم تكن المادة ، فكان هذا المذهب راجعاً إلى مذهب أفلاطون تقريباً ، لأنه جعل المادة تابعة للحواس ، ومعلوم أن الحواس تابعة للنفس . وأفلاطون يقول : لا وجود إلا بالأمور العقلية ، ولا علم يتعلق إلا بها .

ثم جاء : هيوم وألف رسالة عنوانها « الطبيعة البشرية » ، جارى فيها « باركلي » في نفي وجود المادة المستقل ، ثم أثبت بنفس هذه الطريقة أن العقل ليس له وجود مستقل ، ولا جرم أن هذا ينحو نحو السوفسطائية الذين لا يثبتون علماً .

ثم جاء : الأستاذ كانت الألماني وألف كتابه « تحليل العقل المجرد » ووضع فلسفته الكمالية ، وأثبت أن المدار على العقل ، وأنه أصل المعارف والعلوم ، فجعل للعقل وللنفس الشأن الأول في هذه الحياة ، وأخذت ألمانيا كلها تهتم بما وراء الطبيعة ، وتبعه أمثال « شلر » و« غوته » ، ونقل عنه « بتهوفن » قوله : إن عجيبتي في الحياة هما القبة الزرقاء ترصعها الكواكب ، والناموس الأدبي في نفس الإنسان . وتبعه « شلنغ » و« هيجل » و« شوبنهور » ، وكأن كتابه « تحليل العقل المجرد » كان تمهيداً لآراء « شوبنهور » و« نيتشيه » و« برغش » و« وليم جمس » ، ولا يزال نظامه الفلسفي قائماً ، لأن العلم الحديث في أشخاص « بيرسون » و« بوانكاري » أثبت أن الحقيقة والمادة والطبيعة ونواميسها كلها مما يستنبطه العقل ، ولا وجود لها إلا بوجوده ، فكأن إكليل النصر عقد لـ « كانت » وفلسفته ففازا على المادية والإلحاد . اهـ .

فقال بعض الطلبة : ولأي المذاهب يرجع هذا ؟ فقلت : هو أقرب إلى قول أفلاطون ، وقد تقدم قريباً . فقال آخر من الطلبة : نريد جدولاً يبين ما تقدم كله . فقلت : هذا جدول يعرّف مذاهب الفلاسفة ومراتبهم في العلم قديماً وحديثاً ، بحيث يرد كل مذهب إليه ، وقد تقدم بعضه ولكنا نذكر ما تقدم وما ينى عليه ، وهذا نصه :

(١) تاليس الملطي : عنده أصل العالم الماء . أنكسيمانيس : عنده أصل العالم الهواء . انكسيمندر : عنده أصل العالم مادة لا صورة لها .	(١) هؤلاء هم الطبيعيون وهم يشبهون الجنين ، والدود في الطين ، أو في بطن الحيوان ، أو حاسة اللمس .
(٢) ديموقراطيس . أنباذوقلس : أصل العالم عندهم الجزء الذي لا يتجزأ وهو دائم أبداً .	(٢) هؤلاء دهريون ، هم يشبهون الطفل وحيواناً له حاستان .
(٣) بروتاغورس . غورغاريوس . بيرون شيعتهم عندية . عنادية . لا أدرية .	(٣) هم سوفسطائية ، يشبهون الشاب وحيواناً ذا ثلاث حواس .
(٤) وبعدهم فيثاغورس يقول : الأصل العدد ، وأنباذوقلس يقول : الأصل المحبة والكراهة .	(٤) هؤلاء يشبهون البالغ وحيواناً ذا أربعة حواس وهو الخلد ـ بالفتح ـ في الظلمة .
(٥) أنكساغورث يقول : أصل العالم عقل نظمه .	(٥) هؤلاء يشبهون الفتى ، وحيواناً ذا خمس حواس كالأنعام .
(٦) سقراط ، وأفلاطون ، وأرسطاطاليس	(٦) هؤلاء إلهيون ، يشبهون الشيخ الكامل وملكاً من ملائكة السماء

ومن العجب أن علماء الشرق والغرب يرجعون في هذا المقام إلى نقطة واحدة هي مركز الاتصال، فلقد قرأت في كتاب « راجايوقا » الذي ألقاه سنة ١٨٩٥ وسنة ١٨٩٦ بهيئة محاضرات الأستاذ « سوامي فيفكندا » بعنوان « الفلسفة اليوجية » في مدينة نيويورك بالولايات المتحدة، وهو ترجمه عن الهندية، يقول بالإنجليزية التي ترجمتها هنا إلى العربية ما يأتي:

إن المذاهب ثلاثة: وهي مذهب السنخ، ومذهب اليوجي، ومذهب الفيدا، أما مذهب السنخ فإنه لا يفكر في إله خالق العالم، وأما مذهب اليوجي فإنه يقول: إن العالم له إله ولكنه مختص بالعلم فقط، وأما العمل فليس له. وأما مذهب الفيدا فإنه يقول: كلا. إن هذه العوالم منظمة موسيقية وهذا النظام الجميل شاهد عدل على إله نظمه بعلمه وأحكمه بقدرته، إن هذا العالم المشاهد من كواكب وشموس وعناصر ونبات وحيوان الخ؛ لا يمكن أن تصدر إلا عن إرادة، أما المذهبان السابقان فهما لا يباليان بخالق للعالم، ومعنى هذا أن اليوجيين لا يريدون أن يثيروا مسألة خلق العالم بل هم يتجنبونها يقول: ولكنهم عرفوا الله بطريقة أخرى غريبة، وهاهي ذه، قالوا: إن علمنا قاصر على ما لا نهاية له، ولا جرم أن العالم فيه ما له نهاية زماناً ومكاناً وما لا نهاية له فيهما، قد وجدت على الأرض عقولنا فعرفت ما له نهاية، وما لا نهاية له فعقولنا لا تعرفه، وإذا ظهر في الوجود أن ما له نهاية عرفته عقولنا، فلا جرم أن هناك عقلاً يعرف ما لا نهاية له وهو الله. وقالوا أيضاً: وهو معلم المعلمين علم الأولين والآخرين، وإلا فمن أين جاء لهذه العقول علمها، ويستحيل على المادة أن تحدث علماً، إن علومنا ثابتة في نفوسنا ولكنها صادرة عن علم معلم آخر، فوظيفة الإله عندهم علم ما لا حد له، وتعليم جميع الناس علومهم، لأن المادة عمياء جاهلة، والجاهل لا يعطي علماً. انتهى.

هذا ما ترجمته لك من هذا الكتاب، وفي الكتاب طول فاقتصرت لك على المفيد، وهنا أقول لك: اللهم إني لفي عجب! إن عقول الشرقيين وعقول الغربيين رجعت إلى رأي واحد، فإذا رأيت تاليس ومن بعده من الدهريين والطبيعيين لا وجود عندهم إلا للمادة، ورأيت فيثاغورس لا يقول إلا بالعدد؛ فهؤلاء في مقابلة علماء السنخ في الهند الذين لا يفكرون في خالق العالم. وإذا رأينا أنكساغورس يقول: « إن للعالم إلهاً، ولكنه لا يعمل فيه شيئاً »؛ فهو نظير مذهب اليوجي، وإذا رأينا سقراط يقول: « الله يعلم العالم ويدبره »؛ فهذا بعينه هو مذهب الفيدا، وهو الكتاب المقدس عند الهنود، وإذا رأينا كتاب الفيدا قد استدل بالنظام الموسيقي في المادة؛ فهو نفس الدليل الذي قاله سقراط سواء بسواء، وقد شرحه سقراط فيما تقدم لك شرحاً وافياً. فهاهنا اتحد الماديون في أوروبا، والروحيون في الشرق. وغاية الأمر أن العقول تنتقل من طور إلى طور حتى تصل إلى الحقيقة. وإذا رأينا أفلاطون يقول: « إن هناك مثلاً أخذنا العلم عنها »؛ فهاهو ذا مذهب اليوجيين في الهند يقول هذا القول بنصه وفصه، فيقول: إن علمنا لا يكون من المادة بل هو من الله. وكيف يأخذ العقل عن الحجر، ولقد سمعتم الأستاذ سنتلانه التلياني فيما نقلته لكم في هذه الرسالة يقول: إن فلسفة أفلاطون هي التي سرت في جميع الأمم، فالنصارى والمسلمون وأمم أخرى قد سرت فيهم سريان الروح في الجسد وأن ألمانيا اليوم متأثرة بها عن عالمها الأستاذ « كانت ». انتهى.

إذن العالم الإنساني كله سار من طرق مختلفة في عصرنا هذا نفسه إلى نقطة واحدة، فاليونان انتهوا إلى العقول والله فوقها، وأهل أوروبا بشهادة ستلانه وسبنسر وكانت الألماني رجعت إلى هذه النقطة بنفسها. إذن كل أولئك الذين جهلوا هذه الحقيقة لا يوالون في الطريق حتى يصلوا، فالمسألة مسألة الزمن لا غير، وبهذه الرسالة قد وقفنا على حقائق ثابتة مؤيدة بالعلم والدليل والحكمة.

أيهما الأصل العدم أم الوجود؟

بل من العجب أن نفس هذه الآراء شرقاً وغرباً، ونهاية الفلسفة في الأمم الشرقية والغربية قديماً وحديثاً توضح لنا ما قلناه سابقاً وهو: هل الأصل هو العدم؟ أو هو الوجود؟ فنقول تأييداً لما سبق: إذا رجع الروحيون في الهند إلى قوة فوق القوى تمدّهم بالعلم عند اليوجي، وتنظم العالم أيضاً في الفيدا، وإذا رجع أفلاطون إلى المثل الأفلاطونية، فذلك كله لا أول له، ولا جرم أن هذا وجود لا عدم، إذن الوجود أصل، بل إن نفس الدهريين مثل ديموقراطيس يقولون: إن المادة لا أول لها. فالوجود أصل عندهم. فهذه الأمم في أثناء بحثها أثبتت أن الأصل هو الوجود، فإن كانوا في طريق البحث كالدهريين والطبيعيين قالوا هو المادة، وإن انتهوا فيه قالوا هو العقل، أو هو الله. إذن الأصل هو الوجود كما قدمناه، والعدم محتاج إلى دليل. راجع ما تقدم في هذه الرسالة.

تذكرة في أمر الديانات والفلسفة

إذن ظهر أن سر الفلسفة عند أمم الشرق والغرب يرمز لها بنظرات الخليل، إذ أيقن لما نظر الكوكب فالقمر فالشمس، ثم انتهى إلى الله، فهؤلاء اليونانيون قالوا بالماء والهواء الخ، ثم بالجزء الذي لا يتجزأ، ثم رجعوا إلى ما وراء المادة أيام سقراط وأفلاطون، وهؤلاء أهل الهند من السنخ، واليوجيين، وأتباع الفيدا وقفوا عند المادة، ثم قالوا بإله يعلم ولا عمل له، ثم بإله عالم قادر، إذن قصة الخليل تشبه نظرات الأمم من حيث ترتيبها مبدأ ونهاية، ولما كان الخليل في بلاد العراق كان مبدأ نظره في الكواكب، وأهل أوروبا كان نظرهم في المادة، وأهل الهند في الأرواح، فكأن بلاد الشرق الأدنى كالمتوسطة بين المادية والروحية، لأن النظر متوجه للنور، وأهل الهند أقرب إلى الروح، وأوروبا نظرت في نفس المادة الجافة، ولكن النهاية واحدة وهو الله. انتهى.

هذا، ثم إن المشائين تابعون لأرسطاطاليس، وبعدهم الرواقيون الذين يجمعون بين رأي أفلاطون وأرسطاطاليس، ويقولون: إن في المادة قوة عقلية.

فقال آخر من الطلبة: قد فهمنا هذا الجدول، وقول سبنسر: إن المتأخرون يرجعون في آرائهم إلى أقوال اليونان، وهذه الأمثلة كافية في ذلك، وأدركنا اتفاق علماء الشرق والغرب في أصول العلم. إذن هؤلاء المتعلمون من المصريين والعراقيين والسوريين والترك لم يخرجوا عن هذه الأقوال.

قلت: نعم، بل لا يمكن، لأن الآراء التي نقلتها لك عن اليونان لا يخرج عنها قول، فإذا سمعت أن تركياً أو مصرياً أو عراقياً عنده رأي مادي أو إلحادي؛ فاعلم أنه يرجع إما إلى قول ديموقراطيس بالجزء الذي لا يتجزأ، وإما إلى قول السوفسطائيين الذين لا يعترفون بحقيقة فيقولون بالعندية أو العنادية أو اللاأدرية، فترى الرجل منهم يقول: المعلومات لكل امرئ على حسب ما عنده. وهذا هو

الرأي الأغلب عند المدّعين العلم من الشرقيين، أو يقول: لا حقيقة أبداً. ولقد علمت فيما تقدم أن الفلسفة كطفل شبّ فصار كهلاً فشيخاً، فأكثر المتعلمين نصف تعليم في الشرق لا يعرفون من الفلسفة إلا المباحث الأولى التي لا تحتاج إلى نصب ولا تعب، فما عليه إلا أن يقول: هذه أمور لا قيمة لها، ومعنى هذا أنه لا قيمة لهذه العلوم والمباحث، فهو أشبه بالسوفسطائية كما قدمت.

فقال طالب آخر: أريد أن أعرف ماذا حصل بعد أرسطاطاليس من المذاهب، وما اسم شيعة أفلاطون؟ وما اسم شيعة أرسطاطاليس؟ فقلت: أما شيعة أرسطاطاليس فهم المشاؤون، وأما اسم شيعة أفلاطون فهم أهل أكاديميا، وهو اسم بستان في أثينا، كان فيه اجتماعهم للدرس والتعليم، وهذا قول سنتلانه، فهو يقول في أسلافنا إنهم أخطؤوا في تسمية أصحاب أفلاطون باسم المشائين.

أما الذي حصل بعد أرسطاطاليس فهو أن ما ردّ به على أستاذه قابله بنظيره تلاميذه، فقالوا له: إن المادة عندك إمكان محض، أو عدم، فكيف يكون للعدم اشتياق؟ وكيف تشتاق المادة وهي لا وجود لها عندك؟ إن هذا كلام أشبه بكلام الشعراء خيالي محض، والفلسفة تطلب الحقائق لا الخيالات، بل إذا سلمنا أن لها وجوداً ضعيفاً كان للعالم أصلان: مادة وصورة، فعسر التوفيق بينهما، والمقصود من الفلسفة حصر الوجود في أصل واحد، ثم إنهم قالوا: إن أفلاطون لم يقدر على إيجاد الصلة بين عالم المثال وعالم المادة، وأنت اعترفت بالإله والمادة، ولم تقدر أن ترينا وجه تصرف الإله بالمادة بكلام واضح، وهذه هي شيعة «ثاوفرسطس» و«استراتون»، وهم متأخرو المشائين، فهؤلاء عجزوا عن إتمام المباحث الإلهية التي ابتدأها أستاذهم أرسطاطاليس، وتوغلوا في المباحث الطبيعية، فمنهم من اعتنى بعلم النبات وهو «ثاوفرسطس»، ومنهم من اشتغل بالتشريح وبالبحث عن طبيعة المعادن وهو «استراتون»، ومنهم من قال: انه لا بقاء للنفس بعد الموت، لأنها ناشئة من اعتدال المزاج كما تنشأ الألحان من مناسبة الأوتار، فإذا انحلّ المزاج واضمحلت النفس وهم شيعة أرسطاكسانوس وغيره من الشيعة الأرسطاطالية، وهذا ينطبق على ما قاله الإمام الغزالي في «المنقذ من الضلال» إذ قال ما نصه بعد ما ذكر الدهريين من الفلاسفة: الصنف الثاني وهم قوم أكثر مباحثهم من عالم الطبيعة، ومن عجائب الحيوان والنبات، وأكثروا الخوض في علم تشريح أعضاء الحيوان، فرأوا فيها من عجائب القدرة الإلهية وبدائع حكمة الله ما اضطروا معه إلى الاعتراف بقادر حكيم مطلع على غاية الأمور ومقاصدها، ولا يطالع التشريح وعجائب منافع الأعضاء مطالع إلا حصل له هذا العلم الضروري لكمال تدبير الباني لبنية الحيوان، لا سيما بنية الإنسان، إلا أن هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثير عظيم في قوام قوى الحيوان، فظنوا أن القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه أيضاً، وأنها تبطل ببطلان مزاجه، ثم إذا انعدم لا يعقل. انتهى. قال الأستاذ سنتلانه: فهؤلاء الجماعة هم شيعة «ثاوفرسطيس».

هنالك قال قائل منهم: إذن الفلسفة بعد أرسطاطاليس أخذت ترجع القهقرى، قلت: نعم. وترك القوم علم الإلهيات واقتصروا على علم الطبيعة، ولكنهم لم يرجعوا إلى السوفسطائية، ولا إلى من قبلهم، بل اعترفوا بالإله وجهلوا البحث فيه ولهم الحق، وبعضهم أنكر بقاء النفس، لكن مذهب

أفلاطون جعل للنفس المحل الأول، فقال: ثم ماذا جاء من المذاهب. قلت: مذهب أصحاب الرواق، وهم منسوبون إلى رواق كانوا يجتمعون فيه بمدينة أثينا، ويسمون أيضاً أهل المظالّ، فهؤلاء يقولون على ما يقول ستلانه: إن هذه المادة لا تقوم ولا تبقى إلا إذا كانت فيها قوة ألطف منها تمسك أجزاءها وتضبطها وتربط بعضها ببعض، وهذه القوة نوع قوة عقلية مصدرها ما هو أعلى منها وألطف من النفوس، ومصدر الجميع القوة الإلهية التي سموها بالعقل، وهو عندهم الإله المفارق للمادة، وقد أبدع في العالم قوة سارية فيه، امتزجت به امتزاج الدم بسائر الأعضاء، وبسريان تلك القوة في العالم المحسوس حصلت الحياة والحركة والحس والعقل في الموجودات، كل على حسب رتبته من الوجود، ومن ذلك ما نشاهده في العالم من النظام والترتيب، وما نشعر به من مناسبة الحركات، ومنافع الأعضاء وآثار العقل، والعالم من أعلاه إلى أدناه علة ومعلول، لا مصادفة فيه، وكله مقدّر بالحكمة الإلهية، فالنور الإلهي الساري في العوالم كلها أشبه بالنار في الخشب، وللإنسان منه حظ عظيم، ولا يقرّبه من ربه إلا الأخلاق، فعلم الأخلاق عندهم أهمّ العلوم. قالوا: الفلسفة بستان سياجه المنطق، والطبيعيات أشجاره ونباته، ومحامد الأخلاق ثمراته، والحكيم من جمع بين العلم والعمل. فهاهنا مقامان لا ثالث لهما: مقام أصحاب الحكمة، فلا ناس إلا الحكماء، ومن اقتفى أثرهم، وتشبه بأخلاقهم. ومقام عوامّ الخلق، فمن لا علم له ولا عمل فهو ممن لا يعتدّ بهم، وهم في الأرض كالأنعام، وليس هناك مقام ثالث، ولا واسطة بين المستقيم والمعوجّ، فإما أن يكون الإنسان مستقيماً أي حكيماً، وإما أن يكون معوجاً أي غير حكيم.

يقول الأستاذ ستلانه: إن ملخص مذاهب اليونان يرجع إلى ما يأتي: إما أن يقال: إن الوجود هو هذا المحسوس، وإما أن يقال: هو المعقول لا المحسوس، وإما أن يقال: هو المحسوس المعقول معاً، وليس هناك أمر رابع، فأول بحثهم كان مقصوراً على المادة يلتمسون ماهية هذا الوجود المحسوس.

ثم برز سقراط وأفلاطون فأبانا ما بين العقل والمادة من التمييز، فانقلبت المسألة إلى التوفيق بين المادة والعقل واتصالهما، وتأثير كل منهما في وجود العالم. فقال أفلاطون: الجوهر العقلي هو الأصل في الوجود، ووجود المادة أمر قريب من العدم المحض، ثم بالغ في التفريق بينهما حتى كأنه لا اتصال بينهما.

ثم ظهر أرسطاطاليس فضيق على أستاذه، وقال: إن الوصول من العالم العلوي إلى السفلي لا يتأتى بطريق أستاذه أفلاطون، وإن اتصال العقل بالمادة حاصل في الأفراد، ولكن لما حاول الارتقاء من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، وإلى العقل الإلهي؛ زلت قدمه ووقع فيما كان يحذر منه، إذ عجز عن ذلك فلم يبق إلا التمسك بأحد قولين: فإما أن يقال المادة هي الأصل الوحيد ولا شيء سواها، وهو قول أبيقورس ودهرية عصره، أو القول بوحدة العقل والمادة، وهو قول أهل الرواق، أقول: وهو يجمع بين رأي أفلاطون، وأرسطاطاليس، وبعد ذلك لا تجد من القرن الثالث قبل المسيح إلى آخر القرن الثاني بعده غير المذاهب القديمة، والحكماء ما بين شاكّ في الحقائق، أو دهريّ لا يقول بغير المادة، أو رواقيّ يقول بوحدة المادة والعقل، أو مشائي متفرّغ للطبيعيات.

شيعة الإسكندرين

ويعرفون باسم المذهب الأفلاطوني الحديث

أنشأه بها « مونيوس سكاس »، أي: الحمال، فهو أول حياته كان حمالاً، وكان نصرانياً، ثم رجع إلى وثنية اليونان، ولد سنة ١٧٥ بعد الميلاد، ومات سنة ٢٤٢ ب. م، وتلميذه أفلوطين توفي سنة ٢٦٩ بعد الميلاد، وتلميذ أفلوطين بروفيروس، ويشتهر في الكتب باسم فرفوريوس، ولد بصور الشام سنة ٢٣٢ بعد الميلاد، وتوفي سنة ٣٠٤ ب. م. فهؤلاء ومن بعدهم يسمون الفرع الإسكندري، وجاء بعدهم « يبليخوس » ومن تبعه، ويسمون الفرع الثاني إشارة إلى مولد « يبليخوس » إذ كان بإحدى بلدان الشام وتوفي سنة ٣٣٠ ب. م، ثم سريانوس وبرقلس ومن تبعه، ويسمون الفرع الأثيني، لأن دار التعليم إذ ذاك قد انتقلت إلى أثينا، وولد برقلس سنة ٤١١ ب. م وتوفي سنة ٤٨٥ ب. م. قال: إن مذهب الإسكندريين آخر المذاهب المعتبرة في الفلسفة اليونانية، وهو من أحكمها أصولاً، وأوسعها دائرة، وأوضحها طريقة، جمعوا بين المذاهب المتقدمة، فألفوا بينها بأن أخذوا السليم منها، ورفضوا السقيم، وتعقبوا كل ما فيها من الخلل والشبه حتى كان مذهبهم كخلاصة أفكار اليونان منذ بداية فلسفتهم، وعمدة كلامهم. قالوا: إن أفلاطون وأرسطاطاليس لم يكن بينهما خلاف في الأصول البتة، وإنّما اختلفوا في أساليب البحث، فمن فهم مقاصد كل منهما وسبر معناه لم يتوقف في الاعتراف بذلك.

قال « سبلفيوس » في تفسير كتاب المقولات لأرسطو: إذا ظهر الخلاف بين أرسطاطاليس وأفلاطون، فالقاعدة أن لا نقف عند ظاهر المعنى، ولا نعتقد بوجود الخلاف عند الحكيمين، بل ينبغي لك أن تستقصي معناهما فتجدهما متفقين لا محالة.

قال الأستاذ ستتلانه: إن هذا الرأي بنى عليه أبو نصر الفارابي رسالته الموسومة بالجمع بين رأي الحكيمين أفلاطون وأرسطاطاليس، وهي مطبوعة في مجموعة رسائل، تتبع فيها مواضع الخلاف المدّعى وجوده بينهما فصلاً فصلاً وقد أصاب وأجاد في كثير مما قاله الإسكندريون، إن هذا الوفاق ليس بمقصور على أفلاطون وأرسطو، بل إنه يجمع سائر الفلاسفة، فمن راجع تاريخ الفلسفة العتيقة تحقق أن الفلاسفة بأسرهم على كلمة واحدة، مجمعين في المهمات لا تراهم يختلفون إلا في الجزئيات والفروع.

تلك حكمة الأوائل تداولوها غابراً عن سالف من بداية الاجتماع الإنساني، اشتركت فيه الفرس والبراهمة والكلدان والعبرانيون ومصر واليونان، كيف لا والعقل الإنساني جوهر واحد لا يتغير باختلاف الأقاليم والأعصار، وأصل كل حكمة الإلهام الإلهي، فينبغي للحكيم والحالة هذه أن لا يلقي قولاً من الأقوال، بل عليه أن يأخذه على حق معناه وحقيقة جوابه؛ يجده مطابقاً للأصول، فإذا تحقق الخلاف ولم يكن وجه للتأويل، فالمرجع إلى مذهب أفلاطون، إذ هو الأقرب للحكمة الأولية.

وهنا أفاض الأستاذ ستتلانه في آراء علماء الإسكندرية إلى أن قال ناقلاً عنهم: إن هذا الخلاف لا يسدّ إلا إذا تفكر الإنسان في نفسه، فإنه يرى أن روحه متصرفة في بدنه، ومع ذلك هي جوهر لطيف مفارق للمادة الخ. وهكذا ضربوا المثل لله بالشمس، وأن حرارتها وضوءها ينبعثان إلى أقصى أطراف

العالم، وهكذا السراج يضيء البيت ويقتبس من نوره مئات السرج، وهو لا ينقص ولا يفنى، والصوت يؤثر في سمع القوم وهو لا ينقسم مع كثرة المستمعين، وهكذا العلم يرتسم في أذهان المستمعين، ولا ينقص ذلك من علم العالم شيئاً، إذن الله واحد لا يتجزأ مع تكثير ما يصدر عنه من الآثار، والقدرة إذا بلغت أشدها لا تبقى معطلة، فلا بد من بروز آثارها.

ثم قال: إن الشهرستاني نسب هذا القول خطأ إلى أرسطاطاليس، وهو في الحقيقة من مذاهب الإسكندريين، وأبان أن كتاب «أثولوجيا» الذي هو أول ما نقل إلى العربية في القرن الثالث الهجري، وفيه أمثال هذه الآراء؛ قد نبه علماء الإسلام إلى أرسطاطاليس، وهو في الحقيقة جملة منتخبات من الكتاب الرابع والخامس والسادس من إلهيات أفلوطين، نقل من السرياني إلى العربية، بدليل أنه مقسم إلى «ميامير»، وهي كلمة سريانية معناها المقالة، ومعنى «أثولوجيا» قول على الربوبية.

قال بعض الطلبة: لقد عرفنا الآن صور الآراء في العصور الأولى أيام اليونان وأيام الإسكندريين في المدة التي قبل المسيح والتي بعده، فنريد الآن أن تبين لنا أولاً كيف اتصلت الفلسفة العربية بالأمم الإسلامية، أي: كيف نقلت من علماء الإسكندرية إلى علماء الإسلام؟ وثانياً نريد رأيك أنت في هذا الخلاف الذي بين حكماء اليونان؛ وإن كان علماء الإسكندرية قد تعرضوا للجمع بين الأقوال المتقاربة.

فقلت: أما نقل الفلسفة اليونانية إلى العربية فإن لها طرقاً شتى منها ما تقدم ذكره هنا، وهو أنهم نقلوا كتاب أفلوطين الذي ذكرته لكم سابقاً أنه بعد المسيح من السريانية، أي إن السريان كانوا نقلوه إلى لغتهم ثم نقل الكتاب إلى العربية، وهناك طرق أخرى لا يسع المقام ذكرها، ولكن أذكر لكم ما قصه الفيلسوف الكبير الفارابي، إذ قال ما نصه بالحرف الواحد من كتاب «عيون الأنباء»: إن أمر الفلسفة اشتهر في أيام ملوك اليونانيين وبعد وفاة أرسطاطاليس بالإسكندرية إلى آخر أيام المرأة، وإنه لما توفي بقي التعليم بحاله فيها إلى أن ملك ثلاثة عشر ملكاً، وتوالى في مدة ملكهم من معلمي الفلسفة اثنا عشر معلماً أحدهم المعروف بأندرونيقوس، وكان آخر هؤلاء الملوك «المرأة»، فغلبها أغسطس الملك من أهل رومه، وقتلها واستحوذ على الملك، فلما استقر له نظر في خزائن الكتب، فوجد فيها نسخاً لكتب أرسطاطاليس قد نسخت في أيامه وأيام ثاوفرسطس، ووجد المعلمين والفلاسفة قد عملوا كتباً في المعاني التي عمل فيها أرسطو، فأمر أن تنسخ تلك الكتب التي كانت نسخت في أيام أرسطو وتلاميذه، وأن يكون التعليم منها، وأن ينصرف عن الباقي، وحكم أندرونيقوس في تدبير ذلك، وأمره أن ينسخ نسخاً يحملها معه إلى رومه، ونسخاً يبقيها في موضع التعليم بالإسكندرية، وأمره أن يستخلف معلماً يقوم مقامه بالإسكندرية، ويسير معه إلى رومه، فصار التعليم في موضعين، وجرى الأمر على ذلك إلى أن جاءت النصرانية فبطل التعليم من رومه وبقي بالإسكندرية إلى أن نظر ملك النصرانية في ذلك، واجتمعت الأساقفة، وتشاوروا فيما يترك من هذا التعليم وما يبطل، فرأوا أن يعلم من كتب المنطق إلى آخر أشكال الوجودية، ولا يعلم ما بعده، لأنهم رأوا أن في ذلك ضرراً على النصرانية، وأن فيما أطلقوا تعليمه ما يستعان به على نصرة دينهم، فبقي الظاهر من التعليم هذا المقدار وما ينظر فيه من الباقي مستوراً، إلى أن كان الإسلام بعده بمدة طويلة، فانتقل التعليم من الإسكندرية

إلى أنطاكية، وبقي بها زمناً طويلاً إلى أن بقي معلم واحد فتعلم منه رجلان ومعهما الكتب، فكان أحدهما من أهل حران، والآخر من أهل مرو. فأما الذي من أهل مرو فتعلم منه رجلان: أحدهما إبراهيم المروزي، والآخر يوحنا بن جيلان، وتعلم من العراقي إسرائيل الأسقف وقويري، وسارا إلى بغداد، فتشاغل إبراهيم بالدين، وأخذ قويري في التعليم، وأما يوحنا بن جيلان فإنه تشاغل أيضاً بدينه، وانحدر إبراهيم المروزي إلى بغداد فأقام بها، وتعلم من المروزي متى بن يونان، وكان الذي يتعلم في ذلك الوقت إلى آخر الأشكال الوجودية، وقال أبو نصر الفارابي عن نفسه إنه تعلم من يوحنا بن جيلان إلى آخر كتاب البرهان، وكان يسمى ما بعد الأشكال الوجودية الجزء الذي لا يقرأ إلى أن قرئ ذلك، وصار الرسم بعد ذلك حيث صار الأمر إلى معلمي المسلمين أن يقرأ من الأشكال الوجودية إلى حيث قدر الإنسان أن يقرأ. فقال أبو نصر: إنه قرأ إلى آخر كتاب البرهان. اهـ.

فلما سمع ذلك الطلبة قال بعضهم: لقد ثلجت صدورنا لهذا البيان، فنحن الآن نودّ أن تبين رأيك في الخلاف المتقدم في أصل العالم والمادة الذي شجر بين أفلاطون وأرسطاطاليس. فقلت: إن هذا الخلاف إنّما يصح على الطريقة التي أبرزها هذان الحكيمان للناس، فهنالك تشعبت الآراء، واختلفت الطرق، واحتاج النوع الإنساني إلى علماء يجمعون بين الآراء، ويوحدون الصفوف، كالذي نقلته لكم عن علماء الإسكندرية فلا أعيده.

فقال قائل منهم: ولكن هذا الرأي الذي جمعوا به بين الآراء المختلفة وإن كان جميلاً واضحاً لا تزال الشبه تحوم حوله، فإن هذا كله ما هو إلا تشبيه، والتشبيه لا يعطي برهاناً، ولا يؤدي إلى الحقيقة فإن ضوء الشمس والسراج ونحوهما ما هي إلا أمثال. فقلت: لقد قدمت لكم ما في المقدمة من القواعد في مبدأ العالم والمادة ما لا يتوجه علي هذا الاعتراض ولا الشكوك، وهذا هو الذي هداني الله إليه فادرسوه وفكروا فيه، فهو لا يتوجه عليه ما توجه على أفلاطون وعلى سقراط، والعلوم الحديثة قربت البعيد، وسهلت الطرق، فطرق العلم اليوم أقرب إلى أن تكون معبدة سهلة، وقد تبين بدراسة المادة والصورة أن هذا العالم كله يرجع إلى نقط ضوئية. فقالوا: نحب الإفاضة في هذا الموضوع.

بحث عام في المادة والصوت في الهواء

ثم نفس الهواء، ثم الضوء في الأثير، ثم العناصر المادية

فقلت: أنا قدمت لكم أن آراء المتقدمين والمتأخرين أجمعت أن المادة وجودها إما ضعيف، وإما هي معدومة، وما الموجود على حسب الرأي العام في الأمم الآن إلا نقط نورية سريعة الحركة تنوعت إلى ضوء وحرارة وكهرباء وماء ومعدن الخ.

إن الهواء إذا اهتز في الثانية الواحدة ٣٢ مرة نتج عنه أدنى الأصوات، بحيث تتمكن آذاننا من سماعه، فإذا زادت الاهتزازات بحيث تبلغ ٧٦ ألف مرة في الثانية، فهو أعلى صوت يمكن أن يؤثر في عصب أسماعنا، إذن الحركات الهوائية التي تقل عن ٣٢ مرة في الثانية والتي تزيد عن ٧٦ ألف مرة في الثانية لا نسمع بها، وهذا حق، لأن الريح العاصف إذا اشتدت فإننا لا نسمع صوتها، إذ نرى الأشجار تكاد تلمس الأرض ونحن لا نسمع لها صوتاً، لأن الأذن لا تسمع ما زاد عن الحد المتقدم، وأكثر الناس لا يعلمون.

بحث في مادة الهواء

إن نتيجة الامتحانات التي أقامها العلامة « ويليام كروكس » أمام الأكاديمية العلمية في باريس دلت على أن أتقن الآلات المفرغة للهواء لا تكفي لإفراغ الهواء أو أي غاز آخر من إناء محكم السد، بل لا بد من بقاء أثر قليل، وقد فرغ هو الهواء من كرة زجاجية قطرها ١٣ سنتيمتراً ولم يبق فيها إلا جزءاً واحداً من مليون، ومع ذلك كان عدد ذرات ذلك الجزء الزهيد من الهواء يبلغ مليون مليون مليون.

قال: وإذا أردنا إدخال الذرات الهوائية التي أخرجناها بحيث يدخل في كل ثانية بواسطة فتحة خاصة مائة ألف ألف ذرة في الثانية الواحدة احتجنا إلى سبعمائة مليون سنة ليملأ هذا الفراغ ثانياً، وهذه المدة تكون قد انطفأت فيها شمسنا وطاحت أرضنا، فبهذا عرفنا الصوت وعرفنا جرم الهواء، فلنشرع في:

مبحث الضوء

فنقول: لقد استقر رأي العلماء اليوم على أن أعيننا لا ترى الاهتزازات في الأثير التي تقل عن أربعمائة مليون مليون في الثانية الواحدة، ولا التي لا تزيد على ٧٩٠ مليون مليون في الثانية الواحدة، إذن الصوت حركات والضوء حركات، فأقل العددين للون الحمرة، وأكبرهما للون البنفسجي، وبقية الألوان بين هذين اللونين، وقد أدرك العلماء الآن أن الطيف الشمسي يمتد إلى ما وراء البنفسجي، ولكن لا تدركه العين، كما لا تدرك الأذن ما زاد من الحركات عما حدّد لحاسة السمع. إذن المسألة كلها في الصوت والضوء ترجع لكمية الحركات لا غير، والإنسان عبارة عن جهاز معدّ لإدراك ما يناسبه من ذلك، ومحروم مما عداه.

العناصر المادية

فأما العناصر المادية فما هي إلا حركات في الأثير، كالحركات التي ظهر بها الصوت في الهواء، والحركات التي ظهر بها الضوء في الأثير، غاية الأمر أن الحركات كلما كانت أشد سرعة كانت أغلظ حجماً، وكلما كانت أقل كانت ألطف، فترى العناصر الأرضية ما هي إلا نقط ضوئية تهتز في الثانية الواحدة أضعاف ما تهتزه الحركات التي أحدثت الضوء، فإذا رأينا الضوء قد نشأ من اهتزازات فبلغ في الثانية الواحدة ٤٠٠ مليون مليون؛ فإن العناصر المادية تنشأ من اهتزاز الأثير ستة آلاف مليون مليون مرة فأكثر أو أقل في الثانية الواحدة كما تراه مفصلاً في تفسير سورة « النور » عند آية: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[النور: ٣٥] الخ. وقد تبين هناك أن قطرة الماء تبلغ ذراتها ملايين الملايين، وأن بين تلك الذرات خلاء يساوي الخلاء الذي بين السماء والأرض والنجوم والشموس، إذن هذه العوالم ما هي إلا حركات، فإذا اشتدت كانت من العناصر، وإذا ضعفت كانت ضوءاً منظوراً.

إذن العناصر ضوء متكاثف متجمد لا غير، وهذا الضوء المتكاثف متخلخل جداً، فالمادة كلها مجوّفة تجويفات عظيمة وأصولها الحركات في عالم لا نعرفه إلا بآثاره، هذه هي المادة فكيف تكون مناط العلم ولا ثبات لها؟ إذن الثابت الذي هو مناط العلم هو العقول والنفوس والجواهر المجردة التي شرحناها في المقدمة.

ثبات العالم العقلي

فقال أحد الحاضرين: نعم. لقد ثبت لنا الآن أن المادة لا ثبات لها، ووجودها أشبه بالظل أو بالخيال، ولكنا نريد أن نعرف كيف كانت العقول والنفوس أثبتت من المادة وأحقّ منها باسم الوجود، وأنها مناط العلم، على شريطة أن يكون ذلك سهلاً تناوله، وكيف نعقل وحدة الخالق مع أنه يعلم العوالم التي لا نهاية لها، فكيف تجتمع الوحدة والكثرة؟ وكيف يعلم الله ما لا نهاية له؟ مع أن عقولنا لا تتصور ذلك وهو فوق طاقتها، ثم أخيراً إذا كانت المادة أشبه بالمعدوم، فإذن علامَ نجدّ وننظم المدن، فالأولى تركها والزهد في العالم المحسوس، وأن نترك الدار تنعي من بناها، وإذن تكون هذه المباحث هي من المعطلات للحركة العملية في العالم الإنساني، فهذه أربعة أسئلة وهي أهم من كل ما سألنا عنه.

فقلت: إن العقول والنفوس أثبت من المادة، وإنها أحق بالوجود، وإنها مناط العلم، فأنا لا أكلفكم أكثر من أن يفكر كل منكم في نفسه وفي أمر العدد، أوله الواحد وآخره لا نهاية له، يجده كل منا مركوزاً في نفسه، ثابتاً في عقله ثباتاً عجيباً، ونجده مجتمعاً من الواحد، ونفس الواحد لا نعرف له نهاية، فكل منا يحسّ في نفسه بهذه المعقولات ولكنه لا يفكر فيها، والرجل الحكيم يقول في نفسه: إن الواحد إذا أخذنا ثلثه فهو ٣٣٣٣٣٣, ٠، وهكذا إلى ما لا نهاية له، وهذا عجب أن تقف عقولنا دون أن تصل إلى حقيقة الثلث العشري في علم الحساب، فإذا كان ربع الواحد هو ٢٥ من المائة فإن ثلثه لا نهاية لتجزئته، ولو جعلنا له خطاً يحيط بخط الاستواء ويسير متجهاً إلى الشمس كله مركب من ٣٣٣ الخ وهكذا، ثم إذا نظرنا $\frac{٥}{٧}$ وهي أيضاً أجزاء من الواحد، فإنا نجدها هكذا ٢٨٥, ٧١٤, ٢٨٥, ٧١٤ وهكذا إلى ما لا يتناهى، فهكذا كل كسر دائري مركب لا نهاية له، وما قبله لا نهاية له، كل هذا مركوز في نفوسنا، يشعر به من تعلم في الشرق والغرب، من أي دين ومن أي نحلة، فهذا أمر ثابت لا تزلزله العواصف، ولا الزلازل الزمنية، فهو ثابت لا يتغير، وهذا الثابت الذي لا يتغير لم يجعله جاعل، فهذا ثابت، والمادة متغيرة لا ثبات لها، ثم تنظر هذه النفوس فتجدها قد اندمجت فيها هذه الأعداد اندماجاً، وبيانه أن الجسم الإنساني عبارة عن حويصلة صغيرة في داخل الرحم، تغذت بالدم وتمثل في جسمها وامتزج بها، وصار هو هي، وأخذت تلك الحويصلة تنمو رويداً رويداً حتى صارت بشراً سوياً سميناه زيداً وعمراً، وقلنا هو واحد مع أنه مشتمل على ما لا نهاية لعدده من الذرات، هكذا نرى هذه النفوس الإنسانية التي أودعت في هذا الجسم، فإنها حينما نزلت إلى الجسم لم تعلم شيئاً، ولكن المعلومات بعد ذلك تغذيها رويداً رويداً فتدخلها صور المحسوسات صورة بعد صورة ثم المعقولات، وتتراكم وتزداد، وتصبح تلك المعقولات العددية وغير العددية هي عين تلك النفس، فكما أننا لا نقول إن الحويصلة التي ألقيت في الرحم وعظمت بالأغذية تمتاز عن تلك الأغذية بل كلها أصبحت جسماً واحداً، هكذا لا نقول إن النفس التي نزلت لذلك الجسم تمتاز عن المعقولات الحسابية وغيرها، فالمعلوم هو عين العالم، هو عين العلم، إذن نفسي هي عين علمها، فإذن تجزئة الواحد إلى ما لا يتناهى ثابتة في نفسي، والكسر الدائر المركب وهو $\frac{٥}{٧}$ ثابت في نفسي، بل هو من جوهر نفسي لأنه معلوم، وهو نفسه علم، وهو نفسه عالم، إذن نفسي منطوية على ما لا نهاية له مجملاً، وهي لا تقدر

على تفصيله، وبالتعليم يتضح لها مقامها، وكلما ازدادت تعلماً ازدادت بصيرة، ثم إن هذه الأعداد المركوزة فيها قد رأتها في المادة، وبيان ذلك أن الهواء لما أفرغه العلامة «ويليام كروكس» أمام الأكاديمية العلمية في باريس أثبت كما تقدم أن العلم عجز عن تفريغه، بل بقي منه مقدار عظيم يعدّ بالملايين من الذرات، فهذا نظير ما في نفوسنا من الكسر الدائر، فهذا مثل ٠,٣٣٣، فالمادة التي أمامنا عند تجزئتها تشابه ما ركز في نفوسنا من العلوم العددية التي لا نهاية لها في التجزئة.

مسألتان في علم الميقات

وهاهنا أفصل مسألتين في علم الميقات: المسألة الأولى: السنين الكبيسة والبسيطة.

المسألة الثانية: الخسوف والكسوف.

المسألة الأولى: السنين الكبيسة والبسيطة

إن السنين القمرية لها سبعة أدوار، كل دور ٣٠ سنة، ومجموعها ٢١٠ سنة، وهذا هو الدور الكبير. والدور الصغير منه ١١ سنة مركبة كل منها من ٣٥٥ يوماً، وتسمى سنة كبيسة، ومنها ٩ سنين كل منها مركبة من ٣٥٤ يوماً وتسمى سنة بسيطة، فكل دور من الأدوار الصغيرة هذا حكمه، وهذه الأدوار لا تتغير، فتكون إذن أشبه بالكسر الدائم المتقدم في عدد $\frac{٥}{٧}$، والسنة الكبيسة في كل دور هي ٢ و٥ و٧ و١٠ و١٣ و١٥ و١٨ و٢١ و٢٤ و٢٦ و٢٩، وهذه الأعداد في الكبيسة تكون في كل دور، وبقية الأعداد بسيطة.

المسألة الثانية: الخسوف والكسوف

إن في كل ١٨ سنة و١١ يوماً يحصل ٧٠ خسوفاً وكسوفاً، منها ٢٩ خسوفاً و٤١ كسوفاً، وكل خسوف وكسوف في كل دور لا يتغير، فهي إذن مثل السنين الكبيسة والبسيطة، فهذان المثالان يشبهان $\frac{٥}{٧}$ المتقدمة التي رأينا لها أدواراً منظمة في نفوسنا.

بهجة جميلة وخلاصة هذا المقام

إن نفوسنا مشتملة على أعداد وعلوم، وتلك الأعداد والعلوم كامنة فيها ثابتة، أما المادة فلا ثبات لها ولا دوام، والدليل على ثبات العلوم في نفوسنا أن الكسر الدائر والكسر غير الدائر متى عرفه الإنسان وجده مخبوءاً في النفس كأنه كنز كان مخفياً، ثم يجد عدم تناهي التجزئة في المادة التي لا ثبات لها، فهي دائماً مضطربة، وهي أشبه بما نراه في أنفسنا من عدم تناهي التجزئة في الكسر الدائم المتقدم، وإذا نظرنا إلى عدم الوقوف على آخر الكواكب في العدد فهو نظير ما نحس به في عقولنا من عدم انتهاء الأعداد المركبة من الواحد، فلا الواحد في نفوسنا وقفنا على أجزائه، ولا العدد المركب من تكرار هذا الواحد وقفنا على نهايته، إذن نفوسنا أصل للمادة وهي مستمدة من نفوس أكبر منها أصل لها، والجميع راجعون لله، كما جاء في القواعد التي في مقدمة هذه الرسالة، إن نفوسنا شابهت المادة من جهة وخالفتها من جهة أخرى، فهي ثابتة من حيث حفظ صور العالم فيها، مضطربة من حيث حركتها الفكرية التي لا تهدأ في النوم ولا في اليقظة، فهي كبحر عظيم، ساكن الماء، مضطرب الأمواج دائماً، أما المادة فهي كلهب النار.

إن من العجب أن تلك الحركات التي برزت في الأثير وكان منها النور والهواء، وجميع العناصر قد ظهرت فيها أدوار منظمة لدورانها في الأفلاك كأدوار الخسوف والكسوف المتقدمة، وأدوار السنين الكبيسة والبسيطة، فهذه الأدوار الحادثة في المادة تشبه الأدوار العددية في الكسر الدائر، وهذا مركوز في نفوسنا، إن نواميس العناصر ونواميس الضوء والحرارة كلها مقدرات عددية ونفوسنا منطوية عليها، وستكشف لنا إذا جاوزنا هذه الظلمة الجسمية، وإن ما نراه في المادة المتفرعة من الجواهر العقلية من النظام يشوّقنا إلى النظام المخبوء في نفوسنا، وليس بيننا وبينه إلا مفارقة المادة، ومتى فارقناها وصلنا إلى سعادتنا وخرجنا من هذه العوالم المضطربة، وهاأنا ذا الآن أقول قد أجبنا بهذا البيان عن الأسئلة الأربعة المتقدمة، فثبات النفوس صار سلماً به ثبات معلوماتها، والعلم هو نفس المعلوم بخلاف المادة المضطربة، وهذا هو السؤال الأول، وأما قولكم كيف نعقل وحدة الخالق مع أنه يعلم ما لا يتناهى كثرة، فجوابه أن نفوسنا كما قدمنا تعلم العدد وتعلم الكسر ولا نهاية لهما، ومع ذلك لا يقول أحدنا إن نفسي متعددة، بل يقول هي واحدة، وأما قولكم كيف يعلم الله ما لا نهاية له مع أن عقولنا لا تدرك ذلك فكيف نعتقد ما لا ندركه؟ فهذا أيضاً مدفوع، فنحن ندرك الكسر الدائر المتقدم، وندرك أدوار الخسوف والكسوف، وأدوار السنين الكبيسة والبسيطة، ونعلم أن تلك الأدوار جميعها لا نهاية لها إجمالاً، ولكن عقولنا تشهد أن الله يعلمها تفصيلاً، وليس الحادث كالقديم، وأما جواب السؤال الرابع وهو إذا كانت المادة أشبه بالمعدوم، أو هي معدومة، فإذن علامَ نجدّ نجتهد ونخترع وننظم المدن فالأولى تركها. فهذا السؤال يحتاج إلى الإفاضة في الإجابة عنه: فعلموا أيها الأذكياء أن وقوفنا على هذه الحقائق، ووثوقنا بها يدفعنا للعمل والرقي والإسراع فيهما بقدر طاقتنا، ولي على ذلك شاهدان:

الشاهد الأول: نفس أفلاطون الذي أذاع هذه الفكرة في العالم، فإنه ألف جمهوريته في نظام الأمم وسياستها وحكوماتها وتربية الجيوش والأمراء، وعلم الأخلاق، وقد أجمع المحققون أن هذا الكتاب ليس له نظير من هذا القبيل قبله ولا بعده، وقد تقدم أنه أثر في كل الأمم، والسبب في ذلك أن الإنسان متى أيقن بأن نفسه قريبة من خالق العالم يشعر بفرح ونشاط ومسرّة لا نظير لها، ويرى أنه خليفة له فيريد أن يرضيه ويتحبب إليه، بل يرى فوق ذلك أنه أب للناس حوله وهم أبناؤه، تشتد عنايته بالإنسانية، ويرى من واجبه أيضاً أن يكون دائم العمل والفكر مشاكلة لما رأى من الإبداع الغريب والنظام المدهش في العالم الذي شعرت به حواسه، ويعلم أنه إنّما أبدعت له هذه العوالم ليدرسها ويتمرن على العلم فيها، فهي أشبه بلوح الصبيان في المكتب، وكأنه هو صبي يتعلم، والصبي إذا لم يتقن قراءة اللوح لم يفز بعد في بقية حياته بالسعادة المترتبة على ذلك، كذلك هؤلاء مع علمهم بأن هذا العالم وجوده خيال يعتقدون اعتقاداً جازماً بأنه لوح لهم يقرؤونه، وبه وحده وبدراسته يسعدون حالاً ومآلاً فهم من جهة يدرسون هذا اللوح، ومن جهة أخرى يزهدون في اللذات التي تحول بينهم وبين تلك الدراسة، ويميزون بين الزهد في الحطام والزهد في العلم والدراسة، فالجهال الذين يظنون أنهم صالحون يزهدون في دراسة لوح هذه الدنيا، فهؤلاء غافلون مغرورون، والحكماء يحرصون على إدراك حقائق هذا الوجود مع زهدهم في لذاته التي كلها وقتية لا دائمة هذه هي الحقيقة التي لا مرية فيها لقوم يعقلون.

الشاهد الثاني: الأنبياء والمرسلون، فما من نبي إلا وزهد الناس في الدنيا وزهد هو فيها، ومع ذلك نجد المرسلين منهم لأكثرهم دول وممالك، ونراهم يحرصون على العلم بالوحي وبالعقل على تعليم أممهم، فما ذلك إلا لأنهم جعلوا هذه المادة لوحاً يقرؤونه، وأعرضوا عما فيها من اللذات، وانتظروا لقاء ربهم فرحين مستبشرين وآثارهم دائمة، فهذه الطائفة أرقى من سابقتها وهم هداة الأمم وزهدهم في الدنيا هو الذي أعانهم على تنظيمها وإعدادها للحياة كالآباء يحرصون على تربية الأبناء ويمدونهم بكل ما يلزم للحياة، هذا هو الصراط المستقيم، هذه هي الحقيقة الواضحة الجلية التي استبشرت بها نفسي واطمأنت إليها وفرحت بها، ولو شئت الآن أن أدرج في هذه الرسالة فوائد الكتب المقدسة كالقرآن والإنجيل والتوراة لملأت بها مجلداً من الآيات والسير الشريفة، ولكن هذه الرسالة راجعة للعقل، والحكمة خاصة لا تختص بدين ولا مذهب ولا نحلة، بل عامة للناس، يقرؤونها بعقولهم ويدرسونها.

فقال قائل من الطلبة: بقيت لي مسألة. فقلت: ما هي؟ فقال: أريد إيضاح ما تقدم في المقدمة من حيث العالم المشاهد واستنتاج عالم الغيب منه فوق ما تقدم. فقلت: ذكرت لكم فيما تقدم أن جسمي مشتق من العوالم الأرضية، وأن الضوء المحيط به آت من العوالم السماوية، وأن الأرض إذا عجزت عن الضوء الحسي فهي عن الضوء المعنوي وهي العقول أعجز، وتكون النتيجة أن العقول مركزها ومركز النفوس في عالم غير المادة، وكما أن جسمي جاء من عالم كبير وهو العالم المادي المجانس له؛ هكذا عقلي جاء من عالم عقلي مجانس له قياساً على جسمي. قال: نعم، تقدم هذا. قلت: وأنا الآن أزيده بياناً، لندرس الحواس والتنفس والشراب والغذاء في الجسم، الإنسان يتنفس من الهواء، ويتغذى بالطعام، كما أن جسمه من الأرض وما حولها، ويشرب من الماء وهو يحيط بالأرض فهاهنا أربعة أمثلة: جسمي وغذائي وشرابي وتنفسي، والأغذية مخلوقة فوق الأرض، فهذه الأربعة كل منها مشتق من مخزن كبير من جنسه. قالوا جميعاً: نعم. قلت: والحواس الخمس هذا حكمها، فكما أن الجسم من جرم هذه الأرض وما عليها، وغذائي من أغذية عليها، وشرابي من ماء محيط بها، ونفسي من هواء يحيط بها، والضوء الذي يحيط بالجميع آت من عوالم سماوية، هكذا لما كانت:

(١) حاسة اللمس التي تعرّف الحرارة والبرودة والنعومة والخشونة قد أحاطت بها عوالم من جنس ما تحتاجه.

(٢) وحاسة الذوق التي تعرّف الحلو والمر والملح قد أحاطت بها عوالم كثيرة من جنس ما تحسّ به.

(٣) حاسة الشم أحاطت بها المشمومات التي تمدّها.

(٤) وحاسة السمع أحاطت بها كرة الهواء التي تؤدّى إليها الأصوات.

(٥) وحاسة البصر أحاطت بها عوالم النور التي تمدّها بالضوء فيكون الإبصار. هكذا كانت نفوسنا لها عوالم تحيط بها من جنسها.

فجسمي (١) وغذائي (٢) وشرابي (٣) ونفسي (٤) والنور الذي أهتدي به (٥) وحاسة لمسي (٦) وحاسة ذوقي (٧) وحاسة شمي(٨) وحاسة سمعي (٩) وحاسة بصري (١٠)، كل هذه تستمد

من عالم يحيط بها مجانس لها، فهذا الاستقراء يلجئنا أن نقول لا محالة أن روحي ونفسي وعقلي يحيط بها عوالم مماثلة لها عاقلة روحية نفسية تستمد منها، وهذه النفوس والأرواح لها مرجع وأصل وهو الذي يسميه الناس والديانات « الله »، كما أن الضوء المحيط بجسمي له أصل وهو قرص الشمس فالله هو أصل العالم.

فهذا العالم المشاهد منقوشة صورة في عقول أبرزته كانتقاش الأعداد المتقدمة في عقولنا فتبرزها في الخارج على مقتضى ما تشاهد، والذي عرّفنا تلك العقول اتصال نفوسنا بها واستمدادها منها كاستمدادنا الماء من النهر والمطر، وما إبراز تلك العقول ما كمن فيها من تلك الصور في الخارج إلا كإبرازنا نحن ما كمن في نفوسنا من المعاني بالنطق باللسان، وإخراج الكلمات من المخارج الصوتية، وهذا الموضوع كله هو معنى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾[الذاريات: ٢١-٢٣]، فعبر بنطقنا ولم يعبر بأعمالنا التي تصدر عما ركز في نفوسنا من المعاني كالنطق، لأن النطق سريع سهل، فصنع الله للعالم، وصنع العقول التي تسمى ملائكة؛ يعبر عنه تعليماً لنا بنطقنا الذي يبرز ما كمن في عقولنا، فبهذا عرفنا العالم الذي يسمى ملائكة، وعرفنا أن له مبدأ وهو الله، وعرفنا أن تلك العقول التي سميناها ملائكة تدبر شؤون العالم كما ندبر نحن منازلنا، وعرفنا أن نفوسنا سترجع إلى تلك العوالم بعد موتنا كما أن أجسامنا ترجع إلى عوالمها التي خلقت منها، فهذه مجامع العلم والحكمة، وهذه هي التي حيرت العقول، وأذلت الفحول، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

فقال آخر: ما المادة التي خلق منها العالم؟ فقلت: إذا احتجت أنت إلى مادة في نفسك لتكون فيها صور ذهنية احتاج العالم إلى مادة، وهذا هو الذي تقدم في هذه الرسالة أنه قد حل الإشكال الوارد على أفلاطون في نظرية المثل الأفلاطونية.

برهان بقاء النفس من العلوم الطبيعية والفلكية

فلما سمع الطلبة ذلك، وكان في يوم الثلاثاء ٢٦ مارس سنة ١٩٢٩م مساء، قال قائلهم معبراً عن جمعهم: إن أسلوبك في هذه المحاورات معنا أسلوب جميل يخلب الألباب ظاهره، ولكنا لما رجعنا إلى أنفسنا ألفينا أنفسنا معك تشبه « سقراط » مع « أنكساغورس »، أو تشبه « أرسطاطاليس » مع « أفلاطون »، أو المشائين مع « أرسطاطاليس »، فكما أن « سقراط » لما قرأ كلام « أنكساغورس » بعد موته وجده غير مجد ولا نافع في وصف العقل؛ وهكذا « أرسطاطاليس » اعترض على « أفلاطون » إذ لم يبين وجه ارتباط المثل التي ذكرها بالعوالم المشاهدة؛ وهكذا المشاؤون بعد « أرسطاطاليس » قالوا: إن أستاذهم وقع فيما وقع فيه أستاذه، إذ لم يبين « أرسطاطاليس » وجه تأثير خالق العالم في المادة، ولا وجه العلاقة بين الخالق والمخلوق، وهكذا نحن نرد عليك بنفس ما قلت، وننقض كلامك في حياتك، ذلك أنك قلت في أول محاوراتنا معك: إن الدليل على أن النفس الناطقة من عالم غير العالم الأرضي أنها أشبهت الضوء، فكما أن الضوء قد عجزت الأرض عن أن تمدنا به فهي عن الضوء المعنوي أعجز، إذن نفوسنا من عالم علوي لطيف ألطف من الضوء. قلت: نعم، أنا قلت ذلك

أولاً وآخراً. فقال قائلهم: ونحن الآن نقول مستدلين بطريقتك على عدم بقاء النفس، فنقول: كما أن ضوء الشمس يفنى فناء لا مردّ له عند غروبها، هكذا أرواحنا بعد موتنا لا بقاء لها، فما أجسامنا إلا كالأرض، وما أرواحنا إلا كضوء الشمس، فلو كان لأرواحنا بقاء بعد موتنا لكان لضوء الشمس بعد غروبها بقاء في أرضنا، ولكن ضوء الشمس يعدم حالاً بعد غروبها، إذن يكون العدم حتماً عند موتنا وهذا قياس منطقي لا يقبل المعارضة ولا الجدال على حسب طريقتك التي اخترتها واكتفيت بها، إذن أصبحت محاورتك معنا معطية لنا اليقين بعدم النفس عند الموت بعد أن كان عندنا شبه برهان على بقائها قبل هذه المحاورة، فالناس إذن يؤمنون إيماناً كإيمان العجائز، فأما البرهان فلا. فقلت لهم: أظننتم أنكم فائزون في استدلالكم، صادقة براهينكم؟ قالوا: نعم، ونحن بذلك موقنون. قلت: فاسمعوا، إن نفس هذا البرهان يثبت بقاءها، فلنبحث ضوء الشمس المذكور، إن أرضنا في استضاءتها أشبه بالمستحم في النهر لا غير، وما ضوء الشمس إلا كماء النهر والرياح الجارية، إن الماء يجري من خط الاستواء في النيل إلى البحر الأبيض، والهواء تحركه الحرارة فيمر على الأشجار والمزارع فيحركها وينفض عنها الغبار، ويمر إلى جهات أخرى من العالم، وضوء الشمس يجري منها سارياً في العوالم لا يقف كما لا يقف ماء النيل بعد مروره على بلادنا، فكما يزعم الذي لا تدبر عنده أن الريح الهابة عليه وهو في مزرعته قد فنيت، ويزعم المستحم في النهر وشارب الماء أن الماء الذي مرّ به أو شربه قد فني وما فني؛ وإنّما هو سائر في طريقه بحيث يجري ماء النهر حتى يصل إلى البحر بالنسبة للمستحم في النيل، وينزل في الجسم فيختلط بالدم، ثم ينزل بولاً أو عرقاً من الجسم، ثم ينزل على الأرض فيتحول إلى بخار يرجع إلى الجو ولا يفنى، هكذا ضوء الشمس الذي يمر بأرضنا هو باق ولا يفنى كما بقي الهواء، وكما بقي الماء سواء بسواء، ألا ترون رعاكم الله أن علماء الفلك يقولون: قد كشفنا سديماً جديداً، ووجدنا ضوءاً قد سافر في الجو مائة مليون سنة، وهذا آخر ما كشفوه. أفلا ترون أنهم الآن في أمريكا قد ابتدعوا منظاراً، وهم الآن يصنعون قطره ٢٠٠ بوصة، وهم يتوقعوا أنهم سيرون به كواكب قد جاء نورها من أجرامها منذ مائة ألف مليون سنة، إن الدكتور شابلي الأمريكي مدير مرصد جامعة «هوفارد» الأمريكية من أشهر علماء الفلك، نشرت عنه إحدى المجلات الأمريكية أن نظامنا الشمسي مع المجرة التي هو منها عبارة عن كرة واحدة. فكما أن أرضنا تدور كل ٢٤ ساعة دورة هكذا هذه المجرة ونظامنا الشمسي الذي هو ذرة واحدة في ثلاثمائة مليون سنة، ويجري في الثانية الواحدة ٢٠٠ ميل، ويقول: إن مركز هذه المجرة هو نقطة اتصال العقرب والحية بالرامي، وهذه النقطة تبعد عن الأرض خمسين ألف سنة نورية، فالنور المنبعث منها ونراه في الأرض الآن خرج من تلك النقطة منذ خمسين ألف سنة نورية، إذن النور لم يعدم وهو باق تلك المدة، وهذه المسافة للنور قليلة، فإن العلماء يرون الآن نجوماً انبعث النور منها منذ مئات الملايين، فإذا كان هذا قول علماء الفلك؛ فمعناه أن الضوء لا يفنى إلى أمد عظيم، ولم يجدوا دليلاً على انعدامه، فإذا رأينا الضوء لا يزال جارياً مائة ألف مليون سنة، ولا ندري متى يفنى؛ فإن نفوسنا التي هي ألطف وأبسط من الضوء إذن تعيش هذه المدة وتعيش إلى الأبد، بل لا دليل على فنائها.

ومن أراد اعتقاد فنائها فليأت بدليل على فناء الضوء الذي هو ألطف منها وأبسط، وقد أجمع علماء الفلك أنهم يرونه بعد مئات ألوف الملايين من السنين، إن هذا القول يدلنا على أن عالم الأثير الذي يجري فيه الضوء ليس كعالمنا، أوَلا ترون أننا نرمي الكرة فنراها تجري ثم تقف؟ ولكن جري النور خالف ذلك، فهو يجري ولا يقف ولا ينقطع، إذن حركات النور في الأثير تخالف حركات الأجسام الأرضية، فالنور لم يثبت عدمه إلى الآن، بل هو ينتقل من عالم إلى عالم، ونور شمسنا من تلك الأنوار، وما أرضنا إلا أشبه بالمستحم في النهر كما قلت، فإذا غربت الشمس فمعناه أن أرضنا كانت غارقة في ضوء الشمس، فخرجت من ذلك النهر، فكما أن خروج المستحم من النهر لا يدل على انعدام ماء النهر؛ هكذا خروج أرضنا من بحر ضوء الشمس عند الغروب لا يدل على فناء النور، بل النور باق، وهو يجري، ويتقبله أحياء في عوالم أخرى ويبحثونه ويستخرجون منه عناصر الشمس كما نستخرج نحن عناصرها وعناصر النجوم من ضوئها. إذن ردكم على برهاني وقولكم إن كلامي يشعر بفناء النفس قد رجع إليكم وهو أقوى مما كان وأدل على بقاء النفس بعد الموت، بل يزيد ثباتاً وقوة بأن النفس بعد الموت قد حملت معها جميع أعمالها وهي تحاسب عليها غير منقوصة، أفلا ترون أن علماء الفلك يستخرجون من الضوء حقائق الكواكب بتحليله فيعرفون تركيب كل كوكب، أفليس هذا كمسألة الحساب سواء بسواء لا يضيع منه مثقال ذرة كما لم يضع من الضوء مثقال ذرة من تركيب الكوكب، بل يرى علماء الفلك بمناظرهم حقائق الكواكب وما فيها من العناصر عنصراً عنصراً، ويحكمون على أبعادها، فالضوء يعرف الأبعاد ويعرف كل عنصر في الكوكب مهما تباعدت أقطاره وامتدت مسافته. إذن الروح باقية وأعمالها معها لا يضيع منها مثقال ذرة، فضوء الكواكب يقول بلسان حاله: ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون.

فقال الجميع: الحمد لله، هذا برهان لا مطمع في نقضه، فقلت: الحمد لله رب العالمين. وبهذا تم الكلام على الباب الأول من «رسالة مرآة الفلسفة».

وأما الباب الثاني فقد تقدم في سورة «لقمان» فلا حاجة لذكره هنا، فارجع إليه إن شئت. انتهت اللطيفة السادسة في قوله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[محمد: ١٩] الخ، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة السابعة: في قوله تعالى:

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴾

انظر إلى تقطيع الأرحام في الأمم العربية للتناحر والقتال والتدمير، لماذا كل هذا؟ للخلافة والشهوات النفسية، ويظهر لي أن هذا القرآن الذي نزل بالشورى وحفظ العلائق بين العشائر والأقارب لم يأخذ مجراه عند الأمم العربية أسلافنا، ولم تستعد له تمام الاستعداد، فما كادت شمس النبوة تغرب وتظهر نجوم العلم في ظلمات السياسة العربية الحالكة حتى رأينا العباسيين والأمويين وغيرهم يتقاتلون ويتناحرون ويدبرون المكائد ويبعثون الجواسيس لأجل الخلافة، فزالت دولهم، ونكست أعلامهم، وخرّ عليهم السقف من فوقهم، وباءت دولهم بالوبال.

ألا تنظر إلى ما سأذكره في سورة «الحجرات» إن شاء الله من المكايد المنصوبة، والحيل المحبوكة والمظالم المركومة، والجدود العاثرة، والأعمال البائرة.

وكيف ترى أبا جعفر المنصور قد انصرفت همته إلى عصبية العرب ففرّقها وأخذ يغدر بمن يؤمنهم وينصب الشباك لاصطياد الرجال وقتلهم، والتفريق بينهم، وكيف ترى قثم بن العباس بن عبيد الله بن عباس وهو شيخ العباسيين وكبيرهم يأمر غلامه أن يستفتيه على مرأى ومسمع من أهل اليمن وسادات مضر أيهما أفضل، وهو يجاويه أن مضر أفضل من أهل اليمن، فقامت الفتنة بين القبيلتين على قدم وساق، وتفرقوا شذر مذر، ولما قدم المهدي بن المنصور من خراسان، قال له قثم: اعبر بابنك المهدي الجانب الآخر من بغداد واجعل منه قطعة من جيشك فلا يتحدون فتضرب بعضهم ببعض عند الحاجة، وهكذا لما كانت أم الأمين عربية وأم المأمون فارسية صار العرب حزباً للأول وضرب الآخرون الأولين، وقد تربى المأمون في حجر البرامكة وسعوا له في ولاية العهد، والفضل بن الربيع سعى في تأييد الأمين وحمله على نقض بيعة أخيه، ونصر الخراسانيون ابن أختهم المأمون بتدبير الفضل بن سهل، وكان العرب من الجند العباسي قد أنهكتهم الحضارة والترف وتبددوا بسياسة التقسيم فلم يستطيعوا دفاعاً، هنالك أخرج الخراسانيون الخلافة من العرب وسلموها إلى المأمون كما أخرجوها قبلاً من بني أمية وسلموها إلى أجداده، وزاد الطين بلة ما حصل في أيام المعتصم الذي تولى الخلافة سنة ٢١٨هـ، وقد جمع حوله الأتراك والفراعنة، وضرب العرب الضربة القاضية، إذ قطع العطاء عنهم، وانحط شأن العرب من ذلك الحين، ومنعوا الولايات فتمكن الفرس من الدولة، وهنالك قام مرداويج في أصفهان سنة ٣٢٢ هـ يريد أن يأخذ بغداد وينقل الدولة إلى الفرس فلم يفلح ولكن نفوذ الفرس استحكم، وفي أيام المأمون ومن بعده تظاهر الشعوبية بالطعن في العرب والمأمون يقربهم منه، ومنهم سهل بن هارون قيم بيت الحكمة، وكان شديد التعصب على العرب، وأبو عبيدة الراوية المشهور، وعلان الشعوبي.

وللدولة العباسية عصران: عصر ارتفاع من سنة ١٣٢هـ إلى سنة ٢١٨هـ، وعصر تقهقر يبتدئ بخلافة المعتصم وينقضي بانقضاء الدولة العباسية، إن عصر بني أمية كان للعرب فيه السيادة التامة، وكانوا يظلمون غيرهم من القبط والنبط والروم والسريان والكلدان والفرس والترك والسودان، ومن أسلم من هؤلاء يأخذون أرضه ومنزله، ويلزم أن يحارب معهم لأنه مسلم، ولكنهم لا يساوونهم بأنفسهم، بل يخرجونهم مشاة بلا رزق ولا فيء، فأثر ذلك في نفوسهم فكثر الخوارج، ولما قام الدعاة من آل البيت العلويين والعباسيين نصرهم الخراسانيون، واتخذ الخلفاء أمهات أولادهم من الفرس، فكان هؤلاء الأبناء شديدي الميل إلى الفرس.

ولقد أراد المنصور أن يستغني عن الحرمين الشريفين بالقبة الخضراء التي بناها ببغداد، لتقوم مقام الكعبة، فكانت هذه سبب مبايعة محمد بن عبد الله من آل علي كرّم الله وجهه بفتوى مالك رضي الله عنه، وهكذا الأندلسيون قطعوا الدعاء لبني العباس إذ ذاك، فاجتهد المنصور في قتل محمد بن عبد الله بعد أن علم أن ما فعله من المخالفة لا يجديه نفعاً.

وبالجملة إن الجامعة الإسلامية كانت في عصر الراشدين عربية، وكان غرضهم الأول نشر الإسلام في الأرض، يدفعهم إلى ذلك اعتقادهم المتين بصدق الرسالة، وأن الله يدعوهم إلى ذلك، فلما تولاها بنو أمية استعاضوا عن ذلك الاعتقاد بطلب المال، وتحوّل الغرض إلى السلطة الزمنية السياسية، وظلت الجامعة العربية متينة، وفي عصر العباسيين استبدلوا الأعاجم بالعصبية العربية، واحتاجوا في اصطناعهم أو استخدامهم إلى المال، وانخرطوا هم في سلكهم بواسطة الأمهات، ثم أصبح الأعاجم من الفرس والترك والديلم والصغد والفراغنة وغيرهم يتسابقون إلى الاستئثار بالنفوذ بواسطة المال.

ثم إن المأمون لما مات سنة ٢١٨ هـ أفضت الخلافة إلى أخيه المعتصم بالله، وكانت أمه تركية الأصل من بلاد الصغد في تركستان، فشب محباً للأتراك، وكان قد أصبح لا يأمن الفرس على نفسه بعد أن قتلوا أخاه الأمين، وهي أول مظاهر جرأتهم على الخلفاء، ولم يكن له من الجهة الأخرى ثقة في جند العرب، لما يعلمه من ضعفهم بعد ما سامهم إياه العباسيون من الإذلال، وزد على ذلك أن أخاه المأمون أوصاه عند دنو أجله بمحاربتهم، فلم يرَ له غنى عن اقتناء من ينصره غير الفرس والعرب، وكانت الفتوح الإسلامية قد أدركت ما وراء النهر، وكان العمال هناك يبعثون الهدايا إلى بلاط الخلفاء وفي جملتها صبيان الأتراك والفراغنة، فهان عليه اقتناؤهم لاتصال نسب أمه بهم، فاقتنى منهم ألوفاً، اشترى بعضهم بالمال والبعض الآخر أتاه على سبيل الهدية، وتكاثروا حتى بلغ عددهم ثمانية عشر ألفاً، فضاقت بهم بغداد، وضجر البغداديون من سوء تصرفهم، فابتنى لهم مدينة سامراً، وأقامهم فيها، وأطلق لهم الأرزاق، وجند منهم الجنود، ولا ريب أنهم كانوا عوناً له في تأييد سلطانه، والفوز في حروبه، ضد أعدائه من الروم والترك، ولكنهم كانوا من الجهة الأخرى سبيلاً إلى تقهقر الدولة العباسية بما كان من مطامعهم في الأموال واستئثارهم بالنفوذ، حتى أصبحت الدولة وبيت مالها وخلفاؤها عرضة لأغراضهم. انتهى من كتاب «تاريخ التمدن الإسلامي».

هذا كله تقطيع للأرحام لأجل الخلافة، ولو كانت الخلافة بالشورى ما انتطح فيها عنزان، ولا قتل الحسين بن علي كرّم الله وجهه جند عبيد الله بن زياد أمير الكوفة في كربلاء يوم عاشوراء سنة ٦١ هجرية، ومن تقطيع الأرحام المذكور في الآية قيام المختار بن أبي عبيد الله الثقفي بالكوفة مطالباً بدم الحسين لابتزاز الأموال، لا لوجه الله تعالى، داعياً إلى بيعة محمد بن الحنفية أخي الحسين من أبيه، ومحمد ابن الحنفية علم عدم صدقه فلم يكن راضياً عن عمله، فدعا إلى عبد الله بن الزبير وعلم عدم صدقه، فأرسل أخاه مصعباً فقتله.

لولا حب المال المغري بقطع الأرحام لم يبذل بنو أمية جهدهم في قتل دعاة العلوية، ولا قتل هشام بن عبد الملك أبا هاشم بن محمد ابن الحنفية بأن دسّ إليه من قتله بالسم في اللبن، لأن فرقة الكيسانية كانت تدعو إليه بعد أبيه وهو راجع إلى المدينة، فعهد بالخلافة قبل موته إلى محمد بن علي ابن عبد الله بن عباس، وهذا عهد إلى ابنه إبراهيم الإمام، لولا الطمع في المال والشهوات لم يطلب إبراهيم الإمام البيعة في خراسان باسم آل محمد إيهاماً لهم فرفضوا بذلك موقنين أنها ستكون في

العلويين لا في العباسيين، ولكن العباسيون استبدّوا بالملك وقتلوا العلويين تقتيلاً، كل ذلك تقطيع للأرحام مصداقاً للآية.

بايع أبو العباس السفاح وأخوه أبو جعفر المنصور سراً النفس الزكية من ذرية الحسن رضي الله عنه، لقد كان العباسيون والعلويون يطالبون معاً بزوال بني أمية، وكانوا أصدقاء، فلما استتب الأمر للعباسيين غدروا بأبناء عمهم، لولا أن الخلافة أصبحت لغرض المال لا غير لم يبح إبراهيم الإمام لأبي مسلم الخراساني أن يقتل الناس بمجرد التهمة، فبلغ من قتلهم ٦٠٠,٠٠٠ نفس قتلوا صبراً بدون حرب ولم يسلطه على مضر ويقول له إنهم هم العدو القريب الدار، ولم يقل له اقتل من شككت فيه، وإن استطعت ألا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل، وأيما غلام يبلغ خمسة أشبار واتهمته فاقتله.

يا ليت شعري، لمَ هذا كله؟ أليس ذلك لترك الشورى، ولحب المال وجمعه، لولا حب المال لم يقتل أبو مسلم جماعة من كبار الشيعة، وفيهم جماعة من النقباء، وكبار الدعاة، ومن هؤلاء الكبار أبو سلمة الخلال الذي نصر الدعوة العباسية بماله كما نصرها أبو مسلم بسيفه، فهذا لما اتهمه السفاح في نقل الخلافة للعلويين واستشار أبو مسلم في قتله قتلوه وقتلوا عماله في الأطراف، وهكذا فعلوا بسليمان بن كثير وهو شيخ جليل من أكبر دعاة العباسيين، غاية الأمر أنه اتهم بميله للعلويين، فقد بلغ أبا مسلم عنه مثل ما بلغه عن أبي سلمة، فأحضره، فقال له: أتعلم قول الإمام لي: «من اتهمته فاقتله»؟ قال: نعم. قال: فإني قد اتهمتك، فخاف سليمان، فقال: ناشدتك الله. قال: لا تناشدني، فأنت منطو على الغش. وأمر بضرب عنقه، وهكذا الكرماني وأولاده وغيرهم.

هنالك سئم الناس سفك الدماء، حتى إن أبا مسلم إذا طلب رجلاً أوصى وتكفن وتحنط، ولقد ثار لأجل ذلك بعض الأمراء من شيعة بني العباس وصاح: ما على هذا اتبعنا آل محمد أن تسفك الدماء، وأن يعمل بغير الحق، فتبعه ٣٠٠٠٠ رجل، فقتلهم كلهم أبو مسلم بجنوده، أليس هذا هو معنى الآية: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢]، أليس هذا يصدق عليهم وصف العمى والصمم في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٣]، وإن لم يكونوا كفاراً، أوَليس قتل أبي مسلم بأمر إبراهيم الإمام للعلويين وللشيعة، ولكل عربي، ولكل غلام بلغ خمسة أشبار من العرب هو نفس تقطيع الأرحام في الآية، لماذا هذا؟ للمال والله، للمال والله، فأين بيعة السفاح والمنصور للعلويين، أوَليس من المؤلم أن يبكي كبار العلويين على بني أمية من شدة ما ذاقوا من بني العباس، ويقول محمد بن عبد الله: ما بنو العباس إلا أقلّ خوفاً لله من بني أمية، وإن الحجة على بني العباس أوجب منها عليهم.

أفلا نعرف بهذا معنى قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤] فأين القرآن إذن. بأيّ كتاب أم بأيّ سنة؛ يقتل الناس بالتهمة؟ أليس هذا يخالف القرآن على خط مستقيم، وسترى إن شاء الله في سورة «الحجرات» بقية هذا الموضوع من قتل العلويين وبقية العباسيين وقتل أبي مسلم نفسه وغير ذلك، ولأكتف بما ذكرته في سورة «الشورى» وفي سورة «الأحقاف»، ليعلم المسلمون بعدنا أن هذا ملك لا خلافة، وأن الخلافة الإسلامية ليست على هذا النمط، وأن

هؤلاء لم يتبعوا القرآن، ولكن الذين بعدنا سيقرؤون ما كتبناه، ويعلمون أن اتباعهم في ذلك غرور وجهل، فيجب أن تكون الخلافة بالشورى، وأن يكون الخليفة تابعاً لمجلس الشورى، ويحرم عليه أن يعمل عملاً، أو يأخذ مالاً، أو يتصرف إلا بالشورى.

هذه هي الخلافة الإسلامية، ولو كان هؤلاء الخلفاء مقيدين بالشورى كعمر وعلي وأبي بكر لم يفعلوا ذلك كله ولم يقطعوا أرحامهم، لأن المال الذي طمعوا فيه ليسوا أحراراً في ادخاره وحوزه، والله هو الولي الحميد.

وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة السابعة في قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٢٢]، وبها تم تفسير سورة «محمد» صلى الله عليه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

تم بحمد الله تعالى وحسن توفيقه

الجزء الحادي والعشرون

من كتاب الجواهر في تفسير القرآن الكريم

ويليه

الجزء الثاني والعشرون

وأوله تفسير سورة «الفتح»

فهرس الجزء الحادي والعشرين من كتاب
تفسير الجواهر